الْقِصَّةُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

الجزء الأول

الإمام الأكبر

الدكتور / محمد سيد طنطاوى

شيخ الأزهر



اسم الكتاب: القصة فى القرآن الكريم (الجزء الأول)
اسم المؤلف: دكتور : محمد سيد طنطاوى
تاريخ النشر: طبعة أولى - نوفمبر ١٩٩٦

رقم الإيداع: ٩٦/١١٧١٠
الترقيم الدولى: I . S . B . N 977 - 14 - 0508 -X

الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
المركز الرئيسى: ٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة
مدينة السادس من أكتوبر
ت: ٣٣٠٢٨٧ - ٣٣٠٢٨٩ /١١٠
فاكس: ١١/٣٣٠٢٩٦٠
مركز التوزيع: ١٨ ش كامل صدقى - الفجالة - القاهرة .
ت: ٥٩٠٩٨٢٧ - ٥٩٠٨٨٩٥ .
فاكس: ٠٢/٥٩٠٣٣٩٥
ص.ب: ٩٦ الفجالة
ادارة النشر: ٢١ ش أحمد عرابى - المهندسين - القاهرة
ت: ٣٤٦٦٤٣٤ - ٠٢/٣٤٧٢٨٦٤ .
فاكس: ٠٢/٣٤٦٢٥٧٦
ص.ب: ٢٠ امبابة



مقـــــدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ومن والاه . . وبعد .

١ - فإن الذى يتدبر القرآن الكريم ، يرى جانبا كبيرا من آياته وسوره ، قد اشتمل على قصص الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام- وعلى قصص غيرهم من الأخيار أو الأشرار . .

يرى ذلك بصورة أكثر تفصيلا فى السور المكية ، التى كان نزولها قبل الهجرة ؛ لأنها- فى الأعم الأغلب- اهتمت بإقامة الأدلة على وحدانية الله- تعالى-وعلى صدق رسول الله ﷺ فيما يبلغه عن ربه ، وعلى أن هذا القرآن من عند الله - تعالى- وعلى أن البعث ومايترتب عليه من ثواب أو عقاب ، حق وصِدْق .

وهذه الأدلة ساقتها السور المكية ، تارة عن طريق قصص الأنبياء مع أقوامهم ، وتارة عن غير ذلك من الطرق الأخرى ، كالنظر فى ملكوت السموات والأرض ، وفى خلق الإنسان وغيره من سائر المخلوقات .

أما السور المدنية- وهى التى كان نزولها بعد الهجرة- فهى فى الأعم الأغلب اهتمت- بعد أن رسخت العقيدة السليمة فى قلوب المؤمنين- بتفصيل أحكام الشريعة العملية ، كالعبادات ، والمعاملات ، والحدود ، والعلاقات الاجتماعية ، وتنظيم شئون الدولة الإسلامية ، داخليا وخارجيا .

فمثلا من السور المكية التى اشتمل جانب كبير منها ، على قصص الأنبياء ، سور : الأعراف ويونس وهود ويوسف والشعراء والقصص والصافات . . الخ

٢ - والقصة فى كل زمان ومكان لها أثرها العميق فى النفوس ؛ لما فيها من عنصر التشويق ، وجوانب الاعتبار والاتعاظ . .

ولاتزال على رأس الوسائل التى دخل منها الهداة والمصلحون والقادة ، إلى قلوب الناس وعقولهم ، لكى يسلكوا الطريق القويم ، ويعتنقوا الفضائل ، ويجتنبوا الرذائل ، ويسلموا وجوههم لله الواحد القهار .

ومن هنا ساق القرآن ماساق من قصص يمتاز بسمو الغاية ، وشريف المقصد ، وصدق الكلمة والموضوع ، وتحرى الحقيقة بحيث لاتشوبها شائبة من الوهم أو الخيال أو مخالفة الواقع . .

كما أن من مميزات قصص القرآن : اشتماله على طرق شتى فى التربية والتهذيب ، تارة عن طريق الحوار ، وأحيانا عن طريق سلوك طريق الحكمة والاعتبار ، وطورا عن طريق التخويف والإنذار .

نرى ذلك - على سبيل المثال - فى قوله - تعالى - :

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣) ﴾ [هود]

٣ - وللقصة فى القرآن الكريم أهداف سامية ، ومقاصد عالية ، وحكم متعددة ، من أهمها :

(أ) بيان أن الرسل جميعا قد أرسلهم الله- تعالى : برسالة واحدة فى أصولها ، ألا وهى إخلاص العبادة لله الواحد القهار ، وأداء التكاليف التى كلف- سبحانه- خلقه بها . وقد وردت آيات كثيرة تدل على أن أول كلمة قالها كل رسول لقومه ، هى : أمرهم بعبادة الله - تعالى -ونهيهم عن عبادة أحد سواه .

فهذا نوح - عليه السلام - يقول لقومه- كما حكى القرآن عنه - :

﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [**الأعراف** : ٥٩]

وهذا هود - عليه السلام - يقول لقومه :

﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [**الأعراف** : ٦٥]

وهذا صالح - عليه السلام - يقول لقومه :

﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [**الأعراف** : ٧٣]

وهذا شعب - عليه السلام - يقول لقومه :

﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [**الأعراف** : ٨٥]

فهذه الجملة الكريمة حكاية لما وجهه هؤلاء الأنبياء لقومهم من إرشادات وهدايات .

أى : قالوا لهم بكل لطف وأدب : اعبدوا الله وحده لاشريك له ، فإنه هو المستحق للعبادة ، أما سواه فلا يملك لنفسه نفعا ولاضرا .

ويحكى القرآن الكريم هذا المعنى على لسان كل نبى فيقول :﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥) ﴾ [الأنبياء : ٢٥]

أى : وماأرسلنا من قبلك يامحمد من رسول آخر ، إلا وأفهمناه عن طريق وحينا ، أنه لاإله يستحق العبادة والطاعة إلا أنا ، فعليه أن يأمر قومه بذلك ، وأن ينهاهم عن عبادة غيرى .

(ب) بيان أن هذا القرآن من عند الله- تعالى - وأن ما اشتمل عليه هذا القرآن من قصص للسابقين ، لاعلم للرسول ﷺ به وإنما علمه بعد أن أوحاه الله -تعالى- إليه ، وأنه صادق فيما يبلغه عن ربه .

استمع إلى القرآن وهو يقرر ذلك فى مواطن متعددة ، فيقول فى أعقاب حديث طويل عن قصة نوح- عليه السلام- مع قومه :﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩) ﴾ [هود : ٤٩]

أى : تلك القصة التى قصصناها عليك عن نوح وقومه من أخبار الغيب الماضية ، التى لايعلم دقائقها وتفاصيلها أحد سوانا ، ونحن نوحى إليك ونعرفك بها عن طريق وحينا الصادق الأمين .

وهذه القصة وأمثالها ﴿ ماكنت تعلمها ﴾ أنت يامحمد ، وماكان يعلمها قومك- أيضا- بهذه الصورة الصادقة الحكيمة ﴿ من قبل ﴾ هذا الوقت الذى أوحيناها إليك فيه .

ومادام الأمر كذلك ﴿ فاصبر ﴾ صبرا جميلا على تبليغ مأأمرك الله بتبليغه ، كما صبر أخوك نوح من قبلك ، واعلم أن العاقبة الحسنة للمتقين ، الذين صانوا أنفسهم عن كل مالا يرضى الله- تعالى .

فالآية الكريمة تعقيب حكيم على قصة نوح- عليه السلام- قصد به الامتنان على النبى ﷺ كما قصد به الموعظة والتوجيه .

أما الامتنان فنراه فى قوله- سبحانه - : ﴿ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا ﴾ وأما الموعظة فنراها فى قوله - تعالى - ﴿ فَاصْبِرْ ﴾

وأما التوجيه فنراه فى قوله- عز وجل - : ﴿ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

وشبيه بذلك ماقاله - سبحانه - فى أعقاب الحديث الطويل عن قصة يوسف - عليه السلام - مع أخوته ومع غيرهم قال - تعالى - : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ [يوسف]

أى : ذلك الذى قصصناه عليك يامحمد من قصة أخيك يوسف ، من الأخبار الغيبية التى لايعلمها علما تاما شاملا إلا الله- تعالى- وحده ، ونحن ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ ونخبرك به ؛ لما فيه من العظات والعبر .

وأنت يامحمد ماكنت حاضرا مع إخوة يوسف ، وقت أن أجمعوا أمرهم للمكر به ، وللاعتداء عليه ، وقد أخبرناك بذلك للاعتبار والاتعاظ . .

ونرى مثل هذا المعنى- أيضا - وهو الدلالة على أن هذا القران من عند الله - تعالى- وحده فيما قصه- سبحانه- علينا بعد حديث طويل عن جانب من قصة موسى- عليه السلام ، وعن جانب من قصة مريم . .

أما بالنسبة لقصة موسى- عليه السلام ـ فقد قال - سبحانه - :

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) ﴾ [القصص]

أى : لم تكن يامحمد حاضرا وقت أن كلفنا أخاك موسى بحمل رسالتنا ، وكان ذلك عند الجانب الغربى لجبل الطور - أيضا - من الشاهدين لما أوحيناه إليه ، ولكنا أخبرناك بذلك بعد أن خلت بينك وبين موسى أزمان طويلة ، ولم تكن- أيضا - مقيما فى أهل مدين وقت أن حدث ماحدث بين موسى ـ عليه السلام ـ وبين الشيخ الكبير وابنتيه من محاورات .

ولم تكن - كذلك - بجانب جبل الطور وقت أن نادينا أخاك موسى ، وأنزلنا إليه التوراة ؛ لتكون هداية ونورا لقومه . .

فالمقصود بهذه الآيات الكريمة : بيان أن هذا القرآن من عند الله- تعالى- ، وأن الرسول ﷺ لم يكن عالما بتلك الأحداث السابقة ، وإنما أخبره الله بها عن طريق قرآنه الكريم ، ووحيه الصادق الأمين .

وأما بالنسبة لقصة مريم ، فقد قال- سبحانه- خلالها :

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤) ﴾ [آل عمران]

أى : ذلك القصص الحكيم الذى قصصناه عليك- يامحمد- فيما يتعلق بما قالته امرأة عمران ، وماقاله زكريا ، وماقالته الملائكة لمريم . . ذلك كله من أخبار الغيب ، التى ماكنت تعلمها أنت ولاقومك ، وإنما الذى يعلمها هو الله وحده . وأنت ماكنت حاضرا مع زكريا- عليه السلام- ولا مع الذين ناقشوه فى كفالة مريم ، واقترعوا على ذلك فكانت كفالتها من نصيب زكريا- عليه السلام - ومن الواضح أن المقصود بهذه الآية الكريمة ، ومايشبهها من آيات كثيرة : إقامة الأدلة على أن هذا القرآن من عند الله - تعالى- وأن ماإشتمل عليه من قصص السابقين لم يكن للرسول ﷺ علم به ، ولم يكن- أيضا - لغيره علم صحيح به .

فجاء القرآن الكريم بهذا القصص ، وحكاه بالحق والصدق ؛ ليكون عبرة وعظة للناس .

قال - تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران : ٦٢]

وقال ـ سبحانه ـ :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ .

[الكهف : ١٣]

وقال- عز وجل- : ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ [الأعراف : ٧]

(جـ) كذلك من أهداف القصة فى القرآن الكريم : تثبيت فؤاد النبى ﷺ وتخفيف ماأصابه من قومه ، وحثه على الاقتداء بإخوانه ، وتبشيره بأن العاقبة الطيبة ستكون له . .

أما تثبيت فؤاده عن طريق قصص الأنبياء السابقين ، فنراه فى آيات كثيرة ، منها : قوله تعالى : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) ﴾ [هود]

وقد جاءت هذه الآية الكريمة فى أواخر سورة «هود» التى تحدثت عن جانب من قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب- عليهم السلام- ، مع أقوامهم ، وفيها يبين الله -تعالى- أهم الفوائد التى تعود على الرسول ﷺ ، من وراء إخباره بأحوال الأنبياء السابقين مع من أرسلوا إليهم .

والمعنى : وكل نبأ من أنباء الرسل الكرام السابقين نقصه عليك أيها الرسول الكريم

ونخبرك عنه ، المقصود به تثبيت قلبك ، وتقوية يقينك ، وتسلية نفسك ونفوس أصحابك ، عما لحقكم من أذى ، فى سبيل تبليغ دعوة الحق إلى الناس . .

ولقد جاءك يامحمد فى هذه السورة الكريمة وغيرها من سور القرآن الكريم : الحق الثابت المطابق للواقع ، والذكرى النافعة للمؤمنين بما جئت به .

وأما التسلية له عن طريق قصص الأنبياء السابقين ، والتسرية عن قلبه ﷺ ودعوته إلى الاقتداء بهم فى صبرهم . . فكل ذلك نراه فى آيات كثيرة . .

منها قوله- سبحانه- : ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) ﴾ [الذاريات]

وقد جاءت هذه الآيات الكريمة بعد حديث مركز عن جانب من قصة إبراهيم وموسى وهود وصالح ونوح- عليهم السلام - .

والمعنى : نحن نخبرك - يامحمد - بأنه ماأتى الأقوام الذين قبل قومك من نبى أو رسول ، يدعوهم الى عبادتنا وطاعتنا ، إلا وقالوا له ، كما قال قومك فى شأنك : هذا الذى يدعى الرسالة أو النبوة ساحر أو مجنون .

والمقصود بالآية الكريمة :التخفيف عن النبى ﷺ عما أصابه من مشركى قريش ، إذ يبين له- سبحانه- أن ماأصابه قد اصاب الرسل من قبله ، والمصيبة إذا عمت خفت .

ثم أضاف- سبحانه- إلى هذا بيانا آخر فقال : ﴿ أَتَوَاصَوْا ﴾؟!!

أى : أَوصَّى السابقون اللاحقين أن يقولوا لكل رسول يأتيهم من ربهم : أنت- أيها الرسول - ساحر أو مجنون؟

وقوله- سبحانه- : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ حكم عليهم بطغيانهم ؛ لأنهم لم يجمعهم تشابه القلوب ، والالتقاء على الكفر والفسوق والعصيان .

أى : أوصَّى بعضهم بعضا بهذا القول القبيح؟ كلا لم يوص بعضهم بعضا ، لأنهم لم يتلاقوا ، وإنما تشابهت قلوبهم ، فاتحدت ألسنتهم فى هذا القول المنكر .

ثم توجيه ثالث نراه فى قوله-تعالى- : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾

أى : فأعرض عنهم- أيها الرسول الكريم- وسر فى طريقك دون مبالاة بمكرهم وسفاهتهم ، فما أنت بملوم على الإعراض عنهم ، وماأنت بمعاقب منا على ترك

مجادلتهم . ودوام على التذكير والتبشير والإنذار مهما تقوّل المتقولون ، فإن التذكير بما أوحيناه إليك من هدايات سامية ، وآداب حكيمة . . ينفع المؤمنين .

وشبيه بهذه الآيات فى التخفيف عن الرسول ﷺ عما أصابه من أذى ، قوله - تعالى- : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) ﴾ [الحج]

وأما دعوته ﷺ إلى الاقتداء بإخوانه الأنبياء السابقين فى صبرهم ، فنراه فى آيات متعددة . .

منها قوله- سبحانه- : ﴿ أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام : ٩٠]

وقد جاءت هذه الآية الكريمة بعد أن ذكر الله - تعالى- لنبيه ﷺ فى الآيات السابقة عليها أسماء ثمانية عشر نبيا ، ثم أمره بالاقتداء بهم فقال : ﴿ أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾

أى : أولئك الأنبياء الذين ذكرناهم لك - يامحمد- ، هم الذين هديناهم إلى الحق ، وإلى الطريق المستقيم فبطريقتهم فى الإيمان بالله ، وفى ثباتهم على الحق ، كن مقتديا ومتأسيا .

وأما تبشيره ﷺ عن طريق قصص الأنبياء السابقين بأن النصر سيكون له ولأتباعه ، فنراه فى آيات كثيرة .

منها قوله- تعالى- : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤) ﴾ [الأنعام]

أى : ولقد كذب الأقوام السابقون رسلا كثيرين جاءوا لهدايتهم ، فكان موقف هؤلاء الرسل من هذا التكذيب والأذى الصبر والثبات ، واستمروا على صبرهم وثباتهم حتى أتاهم نصرنا الذى اقتضته سنتنا وأحكامنا التى لاتتخلف . .

ولقد جاءك- أيها الرسول الكريم- من أخبار اخوانك الأنبياء السابقين ، مافيه العظات والعبر ، فعليك أن تستبشر بأن النصر سيكون لك ولأتباعك .

ومن الأيات التى بشرت النبى ﷺ بأن العاقبة ستكون له ولأتباعه ، كما كانت للأنبياء السابقين وأتباعهم قوله- تعالى - : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) ﴾ [المجادلة]

وقوله- سبحانه- : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

وقوله- تعالى- : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ (٥١) ﴾ [غافر]

(د) كذلك من أهداف القصة فى القرآن الكريم : الاعتبار والاتعاظ . . .

قال - تعالى- : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) ﴾

[يوسف]

وهذه الآية الكريمة هى الآية الأخيرة التى ختم الله- تعالى- بها سورة يوسف- عليه السلام- ، التى اشتملت على أحسن القصص وأحكمه وأصدقه وأشده أثرا فى النفوس . .

أى : لقد كان فى قصص أولئك الأنبياء الكرام ، وماجرى لهم من أقوامهم ، عبرة وعظة لأصحاب العقول السليمة ، والأفكار القويمة ، بسبب ما اشتمل عليه هذا القصص من حكم وآداب وإرشادات . .

وماكان هذا الذى قصصناه حديثا مختلفا أو كاذبا ، وإنما هو حديث عن واقع حقيقى لحمته وسداه الصدق الذى لايحوم حوله الكذب ، والتأييد لما صح من الكتب السابقة التى امتدت إليها أيدى الفاسقين بالتحريف والتبديل ، والتفصيل والتوضيح للشرائع السابقة ، والهداية والرحمة لقوم يؤمنون به ، يعملون بما فيه من أمر أو نهى . .

والعبر والعظات التى نأخذها من قصص القرآن الكريم ، لها صور شتى منها : بيان حسن عاقبة المؤمنين ، الذين ثبتوا على الحق ، وابتعدوا عن الباطل ، وتابوا إلى الله- تعالى- توبة صادقة ، وشكروا الله ، تعالى- على نعمه ، بأن استعملوها فيما يرضيه لافيما يسخطه . .

ونرى نماذج لذلك فى قصة سليمان- عليه السلام - الذى آتاه الله- تعالى- ملكا لاينبغى لأحد من بعده ، فلم يبطره هذا الملك ، ولم تشغله عن ذكر الله -تعالى- ، بل قال - كما حكى القرآن عنه- : ﴿ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ [النمل : ٤٠]

ونرى نماذج لذلك فى قصة ذى القرنين ، الذى مكن الله- تعالى- له فى الأرض ، فاستعمل ماآتاه الله من قوة فى الخير لا فى الشر ، وفى الإصلاح لا فى الإفساد . .

ونرى نماذج لذلك من أصحاب الكهف ، الذى آمنوا بربهم ، وزادهم الله- تعالى- إيمانا على إيمانهم ، بسبب ثباتهم على الحق . .

ونرى نماذج لذلك فى قصة قوم يونس- عليه السلام- الذين استجابوا لدعوة الحق ، وصدقوا نبيهم فيما أخبرهم به ، وأخلصوا دينهم لله - تعالى- .

قال- تعالى- : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) ﴾ [يونس]

والمعنى : فهلاً عاد المكذبون إلى رشدهم وصوابهم ، فآمنوا بالحق الذى جاءتهم به رسلهم ، فنجوا بذلك من العذاب ، كما نجا منه قوم يونس- عليه السلام - بسبب ندمهم على فرط منهم ، وإيمانهم إيمانا صادقا ، وتوبتهم توبة نصوحا ، فعاشوا آمنين إلى حين انقضاء آجالهم فى هذه الدنيا . .

ومنها : بيان سوء عاقبة المكذبين ، الذين أصروا على كفرهم ، ولم يستمعوا لنصائح أنبيائهم ، واستحبوا العمى على الهدى ، وجحدوا نعم الله- تعالى- واستعملوها فى المعاصى لا فى الطاعات . .

ونرى نماذج لذلك فى قصة قارون الذى آتاه الله - تعالى- من النعم ماآتاه ، فلم يشكر الله - تعالى - على نعمه ، بل قالوا بكل غرور وصلف : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾

كما نرى نماذج لذلك فى قصة أهل سبأ [1] الذين قال الله- تعالى- فى شأنهم :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (١٧) ﴾ [سبأ]

والمعنى : لقد كان لقبيلة سبأ فى مساكنهم ، علامة واضحة على فضل الله- تعالى-

(١) ولفظ« سبأ» فى الأصل : اسم لرجل ينتهى نسبه إلى أول ملك من ملوك اليمن ، والمراد به هنا : الحى أوالقبيلة المسماة باسمه ، وكانوا يسكنون بمأرب على مسيرة ثلاثة أيام من صنعاء .

عليهم- حيث جعل لهم- سبحانه- بستانين أحدهما عن يمين مساكنهم ، والثانى عن شمالها .

وقال الله ـ تعالى ـ لهم على ألسنة الصالحين منهم :

﴿ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ نعمه ، فأنتم تسكنون فى بلدة طيبة ، فيها كل ماتحتاجونه ، وقد منحها لكم الله الرحيم بكم ، الغفور لذنوبكم ، فاشكروه على ذلك .

﴿ فَأَعْرَضُوا ﴾ أى : فأعرضوا عن نصح الناصحين ، وجحدوا نعم الله ، فكانت نتيجة ذلك ، أن أرسل الله- تعالى- عليهم السيل المدمر ، وتحولت البساتين اليانعة ، إلى أماكن ليس فيها سوى الثمار والأشجار التى لاتسمن ولاتغنى من جوع . .

وهذا الذى فعلناه بهم ، سببه : جحودهم وبطرهم ، ومن سنتنا أننا لانعاقب بهذا العقاب الرادع إلا من جحد نعمنا ، وفسق عن أمرنا .

والمتدبر للقرآن الكريم يراه قد ساق لنا كثيرا من قصص الجاحدين ، ثم يبين لنا سوء مصيرهم . .

ومن ذلك أنه- سبحانه- بعد أن ذكر لنا جانبا من قصص نوح وإبراهيم ولوط وشعيب وهود وصالح وموسى . . مع أقوامهم ، عقب على ذلك بقوله- تعالى :-

﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

[العنكبوت : ٤٠]

أى : فكلاً من هؤلاء المذكورين كقوم نوح وإبراهيم ولوط . . أخذناه وأهلكناه بسبب ذنوبه ، التى أصر عليها ولم يرجع عنها .

فمنهم من أرسلنا عليه ﴿ حَاصِباً ﴾ أى : ريحا شديدة رمته بالحصاة كقوم لوط - عليه السلام - ومنهم من أخذته الصيحة الشديدة المهلكة كقوم صالح وشعيب - عليهما السلام - .

ومنهم من خسفنا به الأرض وهو قارون .

ومنهم من أغرقناه كما فعلنا مع قوم نوح ومع فرعون وقومه .

وماكان الله - تعالى - مريدا لظلمهم ، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم ، وأوردوها موارد المهالك ، بسبب إصرارهم على كفرهم وجحودهم .

هذه بعض الأهداف والمقاصد التى من أجلها ساق القرآن ماساق من قصص ، امتاز بسمو غاياته ، وشريف مقاصده ، وعلو مراميه . .

وهناك أهداف أخرى ، يستنبطها كل ذى عقل سليم ، وماذكرناه هو قليل من كثير ، وحسبك من القلادة مأحاط بالعنق .

١٢ من صفر سنة ١٤١٦هـ

١٠ يوليو سنة ١٩٩٥م

أ.د: محمد سيد طنطاوى

شيخ الأزهر

(١) قصة آدم - عليه السلام -

١ - وردت قصة آدم- عليه السلام- فى سور متعددة من القرآن الكريم ، منها سور : ﴿الحِجر﴾ و ﴿ص﴾ ، ﴿الأعراف﴾ ، ﴿الإسراء﴾ و ﴿الكهف) و ﴿البقرة﴾ .

وهناك آيات تحدثت عن خَلْقه- عليه السلام- ، وأخرىَ تحدثت عن أمر الملائكة بالسجود له ، وثالثة حكت موقفَ إبليس من هذا الأمر ، ورابعة ذكرت استخلاف آدم فى الأرض ، وخامسة تحدثت عن إسكانه فى الجنة ، وسادسة ذكرت إغواء إبليس له وماترتب على ذلك من عقوبات ، وسابعة تحدثت عن تحذير بنى آدم من الشيطان . .

وبعض السور وضحت معظم هذه العناصر فى قصة واحدة ، وبعضها تحدث عن عنصر أو عنصرين أو أكثر منها ، ولكن بأسلوب له مزاياه وتأثيره وتوجيهاته ، وتتحقق فيه البلاغة- التى هى رعاية الكلام لمقتضى الحال- فى أبهى صورها وأسماها وأحكمها .

وسنحاول- بإذن الله- أن نتناول كل عنصر من واقع حديث القرآن عنه ، ثم نعقب على ذلك ببيان مايؤخذ من هذه القصة من دروس نافعة ، وعظات بليغة ، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

٢ - قصة خلق آدم- عليه السلام- :

ومن مزايا القرآن الكريم ، أنه يخاطب الناس بما يعنيهم من أمور دينهم ودنياهم وآخرتهم ، ولايكلفهم أن يبحثوا عن أمور غيبية ، لاعلاقة لها بمصالحهم ومنافعهم ، ولافائدة من وراء البحث فيها . .

إنه لم يحدثهم عما سبق آدم- عليه السلام- من مخلوقات لاعلم لهم بها ، وإنما علمها عند الله- تعالى- ، وإنما حدثهم عن قصة خلق أبيهم آدم- عليه السلام- ، وعما تعرض له من أحداث ، لكى يأخذوا منها العظات والعبر . .

وقد جاء الحديث عن خلق آدم- عليه السلام- فى سور متعددة ، منها قوله- تعالى- :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ [١] مِّنْ حَمَإٍ [٢] مَّسْنُونٍ [٣] (٢٦) وَالْجَانَّ[٤] خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ (٢٧) ﴾ [الحجر]

والمراد بالإنسان هنا : آدم - عليه السلام - ، لأنه أصل النوع الإنسانى ، وأول فرد من

---

(١) والصلصال : الطين اليابس الذى يصلصل . أى : يُحدِث صوتا إذا حُرِّك أو نُقِر عليه ، كما هو الشأن فى الفخار إذا حُرِّك أو نُقِر عليه .

(٢) والحمأ : الطين إذا اشتد سواده وتغيرت رائحته . (٣) والمسنون : المصور من سنَّ الشىء إذا صوره

(٤) والمراد بالجان هنا : أبو الجن عند جمهور المفسرين . وقيل : هو إبليس . وقيل :هو اسم لجنس الجن .

أفراده ، كما قال سبحانه : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) ﴾ [النساء]

والمقصود بالنفس الواحدة فى هذه الآية الكريمة : آدم- عليه السلام-

أى : خلق- سبحانه- آدم- عليه السلام- من طين يابس شديد السواد ، مصور على هيئة معينة ، لايعلم تفاصيلها ودقائقها إلا هو- سبحانه- ، وخلق الجان من قَبْلِ خلق آدم ﴿ من نار السموم ﴾ أى : من النار الحارة التى تقتل ، وسميت سموما ؛ لأنها لشدة حرارتها وقوة تأثيرها تنفذ فى مسام البدن .

أخرج الامام مسلم فى صحيحه عن عائشة- رضى الله عنها- أن رسول الله ﷺ قال : «خُلقتْ الملائكة من نور ، وخُلقت الجان من مارج من نار ، وخُلِق آدم مما وصف لكم» .

وشبيه بهاتين الآيتين قوله- تعالى - فى سورة الرحمن : ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ[1] (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ (١٥) ﴾ أى : من اللهب الخالص ، أو من خليط من لهب النار .

والذى يتدبر القرآن الكريم ، يرى أن الله- تعالى- قد وضح فى آيات متعددة أطوار خلق آدم- عليه السلام- .

فقد بين فى بعض الآيات أنه خلقه من تراب ، كما فى قوله - تعالى - :﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٥٩) ﴾ [آل عمران]

وبين فى آيات أخرى أنه - سبحانه - خلقه من طين ، كما فى قوله - تعالى- :

﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ﴾ [السجدة]

وبين فى آية سورة الحِجْر أنه خلقه من صلصال من حمأ مسنون . .

وبين فى آية سورة الرحمن أنه خلقه من صلصال كالفخار .

ولا تعارض بين هذه الآيات التى تحكى أن آدم - عليه السلام - قد خلق من تراب ، أو من طين ، أو من صلصال من حمأ مسنون ، أو من صلصال كالفخار ؛ لأن كل آية تتحدث عن مرحلة من مراحل خلقه ـ عليه السلام ـ ، لأن هذا التراب صار طينا ، ثم خُمِّر هذا الطين فصار حمأ مسنونا ، ثم يبس فصار صلصالا كالفخار .

فالآيات التى تحدثت عن خَلْق آدم - عليه السلام - لا يصادم بعضا ، وإنما يؤيد بعضها بعضا .

---

(١) والفخار : الخزف المجوف الذى صار كذلك بعد أن أدخل فى النار

وقد أكد ذلك بعض المفسرين فقال : عند تفسيره لآية سورة الحجر : «وهذا الطور - وهو خلق آدم -عليه السلام - من صلصال من حمأ مسنون - هو آخر أطوار خلق آدم ، وأول ابتدائه أنه كان ترابا متفرق الأجزاء ، ثم بُلَّ - أى : التراب - فصار طينا ، ثم ترك حتى اسود وصار حمأ مسنونا ، ثم يبس فصار صلصالا . .

وعلى هذه الأحوال والأطوار ، تتخرج الآيات الواردة فى أطواره الطينية ، كآية خلقه من تراب ، وآية خلقه من طين ، وهذه الآية التى نحن فيها . .»[1] .

والمقصود من هذه الآيات الكريمة : التنبيه على عجيب صنع الله - تعالى - ، وعظيم قدرته ، حيث أخرج - سبحانه - من هذه المواد بشرا سويا فى أحسن تقويم ، وتذكير بنى آدم بفضلهم على غيرهم ، حيث خلق أباهم آدم - عليه السلام - من تلك العناصر ، وأمر الملائكة بالسجود له ، وفى ذلك ما فيه من تكريم وتشريف له ولهم . .

وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (٧٠) ﴾ [الإسراء]

٣ - استخلاف الله - تعالى - لآدم فى الأرض .

شاء الله - تعالى - واقتضت حكمته ، أن يخلق آدم من طين ، وأن يستخلفه هو وذريته فى الأرض ليعمروها ، وأخبر - سبحانه - الملائكة المقربين بما أراده وقضاه . .

وحكى القرآن الكريم ذلك فى آيات منها قوله - تعالى - فى سورة البقرة :

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٤٣ .

والمعنى : واذكر أيها الرسول الكريم وقت أن قال ربك للملائكة[1] ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ .

وخطاب الله - تعالى - لملائكته بأنه سيجعل فى الأرض خليفة ، ليس المقصود منه مشورتهم ؛ لأنه - سبحانه - هو صاحب الخلق والأمر . .

وإنما خاطبهم بذلك من أجل ما ترتب عليه من سؤالهم عن وجه الحكمة من هذه الخلافة ، وما أجيبوا به بعد .

أو من أجل تعليم العباد المشاورة فى أمورهم قبل أن يقدموا عليها ، وعرضها على ثقاتهم ونصحائهم ، وإن كان هو - سبحانه - بعلمه وحكمته البالغة غنيا عن المشاورة . .

ثم حكى - سبحانه - إجابة الملائكة فقال : ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ[2] فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ .

والتسبيح : مشتق من السبح ، وهو المر السريع فى الماء أو فى الهواء ، فالمسبح مسرع فى تنزيه الله وتبرئته من كل ما لا يليق .

والتقديس : التطهير والتعظيم ، ووصفه - سبحانه - بما يليق به من صفات الكمال . فيكون التسبيح نفى مالا يليق ، والتقديس إثبات ما يليق .

والمعنى : أتجعل فى الأرض يا إلهنا من يفسد فيها ، ويريق الدماء ، والحال أننا نحن ننزهك عما لا يليق بعظمتك ، تنزيها ملتبسا بحمدك والثناء عليك ، ونطهر ذكرك عما لا يليق بك تعظيما لك وتمجيدا ؟ .

وقولهم هذا : ليس إنكارا لفعله - تعالى - ، ولا شكا فى حكمته ، ولا تنقصا لخليفته ، لأنهم أولياؤه المقربون ، وعباده المكرمون . .

---

(١) والملائكة : جمع ملك ، وهم جند من خلق الله - تعالى - ، ركز الله فيهم العقل والفهم ، وفطرهم على الطاعة ، وأقدرهم على التشكل بالأشكال الجميلة المختلفة ، وعلى الأعمال العظيمة الشاقة ، ووصفهم -سبحانه - فى كتابه بأوصاف كثيرة ،
منها : أنهم ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ .
ومنها أنهم ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾
والخليفة : من يخلف غيره وينوب منابه ، والمراد به آدم - عليه السلام - لأنه كان خليفة الله - تعالى - فى الأرض ، وكذلك سائر الأنبياء ، استخلفهم الله فى عمارة الأرض ، وسياسة الناس وتكميل نفوسهم ، وإجراء أحكامه عليهم ، وتنفيذ أوامره فيهم .

(٢) والفساد : الخروج عن الاستقامة والاعتدال ، ويضاده الصلاح .
والسفك : الصب والإهراق ، يقال : سفكت الدمع والدم سفكا ، إذا صببته ، والمراد به : حصول التقاتل بين الأفراد ظلما وعدوانا .

وإنما قولهم هذا ، من باب الخوف من أن يكون قد وقع تقصير منهم فى عبادته -سبحانه - فأسرعوا إلى تبرئة أنفسهم من ذلك .

أو هو من باب استطلاع الحكمة ، فى خلق نوع من الكائنات يصدر منه الإفساد فى الأرض ، وسفك الدماء . .

والملائكة لا يعلمون الغيب ، فلابد أن يكونوا قد علموا ماذا سيكون من الفساد في الأرض ، وسفك الدماء ، بوجه من الوجوه التى يطلع الله بها على غيبه المصطفين الأخيار من خلقه .

قال الإمام ابن كثير فى توضيح هذا المعنى : قوله - تعالى - : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ... ﴾ أرادوا : أن من هذا الجنس من يفعل ذلك ، وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص ، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية ، فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من الخلق ، من صلصال من حمأ مسنون .

أو فهموا من الخليقة أنه الذى يفصل بين الناس ما يقع بينهم من مظالم ، ويردعهم عن المحارم والمآثم .

وقول الملائكة هذا ، ليس على وجه الاعتراض على الله ، ولا على وجه الحسد لبنى آدم ، لما قد يتوهمه البعض ، وإنما : هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة فى ذلك ، يقولون : يا ربنا ما الحكمة فى خلق هؤلاء ، مع أن منهم من يفسد في الأرض ، ويسفك الدماء ، فإن كان المراد عبادتك ، فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، ولا يصدر منا شيء يخالف أمرك ، فهلا وقع الاقتصار علينا لعمارة هذه الأرض؟» .

وقد رد الله - تعالى - عليهم بقوله : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾

أى : إنى أعلم من المصلحة الراجحة فى خلق هذا الصنف من البشر ، واستخلافه فى الأرض ، ما لا تعلمون أنتم .

فإنى سأجعل فيهم الأنبياء ، وأرسل فيهم الرسل ، وسيكون منهم الصديقون والشهداء والصالحون . .

فالجملة الكريمة : إرشاد للملائكة إلى الأمر الذى من شأنه أن يقف بهم عند حدود الأدب اللائق بمقام الخالق ، وتنبيه إلى أنه - تعالى - عالم بما لايحيط به علم أحد من خلقه ، فله - سبحانه - أن يفعل ما يشاء .

قال بعض العلماء : «وفى الآية الكريمة تسلية للنبى ﷺ عن تكذيب بعض الناس له ، لأنه إذا كان الملأ الأعلى قد مثلوا على أنهم يختصمون ، ويطلبون البيان والبرهان

والحكمة فيما لا يعلمون ، فأجدر بالناس أن يكونوا معذورين ، وبالأنبياء أن يعاملوهم كما عامل الله - تعالى - الملائكة المقربين .

أى : فعليك يا محمد أن تصبر على هؤلاء المكذبين ، وترشد المسترشدين»[1] .

ثم بين - سبحانه - جانبا من حكمة خلق آدم ، وجعله خليفة فى الأرض فقال - تعالى - ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

أى : وألهم الله - تعالى - آدم معرفة الأشياء التى خلقها فى الجنة ، كما ألهمه معرفة أسمائها ومنافعها وخواصها . .

ثم عرض - سبحانه - هذه المسميات على الملائكة ، وقال لهم على سبيل التعجيز : أخبرونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين فيما اختلج فى خواطركم ، من أنى لا أخلق خلقا إلا وأنتم أعلم منه وأفضل .

ثم حكى - سبحانه - ما أجاب به الملائكة فقال : ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ[2] لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ .

أى : قال الملائكة على سبيل الاعتراف والعجز التام عن معرفة أسماء تلك المسميات المعروضة عليهم بأبلغ وجه ؛ جل شأنك - يا ربنا - ، لا علم لنا بشىء إلا ما علمتنا إياه ، إنك أنت - يا ربنا - العليم بكل شىء ، الحكيم فى خلقك وأمرك ، وفى تعليمك من تشاء ، ومنعك من تشاء .

وهنا أمر الله - تعالى - آدم - عليه السلام - أن يخبر الملائكة بالأسماء التى سئلوا عنها ، بعد أن عجزوا عن معرفتها فقال : ﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ .

ففى هذه الآية الكريمة : أخبرنا الله - تعالى - أنه قد أذن لآدم - عليه السلام - فى أن يخبر الملائكة بالأسماء التى خفيت عليهم معرفتها ، ليظهر لهم فضل آدم ، ويزدادوا اطمئنانا على إسناد الخلافة إليه ، إنما هو تدبير قائم على حكمة بالغة .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ صـ ٦٩

(٢) ولفظ : «سبحان» اسم مصدر بمعنى التسبيح ، أى : التنزيه ، وهو منصوب بفعل مضمر لا يكاد يستعمل معه .

وفى قوله - سبحانه - للملائكة : ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ... ﴾ : تعريض بمعاتبتهم على ترك الأولى والأليق ، حيث بادروا بالسؤال عن الحكمة ، وكان الأولى والأليق أن يأخذوا بالأدب المناسب لمقام الألوهية ، فيتركوا السؤال عنها ، إلى أن يستبين لهم أمرها بوجه من وجوه العلم .

٤ - ومن الدروس النافعة ، والفوائد الجليلة التى تؤخذ من هذه الآيات : أن الله -تعالى- قد اختار آدم وذريته ليكونوا خلفاء الله - تعالى - فى أرضه ، لكى يصلحوها ، ويقدموا العمل الصالح الذى يجعلهم يحيون حياة طيبة . .

وأن العلم على رأس الأسباب التى هيأت آدم - عليه السلام - ليكون خليفة الله -تعالى - على هذه الأرض .

وأن علم آدم - عليه السلام - كان مستمدا من تعليم الله - تعالى - إياه ، وأن العلم الذى يحصل عن طريق النظر والفكر ، قد يعتريه الخلل ، ويحوم حوله الخطأ ، بخلاف العلم الذى يتلقاه الإنسان من تعليم الله - تعالى - له ، فإنه يكون علما مطابقا للواقع ، ولا يخشى من صاحبه أن يحيد عن طريق الإصلاح ، وصاحب هذا العلم هو الذى يصلح للخلافة فى الأرض . ومن هنا كانت السياسة الشرعية ، أرشد من كل سياسة ، والأحكام النازلة من السماء أعدل من القوانين الناشئة فى الأرض .

(٢) سجود الملائكة لآدم
وموقف إبليس من ذلك

٥ - تكرر الحديث فى القرآن الكريم عن أمر الله - تعالى - للملائكة بالسجود لآدم -عليه السلام - وعن امتناع إبليس عن الامتثال لأمر الله - تعالى - فى سور متعددة، منها سور: البقرة، والأعراف والحجر والإسراء والكهف وطه و ص .. ففى سورة البقرة، نرى قول الله تعالى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤) ﴾

والسجود لغة : التذلل والخضوع مع انخفاض بانحناء وغيره . وخص فى الشرع بوضع الجبهة على الأرض بقصد العبادة .

وللعلماء فى كيفية السجود الذى أمر الله به الملائكة لآدم أقوال : أرجحها أن السجود المأمور به فى الآية، يحمل على المعنى المعروف فى اللغة .

أى : أن الله - تعالى - أمرهم بفعل تجاه آدم يكون مظهرا من مظاهر التواضع والخضوع له تحية وتعظيما، وإقرارا له بالفضل، دون وضع الجبهة على الأرض الذى هو عبادة، إذ عبادة غير الله - تعالى - شرك يتنزه عنه الملائكة .

وأمر الله - تعالى - الملائكة بالسجود لآدم - عليه السلام - هو لون من الابتلاء والاختبار ليميز الله الخبيث من الطيب، وينفذ ما سبق به العلم، واقتضته الحكمة .

وقوله سبحانه : ﴿ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ[1] أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ : بيان لما حدث من الملائكة، ومن إبليس .

أى : واذكر - أيها العاقل - لتعتبر وتتعظ، وقت أن قال ربك - عز وجل - للملائكة : اسجدوا لآدم سجود تعظيم وتكريم لا سجود عبادة، فامتثلوا أمره - تعالى - وسجدوا

---

(١) وإبليس : اسم مشتق من الإبلاس، وهو الحزن الناشىء عن شدة اليأس . وفعله أبلَس ..
وقوله : ﴿أبى﴾ من الإباء بمعنى الامتناع عن الفعل أنفة مع التمكن منه .
وقوله : ﴿واستكبر﴾ أى : تعاظم وتكبر واغتر على غيره .

جميعا ، إلا إبليس فإنه امتنع عن ذلك أنفة وتكبرا وغرورا ، وكان بسبب فعله هذا من الجاحدين لنعم الله - تعالى - ، العاصين لأمره ، البعيدين عن رحمته . هذا ، وللعلماء فى كون إبليس من الملائكة أولا قولان :

أحدهما : أنه كان منهم ، لأن الله - تعالى - أمره بالسجود لآدم ، ولو لم يكن منهم لما توجه إليه الأمر بالسجود ، ولأن الأصل فى المستثنى أن يكون داخلا تحت اسم المستثنى منه ، حتى يقوم دليل على أنه خارج عنه .

والثانى : أنه ليس منهم لقوله - تعالى - : ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ ، فهو أصل الجن ، كما أن آدم أصل الإنس ، ولأنه خلق من نار ، والملائكة خلقوا من نور ، ولأن له ذرية ولا ذرية للملائكة .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - فى سورة الكهف : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً (٥٠) ﴾ .

والمعنى واذكر - أيها العاقل - لتعتبر وتتعظ ، وقت أن قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فامتثلوا أمرنا ، وسجدوا جميعا ، إلا إبليس فإنه أبى واستكبر ولم يسجد ، لأنه كان من الجن الذى خلقه الله - تعالى - من النار ، فخرج بذلك عن طاعتنا ، واستحق لعنتنا وغضبنا وما دام الأمر كذلك ، فابتعدوا عنه يا بنى آدم ، واحذروا وسوسته ، واجتنبوه هو وذريته لأنهم لكم أعداء ، وأن الذى يتخذه هو وذريته أولياء ، يكون من الواضعين للشىء فى غير موضعه ، ومن المستبدلين للذى هو أدنى بالذى هو خير ، إذ تركوا طاعة الله -تعالى - وأطاعوا إبليس وذريته .

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد ذكّرت بنى آدم بالعداوة القديمة بين أبيهم آدم ، وبين إبليس وذريته . .

والمقصود بهذا التذكير : تحذيرهم من وساوسه ، وحضهم على مخالفته . .

ومن الآيات القرآنية التى ساقت هذه القصة بشىء من التفصيل ، فحكت امتثال الملائكة لأمر الله - تعالى - وامتناع إبليس عن السجود لآدم ، كما حكت الأسباب التى حملت إبليس على عدم السجود ، وعقاب الله - تعالى - له ، واعلان إبليس عداوته لآدم وذريته . . من هذه الآيات قوله - تعالى - فى سورة الأعراف[1] : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ... ﴾ .

(١) الايات من ١١ - ١٨ .

أى : ولقد خلقنا آباكم آدم من طين غير مصور ، ثم صورناه بعد ذلك . .

أو المعنى : ولقد خلقناكم فى ظهر أبيكم آدم ، ثم صورناكم حين أخذنا عليكم الميثاق بأن تعبدونى ولا تشركوا بى شيئا .

﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ .

ثم حكى - سبحانه - الأسباب التى حملت إبليس على عدم السجود لآدم فقال :

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ . . . ﴾ .

أى : قال الله - تعالى - لإبليس على سبيل التوبيخ والتقرير : ما الذى حملك على عدم السجود لآدم مع أنى قد أمرتك به كما أمرت الملائكة ؟ .

وقد حكى القرآن ما أجاب به إبليس فقال : ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾

أى : قال إبليس بصلف وغرور وإصرار على معصية أمر الله - تعالى - : أنا خير من آدم ، لأنى مخلوق من عنصر النار ، وآدم مخلوق من عنصر الطين .

ثم حكى - سبحانه - ما رد به على إبليس فقال : ﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا ﴾ أى : من الجنة بسبب عصيانك لأمرى ، وخروجك عن طاعتى . .

﴿ فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ أى : فما يصح وما يستقيم أن تتكبر فيها ؛ لأنها ليست مكانا للمتكبرين ، وإنما هى مكان للمطيعين الخاشعين المتواضعين .

﴿ فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ أى : فاخرج يا إبليس من الجنة ، فأنت من أهل الصغار والهوان على الله - تعالى - ، وعلى أوليائه لتكبرك وغرورك .

ثم حكى القرآن الكريم ما طلبه إبليس من الله - تعالى - وما قاله - سبحانه - له : ﴿ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ .

أى : قال إبليس يا رب أخرنى ولا تمتنى إلى يوم بعث آدم وذريته من القبور ، وهو وقت النفخة الثانية عند قيام الساعة .

وقد أراد بذلك النجاة من الموت ، إذ لا موت بعد البعث ، كما أراد بذلك أن يجد فسحة من الوقت لإغواء بنى آدم .

﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ أى : قال الله – تعالى – لإبليس إنك من المؤخرين إلى يوم الوقت المعلوم .

ثم حكى – سبحانه – ما توعد به إبليس آدم وذريته من كيد وأذى فقال : ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ .

أى : فسبب إغوائك لى ، وطردك إياى من رحمتك :-

﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أى : لأترصدن لآدم وذريته على طريق الحق ، كما يترصد قطاع الطرق للسائرين فيها ، فأصدنهم عنها ، وأحاول بكل وسيلة صرفهم عن الصراط المستقيم .

﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ..﴾ أى : ثم لآتينهم من الجهات الأربع التى اعتاد العدو أن يهاجم عدوه منها ، وهى الأمام والخلف واليمين والشمال ، والمراد لن أترك وسيلة لإغوائهم وإضلالهم إلا وفعلتها .

﴿وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ أى : ولا تجد أكثرهم مطيعين أمرك مستخدمين نعمك فيما خلقت له .

﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ..﴾ .

وقوله : ﴿ مَذْءُومًا ﴾ أى : محقرا . يقال : ذأمه يذأمه ذأما ، إذا عاقبه وحقره .

وقوله ﴿ مَّدْحُورًا ﴾ أى : مطرودا . يقال : دحره دحرا ودحورا ، إذا طرده وأبعده .

أى : قال الله – تعالى – لإبليس : اخرج من الجنة وأنت معاقب بالتحقير والطرد من رحمتى .

﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ .

أى : اخرج من الجنة محقرا مطرودا ، واعلم أن من تبعك من الجن والإنس ، سيكون مصيرهم ومصيرك معهم النار وبئس القرار .

كما قال ـ سبحانه ـ : ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا﴾ .

٦ - وفى سورة الحجر [١] آيات كريمة فصلت الحديث عن هذه القصة ، وأضافت إلى ذلك اعتراف إبليس بأنه لا سلطان له على المؤمنين الصادقين .

قال - تعالى - :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) ﴾

أى : فإذا سويت خلق هذا البشر وهو آدم ، وكملت أجزاءه ، وجعلته فى أحسن تقويم ، فاسقطوا وخروا له ساجدين . .

﴿ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا - أى : من الجنة - فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ .

أى : مرجوم ومطرود من رحمتى ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ وهو يوم الجزاء والحساب ، وبعده ستكون اللعنة مستمرة عليك .

« قال رب فأنظرنى - أى : فأمهلنى ولا تمتنى - إلى يوم يبعثون . قال فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم . قال رب بما أغويتنى - أى : بسبب إغوائك لى - لأزينن لهم فى الأرض - أى : لأزينن لهم المعاصى والسيئات - ولأغوينهم - أى : ولأضلنهم - أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين » فإنه لا طاقة لى على إغوائهم بسبب قوة إيمانهم ، وثبات يقينهم .

﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أى : قال الله - تعالى - لإبليس : إن عدم قدرتك على إغواء عبادى المخلصين ، وهو سنتى التى لا تتخلف ، وطريقى الذى اقتضته حكمتى وعدالتى ورحمتى .

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ أى : ليس لك قدرة على إضلال عبادى المخلصين .

﴿ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ أى : ولكن لك قدرة على إغواء أتباعك وضعاف الإيمان من الناس .

---

(١) الآيات من ٢٦ - ٤٤ .

﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ ﴾ أى : لموعد الغاوين الضالين أجمعين .

٧ – وفى سورة الإسراء آيات كريمة[1] ، ساقت هذه القصة بأسلوب آخر ، ركزت فيه على بيان إصرار إبليس على عداوة آدم وذريته ، وعلى العقوبات الشديدة التى توعد الله – تعالى – بها إبليس .

قال – تعالى – : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) ﴾

أى : قال إبليس لخالقه – تعالى – على سبيل التكبر والغرور ، أأسجد وأنا المخلوق من نار ، لمن خلقته من طين وهو آدم – عليه السلام – ، مع أننى أفضل منه؟ .

ثم لم يكتف إبليس بهذا الغرور والعصيان ، بل أضاف إلى ذلك قوله – كما حكى القرآن عنه – : ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً (٦٢) ﴾ .

أى : قال إبليس بصلف وسوء أدب فى الرد على خالقه – عز وجل – : أخبرنى عن هذا الإنسان المخلوق من الطين ، لماذا فضلته علىّ ، وأمرتنى بالسجود له؟ . .

أقسم لك – يا إلهى – لئن أخرت أجلى إلى يوم القيامة : ﴿ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ .

أى : لأستولين على جميع أفراد ذريته ، ولأجعلنهم ينقادون لى إلا عددا قليلا منهم وهنا رد الله – تعالى – عليه بقوله : ﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴾

أى : قال الله ـ تعالى – له على سبيل التحقير والإهانة : اذهب مطرودا ملعونا ، وقد أخرنا أجلك إلى يوم القيامة ، فافعل مابدا لك مع بنى آدم ، فمن أطاعك منهم ، فإن جهنم هى جزاؤك وهى جزاؤهم ، جزاء كاملا غير منقوص .

ثم أضاف – سبحانه – إلى إهانته وتحقيره لإبليس أوامر أخرى فقال :

﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا (٦٤) ﴾ .

---

(١) الآيات من ٦١ – ٦٥ . .

والمقصود بهذه الأوامر : التهديد والاستدراج والتحقير لإبليس ولوساوسه .

أى : أن الله – تعالى – قال له : اذهب أيها اللعين مطرودا ، وافعل ما شئت مع بنى آدم ، من الاستفزاز والخداع والإزعاج ولهو الحديث ، وأجلب عليهم ما تستطيع جلبه من مكايد ، وما تقدر عليه من وسائل ، كأن تناديهم بصوتك ووسوستك إلى المعاصى ، وكأن تحشد جنودك على اختلاف أنواعهم لحربهم وإغوائهم وصدهم عن الطريق المستقيم ، وشاركهم فى الأموال بأن تحضهم على جمعها وإنفاقها فى الطرق الحرام ، وشاركهم فى الأولاد بأن تحثهم على أن ينشئوهم تنشئة سيئة . . وعدهم بما شئت من المواعيد الباطلة الكاذبة ، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا . .

ثم ختم – سبحانه – هذه الآيات بغرس الطمأنينة فى قلوب المؤمنين الصادقين فقال – تعالى – : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً (٦٥) ﴾ .

أى : إن عبادى الصادقين المخلصين لا قدرة لك يا إبليس على إضلالهم ، وكفى بربك وكيلا يتوكلون عليه ، ويفوضون أمورهم إليه ، ويعتصمون به ، فهو الحافظ والنصير لهم .

٨ – وفى سورة « ص » آيات كريمة[١] حكت هذه القصة بأسلوب يغلب عليه الحوار والتحدى ، قال – تعالى – : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) ﴾ .

أى : قال الله – تعالى – لإبليس على سبيل التأنيب والتقريع : يا إبليس ما الذى منعك من السجود لآدم الذى خلقته بيدى ، وصورته بقدرتى التى لا يعجزها شىء؟

أمنعك من السجود له تكبرك وصلفك ، أم كنت ممن تطاول على غيره بدون حق؟

فكان جواب إبليس : ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦) ﴾ .

وقد رد الله – تعالى – على إبليس بقوله : ﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) ﴾

فكان جواب إبليس : ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) ﴾ .

---

(١) الآيات من ٧١ – ٨٣ .

فأجابه - سبحانه - بقوله : ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٨٠) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾

فأصر إبليس على عداوته لآدم وذريته وقال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾

وهنا جاء العقاب العادل من الله - تعالى - لإبليس ، حيث قال - سبحانه - :

﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) ﴾

أى : قال الله - تعالى - فى رده على إبليس : فالحق قسمى ويمينى ، ولا أقول إلا الحق . . لأملأن جهنم بك وبجنسك وبكل من تبعك يا إبليس ، لأن هذا جزاء من عصانى .

والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة يرى أن عنصر المحاورة فيها واضح كل الوضوح ، فقد تكرر لفظ قال تارة من الله - تعالى - وتارة من إبليس ثمانى مرات .

(٣) حديث القرآن عن
إغواء إبليس لآدم - عليه السلام -

٩ - تحدث القرآن الكريم فى سور متعددة عن أن الله - تعالى - قد أمر آدم وزوجه بأن يسكنا الجنة ، وأباح لهما أن يأكلا من جميع ثمارها ، سوى شجرة واحدة نهاهما عن الأكل منها ، ولكن إبليس أغراهما بالأكل منها ، واستطاع بوسوسته وخداعه لهما أن ينسيهما ما نهاهما عنه ربهما فأكلا منها ، فترتب على ذلك أن أخرجا من الجنة . .

ومن الآيات التى تحدثت عن ذلك ، قوله - تعالى - فى سورة البقرة[1] :

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) ﴾ .

أى : وبعد أن أمرنا الملائكة بالسجود لآدم - عليه السلام - وامتثلوا أمرنا جميعا ماعدا إبليس ، قلنا لآدم على سبيل التشريف والتكريم : يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة . . وجمهور العلماء يرون أن المراد بالجنة هنا : دار الثواب ، التى أعدها الله - تعالى - للمؤمنين يوم القيامة ، لأن هذا هو المتبادر إلى الذهن عن الإطلاق . .

ويرى بعض العلماء أن المراد بالجنة هنا : بستان بمكان مرتفع من الأرض ، خلقه الله - تعالى - لإسكان آدم وزوجه فيها .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وكلا منها رغدا حيث شئتما ﴾ بيان لجانب آخر من فضل الله - تعالى - عليهما .

أى : اسكن يا آدم أنت وزوجك الجنة ، وقد أبحنا لكما أن تأكلا من ثمارها ومطاعمها أكلا هنيئا واسعا ، فى أى مكان منها أردتما .

ثم بين - سبحانه - أنه نهاهما عن الأكل من شجرة معينة فقال :

﴿ وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

أى : كلا من الجنة أكلا واسعا هنيئا ، واحذروا أن تأكلا من هذه الشجرة التى حددتها لكما ، فإنكما إن خالفتما أمرى وأكلتما منها كنتما من الظالمين .

---

(١) الآيات من ٣٥ - ٣٨ .

والتعبير بقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَلا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ القصد منه المبالغة فى النهى عن الأكل منها ، إذ فى النهى عن الاقتراب من الشىء ، نهى عن التلبس به من باب أولى .

وقد تكلم المفسرون عن اسم هذه الشجرة ونوعها ، فقيل : هى التين ، وقيل هى الكَرْم . . إلا أن القرآن الكريم لم يذكر نوعها ، على عادته فى عدم التعرض لذكر ما لم يدع المقصود من سوق القصة إلى بيانه .

وقد أحسن الإمام ابن جرير الطبرى التعبير عن هذا المعنى فقال : «والصواب فى ذلك أن يقال : إن الله ـ تعالى ـ نهى آدم وزوجه عن الأكل من شجرة بعينها من أشجار الجنة ، دون سائر أشجارها فأكلا منها ، ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعيين ، لأن الله ـ تعالى ـ لم يضع لعباده دليلا على ذلك فى القرآن ولا من السنة الصحيحة ، وقد قيل : كانت شجرة البر ، وقيل : كانت شجرة العنب . وذلك علم إذا عُلِم لم ينفع العالم به علمُه ، وإن جهله جاهل لم يضره جهله به»[1] .

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك ما وقع فيه آدم من خطأ فقال :﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ ﴾[2] .

أى : فأوقعهما الشيطان فى الزلل ، حيث أطاعاه فى وسوسته ، ونسيا أمر ربهما ، فترتب على ذلك أن أخرجهما الله ـ تعالى ـ من الجنة ، التى كانا يتنعمان بخيراتها وثمارها . .

وقوله ـ سبحانه ـ :﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ : الخطاب فيه لآدم وحواء وإبليس .

أى : وقلنا لآدم وحواء وإبليس : انزلوا إلى الأرض متنافرين متباغضين يبغى بعضكم على بعض ، ولكم فيها منزل وموضع استقرار وتمتع بالعيش إلى أن يأتيكم الموت .

ثم حكى القرآن أن آدم قد بادر بطلب العفو والمغفرة من ربه فقال :﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ .

والمراد بهذه الكلمات ـ على أرجح الأقوال ـ ما أشار إليه القرآن فى سورة الأعراف ، فى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) ﴾ .

---

(١) تفسير ابن جرير الطبرى جـ١ ص٥٦١ .

(٢) والفعل : «أزل» من الإزلال وهو الإزلاق والتنحية بعيدا عن الشىء .

أى : فأخذ آدم من ربه ـ عز وجل ـ كلمات حكيمة ، وتقبلها بصدق وإنابة ، وسأل ربه أن يقبل توبته ، فقبل ـ سبحانه ـ ذلك منه ، إنه ـ سبحانه ـ هو الواسع الرحمة بعباده ، الكثير القبول لتوبة التائبين .

وبعد أن أخبر القرآن فى الآيات السابقة ، أن الله ـ تعالى ـ قد أمر آدم وحواء وإبليس بالهبوط من الجنة ، نراه بعد ذلك قد أعاد خبر الأمر بالهبوط فقال : ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) ﴾ .

وليست هذه الإعادة للأمر بالهبوط من قبيل التكرار الذى يقصد به مجرد التوكيد ، لأن المقصود بالأمر بالهبوط أولا ، بيان ما يترتب على ذلك من كون بعضهم لبعض عدو . . والمقصود به فى هذه الآية ، بيان ما يترتب عليه من تفصيل لحال المخاطبين ، وانقسامهم إلى مهتدين وضالين .

أى : قلنا اهبطو من الجنة جميعا ، وسيأتيكم منى على لسان رسلى ما يدلكم على طريق الحق والصواب فمن اتبع رسلى فيما أتوا به من عندى ، فلا يصيبهم ما يخيفهم من المستقبل ، ولا ما يجعلهم يحزنون على الماضى .

١٠ ـ وشبيه بهذه الآيات فى بيان سكنى آدم الجنة ، وإغواء الشيطان له ، مما ترتب عليه خروجه من الجنة ، قوله ـ تعالى ـ فى سورة الأعراف[1] : ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ. فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ ﴾ ، أى : فألقى إبليس إليهما الوسوسة ، أى : الحديث الذى يصرف الإنسان من الخير إلى الشر .

﴿ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا ﴾ أى : فعل هذه الوسوسة ، وحرضهما على الأكل من الشجرة المحرمة ، لتكون عاقبة ذلك ، أن يظهر لهما ما ستر عنهما من عوارتهما . . ولم يكتف إبليس بهذه الوسوسة السيئة ، بل قال لهما : ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ .

أى : قال لهما كذبا وخداعا : ما نهاكما ربكما عن الأكل من هذه الشجرة ، إلا كراهية أن تكونا ملكين ، أو تكونا من الخالدين الذين يسكنون الجنة ولا يموتون .

ثم حكى القرآن أن إبليس لم يكتف بالوسوسة ، أو بالقول المجرد ، بل أضاف إلى ذلك القسم المؤكد فقال : ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ .

---

(١) الآيات من ١٩ ـ ٢٥ .

أى : وأقسم لهما أنه من الناصحين المخلصين الذين يسعون لما فيه منفعتهما .

ثم بين ـ سبحانه ـ أن إبليس نجح فى خداع آدم وحواء فقال : ﴿ فَدَلَّاهُمَا[1] بِغُرُورٍ .. ﴾ .

أى : فأنزلهما عن رتبة الطاعة إلى رتبة المعصية ، وأطمعهما فى غير مطمع بسبب ما غرهما به من القسم .

ثم بين ـ سبحانه ـ الآثار السيئة التى ترتبت على هذه الخديعة من إبليس لآدم فقال : ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ .

أى : فلما أكلا من الشجرة المحرمة ظهر لهما ما يجب ستره من جسدهما ، وهما عوراتهما ، وأخذا يلزقان من ورق الجنة على عوراتهما لسترهما . .

﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا ﴾ معاتبا وموبخا وقائلا لهما : ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ ﴾ أى : ألم أنهكما عن الأكل منها ﴿ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ .

وهنا التمس آدم وحواء من ربهما الصفح والمغفرة ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

فرد الله ـ تعالى ـ عليهما بقوله : ﴿ قَالَ اهْبِطُوا ﴾ أى : من الجنة إلى ما عداها من الأرض ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ أى : أنت يا آدم وذريتك ستستمر العداوة بينكم وبين إبليس وذريته إلى يوم الدين ﴿ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ﴾ موضع استقرار ﴿ وَمَتَاعٌ ﴾ أى : تمتع ومعيشة ﴿ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ انقضاء آجالكم . ﴿ قَالَ فِيهَا ﴾ أى : فى الأرض ﴿ تَحْيَوْنَ ﴾ أى : تعيشون ﴿ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ للحساب والجزاء ، والثواب والعقاب .

١١ ـ وفى سورة «طه» تصوير بليغ حكيم ، لما وقع فيه آدم من خطأ بسبب نسيانه لأمر ربه ، وبسبب وقوعه تحت تأثير إبليس عليه . .

---

(١) وقوله : «دلاهما» مأخوذ من التدلية ، وأصله : أن الرجل العطشان يدلى فى البئر بدلوه ليشرب من مائها ، فإذا ما أخرج الدلو لم يجد به ماء . .

والغرور : إظهار النصح مع إبطان الغش ، وأصله من غررت فلانا إذا خدعته .

وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾

وقوله ـ تعالى ـ ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ .

أى : والله لقد عهدنا إلى آدم وأوصيناه ألا يأكل من شجرة معينة ، من قبل أن نخبرك بذلك ، فنسى العهد الذى أخذناه عليه بعدم الأكل منها ، ولم نجد له عزيمة صادقة فى التذكر لما أمرناه به أونهيناه عنه .

ثم ذكر ـ سبحانه ـ بعد ذلك بشىء من التفصيل الأسباب التى أدت إلى نسيان آدم وضعف عزيمته فقال : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ . فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ بسبب حسده لكما ﴿ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴾ أى : احذرا طاعته ، فإن طاعته ستؤدى بكما إلى الخروج من الجنة فيترتب على هذا الخروج شقاؤكما وغمكما وتعبكما .

ثم بين ـ سبحانه ـ مظاهر الخير فى هذه الجنة فقال : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ . وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ ﴾ .

أى : إن لك يا آدم فى الجنة كل ما تريده وتشتهيه ، فأنت فيها لايصيبك شىء من الجوع ، أو العرى أو من الظمأ أو من حر الشمس فى الضحا .

ثم بين ـ سبحانه ـ أن آدم مع تلك النصائح المؤكدة ، نسى ما نهاه الله ـ تعالى ـ عنه ،

وتغلب عليه الشيطان فقال : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ .

أى : قال الشيطان لآدم على سبيل الإغراء والخداع : هل أدلك يا آدم على الشجرة التى من أكل منها عاش مخلدا لا يدركه الموت ، وصار صاحب ملك لا ينتهى ولا يفنى . .

وأطاع آدم الشيطان ، ووقع تحت وسوسته وخداعه ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا ﴾ أى : فأكل آدم وزوجه من الشجرة المحرمة ، ﴿ فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾ .

أى : وخالف آدم أمر ربه فى اجتناب الأكل من الشجرة ، فغوى ، أى : فأخطأ آدم طريق الصواب ، بسبب عدم طاعته لربه .

ثم بين ـ سبحانه ـ جانبا من مظاهر فضله ورحمته فقال : ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ .

أى : ثم بعد أن أكل آدم من الشجرة وندم على ما فعل هو وزوجه ، اصطفاه ربه وقربه واختاره وقبل توبته ، وهداه إلى الثبات عليها .

ثم ختم ـ سبحانه ـ هذه الآيات ببيان ما آل إليه أمر آدم فقال : ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ أى : انزلا من الجنة إلى الأرض مجتمعين .

﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ أى : بعض ذريتكما لبعض عدو ، بسبب التخاصم والتنازع ، والتدافع على حطام الدنيا ، وجميعكم أعداء لإبليس وذريته .

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى ﴾ عن طريق رسلى فعليكم أن تتبعوهم . .

﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ ﴾ بأن آمن برسلى ، واقتدى بهم فى كل مايأتون وما يذرون .

﴿ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

(٤) بعض العبر والعظات
فى قصة آدم ـ عليه السلام ـ

اشتملت قصة آدم ـ عليه السلام ـ على كثير من الدروس النافعة، والعظات الحكيمة، التى تهدى القلوب، وتحيى النفوس، وتحمل العقول على حسن التدبر والتفكر، ومن أهم هذه الدروس ما يأتى :

١ ـ الدلالة على كمال قدرة الله ـ تعالى ـ ، وبديع خلقه، وبليغ حكمته، حيث خلق ـ سبحانه ـ الإنسان من مادة تختلف عن المادة التى خلق منها الجان، وحيث كرم الإنسان بخاصية أخرى أشار إليها القرآن الكريم فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ وهذه الخاصية هى التى جعلت من الإنسان، كائنا ينفرد بخصائص عن كل الأحياء الأخرى التى تشاركه فى هذه الحياة.

كما يؤخذ من هذه القصة أن خلق الجان سابق على خلق الإنسان، بدليل قوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ. وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾. (سورة الحجر : الآيتان : ٢٦، ٢٧)

٢ ـ أن إرادة الله ـ تعالى ـ قد اقتضت أن يجعل فى الأرض خليفة هو آدم ـ عليه السلام ـ ، وأنه ـ سبحانه ـ قد أخبر الملائكة بذلك، لا من أجل مشورتهم، فهو ـ سبحانه ـ لا يُسأل عما يفعل، وإنما من أجل أن يعلّم الناس أن يتشاوروا فيما بينهم فى الأمور التى تحتاج إلى المشورة.

وقد أمر الله ـ تعالى ـ نبيه محمدا ـ ﷺ ـ أن يستشير أصحابه فقال : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران : ١٥٩]

كما وصف ـ سبحانه ـ الأخيار من عباده، بأنهم يتشاورون ويتناصحون فيما بينهم، فقال : ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى : ٣٨]

٣ ـ ومن الدروس التى تؤخذ من هذه القصة : أن الحرص على معرفة الحكمة من الأمر أو النهى لا بأس به، وأن الآمر بالشىء أو الناهى عنه، يجب عليه ألا يضيق صدره إذا ما طلب منه معرفة الحكمة فيما أَمَر به أو نهى عنه..

بدليل أن الملائكة عندما أخبرهم الله بأنه سيجعل فى الأرض خليفة ، قالوا له على سبيل استطلاع الحكمة : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة : ٣٠]

وقد رد عليهم ـ سبحانه ـ بما يزيل تعجبهم ، وبما يرشدهم إلى الحدود التى يجب عليهم أن يقفوا عندها فقال : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ .

وهكذا يعلمنا الله ـ تعالى ـ عن طريق قصصه الحكيم ، أن الرئيس العاقل ، هو الذى يفسح المجال لمرءوسيه المخلصين ، ويترك لهم مجال المجادلة والمناقشة ومعرفة الحكمة ، ولا يمتنع عن أن يبين لهم وجهة نظره فى رفق وأناة .

فإذا ما تجاوزوا الحدود المناسبة ، راعى فى عتابهم ما عرفه فيهم من سلامة القلب ، وتلقى أوامره بحسن الطاعة .

٤ ـ أن سياسة الأمم على الطريقة المثلى ، إنما تقوم على أساس راسخ من العلم ، وأن فضل العلم النافع فوق فضل العبادة .

بدليل أن الملائكة الكرام ، وهم عباد مكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، قد أمرهم الله ـ تعالى ـ بالسجود لآدم ـ عليه السلام ـ وكان على رأس المزايا التى ميز الله ـ تعالى ـ بها آدم على الملائكة ، أن منحه علما لم يمنحه لهم ، فثبت بذلك أن فضيلة العلم النافع على رأس الفضائل التى تؤهل صاحبها للقيادة والرياسة .

ولقد مدح الله ـ تعالى ـ العلم والعلماء فى كثير من آياته القرآنية ، ومن ذلك :

أنه ـ سبحانه ـ قرنهم بملائكته فى الشهادة له بالوحدانية فقال :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران : ١٨]

وأنه ـ سبحانه ـ رفع درجاتهم إلى منزلة لا يعلمها أحد سواه فقال : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة : ١١]

وأنه ـ تعالى ـ نفى المساواة بين العلماء وغيرهم فقال : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [الزمر : ٩]

وأنه ـ عز وجل ـ قصر خشيته والخوف منه على أهل العلم والمعرفة فقال : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر : ٢٨] وأنه ـ سبحانه ـ أمر نبيه ﷺ أن يسأله المزيد من العلم النافع فقال : ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه : ١١٤]

٥ ـ كما يؤخذ من هذه القصة كذلك : أن روح الشر الخبيثة إذا طغت على نفس من النفوس ، جعلتها لاترى البراهين الساطعة ، ولا يوجهها إلى الخير وعد ، ولا يردعها عن الشر وعيد .

فإبليس فسق عن أمر ربه عن تعمد وإصرار ، وحمله الحقد الأعمى ، والحسد الدفين ، على الامتناع عن السجود لآدم ـ عليه السلام ـ ، وحكى القرآن موقفه الذميم فى كثير من الايات ، ومن ذلك زعمه أنه خير من آدم ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [ص : ٧٦]

وتارة يحكى القرآن صلفه وغروره : ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر : ٣٣]

وتارة يستنكر السجود لآدم فيقول ـ كما حكى القرآن عنه : ﴿ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [الإسراء : ٦١]

وهكذا نرى أن إبليس لم يكتف بمعصية الله ـ تعالى ـ عن تعمد وإصرار ، بل تجاوز ذلك إلى التبجح والغرور ، والزعم بأنه أفضل من آدم ـ عليه السلام ـ ، وأنه لا يصح أن يسجد الفاضل للمفضول . . ولذا استحق من الله ـ تعالى ـ اللعن والطرد من رحمته ـ عز وجل ـ .

٦ ـ ومن الدروس التى تؤخذ من هذه القصة ـ أيضا ـ أن العداوة بين إبليس وذريته ، وبين آدم وذريته ، عداوة قديمة ، وأنها مستمرة إلى يوم القيامة . .

وقد صرح إبليس بذلك فى كثير من الآيات القرآنية التى حكت جانبا من أقواله ، ومن ذلك قوله ـ كما حكى القرآن عنه ـ : ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ . ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف : ١٦ ، ١٧]

وقوله : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر : ٣٩ ، ٤٠]

وقوله : ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء : ٦٢]

وقوله : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص : ٨٢ ، ٨٣]

وهكذا نرى فى كثير من الآيات ، أن إبليس قد جاهر بعداوته لآدم وذريته ، وأنه لن يترك طريقا يوصل إلى شقائهم وغوايتهم وإضلالهم إلا سلكه . .

وقد حذر الله ـ تعالى ـ آدم وذريته من الانقياد لوسوسة إبليس فى كثير من الآيات القرآنية ، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٧]

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [فاطر : ٦]

٧ ـ كما يؤخذ ـ أيضا ـ من هذه القصة ، أن المتقلب فى نعمة ، يجب أن يحافظ عليها بشكر الله ـ تعالى ـ ولا يعمل عملا فيه مخالفة لأوامر الله ، لأن مخالفة أوامره ـ سبحانه ـ كثيرا ما تؤدى إلى زوال تلك النعمة .

فآدم ـ عليه السلام ـ ، قد أسكنه الله ـ تعالى ـ فى جنته ، وأباح له أن يأكل من خيراتها أكلا هنيئا مريئا ، ونهاه عن الأكل من شجرة معينة . .

فلما نسى آدم أمر ربه ، وأكل من الشجرة التى نهاه الله ـ تعالى ـ عن الأكل منها ، واستجاب لوسوسة إبليس وخداعه . .

كانت نتيجة مخالفته لأمر ربه ، أن أُخرج من الجنة ، كما قال ـ تعالى ـ ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [البقرة : ٣٦]

وهكذا يرشدنا ـ سبحانه ـ عن طريق قصصه ؛ أن المحافظة على طاعة الله ـ تعالى ـ تؤدى إلى دوام النعمة ، أما نسيان هذه الطاعة فكثيرا ما يؤدى إلى زوالها .

إذا كنت فى نعمة فارعَها فإن المعاصى تُزيل النِّعَمِ

وحافظ عليها بشكر الإله فإن الإله سـريع النقـم

٨ ـ أن قوة الإيمان ، تتغلب على كيـد الشيطان ، وأن عباد الرحمن الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ، لا يستطيع إبليس إغواءهم أو التأثير فيهم . .

ولقد اعترف إبليس بذلك ، وحكى عنه القرآن هذا الاعتراف فى كثير من الآيات ، ومن ذلك قوله ـ كما حكى القرآن عنه ـ : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ. قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ. إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ. ﴾ [الحجر : ٣٩ – ٤٢]

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴾ [الإسراء : ٦٥]

ولقد بين لنا النبى ﷺ أن مخالفة الشيطان تؤدى إلى السعادة فى الدنيا والآخرة ، فقد أخرج الإمام أحمد عن سبرة بن الفاكه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه ، فقعد له بطريق الإسلام فقال : أتسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك؟ قال : فعصاه فأسلم .

ثم قعد له على طريق الهجرة فقال له : أتهاجر وتدع أرضك . . قال : فعصاه وهاجر .

ثم قعد له على طريق الجهاد فقال له : هو جهاد النفس والمال ، فتقاتل وتُقتَل فتنكح المرأة ويقسم المال . قال : فعصاه فجاهد .

فقال رسول الله ﷺ فمن فعل ذلك منهم فمات ، كان حقا على الله أن يدخله الجنة .

٩ ـ ومن الدروس التى تؤخذ من هذه القصة : أن آدم ـ عليه السلام ـ قد أخطأ فى أكله من الشجرة التى نهاه الله عن ا لأكل منها ، ولكن هذا الخطأ لم يكن مقصورا ولا متعمدا ، بل كان عن ضعف ونسيان . .

ولقد أشار القرآن إلى ذلك فى قوله ـ سبحانه ـ : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ [طه : ١١٥]

أى : والله لقد عهدنا إلى آدم وأوصيناه ألا يقرب تلك الشجرة ، وكانت هذه الوصية من قبل أن يخالف أمرنا ، ولكن آدم نسى عهدنا ووصايانا ، ولم نجد له عزما ثابتا فى الصبر والمداومة على التمسك بما كلفه به ربه ـ عز وجل ـ .

وكان من الواجب عليه أن يكون دائما ممتثلا لما أمره به خالقه ، ومبتعدا عن كل ما نهاه عنه - سبحانه - ، فإن من شأن الأخيار أن تقع أوامر الله - تعالى - ونواهيه ، موقع الاهتمام التام من نفوسهم ، بحيث يفعلون ما أمرهم به ، ويجتنبون ما نهاهم عنه بكل دقة وحذر . .

والذى حدث من آدم - عليه السلام - هو الغفلة عن الأخذ بالحزم فى استحضار النهى وجعله نصب عينيه ، حتى أدركه النسيان والضعف أمام وسوسة الشيطان ، ففعل ما نهاه ربه عنه وهو الأكل من الشجرة ، دون أن يكون متعمدا لمخالفة هذا النهى ، فكانت عقوبته إخراجه من الجنة .

١٠ - كذلك من الدروس الحكيمة التى نأخذها من هذه القصة : سعة رحمة الله - تعالى - ، وعظيم فضله ، وسابغ كرمه ، وقبوله لتوبة التائبين .

فآدم - عليه السلام - بعد أن تاب إلى ربه مما وقع فيه وهو الأكل من الشجرة ، قبل الله - تعالى - توبته ، وغسل حوبته ، ووفقه للمداومة على هذه التوبة . .

قال - تعالى - ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ .

أى : ثم بعد أن أكل آدم من الشجرة ، وندم على فعله هو وزوجه ، اصطفاه ربه وقربه واختاره ، وقبل توبته ، وهداه إلى الثبات عليها ، فقد اعترف هو وزوجه بخطئهما ، وقالا - كما حكى القرآن عنهما - : ﴿ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

فكانت نتيجة هذا الندم الصادق ، أن شملهما الله - تعالى - برحمته ، وغفر لهما ما فرط منهما ، فضلا منه - سبحانه - وكرما .

وبعد : فهذا من قصة آدم - عليه السلام - كما حكاها القرآن الكريم ، ومن العبر والعظات والدروس الحكيمة التى تؤخذ منها . .

وهى دروس نافعة لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد .

وبالله التوفيق .

٢ـ قصة ابنى آدم

(قابيل وهابيل)

١ ـ وردت قصة ابنى آدم فى آيات كريمة من سورة المائدة ، وفيها يقول الله ـ تعالى ـ :

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾

وقد جاءت هذه الآيات الكريمة ، فى أعقاب حديث طويل عن رذائل قوم موسى ، الذين خالفوا نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ ، وامتنعوا عن طاعته ، وقالوا له بكل صلف

وسوء أدب : ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ . والمقصود من كل ذلك : التخفيف عن الرسول ﷺ عما أصابه من قومه ، وبيان أن الذين عصوا أنبياءهم واعتدوا عليهم ، قد اقتفوا الطريق الذى سلكه قابيل فى عدوانه على أخيه هابيل . .

والمعنى : واقرأ يا محمد على الناس ، بالحق الذى لايحوم حوله باطل ، لكى يعتبروا ويتعظوا ، قصة ابنى آدم وهما قابيل وهابيل ، حيث قدم كل واحد منهما قربانا ، أى صدقة يتقرب بها إلى الله ـ تعالى ـ ؛ فتقبل الله ـ عز وجل ـ صدقة هابيل ؛ لصدقه وإخلاصه ، ولم يتقبل صدقة قابيل ؛ لسوء نيته وعدم تقواه فقال قابيل على سبيل الحسد والظلم لأخيه هابيل : لأقتلنك بسبب قبول صدقتك دون صدقتى . .

فكان رد هابيل المخلص التقى ، على أخيه قابيل الظالم الحسود : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

أى : إنما يتقبل الله ـ تعالى ـ الطاعات والصدقات ، من عباده المتقين الذين يخشونه في السر والعلن ، وليس من سواهم من الظالمين والحاسدين لغيرهم على ما آتاهم الله من فضله ، فعليك أن تكون من المتقين لكى يتقبل الله ـ تعالى ـ منك .

فَردُّ هابيل على أخيه قابيل ، قد اشتمل على أسمى ألوان النصيحة ، وأحكم أنواع الإرشاد ، حيث بين له الوسيلة التى تجعل صدقته مقبولة عند الله ـ تعالى ـ ألا وهى التقوى وصيانة النفس عن كل ما لا يرضاه ـ سبحانه ـ .

٢ ـ ثم انتقل هابيل من وعظ أخيه بتطهير قلبه ، إلى تذكيره بما تقتضيه الأخوة من بر وتسامح ، فقال : ﴿ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

أى : قال هابيل لقابيل مذكرا إياه بحقوق الأخوة : لئن مددت إلى يدك بالاعتداء والقتل ظلما وحسدا ، فأنا لن أقابل فعلك بمثله حتى ولو كنتُ قادرا على ذلك ، لأنى أخاف الله ـ تعالي ـ رب العالمين ، وأكره أن يرانى ـ سبحانه ـ باسطا يدى إليك بالقتل ، إذ القتل جريمة منكرة ، ولا سيما إذا حدثت بين أخوين . . والمتدبر فى كلام الأخوين يرى أن قابيل قد أكد تصميمه على القتل بجملة قسميّة ، وهى «لأقتلنك» ، ويرى أن هابيل قد أكد نفوره من القتل بجملة قسمية ـ أيضا ـ وهى قوله ـ تعالى : ﴿ لَئِن بَسَطتَ . . ﴾

وبذلك يظهر الفرق الشاسع بين الأخوين فى الأخلاق والسلوك والطباع .

٣ ـ ثم انتقل هابيل إلى أسلوب آخر فى وعظه لأخيه ، إذ أخذ يحذره من سوء المصير للقاتل ، فقال : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ .

أى قال هابيل لقابيل محذرا وزاجرا : لقد بينت لك أن الله ـ تعالى ـ إنما يتقبل من عباده المتقين ، فعليك أن تكون منهم ، وأرشدتك إلى حقوق الأخوة وما تقتضيه من تسامح ومحبة ، وأعلنت لك أن خوفى من الله هو الذى يمنعنى من أن أمد يدى إليك بالقتل دفاعا عن نفسى . .

وأخيرا أبين لك : أنى أريد بامتناعى عن قتلك ، وبتصميمك على قتلى ، أن تبوء بإثمى وإثمك ، أى : أنى أريد أن ترجع إلى الله ـ تعالى ـ وأنت متحمل ذنب قتلك إياى ظلما وحسدا ، وذنب إصرارك على هذا القتل وعدم قبولك لنصائحى . .

فتكون بسبب هذين الذنبين من أصحاب النار فى الآخرة ، وذلك العقاب العادل ، جزاء الظالمين ، الذين ظلموا أنفسهم ، وظلموا غيرهم .

وإلى هنا نرى أن هابيل قد وجه إلى أخيه عددا من النصائح الحكيمة ، بأساليب متنوعة فيها الترغيب وفيها الترهيب . .

٤ ـ ولكن قابيل لم يستمع إلى النصائح ، بل أقدم على جريمته النكراء ، التى حكاها القرآن الكريم فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

قال القرطبى : قوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ . . ﴾ أى : فسولت له نفسه الأمر ، وشجعته وصورت له أن قتل أخيه طَوْعٌ سهل . يقال : طاع الشىء يطوع ، أى : «سهل وانقاد . . .»[١] .

والمعنى : أن قابيل سهلت له نفسه وزينت له ـ بعد هذه المواعظ ـ قتل أخيه هابيل ، فقتله فأصبح من الخاسرين فى دنياه وفى أخراه .

أصبح من الخاسرين فى دنياه ، لأنه قتل أخاه ، والأخ سند لأخيه ، وعون له . .

وأصبح من الخاسرين فى الآخرة ، لأنه ارتكب جريمة من أبشع الجرائم وأفظعها ألا وهى جريمة القتل . .

---

(١) تفسير القرطبى جـ٦ ص١٣٨ .

والتعبير بقوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَطَوَّعَتْ ﴾ : تعبير دقيق بليغ ، فإن هذه الصيغة ـ صيغة التفعيل ـ تشير إلى أنه كانت هناك بواعث متعددة تتجاذب نفس قابيل ، قبل الإقدام على قتل أخيه ، ولكن نوازع الشر فى نفسه ، تغلبت على دوافع الخير . .

٥ ـ ثم حكى القرآن ما حدث بعد أن قتل الأخ أخاه فقال : ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ .

والمعنى : أن قابيل بعد أن ارتكب جريمته الشنعاء ، ورأى جثة أخيه هابيل أمامه ملقاة بالعراء ، تحير ماذا يفعل فيها . .

﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : فأرسل الله ـ تعالى ـ غرابا يحفر وينبش بمنقاره ورجليه فى الأرض ﴿ لِيُرِيَهُ ﴾ أى : ليعلّم ذلك القاتل ويعرّفه ﴿ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾ .

أى : كيف يستر فى التراب جسم أخيه بعد أن فارقته الحياة ، وأصبح عرضة للتغير والتعفن ، وفريسة للحيوانات والطيور . .

وهنا شعر قابيل بالتحسر والندم فقال : ﴿ يَا وَيْلَتَىٰ ﴾ أى : يا فضيحتى ومصيبتى ، ﴿ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ ﴾ أى : أضعفت حيلتى عن أكون مثل هذا الغراب فأستر جسد أخى فى التراب ، كما دفن الغراب بمنقاره ورجليه ما يريد دفنه؟

والاستفهام فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ أَعَجَزْتُ ﴾ للتعجب من عدم اهتدائه إلى ما اهتدى إليه الغراب ، مع أنه إنسان فيه عقل ، والغراب طائر من أخس الطيور .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ : تذييل قصد به بيان ما أصاب قابيل بعد أن قتل أخاه عدوانا وحسدا ، ولم يعرف كيف يستر جثته إلا من الغراب .

أى : فأصبح قابيل من النادمين المتحسرين المتأسفين لقتله أخاه ظلما وحسدا .

٦ ـ هذه هى قصة ابنى آدم : قابيل وهابيل ، كما وردت فى القرآن ، والمتدبر فيها يرى ألوانا من العظات الحكيمة ، والعبر البليغة ، والدروس المفيدة التى من أهمها :

(أ) أن هذا القرآن من عند الله ـ تعالى ـ ، لأن هذه القصة وأمثالها لم يكن للرسول ﷺ علم بها ، وإنما أخبره الله ـ تعالى ـ بها وبغيرها ، وبهذا الأسلوب البليغ المؤثر ، وبهذا

البيان الصادق الأمين ؛ لينتفع العقلاء بما فى هذا القصص من هدايات وعظات وصدق الله إذ يقول : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران : ٦٢]

(ب) أن تقوى الله ـ تعالى ـ وإخلاص النية له ـ سبحانه ـ فى الأقوال والأعمال ، أساس القبول عنده ـ عز وجل ـ . ومن الأدلة على ذلك .

قوله ـ سبحانه ـ : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ .

وقوله ـ عز وجل ـ : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قيل يا رسول الله ، من أكرم الناس؟ قال : «أتقاهم» .

ومن كل ذلك يتبين لنا صدق ما حكاه القرآن الكريم عن هابيل وهو ينصح أخاه قابيل بقوله : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

(جـ) أن الناس فى كل زمان ومكان ، فيهم الأخيار الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وفيهم الأشرار الذين إن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا . . أما الأخيار فنراهم بوضوح فى شخص «هابيل» ، الذى حكى عنه القرآن الكريم ، أنه نصح أخاه بتلك النصائح الحكيمة .

نصحه ـ أولا ـ بتقوى الله لكى يقبل عمله ، ونصحه ـ ثانيا ـ بمراعاة حقوق الأخوة وما تستلزمه من بر وحب ، ونصحه ـ ثالثا ـ بعدم الإقدام على تلك الجريمة النكراء وهى القتل . .

وأما الأشرار فنراهم بوضوح ـ أيضا ـ فى شخص «قابيل» الظالم الحقود ، الذى لم يستمع إلى نصائح أخيه له ، بل تغلبت عليه شقوته فأقدم على قتل أخيه ، بدافع الغل والحسد .

(د) أن رذيلة الحسد إذا تمكنت من النفس أوردتها المهالك ، وزين لها البغى والطغيان ، والإثم والعدوان . .

وفى قصة ابنى آدم نرى هذا المعنى واضحا ، فإن حسد قابيل لهابيل على رأس الأسباب التى حملته على قتله ، وكان هذا القتل من الأخ لأخيه هو أول جريمة قتل على ظهر الأرض .

قال الآلوسى : «أخرج الشيخان عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : لا تُقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كِفْل من دمها ـ أى : نصيب من دمها ـ ، لأنه أول من سنّ القتل» .

وأخرج ابن جرير والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال : «إنّا لنجد ابن آدم القاتل ، يقاسم أهل النار العذاب ، عليه شطر عذابهم»[1] .

والآية الكريمة التى جاءت فى أعقاب هذه القصة ، أشارت إلى شناعة جريمة القتل ، قال ـ تعالى ـ : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ ﴾ ـ أى : من أجل قتل قابيل لأخيه هابيل حسدا وظلما ومن أجل ما يترتب على القتل بغير حق من مفاسد ـ ﴿ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ ـ أى : من قتل نفسا واحدة من النفوس البشرية بغير موجب للقتل ـ أو فساد فى الأرض ،﴿ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا ﴾ ومن أحياها ـ أى : تسبب فى إحيائها ـ ﴿ فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ .

(هـ) أن ندم الإنسان على ما وقع منه من أخطاء ، لا يرفع عنه العقوبة ، لأن هذا الندم أمر طبيعى يحدث لكثير من الناس فى أعقاب ارتكابهم للشرور والقبائح . .

أما الندم الذى يرفع العقوبة عن الإنسان عند الله ـ تعالى ـ ، فهو الذى تعقبه التوبة الصادقة ، التى تجعل الإنسان يعزم عزما أكيدا على عدم العودة إلى ما نهى الله ـ تعالى ـ عنه فى الحال أو الاستقبال والتأسف على ما كان منه فى الماضى ، ورد المظالم إلى أهلها . .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٦ ص١١٥ .

قصة إدريس ـ عليه السلام ـ

ذكر المؤرخون فى نسب إدريس ـ عليه السلام ـ ، أنه ابن يارد ، بن مهلائيل ، بن قينان ابن أنوش ، بن شيث بن آدم ـ عليه السلام ـ .

قالوا : واسمه فى التوراة بالعبرية «خنوخ» وفى الترجمة العربية «أخنوخ» وقد جاء الحديث عنه فى القرآن الكريم بصورة مجملة ، قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا . وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [مريم : ٥٦ ، ٥٧]

أى : واذكر فى الكتاب الذى أنزلناه إليك يامحمد ، خبر أخيك إدريس ـ عليه السلام ـ فإنه كان ملازما للصدق ، وكان ممن شرفناهم بالنبوة .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ زيادة فى تكريمه وتشريفه ـ عليه السلام ـ .

أى : أنه فوق ملازمته للصدق وتكريمه بالنبوة ، رزقناه الرضا منا ، والمنزلة العالية التى لا يعلم مقدارها إلا الله ـ تعالى ـ .

وقيل المراد برفعه إلى المكان العلى : إسكانه الجنة ، إذ لا شرف أعلى من ذلك .

وروى أن النابغة الجعدى لما أنشد قوله :

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا ... وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

قال له الرسول ﷺ : «إلى أين يا أبا ليلى؟ قال : إلى الجنة . فقال ﷺ : أجل إن شاء الله» .

قال الآلوسى ـ رحمه الله ـ : «وإدريس هو نبى قبل نوح ـ عليهما السلام ـ ، وبينهما ألف سنة .

وهو أول من نظر فى النجوم والحساب ، وأول رسول بعد آدم ـ عليه السلام ـ .

وكان إدريس ـ عليه السلام ـ من بين الأنبياء الذين التقى بهم النبى ﷺ فى ليلة الإسراء والمعراج ، ففى الصحيحين عن مالك بن صعصعة ـ رضى الله عنه ـ قال : «قال ﷺ : فأتيت إدريس فسلمت عليه فقال : مرحبا بك من أخ ونبى» .

هذا ، ولم يرد نص صحيح من كتاب الله ـ تعالى ـ أو من السنة النبوية الشريفة ، عن القوم الذين أرسل الله ـ تعالى ـ إليهم نبيه إدريس ـ عليه السلام ـ إلا أن المؤرخين ذكروا

أنه ولد ببابل بالعراق ، وأن الله ـ تعالى ـ أرسله إلى أهل بابل ، ثم هاجر إلى مصر فأخذ يدعو أهلها إلى عبادة الله ـ تعالى ـ فأطاعه من أطاعه منهم ، وأعرض عنه من أعرض ، واستمر فى دعوته إلى إخلاص العبادة لخالقه إلى أن لقى ربه ـ تعالى ـ[1] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ١٦ ص١٠٥ .

قصة نوح ـ عليه السلام ـ مع قومه

١ ـ وردت قصة نوح ـ عليه السلام ـ مع قومه ، فى سور متعددة منها : سورة الأعراف ويونس وهود والمؤمنون والشعراء ونوح . .

وينتهى نسب نوح إلى آدم ـ عليهما السلام ـ وقد ذكروا أن المدة بينهما تقارب ألفى عام ، وتكرر ذكر نوح فى القرآن فى ثلاثة وأربعين موضعا .

وكان قوح نوح ـ عليه السلام ـ يعبدون الأصنام ، فأرسل الله ـ تعالى ـ إليهم نوحا ، ليرشدهم إلى عبادة الله ـ تعالى ـ وحده ، وينهاهم عن عبادة أحد سواه .

قال الإمام ابن كثير : قال ابن عباس : كان أول ما عبدت الأصنام ، أن قوما صالحين ماتوا ، فبنى قومهم عليهم مساجد ، صوروا صور أولئك الصالحين فيها ليتذكروا حالهم وعبادتهم فيتشبهوا بهم ، فلما طال الزمان ، جعلوا أجسادا على تلك الصور ، فلما تمادى الزمان ، عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين . وُدًّا ، وسُواعا ، ويَغُوث ، ويَعُوقَ ، ونَسْرا . .

فلما تفاقم الأمر بعث الله ـ تعالى ـ رسوله نوحا ، فأمرهم بعبادة الله ـ تعالى ـ وحده . .»[1] .

٢ ـ ومن الآيات التى تحدثت عن قصة نوح مع قومه ، قوله ـ تعالى ـ فى سورة الأعراف :

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٢٣٢ .

أى : لقد أرسلنا عبدنا نوحًا إلى قومه بعد أن عكفوا على عبادة الأصنام ـ ، فقال لهم بتلطف وأدب : يا أهلى وعشيرتى ، اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئا ، فإنى أخاف عليكم إذا ما سرتم فى طريق الشرك والضلال ، عذاب يوم القيامة ، الذى لا توصف أهواله فى الشدة والعظم .

بهذا الأسلوب المقنع المهذب دعا نوح ـ عليه السلام ـ قومه . فماذا كان ردهم عليه؟

لقد ردوا عليه ردا قبيحا ، حكاه القرآن فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ .

ولفظ ﴿الْمَلأُ﴾ يطلق على أشراف القوم وزعمائهم ، وسموا بذلك لأنهم يملأون العيون مهابة . وقيل : هم الرجال ليس فيهم نساء .

أى : قال الأغنياء والزعماء من قوم نوح ـ عليه السلام ـ فى الرد عليه : يا نوح إنا لنراك بسبب أمرك لنا بعبادة غير آلهتنا ، فى انحراف واضح عن الطريق الذى نعتقد استقامته .

ورحم الله الإمام ابن كثير فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : «وهكذا حال الفجار . إنهم ـ لانطماس بصائرهم ـ يرون الأبرار فى ضلالة . كما قال ـ تعالى ـ فى شأن الكافرين : ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ﴾ .

أى : وإذا ما أرى الكافرون المؤمنين قالوا عنهم : إن هؤلاء المؤمنين لضالون ؛ لأنهم تركوا ما كان عليه آباؤهم وأجدادهم .

٣ ـ ثم حكى القرآن الكريم أن نوحا ـ عليه السلام ـ قد دفع عن نفسه هذا الاتهام الباطل بأسلوب عف حكيم فقال : ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ. أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ .

فأنت ترى أن نوحا ـ عليه السلام ـ قد نفى عن نفسه أدنى شىء مما يسمى بالضلال الذى اتهموه به ، فضلا عن الضلال فى ذاته ، ثم وصف نفسه بعد ذلك بأربع صفات كريمة :

أولها قوله : ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى : قال لهم أنا لا يوجد بى شىء من الضلال ، ولكنى رسول إليكم من رب العالمين ، لآمركم بعبادته وحده ، وأنهاكم عن عبادة غيره .

وثانيها قوله : ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي﴾ أى : أبلغكم ما أوحاه الله ـ تعالى ـ إلىّ من الأوامر والنواهى ، والمواعظ والزواجر . .

وثالثها قوله : ﴿ وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾ أى : وأتحرى فى إبلاغكم النصيحة التى فيها صلاحكم وسعادتكم .

ورابعا قوله : ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ أى : وقد أعلمنى الله - بفضله وإحسانه - من الأمور ما لا تعلمونه أنتم ، فأنا أحذركم عن علم ، وأنذركم عن بينة .

٤ - وبعد أن نفى نوح عن نفسه ما وصفوه به من ضلال ، وأثبت لنفسه تلك الصفات الأربع ، أخذ ينكر عليهم استبعادهم أن يخصه الله - تعالى - بالنبوة فقال : ﴿ أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ .

والمعنى : أكذبتمونى واتهمتمونى بالضلال ، وعجبتم من أن جاءكم ذكر وموعظة من ربكم ، على لسان رجل منكم ، تعرفون مولده ونشأته وصدقه ، ليخوفكم من سوء عاقبة الكفر وليأمركم بتقوى الله - تعالى - وخشيته ، وليبشركم بالرحمة والمغفرة إذا ما أخلصتم عبادتكم لخالقكم؟

والاستفهام هنا للإنكار والتعجيب من حالهم .

أى : إن كان عجبكم من أنى قد جئتكم بما يصلحكم ، فأنتم فى هذه الحالة الذين تستحقون أن يتعجب منكم!!

٥ - هذا جانب من أسلوب نوح - عليه السلام - فى دعوته لقومه ، وقد كانت نتيجة مواقفهم القبيحة منه أن أغرقهم الله - تعالى - حيث قال - سبحانه - : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾ .

أى : فكذب هؤلاء القوم نبيهم نوحا ، فكانت نتيجة ذلك ، أن نجى الله نوحا ومن معه من الغرق ، وأغرق - سبحانه - الكافرين من قومه ؛ لأنهم كانوا عُمْىَ البصائر عن الحق والإيمان ، وهذه سنة الله - تعالى - فى خلقه أن جعل حسن العاقبة للمؤمنين ، وسوء المصير للكافرين .

٦ - وفى سورة «يونس» آيات كريمة ، حدثتنا عن جانب من قصة نوح - عليه السلام - حديثا يبرز لنا تصميمه على تبليغ رسالة الله - تعالى - وهذه الآيات هى قوله تعالى - :

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ

﴿ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾

أى : واتل - يا محمد ﷺ على مسامع المشركين من قومك ، قصة نوح - عليه السلام - مع قومه ، حيث قال لهم بكل ثبات وثقة : يا قوم ، إن كان قد شق وعظم عليكم مقامى فيكم ، ووجودى بين أظهركم زمنا طويلا ، وتذكيرى إياكم بآيات الله الدالة على وحدانيته وقدرته . . إن كان قد شق عليكم ذلك ، فأجمعوا ما تريدون جمعه من مكر وكيد بي ، ثم ادعوا شركاءكم وأصنامكم ليشاركوكم فى ذلك ، ثم لا يكن أمركم الذى أجمعتم على تنفيذه ، فيه شىء من الستر أوالخفاء أوالتردد ، ثم أبلغونى بما تريدون إنزاله بى من أذى أوقتل ، بدون إنظار أوإمهال ، فأنا لست خائفا من وعيدكم أوتهديدكم .

فأنت ترى أن نوحا - عليه السلام - قد تحدى قومه بأنه ماض فى طريقه ، دون أن يصرفه عن ذلك تهديدهم له ، أوسفاهتهم معه . ثم يواصل حديثه مع قومه ، بعد هذا التحدى السافر لهم فيقول : ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُم ﴾ أى : فإن أعرضتم عنى وعن دعوتى ﴿ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ .

أى : أنا لا أطالبكم بأجر على دعوتى لكم إلى الحق ، بل أطلب الأجر منه - تعالى - وحده ، فهو - سبحانه - الذى أمرنى أن أكون ممن أسلموا وجوههم لذاته .

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة نوح ، وسوء عاقبة الذين كذبوه فقال : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ ﴾ .

أى : وجعلنا هؤلاء الناجين خلفاء فى الأرض لأولئك المغرقين ﴿ فَانظُرْ ﴾ أيها العاقل ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴾ ؟ لقد كانت عاقبتهم أن أغرقهم الله بالطوفان ، ونجى نوحا ومن معه من المؤمنين .

٧ - وفى سورة هود وردت قصة نوح - عليه السلام - بصورة أكثر تفصيلا ، فقد تحدثت عن دعوة نوح لقومه ، وعن المحاورات التى دارت بينه وبينهم ، وعن أمر الله - تعالى - له بصنع السفينة ، وعن سخرية قومه منه ، وعن غرق ابنه مع الغارقين . .

وتبدأ هذه الآيات بقوله - تعالى - :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ
قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ
عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا
بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا
نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ
إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ
أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ
مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟
رَبِّهِمْ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَـٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ
ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى
خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ
تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ
إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا
بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن
شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ
إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ
ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾
وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ
بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا

تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ
عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ
كَمَا تَسۡخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ
عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ
فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ
وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ
مَجۡر۪ىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي
مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب
مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي
مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا
ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ
أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا
لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي
وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ
أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ
أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي
بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ
بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ
ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾

أى : لقد أرسلنا رسولنا نوحا إلى قومه ؛ ليأمرهم بإخلاص العبادة لنا ، ولينهاهم عن الكفر والضلال ، فحذرهم وأنذرهم ، ورغبهم ورهبهم . .

ولكن الأغنياء والزعماء من قومه قالوا له على سبيل السخرية : ما نراك إلا بشرا مثلنا ، فليست فيك ميزة تجعلك مختصا بالنبوة دوننا . .

فهم ـ لجهلهم وغبائهم ـ توهموا أن النبوة لا تكون فى البشر ، مع أن الحكمة تقتضى أن يكون النبى واحدا منهم حتى يفهموا عنه . .

ثم أضافوا إلى ذلك قولهم : وما نراك اتبعك إلا الذين هم فقراؤنا ، وأقلنا شأنا ، وأحقرنا حالا ، من غير أن يتثبتوا من حقيقة أمرك ، أو أنهم اتبعوك ظاهرا لا باطنا .

ثم أضافوا إلى مزاعمهم السابقة ، مزاعم أخرى فقالوا : وما نرى لكم علينا زيادة لا فى العقل ولا فى غيره ، بل الذى نعتقده أنكم كاذبون . .

٨ ـ وهنا نجد نوحا ـ عليه السلام ـ يرد عليهم ردا حكيما يزهق باطلهم فيقول :

أى : قال نوح لقومه : أخبرونى إن كنت على بصيرة من أمرى ، وحجة واضحة من ربى ، بها يتبين الحق من الباطل ، ومنحنى الله ـ تعالى ـ النبوة التى هى رحمة منه ، فخفيت عليكم ، وغاب عنكم الانتفاع بهداياتها . .

أأستطيع أنا بعد أن تبلدت عقولكم ، وركبكم العناد ، أن ألزمكم برأيى ، وأن أجبركم على اتباع الحق وأنتم له كارهون؟

مما لا شك فيه أنى لا أستطيع ذلك ، لأنى لست عليكم بجبار . .

ثم وجه نوح ـ عليه السلام ـ إلى قومه نداء ثانيا فقال : ﴿ وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً ﴾ أى : لا أسألكم أجرا على دعوتى إياكم إلى الحق ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ ﴾ ـ تعالى ـ وحده .

﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ .

أى : وما أنا بطارد الذين آمنوا بدعوتى سواء أكانوا فقراء أم أغنياء ، لأن الله ـ تعالى ـ سيحاسب الجميع على أعمالهم ، ولكن مع هذا البيان الواضح أراكم قوما تجهلون ما هو واضح ، لغبائكم وسفاهتكم وقلة إدراككم . .

ثم وجه إليهم نداء ثالثا فقال : ﴿ وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

أى : ويا قوم من يستطيع أن يجيرنى من عذاب الله - تعالى - إن طردت هؤلاء المؤمنين الفقراء عن مجلسى ، أفلا تتذكرون هذا الإرشاد الحكيم؟!!

ثم أخذ نوح - عليه السلام - بعد هذه النداءات لقومه ، يفند شبهاتهم شبهة بعد أخرى فيقول : ﴿ وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

أى : وأنا فضلا عن كل ذلك ، لا أقول لكم بأنى أملك خزائن الأرزاق ، ولا أقول لكم إنى أعلم الغيوب التى لا يعلمها إلا الله - عز وجل - ، ولا أقول لكم كذلك بأنى ملك من الملائكة ، وإنما أنا بشر مثلكم إلا أن الله - تعالى - قد اختصنى بالنبوة . .

ولا أقول لكم - أيضا - فى شأن الذين تحتقرونهم لفقرهم ، أن الله - تعالى - لن يؤتيهم خيرا كثيرا من فضله وكرمه ، فهو - سبحانه - هو الأعلم بما فى نفوسهم من خير أوشر . .

ولو قلت لكم شيئا من ذلك ، لكنت من الظالمين لأنفسهم . .

وهكذا نجد نوحا - عليه السلام - يجادل قومه بهذا الأسلوب المقنع الحكيم ، فيرد شبههم ، ويزيل أباطيلهم ، ويأتى على بنيانهم من القواعد . .

٩ - وعندما وجدوا أنفسهم عاجزين عن الرد على نوح - عليه السلام - بأسلوب ردّ الحجة بالحجة ، لجأوا إلى أسلوب التحدى وقد أخذتهم العزة بالإثم ، فقالوا - كما يحكى القرآن عنهم - : ﴿ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

أى : قال الكافرون من قوم نوح له بعد أن غلبتهم الحجة : يا نوح قد خاصمتنا حتى لم تترك لنا مجالا للرد عليك ، فأتنا بما تعدنا به من العذاب ، إن كنت من الصادقين فى كلامك . وهكذا شأن الجاهلين المعاندين ، إنهم يشهرون السيف فى وجوه الناس ، إذا أعجزتهم الحجة ، ويعلنون التحدى والعناد إذا يئسوا من مواجهة الحق . .

ولكن نوحا ـ عليه السلام ـ لم يخرجه هذا التحدى عن سمته الكريم ، وإنما رد عليهم بكل أدب بقوله : ﴿ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ . وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

أى : قال نوح لقومه بكل تواضع وأدب : يا قوم إن الذى يأتيكم بالعذاب الذى تستعجلونه هو الله ـ تعالى ـ وحده ، وإذا أنزله بكم فلن تستطيعوا الهروب منه . .

وإنى قد دعوتكم إلى الحق بكل أسلوب ، ولم أقصر معكم فى النصيحة ، ومع ذلك فإن نصحى لن يفيدكم شيئا مادمتم مصرين على كفركم . .

وإذا كان الله ـ عز وجل ـ قد أراد إضلالكم فلن أملك لكم من الأمر شيئا ، فهو ـ سبحانه ـ الذى بيده أموركم وأحوالكم ، وهو ـ سبحانه ـ ربكم وإليه مرجعكم وسيحاسبكم على أعمالكم .

وهكذا نجد نوحا ـ عليه السلام ـ قد سلك فى دعوته إلى الله ، أحكم السبل ، واستعمل أبلغ الأساليب ، وصبر على سفاهة قومه صبرا جميلا .

١٠ ـ ثم حكت السورة ـ الكريمة بعد ذلك ، أن الله ـ تعالى ـ قد أوحى إلى نبيه نوح ـ عليه السلام ـ أن قومه لا أمل فى إيمانهم ، ولا خير يرتجى منهم ، فقال ـ سبحانه ـ :

﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ .

أى : وبعد أن لج قوم نوح فى طغيانهم ، أوحى الله ـ تعالى ـ إلى نبيه نوح ، بأن يكتفى بمن معه من المؤمنين ، فإنه لم يبق فى قومه من يتوقع منه الإيمان ، وعليه ألا يحزن بسبب إصرارهم على الكفر .

ثم أمره ـ سبحانه ـ بأن يصنع سفينة ضخمة ، لتكون وسيلته هو ومن آمن معه فى النجاة من العذاب الذى سيصيب أعداءه فقال -تعالى- : ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ .

أى : برعايتنا وقدرتنا ﴿ وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ .

أى : ولا ترجونى يا نوح فى رحمة هؤلاء الظالمين ، فقد صدر قضائى بإغراقهم ولا راد لقضائى .

ثم حكى القرآن ما كان من شأن نوح بعد ذلك فقال : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ . فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ .

أى : وامتثل نوح لأمر ربه ، فأخذ يصنع السفينة ، فكان الكافرون من قومه كلما مروا به وهو يصنعها سخروا منه ، واستهزءوا به .

فكان جوابه عليهم : إن تسخروا منا اليوم ، فإنا سنسخر منكم فى الغد القريب ، وسوف تعلمون عما قريب ، من منا سينزل عليه العذاب الذى يخزيه ولا يتحول عنه .

١١ - ثم حكت الآيات بعد ذلك أن نوحا -عليه السلام- قد حمل فى السفينة من كل صنف ذكرا وأنثى ، وسارت السفينة به وبمن معه من المؤمنين فى موج كالجبال . .

قال ـ تعالى ـ : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ .

والمعنى : لقد امتثل نوح أمر ربه له بصنع السفينة ، حتى إذا ما تم صنعها ، وحان وقت نزول العذاب بالكافرين من قومه ، وتحققت العلامات الدالة على ذلك ، قال اللّه -تعالى- لعبده نوح -عليه السلام- : احمل فيها من كل نوع من أنواع المخلوقات التي أنت فى حاجة إليها ذكرا وأنثى ، واحمل فيها مَن آمن بك من أهل بيتك ، وكذلك جميع المؤمنين .

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما قاله نوح للمؤمنين عند ركوبهم السفينة فقال : ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ ﴾ .

أى : ونادى نوح ابنه الكافر وكان فى مكان منعزل عن جماعة المؤمنين فقال له بعاطفة الأبوة الحانية ﴿ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ . قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴾ .

قال نوح ـ عليه السلام ـ : ﴿ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ .

أى قال نوح لابنه : لا معصوم اليوم من عذاب اللّه إلا من رحمه اللّه -تعالى- بلطفه وإحسانه ، وفصل الموج بهديره بين نوح وبين ابنه ، فكانت النتيجة أن صار الابن الكافر من بين المغرقين .

وهكذا تصور لنا هذه الآية الكريمة ، ما دار بين نوح وابنه من محاورات ، فى تلك اللحظات الحاسمة المؤثرة ، التي يبذل فيها كل أب ما يستطيع بذله من جهود ، لنجاة ابنه من هذا المصير المؤلم . .

١٢ - وبعد أن أغرق اللّه -تعالى- الكافرين ، ونجى المؤمنين ، وجه -سبحانه- أمره إلى الأرض والسماء فقال : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ﴾ أى : اشربى أيتها الأرض ما على وجهك من ماء ﴿ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي ﴾ أى : كُفِّى عن إنزال المطر ﴿ وَغِيضَ الْمَاءُ ﴾ أى : نضب ونقص . . ﴿ وَقُضِيَ الأَمْرُ ﴾ أى : بهلاك الكافرين ونجاة المؤمنين ﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾ أى : واستقرت السفينة على الجبل المسمى بهذا الاسم بشمال العراق . . ﴿ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أى : هلاكا وَبُعداً للقوم الظالمين .

ثم ختم -سبحانه- قصة نوح مع قومه فى هذه السورة ، بتلك الضراعة التى تضرع بها نوح إلى ربه بشأن ولده فقال : ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ .

أى : وإن كل وعد تعده لعبادك هو الوعد الحق ، وأنت يارب قد وعدتنى بنجاة أهلى إلا من سبق عليه القول منهم ، لكنى فى هذا الموقف العصيب أطمع فى عفوك عن ابنى وفى رحمتك له ، فأنت يا إلهى لا راد لحكمك ، ولا معقب لأمرك . .

وهنا أجابه اللّه -سبحانه- بقوله : ﴿ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ . . ﴾ .

أى : قال اللّه -تعالى- لنوح : يا نوح إن ابنك ليس من أهلك المؤمنين الذين وعدتك بنجاتهم ، فإنه قد عمل فى دنياه الأعمال السيئة التى أشنعها الإصرار على الكفر . .

﴿ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ .

أى : فلا تسألن ما لا علم لك به على وجه اليقين أصواب هو أم خطأ؟ بل عليك أن تتثبت من صحة ما تطلبه قبل أن تقدم على طلبه ، وإنى أنهاك أن تكون من القوم الجاهلين ، الذين يسألون عن أشياء لا يتحققون وجه الصواب فيها .

وهنا بادر نوح إلى طلب العفو والمغفرة من ربه فقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

أى : قال نوح ملتمسا العفو من ربه : يارب إنى أعوذ بك ، وأحتمى بجنابك ، من أن أسألك شيئا بعد الآن ، ليس عندى علم صحيح بأنه جائز ولائق ، ﴿ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي ﴾ ما فرط منى من قول ﴿ وَتَرْحَمْنِي ﴾ برحمتك الواسعة ﴿ أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ لأنفسهم .

وختم اللّه -تعالى- هذه القصة ببشارة نوح -عليه السلام- بما يسره ويرضيه فقال : ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

أى : قال اللّه -تعالى- لنبيه نوح -عليه السلام- : يا نوح اهبط من السفينة مصحوبا منا بالأمان مما تكره ، وبالخيرات النامية والنعم الثابتة عليك وعلى أتباعك وأتباع أتباعك المؤمنين ، وهناك أمم أخرى سنمتعهم بنعمنا فى الدنيا ، ثم يمسهم منا عذاب أليم فى الآخرة ، بسبب جحودهم لنعمنا ، وعدم شكرنا عليها .

وهكذا نجد أن سورة هود -عليه السلام- قد ساقت لنا جانبا من قصة نوح مع قومه ، بصورة أكثر تفصيلا لها من غيرها .

١٣ - وفى سورة «المؤمنون» آيات كريمة ، تحدثت عن جانب من المحاورات التى دارت بين نوح -عليه السلام- وبين قومه ، وعن آلهتهم الباطلة التى وجهها الكافرون إلى نبيهم نوح -عليه السلام- ، وعن الدعوات الخاشعة التى تضرع بها إلى ربه -عز وجل- .

وتبدأ هذه الآيات بقوله -تعالى- :

إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾

﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾

أى : قال نوح لقومه وهو يدعوهم إلى عبادة الله -تعالى- وحده : أفلا تتقون الله -تعالى- ، وتخافون عقوبته ، بسبب عبادتكم لغيره . .

ثم حكى -سبحانه- ما رد به قوم نوح عليه فقال : ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ . إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ .

أى : فقال الكبراء الكافرون من قوم نوح -عليه السلام- لضعفائهم ، وعلى سبيل التحذير من الاستماع إلى دعوة نبيهم : ما نوح إلا بشر مثلكم ، ولكنه ابتدع هذا الدين الجديد ليكون له الفضل عليكم ، ولو شاء الله -تعالى- أن يرسل رسولا لأرسله من الملائكة . .

وإن ما جاءنا به نوح ما سمعنا به من آبائنا الأولين الذين ندين بدينهم . . وإن نوحا ما هو إلا رجل به حالة من الجنون والخبل ، فانتظروا عليه إلى وقت شفائه أو موته ، وعندئذ تستريحون منه ومن دعوته التى ما سمعنا بها فى آبائنا الأولين .

فأنت ترى أن القوم قد واجهوا نبيهم نوحا -عليه السلام- بأقبح مواجهة ، حيث وصفوه بأنه يريد من وراء دعوته لهم السيادة عليهم ، وأنه ليس نبيا ، لأن الأنبياء -فى زعمهم- لا يكونون من البشر ، وأنه قد خالف ما ألفوه من آبائهم ، ومن خالف ما كان عليه آباؤهم لا يجوز الاستماع إليه ، وأنه مصاب بالجنون ، وأنه عما قريب سيأخذه الموت ، أو يشفى مما هو فيه .

وهكذا الجهل والغرور والجحود ، عندما يستولى على النفوس ، يحول فى نظرها الإصلاح إلى إفساد ، والإخلاص لله إلى حب للرياسة ، والشىء المعقول المقبول ، إلى شىء غير معقول وغير مقبول ، وكمال العقل ورجحانه إلى جنونه ونقصانه .

١٤ - ثم يحكى القرآن الكريم أن نوحا -عليه السلام- بعد أن استمع إلى ما قاله قومه فى شأنه من ضلالات وسفاهات ، لجأ إلى ربه -عز وجل- يشكو إليه ما أصابه منهم ،

ويلتمس منه النصر عليهم فيقول -كما حكى القرآن عنه- ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ .

أي : يا رب انصرنى عليهم ، بسبب تكذيبهم لى ، وتطاولهم علىّ ، وسخريتهم منى ، وإصرارهم على كفرهم .

وقد أجاب -سبحانه- دعاء رسوله نوح -عليه السلام- فقال : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ أى : برعايتنا وحفظنا . .

﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾ أى : فإذا ما اقترب وقت عقابنا لهم ، وحانت ساعته ، وظهرت علاماته ، وهي غليان الماء الذى ينبع من فوق التنور ، وهو الفرن الذى يخبز فيه الخبز . . ﴿ فَاسْلُكْ فِيهَا ﴾ أى : فى السفينة ﴿ مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ أى : فأدخل فى السفينة من كل نوع من أنواع المخلوقات التى أنت فى حاجة إليها ذكرا وأنثى ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ .

أى : واصحب فى السفينة معك -أيضا- أهلك المؤمنين ، إلا من بقى على الكفر منهم فاتركه ولا تصحبه معك ولا تكلمنى في شأن أحد من هؤلاء الكافرين ، فإن العذاب سيهلكهم جميعا .

ثم أرشد -سبحانه- نوحا إلى ما يقوله بعد أن يستقر على السفينة فقال : ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ .

أى : فإذا ما استويت -يا نوح- أنت ومن معك من المؤمنين على السفينة ، فاحمدوا الله -تعالى- حمدا كثيرا ، حيث نجاكم من القوم الظالمين ، وقولوا يا ربنا أنزلنا مكانا مباركا مليئا بالخيرات ، وأنت يا إلهنا خير المنزلين لنا بفضلك وكرمك فى المكان الطيب .

وهكذا نرى أن هذه الآيات الكريمة ، قد ساقت لنا بأسلوبها البليغ الحكيم ، جانبا من قصة نوح مع قومه ، نرى فيه أدب نوح فى دعوته إلى الحق ، كما نرى فيه سفاهات قومه ، ولجوئه إلى الله -تعالى- لكى ينصره عليهم .

١٥ ـ وفى سورة الشعراء ، نجد جانبا من هذه القصة ، ولكن بأسلوب آخر ، تبدو فيه حكمة سيدنا نوح -عليه السلام- ورده الحاسم ، وثقته فى نصر ربه له . . وتبدأ هذه الآيات بقوله -تعالى- :

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾

أى : أن قوم نوح -عليه السلام- بسبب تكذيبهم له ، كأنهم قد كذبوا كل رسول بعثه الله -تعالى- لأن رسالة الرسل جميعا واحدة فى أصولها .

ثم حكى -سبحانه- ما قاله نوح لهم فقال : ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ . إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ .

أى : قال نوح -عليه السلام- لقومه بلسان صادق ، وبمحبة خالصة : يا قوم اتبعوا أمرى ، وأخلصوا العبادة لخالقكم ، واتركوا عبادة غيره ، فأنا لكم رسول أمين ، ولا أطلب منكم أجرا على دعوتى ، وإنما أطلبه من اللّه وحده ، وما دام الأمر كذلك فاسمعوا قولى واتبعوا نصيحتى .

وهكذا نرى أن نوحا -عليه السلام- قد سلك مع قومه أحكم الطرق فى دعوتهم إلى الله -تعالى- ، فقد حضهم على تقوى الله ثلاث مرات ، بعد أن بين لهم أخوته لهم ، وأمانته عندهم ، وتعففه عن أخذ أجر منهم . .

فماذا كان ردهم عليه؟ لقد كان ردهم سيئا وقبيحا حيث قالوا له : ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ ﴾ .

أى : قالوا له بسفه وغرور : «أنؤمن لك والحال أن الذين اتبعوك من فقراء الناس وضعفائهم؟ وهنا يرد عليهم نوح -عليه السلام- ردا حكيما فيقول : ﴿ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ . وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ . إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

أى : قال لهم على سبيل الاستنكار لما واجهوه به : وأى علم لى بأعمال أتباعى ، إن الذى يعلم حقيقة نواياهم وأعمالهم هو الله -تعالى- ، أما أنا فوظيفتى قبول أعمال الناس على حسب ظواهرها ، وحسابهم بعد ذلك على الله -تعالى- وما أنا بحال من الأحوال بطارد المؤمنين الذين اتبعونى وصدقونى سواء أكانوا من الأغنياء أم من الفقراء ، فأنت ترى أن نوحا -عليه السلام- قد جمع فى رده عليهم ، بين المنطق الرصين الحكيم ، وبين الحزم والشجاعة والزجر الذى يخرس ألسنتهم . .

لذا نراهم وقد أخرسهم المنطق القويم يلجأون إلى التهديد والوعيد فيقولون له : ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ أى : لئن لم تكف عن دعوتك لرجمناك بالحجارة حتى تموت .

وهنا لجأ نوح إلى ربه يسأله النصر على قومه بعد أن لبث فيهم زمنا طويلا فقال : ﴿ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ . فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

قال نوح ملتمسا النصر من ربه : يا رب إن قومى قد كذبوا دعوتى ، فاحكم بينى وبينهم بحكمك العادل ، ونجنى ومن معى من المؤمنين من عذابك وعقابك ، فأجاب الله -تعالى- دعاء نبيه نوح -عليه السلام- فأنجاه ومن معه من المؤمنين فى السفينة التى امتلأت بهم وبما هم فى حاجة إليه ، ثم أغرقنا بعد إنجائهم الباقين على كفرهم من قومه .

إن فى ذلك الذى ذكرناه لك -أيها الرسول الكريم- من قصة نوح مع قومه لعبرة وعظة ، وما كان أكثر قومه من المؤمنين ، ولكن كان أكثرهم من الضالين ، وإن ربك -أيها الرسول الكريم - لهو العزيز الرحيم .

وهكذا ساقت لنا سورة الشعراء جانبا من قصة نوح مع قومه ، وهذا الجانب فيه ما فيه من العبر لقوم يتفكرون .

١٦ - وفى القرآن الكريم سورة كاملة تسمى بسورة نوح -عليه السلام- ، والمتدبر لهذه السورة الكريمة يراها تحكى لنا ما قاله نوح لقومه ، وما ردوا به عليه . .

كما تحكى لنا تضرعه إلى ربه ، وما سلكه مع قومه فى دعوتهم إلى الحق ، تارة عن طريق الترغيب ، وتارة عن طريق الترهيب ، وتارة عن طريق دعوتهم إلى التأمل والتفكر فى نعمة الله -تعالى- ، عليهم ، وتارة عن طريق تذكيرهم بخلقهم . .

كما تحكى لنا أنه بعد أن مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، ولم يؤمن معه منهم إلا القليل ، دعا الله -تعالى- أن يستأصل شأفتهم ، فأجاب الله -تعالى- دعوته ، وأغرق أعداءه جميعا .

وتبدأ هذه السورة بقوله ـ تعالى ـ : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ . أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ . يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ـ أى : إلى وقت معين لم تتجاوزه ـ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

١٧ ـ ثم قصت علينا السورة الكريمة بعد ذلك ، ما تضرع به نوح إلى ربه ، وما وجهه إلى قومه من نصائح فيها ما فيها من الترغيب والترهيب ، ومن الإرشاد الحكيم ، والتوجيه السديد ، فقال : -تعالى- :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ﴾

[نوح]

أى :قال نوح متضرعا لله ربه : يا رب إنك تعلم أننى لم أقصر فى دعوة قومى إلى عبادتك ، تارة بالليل وتارة بالنهار ، من غير فتور ولا توان ، فلم يزدهم دعائى إلى عبادتك إلا فرارا وتباعدا عنى . .

بل إنى كلما دعوتهم إلى طاعتك لكى ينالوا مغفرتك ، ما كان منهم إلا أن جعلوا

أطراف أصابعهم فى آذانهم حتى لا يسمعوا قولى ، وإلا أن وضعوا ثيابهم على رءوسهم وأبصارهم حتى لا يرونى ، وإلا أن أصروا إصرارا تاما على كفرهم وغرورهم . .

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد صورت نفورهم وعنادهم أكمل تصوير . . ومع كل ذلك فإن نوحا -عليه السلام- واصل دعوته لهم بشتى الأساليب ، فقال -كما حكى القرآن عنه- : ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴾ أى : علانية ﴿ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ أى : خاطبت بعضهم أمام بعض تارة ، وخاطبت بعضهم سرا تارة أخرى ، مراعيا ما يقتضيه حال كل واحد منهم .

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ أى : يرسل عليكم الأمطار التى أنتم فى حاجة إليها بكثرة وغزارة .

وفضلا عن ذلك : ﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ ﴾ أى : بساتين يانعة ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ جارية تحت أشجار هذه البساتين .

وبعد هذا الترغيب فى الحصول على الخير متى أخلصوا عبادتهم للّه -تعالى- ، انتقل نوح -عليه السلام- إلى ترهيب قومه من الإصرار على الكفر والعناد فقال لهم : ﴿ مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا . وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ .

أى : ما الذى حدث لكم -أيها القوم- حتى صرتم لا تخشون عظمة اللّه وجلاله ، مع أنه -سبحانه- هو الذي خلقكم فى أطوار متعددة ، نطفة فعلقة فمضغة ثم خلقاً آخر . .

وبعد هذا الترغيب والترهيب والتوبيخ ، أخذ فى لفت أنظارهم إلي مظاهر بديع صنع اللّه فى خلقه فقال لهم : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا . وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا . . ﴾ .

أى : لقد علمتم وشاهدتم بأعينكم : أن اللّه -تعالى- وحده هو الذى خلق هذه السماوات السبع المتطابقة ، وهو الذى جعل بقدرته القمر فى السماء الدنيا نورا للأرض وما فيها ،وجعل الشمس كالسراج المضىء فى تحويل الليل إلى نهار . .

ثم انتقل نوح بعد كل هذه النصائح والإرشادات ، إلى لفت أنظارهم إلى التأمل فى خلق أنفسهم فقال لهم : ﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا . ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ .

أى : والله -تعالى- بقدرته ، هو الذى أوجدكم وأنشأ أباكم آدم من الأرض إنشاء ، وجعلكم فروعا عنه ، ثم يعيدكم إلى هذه الأرض بعد موتكم لتكون قبورا لكم ، ثم يخرجكم منها يوم البعث للحساب والجزاء .

ثم ختم نوح -عليه السلام- نصائحه وإرشاداته لقومه ، بلفت أنظارهم إلى نعمة الأرض التى يعيشون عليها فقال : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا . لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا ﴾ .

أى : والله -تعالى- وحده هو الذى جعل لكم بقدرته وفضله الأرض مبسوطة ، لكى تتخذوا منها لأنفسكم طرقا متسعة .

وهكذا نرى أن نوحا -عليه السلام- قد سلك مع قومه مسالك متعددة ، لكى يقنعهم بصحة وصدق ما يدعوهم إليه . .

لقد دعاهم بالليل والنهار ، وفى السر وفى العلانية ، وبين لهم أن طاعتهم لله -تعالى- تؤدى إلى إمدادهم بالأموال والأولاد ، والجنات والأنهار ، ووبخهم على عدم خشيتهم من الله -تعالى- ، وذكرهم بأطوار خلقهم ولفت أنظارهم إلى بديع صنعه فى خلق السماوات والأرض ، والشمس والقمر ، ونبههم إلى نشأتهم من الأرض وعودتهم إليها ، وإخراجهم منها ، وأرشدهم إلى نعم الله -تعالى- فى جعل الأرض مبسوطة لهم .

وهكذا حاول نوح -عليه السلام- أن يصل إلى آذان قومه ، وإلى عقولهم ، وقلوبهم ، بشتى الأساليب الحكيمة ، والتوجيهات القويمة ، فى صبر طويل ، وإرشاد دائم .

١٨ - ولكن قومه كانوا قد بلغوا الغاية فى الغباء والعناد والجهالة والطغيان ، لذا نرى السورة الكريمة تحكى عنه ضراعته إلى ربه ، والتماسه منه القضاء عليهم . . ولنستمع فى تدبر إلى قوله -تعالى- : ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا . وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا . وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا . وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً ﴾ .

أى : قال نوح متضرعا إلى ربه : يا رب إن قومى قد عصونى ، وكرهوا صحبتى ، واتبعوا رؤساءهم وأغنياءهم أصحاب الأموال والأولاد ، الذين أبطرتهم النعمة ، ولم يشكروك عليها . وإنهم لم يكتفوا بذلك بل مكروا بى وبالمؤمنين معى مكرا كبيرا ، قد بلغ النهاية القصوى فى القبح والسوء . .

وكان من مظاهر مكرهم أنهم قالوا لسفلتهم : احذروا أن تتركوا عبادة آلهتكم التى

وجدتم عليها آباءكم ، واحذروا أن تتركوا بصفة خاصة عبادة هذه الأصنام الخمسة وهى : وُدّ وسُواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونَسرَ . . ولم يكتفوا -أيضا- بكل هذا المكر ، بل أضافوا إليه أنهم حببوا غيرهم فى الكفر ، ونفروه من عبادتك وطاعتك ، فأسألك -يا رب- ألا تزيد هؤلاء الكفار الفجرة إلا ضلالا على ضلالهم ، وكفرا على كفرهم ، وأن تأخذهم بقدرتك التى لا يعجزها شىء أخذ عزيز مقتدر .

وأجاب اللّه -تعالى- دعاء رسوله نوح -عليه السلام- حيث قال : ﴿ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴾ .

أى : بسبب خطيئاتهم الشنيعة ، أغرق اللّه -تعالى- الكافرين من قوم نوح ، فأدخلهم فى أعقاب غرقهم نارا يصلونها فى قبورهم إلى يوم الدين ، ولم يجدوا أحدا ينصرهم من عذاب اللّه -تعالى- .

ثم واصلت السورة الكريم حكاية ما ناجى نوح به ربه فقال -تعالى- : ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا . إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ .

أى : وقال نوح -عليه السلام- متابعا حديثه مع ربه ، ومناجاته له ؛ يا رب لا تترك على الأرض من هؤلاء الكافرين واحدا منهم يسكن دارا ، أو يدور فى الأرض ، ويتحرك عليها ، لأنك -يا إلهى- إن تركتهم أضلوا عبادك المؤمنين ، وفى الوقت نفسه لن يلد هؤلاء الفجار إلا فجارا مثلهم . .

ونوح -عليه السلام- لم يدع على قومه بتلك الدعوات ، إلا بعد أن لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، يدعوهم إلى الحق بشتى الأساليب ، ولكنهم استحبوا العمى على الهدى .

ثم اختتم نوح دعاءه ، واختتمت السورة عرضها لقصته ، بهذا الدعاء الحار : ﴿ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾ .

أى : قال نوح -عليه السلام- فى ختام دعائه : يا رب اغفر لى ، واغفر لوالدى -أيضا- ذنوبهما ، واغفر كذلك لمن دخل بيتى وهو متصف بالإيمان ، واغفر -أيضا يا رب ذنوب المؤمنين والمؤمنات بك إلى يوم القيامة . .

ولا تزد الظالمين إلا هلاكا وخسرانا ودمارا . .

وهكذا اختتمت السورة الكريمة بهذا الدعاء الذى فيه طلب الرحمة والمغفرة للمؤمنين ، وطلب الدمار والهلاك للكافرين .

جانب من العبر والعظات من قصة نوح ـ عليه السلام ـ

١٩ - ذكرنا فيما سبق ، أن قصة نوح -عليه السلام- مع قومه ، قد تكررت فى القرآن الكريم فى سور متعددة ، وبأساليب متنوعة ، كلها فى أسمى درجات البلاغة والتأثير والإحكام . .

ونريد هنا أن نذكر أهم الدروس والعبر التى نأخذها من هذه القصة فنقول :

(أ) على رأس الدروس النافعة والعظات البليغة التى نتعلمها من هذه القصة : درس الصبر . الصبر فى أداء التكاليف التى كلفنا اللّه -تعالى- بها ، والصبر على أذى السفهاء والجهلاء ، والصبر فى مواجهة الأعداء ، والصبر فى كل أمر يحمد معه الصبر . .

إننا نقرأ قصة سيدنا نوح -عليه السلام - مع قومه ، فتراه قد مكث فيهم ما يقرب من ألف سنة ، يدعوهم إلى توحيد اللّه وإلى إخلاص العبادة له -تعالى- وحده ، وينهاهم عن عبادة غيره .

قال -تعالى- : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ . فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ . (١)

قال بعض العلماء : بعث اللّه -تعالى- نوحا -عليه السلام- وهو فى سن الأربعين من عمره ، ومكث يدعو قومه إلى وحدانية الله -تعالى- ألف سنة إلا خمسين عاما ، وعاش بعد الطوفان ستين سنة . والمقصود بذكر هذه المدة الطويلة التى قضاها نوح -عليه السلام- مع قومه ، تسلية الرسول ﷺ ، وتثبيته .

فكأن اللّه -تعالى- يقول لنبيه محمد ﷺ : لقد لبث أخوك نوح تلك الفترة الطويلة ، ومع ذلك لم يؤمن معه سوى عدد قليل من قومه .

قيل : كان عدد الذين آمنوا به فى تلك المدة الطويلة ثمانين ، ما بين رجل وامرأة . . فعليك -أيها الرسول الكريم- أن تقتدى بأخيك نوح فى صبره وفى مطاولته لقومه . إن الصبر إذا كان لازما فى كل موطن يطلب فيه الصبر ، فهو فى موطن الدعوة إلى اللّه -تعالى- ألزم وأوجب . .

وخير الدعاة إلى اللّه -تعالى- هو ذلك الإنسان ، الذى يصبر علي إرشاد المدعوين صبرا جميلا ، ولا يضيق بأخطائهم أو إعراضهم ، فإن الصبر ضياء - كما جاء فى الحديث الشريف .

---
(١) سورة العنكبوت الآيتان ١٤ ، ١٥ .

(ب) كذلك من الدروس الحكيمة التى نتعلمها من قصة نوح -عليه السلام- مع قومه : أن الإنسان العاقل الحكيم هو الذى يتلقى شبهات خصمه وأكاذيبه . . بصدر رحب ، وعقل سليم ثم يرد عليها بما يدحضها ويهدمها من قواعدها . .

تدبر معى -أخى القارئ- قصة نوح -عليه السلام- مع قومه فى مواضعها من سور القرآن الكريم ، تجد أن قومه قد رموه بأفحش التهم ، وأقبح الصفات . . ومع ذلك فقد تلقى تهمهم وأكاذيبهم بثبات وصبر ، ثم رد عليها بما يدحضها . . ففى سورة الأعراف يقولون له : ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ .

فينفى عن نفسه هذه التهمة نفيا قاطعا ، ثم يصف نفسه بأربع صفات كريمة . . استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى ذلك عنه فيقول :﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ ﴾ .

أى : ليس بى أى شىء من الضلال فضلا عن الضلال نفسه ، ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى . وأنصح لكم . وأعلم من الله ما لا تعلمون . .

وفى سورة (هود) نرى الملأ الذين كفروا من قومه يقولون له : ﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ .

فهم قد عللوا كفرهم بما جاء به نبيهم نوح -عليه السلام- بثلاث علل ، أولها : أنه بشر مثلهم والبشر -فى زعمهم- لا يكون نبيا ، وثانيها : أن أتباعه من فقرائهم ، وثالثها : أنه لا مزية له ولا لأتباعه عليهم بل إن نوحا وأتباعه فى نظرهم كاذبون .

وهنا نجد نوحا -عليه السلام- قد رد عليهم بما يخرص ألسنتهم ، ويبطل دعاواهم ، فهو يقول لهم -كما حكى القرآن عنه- :

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ
إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ
أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ
مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟

﴿رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ۝٢٩ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣٠ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٣١﴾

وهكذا نجد نوحا -عليه السلام- يشرح لقومه بأسلوب مهذب حكيم حقيقة أمره ، ويرد على شبهاتهم بما يزهقها ، وبما يجعلهم يقفون مبهوتين أمام حججه الناصعة ، وبيانه الدامغ لباطلهم . .

والداعية العاقل الحصيف ، هو الذى يفتح صدره لنقد خصمه له ، ثم يرد عليه بالحجة الواضحة ، ويجعله فى موقف العاجز عن قرع الحجة بالحجة . .

(جـ) ومن أبلغ الدروس التى نتعلمها من قصة نوح مع قومه : الشجاعة فى إبداء الرأى ، والغيرة على الحق ، وإفهام المعترضين على دعوته إلى اللّه -تعالى- ، أنه سيمضى فى طريقه دون أن يثنيه عن ذلك وعد أو وعيد . .

استمع إليه وهو يتحدى قومه بأنه لن يتردد فى تبليغ رسالة اللّه -تعالى- مهما كانت العقبات فيقول لهم : ﴿ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ ﴾ . (1)

أى : أن نوحا -عليه السلام- قد خاطب قومه بكل شجاعة ووضوح فقال لهم : يا قوم إن كان قد شق عليكم مقامى فيكم ، وتذكيرى إياكم بآيات اللّه فأجمعوا ما تريدون جمعه من مكر وكيد بى ، ثم ادعوا شركاءكم وأصنامكم ليساعدوكم على محاربتى ، فإنى لن ألتفت إلى كل ذلك ، ولكنى ماض فى طريقى الذى أمرنى اللّه -تعالى- به ، بدون مبالاة بمكركم ، وبدون اهتمام بكيدكم .

والمتأمل فى هذا القول من نوح لقومه ، يراه قد بلغ النهاية في الشجاعة والثبات على مبدئه ، إنه -أولا- يصارحهم بأنه ماض فى طريقه الذى أمره اللّه -تعالى- بالمضى فيه .

وهو -ثانيا- يتحداهم ويتحدى أصنامهم معهم . .

---

(1) سورة يونس الآية ٧١ .

وهو -ثالثا- يطالبهم بأن يتخذوا قرارهم بشأنه بدون تستر أو خفاء . .

وهو -رابعا- يأمرهم بأن يبلغوه ما توصلوا إليه من قرارات ، وأن ينفذوها بدون إبطاء حتى لا يتركوا له فرصة للاستعداد للنجاة من مكرهم .

وهكذا نرى نوحا -عليه السلام- يتحدى قومه هذا التحدى السافر المثير ، حتى إنه ليغريهم بنفسه ، ويفتح لهم الطريق لإيذائه وإهلاكه -إن استطاعوا- ، ويستخف بكل ما لديهم من قوة . .

وما لجأ -عليه السلام- إلى هذا التحدى الواضح المثير ، إلا لأنه كان واثقا من نصر اللّه -تعالى- له ، ومعتمدا على حفظه ورعايته ، التى تتضاءل أمامها كل قوة ، وتتهاوى إزاءها كل سطوة .

وهكذا نرى القرآن الكريم يسوق للدعاة إلى اللّه -تعالى- فى كل زمان ومكان ، تلك المواقف المشرقة لرسل اللّه -تعالى- ، لكى يقتدوا بهم فى شجاعتهم ، وفى اعتمادهم على اللّه -عز وجل- وحده ، وفى ثباتهم أمام الباطل ، مهما بلغت قوته ، واشتد جبروته . .

ومتى فعلوا ذلك ، كانت العاقبة لهم ، وكان النصر حليفهم ، لأن اللّه -تعالى- قد تعهد أن ينصر من ينصره .

(د) كذلك من الدروس النافعة التى نتعلمها من قصة نوح -عليه السلام- أن الإنسان العاقل ، والمرشد الحكيم ، هو الذى يسوق لغيره النصائح والإرشادات ، بأساليب متنوعة ، تارة عن طريق الترغيب والترهيب ، وأخرى عن طريق الدعوة إلى التأمل والتدبر فى عجائب هذا الكون ، وأحيانا عن طريق بيان مظاهر نعم اللّه على خلقه . . انظر إلى نوح -عليه السلام- إنه دعا قومه إلى إخلاص العبادة للّه -تعالى- ليلا ونهارا ، وسرا وجهرا .

ولم يسق لهم دعوته بأسلوب واحد ، بل نراه فى سورة «نوح» -مثلا- يرشدهم إلى أن استغفارهم لربهم ، وطاعتهم له ، وخوفهم منه ، ونبذهم لعبادة تلك الأصنام ، كل ذلك سيؤدى إلى نزول المطر على أرضهم فتتحول من جدباء إلى خضراء ، كما يؤدى إلى أن يمدهم -سبحانه- بزينتى الحياة الدنيا ، وهما الأموال والأولاد ، وبالبساتين والزروع اليانعة . .

وعندما يجدهم لم ينتفعوا بالترغيب ، يلجأ إلى الترهيب والزجر والتوبيخ ، منكرا عليهم استهتارهم واستخفافهم بما يدعوهم إليه .

ثم بعد هذا الترغيب والترهيب والتوبيخ ، يأخذ فى تذكيرهم بعجائب هذا الكون الذى أحسن الخالق -عز وجل- خلقه وصنعه . .

فيلفت أنظارهم إلى بديع صنعه -عز وجل- فى خلق السموات والأرض ، والشمس والقمر ، وينبههم إلى نشأتهم من الأرض ، وعودتهم إليها ، وإخراجهم منها للحساب والجزاء . .

ونرى كل هذه الأساليب المتنوعة فى الدعوة إلى اللّه ، مجموعة فى آيات معدودة ألا وهى قوله -سبحانه- : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا . وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا . مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا . وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا . أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا . وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا . وَاللَّهُ أَنْبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا . ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا . وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا . لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا ﴾ .

وهكذا نرى نوحا -عليه السلام- حاول أن يصل إلى آذان قومه ، وإلى عقولهم وقلوبهم ، بشتى الأساليب الحكيمة ، والتوجيهات القويمة ، فى صبر طويل ، وإرشاد دائم .

وما أحوج الدعاة والمرشدين إلى الانتفاع بهذه الأساليب فى دعوتهم إلى الحق .

(هـ) ومن أبلغ وأجلّ الدروس التى نأخذها من قصة نوح -عليه السلام- : عفافُه عما فى أيدى قومه ، وعدم التطلع إلى ما فى أيديهم من أموال ، واستخفافه بكل ما يملكون من حطام الدنيا ، وإيثاره ما عند الله -تعالى- على ما عندهم ، ومصارحته لهم بأنه لا يريد أجرا منهم على ما يدعوهم إليه ، مع أن ما يدعوهم إليه فيه سعادتهم وعزتهم وقوتهم وغِناهم . .

وهو لا يتوانى أبدا فى تذكيرهم بهذه الحقيقة ، حتى لا يتوهم متوهم منهم أن نوحا -عليه السلام- إنما يريد من وراء دعوته لهم ،المال أو الجاه أو غيرهما . انظر إليه تراه فى سورة «يونس» ، بعد أن يتحداهم ويتحدى شركاءهم ، يقول لهم : ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس : ٧٢]

أى : فإن أعرضتم -أيها الناس- عن قولى وعن تذكيرى إياكم بآيات اللّه -تعالى- بعد وقوفكم على أمرى وعلى حقيقة حالى ، فأنتم وشأنكم ، فإنى لم أسألكم أجرا على دعوتكم إلى الحق والخير ، وإنما ألتمس الأجر من اللّه -تعالى- وحده ، فهو -سبحانه- الذى يثيبنى على قولى وعملى ، وهو الذى يعطينى من الخير ما يغنينى عن أجركم ، وهو -سبحانه- الذى أمرنى أن أكون من المنقادين لأمره ، المتبعين لهدية ، المستسلمين لقضائه وقدره .

ثم انظر إليه فى سورة «هود» يكرر لهم هذا المعنى ، وهو استغناؤه عنهم ، والتماس الأجر من اللّه -تعالى- وحده ، فيقول : ﴿ وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ [هود : ٢٩]

أى : لا أطلب منكم مالا فى مقابل تبليغ ما أمرنى اللّه بتبليغه إليكم ، وإنما أطلب الأجر والرزق من اللّه -تعالى- وحده . .

وفى سورة «الشعراء» يؤكد لهم هذا المعنى للمرة الثالثة فيقول : ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء : ١٠٩]

أى : أنى لا أسألكم على هذا النصح والإرشاد من أجر دنيوى ، إن أجرى فيما أدعوكم إليه إلا على رب العالمين ، الذى خلقنى وخلقكم ، ورزقنى ورزقكم .

والحق ، أن هذا التعفف عما فى أيدى الناس ، والترفع عن عطاياهم ، والتماس الأجر والعطاء من اللّه -تعالى- وحده ، هو خير سلاح للداعية القوى الأمين لكى يبلغ رسالة اللّه دون أن يخشى أحدا سواه ، وذلك لأن الحرص على أخذ أجر من الناس على الدعوة إلى الحق ، يذل الرقاب ، ويخرس الألسنة عن النطق بما هو خير وصواب .

قصة هود -عليه السلام- مع قومه

١ - وردت قصة هود -عليه السلام- فى سور متعددة من سور القرآن الكريم ، تارة بصورة فيها شىء من التفصيل كما فى سور : الأعراف وهود والمؤمنون والشعراء والأحقاف وتارة بشىء من التركيز والإيجاز كما فى سور : فصلت والذاريات والقمر والحاقة والفجر . .

وينتهى نسب هود إلى نوح -عليهما السلام- فهو- كما يقول بعض المؤرخين- هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود ، بن عاد ، بن عوص ، بن إرم ، بن سام بن نوح . وقومه هم قبيلة عاد ، نسبة إلى جدهم الذى كان يسمى بهذا الاسم . .

وكانت مساكنهم بالأحقاف -جمع حقْف وهو الرمل الكثير المائل- ، وهذا المكان يسمى الآن بالربع الخالى جنوب الجزيرة العربية .

وكان قوم هود -عليه السلام- يعبدون الأصنام ، فأرسله الله -تعالى- إليهم ، ليأمرهم بعبادة الله -تعالى- وحده ، وينهاهم عن عبادة أحد سواه .

ويقال إن هودا - عليه السلام- أرسله الله -تعالى- إلى عاد الأولى ، أما عاد الثانية فهم قوم صالح -عليه السلام- وبينهما زهاء مائة سنة .

٢ ـ وفى سورة الأعراف آيات كريمة ، تحدثت عن دعوة هود لقومه ، وعن المحاورات التى دارت بينه وبين قومه ، وعن النهاية السيئة التى صاروا إليها . . وتبدأ هذه الآيات بقوله -تعالى- :

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا

إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَـٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

أى : وأرسلنا إلى قبيلة عاد أخاهم فى النسب «هودا» ، فقال لهم ما قاله كل نبى لقومه : يا قوم أخلصوا عبادتكم للّه -تعالى- ، واتركوا عبادة الأصنام ، فإن عبادتكم لها سيؤدى بكم إلى الهلاك والدمار . .

وكأنما عظم على هؤلاء الطغاة ، أن يستنكر عليهم هود -عليه السلام- عبادتهم لغير اللّه ، فردوا عليه ردا قبيحا حكاه القرآن فى قوله -تعالى- : ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ . . ﴾ .

أى : قال الأغنياء وأصحاب الجاه والسلطان من قوم هود له على سبيل التطاول وسوء الأدب : إنا لنراك يا هود قد تمكنت صفة خفة العقل منك ، لأنك تركت ما عليه الآباء ، وجئتنا بدين جديد ننكره ولا نقبله . .

ولم يكتفوا بوصفه بالسفه وخفة العقل ، بل أضافوا إلى ذلك قولهم : ﴿ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ .

٣ ـ وبعد هذا الرد القبيح منهم ، أخذ هود -عليه السلام- يدافع عن نفسه بأسلوب حكيم ، فقال -كما حكى القرآن عنه- : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ. أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ .

فأنت ترى أن هودا -عليه السلام- فى هذا الرد الحكيم على قومه ، قد نفى عن نفسه تهمة السفاهة ، ثم بين لهم وظيفته وطبيعة رسالته ، ثم أخبرهم بعد ذلك بأنه بمقتضى أخوته لهم ، ليس معقولا أن يكذب عليهم أو يخدعهم وإنما هو ناصح أمين يهديهم إلى ما يصلحهم ويبعد عنهم السوء .

ثم أخذ فى إزالة العجب من نفوسهم ، لأنه رسول منهم فقال : ﴿ أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ .

أى : أكذبتم وعجبتم من أن جاءكم ذكر وموعظة من ربكم ، على لسان رجل منكم تعرفون صدقه ونسبه؟ إن عجبكم هذا فى غير محله ، لأن إرسال رسول إليكم تعرفونه هو عين الحكمة والصواب .

ثم أخذ فى تذكيرهم بواقعهم الذى يعيشون فيه لكى يحملهم على شكر اللّه -تعالى- فقال : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ .

أى : واذكروا بتأمل واعتبار فضل اللّه عليكم ، حيث جعلكم مستخلفين فى الأرض من بعد قوم نوح ، الذين أغرقوا بالطوفان لكفرهم وجحودهم . .

ثم ذكرهم بنعمة ثانية فقال : ﴿ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ﴾ .

أى : وزادكم فى المخلوقات بسطة وغنى وسعة فى الملك وفى القوة . . .

ثم كرر هود -عليه السلام- تذكيرهم بنعم الله فقال : ﴿ فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

أى : فاذكروا نعم اللّه واشكروها له لعلكم تفوزون بما أعده للشاكرين من إدامتها عليهم ، ومن زيادتها لهم .

وإلى هنا نرى أن هودا -عليه السلام- قد رد على قومه ردا مقنعا حكيما ، كان المتوقع أن يستجيبوا له ، وأن يقبلوا على دعوته ، ولكن ماذا كان جوابهم؟

٤ ـ لقد كان جوابهم فى نهاية الغرور والعناد والغباء ، فقد قالوا له : ﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

أى : قال قوم هود له على سبيل الإنكار والاستهزاء ، أجئتنا لكى نعبد اللّه وحده ونترك ما كان عليه آباؤنا؟ إن هذا لن يكون منا أبدا ، ونحن نتحداك أن تأتينا بالعذاب الذى تهددنا به إن كنت من الصادقين فى دعواك!!

وننظر فى هذا الرد فنراه طافحا بالغرور والتهور والتحدى والاستهزاء ، واستعجال العذاب ، حتى لكأن هودا -عليه السلام- يدعوهم إلى منكر لا يطيقون سماعه ، ولا يصبرون على الجدل فيه .

وإزاء هذا التحدى السافر من قوم هود له ولدعوته ، ما كان منه إلا أن أجابهم بالرد الحاسم الذى تتجلى فيه الشجاعة التامة ، والثقة الكاملة بأن اللّه -تعالى- سينصره عليهم فقال : ﴿ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ﴾ .

أى : قد حق عليكم من قِبَل ربكم عذاب وسخط بسبب إصراركم على الكفر والعناد ﴿ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴾ .

أى : أتجادلوننى وتخاصموننى فى شأن أصنام ما هى إلا أسماء ليس تحتها مسميات ، لأنكم تسمونها آلهة مع أن معنى الألوهية محال وجوده فيها ، ولا يوجد دليل أو شبه دليل يؤيد زعمكم فى ألوهيتها ، وإنما هى أصنام باطلة ، ومادام شأنكم كذلك فانتظروا عذاب الله فإنى معكم من المنتظرين لما سيحيق بكم من نكال .

ولم يطل انتظار هود -عليه السلام- فقد حل بهم العذاب الذى توعدهم به ، ولذا قال -سبحانه- : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ .

أى : استأصلناهم عن آخرهم ، لأنهم استمروا على كفرهم ولم يؤمنوا . .

وهكذا طويت صفحة أخرى من صحائف المكذبين ، وتحقق النذير فى قوم هود كما تحقق فى قوم نوح قبل ذلك .

٥ - وفى سورة «هود» آيات كريمة ، تحدثت عن قصة هذا النبى الكريم مع قومه ، بأسلوب نرى فيه حسن الإرشاد بأسمى صوره ، كما نرى فيه القوة فى تبليغ رسالات الله -تعالى- بأكمل معانيها ، استمع إلى القرآن وهو يسوق لنا هذه القصة فيقول :

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾

إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ
رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ
إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ
كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ
بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا بِآيَاتِ
رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي
هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ
قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾

فأنت ترى أن هودا -عليه السلام- قد سلك فى دعوة قومه إلى الحق أحكم السبل ، . .

حيث ذكرهم -أولا- بأن المستحق للعبادة هو اللّه -تعالى- وحده ، وأنهم إذا لم يطيعوه فى ذلك كانوا متعمدين الافتراء والكذب .

ثم ذكرهم -ثانيا- بأنه لا يريد منهم أجرا على دعوته ، وإنما يلتمس أجره من الله -تعالى- وحده ، الذى خلقه ورزقه ، وأن هذا الأمر من الأشياء الواضحة عند العقلاء .

ثم أرشدهم إلى ما يزيدهم غنى على غناهم ، وقوة على قوتهم ، وهو كثرة الاستغفار ، والعزم الصادق على الإقلاع عن الذنب .

ثم حذرهم من مقابلة نعم اللّه -تعالى- بالجحود والطغيان فقال : ﴿ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ .

وبذلك يكون قد وضح لقومه دعوته أحسن توضيح ، ورغبهم فى الاستجابة لها ، حيث ناداهم بلفظ -يا قوم- ثلاث مرات ، توددا إليهم ، وتذكيرا لهم بأصرة القرابة التى تجمعهم معه ، لعله بذلك يستثير مشاعرهم ، ويحقق اطمئنانهم إليه ، فإن الرائد لا يكذب أهله .

٦ - ولكن قوم هود -عليه السلام- قد قابلوا كل ذلك بالتطاول عليه ، والسخرية منه ، فقد قالوا له : ﴿ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ .

أى : لم تأتنا بحجة مقنعة ترضى نفوسنا . . ثم أضافوا إلى ذلك قولهم : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ ﴾ .

أى : وما نحن بتاركى عبادة آلهتنا بسبب قولك لنا الخالى عن الدليل . .

ثم أكدوا إصرارهم على كفرهم فقالوا : ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ .

أى : بمستجيبين لك ومصدقين . .

ثم أضافوا إلى عنادهم هذا ، استخفافا به وبما يدعو إليه فقالو : ﴿ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ . . ﴾ .

أى : ما نحن بمستجيبين لك ، ولا متبعين لدعوتك ، وعليك أن تيأس يأسا تاما من استجابتنا لك ، وإن حالتك التى نراها بأعيننا تجعلنا نقول لك : إن سبك لآلهتنا ،جعل بعضها - لا كلها - ، يتسلط عليك ، فيصيبك بالجنون والهذيان والأمراض .

ولم يقولوا : أصابتك آلهتنا بسوء ، بل قالوا : «بعض آلهتنا» ، تهديدا له ، وإشارة إلى أنه لو تصدت له جميع الآلهة لأهلكته إهلاكا . .

وهكذا نراهم قدردوا على نبيهم ومرشدهم بأربعة ردود ، تساقطوا فيها من السيئ إلى الأسوأ ، ومن القبيح إلى الأقبح ، مما يدل على توغلهم فى الكفر والطغيان وبلوغهم النهاية فى الفسوق والعصيان .

٧ - والآن وبعد أن استمع هود -عليه السلام- إلى ردودهم القبيحة ماذا كان موقفه منهم؟

لقد كان موقفه منهم : موقف المتبرئ من شركهم ، والمتحدى لطغيانهم ، والمعتمد على اللّه -تعالى- وحده فى الانتصار عليهم ، ولقد حكى القرآن رده عليهم فقال : ﴿ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ . مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ .

أى : قال هود -عليه السلام- فى رده على الطغاة من قومه : إنى أشهد اللّه الذى لا رب سواه ، وأشهدكم -أيضا- على براءتى من كل عبادة لأحد سواه .

ثم ينتقل من براءته من شركهم إلى تحديهم بثقة واطمئنان فيقول لهم : وهأنذا أمامكم ، فانضموا إلى آلهتكم المزعومة ، فحاربونى جميعا فإنى لا أعبأ بكم ولا بأصنامكم .

ثم ينتقل بعد ذلك إلى بيان أن السبب فى استخفافه بهم وبآلهتهم ، أنه فوض أمره إلى اللّه -تعالى- ، الذى ما من دابة تدب على وجه الأرض ، إلا وهو مالكها ومتصرف فيها . .

ثم يختتم هود -عليه السلام- رده على قومه ، بتحذيرهم من سوء عاقبة إصرارهم على كفرهم ، فيبين لهم أن هذا الإصرار سيؤدى إلى هلاكهم ، وإلى مجىء قوم آخرين سيخلفونهم ، ولن يتغير هذا الكون بسبب هلاكهم ، فهم أحقر من أن يغيروا سُنَّة من سنن الله فى خلقه .

٨ - وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد ساقت لنا بأسلوب حكيم بليغ ، جانبا من الحوار الذى دار بين هود وقومه ، فماذا كانت النتيجة؟

كانت النتيجة أن نجى اللّه -تعالى- هودا ومن معه من المؤمنين ، وأهلك أعداءه الكافرين ، فقال -تعالى- : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ .

أى : حل وقت عذابنا للكافرين ﴿ نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ .

أى : من عذاب ضخم شديد . ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ﴾ أى : وتلك هى قصة قبيلته مع نبيهم ﴿ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ .

أى : واتبع سفلتهم وعوامهم أمر كل رئيس متجبر متكبر ، بدون تفكير أو تدبير . ثم ختم -سبحانه- قصتهم بقوله : ﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ .

أى : أنهم هلكوا مشيعين باللعن والطرد من رحمة اللّه فى الدنيا والآخرة- ألا إن قوم عاد كفروا بنعمة ربهم عليهم ، ألا سحقا وبعدا لهم عن رحمة اللّه ، جزاء جحودهم للحق ، وإصرارهم على الكفر ، واستحبابهم العمى على الهدى ، وإيثارهم الغى على الرشد . .

٩ ـ وفى سورة الشعراء نجد آيات كريمة ، تحدثت عن قصة هود -عليه السلام- مع قومه ، ونجد السمة الغالبة فى هذه الآيات ، أن هودا -عليه السلام- بذل أقصى جهده فى تذكير قومه بنعم الله عليهم ، وفى تحذيره إياهم من كفرانها . .

استمع إلى هذه الآيات وهى تحكى ذلك فتقول :

إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا
تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾
وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ
بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾
وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا
الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ
وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا
أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾
وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾

أى : كذبت قبيلة عاد نبيها ورسولها هودا -عليه السلام- ، وتكذيبها له هو تكذيب لجميع المرسلين .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ . إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

وإلى هنا نرى بوضوح أن هودا -عليه السلام- قد بين لقومه وظيفته ، ونصحهم بإخلاص العبادة للّه الواحد القهار ، وَبَيَّنَ لهم أنه لا يريد منهم جزاء ولا شكورا على ذلك .

ثم استنكر عليهم ما هو فيه من ترف وطغيان فقال : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ . وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ . وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ .

والرِّيعُ -بكسر الراء- كل مكان مرتفع من الأرض .

أى : أتبنون بكل مكان مرتفع من الأرض على سبيل اللهو والعبث ، بناء يعتبر آية وعلامة على عبثكم وترفكم وغروركم . .

وتعملون قصورا ضخمة حتى لكأنكم تريدون من وراء إنشائها الخلود والبقاء بدون موت؟

وإذا أردتم السطو والعدوان على غيركم ، أخذتموه بعنف وقسوة ، دون أن تعرف الرحمة أو الرأفة إلى قلوبكم سبيلا . . .

وإذا كان هذا شأنكم فى الحياة ، فإني أنهاكم عن ذلك ، وأحذركم من سوء عاقبة هذا الترف والغرور والظلم ، وآمركم بتقوى الله وخشيته .

١٠ ـ وبعد نهيه إياهم عن تلك الرذائل ، وأمرهم بتقوى الله ، أخذ فى تذكيرهم بنعم الله فقال : ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ. أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ. وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

أى : واخشوا الله -تعالى- الذى أمدكم بما أمدكم به من نعم لا تعد ولا تحصى ، ومن أهمها : أنه -سبحانه- أمدكم بالأنعام الكثيرة من الإبل والبقر والغنم ، وأمدكم بالأولاد ليكونوا قوة لكم ، وأمدكم بالبساتين العامرة بالثمار ، وأمدكم بالعيون المليئة بالماء العذب النافع .

ثم ختم إرشاده لهم ، ببيان أنه حريص على مصلحتهم ، وأنه يخشى عليهم إذا لم يستجيبوا لدعوته ، أن ينزل بهم عذاب عظيم ، فى يوم تشتد أهواله ، ولا تنفعهم فيه أموالهم ولا أولادهم . .

ولكن هذه النصائح الحكيمة لم يستقبلها قومه استقبالا حسنا ، ولم تجد منهم قبولا ، بل قالوا له ـ كما حكى القرآن عنهم ـ ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ .

أى : قالوا له بكل استهتار وسوء أدب : يا هود يستوى عندنا وعظك وعدمه ، ولا يعنينا أن تكون ممن يجيدون الوعظ أو من غيرهم . .

ثم أضافوا إلى قولهم هذا قولا آخر ، لا يقل عن سابقه فى الغرور وانطماس البصيرة فقالوا : ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ. وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ .

أى : ما هذا الذى تنهانا عنه إلا خلق آبائنا الأولين ، ونحن على آثارهم نسير ، ولسنا بمعذبين على هذه الأعمال . . .

وبمقتضى إصرارهم على كفرهم ، وتكذيبهم لنبيهم ، جاءهم العذاب الذى أهلكهم ،

حيث قال -سبحانه- : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

١١ - وفى سورة الأحقاف آيات كريمة ، حدثتنا عن النصائح التى وجهها هود -عليه السلام- لقومه ، وعن ردهم عليه ، وعن العذاب الذى دمرهم تدميرا . . قال -تعالى- :

وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾

أى : واذكر -أيها الرسول الكريم- لقومك ليتعظوا ، قصة هود -عليه السلام- وقت أن أنذر قومه وهم يعيشون بتلك الأماكن المرتفعة المسماة بالأحقاف ، والحال أنه قد أخبرهم أن جميع الرسل الذين سبقوه والذين سيأتون من بعده ، كلهم قد بعثهم اللّه -تعالى- لهداية أقوامهم ، ولأمرهم بعبادة اللّه -تعالى- وحده . كما أخبرهم بأنه ما حمله على تكرار النصيحة لهم ، إلا خوفه عليهم من عذاب يوم هائل عظيم .

ولكن قومه لم يقابلوا دعوة نبيهم لهم بالطاعة والإذعان ، بل قابلوها بالفسوق والعصيان وقد حكى القرآن ذلك فى قوله ـ سبحانه ـ ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

أى : قال قوم هود له -على سبيل الإنكار والسفاهة- : أجئتنا بهذه الدعوة لتصرفنا وتبعدنا عن آلهتنا التى ألفنا عبادتها .

ثم أضافوا إلى هذا الإنكار إنكارا آخر مصحوبا بالتحدى والاستهزاء فقالوا : فأتنا بما تعدنا به من العذاب ، إن كنت صادقا فيما تقول .

ولكن هودا -عليه السلام- قابل كل هذه الجهالات بالحلم والأناة ، فرد عليهم بقوله : ﴿ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ ﴾ ، أى : قال لهم إنما علم وقت وقوع العذاب بكم عند اللّه -تعالى- وحده ، ولا دخل لى فى ذلك .

ثم عقب على هذا الرد بما يدل على حمقهم وغبائهم فقال : ﴿ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ .

أى : ولكنى أراكم قوما تجهلون ما هو واضح ، وتنكرون ما هو حق ، وتصرون على ما هو باطل ، وتطالبوننى بما لا أملكه .

ثم يجمل السياق بعد ذلك ما كان بين هود وقومه من جدال طويل ، ليصل إلى العذاب الذى استعجلوه فيقول : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا .. ﴾ .

أى : وأتى العذاب الذى استعجله قوم هود إليهم ، فلما رأوه بأعينهم ، متمثلا فى سحاب يظهر فى أفق السماء ، استبشروا وفرحوا وقالوا : هذا عارض ممطرنا ، وسيغمر أرضنا بالأمطار النافعة .

وهنا جاءهم الرد الحاسم على لسان هود -عليه السلام- بأمر ربه ، فقال لهم : ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ . تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ .

أى : قال لهم هود ليس الأمر كما توهمتم من أن هذا العارض سحاب تنزل منه الأمطار عليكم ، بل الحق أن هذا العارض هو العذاب الذى استعجلتم نزوله ، وهو يتمثل فى ريح عظيمة تحمل العذاب المهلك الأليم إليكم .

وهذه الريح من صفاتها أنها تهلك وتدمر كل شىء مرت به يتعلق بهؤلاء الظالمين ، ﴿ فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ .

أى : هذه الريح أرسلناها عليهم فدمرتهم ، فصار الناظر إليهم لا يرى شيئا من آثارهم سوى مساكنهم ، لتكون هذه المساكن عبرة لغيرهم ، ومثل هذا الجزاء المهلك المدمر ، نجازى القوم الذين من دأبهم الإجرام والطغيان .

١٢ - وهذه العقوبة المدمرة لأولئك المجرمين ، قد أكدتها آيات أخرى منها قوله ـ تعالى ـ فى سورة الذاريات : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ . مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ [الآيتان : ٤١ ، ٤٢]

أى : وتركنا فى قصة قوم هود -عليه السلام- العبر والعظات ، حيث أرسلنا عليهم الريح الشديدة التى لا خير فيها من إنشاء مطر ، أو تلقيح شجر ، وهى ريح الهلاك التى ما مرت بشىء إلا جعلته كالشىء الميت الذى رم وتحول إلى فتات . .

وفى سورة فصلت جاء قوله - سبحانه - : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ - أى : ريحا باردة ذات صوت شديد مزعج

﴿ فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ - أى : مشئومات عليهم ﴿ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لا يُنصَرُونَ (١٦) ﴾ [الآيتان ١٥ ، ١٦] .

وفى سورة القمر نقرأ قوله - تعالى - : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩) تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٢١) ﴾ [الآيات ١٨ - ٢١] .

أى : كذبت قبيلة عاد نبيها هودا ، فهل علمتم ما حل بها من دمار وهلاك ؟ إن كنتم لم تعلموا فهاكم خبره .

لقد أرسلنا عليهم ريحا شديدة البرودة والقوة ، وذات صوت هائل ، فى يوم مشئوم عليهم ، وشؤمه دائم ومستمر ، فكانت هذه الريح لشدتها وقوتها تنزع هؤلاء الطغاة المجرمين من أماكنهم ، وتلقى بهم بعيدا وهم صرعى ، فكأنهم وهم ممددون على الأرض هلكى ، أعجاز نخل قد انخلعت عن أصولها .

وشبيه بهذه الآيات قوله - تعالى - فى سورة الحاقة : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ - أى : متتابعة متوالية حتى قطعت دابرهم - ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ ﴾ - أى : هلكى ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ - أى : ساقطة . وبهذا العذاب الأليم طويت صفحة قوم هود - عليه السلام - كما طويت من قبلهم صفحة قوم نوح ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

١٣ - هذه قصة هود - عليه السلام - كما وردت فى القرآن الكريم . .

ومن العبر والعظات والدروس النافعة التى نأخذها من هذه القصة :

(ا) أن الغرور والبطر ، والتباهى بالقوة وشدة البطش . . يؤدى إلى أسوأ العواقب ، وأوخم النتائج . . والذى يتدبر هذه القصة يجد أن قوم هود كانوا يُدِلُّون بقوتهم ، ويتفاخرون بشدة بأسهم ، ويقولون : ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ ، ويقولون لنبيهم باستكبار وصلف : ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ .

فكانت نتيجة هذا التكبر والغرور ، أن أرسل اللّه - تعالى - عليهم ريحا اقتلعتهم من أماكنهم ، وألقت بهم بعيدا وهم صرعى ، وكأن الواحد منهم جذع نخلة قد هوى وسقط وانخلع عن أصله .

(ب) كذلك من الدروس النافعة التى نأخذها من هذه القصة : مداومة التذكير بنعم الله - تعالى - على عباده ، وبيان أن هذه النعم تزداد بشكر اللّه ، وتنمو بطاعته . .

استمع إلى هود - عليه السلام - وهو يقرر هذا المعنى ، فيقول لقومه - كما حكى القرآن عنه - : ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ .

ويقول لهم : ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ. أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ. وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ .

وهكذا نرى هودا - عليه السلام - يلون لقومه الموعظة ، تارة عن طريق الترغيب ، وأخرى عن طريق الترهيب ، ليبين لهم أن اتباع الحق سيؤدى إلى زيادة غناهم وقوتهم وأمنهم وسعادتهم ، وأن الانحراف عنه سيؤدى إلى فقرهم وضعفهم وهلاكهم .

(جـ) كذلك من أعظم العبر فى قصة هود - عليه السلام - أن الداعى إلى اللّه - تعالى - عندما يخلص فى دعوته ، ويعتمد عليه - سبحانه - فى تبليغ رسالته ، ويغار عليها كما يغار على عرضه أو أشد . . فإنه فى هذه الحالة سيقف فى وجه الطغاة المناوئين للحق ، كالطود الأشم ، دون مبالاة بتهديدهم ووعيدهم ، لأنه قد آوى إلى ركن شديد .

وهذه العبرة من أبرز العبر فى قصة هود - عليه السلام - . ألا تراه وهو رجل واحد ، يواجه بمفرده قوما غلاظا شدادا اطغاة ، إذا بطشوا بطشوا جبارين . . بل هو لا يكتفى

بهذه المواجهة ، وإنما يوبخهم ويزجرهم ويستخف بهم عندما يراهم يتطاولون على عقيدته ، ويصرون على معصيته ، فيقول لهم بكل قوة وحزم : ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ. مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ. إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ..﴾ .

وهكذا الدعاة الأقوياء ، يبلغون رسالة اللّه ، ويغارون عليها ، ويدافعون عنها بكل شجاعة وثبات ، ويقفون فى وجه كل من يتطاول عليها ، دون أن يخشوا أحدا إلا اللّه - عز وجل - .

قصة صالح - عليه السلام - مع قومه

١ - وردت قصة صالح - عليه السلام - مع قومه فى سور متعددة من القرآن الكريم ، منها سور : الأعراف ، هود ، الحجر ، الإسراء ، الشعراء ، النمل ، فصلت ، القمر . . .

وصالح - عليه السلام - ينتهى نسبه إلى نوح - عليه السلام - ، فهو - كما يقول الإمام ابن كثير - صالح بن عبد ، بن ماسح ، بن عبيد ، بن حاجر ، بن ثمود ، بن عابر ، بن إرم ، بن سام ، بن نوح [1] .

وكانت رسالة صالح - عليه السلام - إلى قبيلة ثمود ، التى هو واحد منها ، وسميت هذه القبيلة بهذا الاسم ، نسبة إلى جدها ثمود بن عابر . . .

وقيل : سميت بذلك ، لقلة وجود الماء فى أرضها ، يقال : ثمِد الماء ثمدًا ، أى : قَلَّ ويقال ثمَد فلان ، إذا قل نشاطه فهو ثمِد .

وكانت مساكن قبيلة ثمود بالحِجْر - بكسر الحاء وسكون الجيم - . وهو مكان يقع بين بلاد الحجاز والشام .

وموقعه الآن - تقريبا - المنطقة التى بين الحجاز وشرق الأردن ، وما يزال المكان الذى كانوا يسكنونه يسمى بمدائن صالح .

٢ - وقبيلة ثمود من قبائل العرب ، وكانوا خلفاء لقوم هود - عليه السلام - ، ولذا جاء الحديث عنهم بعد الحديث عن هود - عليه السلام - فى كثير من آيات القرآن الكريم .

ومن ذلك قوله - تعالى - حكاية عن صالح عليه السلام - وهو يخاطب قومه بقوله : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ [سورة الأعراف : الآية ٧٤] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) ﴾

[سورة الفجر].

وقوله - وعز وجل - : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) ﴾ [سورة إبراهيم].

---

(١) البداية والنهاية (١/١٣٠) .

٣ - ومن أجمع الآيات القرآنية ، التى فصلت الحديث عن قصة صالح مع قومه : قوله - تعالى - فى سورة الأعراف .

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾

٤ - هذا جانب من قصة صالح - عليه السلام - مع قومه كما جاءت فى سورة الأعراف .

وقد افتتحت بقوله - تعالى - : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ .

أى : وأرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحا ، الذى كان يشاركهم فى النسب والموطن واللسان ، فقال لهم ما قاله كل نبى لقومه : يا قوم اعبدوا اللّه مالكم من إله غيره .

أى : يا أهلى ويا عشيرتى أخلصوا عبادتكم للّه - تعالى - وحده ، وانبذوا كل معبود سواه ، سواء أكان هذا المعبود صنما أم وثنا أم غير ذلك .

ثم بين لهم معجزته التي تدل على صدقه فيما يبلغه عن ربه ، فقال - كما حكى القرآن عنه - : ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

والمراد بالبينة هنا : المعجزة الدالة على صدقه ، وعلى أنه رسول من عند الله - تعالى - .

أى : قد جاءكم - أيها الناس - معجزة ظاهرة الدلائل ، شاهدة بنبوتى وصدقى فيما أبلغه عن ربى . .

وقوله : ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ متعلق بمحذوف صفة لبينة ، والفائدة منه : التصريح بأن هذه المعجزة ليست من صنع صالح - عليه السلام - ، أو من صنع غيره ، وإنما هى من صنع الله - تعالى - وحده .

أى : هذه المعجزة ليست من صنعى ، وإنما هى كائنة من ربى وربكم ، وما دام الأمر كذلك فاستجيبوا لنصحى ، وأخلصوا العبادة لله - عز وجل - .

ثم كشف لهم عن معجزته وحجته فقال : ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ . أى : هذه الدابة التى ترونها وأشير إليها هى ناقة الله ، التى جعلها معجزة لى ، وعلامة على صدقى . وأضاف الناقة إلى الله ، للتفضيل والتخصيص والتعظيم لشأنها ، وقيل : أضافها إلى الله - تعالى - لأنه خلقها على خلاف سننه فى خلق الإبل وصفاتها . وقيل : لأنها لم يكن لها مالك خاص يملكها ويتصرف فيها .

وقد ذكر المفسرون قصصا عن هذه الناقة ، فيها الكثير من المبالغات التى لا يؤيدها نقل أو عقل ، لذا أعرضنا عن ذكرها ، واكتفينا بما ورد بشأنها فى القرآن الكريم .

٥ - ثم أرشدهم إلى ما يجب عليهم نحو هذه الناقة فقال : ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

أى : قال صالح - عليه السلام - لقومه : يا قوم اتركوا هذه الناقة حرة طليقة ، تأكل فى أرض الله التى لا يملكها أحد سواه ، ولا تعتدوا عليها بأى لون من ألوان الاعتداء ، لأنكم لو فعلتم ذلك ، أصابكم عذاب أليم يؤدى إلى هلاككم واستئصال شأفتكم .

وأضيفت الأرض إلى الله - أيضا - ، قطعا لعذرهم فى التعرض لها ، فكأنه يقول لهم : الأرض أرض الله ، والناقة ناقته ، فاتركوها تأكل فى أرضه ، لأنها ليست لكم ، وليس ما فيها من عشب ونبات من صنعكم ، فأى عذر لكم فى التعرض لها ؟ .

وفى نهيهم عن أن يمسوها بسوء : تنبيه بالأدنى على الأعلى ، لأنه إذا كان قد نهاهم عن مسها بسوء ، إكراما لها ، فنهيهم عن نحرها أو عقرها أو منعها من الكلأ والماء من باب أولى ، فالجملة الكريمة وعيد شديد بسوء .

٦ - وبعد أن بين لهم صالح - عليه السلام - وظيفته ، وكشف لهم عن معجزته ، وأنذرهم بسوء العاقبة إذا ما خالفوا أمره ، أخذ فى تذكيرهم بنعم اللّه عليهم ، وبمصائر الماضين من قبلهم ، فقال : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ ﴾ .

أى : قال صالح - عليه السلام - لقومه بلطف وأدب وحسن توجيه : ويا قوم اذكروا لكى تعتبروا وتتعظوا ، نعم اللّه - تعالى - عليكم ، حيث جعلكم خلفاء لقبيلة عاد فى الحضارة والعمران ، والقوة والبأس ، بعد أن أهلكهم - سبحانه - بسبب طغيانهم وغرورهم وجحودهم . . .

وقوله - سبحانه : ﴿ بَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ أى : وأنزلكم فيها ، وجعلها مباءة ومساكن لكم . يقال : بوأه منزلا ، أى : أنزله وهيأه له ، ومكن له فيه .

والمراد بالأرض : أرض الحِجْر التى كانوا يسكنونها ، وهى بين الحجاز والشام ، ثم بين لهم جانبا من المنافع التى تعود عليهم بسبب تمكينهم من هذه الأرض ، فقال : ﴿ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ﴾ .

والسهول : جمع سهل . والمراد بها : الأرض المنبسطة السهلة التى تقل فيها الارتفاعات والانخفاضات .

والجبال : الأماكن المتحجرة المرتفعة التى هى بمثابة الأوتاد للأرض .

أى : أنزلكم اللّه - تعالى - فى تلك الأرض ، ويسر لكم أن تتخذوا من سهولها قصورا جميلة ، ودورا عالية ، وأن تتخذوا من جبالها بيوتا تسكنونها بعد نحتكم إياها . يقال : نحت الشىء ينحته - كضربه يضربه - أى : براه وسواه .

قيل : إنهم كانوا يسكنون الجبال فى الشتاء ، لما فى البيوت المنحوتة من القوة التى لا تؤثر فيها الأمطار والعواصف ، ولما فيها من الدفء . . .

أما فى غير الشتاء ، فكانوا يسكنون السهول لأجل الزراعة والعمل . . .

ومن التعبير القرآنى ، نلمح أثر النعمة والتمكين فى الأرض لقوم صالح ، وندرك طبيعة الموقع الذى كانوا يعيشون فيه ، فهو سهل وجبل ، يتخذون القصور فى الأماكن المنبسطة ، وينحتون من الجبال البيوت المناسبة لهم ، فهم فى حضارة عمرانية واضحة المعالم . . .

ولذا نجد صالحا - عليه السلام - يحرضهم على شكر اللّه - تعالى - على هذه النعم ، فيقول لهم : ﴿ فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ .

والآلاء بمعنى النعم . أى : ما دام الأمر كما ذكرت لكم ، من أنكم قد مكنكم اللّه - تعالى - من أرضه ، وسخرها لكم لكى تنتفعوا بها . . . فاذكروا بتدبر وشكر واتعاظ نعم اللّه - تعالى - عليكم ، واشكروه شكرا جزيلا عليها ، بأن تخصوه وحده بالعبادة ، واحذورا أن تتمادوا فى الفساد فى أرض اللّه - تعالى - .

يقال : عَثِىَ فلان فى الأرض فسادا - كرضى - عثوا ، إذا أفسد فيها أشد الفساد .

وإلى هنا تكون السورة الكريمة ، قد ساقت لنا جانبا من النصائح التى وجهها صالح - عليه السلام - لقومه ، فماذا كان موقفهم من تلك النصائح الحكيمة ، والتوجيهات القويمة ، والإرشادات السليمة ؟

٧ - والجواب : لقد كان موقفهم لا يقل فى القبح والتطاول والعناد ، عن موقف قوم نوح وقوم هود ، وهاك ما حكاه القرآن عنهم :

﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ .

والملأ : الأشراف والسادة من القوم . سموا بذلك لأنهم يملأون العيون مهابة . وقيل : هم الرجال ليس فيهم نساء . . والملأ : اسم جمع لا واحد له من لفظه كالرهط .

أى قال المترفون المتكبرون من قوم صالح - عليه السلام - للمؤمنين الذين اتبعوا صالحا فى دعوته إلى الحق ، والذين لم يكونوا كهؤلاء المترفين فى غناهم وجاههم . . .

قالوا لهم : أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه إليكم لعبادته وحده لا شريك له ؟ وهو سؤال قصد المترفون من ورائه ، تهديد المؤمنين والاستهزاء بهم ، لأنهم يعلمون أن المؤمنين يعرفون أن صالحا مرسل من ربه . .

ولذا وجدنا المؤمنين ، لا يردون عليهم بما يقتضيه ظاهر السؤال ، بأن يقولوا لهم : نعم إنه مرسل من ربه ، وإنما ردوا عليهم بقولهم : إنا بما أرسل به مؤمنون ، مسارعة منهم إلى إحقاق الحق وإبطال الباطل ، وإظهارا للإيمان الذى استقر فى قلوبهم ، وتنبيها على أن أمر إرسال صالح - عليه السلام - ، من الظهور والوضوح بحيث لا ينبغى لعاقل أن يسأل عنه ، وإنما الشيء الجدير بالسؤال عنه ، هو الإيمان بما جاء به هذا الرسول الكريم ، والامتثال لما يقتضيه العقل السليم . .

وهو رد من المؤمنين المستضعفين ، يدل على شجاعتهم فى الجهر بالحق ، وعلى قوة إيمانهم ، وسلامة يقينهم .

٨ - وهنا أعلن المستكبرون عن موقفهم فى عناد وصلف وجحود ، واستمعْ إلى القرآن وهو يحكى ذلك فيقول : ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ .

أى : قال المستكبرون ردا على المؤمنين الفقراء : إنا بما آمنتم به كافرون .

ولم يقولوا : إنا بما أرسل به صالحٌ كافرون ، إظهارا لمخالفتهم إياهم ، وردا على مقالتهم : ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ .

ثم أتبع المستكبرون قولهم القبيح هذا بفعل أقبح ، ويتجلى هذا الفعل فى قوله - تعالى - عنهم : ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ ﴾ أى : نحروها . وأصل العقر : قطع عرقوب البعير ، ثم استعمل فى النحر ، لأن ناحر البعير يعقره ثم ينحره .

أى : فنحروا الناقة التى جعلها اللّه - تعالى - حجة لنبيه صالح - عليه السلام - ، والتى قال لهم صالح فى شأنها ﴿ لَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

وأسند العقر إلى جميعهم ، لأنه كان برضاهم وإن لم يباشره إلا بعضهم . ويقال للقبيلة الكبيرة ، أنتم فعلتم كذا مع أن الفاعل واحد منهم ، لكونه بين أظهرهم ، وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ أى : استكبروا عن امتثال أوامره ، واجتناب نواهيه . من العتو ، وهو النبو ، أى : الارتفاع عن الطاعة ، والتكبر عن الحق ، والغلو فى الباطل . يقال : عتا يعتو عتيا ، إذا تجاوز الحد فى الاستكبار . . .

وقد اختار القرآن الكريم كلمة ﴿ عَتَوْا ﴾ ، لإبراز ما كانوا عليه من غرور وتجبر وتطاول ، خلال اقترافهم للمعاصى والجرائم التى من أبرزها عقر الناقة ، فهم قد فعلوا ما فعلوا عن تعمد وإصرار على ارتكاب المنكر .

ثم لم يكتفوا بكل هذا ، بل قالوا لنبيهم فى سفاهة وتطاول : ﴿ يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ﴾ .

أى : قالوا له بعد أن نادوه باسمه تهوينا لشأنه : يا صالح ائتنا بالعذاب الذى توعدنا به إذا ما خالفنا أمرك ، إن كنت من الصادقين فى تهديدك وفى وعيدك لنا ، وفى تبليغك عن ربك .

٩ - ولقد كان رد القدر على تبجحهم وعتوهم سريعا ، ويدل على ذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ .

والرجفة : هى الزلزلة الشديدة . يقال رجفت الأرض ترجف رجفا ، إذا اضطربت وزلزلت ، ومنه الرجفان للاضطراب الشديد .

وجاثمين : من الجثوم ، وهو للناس والطير ، بمنزلة البروك للإبل . يقال : جثم الطائر يجثم جثوما وجثما فهو جاثم ، إذا وقع على صدره ، أو لزم مكانه فلم يبرحه .

والمعنى : فأخذت الرجفة أولئك المستكبرين فأهلكتهم ، وأصبحوا فى مساكنهم باركين على الركب ، ساقطين على وجوههم ، هامدين لا يتحركون ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

١٠ - ويتركهم القرآن عل هيئتهم جاثمين ، ليتحدث عن نبيهم صالح الذى كذبوه فيقول : ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ .

أى : فأعرض عنهم نبيهم صالح - عليه السلام - ونفض يديه منهم ، وتركهم للمصير الذى جلبوه على أنفسهم ، وأخذ يقول متحسرا على ما فاتهم من الإيمان :

يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى كاملة غير منقوصة ، ونصحت لكم بالترغيب تارة ، وبالترهيب أخرى ، ولكن كان شأنكم الاستمرار على بغض الناصحين وعداوتهم . وهكذا طويت صفحة أخرى من صحائف المكذبين ، وحلت العقوبة بمن كانوا يتعجلونها ويستهزئون بها .

١١ - وفى سورة «الحجر» آيات كريمة ، ذكرت جانبا من قصة صالح - عليه السلام - مع قومه ، قال - تعالى - :

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ .

[الحجر]

وأصحاب الحِجْر : هم قوم صالح - عليه السلام - والحِجْر : واد بين بلاد الشام وبين المدينة المنورة ، كان قوم صالح يسكنونه .

والحجر فى الأصل : كل مكان أحاطت به الحجارة . أو كل مكان محجور . أى : ممنوع من الناس بسبب اختصاص بعضهم به .

وقال - سبحانه - : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ، مع أنهم لم يكذبوا إلا رسولهم صالحا - عليه السلام - لأن تكذيب رسول واحد ، هو تكذيب لجميع الرسل ، حيث إن رسالتهم واحدة ، وهى الأمر بإخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، والدعوة إلى مكارم الأخلاق ، والنهى عن الرذائل والمفاسد .

ثم بين - سبحانه - مظاهر هذا التكذيب لرسولهم - عليه السلام - فقال : ﴿ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ .

أى : وأعطينا قوم صالح - عليه السلام - آياتنا الدالة على صدقه وعلى أنه رسول من عندنا ، والتى من بينها الناقة التى أخرجها اللّه - تعالي - لهم ، ببركة دعاء نبيهم ، فكانوا عن هذه الآيات الدالة على وحدانيتناوقدرتنا معرضين لا يلتفتون إليها ، ولا يفكرون فيها ، ولهذا عقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر حضارتهم وتحصنهم فى بيوتهم المنحوتة فى الجبال ، فقال - تعالى - : ﴿ كَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴾ .

أى : وكانوا لقوتهم وغناهم ، يتخذون لأنفسهم بيوتا فى بطون الجبال ، وهم آمنون مطمئنون ولكن ماذا كانت نتيجة هذه القوة الغاشمة ، والثراء الذى ليس معه شكر للّه - تعالى - ، والإصرار على الكفر ، والتكذيب لرسل اللّه - تعالى ، والإعراض عن الحق؟

لقد بين القرآن عاقبه ذلك فقال : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ .

أى : فكانت نتيجة تكذيب أصحاب الحجر لرسولهم صالح - عليه السلام - ، أن أهلكهم اللّه - تعالى - وهم داخلون فى وقت الصباح ، عن طريق الصيحة الهائلة ، التى جعلتهم فى ديارهم جاثمين ، دون أن يغنى عنهم شيئا ما كانوا يكسبونه من جمع الأموال ، وما كانوا يصنعونه من نحت البيوت فى الجبال .

وهكذا نرى أن كل وقاية ضائعة ، وكل أمان ذاهب ، وكل تحصن زائل ، أمام عذاب اللّه المسلط على أعدائه المجرمين .

١٢ - وفى سورة «هود» وردت قصة صالح - عليه السلام - مع قومه بشىء من التفصيل ، وبأسلوب فيه ما فيه من العظات والعبر لأولى الألباب .

وهذه الآيات هى قوله :

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١) قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا ۖ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن

رَبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ ... ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾

١٣ – تلك هى قصة صالح مع قومه كما ذكرتها سورة هود – عليه السلام – ، والمتأمل فيها يراها قد افتتحت بالدعوة التى وجهها كل نبى لقومه ، ألا وهى الأمر بإخلاص العبادة للّه الواحد القهار .

أى : وأرسلنا إلى قبيلة ثمود ، أخاهم فى النسب والموطن صالحا – عليه السلام – فقال لهم تلك الكلمة التى قالها كل نبى لقومه : يا قوم اعبدوا الله وحده ، فهو الإله الذى خلقكم ورزقكم ، وليس هناك من إله سواه يفعل ذلك .

ثم ذكرهم بقدرة الله – تعالى – وبنعمه عليهم فقال : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ .

والإنشاء : الإيجاد والإحداث للشيء على غير مثال سابق .

وقوله – سبحانه – : ﴿ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ من الإعمار الذى هو ضد الخراب فالسين والتاء للمبالغة . يقال : أعمر فلان فلانا فى المكان واستعمره ، أى : جعله يعمره بأنواع البناء والغرس والزرع .

أى : أخلصوا للّه ـ تعالى ـ العبادة ، فهو الذى خلق أباكم آدم من هذه الأرض وأنتم من نسله ، وهو – سبحانه – الذى مكنكم من تعمير هذه الأرض بشتى أنواع الزرع والثمار ومادام الأمر كذلك : ﴿ فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ .

أى : فأخلصوا له العبادة ، واشكروه على نعمه ، واطلبوا مغفرته عما سلف منكم من ذنوب ، ثم توبوا إليه توبة صادقة ، تجعلكم تندمون على ما كان منكم فى الماضى من شرك وكفر . ثم فتح أمامهم الأمل فى رحمة اللّه - تعالى - فقال : ﴿ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ .

أى : إن ربى قريب الرحمة من المحسنين ، مجيب لدعاء الداعين المخلصين ، فأقبلوا على عبادته وطاعته ، ولا تقنطوا من رحمته .

١٤ - ثم حكى القرآن ما رد به قوم صالح عليه فقال : ﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ﴾ .

أى : قال قوم صالح له بعد أن دعاهم لما يسعدهم : يا صالح قد كنت فينا رجلا فاضلا ، نرجوك لمهمات الأمور لعلمك وعقلك وصدقك . . قبل أن تقول ما قلته ، أما الآن وبعد أن جئتنا بهذا الدين الجديد ، فقد خاب رجاؤنا فيك ، وصرت فى رأينا إنسانا مختل التفكير فالإشارة فى قوله - سبحانه - : ﴿ قَبْلَ هَذَا ﴾ : تعود إلى الكلام الذى خاطبهم به ، بعد أن بعثه اللّه إليهم . .

والاستفهام فى قولهم : ﴿ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ للإنكار والتعجيب .

أى : أجئتنا بدعوتك الجديدة ، لتنهانا عن عبادة الآلهة التى كان يعبدها آباؤنا من قبلنا؟ لا ، إننا لن نستجيب لك ، وإنما نحن قد وجدنا آباءنا على دين ، وإننا على آثارهم نسير .

ثم ختموا ردهم عليه بكلام يدل عل تصميمهم على مخالفته فقالوا : ﴿ وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ .

ومريب : اسم فاعل من أراب . تقول : أربت فلانا فأنا أريبه ، إذا فعلت به فعلا يوجب لديه الريبة ، أى : القلق والاضطراب .

أى : قالوا له بكل سفاهة وتصميم على باطلهم : نحن لن نترك عبادة الأصنام التى كان يعبدها آباؤنا ، وإننا لفى شك كبير ، وريب عظيم من صحة ما تدعونا إليه . فانظر كيف قابل هؤلاء السفهاء الدعوة إلى الحق بالتصميم على الباطل !!

١٥ - ولكن صالحا - عليه السلام - لم ييأس ، بل رد عليهم بأسلوب حكيم فقال - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ .

أى : قال صالح - عليه السلام - لقومه : يا قوم أخبرونى إن كنت على حجة واضحة من ربى ، وأعطانى من عنده لا من عند غيره رحمة عظيمة ، حيث اختارنى لحمل رسالته ، وتبليغ دعوته ، فمن ذا الذى يجيرنى ويعصمنى من غضبه إذا أنا خالفت أمره ، أو قصرت فى تبليغ دعوته . مسايرة لكم فى باطلكم!

لا ، إننى سأستمر فى تبليغ ما أرسلت به إليكم ، ولن يمنعنى من ذلك ترغيبكم أو ترهيبكم .

وقوله : ﴿ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ : تصريح منه - عليه السلام - بأن ما عليه هو الحق الذى لا يقبل الشك أو الريب ، وأن مخالفته توصل إلى الهلاك والخسران .

والتخسير : مصدر خسر . يقال خَسَّر فلانا إذا نسبه إلى الخسران .

أى : فما تزيدوننى بطاعتى لكم ومعصية ربى ومالك أمرى ، سوى الوقوع فى الخسارة ، والتعرض لعذاب اللّه وسخطه ، وحاشاى أن أخالف أمر ربى إرضاء لكم .

فالآية الكريمة تصور تصويرا بليغا ما كان عليه صالح - عليه السلام - من إيمان عميق باللّه ـ عز وجل ـ ومن ثبات على دعوته ، ومن حرص على طاعته .

ولم يكتف صالح - عليه السلام - بكل تلك النصائح الحكيمة ، بل أرشدهم إلى المعجزة الدالة على صدقه فيما يبلغه عن ربه فقال : ﴿ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ﴾ أى : معجزة دالة على صدقه . .

وفى إضافتها إلى اللّه - تعالى - تعظيم لها ، وتشريف لحالها ، وتنبيه على أنها ناقة مخصوصة ليست كغيرها من النوق التى تستعمل فى الركوب والنحر وغيرهما ، لأن اللّه - تعالى - قد جعلها لنبيه صالح ولم يجعلها كغيرها . .

وقوله : ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ أمر لهم بعدم التعرض لها بسوء ، وتحذير لهم من مخالفة أمره .

أى : اتركوا ناقة اللّه حرة طليقة تأكل فى أرض اللّه الواسعة ، واحذروا أن تمسوها بشىء من السوء أو الأذى ، فإنكم لو فعلتم ذلك عرَّضتم أنفسكم لعذاب اللّه العاجل القريب .

١٦ - فهل استجاب قومه لتلك التحذيرات والتوجيهات ؟ كلا إنهم لم يستجيبوا بل عقروا الناقة وذبحوها ، واستخفوا بكل ما توعدهم به نبيهم إذا مَسُّوها بسوء ، فكانت نتيجة ذلك أن قال لهم : ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ .

أى : قال لهم صالح - عليه السلام - بعد نحرهم للناقة : عيشوا ثلاثة أيام فقط فى دياركم هذه ، متمتعين بما فيها من نعم ، وبعدها سينزل بكم العذاب الذى لا يبقى منكم أحدا ، وهذا وعد من الله - تعالى - لى ، والله - تعالى - لا يخلف وعده . وعبر - سبحانه - عن قرب نزول العذاب بهم بالوعد - لا بالوعيد - ، على سبيل التهكم بهم . . .

ولقد تحقق ما توعدهم به نبيهم ، فقد حل بهم العذاب فى الوقت الذى حدده لهم ، كما قال - تعالى - : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ أى : جاء أمرنا بإنزال العذاب بهم فى الوقت المحدد .

﴿ نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ أى : برحمة عظيمة كائنة منا «ونجيناهم» أيضا - «من خزى يومئذ» أى : من خزى وذل ذلك اليوم الهائل الشديد ، الذى نزل فيه العذاب بهؤلاء الظالمين من قوم صالح ، فاستأصل شأفتهم ، وأهلكهم عن آخرهم .

فالتنوين فى قوله : «يومئذٍ» عوضٌ عن المضاف إليه المحذوف .

وقوله : - سبحانه - ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ : تسلية للرسول ﷺ وللمؤمنين عما أصابهم من أذى المشركين .

أى : إن ربك - أيها الرسول الكريم - هو القوى الذى لا يعجزه شىء ، العزيز الذى لا يُهان من يتولاه ويرعاه . .

ثم صور القرآن الكريم حال هؤلاء الظالمين ، تصويرا يدعو إلى الاعتبار والاتعاظ فقال : ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ .

والصيحة : الصوت الشديد المرتفع . يقال : صاح فلان إذا رفع صوته بقوة . وأصل ذلك تشقيق الصوت ، من قولهم : إنصاح الخشب والثوب ، إذا انشق فسمع له صوت . ويغنوا فيها : أى يقيموا فيها . يقال غنى فلان بالمكان يغنى ، إذا أقام به وعاش فيه فى نعمة ورغد .

أى : وأخذ الذين ظلموا من قوم صالح - عليه السلام - العذاب عن طريق الصيحة الشديدة التى صيحت بهم بأمر الله - تعالى - ، فأصبحوا بسببها هلكى صرعى ، ساقطين على وجوههم ، بدون حركة ، حتى لكأنهم ، لم يقيموا فى ديارهم عمرا طويلا فى رخاء من عيشهم . . ألا إن هؤلاء الظالمين من قبيلة ثمود ، كفروا نعمة ربهم وجحدوها ، ألا بعدا وسحقا لهؤلاء الظالمين من قبيلة ثمود .

وتكرر حرف التنبيه «ألا» وتكرار لفظ «ثمود» ، تأكيد لطردهم من رحمة الله ، وتسجيل لما ارتكبوه من منكرات .

وهكذا قصت علينا هذه الآيات ما جرى بين صالح - عليه السلام - وبين قومه ، من محاولات ، انتهت بنصر الله - تعالى - للمؤمنين ، وبتدميره للقوم المجرمين ، الذين استحبوا الكفر على الإيمان .

١٧- وفى سورة النمل آيات أخرى حكت لنا جانبا من طغيان الظالمين من قوم صالح - عليه السلام - ، وكيف أن فريقا منهم تأمروا على قتله ، ولكن الله - تعالى - نجاه من مكرهم ، ودمرهم تدميرا ، وهذه الآيات هى قوله - تعالى - :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾

١٨ - واللام فى قوله - تعالى - : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ جواب لقسم محذوف ، أى : وبالله لقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحا - عليه السلام - لكى يأمرهم بإخلاص العبادة لنا ، وينهاهم عن الكفر والفسوق والعصيان .

وإذا فى قوله - تعالى - : ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ : هى الفجائية «يختصمون» من المخاصمة بمعنى المجادلة والمنازعة .

أى : أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحا ليبشرهم وينذرهم ، فكانت المفاجأة أن انقسم قومه إلى قسمين : قسم آمن به وهم الأقلون . وقسم كفر به وهم الأكثرون .

وهذه الخصومة بين الفريقين ، قد أشار إليها القرآن فى قوله - تعالى - :

﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) ﴾ . [سورة الأعراف : الآيتان ٧٥ ، ٧٦] .

ثم بين - سبحانه - ما وجهه صالح - عليه السلام - لقومه من نصائح حكيمة ، فقال :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ .

أى : قال صالح للمكذبين لرسالته بأسلوب رقيق مؤثر : يا قوم لماذا كلما دعوتكم إلى الحق أعرضتم عن دعوتى ، وآثرتم الكفر على الإيمان ، واستعجلتم عقوبة اللّه التى حذرتكم منها .. وهلاَّ بدلا من كل ذلك ، استغفرتم الله وأخلصتم له العبادة ، لكى يرحمكم ويعفو عنكم .

فالمراد بالسيئة : العذاب الذى تعجلوه ، وقالوا له على سبيل التحدى : ياصالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين .

ثم حكى - سبحانه - ما رد به هؤلاء المتكبرون على نبيهم فقال : ﴿ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ﴾ أى : قال المكذبون من قوم صالح له : يا صالح لقد أصابنا الشؤم والنحس بسبب وجودك ووجود المؤمنين بدعوتك فينا ، حيث أصابنا القحط بعد الرخاء ، والعسر بعد اليسر ، والفقر بعد الغنى .

فكان رد صالح - عليه السلام - عليهم أن قال لهم : ﴿ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ . أى : قال لهم موبخا وزاجرا : ليس الأمر كما زعمتم من أن وجودنا بينكم هو السبب فيما أصابكم من شر ، بل الحق أن ما أصابكم من شر ، هو من عند اللّه - تعالى - بسبب كفركم وبغيكم ، وقد فعل بكم - سبحانه - ذلك ليمتحنكم ويختبركم ، حتى تتوبوا إليه من ذنوبكم ، قبل أن ينزل بكم العذاب الماحق ، إذا ما بقيتم على شرككم .

١٩ - ولكن هذا النصح الحكيم الذى وجهه صالح إلى المكذبين من قومه ، لم يجد أذنا صاغية منهم ، بل قابله زعماؤهم بالتكبر والإصرار على التخلص من صالح -

عليه السلام - ومن أهله ، وقد حكى القرآن ذلك فى قوله - تعالى - : ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ .

والمراد بالمدينة : مدينة صالح - عليه السلام - وهى الحِجْر التى تسمى بمدائن صالح .

وقوله : تسعة رهط ، أى : تسعة أشخاص ، وهم الذين تولوا عقر الناقة .. ووصفهم - سبحانه - بأنهم يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، للإشارة إلى أن نفوسهم تمخضت للفساد والإفساد ، ولا مكان فيها للصلاح والإصلاح .

وقوله : «تقاسموا» فعل أمر محكى بالقول ، أى : قال بعضهم لبعض :.احلفوا بالله لنقضين على صالح - عليه السلام - وعلى أهله ..

وقوله : «لنبيتنه» من البيات ، وهو مباغتة العدو ليلا لقتله . يقال : بيَّت القوم العدو ، إذا أوقعوا به ليلا .

والمراد بوليه : أهله وأقاربه المطالبون بدمه ، وفى ذلك إشارة إلى أن هؤلاء المجرمين ، لم يكونوا ليستطيعوا قتل صالح - عليه السلام - علانية ، خوفا من مناصرة أقاربه له .

والمعنى : وكان فى المدينة التى يسكنها صالح - عليه السلام - وقومه ، تسعة أشخاص دأبهم وديدنهم الإفساد فى الأرض ، وعدم الإصلاح فيها ..

وقد تعاهد هؤلاء التسعة ، وأكدوا ما تعاهدوا بالأيمان المغلظة ، وهو أن يباغتوا نبيهم صالحا ومن معه ، فيقتلوهم جميعا ليلا ، ثم يقولوا بعد جريمتهم الشنعاء لأقارب صالح - عليه السلام - : لا علم لنا ولا خبر عندنا بهلاك صالح ومن معه ، وإنا لصادقون فى كل ما نقوله ..

وهكذا الجبناء المفسدون فى الأرض ، يرتكبون أقبح الجرائم وأشنعها ، ثم يبررونها بالحيل الساذجة الذميمة ، ثم بعد ذلك يحلفون بأغلظ الأيمان أنهم بريئون من تلك الجرائم ..

ومن العجيب أن هؤلاء المجرمين الغادرين يقولون فيما بينهم : تقاسموا بالله ، أى : احلفوا بالله على أن تنفذوا ما اتفقنا عليه من قتل صالح وأهله ليلا غيلة وغدرا ، فهم يؤكدون إصرارهم على الإجرام بالحلف بالله ، مع أن الله - تعالى - برىء منهم ومن غدرهم ..

٢٠ - ولكن هذا المكر السيئ ، والتحايل القبيح ، قد أبطله الله - تعالى - ، وجعله يحيق بهم وبأشياعهم ، فقد قال - تعالى - : ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا﴾ .

أى : بهذا الحلف على قتل صالح وأهله غدرا وغيلة مكروا مكرا شديدا .. «ومكرنا مكرا» أى : ودبرنا لصالح ولمن آمن به تدبيرا محمودا محكما ، بحيث ننجيهم من القوم الغادرين .

وقوله : ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ : جملة حالية ، والحال أن هؤلاء الغادرين ، لا يشعرون بتدبيرنا الحكيم ، ولا يعلمون أن رعايتنا لعبادنا الصالحين ، تنجيهم من مكر الماكرين ، وغدر الغادرين .

ثم بين – سبحانه – الآثار التى ترتبت على مكرهم السيئ ، وعلى تدبيره المحكم ، فقال تعالى – : ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

أى فانظر – أيها العاقل – وتأمل واعتبر فيما آل إليه أمر هؤلاء المفسدين ، لقد دمرناهم وأهلكناهم ، ودمرنا معهم جميع الذين كفروا بنبينا صالح – عليه السلام – ولم نبق منهم أحدا .

وقوله – تعالى – : ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ﴾ : مقرر ومؤكد لما قبله من تدمير المفسدين وإهلاكهم .

أى : إن كنت ـ أيها العاقل ـ تريد برهانا على تدميرهم جميعا ، فتلك هى بيوتهم خاوية وساقطة ومتهدمة على عروشها ، بسبب ظلمهم وكفرهم ومكرهم ، يراها من ينظر إليها ، ويشاهدها من يمر قريبا منها ..

«إن فى ذلك» الذى فعلناه بهم من تدمير وإهلاك «لآية» أى : لعبرة واضحة وعظة بليغة .

«لقوم يعلمون» أى : لقوم يتصفون بالعلم النافع ، الذى يوصل إلى العمل الصالح .

ثم ختم – سبحانه – هذه القصة بتأكيد سنة من سننه التى لا تتخلف فقال : ﴿ أَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ .

أى : وأنجينا بفضلنا وإحساننا الذين آمنوا بنبينا صالح ـ عليه السلام ـ ، والذين كانوا من شأنهم أنهم يخافون اللّه – تعالى – ويصونون أنفسهم عن كل ما لا يرضيه .

٢١ ـ وقد أكد ـ سبحانه ـ هذه السنة التى لا تتخلف وهى : نجاة المؤمنين وهلاك الظالمين ، فى آيات كثيرة ، منها قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (١) .

---

(١) سورة فصلت : الآيتان ١٧ – ١٨ .

أى : وأما قوم ثمود الذين أرسلنا إليهم نبينا صالحا - عليه السلام - ، فقد بينا لهم عن طريقه سبيل الرشاد وسبيل الغى . .

فالمراد بالهداية هنا : البيان والإرشاد والدلالة على الخير .

وقوله - تعالى - : ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ أى : فاختاروا الكفر على الإيمان ، وآثروا الغى على الرشد ، والضلال على الهدى . .

فالمراد بالعمى هنا : الكفر والضلال ، والمراد بالهدى : الطاعة والإيمان .

وقوله - سبحانه - ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ : بيان لسنته - سبحانه - التى لا تتخلف ، وهى : إهلاك الظالمين ، وإنجاء المؤمنين .

أى : فحين استمر قوم صالح على كفرهم وضلالهم ، وأصروا على مخالفة نبيهم ، كانت نتيجة ذلك ، أن أنزلنا عليهم الصاعقة التى أهلكتهم ، والعذاب المهين الذى أبادهم ، بسبب ما اكتسبوه من ذنوب وقبائح .

وأما الذين آمنوا بدعوة نبينا صالح - عليه السلام - ، واتبعوه فيما أمرهم به أو نهاهم عنه ، فقد نجيناهم من عذاب الدنيا ومن عذاب الآخرة ، ببركة تقواهم وخوفهم من عذاب خالقهم ، واتباعهم للحق الذى جاءهم به نبيهم - عليه السلام .

٢٢ - وفى سورة الشعراء آيات تحدثت عن المحاورات التى دارت بين صالح - عليه السلام - وبين قومه ، وهو يدعوهم إلى إخلاص العبادة لله الواحد القهار . .

وتبدأ هذه الآيات بقوله - تعالى - :

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا

أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

٢٣ ـ والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة يرى أنها قد افتتحت ببيان موقف قوم ثمود من صالح - عليه السلام - ، ثم ثنت ببيان النصائح التى وجهها صالح إلى قومه ، ثم ببيان ردهم القبيح عليه ، ثم ختمت ببيان ما أصابهم من عذاب أليم ، بسبب إصرارهم على كفرهم ، وعصيانهم لنبيهم .

وقال - سبحانه - ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ مع أنهم لم يكذبوا إلا رسولا واحدا وهو نبيهم صالح - عليه السلام - ، للإشعار بأن تكذيبهم لنبى واحد ، هو تكذيب لجميع الأنبياء ، لأنهم جميعا قد أتوا برسالة واحدة ، ألا وهى الدعوة إلى إخلاص العبادة لله تعالى - وإلى اعتناق مكارم الأخلاق . . ولقد دعاهم صالح - أولا - إلى تقوى الله والخشية منه ، ثم بين لهم أنه رسول أمين على تبليغ رسالة الله إليهم ، ثم أكد لهم الأمر بالتقوى ، ثم أعلن لهم أنه لا يبغى منهم أجرا ولا مالا على دعوته إلى سعادتهم ، وإنما أجره يرجوه من الله - تعالى - وحده . .

ثم وعظهم بعد ذلك بما يرقق القلوب ، وبما يحمل العقلاء على شكر الله - تعالى - على نعمه فقال لهم : ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ .

والاستفهام فى قوله «أتتركون» للإنكار والنفى . والطلع : اسم من الطلوع بمعنى الظهور ، وأصله ثمر النخل فى أول ما يطلع ، وهو بعد التلقيح يسمى خلالا - بفتح الخاء - ثم يصير بسرا ، فرطبا ، فتمرا . .

والهضيم : اليانع النضيج ، أو الرطب اللين اللذيذ الذى تداخل بعضه فى بعض ، وهو وصف للطلع الذى قصد به هنا : الثمار الناضجة الطيبة لصيرورته إليها .

والمعنى : أتتوهمون وتظنون أنكم متروكون فى هذه الدنيا بدون حساب أو سؤال من

خالقكم - عز وجل - وأنتم تتقلبون فى نعمه ، التى منها ما أنتم فيه من بساتين وأنهار وزروع كثيرة متنوعة .

إن كنتم تتوهمون ذلك فانبذوا هذا الوهم ، واعتقدوا أنكم أنتم وما بين أيديكم من نعم إلى زوال ، وستحاسبون يوم القيامة على ما قدمتم وما أخرتم ، وما دام الأمر كذلك فقدموا الإيمان والعمل الصالح ، كى تنالوا الثواب من خالقكم .

فأنت ترى أن صالحا - عليه السلام - قد استعمل مع قومه أرق ألوان الوعظ ، كى يوقظ قلوبهم الغافلة ، نحو طاعة اللّه - تعالى - وشكره ، وقد استعمل فى وعظه لفت أنظارهم إلى ما يتقلبون فيه من نعم تشمل البساتين والعيون ، والزروع المتعددة ، والنخيل الجيدة الطلع ، اللذيذة الطعم حتى لكأن ثمرها لجودته ولينه ، لا يحتاج إلى هضم فى البطون .

ثم ذكرهم بنعمة أخرى ، وكرر عليهم الأمر بتقوى اللّه - تعالى - فقال : ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ .

أى : وكما نهيتكم عن الغفلة عن يوم الحساب وعن الاغترار بالدنيا ، أنهاكم انهماككم فى نحت الحجارة من الجبال بمهارة وبراعة ، لكى تبنوا بها بيوتا وقصورا بقصد البطر والأشر والغرور ، لا بقصد الإصلاح والشكر .

فمحل النهى إنما هو قصد الأشر والبطر فى البنآء وفى النحت ، وإلا فالتعمير من أجل الإصلاح أمر مرغوب فيه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فَارِهِينَ ﴾ : أى : ماهرين حاذقين فى نحتها . من فَرُه - ككرُم - فراهة ، إذا برع فى فعل الشىء ، وعرف غوامضه ودقائقه .

ثم نهاهم عن طاعة المفسدين فى الأرض بعد أن أمرهم بتقوى اللّه فقال : ﴿ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ .

أى : اجعلوا طاعتكم للّه - تعالى - وحده ، واتركوا طاعة زعمائكم ورؤسائكم المسرفين فى إصرارهم عل الكفر والمعاصى ، والذين دأبهم الإفساد فى الأرض . .

٢٤ - ولكن هذا النصح الحكيم من صالح لقومه ، لم يقابل منهم بأذن صاغية ، بل قابلوه بالتطاول والاستهتار وإنكار رسالته فقالوا له : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

أى : قال قوم صالح له بسفاهة وسوء أدب : أنت لست إلا من الذين غلب عليهم

السحر ، وأثر عقولهم ، فصاروا يتكلمون بكلام المجانين ، وما أنت - أيضا - إلا بشر مثلنا تأكل الطعام كما نأكل ، وتشرب الشراب كما نشرب ، فإن كنت رسولا حقا فأتنا بعلامة ومعجزة تدل على صدقك فى دعواك الرسالة ، وكأنهم - لغبائهم وانطماس بصائرهم - ظنوا أن البشرية تتنافى مع النبوة . .

وتضرع صالح - عليه السلام - إلى ربه ، أن يرزقه معجزة لعلها تكون سببا فى هدايتهم ، فأجاب - سبحانه - تضرعه ، وأعطاه الناقة لتكون معجزة له ، ويحكى القرآن ذلك فيقول : ﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (١٥٥) وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

قال الإمام ابن كثير فى تفسيره جـ ٦ ص ١٦٦ : «ثم إنهم اقترحوا عليه آية - أى : معجزة - يأتيهم بها ، ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم ، فطلبوا منه أن يخرج لهم فى الحال من صخرة عندهم ناقة عشراء ، من صفتها كذا وكذا . فعند ذلك أخذ عليهم صالح - عليه السلام - العهود والمواثيق لئن أجابهم إلى ما سألوا ليؤمنن به ، فأنعموا بذلك - أى : قالوا : نعم - ، فقام نبى الله صالح فصلى ، ثم دعا ربه أن يجيبهم على سؤالهم ، فانفطرت - أى : فانشقت - تلك الصخرة التى أشاروا إليها عن ناقة عشراء ، على الصفة التى وصفوها ، فآمن بعضهم وكفر أكثرهم» والمعنى : قال لهم صالح بعد أن طلبوا منه معجزة تدل على صدقه : هذه ناقة لها نصيب معين من الماء ، ولكم أنتم نصيب آخر منه ، وليس لكم أن تشربوا منه فى يوم شربها ، وليس لها أن تشرب منه فى يوم شربكم ، واحذروا أن تمسوها فيأخذكم عذاب يوم عظيم .

ووصف اليوم بالعظم ، لشدة ما يحل فيه من عذاب ينزل بهم إذا مسوها بسوء . ولكن قومه لم يفوا بعهودهم ، فذبحوا الناقة التى هى معجزة نبيهم . .

وأسند الذبح إليهم جميعا فى قوله - سبحانه - ﴿ فعقروها ﴾ مع أن الذى ذبحها واحد منهم ، لأن الذبح كان برضاهم جميعا ، كما يرشد إليه قوله - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ﴾ .

وقوله : ﴿فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ بيان لما ترتب على عقرهم لها . وندمهم إنما كان بسبب خوفهم من وقوع العذاب ، ولم يكن بسبب إيمانهم وتقواهم ، أو أن ندمهم جاء فى غير أوانه ، كما يشعر بذلك قوله - تعالى : ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أى : فأخذتهم الرجفة ، وتبعتها الصيحة التى صاحها بهم جبريل - عليه السلام - فأهلكتهم . .

ثم تختتم القصة بالتعقيب الذى فيه من العبر ، وهو قوله - سبحانه - : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ - أى : العبرة والعظة ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

٢٥ - وقصة صالح مع قومه ، قد جاءت فى سور أخرى بصورة مختصرة ، وكان التركيز فيها على معجزته وهى الناقة .

ومن ذلك قوله - تعالى - فى سورة الإسراء : ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا ﴾ [الآية : ٥٩] .

أى : وأجبنا قوم صالح - عليه السلام - وهم قبيلة ثمود إلى ما طلبوه من نبيهم ، بأن أخرجنا لهم الناقة ، وجعلناها معجزة واضحة نيرة فى الدلالة على صدقه ، فقابلوها بالتكذيب والجحود ، وظلموا أنفسهم وجعلوها محل الإهلاك والتدمير بسبب عصيانهم لنبيهم ، وعقرهم للناقة ، وما نرسل رسلنا ومعهم الآيات الدالة على صدقهم ، إلا تخويفا لأقوامهم من سوء عاقبة تكذيبهم لهذه الآيات والمعجزات .

٢٦ - ومن ذلك - أيضاً - قوله - تعالى - فى سورة «الشمس» :

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥) ﴾ .

أى : كذبت قبيلة «ثمود» نبيها صالحا - عليه السلام - بسبب طغيانها . فالباء فى قوله : «بطغواها» للسببية . والطغوى : اسم مصدر من الطغيان ، وهو مجاوزة الحد المعتاد .

والظرف فى قوله : ﴿ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾ متعلق بقوله ﴿ بِطَغْوَاهَا ﴾ لأن وقت انبعاث أشقاهم لقتل الناقة هو أشد أوقات طغيانهم وفجورهم .

أى : كذبت ثمود بنبيها بسبب طغيانها ، وكان أشد تكذيبهم له ، وقت أن أسرع أشقى تلك القبيلة وهو - قادر بن سالف - لعقر الناقة التى هى معجزة نبيهم . . ﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ وهو صالح - عليه السلام - على سبيل التحذير والإنذار - ، احذروا عقر هذه الناقة ، التى أوجدها الله بقدرته لتكون معجزة لى ، واحذروا أن تزاحموها فى اليوم المحدد لشربها .

ولكنهم لم يستمعوا لتحذيره وإنذاره ، بل كذبوه ، فعقروها ، فكانت نتيجة ذلك أن ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴾ أى : أطبق عليهم الأرض ، وسواها من فوقهم ، والضمير فى قوله ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ يعود على الله - تعالى - أى : ولا يخاف الله - تعالى - عاقبة مافعله بهم ؛ لأن ما فعله هو العدل والنقمة من الظالمين ، ولأنه - سبحانه - لا يسأل عما يفعل ، ومنهم من جعل الضمير يعود على أشقاها ، أى : ولا يخاف هذا الشقى لغبائه وجهله ، سوء عاقبة ما فعله من قتل الناقة ، بل أقدم على ما أقدم عليه بإصرار وطغيان .

٢٧ - وفى سورة «القمر» آيات كريمة تحدثت عن قصة صالح - عليه السلام - مع قومه ، بأسلوب بليغ مؤثر ، يصور ما كان عليه أولئك القوم من فجور وطغيان ، . .

قال - تعالى - :

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾

٢٨ - وقوله - سبحانه - : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴾ : أى : كذبت قبيلة ثمود ، بالنذر التى جاءتهم عن طريق رسولهم صالح - عليه السلام - . فالنذر بمعنى الإنذارات التى أنذرهم بها نبيهم ، وخوفهم من سوء عاقبة مخالفته وعصيانه . .

ثم حكى - سبحانه - مظاهر تكذيبهم فقال : ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ ﴾ أى : فقال قوم صالح له عندما أمرهم بعبادة الله - تعالى - ، ونهاهم عن عبادة غيره : قالوا على سبيل الإنكار والغرور : أنتبع واحدا من أبناء البشر ، جاءنا بهذا الكلام الذى يخالف ما كان عليه آباؤنا وأجدادنا ؟

﴿ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ ﴾ أى : إنا لو اتبعناه لصرنا فى ضلال عظيم ، وفى جنون واضح . .

فالسُّعُر بمعنى الجنون ، ومنه قولهم : ناقة مسعورة ، إذا كانت لا تستقر على حال ، وتضطرب فى سيرها كالمجنونة . ويصح أن يكون السُّعُر بمعنى النار المسعرة . ثم أخذوا فى تفنيد دعوته فقالوا : ﴿ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ ؟ أى : أألقى وأنزل عليه الوحى من اللّه - تعالى - فاختصه به من دوننا ؟ لا لم ينزل عليه شىء من ذلك . .

﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ أى : بل صالح - عليه السلام - فيما يدعونا إليه كذاب فى دعواه ، وبطر متكبر معجب بنفسه .

يقال : أشر فلان ، إذا أبطرته النعمة ، وصار مغرورا متكبرا على غيره . وهكذا الجاهلون الجاحدون ، يقلبون الحقائق ، وتصير الحسنات فى عقولهم سيئات ، فصالح - عليه السلام - الذى جاءهم بما يسعدهم ، صار فى نظرهم كذابا مغرورا ، لا يليق بهم أن يتبعوه .

٢٩ - وقد رد - سبحانه - عليهم ردا فيه من التأنيب والتهديد فقال : ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ ﴾ .

أى : سيعلم هؤلاء الكافرون الجاحدون ، فى الغد القريب ، يوم ينزل بهم العذاب من هو الكذاب فى أقواله ، ومن هو المغرور المتكبر على غيره ، أهو صالح - عليه السلام - أم هم ؟

والتعبير فى قوله - سبحانه - : ﴿ سَيَعْلَمُونَ ﴾ : لتقريب مضمون الجملة وتأكيده .

والمراد بقوله : ﴿ غَدًا ﴾ : الزمن المستقبل القريب الذى سينزل فيه العذاب عليهم .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ، ما أمر به نبيه صالحا - عليه السلام - فقال : ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ .

وقوله : ﴿ مُرْسِلُوا النَّاقَةِ ﴾ أى : مخرجوها وباعثوها ، لأنهم اقترحوا على نبيهم أن يأتيهم بمعجزة تدل على صدقه ، فأخرج اللّه لهم تلك الناقة من مكان قريب منهم .

أى : وقلنا لنبينا صالح على سبيل الإرشاد والتعليم ؛ بعد أن طلب منه قومه معجزة تدل على صدقه : قلنا له : أخبرهم أننا سنرسل الناقة ، وسنخرجها لهم أمام أعينهم ، لتكون دليلا على صدقك ، ولتكون فتنة أى : امتحانا واختبارا لهم ، حتى يظهر لك وللناس ، أيؤمنون أم يصرون على كفرهم ؟

وما دام الأمر كذلك ، فراقب أحوالهم ، وانتظر ماذا يفعلون بعد ذلك ، واصبر على أذاهم صبرا جميلا ، حتى يحكم اللّه بينك وبينهم .

وأخبرهم خبرا هاما ، هذا الخبر هو أن الماء الذى يستقون منه ، قسمة بينهم وبين الناقة .

﴿ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ أى : كل نصيب من الماء يحضره من هو له . فالناقة تحضر إلى الماء فى يومها ، وهم يحضرون إليه فى يوم آخر .

ففى هاتين الآيتين تعليم حكيم من اللّه - تعالى - لنبيه صالح ، وإرشاد له إلى ما يجب عليه أن يسلكه معهم بيقظه واعية ، يدل عليها قوله - سبحانه - : ﴿ فَارْتَقِبْهُمْ ﴾ ، وبصبر جميل لا يأس معه ولا ضجر ، كما يشير إليه قوله - تعالى - : ﴿ وَاصْطَبِرْ ﴾ وسياق القصة ينبئ عن كلام محذوف يعلم من سياقها . والتقدير : أرسلنا الناقة امتحانا واختبارا لهم ، وقلنا له أخبرهم أن الماء مقسوم بينهم وبينها ، واستمروا على ذلك مدة من الزمان ، ولكنهم أبوا هذه القسمة ولم يقبلوها ، وأجمعوا على قتل الناقة . . .

﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ ﴾ وهو - قدار بن سالف - الذى كان معروفا لهم وزعيما من زعمائهم كما يشير إليه قوله ﴿ صَاحِبَهُمْ ﴾ .

والمقصود بندائهم : إغراؤهم بقتلها ، مخالفين بذلك وصية نبيهم . وقوله : ﴿ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾ متفرع على ما قبله . وقوله : ﴿ تَعَاطَى ﴾ مطاوع للفعل عاطاه ، وهو مشتق من عطا يعطو ، إذا تناول الشيء .

وهذه الصيغة ﴿ تَعَاطَى ﴾ تشير إلى تعدد الفاعل ، فكأن هذا النداء بقتل الناقة ، تدافعوه فيما بينهم ، وألقاه بعضهم على بعض ، فكان كل واحد منهم يدفعه إلى غيره ، حتى استقر عند ذلك الشقى الذى ارتضى القيام به ، وتولى كبره ، حيث عقر الناقة وبقية المجرمين أيدوه فى ذلك .

والتعبير بقوله - تعالى - بعد ذلك ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ : يشير إلى هول العقوبة التى نزلت بهم بسبب ما فعلوه من عقر الناقة ، ومن تكذيبهم لنبيهم . أى :

انظر وتدبر - أيها العاقل - كيف كان عذابى وإنذارى لهؤلاء القوم ؟ لقد كان شيئا هائلا لا تحيط به العبارة .

ثم فصل - سبحانه هذا العقاب المبين فقال : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾ .

والهشيم : ما تهشم وتفتت وتكسر من الشجر اليابس .

والمحتظر : هو الذى يعمل الحظيرة لتكون مسكنا للحيوانات .

أى : إنا أرسلنا على هؤلاء الطغاة المجرمين ، صيحة واحدة صاحها بهم جبريل - عليه السلام - ، فصاروا بعدها كغصون الأشجار اليابسة المكسرة ، التى يجمعها الجامع ليجعل منها حظيرة لسكن حيواناته .

والمقصود بهذا التشبيه : بيان عظم ما أصابهم من عقاب شديد ، جعلهم كالأعواد الجافة حين تتحطم وتتكسر . . .

وهذا العذاب عبر عنه - سبحانه - بالصيحة ، كما فى هذه الآية ، وكما فى سورة «هود» ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ (٦٧) ﴾ [الآية ٦٧] .

وعبر عنه بالرجفة كما فى سورة الأعراف فى قوله :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾ [الآية ٧٨] .

وعبر عنه بالصاعقة كما فى سورة فصلت فى قوله :

﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ . . ﴾ [فصلت : ١٧]

وعبر عنه بالطاغية كما فى سورة الحاقة فى قوله :

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴾ [الحاقة : ٥]

ولاتعارض بين هذه التعبيرات ، لأنها متقاربة فى معناها ، ويكمل بعضها بعضا ، وهى تدل على شدة ما أصابهم من عذاب .

فكأنه ـ سبحانه ـ يقول : لقد نزلت بهؤلاء المكذبين الصيحة التى زلزلت كيانهم لقوتها ، ثم رجفت بهم الأرض فصعقوا ، وابتلعتهم فى جوفها ، بعد أن صاروا فوقها كالأعواد الجافة المتحطمة .

ثم ختم - سبحانه - الآيات بقوله :

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر : ٣٢]

أي : وبالله لقد سهلنا القرآن للتذكر والحفظ ، فهل من معتبر ومتعظ ، بقصصه ووعده ، ووعيده ، وأمره ونهيه . .

والمقصود بهذه الآية الكريمة : الحض على حفظ القرآن ، وعلى الاعتبار بمواعظه ، وعلى العمل بما فيه من تشريعات حكيمة ، وآداب قويمة ، وهدايا سامية .

٣٠ - وبعد فهذه قصة صالح - عليه السلام - مع قومه ، كما جاءت في سور : الأعراف ، هود ، الحجر ، الإسراء ، الشعراء ، النمل ، فصلت ، القمر ، والشمس وضحاها . .

والمتأمل فى هذه القصة يراها زاخرة بالعبر والعظات التى من أهمها :

(أ) أن صالحا - عليه السلام - قد بذل مع قومه أقصى ألوان الترغيب والترهيب ، وهو يدعوهم إلى عبادة الله - تعالى - وحده ، ونبذ عبادة كل شيء سواه ، وقد داوم على هذه الدعوة بدون يأس أو ملل إلى أن بلغ رسالة الله - تعالى - على أكمل وجه . . أما الترغيب فنراه فى دعوة قومه إلى شكر الله لكى يزيدهم من نعمه التى منها : جعلهم خلفاء من بعد قبيلة عاد ، وتمكينهم فى الأرض لكى يعمروها بالزروع والثمار ، ولكى يتخذوا منها القصور والمساكن واعطاؤهم القوة التى بواسطتها اتخذوا من الجبال بيوتا . .

فهو يقول لهم - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٤]

ويقول لهم فى موطن آخر : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود : ٦١]

ويقول لهم فى موضع ثالث : ﴿ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النمل : ٤٦]

وأما الترهيب فنراه فى تحذيرهم من التمادى فى كفرهم وفسوقهم وعصيانهم ، لأن ذلك سيؤدى إلى هلاكهم . .

فهو يقول لهم : ﴿ وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ ﴾ [الشعراء : ١٥١، ١٥٢]

ويقول لهم فى موضع آخر : ﴿ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء : ١٥٦] (أى الناقة)

ويقول لهم فى موضع ثالث :

وهكذا الدعاة العقلاء المخلصون ، لايتركون وسيلة لنفع دعوتهم إلا سلكوها ، ولايرون طريقة لهداية المدعوين إلا اتبعوها .

(ب) أن العقلاء من الناس يعتبرون بآثار الظالمين ، ويربأون بأنفسهم عن أن يسلكوا سلوكهم ، أو أن يسكنوا مساكنهم ، خوفا من أن يصيبهم ما أصاب أولئك الظالمين ، ففى الصحيحين عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : لما مر رسول الله ﷺ بالحجر - وهو فى طريقه إلى تبوك - قال لأصحابه : «لاتدخلوا على هؤلاء المعذبين ، إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم ، أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، ثم قنع رأسه - أى : غطاه ، وأسرع السير حتى جاوزوا الوادى» .

وأخرج الإمام أحمد عن ابن عمر - أيضا - قال : نزل رسول الله ﷺ بالناس عام تبوك بالحجر عند بيوت ثمود ، فاستسقى الناس من الآبار التى كانت تشرب منها ثمود ، فعجنوا منها ونصبوا القدور باللحم ، فأمرهم النبى ﷺ فأهرقوا القدور ، وعلقوا العجين للإبل ، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التى كانت تشرب منها الناقة ، ونهاهم عن أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا وقال : إنى أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، فلاتدخلوا عليهم .

(جـ) أن الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب ، واستقر فى النفوس ، ولد فيها الشجاعة والقوة ، والإقدام والصراحة . .

نرى ذلك واضحا فى القلة المؤمنة التى آمنت بصالح - عليه السلام - وصدقته فى دعوته ، فهذه القلة عندما قالت لها الكثرة الباغية الجاحدة من قوم صالح : ﴿ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ [الأعراف : ٧٥] ؟ ماكان من هذه القلة المؤمنة إلا أن قالت للكثرة الباغية بكل ثبات وشجاعة ووضوح : ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ ، ولم يخشوا بغى هذه الكثرة أو قوتها أو غرورها ، بل سارعوا إلى إحقاق الحق وإبطال الباطل دون أن يخشوا أحدا إلا الله . .

(د) كذلك من الدروس التى نتعلمها من قصة صالح - عليه السلام - مع قومه ، أن العقلاء المخلصين دائما يستعملون فى دعوتهم الأساليب المنطقية الحكيمة مع غيرهم ، وهذا نراه بوضوح فى كثير من جدال صالح مع قومه ، ومن ذلك قوله لهم : ﴿ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧) ﴾ [النمل] ، وهكذا نرى أن صالحا - عليه السلام - قد سلك فى دعوته لقومه أحكم الأساليب وأقواها .

قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ

١ ـ قصة إبراهيم ـ عليه السلام بجوانبها ، من القصص التى تكرر الحديث عنها فى القرآن الكريم ، فى سور متعددة .

فقد جاء الحديث عنها في سور : البقرة ، آل عمران ، الأنعام ، التوبة ، هود ، إبراهيم ، الحجر ، النحل ، مريم ، الأنبياء ، الحج ، الشعراء ، العنكبوت ، الصافات ، الزخرف ، الذاريات . . وغيرها .

وورد اسم إبراهيم ـ عليه السلام ـ فيما يقرب من سبعين موضعا من القرآن الكريم .

٢ ـ وينتهي نسب إبراهيم إلى نوح ـ عليهما السلام ـ فقد قال الإمام ابن كثير فى كتابه «البداية والنهاية» جـ١ ص١٥٢ فى بيان نسبه : هو إبراهيم ، بن تسارخ ، بن ناحور ، بن ساروغ ، بن راعو ، بن فالغ ، بن عابر . . . بن سام ، بن نوح ـ عليه السلام ـ وكانت المدة بين إبراهيم ونوح ـ عليهما السلام ـ تزيد على ثلاثة آلاف سنة .

وولد إبراهيم ـ عليه السلام ـ بأرض بابل بالعراق . .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : وروى ابن عساكر من غير وجه عن عكرمة أنه قال : كان إبراهيم ـ عليه السلام ـ يكنى «أبا الضيفان» .

قالوا : ولما كان عمر والده تسارخ خمسا وسبعين سنة ، ولد له إبراهيم ـ عليه السلام ـ وناحور وهاران ، وولد لهاران «لوط» ـ عليه السلام ـ وعندهم أن إبراهيم هو الأوسط ، وأن هاران مات فى حياة أبيه فى أرضه التى ولد فيها ، وهى أرض الكلدانيين ، يعنون أرض بابل ، وهذا هو الصحيح المشهور عند أهل السير والتواريخ والأخبار . . خلافا لمن قال إن إبراهيم ولد بغوطة دمشق(١)

ثم هاجر إبراهيم مع أبيه من أرض الكلدانيين إلى أرض الكنعانيين ، وهى بلاد بيت المقدس ، والجزيرة والشام ، فنزلوا حران ، وهناك تزوج بسارة ، ابنة ملك حران ، وكان أهلها يعبدون الكواكب .

ويبدو أنه عاد مرة أخرى إلى أرض بابل التى كان أهلها يعبدون الأصنام ، وهناك جرى ما جرى بينه وبين ملكها وأهلها من محاورات ، ومجادلات ، خلال دعوته لهم إلى إخلاص العبادة لله الواحد القهار .

---

(١) البداية والنهاية جـ١ ص١٥٢ .

ثم رجع مرة أخرى إلى بلاد الشام ، ومعه ابن أخيه لوط ـ عليه السلام ـ ثم رحل بعد ذلك إلى مصر ، بعد أن اشتد القحط والغلاء فى بلاد الشام .

وبعد أن أقام هو وزوجته فى مصر ما شاء الله له أن يقيم ، عاد إلى فلسطين .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : «ثم إن الخليل ـ عليه السلام ـ رجع من بلاد مصر إلى أرض التيمن ـ وهى الأرض المقدسة التى كان فيها ـ ومعه أنعام وعبيد ومال جزيل ، وصحبتهم «هاجر» القبطية المصرية ـ التى أهداها ملك مصر لسارة زوجة إبراهيم ـ وقد تزوجها إبراهيم ـ عليه السلام ـ بعد ذلك ، وأنجب منها إسماعيل ـ عليه السلام ـ ثم انتقل ـ عليه السلام ـ ومعه هاجر وابنهما إسماعيل ، إلى مكة المكرمة ، وبعد فترة من الزمان أمره الله ـ تعالى ـ ببناء المسجد ، وشاركه فى ذلك ابنه إسماعيل وكانت وفاة إبراهيم ـ عليه السلام ـ ببلدة «حبرون» بفلسطين» .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : «وقبره وقبر ولده إسحاق ، وولد ولده يعقوب ، فى المربعة التى بناها سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ ببلدة حبرون ـ وهى المعروفة اليوم باسم الخليل ـ ، وهذا تُلُقِّيَ بالتواتر أمة بعد أمة ، وجيلا بعد جيل ، من زمن بنى إسرائيل وإلى زماننا هذا ، فقبره بالمربعة تحقيقا ، أما تعيينه منها ، فليس فيه خبر صحيح عن معصوم . .» (١)

٣ ـ هذه لمحة عن حياة إبراهيم ـ عليه السلام ـ كما ذكرها المحققون من المؤرخين ، أما حديث القرآن الكريم عنه ، فهو حديث بليغ حكيم مفصل ، سنجتهد ـ بإذن الله ـ فى تفسيره ، وبيان ما اشتمل عليه من توجيهات سديدة ، وآداب قويمة ، وعظات بليغة ، ولنبدأ بما جاء عنه فى سورة الأنعام :

قال تعالى :

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ

(١) راجع البداية والنهاية جـ١ من ص١٥٢ إلى ١٩٠

لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى اللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوٓا إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰٓئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾

والمعنى : واذكر ـ أيها العاقل ـ لتعتبر وتتعظ ، وقت أن قال إبراهيم ـ عليه السلام ـ لأبيه آزر ، منكرا عليه عبادة الأصنام : أتتخذ أصناما آلهة تعبدها من دون الله الذى خلقك وخلق كل شىء؟

إنى أراك وقومك الذين ساروا على نهجك فى عبادتها ، فى ضلال مبين ، وانحراف ظاهر عن الطريق المستقيم .

قال الآلوسى ـ رحمه الله ـ : «وآزر ـ بزنة آدم ـ علم أعجمى لوالد إبراهيم ـ عليه السلام» .

وكان من قرية من سواد الكوفة ، وهو بدل من إبراهيم أو عطف بيان ، وقيل إن لفظ «آزر» لقب لوالد إبراهيم واسمه الحقيقى «تارح» وقيل هو اسم جده ، وقيل هو اسم عمه ، والجد والعم يسميان أبا مجازا» .[1]

والتعبير بقوله : «أتتخذ» الذي هو افتعال من الأخذ ، وفيه إشارة إلى أن عبادته هو

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٧ ص١٤٩ .

وقومه لها شيء مصطنع ، وأن الأصنام ليست أهلا للألوهية ، وفى ذلك مافيه من التعريض بسخافة عقولهم ، وسوء تفكيرهم .

ووصف - سبحانه - الضلال بأنه مبين : للإشعار بأن فساد عقولهم قد وصل إلي منتهاه ، حيث إنهم لم يتفطنوا إلى أن عبادة الأصنام شيء مهين ، مع وضوح الأدلة على ذلك .

٤ - ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر نعمه على خليله إبراهيم - عليه السلام - فقال : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) ﴾ والملكوت : مصدر كالجبروت ، وزيدت فيه التاء والواو للمبالغة فى الصفة ، والمراد به الملك العظيم ، وهو مختص بملكه - تعالى .

أي : وكما أرينا إبراهيم أن الحق فى مخالفته لأبيه وقومه ، نريه - أيضا - مظاهر قدرتنا ، ونطلعه على حقائقها المتجلية فى السموات والأرض ، ليزداد إيمانا على إيمانه وليكون من العالمين علما كاملا لايقبل الشك بأنه على الحق ، وأن مخالفيه على الباطل .

ثم بين - سبحانه - الثمرات التى ترتبت على ذلك فقال : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ ﴾ أى : ستره بظلامه ، وأصل الجن : الستر عن الحاسة ، يقال : جنة الليل وجن عليه يجن جنا وجنونا ، أى : غطاه ، فالمادة تدل على الستر والتغطية .

والمعنى : فلما ستر الليل بظلامه إبراهيم ، رأي فى الأفق كوكبا ، فقال - على سبيل الفرض وإرخاء العنان للمشركين الذين يعبدون الكواكب والأصنام - هذا الكوكب هو ربى ، فلما غاب وغرب وأفل ، قال : لا أحب عبادة الأرباب المتنقلين من مكان إلى مكان ، ومن حال إلى حال ، لأن الأفول غياب وابتعاد ، وشأن الإله الحق أن يكون دائم المراقبة لتدبير أمر عباده .

٥ - ثم بين - سبحانه - حالة ثانية من الحالات التى برهن بها إبراهيم - عليه السلام - على وحدانية الله - تعالى - فقال : ﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ .

أى : فلما رأى إبراهيم عليه السلام القمر مبتدئا فى الطلوع وقد انتشر ضوؤه من وراء الأفق قال هذا ربى ، فلما غاب القمر وأفل كما أفل الكوكب من قبله قال مسمعا من

حوله من قومه : لئن لم يهدنى ربى إلى جناب الحق ، وإلى الطريق القويم الذى يرتضيه ، لأكونن من القوم الضالين عن الصراط المستقيم ، لأن هذا القمر الذي يعتوره الأفول - أيضا - لايصلح أن يكون إلها .

وفى مخاطبة إبراهيم - عليه السلام - لقومه بهذا القول ، تنبيه لهم إلى معرفة الرب الحق ، وأنه واحد لاشريك له ، وأن الكواكب والقمر لايصلحان للألوهية ، وفى هذا تهيئة لنفوس قومه لما عزم عليه من التصريح بأن له ربا غير الكواكب والقمر .

ثم عرض بقومه بأنهم ضالون ، لأن قوله : ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ يدخل على نفوسهم الشك فى معتقدهم أنه لون من الضلال .

٦ - ثم حكى القرآن الحالة الثالثة والأخيرة ، التى استدل بها إبراهيم على بطلان الشرك فقال : ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ .

أى : فلما رأي إبراهيم الشمس مبتدئة فى الظهور ، وقد عم ضياؤها الآفاق ، قال ، مشيرا إليها : ﴿هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾ أي : أكبر الكواكب جرما ، وأعظمها قوة ، وأشدها إضاءة ، فلما أفلت وغابت خلف الأفق ، جاهر قومه بالنتيجة التى يريد الوصول إليها ، ألا وهى براءته من كل معبود سوى الله - عز وجل .

فقد ترقى معهم وهو يأخذ بيدهم إلى النتيجة التى يريدها ، بأسلوب يقنع العقول السليمة ، والأفكار القويمة .

فهو - أولا - قال : ﴿لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ ، ثم عرض بضلالهم - ثانيا - فقال : ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ ثم تبرأ منهم ومن شركهم بعد ذلك فقال : ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ثم ختم هذا الترقى فى الاستدلال على وحدانية الله تعالى بقوله - كما حكى القرآن عنه : . ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ .

أى : إنى صرفت وجهى وقلبى فى العبادة والمحبة لله - تعالى - الذى أوجد السموات والأرض على غير مثال سابق ، حالة كونى مائلا عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق ، وما أنا من الذين يشركون مع الله - تعالى - آلهة أخرى لا فى أقوالهم ولا فى أفعالهم .

وبذلك يكون إبراهيم ـ عليه السلام ـ قد أقام الأدلة الحكيمة على أن المستحق للعبادة إنما هو الله الواحد القهار .

٧ ـ ثم بين ـ سبحانه ـ جانبا مما دار بين إبراهيم وبين قومه من مجادلات ومخاصمات فقال : ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ . . ﴾ .

وقوله سبحانه : ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ﴾ من المحاجة بمعنى المجادلة والمغالبة فى إقامة الحجة .

والحجة : تطلق على كل مايدلى به أحد الخصمين فى إثبات دعواه ، أو رد دعوى خصمه .

فمعنى : وحاجه قومه : أى : وجادلوه وخاصموه ، أو شرعوا فى مغالبته فى أمر التوجيه ، تارة بإيراد أدلة فاسدة واقعة في حضيض التقليد ، وأخرى بالتهديد والتخويف ، وقد رد عليهم إبراهيم ردا قويا جريئا فقال لهم : ﴿ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ . . ﴾ .

أى : أتجادلوننى فى شأنه تعالى ، وفى أدلة وحدانيته ، والحال أنه ـ سبحانه ـ قد هدانى إلى الدين الحق ، وإلى إقامة الدليل عليكم بأنه هو المستحق للعبادة ، والاستفهام للإنكار والتوبيخ وتيئيسهم من رجوعه إلى معتقداتهم .

ثم صارحهم بأنه لايخشى أصنامهم ، ولايقيم لها وزنا فقال : وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ . . ﴾ .

أى ولا أخاف معبوداتكم لأنها جمادات لاتضر ولاتنفع ، ولاتبصر ولاتسمع ، ولاتقرب ولاتشفع .

ويبدو أن قومه كانوا قد خوفوه من بطش أصنامهم وقالوا له كما قالت قبيلة عاد لنبيها هود : ﴿ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ .

وقد رد عليهم إبراهيم هذا الرد القوى الصريح ، الذى يدل على استخفافه بهم وبآلهتهم .

وقوله : ﴿ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ﴾ استثناء مما قبله .

أى : لا أخاف معبوداتكم فى جميع الأوقات إلا وقت مشيئة ربى شيئا من المكروه يصيبنى من جهتها ، بأن يسقط على صنما يشجنى ، فإن ذلك يقع بقدرة ربى ومشيئته ، لابقدرة أصنامكم أو مشيئتها .

وهذه الجملة الكريمة تدل على سمو أدب إبراهيم - عليه السلام - مع ربه ، وعلى نهاية استسلامه لمشيئته ، فمع أنه مؤمن بخالقه كل الإيمان ، وكافر بتلك الآلهة كل الكفران ، إلا أنه فوض الأمر كله لمشيئة الله - تعالى - وعلق مستقبله على مايريده - سبحانه - له .

وقوله : ﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ أي : أن علم ربى وسع كل شىء وأحاط به ، فلايبعد أن يكون فى علمه إنزال مايخفنى من جهة تلك المعبودات الباطلة لسبب من الأسباب ، وهذه الجملة الكريمة مستأنفة استئنافا بيانيا ، فكأن قومه قد قالوا : كيف يشاء ربك شيئا تخافه؟ فكان جوابه عليهم : ﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ فأنا وإن كنت عبده وناصره إلا أنه أعلم بإلحاق الضر أو النفع بمن يشاء من عباده .

وقوله : ﴿ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ . . ﴾ ، حض لهم على التذكر والتفكر ، وتوبيخ لهم على غفلتهم وجهالتهم ، أى : أتعرضون - أيها المغفلون - عن التأمل والتذكر ، بعد أن وضحت لكم بما لايقبل مجالا للشك أن الله وحده هو المستحق للعبادة ، وأن هذه المعبودات الباطلة لاتملك لنفسها نفعا ولاضررا .

٨ - ثم حكى القرآن الكريم عن إبراهيم - عليه السلام - أنه بعد أن صارح قومه بأنه لايخشى آلهتهم ، أخذ فى التهكم بهم ، والتعجيب من شأنهم ، لأنهم يخوفونه مما لايخيف ، فقال : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ﴾ أي : وكيف ساغ لكم أن تظنوا أنى أخاف معبوداتكم الباطلة ، وهي مأمونة الخوف لأنها لاتضر ولاتنفع ، وأنتم لاتخافون إشراككم بالله خالقكم ، دون أن يكون معكم على هذا الإشراك حجة أو برهان من العقل أو النقل .

فالاستفهام للإنكار التعجبى من إنكارهم عليه الأمن فى موضع الأمن ، وعدم إنكارهم على أنفسهم الأمن فى موضع سيؤدى بهم إلى الهلاك المحقق ، وهو إصرارهم

على الإشراك بالله ، ثم رتب على هذا الإنكار التعجبى ماهو نتيجة له فقال : ﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

أى : فأى الفريقين ، فريق الموحدين أم فريق المشركين ، أحق وأولى بالشعور بالأمان والاطمئنان ، إن كنتم من ذوى العلم السليم ، والعقل القويم؟ إن كنتم تعلمون ذلك ، فأخبرونى به وأظهروه بالدلائل والحجج!

وهذا لون من إلجائهم إلى الاعتراف بالحق ، إن كانوا ممن يعقل أو يسمع ، وحث لهم على الإجابة .

٩ ـ ثم بين ـ سبحانه ـ من هو الفريق الأحق بالأمن فقال ـ تعالى ـ : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾

أى الذين آمنوا ولم يخلطوا إيمانهم بأي لون من ألوان الشرك ، كما يفعله فريق من المشركين ، حيث عبدوا الأصنام ، وزعموا أنهم ماعبدوها إلا لكى تكون واسطة بينهم وبين خالقهم ، فعن طريقها يتقربون إلى الله تعالى .

أولئك المؤمنون الصادقون الذين لم يخلطوا إيمانهم بأى لون من ألوان الشرك ، هم المستحقون للأمان من خالقهم ، وهم المهتدون إلى الحق دون غيرهم .

هذا ، وقد وردت أحاديث صحيحة فسرت الظلم فى هذه الآية بالشرك ، ومن ذلك ما أخرجه الشيخان ـ البخارى ومسلم ـ عن عبدالله بن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية قال الصحابة : وأينا لم يظلم نفسه؟ فنزلت : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ .

وروى الإمام أحمد عن عبدالله بن مسعود ـ أيضا ـ قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ . . ﴾ شق ذلك على الناس فقالوا يا رسول الله ، وأينا لايظلم نفسه؟ فقال ﷺ : إنه ليس الذى تعنون ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ ، إنما هو الشرك .

والمتدبر فى هذه الآيات الكريمة ، يراها قد وضحت ما فطر عليه إبراهيم ـ عليه السلام ـ من إيمان عميق ، وعقل سليم ، وقوة فى إيراد البراهين والحجج على أن المستحق للعبادة إنما هو الله الواحد القهار .

١٠ ـ وفى سورة مريم آيات كريمة ، وضحت لنا بأسلوب بليغ مؤثر ، كيف وجه إبراهيم ـ عليه السلام ـ الدعوة إلى أبيه ، بطريقة لحمتها وسداها الأدب فى الخطاب ، والحكمة فى الإرشاد ، وهذه الآيات هى قوله تعالى :

وَٱذۡكُرۡ فِى ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِى عَنكَ شَيۡـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدۡ جَآءَنِى مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِىٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلًّا جَعَلۡنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾

أي : واذكر - أيها الرسول الكريم - للناس قصة أبيهم إبراهيم - عليه السلام - لكى يعتبروا ويتعظوا ويقتدوا به فى قوة إيمانه ، وصفاء يقينه ، وجميل أخلاقه . .

وقوله - سبحانه : ﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾ تعليل لموجب الأمر فى قوله : ﴿ وَاذْكُرْ ﴾ ، ومدح لإبراهيم على ما كان يتحلى به من صفات كريمة ، إذ الصديق : صيغة مبالغة من الصدق .

أي : إنه كان ملازما للصدق فى كل أقواله وأفعاله وأحواله ، كما كان نبيا من أولى العزم ، الذين فضلهم الله على غيرهم من الرسل الكرام .

ثم بين ـ سبحانه ـ مظاهر صدقه وإخلاصه لدعوة الحق فقال : ﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴾ .

والتاء فى قوله : ﴿ يَا أَبَتِ ﴾ عوض عن ياء المتكم ، إذ الأصل يا أبى ، وناداه بهذا الوصف دون أن يذكر اسمه ، زيادة فى احترامه واستمالة قلبه للحق .

أي : واذكر خبر إبراهيم وقت أن قال لأبيه مستعطفا إياه : يا أبت لماذا تعبد شيئا لايسمع من يناديه ، ولايبصر من يقف أمامه ، ولايغنى عنك شيئا من الإغناء ، لأنه لايملك لنفسه ـ فضلا عن غيره ـ نفعا ولاضررا .

ثم دعاه إلى الحق بألطف أسلوب فقال : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴾ .

أى : قال له يا أبت إنى قد جاءنى من العلم النافع الذى علمنى الله إياه ، مالم يأتك أنت ، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء ، فاتبعنى فيما أدعوك إليه ، أهدك إلى الطريق القويم .

ثم نهاه عن عبادة الشيطان لأنه جهل وانحطاط فى التفكير فقال : ﴿ يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ﴾ فإن عبادتك لهذه الأصنام هى عبادة وطاعة للشيطان الذي هو عدو للإنسان ، ثم علل هذا النهي بقوله : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴾ أي : إن الشيطان الذى أغراك بعبادة هذه الأصنام كان كثير العصيان لله ـ تعالى ـ ، ومن شأنه ذلك لايدعو الناس إلي الخير وإنما يدعوهم إلى الشر .

ثم ختم هذا النداء بما يدل على حبه له ، وشفقته عليه فقال : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ .

أي : يا أبت إنى أشفق عليك من أن ينزل بك عذاب من الرحمن بسبب إصرارك على عبادة غيره ، فتصير بسبب ذلك قرينا للشيطان فى العذاب بالنار .

بهذا الأسلوب الحكيم الهادىء الرقيق ، خاطب إبراهيم ـ عليه السلام ـ أباه ، وهو يدعوه إلى وحدانية الله ـ تعالى ـ .

١١ ـ ولكن هذه النصائح الحكيمة الغالية من إبراهيم لأبيه ، لم تصادف أذنا واعية ،

ولم تحظ من أبيه بالقبول ، بل قوبلت بالاستنكار والتهديد ، فقال الأب الكافر لابنه المؤمن : ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ .

أى : قال والد إبراهيم له على سبيل التهديد والزجر : أتارك أنت يا إبراهيم آلهتى ، وكاره لها ، ومنفر للناس من عبادتها .

﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ ﴾ عن هذا المسلك ﴿ لأَرْجُمَنَّكَ ﴾ بالحجارة ، ﴿ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ ، أى : واغرب عن وجهى زمنا طويلا ، فإنى لا أحب أن أراك .

وهكذا قابل الأب الكافر أدب ابنه المؤمن ، بالفظاظة والغلظة والتهديد ، والعناد والجهالة ، شأن القلب الذى أفسده الكفر .

ولكن إبراهيم - عليه السلام - لم يقابل فظاظة أبيه وتهديده بالغضب ، بل قابل ذلك بسعة الصدر ، وجميل المنطق ، حيث قال له : ﴿ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ .

أى : قال إبراهيم لأبيه بكل أدب وتوقير : لك منى - يا أبت - السلام الذى لا يخالطه جدال وأذى ، ولك منى الوداع الذى أقابل معه إساءتك إلىّ بالإحسان ، وفضلا عن كل ذلك : سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا .

أى : إنه كان بارا بى ، كثير الإحسان إلىّ ، يقال : فلان حفى بفلان حفاوة ، إذا بالغ فى إكرامه ، واهتم بشأنه .

وقد وفىَّ إبراهيم بوعده ، حيث استمر على استغفاره لأبيه ، إلى أن تبين له أنه عدو لله تعالى ، فتبرأ منه ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ١١٤]

١٢ - ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك أن إبراهيم عندما رأى تصميم أبيه وقومه على الكفر والضلال ، قرر اعتزالهم والابتعاد عنهم ، فقال تعالى : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ .

أى : وقال إبراهيم - أيضا - لأبيه : إنى بجانب استغفارى لك ، ودعوتى لك بالهداية ، فإنى سأعتزلك وأعتزل قومك ، وأعتزل عبادة أصنامكم التى تعبدونها من دون الله ،

وارتحل عنكم جميعا إلى أرض الله الواسعة ، وأخص ربى وخالقى بالعبادة والطاعة والدعاء ، فقد عودنى - سبحانه - أنه لايخيب دعائى وتضرعى إليه .

ثم ختم - سبحانه - تلك المحاورة ببيان ماترتب على اعتزال أهل الشرك من خيرات وبركات فقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ .

وهكذا نرى أن اعتزال الشرك والمشركين ، والفسق والفاسقين ، يؤدى إلى السعادة الدينية والدنيوية ، لأنه - سبحانه - اقتضت حكمته ورحمته أنه لايضيع أجر من أحسن عملا .

١٣ - والمتدبر لآيات القرآن الكريم ، يرى كثيرا منها خلال حديثها عن قصة إبراهيم - عليه السلام - قد ساقت ألوانا من المجادلات والمحاورات التى دارت بينه وبين قومه وهو يدعوهم إلى إخلاص العبادة لله الواحد الأحد ، وينهاهم عن عبادة غيره .

ومن الآيات التى وضحت هذا المعنى قوله - تعالى - فى سورة الأنبياء :

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ (٥٢) قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٥٦) وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٥٩) قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ (٦٠) قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا

فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾

والمراد بالرشد فى قوله ـ سبحانه ـ : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ . . ﴾ أى : الهداية إلى الحق ، والبعد عن ارتكاب ما نهى الله عنه .

والمراد بقوله : ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أى : من قبل أن يكون نبيا ، أو من قبل موسى وهارون اللذين سبق الحديث عنهما قبل هذه الآية .

والمعنى : ولقد أعطينا ـ بفضلنا وإحساننا ـ إبراهيم ـ عليه السلام ـ الرشد إلى الحق ، والهداية إلى الطريق المستقيم ، من قبل النبوة ، بأن جنبناه ما كان عليه قومه من كفر وضلال ، أو من قبل أن نرسل موسى وهارون إلى فرعون ، فقد كانت رسالة إبراهيم ، سابقة على رسالة هذين النبيين الكريمين ، اللذين جاء الحديث عنهما قبل الحديث عن قصة إبراهيم ، في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا

لِّلْمُتَّقِينَ . . ﴾ ، ولا مانع من أن تشمل الآية الكريمة هذين المعنيين ، أى : أن الله ـ تعالى ـ قد منح إبراهيم رشده من قبل النبوة ، ومن قبل موسى وهارون لسبقه لهما فى الزمان .

وقوله تعالى : ﴿ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ بيان لكمال علم الله ـ تعالى ـ ، أى : وكنا به وبأحواله وبسائر شئونه عالمين ، بحيث لايخفى علينا شىء من شئونه أو من شئون غيره .

١٤ ـ ثم أخذت السورة الكريمة فى تفصيل ما دار بين إبراهيم وبين قومه من مجادلات ومحاورات ، فقال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ .

أى : وكنا بإبراهيم وبأحواله عالمين ، وقت أن قال لأبيه وقومه ـ على سبيل الإنكار ـ ما هذه التماثيل الباطلة التى أقبلتم عليها ، وصرتم ملازمين لعبادتها بدون انقطاع .

وسؤاله لهم ـ عليه السلام ـ بهذا الأسلوب ، إنما هو من باب تجاهل العارف زيادة فى الاستخفاف بهم وبأصنامهم ، لأنه كان يعلم علم اليقين ، أن هذه الأصنام مصنوعة من الأحجار ، أو ما يشبهها ، وإنما أراد بسؤاله تنبيههم إلى فساد فعلهم ، حيث عبدوا ما يصنعونه بأيديهم .

وعبر عن الأصنام بالتماثيل : زيادة فى التحقير من أمرها ، والتهوين من شأنها فإن التمثال هو الشىء المصنوع من الأحجار أو الحديد أو نحو ذلك .

وفى التعبير عن عبادتهم لها بالعكوف عليها : تفظيع لفعلهم ، وتنفير لهم منه ، حيث انكبوا على تعظيم من لايستحق التعظيم ، وتعلقوا بعبادة تماثيل هم صنعوها بأيديهم .

١٥ ـ ثم حكى ـ سبحانه ـ ما رد به قوم إبراهيم عليه فقال : ﴿ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾ ، وهو رد يدل على تحجر عقولهم ، وانطماس بصائرهم ، حيث قلدوا فعل آبائهم بدون تدبر أو تفكر .

أى : قالوا فى جوابهم على نبيهم : وجدنا آباءنا يعبدون هذه التماثيل فسرنا على طريقتهم ، وهنا يرد عليهم إبراهيم بقوله : ﴿ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ .

أى : لقد كنتم أنتم وآباؤكم الذين وجدتموهم يعبدون هذه الأصنام ، فى ضلال عجيب لايقادر قدره ، وفى فساد ظاهر واضح لايخفى أمره على عاقل ، لأن كل عاقل يعلم أن هذه الأصنام لاتستحق العبادة أو العكوف عليها ، والباطل لايصير حقا بسبب فعل الآباء له .

وعندما واجههم إبراهيم بهذا الحكم المبين الصريح قالوا له : ﴿ أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ ﴾ .

أى : قالوا له على سبيل التعجيب من حاله : يا إبراهيم أجئتنا بالحق الذى يجب علينا اتباعه ، أم أنت من اللاعبين اللاهين ، الذين يقولون ما يقولون بقصد الهزل والمداعبة . .

وسؤالهم هذا يدل على تزعزع عقيدتهم ، وعلى شكهم فيما هم عليه من باطل ، إلا أن التقليد لآبائهم ، جعلهم يعطلون عقولهم ، ويستحبون العمى على الهدى .

وقد رد عليهم إبراهيم ردا حاسما يدل على قوة يقينه فقال : ﴿ رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ . . ﴾ ، أى : خلقهن بدون مثال سابق ﴿ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ ، أى : وأنا على أن الله ـ تعالى ـ هو ربكم ورب كل شىء وخالقكم وخالق كل شىء من الشاهدين على ذلك ، ومن الواثقين فى صدق مايقول ثقة الشاهد على شىء لايشك فى صحته .

ثم أضاف إلى هذا التأكيد القولى ، تأكيدا آخر فعليا فقال لهم : ﴿ وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾ .

أى : وأقسم بالله قسما مؤكدا ، لأجتهدن فى تحطيم أصنامكم بعد أن تنصرفوا بعيدا عنها ، وبعد أن تولوها أدباركم .

وأصل الكيد : الاحتيال فى إيجاد ما يضر مع إظهار خلافه ، وقد عبر به إبراهيم ـ عليه السلام ـ عن تكسير الأصنام وتحطيمها ، لأن ذلك يحتاج إلى احتيال وحسن تدبير .

وقد وفّى إبراهيم بوعده ، وبر فى قسمه ، كما يدل على ذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ .

أى : وبعد أن فارق القوم أصنامهم ، توجه إبراهيم إليها ، فحطمها بفأسه ، وحولها إلى قطع صغيرة من الحجارة ، سوى الصنم الأكبر فإنه لم يحطمه ، بل تركه على حالته ، لعل قومه يرجعون إليه فيسألونه كيف وقعت هذه الواقعة وهو حاضر ، دون أن يدافع عن إخوته الصغار .

ولعل إبراهيم ـ عليه السلام ـ قد فعل ذلك ، ليقيم لهم أعظم الأدلة على أن هذه الأصنام لاتملك الدفاع عن نفسها ، وما دام أمرها كذلك فكيف تستحق العبادة؟ وبذلك يحملهم على التفكير فى أن الذى يجب أن يعبد إنما هو الله رب العالمين .

ثم حكى القرآن الكريم بعد ذلك ما قاله قوم إبراهيم ـ عليه السلام ـ وقد رأوا أن أصنامهم قد حطمت ، وآلهتهم قد هشمت ، فقال تعالى : ﴿ قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

أى : وحين رجع القوم من عيدهم ، ورأوا ما حل بأصنامهم ، قالوا على سبيل التفجع والإنكار ، من الذى فعل هذا الفعل الشنيع بآلهتنا التي نعظمها ، إنه لمن الظالمين لها ، المعتدين عليها ، لإقدامه على إهانتها وهى الجديرة بالتعظيم ـ فى زعمهم ـ ولمن الظالمين لنفسه حيث سيعرضها للعقوبة منا .

﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ : أى قال بعضهم لبعض : سمعنا فتى يذكرهم بالنقص والذم ، ويتوعدهم بالسوء والعدوان ، وهذا الفتى يقال له إبراهيم ، ولعله هو الذى فعل بهم ما فعل .

﴿ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ ، أي : قالوا ـ بعد أن تشاوروا فى أمرهم ـ : إذا كان كذلك فأحضروه أمام الناس ، ليشهدوا محاكمتنا له ، ومواجهتنا إياه بالعقوبة التى يستحقها على فعله هذا . .

قال الإمام ابن كثير : وكان هذا هو المقصود الأعظم لإبراهيم ، لكى يتبين فى هذا المحفل العظيم ، كثرة جهلهم ، وشدة غفلتهم فى عبادة هذه الأصنام التى لاتدفع عن نفسها ضرا ، ولاتملك لها نفعا .

وجاءوا بإبراهيم وقالوا له على سبيل الاستنكار والتهديد : ﴿ أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ .

أى : أأنت الذى فعلت هذا التكسير والتحطيم لآلهتنا التى نعبدها يا إبراهيم؟! وهنا يرد عليهم إبراهيم بتهكم ظاهر فيقول : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴾ .

أى : قال لهم باستهزاء واضح بهم وبأصنامهم : الذي حطم هذه الأصنام ، هو كبيرهم ،

فإن كنتم لم تصدقوا قولى ، فاسألوهم من الذى فعل بهم هذا الفعل الشنيع ، فلعلهم ينطقون ويقولون الذى فعل بنا ذلك هو فلان .

فأنت ترى أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ لم يقصد بقوله هذا الإخبار بأن كبير الأصنام هو الذى حطمها ، كما أنه لم يقصد بقوله : ﴿ فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴾ ، أن يسألوا الأصنام لكى تقول لهم من الذى حطمها . .

وإنما الذى قصده هو الاستهزاء بهم ، والسخرية بأفكارهم ، فكأنه يقول لهم : إن هذه التماثيل التى تعبدونها من دون الله ، لاتدرى إن كنت أنا الذى حطمتها أم هذا الصنم الكبير ، وأنتم تعرفون أنى قد قلت لكم : ﴿ وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾ ، وتعرفون أنى أنا وحدى الذي بقيت قريبا منها بعد أن وليتم عنها مدبرين ، وإذا كان الأمر كذلك ، فانظروا من الذى حطمها ، إن كانت لكم عقول تعقل؟

قال صاحب الكشاف : هذا ـ أى : قول إبراهيم لهم ـ «بل فعله كبيرهم هذا» من معاريض الكلام ، ولطائف هذا النوع لايتغلغل فيها إلا أذهان الراضة من علماء المعانى .

والقول فيه أن قصد إبراهيم ـ عليه السلام ـ لم يكن يريد أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم ، وإنما قصد تقريره لنفسه ، وإثباته لها على أسلوب تعريضى ، يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم .

وهذا كما لو قال لك صاحبك وقد كتبت كتابا بخط رشيق ـ وأنت شهير بحسن الخط أأنت كتبت هذا؟ وصاحبك أمى لايحسن الخط ، ولايقدر إلا على خرمشة فاسدة ـ أى كتابة رديئة ـ فقلت له : بل كتبته أنت ، كان قصدك بهذا الجواب : «تقرير أن هذه الكتابة لك ، مع الاستهزاء به . .» . (١)

وهذا التفسير للآية الكريمة ، من أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ قد قال لقومه ما قال على سبيل الاستهزاء بهم ، هو الذى تطمئن إليه قلوبنا .

وقد تركنا أقوالا أخرى للمفسرين فى معنى الآية ، نظرا لضعفها بالنسبة لهذا القول ، ثم بين ـ سبحانه ـ موقفهم بعد أن أخرسهم إبراهيم ـ عليه السلام ـ بحجته فقال : ﴿ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ . ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ ﴾ .

---

(١) تفسير الكشاف جـ٣ ص١٢٤ .

أى : أنهم بعد أن وبخهم إبراهيم على غبائهم ، أخذوا فى التفكر ، فقال بعضهم لبعض : إنكم أنتم الظالمون ، حيث عبدتم ما لايستطيع الدفاع عن نفسه ، أو حيث تركتم آلهتكم بدون حراسة ، ولكن هذا اللوم لأنفسهم لم يلبث إلا قليلا حتى تبدد ، بسبب استيلاء العناد والجحود عليهم ، فقالوا لإبراهيم على سبيل التهديد : لقد علمت أن هذه الأصنام لاتنطق فكيف تأمرنا بسؤالها؟ إن أمرك هذا لنا ، لهو دليل على أنك تسخر بعقولنا ، ونحن لن نقبل ذلك ، وسننزل بك العقاب الذى تستحقه .

وقد شبه القرآن الكريم عودتهم إلى باطلهم وعنادهم ، بعد رجوعهم إلى أنفسهم باللوم ، شبه ذلك بالانتكاس ، وهو قلب الشيء بحيث يصير أعلاه أسفله ، لأنهم بمجرد أن خطرت لهم الفكرة السليمة ، أطفأوها بالتصميم على الكفر والضلال ، فكان مثلهم كمثل من انتكس على رأسه بعد أن كان ماشيا على قدميه ، فياله من تصوير بديع ، لحالة من يعود إلى الظلام بعد أن يتبين له النور .

١٦ ـ ولم يملك إبراهيم ـ عليه السلام ـ إزاء انتكاسهم على رؤوسهم ، إلا أن يوبخهم بعنف وضيق ، وهو الحليم الأواه المنيب ، وقد قابلوا تأنيبه لهم بالتهديد ، والوعيد ، ولكن الله تعالى نجاه من مكرهم ، قال ـ تعالى ـ : ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلايَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ ﴾ .

أى : قال إبراهيم لقومه بعد أن ضاق بهم ذرعا : أتتركون عبادة الله الذى خلقكم ، وتعبدون غيره أصناما لاتنفعكم بشيء من النفع ، سحقا وقبحا لكم ولما تعبدونه من أصنام متجاوزين بها عبادة الله ـ تعالى ـ عن جهل وسخف وطغيان .

وهنا أخذتهم العزة بالإثم شأن كل طاغية جهول ، يلجأ إلى القوة الغاشمة بعد أن تبطل حجته ، فقالوا فيما بينهم : حرقوه بالنار ، وانصروا آلهتكم عليه التى حطمها فى غيبتكم ، إن كنتم بحق تريدون نصرتها .

وأحضر قوم إبراهيم الحطب الكثير ، وأوقدوا نيرانا عظيمة ، وألقوا بإبراهيم فيها ، فلما فعلوا ذلك قلنا يا نار كونى بقدرتنا وأمرنا ، ذات برد ، وذات سلام على إبراهيم ، فكانت كما أمرها الله ـ تعالى ـ .

وتحولت النار إلى برد وسلام عليه ، وأراد الكافرون به كيدا فجعلناهم بإرادتنا وقدرتنا الأخسرين ، حيث لم يصلوا إلى ما يريدون ، بل رد الله ـ تعالى ـ كيدهم فى نحورهم .

هذا وقد ذكر المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآيات آثارا منها : أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ حين جىء به إلى النار ، قالت الملائكة : يا ربنا ما فى الأرض أحد يعبدك سوى إبراهيم ، وإنه الآن يحرق فأذن لنا فى نصرته!

فقال ـ سبحانه ـ : «إن استعان بأحد منكم فلينصره ، وإن لم يسأل غيرى فأنا أعلم به ، وأنا وليه وناصره ، فخلوا بينى وبينه . .

فأتى جبريل ـ عليه السلام ـ إلى إبراهيم ، فقال له : ألك حاجة؟ فقال إبراهيم : أما إليك فلا ، وأما إلى الله فنعم .

فقال له جبريل : فلماذا لم تسأله؟ فقال : علمه بحالى يغنيه عن سؤالى .

١٧ ـ وفى سورة الشعراء ، نجد آيات كريمة ، تحكى لنا ما دار بين إبراهيم وقومه من محاورات ، وما توجه إلى خالقه من دعوات ، وهذه الآيات هى قوله ـ تعالى ـ :

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾

والمعنى : واقرأ ـ أيها الرسول الكريم ـ على قومك نبأ رسولنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ الذى يزعم قومك أنهم من نسله ، وأنهم يتبعون ديانته ، مع أنه براء منهم ومن شركهم .

وقوله : ﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ بيان لما دعاهم إليه من نبذ لعبادة غير الله ، أى : اقرأ ـ أيها الرسول الكريم ـ على قومك خبر إبراهيم ، وقت أن قال لأبيه وقومه على سبيل التبكيت وإلزامهم الحجة : أى شيء هذا الذى تعبدونه من دون الله ـ عز وجل ـ .

فأجابوه بقولهم : ﴿ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾ ، أى فنستمر على عبادتهم بدون انقطاع وكان يكفيهم أن يقولوا : نعبد أصناماً ، ولكنهم لغبائهم وعنادهم ، أرادوا أن يتباهوا ويتفاخروا بهذه العبادة الباطلة .

وهكذا ، عندما تنحط الأفهام ، تتباهى بما يجب البعد عنه ، وتفتخر بالمرذول من القول والفعل .

وقد رد عليهم إبراهيم ـ عليه السلام ـ بما يوقظهم من جهلهم لو كانوا يعقلون ، فقال لهم : هذه الأصنام التى تعبدونها من دون الله ، هل تسمع دعاءكم إذا دعوتموها ، وهل تحس بعبادتكم لها إذا عبدتموها ، وهل تملك أن تنفعكم بشيء من النفع أو تضركم بشيء من الضر؟

١٨ ـ ولم يستطع القوم أن يواجهوا إبراهيم بجواب بعد أن ألقمهم حجرا بنصاعة حجته فلجأوا إلى التمسح بآبائهم فقالوا : ﴿ بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ .

أى : قالوا له : نعم هذه الأصنام هى كما قلت يا إبراهيم لاتسمع دعاءنا ، ولاتنفعنا ، ولاتضرنا ، ولكننا وجدنا آباءنا يعبدونها فسرنا على طريقتهم فى عبادتها ، وأمام هذا التقليد الأعمى نرى إبراهيم ـ عليه السلام ـ يعلن عداوته لهم ولمعبوداتهم الباطلة ، ويجاهرهم بأن عبادته إنما هى لله ـ تعالى ـ وحده فيقول لهم : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) ﴾ .

أى : قال لهم إبراهيم على سبيل الإنكار والتأنيب : أفرأيتم وشاهدتم هذه الأصنام التى عبدتموها أنتم وآباؤكم الأقدمون من دون الله ـ تعالى ـ ، إنها عدو لى ، لأن عبادتها باطلة ، لكن الله ـ تعالى ـ رب العالمين هو وحده الذى أحبه وأخصه بالعبادة ، وأدين له بالطاعة ، لأنه هو الذى أوجدنى بقدرته ، وربانى بنعمته .

قال صاحب الكشاف ـ رحمه الله ـ : وإنما قال إبراهيم ـ عليه السلام ـ : «فإنهم عدو لى» ولم يقل فإنهم عدو لكم ، تصويرا للمسألة فى نفسه ، على معني : أنى فكرت فى أمرى فرأيت عبادتى لها عبادة للعدو فاجتنبتها ، وآثرت عبادة الذى الخير كله منه ،

وأراهم بذلك أنها نصيحة نصح بها نفسه أولا ، وبنى عليها تدبير أمره ، لينظروا فيقولوا : ما نصحنا إبراهيم بهذه النصيحة إلا بعد أن نصح بها نفسه ، ليكون أدعى لهم إلى القبول .

ولو قال لهم : فإنهم عدو لكم ، لم يكن بتلك المثابة ، ولأنه دخل فى باب من التعريض ، وقد يبلغ التعريض بالمنصوح ، مالا يبلغه التصريح ، لأنه يتأمل فيه ، فربما قاده التأمل إلى التقبل .

ومنه مايحكى عن الشافعى - رحمه الله - أن رجلا واجهه بشىء لايليق ، فقال له : «لو كنت بحيث أنت ، لاحتجتُ إلى الأدب» .

وسمع أحد الحكماء ناسا يتحدثون فى الحجر - بكلام فيه لغو - فقال لهم : «هذا المكان ليس بيتى ولا بيتكم» . (١)

ثم حكى القرآن ما وصف به إبراهيم خالقه من صفات كريمة فقال : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ ، أى : أنا أعبد خالقى الذى أوجدنى بقدرته . وهدانى إلى طريق الحق بفضله . . ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ أى : وهو - سبحانه - الذي يمنحنى ما به قوام حياتى وأضاف المرض إلى نفسه فى قوله : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ وإن كان الكل من الله ، تأدبا مع خالقه ، وشكرا له على نعمه . .

والمراد بالإحياء فى قوله : ﴿ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ إعادة الحياة إلى الميت يوم القيامة أي : أن من صفات ربى الذى أخصه بالعبادة : أنه - تعالى - بقدرته أن يميتنى عند حضور أجلى ، وبقدرته أن يعيدنى إلى الحياة مرة أخرى يوم البعث والحساب .

ثم ختم إبراهيم هذه الصفات الكريمة لخالقه بقوله : ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ أي : وهو - سبحانه - وحده الذى أطمع فى كرمه أن يغفر لى ما فرطَ منى من ذنوب يوم يقوم الناس للحساب والجزاء .

وفى هذه الاية الكريمة أسمى درجات الأدب من إبراهيم مع ربه ، لأنه وجه طمعه فى المغفرة إليه وحده ، واستعظم ما صدر عنه من أمور قد تكون خلاف الأولى ، واعتبرها خطايا هضما لنفسه ، وتعليما للأمة أن تجتنب المعاصى ، وأن تكون منها على حذر ، وأن تفوض رجاءها على الله - تعالى - وحده .

وبعد أن أثنى على خالقه بهذا الثناء الجميل ، أتبع ذلك بتلك الدعوات الخاشعات

---

(١) تفسير الكشاف جـ٣ ص٣١٨ .

فقال : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا ﴾أى : علما واسعا مصحوبا بعمل نافع .

﴿ وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ من عبادك الذين رضيت عنهم ورضوا عنك .

﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ ﴾ أى : ذكرا حسنا ، وسمعة طيبة وأثرا كريما «فى الآخرين» ، أى : فى الأمم الأخرى التي ستأتى من بعدى .

ولقد أجاب الله ـ تعالى ـ له هذه الدعوة الكريمة ، فجعل أثره خالدا ، وجعل من ذريته الأنبياء والصالحين ، وعلى رأسهم سيدنا محمد ﷺ .

﴿ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ أى : واجعلنى فى الآخرة من عبادك الذين يخلدون فى جنتك ﴿ وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ عن طريق الحق ، وإنى قد وعدته بأن أستغفر له ، وقد بين القرآن فى موضع آخر أن إبراهيم قد رجع عن استغفاره لأبيه ، بعد أن تبين له أنه عدو لله ـ تعالى ـ .

قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) ﴾ [التوبة]

ثم ختم هذه الدعوات الخاشعات بقوله : ﴿ وَلا تُخْزِنِي ﴾ أى : ولاتفضحنى ﴿ يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ أى : يوم تبعث عبادك فى الآخرة للحساب والجزاء .

﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ . . إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾

أى استرنى ـ يا إلهى ـ يوم القيامة ، يوم لاينتفع الناس بشىء من أموالهم أو أولادهم ، ولكنهم ينتفعون بإخلاص قلوبهم لعبادتك ، وبسلامتها من كل شرك أو نفاق ، وبصيانتها من الشهوات المرذولة ، والأفعال القبيحة .

وهكذا نرى فى هذه الآيات التي ساقتها سورة الشعراء عن قصة إبراهيم : الشجاعة فى النطق بكلمة الحق ، والحجة الدامغة التى تزهق الباطل ، والثناء الجميل على الخالق ـ عز وجل ـ والدعاء الخاشع الخالص لوجه الله ـ تعالى ـ .

١٩ ـ وفى سورة «الصافات» آيات كريمة ، حكت لنا ـ أيضا ـ جانبا من الحجاج والحوار الذى دار بين إبراهيم وقومه وهو يدعوهم إلى وحدانية الله ـ تعالى ـ ، كما حكت لنا كذلك تحطيم الأصنام ، وإنجاء الله ـ تعالى ـ له من مكر أعدائه ، وهذه الآيات هى قوله ـ تعالى ـ :

وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ

لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾

والضمير فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ . . ﴾ يعود على نوح ـ عليه السلام ـ .

وشيعة الرجل : أعوانه وأنصاره وأتباعه ، وكل جماعة اجتمعوا على أمر واحد أو رأى واحد فهم شيعة ، والجمع شيع مثل سِدرة وسِدَر .

قال القرطبى : والشيعة الأعوان ، وهذا اللفظ مأخوذ من الشياع ، وهو الحطب الصغار الذى يوقد مع الكبار حتى يستوقد .

والمعنى : وإن من شيعة نوح لإبراهيم ـ عليهما السلام ـ لأنه تابعه فى الدعوة إلى الدين الحق ، وفى الصبر على الأذى من أجل إعلاء كلمة الله ـ تعالى ـ ، ونصرة دينه .

وهكذا جميع الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ اللاحق منهم يؤيد السابق ، ويناصره فى دعوته التى جاء بها من عند ربه ، وإن اختلفت شرائعهم فى التفاصيل والجزئيات ، فهى متحدة فى الأصول والأركان .

وكان بيْن نوح وإبراهيم نبيان كريمان هما : هود وصالح ـ عليهما السلام ـ والظرف في قوله ـ سبحانه : ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ متعلق بمحذوف تقديره اذكر .

أى : اذكر - أيها العاقل لتعتبر وتتعظ - وقت أن جاء إبراهيم إلى ربه بقلب سليم من الشرك ومن غيره من الآفات كالغل والحسد والخديعة والرياء .

والتعبير بقوله : ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ﴾ يشعر باستسلام إبراهيم المطلق لأمر ربه ، وإخلاص قلبه لدعوة الحق ، واستعداده لبذل نفسه وكل شىء يملكه فى سبيل رضا خالقه .

وقوله - سبحانه - : ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ شروع فى حكايته مادار بينه وبين أبيه وقومه .

أى : لقد كان إبراهيم - عليه السلام - سليم القلب ، نقى السريرة ، صادق الإيمان ، وقت أن جادل أباه وقومه قائلا لهم : أى شىء هذا الذى تعبدونه من دون الله تعالى ، ثم أضاف إلى هذا التوبيخ توبيخا آخر فقال لهم : «أإفكا آلهة دون الله تريدون»؟ والإفك : أسوأ الكذب . . وجعلت الآلهة التى يعبدونها من دون الله هي فى ذاتها إفكا ، لزيادة التنفير منها ، والتقبيح من شأنها .

أى : أتريدون إفكا آلهة دون الله؟ إن إرادتكم هذه يمجها ويحتقرها كل عقل سليم ، ثم حذرهم من السير فى طريق الشرك فقال : ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

والاستفهام للإنكار والتحذير من سوء عاقبتهم إذا ما استمروا فى عبادتهم لغيره - تعالى - : أى : فما الذى تظنون أن يفعله بكم خالقكم ورازقكم إذا ما عبدتم غيره؟ إنه لاشك سيحاسبكم على ذلك حسابا عسيرا ، ويعذبكم عذابا أليما .

وما دام الأمر كذلك فاتركوا عبادة هذه الآلهة الزائفة ، وأخلصوا عبادتكم لخالقكم ورازقكم .

٢٠ - ويهمل القرآن الكريم هنا ردهم عليه لتفاهته ، وتنتقل السورة للحديث عما أضمره إبراهيم - عليه السلام - لتلك الآلهة الباطلة فتقول : ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ. فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ، قالوا : كان قوم إبراهيم بجانب عبادتهم للأصنام ، يعظمون الكواكب ، ويعتقدون تأثيرها فى العالم ، وتصادف أن حل أوان عيد لهم ، فدعوه إلى الخروج معهم كما هى عادتهم فى العيد ، فتطلع إبراهيم إلى السماء ، وقلب نظره فى نجومها ، ثم قال لهم معتذرا عن الخروج معهم ليخلو بالأصنام فيحطهما : «إنى مريض مرضا يمنعنى من مصاحبتكم ، فتركوه وحده وانصرفوا إلى خارج بلدتهم» .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : «وإنما قال إبراهيم لقومه ذلك ليقيم فى البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم ، فإنه أزف خروجهم إلى عيد لهم ، فأحب أن يختلى بآلهتهم ليكسرها ،

فقال لهم كلاما هو حق فى نفس الأمر ، فهموا منه أنه سقيم على مايعتقدونه ، فتولوا عنه مدبرين» . (١)

ويبدو لنا أن نظر إبراهيم فى النجوم ، إنما هو نظر المؤمن المتأمل فى ملكوت الله تعالى المستدل بذلك على وحدانية الله وقدرته ، وإنما فعل ذلك أمامهم - وهم يعبدون النجوم - ليقنعهم بصدق اعتذاره عن الخروج ، ويتم له مايريده من تحطيم الأصنام .

كما يبدو لنا أن قوله : «إنى سقيم» المقصود منه : إنى سقيم القلب بسبب ما أنتم فيه من كفر وضلال فإن العاقل يقلقه ويزعجه ويسقمه ما أنتم فيه من عكوف على عبادة الأصنام .

وقال لهم ذلك ليتركوه وشأنه ، حتى ينفذ ما أقسم عليه بالنسبة لتلك الأصنام ، فكلام إبراهيم حق فى نفس الأمر - كما قال الإمام ابن كثير - وقد ترك لقومه أن يفهموه حسب مايعتقدون .

ثم بين - سبحانه - مافعله إبراهيم بالأصنام بعد أن انفرد بها فقال : ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ .

وأصل الروغ : الميل إلى الشىء بسرعة على سبيل الاحتيال ، يقال : راغ فلان نحو فلان ، إذا مال إليه لأمر يريده منه على سبيل الاحتيال .

أى : فذهب إبراهيم مسرعا إلى الأصنام بعد أن تركها القوم ، وانصرفوا إلى عيدهم فقال لها على سبيل التهكم والاستهزاء ، أيتها الأصنام ألا تأكلين تلك الأطعمة التى قدمها لك الجاهلون على سبيل التبرك؟

وقوله : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴾ زيادة فى السخرية بتلك الأصنام ، وفى إظهار الغيظ منها ، والضيق بها ، والغضب عليها .

هذا الغضب الذى كان من آثاره ما بينه القرآن فى قوله - تعالى - : ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾ أى : فمال عليهم ضاربا إياهم بيده اليمنى حتى حطمهم ، كما قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ .

وقال سبحانه : ﴿ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾ للدلالة على أن إبراهيم - عليه السلام - لشدة حنقه وغضبه على الأصنام ، قد استعمل فى تحطيمها أقوى جارحة يملكها وهى يده

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٧ ص٢٠ .

اليمنى .وقيل : يجوز أن يراد باليمين : اليمين التى حلفها حين قال : ﴿ وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾ .

وانتهى إبراهيم من تحطيم الأصنام ، وارتاحت نفسه لما فعله بها ، وشفى قلبه من الهم والضيق الذى كان يجده حين رؤيتها .

وجاء قومه من رحلتهم ، ووجدوا أصنامهم قد تحطمت ، ويترك القرآن هنا ما قالوه لإبراهيم عندما رأوا منظر آلهتهم بهذه الصورة المفزعة لهم ، مكتفيا بإبراز حالهم فيقول : ﴿ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴾ .

أى : فحين رأوا آلهتهم بهذه الصورة ، أقبلوا نحو إبراهيم يسرعون الخطا ، ولهم جلبة وضوضاء تدل على شدة غضبهم لما أصاب آلهتهم ، يقال : زف النعام يزف زفا وزفيفا ، إذا جرى بسرعة حتى لكأنه يطير .

ولم يأبه إبراهيم ـ عليه السلام ـ لهياج قومه ، وإقبالهم نحوه بسرعة وغضب ، بل رد عليهم ردا منطقيا سليما ، فقال لهم : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ . وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ؟

أى : قال لهم موبخا ومؤنبا : أتعبدون أصناما أنتم تنحتونها من الحجارة أو من الخشب بأيديكم ، مع أن الله ـ تعالى ـ هو الذى خلقكم وخلق ما تعملونه من الأصنام وغيرها؟

ولكن هذا المنطق الرصين من إبراهيم ـ عليه السلام ـ لم يجد أذنا واعية من قومه ، بل قابلوا قوله هذا بالتهديد والوعيد الذى حكاه القرآن فى قوله : ﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ . . ﴾ .

أى : قالوا فيما بينهم : ابنوا لإبراهيم بنيانا ثم املأوه بالنار المشتعلة ، ثم اقذفوه فيها لتحرقه ، فالمراد بالجحيم هنا : النار الشديدة الاشتعال ، وكل نار بعضها فوق بعض فهى جحيم .

ونفذوا ما تعاهدوا عليه ، ولكن الله ـ تعالى ـ نجى نبيه إبراهيم من كيدهم وبغيهم ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ ﴾ أى : فأرادوا بإبراهيم شرا فأبطلناه بقدرتنا ، وجعلناهم الأذلين .

وهكذا رعاية الله ـ تعالى ـ ، تحرس عباده المخلصين ، وتجعل العاقبة لهم على القوم الظالمين .

٢١ ـ وفى سورة «العنكبوت» آيات كريمة ، تحدثت بشيء من التفصيل عن الحجج والبراهين التى ساقها إبراهيم لقومه ، وهو يدعوهم إلى إخلاص العبادة لله ـ تعالى ـ ، ونبذ كل معبود سواه ، وهذه الآيات هى قوله ـ تعالى ـ :

وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾

والمعنى : واذكر - أيها المخاطب إبراهيم - عليه السلام - وقت أن قال لقومه اعبدوا الله -تعالى- وحده ، وصونوا أنفسكم عن كل ما يغضبه . .

﴿ ذَلِكُمْ ﴾ الذى أمرتكم به من العبادة والتقوى ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ من الشرك ، ومن كل شىء فى هذه الحياة ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي : كنتم من ذوى العلم والفهم بما هو خير وبما هو شر .

فأنت ترى أن إبراهيم - عليه السلام - قد بدأ دعوته لقومه بأمرهم بإخلاص العبادة لله - تعالى - ، وبالخوف من عقابه ، ثم ثنى بتحبيب هذه الحقيقة إلى قلوبهم ، ببيان أن إيمانهم خير لهم ، ثم ثلّث بتهييج عواطفهم نحو العلم النافع الذى يتنافى مع الجهل . .

ثم بعد ذلك نفرهم من فساد ماهم عليه من باطل فقال - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا . . ﴾

والأوثان : جمع وثن ، وتطلق على التماثيل والأصنام التى كانوا يصنعونها بأيديهم من الحجارة أو ما يشبهها ، ثم يعبدونها من دون الله - تعالى - .

وقوله : ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا . . ﴾ ، أى : وتكذبون كذبا واضحا ، حيث سميتم هذه الأوثان آلهة ، مع أنها لاتضر ولاتنفع ، ولاتغني عنكم ولا عن نفسها شيئا .

أو يكون قوله : ﴿ وَتَخْلُقُونَ ﴾ بمعنى وتصنعون بأيديكم هذه الأوثان صنعا ، من أجل الإفك والكذب والانصراف عن كل ماهو حق إلى كل ماهو باطل .

ثم بين لهم تفاهة هذه الأوثان فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ من أوثان وأصنام ، ﴿ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا ﴾ أى : لايملكون لكم شيئا من الرزق حتى ولو كان غاية فى القلة .

ومادام الأمر كذلك : فاطلبوا الرزق من الله - تعالى - ، وحده ، فهو الذى بفضله وكرمه يغنيكم ، مادمتم تخلصون له العبادة والطاعة .

وهكذا نرى أن إبراهيم - عليه السلام - قد سلك فى دعوة قومه إلى الحق ، أبلغ الأساليب وأحكمها ، حيث أمرهم بعبادة الله تعالى ، وحده ، وبين لهم منافع ذلك ، وحرضهم على سلوك طريق العلم لا طريق الجهل ، ونفرهم من عبادة الأوثان ، حيث بين لهم تفاهتها وحقارتها وعجزها ، وحضهم على طلب الرزق ممن يملكه وهو الله الذى إليه المرجع والمآب .

٢٢ ـ ثم أخذ إبراهيم ـ عليه السلام ـ بعد ذلك ، يحذر قومه من الاستمرار فى تكذيبه ، ويلفت أنظارهم إلى أن هناك حسابا وثوابا وعقابا وبعثا ، وأن عليهم أن يتعظوا بمن سبقهم من الأمم التى كذبت الرسل ، فأصابهم من العذاب ما أصابهم ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ . أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ .

قال الإمام ابن كثير : والظاهر من السياق أن كل هذه الآيات من كلام إبراهيم ـ عليه السلام ـ يحتج عليهم لإثبات المعاد ، لقوله بعد هذا كله ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ . . ﴾ . (١)

وقوله ـ سبحانه : ﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا . . ﴾ معطوف على كلام محذوف والتقدير : إن تطيعونى ـ أيها الناس ـ فزتم ونجوتم ، وإن تكذبوا ما جئتكم به ، فلستم أنتم أول المكذبين لرسلهم ، فقد سبقكم إلى ذلك أمم من قبلكم ، كقوم نوح وعاد وثمود ، فكانت عاقبة المكذبين لرسلهم الخسران والدمار .

ثم بين لهم إبراهيم وظيفته فقال : ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾

أى : لقد بلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ، وتلك هى وظيفتى التى كلفنى بها ربى ، أما الحساب والجزاء فمردهما إلى الله ـ تعالى ـ وحده .

ثم ساق لهم ما يدل على أن البعث حق ، وأنه ـ سبحانه ـ لايعجزه شىء ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُ . . . . ﴾

والاستفهام لتوبيخهم على إنكارهم هذه الحقيقة ، وعدم تعقلهم لما يدل عليها دلالة واضحة ، ليستدلوا بذلك على قدرته ـ سبحانه ـ على الإعادة وهى أهون عليه .

إنهم ليرون بأعينهم كيف يبدئ الله ـ تعالى ـ الخلق فى النبتة النامية ، وفى الشجرة الباسقة ، وفى كل مالم يكن ثم بعد ذلك يكون . . .

ومادام الأمر كذلك ، فكيف أنكروا إعادة هذا المخلوق إلى الحياة مرة أخرى مع أنه من المسلم عند كل ذى عقل ، أن الإعادة أيسر من الخلق ابتداء .

(١) تفسير ابن كثير جـ٦ ص٢٨٠ .

فالآية الكريمة تقرعهم على إنكارهم للبعث ، وتسوق لهم الأدلة الواضحة على صحته وعلى إمكان حدوثه .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ يعود إلى ما ذكر من الأمرين ، وهما بدء الخلق ، وإعادته إلى الحياة مرة أخرى .

أى : إن ذلك الذى ذكرناه لكم من خلقكم ابتداء ، ثم إعادتكم إلى الحياة بعد موتكم ، يسير وهين على الله - تعالى - لأنه لايعجزه شىء .

ثم أمر - سبحانه - رسوله ﷺ أن يلفت أنظار قومه إلى التأمل والتدبر فى أحوال هذا الكون ، لعل هذا التفكر يهديهم إلى الحق فقال - تعالى - : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لقومك ، كما قال إبراهيم من قبلك لقومه : سيحوا فى الأرض ، وتتبعوا أحوال الخلق ، وتأملوا كيف خلقهم الله - تعالى - ، ابتداء على أطوال مختلفة ، وطبائع متمايزة ، ثم قل لهم بعد كل ذلك : الله الذى خلق الخلق ابتداء ، وعلى غير مثال سابق ، وعلى تلك الصور المتنوعة والمتعددة ، هو وحده الذى يعيد التجميع إلى الحياة مرة أخرى بعد أن أوجدهم فى المرة الأولى ، لأن قدرته - سبحانه - لايعجزها شىء .

ثم بين - سبحانه - أن الثواب والعقاب متوقف على مشيئته وسنته فى خلقه فقال : ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ . وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴾ .

أى : أنه - تعالى - يعذب من يشاء تعذيبه ، ويرحم من يشاء رحمته ، وإليه وحده لا إلى غيره ﴿ تُقْلَبُونَ ﴾ أى : ترجعون وتعودون ، فيحاسبكم على أعمالكم .

وما أنتم - أيها الناس - بقادرين على أن تفلتوا أو تهربوا من لقاء الله ، ومن حسابه ، سواء أكنتم فى الأرض أم فى السماء ، ولستم بقادرين على الهرب من لقاء الله ومن حسابه ، ولايوجد لكم ناصر ينصركم ، أو قريب يدفع عنكم حكمه ، وقضاءه .

ثم ختمت هذه الآيات ببيان مصير الكافرين فقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

أى : والذين كفروا بآيات الله الدالة على لقائه ، بأن أنكروا البعث وما يترتب عليه من ثواب أو عقاب ، أولئك الذين كفروا بكل ذلك انقطع أملهم فى رحمتى إياهم انقطاعا تاما ، وأولئك لهم عذاب أليم لايعلم مقدار شدته إلا الله - تعالى - .

٢٣ - وبعد إيراد هذه الأدلة الواضحة على وحدانية الله - تعالى - ، وعلى أن البعث حق ، وعلى أن الثواب والعقاب حق .

بعد كل ذلك حكى - سبحانه - ما قاله قوم إبراهيم له ، وما رد به عليهم ، فقال - تعالى - : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ .. ﴾ .

والمراد بقتله : إزهاق روحه بسيف ونحوه ، لتظهر المقابلة بين الإحراق والقتل ، وجاء هنا الترديد بين الأمرين ، مع أنه فى سور أخرى اكتفى بالإحراق : للإشعار بأن قومه منهم من أشار بقتله ، ومنهم من أشار بإحراقه ، ثم اتفقوا بعد ذلك على الإحراق كما جاء فى قوله - تعالى - : ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾

والمعنى : فما كان جواب قوم إبراهيم له ، بعد أن نصحهم وظهرت حجته عليهم ، إلا أن قالوا فيما بينهم ، اقتلوه بالسيف ، أو أحرقوه بالنار ، لتستريحوا منه ، وتريحوا آلهتكم من عدوانه عليها ، ومن تحطيمه لها .

وقولهم هذا الذى حكاه القرآن عنهم ، يدل على إسرافهم فى الظلم والطغيان والجهالة ، ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر فضله على نبيه إبراهيم - عليه السلام - فقال : ﴿ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

والفاء فى قوله - سبحانه : ﴿ فَأَنجَاهُ .. ﴾ فصيحة ، أى : فاتفقوا على إحراقه بالنار ، وجمعوا الحطب وأشعلوا النار بصورة شديدة ، ثم ألقوه فيها بعد اشتعالها ، فكانت نتيجة ذلك أن أنجاه الله - تعالى - منها ، بأن جعلها بردا وسلاما عليه .

إن فى كل ذلك الذى فعلناه بقدرتنا مع إبراهيم ، حيث أخرجناه سليما من النار ، لآيات بينات ، ودلائل واضحات ، على وحدانيتنا وقدرتنا لقوم يومنون ، بأن الله - تعالى - هو رب العالمين ، وأنه هو صاحب الخلق والأمر .

وجمع - سبحانه - الآيات فقال : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ولم يقل إن فى ذلك لآية للمؤمنين ، لأن فى نجاة إبراهيم دلالات متعددة على قدرة الله تعالى لا دلالة واحدة ، إذ

نجاته من النار وتحويلها إلى برد وسلام آيه ، وعجز المشركين جميعا عن أن يلحقوا بهِ ضررا آية ثانية ، وإصرارهم على كفرهم مع ما شاهدوه آية ثالثة على أن القلوب الجاحدة ، تبقى على جحودها حتى مع وجود المعجزات الدالة على صدق من جاء بها من عند الله ـ تعالى ـ .

وخص ـ سبحانه ـ المؤمنين بهذه الآيات ، لأنهم وحدهم المنتفعون بها .

ثم حكى الله ـ تعالى ـ ما قاله إبراهيم لقومه بعد نجاته من مكرهم فقال : ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ .

أى : وقال إبراهيم ـ عليه السلام ـ لقومه : ياقوم إنكم لم تتخذوا هذه الأوثان معبودات لكم عن عقيدة واقتناع بأحقية عبادتها ، وإنما اتخذتموها معبودات من أجل المودة فيما بينكم ، ومن أجل أن يجامل بعضكم بعضا فى عبادتها ، علي حساب الحق ، وهذا شأنكم فى الدنيا ، أما يوم القيادمة ، فهذه المودة ستزول لأنها مودة باطلة ، وسيكفر بعضكم ببعض ، ويلعن بعضكم بعضا ، حيث يتبرأ القادة من الأتباع ، والأتباع من القادة ، والعابدون من المعبودين ، والمعبودون من العابدين ، وسيكون مكانكم ـ أيها الجاحدون ـ النار ومعكم آلهتكم الباطلة ، وليس لكم من ناصر ينصركم ، أو يحول بينكم وبين عذاب الله ـ تعالى ـ .

والمقصود من هذه الآية الكريمة : بيان أن هؤلاء المشركين ، لم يتخذوا الأصنام آلهة ، وهم يعتقدون صحة ذلك اعتقادا جازما ، وإنما اتخذوا فى الدنيا آلهة تارة على سبيل التواد فيما بينهم ، وتارة على سبيل التقليد والمسايرة لغيرهم ، أما فى الآخرة فستتحول تلك المودات والمسايرات والتقاليد ، إلى عداوات ومقاطعات وملاعنات ، لأن هذه المودات وما يشبهها قد قامت على الباطل لا على الحق ، وعلى الشر لا على الخير .

وبذلك نرى أن مجادلة إبراهيم ـ عليه السلام ـ لقومه ، وهو يدعوهم إلى وحدانية الله ـ تعالى ـ قد وردت فى سور متعددة منها : سورة الأنعام ، وسورة الأنبياء ، وسورة الشعراء ، وسورة الصافات ، وسورة العنكبوت .

وقد اشتملت هذه المجادلات والمحاورات على أسمى ألوان الدعوة إلى الحق ، والتنفير من الباطل ، بأسلوب لحمته وسداه المنطق السليم ، والحجة الواضحة .

٢٤ ـ وفى سورة البقرة آية كريمة ، تحكى لنا لونا آخر من الجدال الذى دار بين إبراهيم ـ عليه السلام ـ وبين ملك معاصر له ، حمله ملكه وسلطانه على الغرور والبطر ، والجحود والكفر ، وهذه الآية الكريمة هى قوله ـ سبحانه ـ :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)﴾ .

وقوله تعالى : ﴿حَاجَّ﴾ أى : جادل وخاصم والمحاجة : المخاصمة والمغالبة بالقول ، يقال : حاججته فحججته ، أى : خاصمته بالقول فتغلبت عليه ، وتستعمل المحاجة كثيرا فى المخاصمة بالباطل ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ . .﴾ وقوله سبحانه : ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ . .﴾ .

والمعنى : لقد علمت - أيها العاقل - قصة ذلك الكافر المغرور ، الذى جادل إبراهيم - عليه السلام - فى شأن خالقه - عز وجل - ومن لم يعلم قصته ، فهانحن أولاء نخبره بها عن طريق هذا الكتاب العزيز ، الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والاستفهام للتعجيب من شأن هذا الكافر ، وما صار إليه أمر غروره وبطره والمراد به - كما قال الإمام ابن كثير - نمرود بن كنعان . . ملك بابل فى ذلك الوقت ، وكان معاصرا لسيدنا إبراهيم - عليه السلام .

وأطلق القرآن على ما دار بين هذا الملك المغرور ، وبين سيدنا إبراهيم ، أنها محاجة ، مع أنها مجادلة بالباطل من هذا الملك .

أطلق على هذه المجادلة بالباطل محاجة ، من باب المماثلة اللفظية ، أى : هى محاجة فى نظره السقيم ، ورأيه الباطل .

والضمير فى قوله : ﴿رَبِّهِ﴾ يعود إلى إبراهيم - عليه السلام - وبالاضافة للتشريف ، وللإيذان من أول الأمر بأن الله - تعالى - مؤيد وناصر لعبده إبراهيم .

وقيل الضمير يعود إلي نمرود ، لأنه هو المتحدث عنه .

وقوله : ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ بيان لسبب إقدام هذا الملك على ما أقدم عليه من ضلال وطغيان .

أى : سبب هذه المحاجة ، لأن الله - تعالى - أعطاه الملك ، فلم يشكر خالقه على هذه النعمة ، بل قابل ذلك بالطغيان والغرور ، واستعمال نعم الله فى غير ما خلقت له .

وقوله - سبحانه - : ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾حكاية لما قاله إبراهيم

ـ عليه السلام ـ لذلك الملك المغرور ، فى مقام التدليل على وحدانية الله ـ تعالى ـ ، وأنه ـ سبحانه ـ هو المستحق للعبادة .

أى : قال له : ربى وحده هو الذى ينشئ الحياة ويوجدها ، ويميت الأرواح ويفقدها حياتها ، ولا يوجد أحد يستطيع أن يفعل ذلك سوى الخالق ـ عز وجل ـ وأنت وغيرك تشاهد ذلك فى كل يوم ، فمن الواجب عليك أن تخصه بالعبادة والخضوع ، وأن تقلع عما أنت فيه من كفر وطغيان وضلال .

وفى هذا القول الذى حكاه القرآن عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ أوضح حجة وأقواها على وحدانية الله ـ تعالى ـ ، واستحقاقه للعبادة ، لأن كل عاقل يدرك أن الإله الحق ، هو الذي يملك الإحياء والإماتة ، ويملك بعث الناس يوم القيامة ليحاسبهم على أعمالهم ، وهو أمر ينكره ذلك الملك الكافر .

ويبدو أن هذا القول من إبراهيم كان نتيجة لدعوة ذلك الملك المغرور إلى إخلاص العبادة لله الواحد القهار ، ولكن ذلك الملك طغى وقال لإبراهيم : ومن ربك هذا الذى تدعوني لعبادته ، فقال له إبراهيم : ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ .

٢٥ ـ ثم حكى القرآن جواب نمرود على إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقال : ﴿ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ أى : قال ذلك الطاغية : إذا كنت يا إبراهيم تدعى أن ربك وحده الذى يحيى ويميت ، فأنا أعارضك فى ذلك ، لأنى أنا ـ أيضا ـ أحيى وأميت . .

وما دام الأمر كذلك فأنا مستحق للربوبية ، قالوا : ويقصد بقوله هذا أنه يستطيع أن يعفو عن المجرم المحكوم عليه بالقتل ، ويقتل غيره مع براءته من أية جريمة أو ذنب يدعو لعقابه .

ولقد كان في استطاعة إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن يبطل قوله ، بأن يبين له بأن ما يزعمه من أنه يحيى ويميت ، ليس من الإحياء أو الإماتة المقصودين بالاحتجاج ، لأن ماقصده إبراهيم هو إنشاء الحياة وإنشاء الموت ، وليس ماقصده ذلك الملك الجبار من قتله لمن يشاء ، وعفوه عمن يشاء ، على سبيل الظلم والقهر ، كان في إمكان إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن يفعل ذلك ، ولكنه آثر ترك فتح باب الجدال ، والمحاورة ، وقذفه بحجة تفحمه ، وتخرس لسانه ، وتظهر كذبه ، وغروره وفجوره ، فقال له ـ كما حكى القرآن عنه ـ : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ .

أى : قال إبراهيم لخصمه المغرور : لقد زعمت أنك تملك الإحياء والإماتة كما يملك الله

ـ تعالى ـ ، ومن شأن هذا الزعم أن يجعلك مشاركا الله ـ تعالى ـ فى قدرته ، فإن كان زعمك صحيحا ، فأنت ترى وغيرك يرى ، أن الله ـ تعالى ـ يخرج الشمس فى أول النهار من جهة المشرق ، فأت بها أنت من جهة المغرب .

فماذا كانت نتيجة هذه الحجة الدافعة التى قذف إبراهيم بها فى وجه خصمه؟

كانت نتيجتها ـ كما حكى ـ القرآن ـ ﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ أى : غُلب وقُهر وتحير وانقطع عن حجاجه ، واضطرب ولم يستطع أن يتكلم ، لأنه فوجئ بما لايملك دفعه .

وقوله : ﴿ بُهِتَ ﴾ ـ بالبناء للمفعول ـ من البهت بمعنى الانقطاع والحيرة . .

وعبر ـ سبحانه ـ عن هذا المبهوت بقوله : ﴿ الَّذِي كَفَرَ ﴾ للإشعار بأن سبب حيرته واضطرابه هو كفره وعناده .

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله : ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ أى : والله تعالى قد اقتضت حكمته أنه لايهدى الذين ظلموا أنفسهم إلى طريق الحق ، ولايلهمهم حجة ولا برهانا ، بسبب طغيانهم وبغيهم .

وبذلك نرى أن الآية الكريمة قد حكت للناس لونا من ألوان رعاية الله لأوليائه وخذلانه لأعدائه ، لكى يكون فى ذلك عبرة وعظة لقوم يعقلون .

هجرته إلى ربه وبشارته بابنه إسماعيل

٢٦ ـ تكرر الحديث فى القرآن الكريم عن هجرة إبراهيم ـ عليه السلام ـ من مكان إلى أخر من أجل دعوة الناس إلى وحدانية الله ـ تعالى ـ ، كما تكرر الحديث عن بشارته بالذرية الصالحة ، ومن الآيات التى تحدثت عن ذلك قوله ـ تعالى ـ فى سورة الصافات :

وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ حكاية لما قاله إبراهيم ـ عليه السلام ـ بعد أن نجاه الله ـ تعالى ـ من كيد أعدائه ، وبعد أن جعل النار بردا وسلاما عليه . .

أى : قال إبراهيم ـ عليه السلام ـ لقومه بعد أن نجاه الله تعالى من مكرهم وبغيهم : إنى ذاهب إلى المكان الذى أمرنى ربى بالسير إليه ، وهو بلاد الشام ، وقد تكفل ـ سبحانه ـ بهدايتى إلى مافيه صلاح دينى ودنياى .

قال القرطبى : «هذه الآية أصل فى الهجرة والعزلة ـ عن أهل الشر والسوء ـ وأول من فعل ذلك إبراهيم ـ عليه السلام ـ وذلك حين خلصه الله من النار ، فقال : ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ أى : مهاجر من بلد قومى ومولدى ، إلى حيث أتمكن من عبادة ربى ، فإنه سيهدينى فيما نويت إليه من الصواب . . وكانت هجرته على الأرض المقدسة وهى أرض الشام . .»(١)

---

(١) تفسير القرطبى جـ١٥ ، ص٩٦ .

والسين فى قوله : ﴿ سَيَهْدِينِ ﴾ لتأكيد وقوع الهداية فى المستقبل ، بناء على شدة توكله ، وعظيم أمله ، فى تحقيق مايرجوه من ربه ، لأنه ما هاجر من موطنه بالعراق إلى أرض الشام ، إلا من أجل دعوة الناس إلى إخلاص العبادة لخالقهم - عز وجل - .

٢٧ - ثم أضاف إلى هذا الأمل الكبير فى هداية الله - تعالى - له إلى الخير والحق ، أملا آخر وهو منحه الذرية الصالحة فقال : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

أى : وأسألك - يا ربى - بجانب هذه الهداية ، أن تهب لى الذرية الصالحة التى تكون من عبادك الذين رضيت عنهم ورضوا عنك ، لكى أستعين بهم على نشر دعوتك ، وعلى إعلاء كلمتك ، وأجاب الله - تعالى - دعاءه ، كما حكى ذلك فى قوله تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ ﴾ .

أى : فاستجبنا لإبراهيم دعاءه ، فبشرناه على لسان ملائكتنا بغلام موصوف بالحلم وبمكارم الأخلاق ، ألا وهو إسماعيل - عليه السلام - .

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ .. ﴾ فصيحة ، أى : بشرناه بغلام حليم هو إسماعيل ، ثم عاش هذا الغلام فى كنف أبيه ، فلما بلغ السن التى فى إمكانه أن يسعى معه فيها ، ليساعده فى قضاء مصالحه ولم يرد نص صحيح لتحديدها .

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ .. ﴾ أى : قال الأب إبراهيم لابنه إسماعيل : يا بنى إنى رأيت فى منامى أنى أذبحك ، فانظر ماذا ترى فى شأن نفسك؟

قال الآلوسى : «ورؤيا الأنبياء وحى كالوحى فى اليقظة ، ولعل السر فى كونه مناما لا يقظة ، أن تكون المبادرة إلى الامتثال ، أدل على كمال الانقياد والإخلاص» .[1]

وإنما شاوره بقوله : ﴿ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ .. ﴾ مع أنه سينفذ ما أمره الله - تعالى - به فى منامه ، سواء أرضى إسماعيل أم لم يرض ، لأن فى هذه المشاورة إعلام له بما رآه ، لكى يتقبله بثبات وصبر ، وليكون نزول هذا الأمر عليه أهون ، وليختبر عزمه وجلده .

وقوله : ﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ ، بيان لما رد به إسماعيل على أبيه ، وهو رد يدل على علو كعبه فى الثبات ، وفى احتمال البلاء ، وفى الاستسلام لقضاء الله وقدره .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٢٢ ، ص١٢٩ .

أى : قال الابن لأبيه : يا أبت افعل ما أمرك الله - تعالى - به ، ولا تتردد فى ذلك ، وستجدنى إن شاء الله من الصابرين على قضائه وإرادته .

وفى هذا الرد مافيه من سمو الأدب ، حيث قدم مشيئة الله - تعالى - ونسب الفضل إليه ، واستعان به فى أن يجعله من الصابرين على البلاء .

وهكذا الأنبياء - عليهم السلام - يلهمهم الله - تعالى - فى جميع مراحل حياتهم ، ما يجعلهم فى أعلى درجات السمو النفسى ، واليقين القلبى ، والكمال الخلقى . .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما كان بين الابن وأبيه فقال : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ .

ولفظ «أسلما» : هنا بمعنى : استسلما وانقادا لأمر الله - تعالى - فالفعل لازم ، أو سلم الذبيح نفسه ، وسلم الأب ابنه فيكون الفعل متعديا والمفعول محذوف .

وقوله : ﴿ وَتَلَّهُ ﴾ أى : صرعه وأسقطه على الأرض يقال : تل فلان فلانا ، إذا صرعه وألقاه على الأرض .

والجبين أحد جانبى الجبهة ، وللوجه جبينان والجبهة بينهما .

أى : فلما استسلم الأب والابن لأمر الله - تعالى - وصرع الأب ابنه على شقه ، وجعل جبينه على الأرض ، واستعد الأب لذبح ابنه ، كان ما كان منا من رحمة بهما ، ومن كرم لهما ، ومن إعلاء لقدرهما . .

وقد ذكروا هنا آثارا منها : «أن إسماعيل - عليه السلام - حين هَمّ أبوه بذبحه قال له : يا أبت اشدد رباطى حتى لا أضطرب ، واكفف عنى ثيابك حتى لايتناثر عليها شىء من دمى فتراه أمى فتحزن ، وأسرع مرّ السكين على حلقى ليكون أهون للموت علىّ ، فإذا أتيت أمى فاقرأ عليها السلام منى . .» .

ثم بين - سبحانه - مظاهر فضله ورحمته بعد هذا الاستسلام التام لقضائه فقال : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ . قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

أى : وبعد أن صرع إبراهيم ابنه ليذبحه ، واستسلما لأمرنا . . نادينا إبراهيم بقوله : يا إبراهيم لقد فعلت ما أمرناك به ، ونفذت ما رأيته فى رؤياك تنفيذا كاملا ، يدل على صدقك فى إيمانك ، وعلى قوة إخلاصك .

وقد فعلنا ما فعلنا من تفريج الكرب عن إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - لأن من

شأننا وسنتنا أن نجازى المحسنين بالجزاء الذى يرفع درجاتهم ، ويفرج كرباتهم ، ويكشف الهم والغم عنهم ، واسم الإشارة فى قوله ـ سبحانه : ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ﴾ يعود إلى ما ابتلى الله ـ تعالى ـ به نبيه إبراهيم وابنه إسماعيل .

أى : إن هذا الذى ابتلينا به هذين النبيين الكريمين ، لهو البلاء الواضح ، والاختبار الظاهر ، الذى يتميز به قوى الإيمان من ضعيفه ، والذى لايحتمله إلا أصحاب العزائم العالية ، والقلوب السليمة والنفوس المخلصة لله رب العالمين .

ثم بين ـ سبحانه ـ جانبا آخر من مظاهر فضله على هذين النبيين الكريمين فقال : ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ ، والذبح بمعنى المذبوح ، فهو مصدر بمعنى اسم المفعول ، كالطحن بمعنى المطحون ، أى : وفدينا إسماعيل ـ عليه السلام ـ بمذبوح عظيم فى هيئته وفى قدره ، لأنه من عندنا ، وليس من عند غيرنا .

قيل : افتداه الله ـ تعالى ـ بكبش أبيض ، أقرن ، عظيم القدر . .

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ . سَلامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ . كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

أى : ومن مظاهر فضلنا وإحساننا وتكريمنا لنبينا إبراهيم ، أننا أبقينا ذكره الحسن فى الأمم التى ستأتى من بعده ، وجعلنا التحية والسلام منا ومن المؤمنين عليه إلى يوم الدين ، ومثل هذا الجزاء نجزى المحسنين ، إنه ـ عليه السلام ـ من عبادنا الصادقين فى إيمانهم .

٢٨ ـ هذا وجمهور العلماء على أن الذبيح الذى ورد ذكره فى هذه القصة هو إسماعيل ـ عليه السلام ـ ومن أدلتهم على ما ذهبوا إليه ما يأتى :

(أ) أن سياق القصة يدل دلالة واضحة على أن الذبيح إسماعيل ، لأن الله ـ تعالى ـ حكى عن إبراهيم أنه تضرع إليه ـ تعالى ـ بقوله : ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فبشره الله تعالى بغلام حليم ، وهذا الغلام عندما بلغ السن التى يمكنه معها مساعدة أبيه فى أعماله ، رأى أبوه فى المنام أنه سيذبحه . . . .

ثم قال ـ سبحانه ـ بعد كل ما سبق من أحداث : ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ . وهذا يدل دلالة واضحة على أن المبشر به الأول وهو إسماعيل ، غير المبشر به الثانى وهو إسحاق .

(ب) أن البشارة بمولد إسحاق ـ عليه السلام ـ قد جاء الحديث عنها مفصلا فى سورة

«هود» . وظروف هذه البشارة وملابساتها ، تختلف عن الظروف والملابسات التى وردت هنا فى سورة «الصافات» ، وقد أشار إلى ذلك الإمام السيوطى فقال :

«وتأملت القرآن فوجدت فيه مايقتضئ القطع ـ أو مايقرب منه ـ على أن الذبيح إسماعيل ، وذلك لأن البشارة وقعت مرتين :

مرة فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ. فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ. فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ.. ﴾ فهذه الآية قاطعة فى أن المبشر به هو الذبيح .

ومرة أخري فى قوله ـ تعالى ـ فى سورة هود : ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ.. ﴾ فقد صرح هنا بأن المبشر به إسحاق ، ولم يكن بسؤال من إبراهيم ، بل قالت امرأته إنها عجوز ، وأنه شيخ كبير ، وكان ذلك فى بلاد الشام ، لما جاءت الملائكة إليه بسبب قوم لوط ، وكان في آخر عمره . .

أما البشارة الأولى فكانت حين انتقل من العراق إلى الشام ، وحين كان سنه لايستغرب فيه الولد ، ولذلك سأل الله ـ تعالى ـ الذرية الصالحة ، فعلمنا بذلك أنهما بشارتان ، فى وقتين بغلامين ، إحداهما بغير سؤال وهو إسحاق ، والثانية قبل ذلك بسؤال وهو غيره ، فقطعنا بأنه إسماعيل ، وهو الذبيح[1] هذا ، وهناك أدلة أخرى على أن الذبيح هو إسماعيل ـ عليه السلام ـ وهو الأمر الذي تطمئن إليه النفس ، وترى أنه هو الصحيح ، ومن أراد المزيد من الأدلة فليرجع ـ مثلا ـ إلى تفسير ابن كثير ، وتفسير الألوسى ، وغيرهما .

٢٩ ـ وبشارته بابنه إسحاق ـ عليه السلام :

وبشارة إبراهيم ـ عليه السلام ـ بابنه إسحاق ، وردت فى ثلاث سور هى : هود ، والحجر ، والذاريات ، وكلها وضحت أن هذه البشارة حملها الملائكة لإبراهيم ، وهم فى طريقهم إهلاك قوم لوط ـ عليه السلام .

أما الآيات التى وردت فى ذلك فى سورة «هود» فتبدأ بقوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾

---

(١) راجع تفسير القاسمى : جـ٤ ص٥٠٥٧

قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣) ﴾ .

والمراد بالرسل فى قوله ـ سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ . . ﴾ جماعة من الملائكة أرسلهم الله ـ تعالى ـ إلى نبيه إبراهيم ، لتبشيره بابنه إسحاق ، ـ عليهما السلام ـ وقد اختلفت الروايات فى عددهم ، فعن ابن عباس كانوا ثلاثة ، وهم : جبريل ، وميكائيل وإسرافيل .

وعن الضحاك : أنهم كانوا تسعة ، وعن السدى : أنهم كانوا أحد عشر ملكا .

والحق أنه لم يرد فى عددهم نقل صحيح يعتمد عليه ، فلنفوض معرفة عددهم إلى الله ـ تعالى ـ .

والبشرى : اسم للتبشير والبشارة ، وهى الخبر السار ، فهى أخص من الخبر ، وسميت بذلك لأن آثارها تظهر على بشرة الوجه ، أى : جلده .

وجاءت الجملة الكريمة بصيغة التأكيد ، للاهتمام بمضمونها ، وللرد على مشركى قريش وغيرهم ، ممن كان ينكر هذه القصة وأمثالها .

والباء فى قوله : ﴿ بِالْبُشْرَىٰ ﴾ للمصاحبة والملابسة : أى : جاءوه مصاحبين وملتبسين بالبشرى .

وقوله : ﴿ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ ﴾ حكاية لتحيتهم له ولردهم عليه .

و«سلاما» منصوب بفعل محذوف ، أى : قالوا : نسلم عليك سلاما ، ولفظ «سلام» مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أى : قال لهم أمرى سلام .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ بيان لما فعله إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع هؤلاء الرسل من مظاهر الحفاوة والتكريم .

والعجل : الصغير من البقر ، والحنيذ : السمين المشوى على الحجارة المحماة فى حفرة من الأرض .

يقال : حنذ الشاة يحنذها حنذا ، أى : شواها بهذه الطريقة .

أى : أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ لعظم سخائه وكرمه ، بمجرد أن جاءه هؤلاء الرسل ، وتبادل معهم التحية ، ما كان منه إلا أن أسرع إلى أهله ، فجاءهم بعجل سمين مشوى .

وهذا شأن الكرام أصحاب المروءة والشهامة ، يقدمون التحية للضيف فى أسرع وقت

ممكن ، ثم بين ـ سبحانه ـ حال إبراهيم عندما رأي ضيوفه لايأكلون من طعامه فقال : ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً .. ﴾ .

ومعنى : «نكرهم» : نفر منهم ، وكره تصرفهم ، تقول : فلان نكر حال فلان ، إذا وجده على غير ما يعهده فيه ، ويتوقعه منه .

وأوجس : من الوجس ، وهو الصوت الخفى ، والمراد به هنا : الإحساس الخفى بالخوف ، والفزع الذى يقع فى النفس عند رؤية ما يقلقها ويخيفها .

أى : فحين رأى إبراهيم ضيوفه لاتمتد أيديهم إلى الطعام الذى قدمه لهم ، نفر منهم ، وأحس فى نفسه من جهتهم خوفا ورعبا ، لأن امتناع الضيف عن الأكل من طعام مضيفه ـ بدون سبب مقنع ـ يشير بأن هذا الضيف يريد به سوءا .

ولذا بادر الملائكة بادخال الطمأنينة على قلب إبراهيم ، حيث قالوا له : ﴿ لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ .

أى : قالوا له : لاتخش شيئا يا إبراهيم ، فإنا لسنا ضيوفا من البشر ، وإنما نحن رسل من الله ـ تعالى ـ ، أرسلنا إلى قوم لوط لإهلاكهم .

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما حدث بعد ذلك مع امرأته فقال : ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ .

والمراد بامرأته ـ كما يقول القرطبى ـ سارة بنت هاران بن ناحور ، وهى ابنة عمه ، وقيامها : كان لأجل قضاء مصالحها ، أو لأجل خدمة الضيوف ، أو لغير ذلك من الأمور التى تحتاجها المرأة فى بيتها .

والمراد بالضحك هنا : حقيقته ، أى فضحكت سرورا وابتهاجا بسبب زوال الخوف عن إبراهيم ، أو بسبب علمها بأن الضيوف قد أرسلهم الله ـ تعالى ـ لإهلاك قوم لوط ، أو للسببين معا .

أى : وفى أعقاب قول الملائكة لإبراهيم لاتخف ، كانت امرأته قائمة لقضاء بعض حاجاتها ، فلما سمعت ذلك ضحكت سرورا وفرحا لزوال خوفه ، فبشرناها عقب ذلك بمولودها إسحاق ، كما بشرناها بأن إسحاق سيكون من نسله يعقوب ، فهى بشارة مضاعفة ، إذ أنها تحمل فى طياتها أنها ستعيش حتى ترى ابن ابنها .

ولاشك أن المرأة عندما تكون قد بلغت سن اليأس ، ولم يكن لها ولد ، ثم تأتيها مثل هذه البشارة ، يهتز كيانها ، ويزداد عجبها ، ولذا قالت على سبيل الدهشة والاستغراب : ﴿ وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ .

وكلمة «يا ويلتا» : تستعمل فى التحسر والتألم والتفجع عند نزول مكروه ، والمراد بها هنا : التعجب لا الدعاء على نفسها بالويل والهلاك .

أى : قالت بدهشة وعجب عندما سمعت بشارة الملائكة لها بالولد وبولد الولد : يا للعجب أألد وأنا امرأة عجوز قد بلغت سن اليأس من الحمل من زمن طويل ، وهذا زوجى إبراهيم شيخا كبيرا متقدما في السن ، إن هذا الذي بشرتمونى به ، لشىء عجيب فى مجرى العادة عند النساء .

وقد رد عليها الملائكة بقولهم : ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ ، أى : أتستبعدين على قدرة الله ـ تعالى ـ أن يرزقك الولد وأنت وزوجك فى هذه السن المتقدمة؟ لا إنه لايصح لك أن تستبعدى ذلك ، لأن قدرة الله ـ تعالى ـ لايعجزها شىء .

﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ ، أى : قالت الملائكة لها زيادة فى سرورها ، رحمة الله الواسعة ، وبركاته وخيراته النامية ، عليكم أهل البيت الكريم وهو بيت إبراهيم ـ عليه السلام ـ «إنه» ـ سبحانه ـ «حميد» أى : مستحق للحمد لكثرة نعمه ، «مجيد» أى : كريم واسع الإحسان .

قال الشيخ القاسمى ـ رحمه الله ـ : وقد أخذ العلماء من هذه الآيات جملة من الفوائد منها : أن المبشر بشىء ينبغى أن يقابل ذلك بشكر الله تعالى على فضله ونعمه ، ومنها : أن السلام مشروع ، وأنه ينبغى أن يكون الرد أفضل ، لقول إبراهيم فى الرد على الملائكة «سلام» بالرفع ، وهو أدل على الثبات والدوام ، ومنها : مشروعية الضيافة ، والمبادرة إليها ، واستحباب مبادرة الضيف بالأكل منها ، واستحباب خدمة المضيف للضيف ، فإنها من مكارم الأخلاق .(١)

٣٠ ـ أما الآيات التى فى سورة «الحِجْر» فقد حكت لنا البشارة بمولد إسحاق ، بأسلوب مؤثر حكيم ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠) وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ (٥٦)﴾ .

---

(١) راجع تفسير القاسمى جـ٩ ص٣٤٦٧ .

أى : أخبر - أيها الرسول الكريم - عبادى المؤمنين أنى أنا الله - تعالى - ، الكثير المغفرة لذنوبهم ، وخبرهم - أيضا - أن عذابى هو العذاب الأليم لمن هو مستحق له .

فأنت - ترى أن الله - عز وجل - قد جمع فى هاتين الآيتين بين المغفرة والعذاب ، وبين الرحمة والانتقام ، وبين الوعد والوعيد ، لبيان سنته - سبحانه - فى خلقه ، ولكى يعيش المؤمن حياته بين الخوف والرجاء ، فلايقنط من رحمة الله ، ولا يقصر فى أداء ماكلفه - سبحانه - به ، وقدم - سبحانه - نبأ مغفرته ورحمته ، على نبأ عذابه وانتقامه ، جريا على الأصل الذى ارتضته مشيئته ، وهو أن رحمته سبقت غضبه ، ومغفرته سبقت انتقامه .

والمراد بقوله - سبحانه - : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ وهم الملائكة الذين نزلوا عليه ضيوفا فى صورة بشرية ، وبشروه بغلام عليم .

ثم فصل - سبحانه - ما دار بين إبراهيم وضيوفه فقال : ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا .. ﴾ .

أى : وأخبر قومك - أيها الرسول الكريم - عن الضيوف الذين نزلوا على إبراهيم ، فقالوا له على سبيل التحية سلاما ، أى : سلمت سلاما . .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴾ بيان لما رد به إبراهيم عليهم ، أى : قال لهم بعد أن دخلوا عليه وبادروه بالتحية : إنا منكم خائفون .

وكان من أسباب خوفه منهم : أنهم دخلوا عليه بدون إذن ، وفى غير وقت الزيارة ، وبدون معرفة سابقة لهم ، وأنهم لم يأكلوا من الطعام الذي قدمه لهم .

هذا ، وقد ذكر - سبحانه - فى سورة هود ، وفى سورة الذاريات أنه رد عليهم السلام ؛ إلا أنه توجس منهم الخوف فى أول الأمر ، ففى سورة «هود» قال - سبحانه - : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ . فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً .. ﴾ .

وفى سورة الذاريات قال - سبحانه : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ . إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ .

ولاتعارض بين هذه الآيات ، لأن كلا منها يحكى حالة معينة لإبراهيم - عليه السلام .

ثم حكى - سبحانه - ما قالته الملائكة لإدخال الطمأنينة على قلب إبراهيم فقال - تعالى - : ﴿ قَالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ ﴾ .

أى : قالوا له : لاتخف منا ، فإنا قد جئناك لتبشيرك بغلام ذى علم كثير وهو إسحاق ـ عليه السلام ـ وقد حكى ـ سبحانه ـ فى سورة «هود» أن البشارة كانت لامرأته ، بينما حكى هنا أن البشارة كانت له ، ومعنى ذلك أنها كانت لهما معا ، إما فى وقت واحد ، وإما فى وقتين متقاربين ، بأن بشروه هو أولا ، ثم جاءت امرأته بعد ذلك فبشروها ـ أيضا ـ ويشهد لذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ .

ثم بين ـ سبحانه ـ ما قاله إبراهيم للملائكة بعد أن بشروه بهذا الغلام العليم ، فقال تعالى : ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ .

أى : قال لهم إبراهيم : أبشرتمونى بذلك مع أن الكبر قد أصابنى ، والشيخوخة قد اعترتنى ، فبأى شىء عجيب قد بشرتمونى .

وتعجب إبراهيم إنما هو من كمال قدرة الله ، ونفاذ أمره ، حيث وهبه ـ سبحانه ـ هذا الغلام العليم فى تلك السن المتقدمة بالنسبة له ولامرأته ، والتى جرت العادة أن لايكون معها إنجاب الأولاد .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴾ بيان لما قالته الملائكة لإبراهيم ، أى : قالوا له : يا إبراهيم قد بشرناك بالأمر المحقق الوقوع ، فلاتكن من الآيسين من رحمة الله ، فإن قدرته ـ سبحانه ـ لايعجزها شىء .

وهنا دفع إبراهيم عن نفسه نقيصة اليأس من رحمة الله ، فقال على سبيل الإنكار والنفى : ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ أى : أنا ليس بى قنوط أو يأس من رحمة الله ـ تعالى ـ ، لأنه لاييأس من رحمة الله إلا القوم الضالون عن طريق الحق والصواب .

٣١ ـ وأما الآيات التى فى سورة «الذاريات» فقد حكت ـ أيضا ـ تلك القصة بأسلوب مشوق ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

وقد افتتحت تلك القصة هنا بأسلوب الاستفهام ، للإشعار بأهميتها ، وتفخيم شأنها ، وبأنها لا علم بها إلا عن طريق الوحى .

والضيف فى الأصل مصدر بمعنى الميل ، يقال : ضاف فلان فلانا ، إذا مال كل واحد منهما نحو الآخر ، ويطلق لفظ الضيف على الواحد والجماعة ، والمراد به هنا جماعة الملائكة الذين دخلوا على إبراهيم .

والمعنى : هل وصل إلى علمك ـ أيها الرسول الكريم ـ حديث ضيوف إبراهيم المكرمين؟ إننا فيما أنزلناه إليك من قرآن نقص عليك قصتهم بالحق الذى لايحوم حوله باطل ، على سبيل التسلية والتثبيت .

ووصفهم ـ سبحانه ـ بأنهم كانوا مكرمين ، لإكرام الله لهم بطاعته ، ولإكرام إبراهيم لهم بحسن الضيافة .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا .. ﴾ ، بيان لحالهم ومقالهم عند دخولهم عليه .

أى : هل بلغك خبرهم وقت دخولهم عليه؟ لقد قالوا له نسلم عليك سلاما .

فكان جوابه عليهم : ﴿ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ ، أى : قال لهم سلام مني لقوم لا أعرفهم قبل ذلك ، ثم بين ـ سبحانه ـ ما فعله إبراهيم مع هؤلاء الذن ينكرهم أى لامعرفة له بهم قبل دخولهم عليه فقال : ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ .

أى : فذهب إبراهيم إلى أهله خفية ، فجاء إليهم مسرعا بعجل ممتلئ لحما وشحما يقال : راغ فلان إلى مكان كذا ، إذا مال إليه فى استخفاء وسرعة .

﴿ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ﴾ ، وقال لهم على سبيل التلطف وحسن العرض ﴿ أَلا تَأْكُلُونَ ﴾ من طعامى .

ولكن إبراهيم مع هذا العرض الحسن لطعامه ، ومع الكرم الواضح منه معهم ، لم يجد من ضيوفه استجابة لدعوته ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ ، أى : فأضمر فى نفسه خوفا منهم حين رأى إعراضا عن طعامه مع جودته .

وهنا كشف الملائكة له عن ذواتهم فقالوا : ﴿ لا تَخَفْ ﴾ أى : لاتخف منا فإنا رسل الله .

﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ ﴾ أى : وبشروه بغلام سيولد له ، وسيكون كثير العلم عندما يبلغ سن الرشد ، وهذا الغلام هو إسحاق ـ عليه السلام .

ثم حكى القرآن ما كان من امرأته بعد أن سمعت بهذه البشارة فقال تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ .

والصرة : من الصرير وهو الصوت ، ومنه صرير الباب ، أى : صوته ، والصك : الضرب الشديد على الوجه ، وعادة ما تفعله النساء إذا تعجبن من شىء .

أى : فأقبلت امرأة إبراهيم ـ عليه السلام ـ وهى تصيح فى تعجب واستغراب من هذه البشرى ، فضربت بيدها على وجهها وقالت : أنا عجوز عقيم فكيف ألد؟

وهنا رد عليها الملائكة بما يزيل عجبها فقالوا : ﴿ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ .

أى : قال الملائكة لامرأة إبراهيم : لاتتعجبى من أن يكون لك غلام فى هذه السن ، فإن هذا الحكم هو حكم ربك ، وهذا القول الذي بشرناك به هو قوله ـ سبحانه ـ وقوله لامرد له ، إنه ـ تعالى ـ هو الحكيم فى كل أقواله وأفعاله ، العليم بأحوال خلقه .

وبذلك نرى أن بشارة إبراهيم بابنه إسحاق ـ عليهما السلام ـ قد وردت فى سور متعددة ، وبأساليب متنوعة ، كلها تدل على أن هذا القرآن من عند الله ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ .

٣٢ ـ قصة بنائه للبيت الحرام :

تحدث القرآن فى آيات متعددة عن قصة بناء المسجد الحرام ، وعن أمر الله ـ تعالى ـ لإبراهيم بذلك ، ومن الآيات التى وردت فى هذا المعنى ، قوله ـ تعالى ـ فى سورة الحج :

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ
أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ
﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ
مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ
أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟
ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟
بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾

وقوله تعالى : ﴿ بَوَّأْنَا ﴾ من التبوأ ، بمعنى النزول فى المكان ، يقال : بوأته منزلا ، أى : أنزلته فيه ، وهيأته له ، ومكنته منه .

قال بعض العلماء : «والمفسرون يقولون بوأه له ، وأراه إياه ، بسبب ريح تسمى الخجوج ، كنست مافوق الأساس ، حتى ظهر الأساس الأول الذى كان مندرسا ، فبناه إبراهيم وإسماعيل عليه ، وأن محل البيت كان مربض غنم لرجل من جرهم .

وغاية مادل عليه القرآن : أن الله بوأ مكانه لإبراهيم ، فهيأه له ، وعرفه إياه ليبنيه فى محله .

وذهبت جماعة من أهل العلم إلى أن أول من بناه إبراهيم ، ولم يكن له وجود من قبله ، وظاهر قوله ـ تعالى ـ على لسان إبراهيم : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ . . ﴾ يدل على أنه كان مبنيا واندرس ، كما يدل عليه ـ أيضا ـ قوله هنا : «مكان البيت» ، لأنه يدل على أنه مكانا سابقا كان معروفا عند بعض الناس . (1)

والمعنى : واذكر ـ أيها المخاطب ـ لتعتبر وتتعظ ، وقت أن هيأنا لإبراهيم ـ عليه السلام ـ مكان بيتنا الحرام ، وأوصيناه بعدم الإشراك بنا ، وأمرناه بإخلاص العبادة لنا ، كما أوصيناه ـ أيضا ـ بأن يطهر هذا البيت الحرام من الأرجاس الحسية والمعنوية الشاملة للكفر والبدع والضلالات والنجاسات ، وأن يجعله مهيأ ومعدا للطائفين به ، وللقائمين فيه لأداء الصلاة وغيرها من العبادات .

وقد أخذ العلماء من هذه الآية ، أنه لايجوز أن يترك عند البيت الحرام ، قذر من الأقذار ، ولانجس من الأنجاس المعنوية ، أو الحسية ، فلايترك فيه أحد يرتكب مالايرضى الله ، ولا أحد يلوثه بقذر من النجاسات .

ثم ذكر ـ سبحانه ـ ما أمر به نبيه إبراهيم بعد أن بوأه مكان البيت فقال : ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ .

والأذان : الإعلام ، و﴿ رِجَالاً ﴾ أى : مشاة على أرجلهم ، جمع راجل ، يقال : رجل فلان يرجَل ـ كفرح يفرح ـ فهو راجل ، إذا لم يكن معه ما يركبه .

والضامر : البعير المهزول من طول السفر ، وهو اسم فاعل من ضمَر ـ بزنة قعد ـ يضمُر ضمورا فهو ضامر ـ إذا أصابه الهزال والتعب .

والفج فى الأصل : الفجوة بين جبلين ، ويستعمل فى الطريق المتسع ، والمراد به هنا : مطلق الطريق وجمعه فجاج .

---

(1) تفسير أضواء البيان جـ٥ ص٦٢ للشيخ الشنقيطى .

والعميق : البعيد ، مأخوذ من العمق بمعنى البعد ، ومنه قولهم : بئر عميق ، أى : بعيدة الغور ، والمعني : وأعلم يا إبراهيم الناس بفريضة الحج ، يأتوك مسرعين مشاة على أقدامهم ، ويأتوك راكبين على دوابهم المهزولة ، من كل مكان بعيد .

قال الإمام ابن كثير : أى : وناد يا إبراهيم فى الناس داعيا إياهم إلى الحج إلى هذا البيت الذى أمرناك ببنائه ، فذُكر أنه قال : يا رب ، وكيف أبلغ الناس وصوتى لا يصل إليهم؟ فقيل له : ناد وعلينا البلاغ ، فقام على مقامه ، وقيل على الحجر ، وقيل على الصفا . . وقال أيها الناس ، إن ربكم قد اتخذ بيتا فحجوه ، فيقال : إن الجبال تواضعت حتي بلغ الصوت أرجاء الأرض . . وأجابه كل شيء سمعه : «لبيك اللهم لبيك» .(١)

ثم بين ـ سبحانه ـ جانبا من المنافع التى تعود عليهم من أدائهم لفريضة الحج فقال : ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ . . ﴾ .

أى : يأتوك ـ يا إبراهيم ـ الناس راجلين وراكبين من كل مكان بعيد ، ليُحصِّلوا منافع عظيمة لهم فى دينهم وفى دنياهم .

ومن مظاهر منافعهم الدينية : غفران ذنوبهم ، وإجابة دعائهم ، ورضا الله عنهم .

ومن مظاهر منافعهم الدنيوية : اجتماعهم فى هذا المكان الطاهر ، وتعارفهم وتعاونهم على البر والتقوى ، وتبادلهم المنافع فيما بينهم عن طريق البيع والشراء ، وغير ذلك من أنواع المعاملات التى أحلها الله ـ تعالى ـ .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ . . ﴾ ، معطوف على ماقبله .

والمراد بالأيام المعلومات : الأيام العشر الأولى من شهر ذى الحجة ، أو هى أيام التشريق ، والمراد ببهيمة الأنعام الإبل والبقر والغنم .

أى : ليشهدوا منافع لهم وليكثروا من ذكر الله ومن طاعته فى تلك الأيام المباركة ، وليشكروه على ما رزقهم من بهيمة الأنعام التى يتقربون إليه ـ سبحانه ـ عن طريق ذبحها ، وإراقة دمائها ، استجابة لأمره ـ تعالى ـ .

وقوله : ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾ إرشاد منه ـ سبحانه ـ إلى كيفية التصرف فيها أى : فكلوا من هذه البهيمة بعد ذبحها ، وأطعموا منها الإنسان البائس ، أى : الذى أصابه بؤس ومكروه إلى جانب فقره واحتياجه .

---

(١) تفسير ابن كثير ص٥ جـ١٠ ٤ .

ثم بين ـ سبحانه ـ مايفعلونه بعد حلهم وخروجهم من الإحرام فقال : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ .

أى : ثم بعد حلهم ، وبعد الإتيان بما عليهم من مناسك ، فليزيلوا عنهم أدرانهم وأوساخهم ، وليوفوا نذورهم التى نذروها لله فى حجهم ، وليطوفوا طواف الإفاضة ، بهذا البيت القديم ، الذى كلف الله ـ تعالى ـ عبده ورسوله إبراهيم ببنائه .

٣٣ ـ وفى سورة البقرة آيات كريمة تحدثت عن مكانة البيت الحرام ، وعن قصة بنائه ، وعن الدعوات الخاشعات التى كان يتضرع بها إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى ربه عند بنائه البيت فقال تعالى :

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾

وقوله تعالى : ﴿ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ﴾ أى مرجعا للناس يرجعون إليه من كل جانب ، يقال : ثاب القوم إلى المكان إذا رجعوا إليه . .

أى : واذكر ـ أيها العاقل ـ وقت أن جعلناوصيرنا بيتنا الحرام ، وكعبتنا المشرفة ، مرجعا للناس ، وملجأ لهم ، وموضع أمانهم واطمئنانهم من كل خوف وفزع .

كما قال ـ سبحانه ـ : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ .

وقوله ـ تعالى : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ تشريف للمكان الذى كان إبراهيم يقوم عليه عند بنائه للمسجد الحرام . .

فالمراد بمقام إبراهيم : الحجر الذى كان إبراهيم - عليه السلام - يقوم عليه خلال بنائه للكعبة وقد ثبت فى الحديث الصحيح عن جابر بن عبدالله ، أن رسول الله ﷺ طاف بالبيت سبعا ، وصلى خلف المقام ركعتين .

قال الإمام ابن كثير : وقد كان هذا المقام - أى - الحجر الذى يسمى مقام إبراهيم - ملصقا بجدار الكعبة قديما ، ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلى الحجر على يمين الداخل فى البقعة المستقلة هناك ، وكان الخليل - عليه السلام - لما فرغ من بناء البيت وضع هذا الحجر إلى جدار الكعبة .

وإنما أخره عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - عن جدار الكعبة إلى موضعه الآن ، ولم ينكر ذلك عليه أحد من الصحابة» .(١)

ثم قال تعالى : ﴿ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ .

أى : وأمرنا وأوحينا إلى إبراهيم وابنه إسماعيل - عليهما السلام - أن يطهرا البيت الحرام ، من كل مالايليق ببيوت الله من الأقذار والأرجاس والأوثان ، وأن يجعلاه مهيأ لاستقبال الطائفين به ، والعاكفين فيه ، والمؤدين للصلاة بداخله .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك بعض الدعوات التى كان إبراهيم يتضرع بها إلى خالقه خلال بنائه للبيت الحرام فقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا ﴾ ،

أى : أضرع إليك - يا إلهى - أن تجعل مكة التى فيها بيتك ، بلدا آمنا ، يجد فيه الناس اطمئنانهم وراحتهم .

كما أسألك - يا إلهى - أن ترزق أهله من الثمرات التى تغنيهم ، واجعل هذا الرزق واسعا لمن آمن من أهل هذا البلد بالله واليوم الآخر .

ثم بين - سبحانه - مصير الكافرين فقال : ﴿ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ .

أى : قال الله - تعالى - ومن كفر بى وباليوم الآخر وبكل مايجب الإيمان به ، فأمتعه متاعا قليلا بنعم الدنيا ، ثم أضطره وأسوقه وألجئه يوم القيامة إلى عذاب النار وبئس المصير ، ثم حكى القرآن دعوة ثالثة تضرع بها إبراهيم إلى ربه فقال : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير ص١ ص١٧٠ .

أى : واذكر ـ أيها العاقل ـ ما صدر من هذين النبيين الكريمين ، فقد كانا يقولان وهما يرفعان ويبنيان أساس البيت وأعمدته : يا ربنا تقبل منا أقوالنا وأعمالنا إنك أنت السميع لأقوالنا ، العليم بأحوالنا .

ويا ربنا اجعلنا مسلمين لك أى : خاضعين وطائعين لأمرك ، واجعل من ذريتنا أمة مسلمة ومخلصة لك ، وأرنا مناسكنا ، أى : وعلمنا شرائع ديننا ، وأعمال حجنا ، وتب علينا ، أى : ووفقنا للتوبة وتقبلها منا ، إنك أنت يا مولانا الواسع القبول لتوبة التائبين الصادقين .

٣٤ ـ مايؤخذ من قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ من فضائل وأحكام .

إن الذي يتدبر قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ كما وردت فى القرآن الكريم ، يجد فيها كثيرا من الفضائل التى منحها الله ـ تعالى ـ لنبيه إبراهيم ، كما يجد فيها كثيرا من العبر والعظات ، ومن الأحكام والآداب ، ومن ذلك ما يأتى :

(أ) إمامته للناس :

وهذه الإمامة التى منحها الله ـ تعالى ـ لإبراهيم ـ عليه السلام ـ نراها واضحة جلية فى قوله ـ سبحانه : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) ﴾ . [سورة البقرة الآية : ١٢٤] .

والابتلاء : الاختبار ، أى : اختبره ربه ـ تعالى ـ بما كلفه به من الأوامر والنواهى .

والله ـ تعالى ـ يختبر عباده بالضراء ليصبروا ، ويختبرهم بالسراء ليشكروا ، وفى كلتا الحالتين تبدو النفس البشرية على حقيقتها ، قال تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً . . ﴾ .

وقد اختلف المفسرون فى تعيين المراد بالكلمات التى اختبر الله ـ تعالى ـ بها نبيه إبراهيم على أقوال ، لعل أفضلها أن المراد بها التكاليف الشرعية التى كلف ـ سبحانه ـ بها نبيه إبراهيم ـ عليه السلام ـ .

قال الإمام ابن جرير عند تفسيره لهذه الآية : «ولم يصح فى ذلك ـ أى : فى المراد بهذه الكلمات ـ خبر يجب التسليم له . . ولعل أرجح الآراء فى المراد بهذه الكلمات ، أنها الأوامر التى كلفه الله بها ، فأتى بها على أتم وجه» .

وقوله ـ سبحانه ﴿ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ ، أى : فأتى بهن على الوجه الأكمل وأداهن أداء تاما يليق به ، ولذا مدحه الله ـ تعالى ـ بقوله : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴾ .

وقوله ـ سبحانه ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ بيان للثمرة التى ترتبت على امتثال إبراهيم لأمر ربه ، وعلى وفائه بعهده بدون تراخ أو إبطاء .

أى : قال الله ـ تعالى ـ : لإبراهيم على سبيل المكافأة له بعد أن أدى ما كلفه به أداء تاما ـ إنى جاعلك للناس إماما يأتمون بك ، ويقتدون بأقوالك وأفعالك .

والمراد بالإمامة هنا : الرسالة والنبوة ، فإنهما أكمل أنواع الإمامة .

وقال ـ سبحانه ـ ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ ولم يقل إنى جاعلك للناس رسولا ، ليكون ذلك دالا على أن رسالته تنفع الأمة المرسل إليها بطريق التبليغ ، وتنفع غيرهم بطريق الاقتداء ، فإن إبراهيم ـ عليه السلام ـ قد رحل إلى آفاق كثيرة ، فتنقل من بلاد الكلدان ، إلى العراق ، وإلى الشام ، وإلى مصر ، وإلى الحجاز ، وكان فى جميع الأماكن التى حل بها أسوة حسنة وقدوة طيبة .

وقوله ـ سبحانه ـ ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ ،حكاية لما رد به إبراهيم على ربه بعد أن صيره للناس إماما .

أى : قال إبراهيم : كما جعلتنى يا إلهى بفضلك وكرمك للناس إماما ، اجعل من ذريتى ـ أيضا ـ من هو كذلك ، فإنى أحب أن يكون من ذريتى الأئمة للناس .

وهذا يدل على أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ لم يكن يحب الخير لنفسه فقط بل كان يحبه ـ أيضا ـ لذريته .

وقوله تعالى : ﴿قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ ، حكاية لما رد به ـ سبحانه ـ على إبراهيم .

أى : قال الله تعالى ـ لعبده إبراهيم ـ قد أجبتك إلى طلبك ، إلا أن هذه الإجابة خاصة بالصالحين من نسلك ، فهم سيكونون أئمة لغيرهم ، أما الظالمون منهم فليسوا أهلا لأن يكونوا أئمة للناس .

ومن الآيات التى تدل على أن الله تعالى قد جعل فى بعض ذرية إبراهيم الإمامة التى هى بمعنى النبوة والرسالة قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت : ٢٧]

ومن الآيات التى تدل على أن من ذريته المحسن والظالم قوله سبحانه :

﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ. وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ [الصافات : ١١٢ ، ١١٣]

هذا ، ويؤخذ من هذه الآية الكريمة وهى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ .. ﴾ إن إبراهيم ـ عليه السلام ـ قد أدى ما كلفه الله تعالى به أداء كاملا ، وأنه ـ سبحانه ـ قد كافأه على ذلك بأن صيره للناس إماما ، وأنه ـ عليه السلام ـ كان يحب الخير لذريته كما يحبه لنفسه ، وهذا شأن الأخيار الأصفياء الأنقياء ، وأنه قد التزم آداب السؤال ، فهو لم يطلب الإمامة لجميع ذريته ، بل طلبها للصالحين منهم فقال : ﴿ ومن ذريتى ﴾ ولفظ «من» هنا للتعبيض ، أى : وألتمس الإمامة لبعض ذريتى .

كما يؤخذ منها أن الظالمين ليسوا أهلا للإمامة ، حتى ولو كانوا من نسل الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وفى ذلك تنفير من الظلم والظالمين ، وتحريض على سلوك طريق الاستقامة والصلاح ، وبيان لسنة من سنن الله التى لاتتغير ولاتتبدل وهي أن الإمامة للصالحين لا للظالمين لأنهم ليسوا أهلا للاقتداء بهم .

كما يؤخذ من هذه الآية ـ أيضا ـ أن منزلة الإنسان عند ربه ، تكون بمقدار قيامه بما أوجبه ـ سبحانه ـ عليه من تكاليف ، وبمقدار إخلاصه وسرعته فى أداء هذه التكاليف التي هى لون من الاختبار والابتلاء ، ليتميز قوى الإيمان من ضعيفه .

(ب) اصطفاء الله ـ تعالى له فى الدنيا :

اختيار الله ـ تعالى ـ عبده إبراهيم ـ عليه السلام ـ لدعوة الناس إلى اتباع الحق ، جاء فى آيات كثيرة ، منها قوله ـ سبحانه ـ :

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) ﴾

[البقرة]

أى : لا أحد من الناس يكره ملة إبراهيم ، وينصرف عنها إلى الشرك بالله ، إلا من امتهن نفسه واستخف بها ، وظلمها بسوء رأيه ، حيث ترك طريق الحق إلى طريق

الضـلالة ، يقـال : رغب فـلان فى كـذا إذا أراده ، ورغب عن كـذا إذا كـرهه ، والملة فى الأصل : الطريقة ، وغلب استعمالها فى أصول الدين ، وسفه نفسه ، أى : امتهنها ، وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ، ثناء عظيم من الله ـ تعالى ـ على نبيه إبراهيم ـ عليه السلام ـ .

أى : والله لقد اخترنا إبراهيم لحمل رسالتنا فى الدنيا إلى الناس ، وهدايتهم إلى طريق الحق ، وإنه فى الآخرة لمن الصالحين المستقيمين على الطريقة المثلى ، المبشرين برضا الله تعالى ومثوبته وجنته .

ثم بين ـ سبحانه ـ السبب فى هذا الاصطفاء والصلاح فقال : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

أى : أن هذه المكانة العالية لإبراهيم سببها أن ربه حين أمره بإسلام وجهه إليه ، وإخلاص العبادة له ، امتثل أمر ربه بكل سرعة وإخلاص ، وقال أخلصت عبادتى وطاعتى لك يا رب .

وشبيه بهذه الآية قوله ـ كما حكى القرآن عنه ـ : ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) ﴾ [الأنعام : ٧٩]

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) ﴾ [آل عمران]

وقوله ـ عز وجل ـ : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً (١٢٥) ﴾ [النساء]

ثم بين ـ سبحانه ـ أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع كماله فى نفسه ، كان يعمل على تكميل غيره ، ودعوته إلى إخلاص العبادة لله ، فقال : ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ .

أى : أن إبراهيم لم يكتف بإسلام وجهه لله ـ تعالى ـ ، بل وصى أبناءه باتباع ملته ، التى هى دين الإسلام ، ويعقوب كذلك وصى بنيه باتباعها ، فقال كل منهما لأبنائه : يا بنى إن الله اصطفى لكم دين الإسلام ، الذى لا يقبل الله دينا سواه ، ومادام الأمر كذلك ، فاثبتوا على هذا الدين ، حتى يدرككم الموت ، وأنتم مقيمون عليه .

والمتدبر لهذه الآيات الكريمة ، يراها قد أثنت على إبراهيم ـ عليه السلام ـ ثناء عاطرا ، حيث وصفته بأنه من المصطفين الأخيار فى الدنيا ، وأنه فى الآخرة من الفائزين برضا الله

ـ تعالى ـ ، وأن من يخالفه فى عقيدته وطريقته يكون من السفهاء الجاهلين ، وأن هذا الاصطفاء لإبراهيم كان بسبب مبادرته ومسارعته لامتثال أمر ربه ، وأنه لم يكتف بذلك بل وصي ذريته من بعده بأن تتبع ملته وسنته ، وأن تستمر على ذلك إلى نهاية الحياة .

(جـ) وفاؤه بعهوده :

وهذه الصفة على رأس المناقب التى منحها الله تعالى لسيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ ويكفيه فخرا أن الله ـ عز وجل ـ شهد له بذلك فقال : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴾ .

وحذف ـ سبحانه ـ متعلق «وفى» ، ليشمل كل مايجب الوفاء به ، كمحافظته على أداء حقوق الله ، واجتهاده فى تبليغ الرسالة ، ووقوفه عند ما أمره الله به أو نهاه عنه .

والحق أن الذى يقرأ قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ يراه قد ضرب أروع الأمثال فى الوفاء بالوعود والعهود ، ومن أمثلة ذلك :

أنه عندما قال له ربه أسلم ، بادر بالامتثال وقال : ﴿ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ولم يكتف بذلك بل وصى بنيه أن يكونوا مثله فى إخلاص العبادة لله ـ تعالى ـ ، واستمر على طاعته التامة لخالقه إلى أن أدركه الموت .

قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ . وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

وأنه عاهد الله وأقسم به ، ليحطمن تلك الأصنام التى اتخذها الجاهلون آلهة من دون الله ، فوفى بعهده ، وبر فى قسمه .

ومن الآيات التى حكت ذلك قوله ـ تعالى ـ حكاية عن إبراهيم ـ عليه السلام : ﴿ وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأنبياء]

وأنه وفّى بعهده مع أبيه ، حيث قال له : ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ واستمر على هذا الاستغفار إلى أن تبين له إصرار أبيه على الكفر ، فتبرأ منه ، وترك الاستغفار له ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ [التوبة]

أى : وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا بسبب وعد صدر منه له بذلك ، فلما أصر «آزر» أبو إبراهيم على كفره ، ومات على ذلك ، تبرأ إبراهيم منه ومن عمله ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ ﴾ .

أى : لكثير التأوه والتوجع من خشية الله «حليم» أى : وكثير الحلم والصفح عمن آذاه ، أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن عبدالله بن شداد أن رجلا قال : يا رسول الله ما الأواه؟ قال : الخاشع المتضرع الكثير الدعاء .

وأنه ـ عليه السلام ـ كان وفيا بعهده عندما رأى فى منامه أنه يذبح ابنه إسماعيل ـ عليه السلام ـ الذى رزقه الله ـ تعالى ـ إياه على الكبر ، إذ بادر إبراهيم بإخبار ابنه بذلك بدون تردد ، ونفذ ما رآه فى منامه ، إلا أن الله ـ تعالى ـ كافأه على هذا الوفاء بافتداء إسماعيل بذبح عظيم ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧)﴾ [الصافات]

أى : وفدينا إسماعيل بمذبوح عظيم فى هيئته ، وقد قدره ، لأنه من عندنا لا من عند غيرنا ، وهكذا نجد أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان وفيا بعهوده فى كل مايجب الوفاء به .

(د) جمعه لأطراف الخير :

وهذه الصفة نراها واضحة جلية فى قوله ـ تعالى ـ :

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣)﴾ .

والمتدبر فى هذه الآيات الكريمة ، يرى أن الله ـ تعالى ـ قد وصف خليله إبراهيم ، بجملة من الصفات الفاضلة والمناقب الحميدة .

وصفه ـ أولا بأنه «كان أمة» ، ولفظ «أمة» يطلق باطلاقات متعددة : منها «الجماعة» ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ..﴾ أى : وجد موسى ـ عليه السلام ـ عند ماء مدين جماعة من الناس يسقون دوابهم .

ومنها الدين والملة ، كما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ أى : دين وملة ، ومنها : الحين والزمان ، كما فى قوله سبحانه : ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ..﴾ أى : إلى فترة محدودة من الزمان .

والمقصود بقوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ أى : كان عنده من الخير ما كان عند أمة من الناس ، فقد كان إماما يقتدى به فى وجوه الطاعات ، وفى ألوان الخيرات ، وفى الأعمال الصالحات ، وفى إرشاد الناس إلى أنواع البر .

ووصفه ـ ثانيا ـ بأنه ﴿ قَانِتًا لِّلَّهِ ﴾ أى : مطيعا لله ، خاضعا لأوامره ونواهيه ، من القنوت ، وهو الطاعة مع الخضوع .

ووصفه ـ ثالثا ـ أنه كان حنيفا أى : مائلا عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق ، من الحنف ، وهو الميل إلى الحق ، بخلاف الجنف فهو الميل إلى الباطل .

ووصفه ـ رابعا ـ بأنه منزه عن الشرك فقال : ﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

ووصفه ـ خامسا ـ بالشكر لنعم الله ، بمعنى استعمالها فيما خلقت له فقال : ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ أى : معترفا بفضل الله ، ومستعملا نعمه فيما يرضيه .

ووصفه ـ سادسا ـ بأنه ممن اختارهم ـ سبحانه ـ لحمل رسالته فقال : ﴿ اجْتَبَاهُ ﴾ أى : اختاره واصطفاه للرسالة .

واجتباء الله لعبده معناه : اختصاصه بخصائص يمنحه إياها بدون كسب منه .

ووصفه ـ سابعا ـ بأنه من الذين هدوا إلى الصراط المستقيم فقال : ﴿ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

ووصفه ـ ثامنا ـ بأنه من السعداء فى الدنيا والآخرة فقال : ﴿ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

ثم ختم ـ سبحانه ـ هذه المناقب الحميدة لإبراهيم ـ عليه السلام ـ بأن أمر نبيه محمدا ﷺ باتباعه فقال : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

والمراد بالاتباع هنا : اتباع الرسول ﷺ لأبيه إبراهيم فى التوحيد وفى أصول الدين الثابتة فى كل الشرائع ، لا فى الفروع التى تختلف من شريعة إلى أخرى كما قال ـ سبحانه ـ : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ .

أى : ثم أوحينا إليك ـ أيها الرسول الكريم ـ بأن تتبع فى عقيدتك وشريعتك ما كان عليه أبوك إبراهيم ـ عليه السلام ـ الذى نبذ كل لون من ألوان الإشراك بالله ـ تعالى ـ .

قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ . . ﴾ [الحج : ٧٨]

قال الإمام القرطبى : وفى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا . . ﴾ دليل على جواز اتباع الأفضل للمفضول فيما يؤدى إلى الصواب ، فإن النبى ﷺ هو أفضل الأنبياء ، ومع ذلك فقد أمره الله ـ تعالى ـ بالاقتداء بهم فقال :

﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ . . ﴾ [الأنعام : ٩٠]

هذا ، والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة يراها من أجمع الآيات التى وصفت سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ بأفضل الصفات ، وأكمل المناقب ، وأكرم الأخلاق .

(هـ) إجابة دعائه :

من أبرز مايلفت النظر ، ويحمل على الاعتبار والاتعاظ فى قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ أنها زاخرة بتلك الدعوات الخاشعات التى حكاها القرآن الكريم على لسانه ، وهو يتضرع بها إلى الله ـ تعالى ـ .

ففى سورة البقرة ـ الآيات من ١٢٦ : ١٢٩ ـ نجد نماذج من الدعوات الخاشعات التى تضرع بها إبراهيم إلى ربه ، وتبدأ هذه الدعوات بقوله ـ تعالى ـ حكاية عنه : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا ﴾ .

أى : قال إبراهيم مناجيا ربه : يا رب اجعل مكة بلدا آمنا من كل فزع ، لأن بها بيتك الحرام ، الذى جعلته مثابة للناس ، أى : يرجعون إليه بين الحين والحين ، والذى جعلته مكان أمنهم واطمئنانهم على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم .

أما الدعوة الثانية التى توجه بها إبراهيم إلى ربه من أجل أهل مكة ، فقد حكاها القرآن فى قوله : ﴿ وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ . . ﴾ .

أى : كما أسألك يا إلهى أن تجعل هذا البلد آمنا ، أسألك كذلك أن ترزق أهله من الثمرات النافعة مايسد حاجتهم ، ويغنيهم عن الاحتياج إلى غيرك .

وأما الدعوة الثالثة فقد تضرع بها خلال بنائه للبيت الحرام ، فقد حكى القرآن ذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أى : واذكر ـ أيها العاقل ـ ما صدر من هذين الرسولين الكريمين من

دعوات خاشعات ، فقد كانا يقولان وهما يقومان برفع قواعد الكعبة : يا ربنا تقبل منا أقوالنا وأعمالنا إنك أنت السميع لما تنطق به ألستنا ، العليم بسرنا وعلننا .

ثم حكى القرآن بعد ذلك جملة من الدعوات التى تضرع بها إبراهيم وإسماعيل إلى الله فقال : ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ أى : خاضعين ومذعنين لك ، واجعل ﴿ مِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾ ، أى : وعلمنا شرائع ديننا وأعمال حجنا ﴿ وَتُبْ عَلَيْنَا ﴾ ، أى : ووفقنا للتوبة الصادقة واقبلها منا ﴿ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ ، ثم ختم إبراهيم وإسماعيل دعواتهما ، بتلك الدعوة التى فيها خيرهما في الدنيا والآخرة فقالا - كما حكى القرآن عنهما - : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ، أى : ونسألك يا ربنا أن تبعث فى ذريتنا رسولا منهم يقرأ عليهم آياتك الدالة على وحدانيتك ، ويعلمهم كتابك ، ويرشدهم إلى مافيه من أحكام وآداب ، ويهديهم إلى الحكمة التى تتمثل فى اتباع سنة نبيك وفى الجمع بين العلم النافع والعمل الصالح ، ويطهرهم من الفسوق والعصيان ، إنك يا مولانا أنت العزيز الحكيم ، ولقد حقق الله - تعالى - لهذين النبيين الكريمين دعواتهما ، فأرسل فى ذريتهما رسولا منهم ، هو محمد ﷺ الذى كانت رسالته رحمة للعالمين .

وقد أخبر ﷺ أنه دعوة إبراهيم فقال : أنا دعوة إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورؤيا أمى التى رأت ، وكذلك أمهات المؤمنين يرين .

وفى سورة إبراهيم (١) نجد نماذج أخرى من تلك الدعوات الخاشعات التى تضرع بها إبراهيم - عليه السلام - إلى ربه .

وتبدأ هذه الآيات بقوله - تعالى - : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴾ ، أى : وأبعدنى - يا إلهى - أنا وذريتى عن عبادة الأصنام .

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ﴾ أى : يارب لقد تضرعت إليك بأن تعصمنى وأبنائى من عبادة الأصنام ، لأنها كانت سببا فى إضلال كثير من الناس عن اتباع الحق . .

---

(١) الآيات من ٢٥ - ٤١ .

﴿ فَمَن تَبِعَنِي ﴾ فى دينى وعقيدتى ﴿ فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ أى : فإنه يصير بهذا الاتباع من أهل دينى وهو دين الإسلام ﴿ وَمَنْ عَصَانِي ﴾ ولم يقبل طاعتى فأفوض أمره إليك ، وأنت الغفور الرحيم ، ثم حكى ـ سبحانه ـ دعاء آخر من تلك الدعوات التى تضرع بها إبراهيم إلى خالقه ، فقال : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ ، أى : يا ربنا إنى أسكنت بعض ذريتى ـ وهو ابنى إسماعيل ومن سيولد له ـ بواد غير ذى زرع قريبا من بيتك ، المحرم ، لكى يتفرغوا لإقامة الصلاة فى هذا المكان الطيب ، فأسألك يا إلهى أن تجعل نفوس الناس وقلوبهم تحن إلى هذا المكان ، وتطير فرحا إليه ، وارزق من تركتهم وديعة فى جوار بيتك من الثمرات المختلفة مايغنيهم ويشبعهم ، لعلهم بسبب هذا العطاء الجزيل ، يزدادون شكرا لك ، ومسارعة فى طاعتك وعبادتك .

وقد حكى القرآن من مواطن أخرى أن الله ـ تعالى ـ قد أجاب دعاء إبراهيم فرزق أهل بيته الحرام ما يغنيهم ، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ثم حكى القرآن دعاء آخر من تلك الدعوات التى توجه بها إبراهيم إلى خالقه فقال : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ .

ثم بين ـ سبحانه ـ ما قاله إبراهيم على سبيل الشكر لربه فقال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ .

ثم ختم إبراهيم ـ عليه السلام ـ تلك الدعوات الطيبات التى تضرع بها إلى ربه بما حكاه الله عنه فى قوله : ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ ﴾ أى : مؤديها فى أوقاتها بإخلاص وخشوع ، ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ أى : واجعل من ذريتى من يقتدى بى في ذلك .

﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴾ أى : واسألك يا إلهى أن تتقبل دعائى ، وألا تخيب رجائى ، كما أسألك ـ يا إلهى ـ أن تغفر لى ذنوبى ، وأن تغفر لوالداى ذنوبهم ـ أيضا ـ يوم يقوم الناس للحساب والجزاء ، كما أسألك أن تغفر لجميع المؤمنين ذنوبهم وخطاياهم فى هذا اليوم العظيم ، وقد سبق أن بينا أن استغفار إبراهيم لأبيه ، إنما كان وفاء للوعد الذى وعده به ، فلما مات أبوه على الكفر ، امتنع عن الاستغفار له ، أما أم إبراهيم فقد قال بعضهم إنها كانت مؤمنة .

وفى سورة الشعراء ألوان أخرى من الدعوات الصالحات التى تضرع بها إبراهيم - عليه السلام - إلى ربه ، ومنها قوله - تعالى - حكاية عنه - : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الشعراء]

أى قال إبراهيم متضرعا إلى ربه : يا رب هب لى علما واسعا مصحوبا بعلم نافع ، وألحقنى بعبادك الذين رضيت عنهم ورضوا عنك ، واجعل لى ذكرا حسنا ، وسمعة طيبة ، وأثرا كريما فى الأمم الأخرى التى ستأتى من بعدى .

وقد أجاب الله - تعالى - له هذه الدعوة ، فجعل أثره خالدا ، وجعل من ذريته الأنبياء والصالحين ، وعلى رأسهم محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين .

كما أسألك يا إلهى أن تجعلنى فى الآخرة من الوارثين لجنتك ، وأن تغفر لأبى ذنوبه ، إنه كان من الضالين عن طريق الحق ، وإننى قد وعدته بالاستغفار له ، وقد رجع عن ذلك إبراهيم بعد أن نهاه الله - تعالى - عن الاستغفار للكافرين .

وأسألك - أيضا - يا إلهى ألا تفضحنى يوم القيامة ، يوم لاينفع مال ولا بنون من أحد لديك ، وإنما الذى ينفع الناس يوم لقائك هو إيمانهم وعملهم الصالح .

والمتأمل فى هذه الدعوات يراها تمثل أسمى ألوان الأدب مع الله - تعالى - ، والطمع فى ثوابه ، والخوف من عقابه .

وفى سورة الصافات نراه بعد أن نجاه الله - تعالى - من مكر أعدائه ، وحول النار التى ألقوه فيها إلى برد وسلام ، يجأر إليه وحده - سبحانه - بالدعاء أن يرزقه الذرية الصالحة ، فيجيب الله - تعالى - دعاءه .

ويحكى القرآن ذلك فى قوله - تعالى - :

﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ. فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ ﴾ .

وهذا الغلام الذى بشره الله - تعالى - به على الكبر هو إسماعيل - عليه السلام - وهكذا نرى نماذج من الدعوات الطيبات التى تضرع بها إبراهيم إلى ربه ، وفيها مافيها من العظات والعبر لقوم يعقلون .

والعاقل من الناس هو الذى يقتدى بإبراهيم - عليه السلام - فيكثر من الدعاء بلسان صادق ، وبقلب سليم فالدعاء هو العبادة - كما جاء فى الحديث الشريف .

(و) الدعوة إلى التأسى به :

وردت آيات كثيرة فى القرآن ، تدعو المؤمنين إلى التأسى والاقتداء بإبراهيم - عليه السلام - ومن هذه الآيات قوله تعالى فى سورة الممتحنة :

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾

والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة يراها قد جاءت بعد نهى المؤمنين فى مطلع السورة عن اتخاذ أعداء الله وأعدائهم أولياء ، فقد قال - تعالى - فى مطلع سورة الممتحنة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ .... ﴾ .

ثم جاءت هذه الآيات لتؤكد هذا المعنى ، عن طريق دعوة المؤمنين فى كل زمان ومكان أن يقتدوا بأبيهم إبراهيم وبمن آمن معه فى مقاطعة أعداء الله ، الذين أظهروا لهم العداوة واستعملوا كل وسيلة لإلحاق الضرر بهم وبدينهم .

أى : قد كان لكم - أيها المؤمنون - أسوة حسنة فى إبراهيم وفى الذين آمنوا معه ، وقت أن قالوا لقومهم الكافرين بشجاعة وقوة : إنا برءاء منكم ومن أصنامكم التى تعبدونها من دون الله - تعالى - ، وقد كفرنا بكم وبآلهتكم ، وسنستمر على ذلك ، وسنبقى على عداوتكم وكراهيتكم حتى تتركوا الكفر وتؤمنوا بالله - تعالى - وحده .

فأنت ترى أن إبراهيم - عليه السلام - والمؤمنون معه ، قد أعلنوا بكل صراحة وشجاعة ، براءتهم من المشركين ، واحتقارهم لآلهتهم ، بل إن إبراهيم - عليه السلام - لم يكتف بهذه العداوة ، وإنما حطم تلك الآلهة إلا كبيرا لهم . .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ . . ﴾ كلام معترض بين الأقوال التى حكاها عن إبراهيم والذين آمنوا معه ، والاستثناء يترجح أنه منقطع ، لأن هذا القول من إبراهيم لأبيه ليس من جنس الكلام السابق ، الذى تبرأ فيه هو ومن معه مما عليه أقوامهم الكافرون .

أى : اقتدوا ـ أيها المؤمنون ـ بأبيكم إبراهيم وبالذين آمنوا معه فى براءتهم من الشرك ومن المشركين ، ولكن لاتقتدوا به فى استغفاره لأبيه الكافر ، لأن استغفاره له كان عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، وامتنع عن الاستغفار له ، وفوض أمره إلى الله تعالى وحده .

ثم حكى ـ سبحانه ـ بعد ذلك جانبا من الدعوات الخاشعات التى توجه بها إبراهيم إلى ربه فقال : ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ .

أى : يا ربنا عليك وحدك فوضنا أمورنا ، وإليك وحدك قبول توبتنا ، وإليك ـ لا إلى أحد سواك ـ مرجعنا ومصيرنا .

﴿ رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا . . ﴾ ، والفتنة هنا مصدر بمعنى المفتون ، أى المعذب من فتن فلان الفضة إذا أذابها .

أى : يا ربنا لاتجعلنا مفتونين ومعذبين على أيدى هؤلاء الكافرين ، بأن تسلطهم علينا فينزلوا بنا الضرر والأذى ، بل انصرنا عليهم ، واجعل كلمتنا هى العليا وكلمتهم هى السفلى .

ويصح أن يكون المراد بالفتنة هنا : اضطراب أحوال المسلمين ، وعدم صلاحيتهم لأن يكونوا قدوة لغيرهم فى الخير والبر والإصلاح ، فيكون المعنى :

يا ربنا لاتجعل أقوالنا وأعمالنا وأحوالنا سيئة ، فيترتب على ذلك أن ينفر غيرنا منا ومن ديننا ، بحجة أننا لو كنا على الحق ، لما كان حالنا بهذا السوء والاضطراب والتمزق والضعف ، بل اجعلنا يا ربنا من أهل الإحسان والصلاح فى كل شئوننا ، حتى يقتدى بنا غيرنا من الكافرين فى تلك الصفات الحميدة ، التى من مظاهرها الإخلاص ، والصدق ، والعزة ، والقوة ، والاتحاد ، والتقدم فى كل جوانب الخير والرقى .

كما نسألك يا ربنا أن تغفر لنا ذنوبنا ، وأن تكفر عنا سيئاتنا ، إنك أنت العزيز الذى لايغلب ، الحكيم فى كل تصرفاتك وقضائك .

ثم أكد - سبحانه - للمؤمنين وجوب الاقتداء بإبراهيم والذين آمنوا معه فى صدق يقينهم وثباتهم وشجاعتهم فقال : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ .

أى : والله لقد كان لكم - أيها المؤمنون - أسوة حسنة ، وقدوة طيبة ، فى أبيكم إبراهيم وفيمن آمن معه ، وهذه القدوة إنما ينتفع بها من كان يرجو لقاء الله ورضاه ، ومن كان يرجو ثوابه وجزاءه الطيب ، ومن يعرض عن هذا الاقتداء والتأسى ، فوبال إعراضه عليه وحده ، فإن الله - تعالى - هو الغنى عن جميع خلقه ، الحميد لمن يمتثل أمره .

وهكذا نجد أن هذه الآيات الكريمة قد شهدت لإبراهيم - عليه السلام - ولمن آمن معه ، بأنهم جديرون بالاقتداء بهم فى قوة إيمانهم ، وفى غيرتهم على دينهم ، وفى حبهم لعقيدتهم ، وفى كراهيتهم للشرك والمشركين .

(ز) ذكاؤه وفطنته :

وهب الله - تعالى - نبيه إبراهيم - عليه السلام - كما وهب غيره من الأنبياء ، العقل الراجح ، والذهن الثاقب ، والبصيرة المستنيرة ، والحجة الدامغة التى يكر بها على باطل المبطلين فإذا هو زاهق .

ويتجلى ذكاء إبراهيم - عليه السلام - وفطنته ، فى كل مواقفه مع قومه وهو يدعوهم إلى وحدانية الله - تعالى - ، وينهاهم عن عبادة الأصنام ، إلا أن أعظم هذه المواقف فى الدلالة على حضور بديهته ، وفرط ذكائه ، وقوة حجته ، ذلك الموقف الذى حكاه القرآن الكريم فى قوله - تعالى - :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥٨]

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد حكت لنا لونا من المخاصمة والمجادلة التى دارت بين إبراهيم - عليه السلام - وبين ذلك الملك الجبار المغرور بملكه وسلطانه .

إن إبراهيم - عليه السلام - يدعوه إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - ، ويبرهن له على صحة ذلك بأن الله - تعالى - وحده ، هو الذى يملك الإحياء والإماتة ، فيقول له : ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ ، أى : ربى هو الذى ينشئ الحياة ويوجدها ، ويميت الأرواح

ويفقدها حياتها ، وأنت وغيرك تشاهدون ذلك مشاهدة لاينكرها عاقل ، ولكن ذلك الملك الجاحد ، لم يقتنع بهذا القول مع وضوحه وصدقه ، بل رد على إبراهيم بتطاول وغرور فقال : ﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ .

أى : قال الطاغية لإبراهيم فى صلف واستعلاء : أنا ـ أيضا ـ أحيى وأميت ، بأن أترك المحكوم عليه بالقتل ، وأقتل البرىء .

وهنا نجد إبراهيم ـ عليه السلام ـ لايريد أن يدخل مع هذا الطاغية فى حوار عقيم ، بل قال له بسرعة خاطفة ، وبكلمة حاسمة تدل على ذكائه وثباته وفطنته : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ .

فماذا كانت نتيجة هذه الحجة الناصعة ، والضربة القاصمة التى وجهها إبراهيم إلى ذلك الملك الجبار؟ كانت النتيجة كما نطق القرآن الكريم فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ ، أى فغلب وقهر وتحير وانقطع عن حجاجه ذلك الملك الكافر .

وهكذا نرى ذكاء إبراهيم وفطنته فى هذه المحاورة التى حكاها القرآن الكريم ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

(ح) كرمه وسخاؤه :

صفة الكرم والسخاء ، من الصفات التى حكاها القرآن الكريم عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى مواطن كثيرة ، منها قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [هود : ٦٩]

أى : ولقد جاءت ملائكتنا بالبشارة السارة لنبينا إبراهيم ، وهى إخباره بمولد غلام له هو إسحاق ـ عليه السلام ـ فما أبطأ وما تأخر إبراهيم عن إكرامهم ، مع عدم معرفته بهم وبالشىء الذى جاءوا من أجله ، بل سارع إلى أهله فجاءهم بعجل صغير من البقر ، مشوى على الحجارة المحماة فى باطن الأرض .

ولاشك أن فعله هذا يدل على سعة جوده ، وعظيم سخائه ، فإن من آداب الضيافة تعجيل قرى الضيف .

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ فى سورة الذاريات ـ الآيات : ٢٤ :٢٩ :

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ

قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) ﴾ [الذاريات]

أى : هل وصل إلى علمك ـ أيها الرسول الكريم ـ نبأ الضيوف الذين جاءوا إلى إبراهيم ـ عليه السلام ـ فأكرمهم غاية الإكرام؟ إننا فيما أنزلنا عليك من قرآن نقص عليك نبأهم بالحق ، لقد دخلوا عليه فقالوا له على سبيل التحية : نسلم عليك سلاما ، فرد عليهم بتحية خير من تحيتهم ، حيث قال لهم بما يدل على الدوام والثبات : عليكم منى السلام ، مع أنى لا أعرفكم .

وفى سرعة وبدون إبطاء ، ذهب إلى أهله فى خفية من ضيوفه ، فجاء إليهم بعجل ممتلئ لحما وشحما ، فقربه بين أيديهم ، وحضهم على الأكل منه ، فلما رآهم لايأكلون شعر بالخوف منهم ، فطمأنوه وقالوا له : لاتخف وبشروه بغلام كثير العلم ، وهو إسحاق ـ عليه السلام ـ .

قال الإمام ابن كثير : وهذه الآيات انتظمت آداب الضيافة ، فإن إبراهيم جاء بطعامه من حيث لايشعرون بسرعة ، ولم يمتن عليهم أولا فقال : نأتيكم بطعام ، بل جاء به بسرعة وخفاء ، وأتى بأفضل ماعنده وهو عجل سمين مشوى ، وقربه بين أيديهم ، وقال لهم بكل أدب وتلطف وحسن عرض : ألا تأكلون من طعامى .

والحق إن إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان مثالا رائعا للسخاء الجم ، وللكرم العظيم وما أحوج المسلمين إلى التخلق بهذا الخلق السامى .

(ط) ولكن ليطمئن قلبى :

من الفضائل التى منحها الله ـ تعالى ـ لرسوله إبراهيم ـ عليه السلام ـ : إلهامه الرشد ، والحرص على مايزيده إيمانا على إيمانه ، ويقينا على يقينه ، وثباتا على ثباته . .

ونرى ذلك واضحا فيما حكاه القرآن عنه فى قوله ـ تعالى ـ فى سورة البقرة :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) ﴾ [البقرة]

وقد ذكر المفسرون فى سبب سؤال إبراهيم أقوالا منها : أنه قال للنمرود : ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ ورد عليه النمرود بقوله : ﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ ، أراد إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن يترقى فيرى كيف يحيى الله الموتى .

وفى قوله : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ تصريح بكمال أدبه مع خالقه ، فهو قبل أن يتضرع إليه بالدعاء يستعطفه ويعترف له بالربوبية الحقة ، والألوهية التامة ، ويلتمس منه معرفة كيفية إحياء الموتى ، مع عدم شكه إطلاقا فى قدرة الله - تعالى - ، أو فى صحة البعث ، وكيف يشك وهو رسول من أولى العزم من الرسل؟ وإنما هو يريد الانتقال من مرتبة علم اليقين إلى مرتبة عين اليقين ، ومن درجة البرهان إلى درجة العيان ، فإن المعاينة والمشاهدة تغرس فى القلب أسمى وأقوى ألوان المعرفة والاطمئنان .

والمعنى : واذكر - أيها العاقل لتعتبر وتتعظ - وقت أن قال إبراهيم لربه : يا رب أرنى بعينى كيف تعيد الحياة إلى الموتى بعد موتهم؟ فأجابه ربه بقوله : أتقول ذلك يا إبراهيم على سبيل الشك فى قدرتى؟ فبادر إبراهيم بنفى الشك فى قدرة الله - تعالى - عن قلبه وأجاب بقوله : حاشاى يا إلهى أن أفعل ذلك ، فأنا مؤمن أرسخ الإيمان بقدرتك على كل شىء ، ولكنى سألت هذا السؤال ليزداد فؤادى سكونا ، ونفسى اطمئنانا ، وقلبى إيمانا ، لأن من شأن المشاهدة أن تغرس فى القلب سكونا أعمق ، واطمئنانا أشد .

قال الإمام القرطبى عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : لم يكن إبراهيم شاكا فى إحياء الله الموتى قط ، وإنما طلب المعاينة ، وذلك أن النفوس مستشرفة إلى رؤية ما أخبرت به ، ولهذا جاء فى الحديث : «ليس الخبر كالمعاينة» .

وأما قول الرسول ﷺ : «نحن أحق بالشك من إبراهيم» فمعناه : أنه لو كان شاكا لكنا نحن أحق بالشك منه ، ونحن لانشك ، فإبراهيم أحرى بألا يشك ، فالحديث مبنى على نفى الشك عن إبراهيم - عليه السلام - . (1)

ثم حكى القران بعد ذلك ما رد به - سبحانه - على عبده إبراهيم فقال : ﴿ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا .. ﴾ .

أى : قال الله - تعالى - لنبيه إبراهيم : إذا أردت معرفة ما سألت عنه ، فخذ أربعة من الطير فاضممهن إليك لتتأملهن وتعرف أشكالهن ، ثم اذبحهن وقسمهن أجزاء ، ثم اجعل على كل مكان مرتفع من الأرض جزءا من كل طائر من تلك الطيور ، ثم نادهن يأتينك مسرعات إليك .

قال الإمام الفخر الرازى فى تفسيره جـ٧ ص٤٤ : أجمع أهل التفسير على أن المراد بالآية قطعهن ، وأن إبراهيم قطع أعضاء هذه الطيور ولحومها وريشها وخلط بعضها

---

(1) تفسير القرطبى جـ٣ ص٢٩٧ .

ببعض ، وفعل كما أمره الله ثم قال لهن تعالين بإذن الله ، فأقبلن مسرعات إليه بعد أن انضم كل جزء إلى أصله . .

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله : ﴿ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أى : واعلم أن الله ـ تعالى ـ غالب على أمره ، قاهر فوق عباده ، حكيم فى كل شئونه وأفعاله .

وبذلك نرى الآية الكريمة قد ساقت أبلغ الأدلة على قدرة الله ـ تعالى ـ وعلى حرص إبراهيم ـ عليه السلام ـ على أن يزداد إيمانا على إيمانه ، ويقينا على يقينه .

(ى) تكليفه ببناء المسجد الحرام :

لقد أخبرنا الله ـ تعالى ـ أن المسجد الحرام هو أول بيت وضعه ـ سبحانه ـ فى الأرض ليكون مكانا لعبادته ، قال ـ تعالى ـ فى سورة آل عمران :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧) ﴾ .

أى : إن أول بيت وضعه الله ـ تعالى ـ فى الأرض ليكون متعبدا لهم ، هو البيت الحرام الذى بمكة ، والذى من صفاته : أنه كثير الخير والنفع لمن حجه أو اعتمره ، أو اعتكف فيه ، أو طاف به .

وأنه بذاته مصدر هداية للعالمين ، لأنه قبلتهم ومتعبدهم . . وأنه مشتمل على علامات واضحات تدل على شرفه وعلو مكانته ، ومن هذه العلامات : وجود مقام إبراهيم بداخله ، أى : وجود المكان الذى كان يقوم فيه إبراهيم تجاه الكعبة لعبادة الله ـ تعالى ـ ولإتمام بنائها . وأيضا من هذه العلامات الدالة على شرف هذا البيت : أن من دخله كان آمنا ، أى : أن من التجأ إليه أمن من التعرض له بالأذى أو القتل .

كذلك ممايدل على شرف هذا البيت ، وسمو منزلته : أن الله ـ تعالى ـ جعل الحج إليه فرضا على كل مستطيع لذلك مرة واحدة فى العمر ، ومن قصر فى أداء هذه الفريضة مع قدرته على أدائها ، فإن الله غنى عنه وعن الناس أجمعين .

هذا جانب من حديث القرآن عن مكانة البيت الحرام ، وعن شرفه ، وعن سمو منزلته ، ولاشك أن بيتا هذه مكانته لايعهد الله فى بنائه إلا من رضى عنهم ورضوا عنه .

وقد أخبرنا ـ سبحانه ـ أنه عهد فى بنائه إلى نبيين كريمين هما : إبراهيم وابنه إسماعيل ـ عليهما السلام ـ .

قال تعالى :

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) ﴾ . [البقرة]

وقال ـ سبحانه : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) ﴾ . [البقرة]

كما أخبرنا ـ سبحانه ـ فى آيات أخرى ، بأن الله ـ تعالى ـ قد أرشد نبيه إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى مكان البيت الحرام ، كما أمره بتطهيره من كل رجس ، وبدعوة الناس إلى حج هذا البيت .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ . لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ . . . ﴾ . [الحج]

ومن هذه الآيات وغيرها نرى أن الله ـ تعالى ـ قد أرشد إبراهيم إلى مكان بيته الحرام ، وأمره ببنائه وتطهيره وتهيئته لمن يطوفون به ، وللمعتكفين فيه ، والمتقربين إلى الله ـ تعالى ـ بداخله .

كما أمره بدعوة الناس إلى حج هذا البيت ، فإنهم عن طريق حجه سينالون الخير الجزيل ، والأجر الوفير ، والمنافع التى لايعرف مقدارها أحد سوى الله ـ عز وجل ـ .

ولاشك أن تكليف سيدنا إبراهيم بكل ذلك ، شرف لايعادله شرف ، وفضل لايضارعه فضل ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

(ك) منهاجه فى دعوته :

استعمل إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى دعوته الناس إلى إخلاص العبادة لله ـ تعالى ـ ، أنجح الأساليب ، وأحكم الطرق ، وخير الوسائل التى تهدى إلى الرشد .

كما استعمل مع كل مخاطب الخطاب الذى يقتضيه حاله ، والمنطق الحكيم الذى يوصل إلى الحق ، وإلى طريق مستقيم .

فأنت تراه وهو يدعو أباه إلى وحدانية الله ـ تعالى ـ ، يخاطبه بأرق عبارة ، وبألطف إشارة ، وبأبلغ بيان فيقول له كما جاء فى سورة «مريم» :

﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ

جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) ﴾.

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال عند تفسيره لهذه الآيات ما ملخصه : انظر كيف رتب إبراهيم الكلام مع أبيه فى أحسن اتساق ، وساقه أرشق مساق ، مع استعمال المجاملة واللطف والرفق واللين والأدب الجميل والخلق الحسن .

وذلك أنه طلب منه ـ أولا ـ العلة فى خطئه ، طلب منبه على تماديه ، موقظ لإفراطه وتناهيه ، حيث عبد ما ليس به حس ولاشعور .

ثم ثنى بدعوته إلى الحق ، مترفقا به متلطفا ، فلم يصف أباه بالجهل المفرط ، ولانفسه بالعلم الفائق ، ولكنه قال له : إن معى طائفة من العلم وشيئا منه ليس معك .

ثم ثلث بتثبيطه ونهيه عما كان عليه ، بتصويره بصورة يستنكرها كل عاقل .

ثم ربع بتخويفه سوء العاقبة ، ومايجره ما هو فيه من الوبال .

ولم يخل ذلك من حسن الأدب ، حيث لم يصرح بأن العقاب لاحق له ، وأن العذاب لاصق به ، ولكنه قال له : إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن . .

وصدر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله : «يا أبت ، توسلا واستعطافا» .(١)

وهكذا نرى أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ لم تمنعه الأبوة من أن ينكر على أبيه ماهو فيه من باطل ، ليعلمنا أنه ليس من الأدب مع الآباء تركهم وماهم فيه من ضلال ، ولئن كان هذا الإنكار يغضب الآباء ، إلا أنه محل رضا الخالق ـ عز وجل ـ ، وحقه ـ سبحانه ـ فوق حقوق الآباء ، وإرشاد الآباء والأقارب إلى مافيه خيرهم وسعادتهم ، مقدم على إرشاد غيرهم .

فإذا ما انتقلنا إلى جدال إبراهيم ـ عليه السلام ـ للطاغية الذى آتاه الله الملك فبطر واغتر وتكبر وجحد الحق ، نراه يجادله بأسلوب آخر ، بأسلوب يحمل الحجة القاصمة ، التى تجعل ذلك الطاغية يقف حائرا مبهوتا ، فقد قذفه إبراهيم ـ عليه السلام ـ بالحجة التى لاتقبل الجدل ، ولاتتحمل التأويل ، حيث قال له : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ . . ﴾ .

وبذلك أثبت إبراهيم المقدرة العظيمة فى إفحام خصمه ، وفى بيان أن المستحق للعبادة والطاعة ، إنما هو الله رب العالمين .

---

(١) تفسير الكشاف : جـ٣ ص١٩ .

أما منهجه فى دعوة قومه إلى عبادة الله - تعالى - ، وإلى نبذ عبادة الأصنام ، فقد سلك فيه طرقا شتى :

منها : استدراجهم إلى الإقرار بوحدانية الله ، وإلى إخلاص العبادة له ، عن طريق المشاهدة والمعاينة ، فقد قال لقومه بأسلوب التهكم عندما جن عليه الليل ورأى نجما ﴿ قَالَ هَذَا رَبِّي ﴾ ، فلما غاب ذلك النجم قال : ﴿ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴾ ، أى : لا أحب أن أعبد إلها يظهر حينا ويغيب حينا ، ﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ أى : قال مسمعا قومه : لئن لم يهدنى ربى إلى الحق ، لأكونن من القوم الضالين الذين يعبدون مانير بعض الوقت ، ويغيب البعض الآخر .

﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ . إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ . [الأنعام : ٧٩,٧٨] .

وهكذا نرى أن إبراهيم - عليه السلام - قد سلك مع قومه طريق الترقى والمشاهدة ، فى الدلالة على وحدانية الله ، وعلى المستحق للعبادة ، لأنه أثبت لهم أن تلك الكواكب التى كان قومه يعظمونها ، إلى جانب عبادتهم للأصنام ، لاتصلح أن تكون إلها ، لأن هذه الكواكب تغيب وتظهر ، ولأن تلك الأصنام لاتنفع ولاتضر ولاتدفع عن نفسها مايؤذيها ، ولذا قال لهم : إنى توجهت فى عبادتى إلى الله - تعالى - وحده ، وما أنا من الذين يشركون معه آلهة أخرى فى العبادة ، ومنها : استخفافه بتلك الأصنام ، واحتقاره لها ولمن يقيم وزنا لصورتها أو هيئتها أو ذاتها ، ونرى ذلك فى آيات كثيرة .

ففى سورة الأنبياء نراه يقول لأبيه وقومه على سبيل الاستهزاء : ﴿ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ ثم يقول لهم : ﴿ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ ثم يدعوهم إلى نبذها ويأمرهم بعبادة الله - تعالى - وحده فيقول لهم : ﴿ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ ، وفى سورة الشعراء يقول لهم على سبيل التهكم بتلك الأصنام : ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ . أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ ؟

ثم يعلن عداوته لتلك الأصنام فيقول : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ .. ﴾ .

وفى سورة الصافات نراه يصف آلهتهم بأنها إفك وكذب ، وأن عبادتها اعتقاد باطل ، وتصرف أحمق يدل على الجهل ، والغباء فيقول لهم : ﴿ مَاذَا تَعْبُدُونَ . أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ . فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

ومنها : إعلان براءته وعداوته السافرة لقومه ولمعبوداتهم الفاسدة ، وأنه مصمم على هذه البراءة والعداوة ومستمر عليها إلى أن يقلعوا عن عبادتهم لتلك الأصنام ، ويعودوا إلى عبادة خالقهم ورازقهم فيقول لهم :

﴿ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ [الزخرف : ٢٦ ، ٢٧]

ويقول لهم فى موطن آخر : ﴿ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ . . ﴾ [الممتحنة : ٤]

ثم نراه أخيرا لايكتفى بالاستدراج والمشاهدة ، ولا بالتهكم من الأصنام وعابديها ، ولا بالعداوة والبراءة من الجميع ، بل يقسم - ويبر فى قسمه - بأنه سيحطم هذه الأصنام فيقول لقومه :

﴿ وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ . فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء : ٥٧ ، ٥٨]

وهكذا نجد إبراهيم - عليه السلام - لم يترك وسيلة يتوقع عن طريقها هداية أبيه وقومه إلا سلكها ، وبذل فى سبيل هذه الهداية كل مايملكه من عقل راجح ، ومن منطق رصين ، ومن حجة بليغة ، ومن فطنة نادرة ، ومن شجاعة خارقة ، ومن صبر جميل .

والدعاة الراشدون هم الذين يقتدون بإبراهيم - عليه السلام - فى غيرته على دينه ، وفى حرصه على تبليغ رسالات الله دون أن يخشوا أحدا سواه ، هم الذين لايتركون وسيلة من الوسائل الخيرة ، التى تهدى إلى الحق وإلى الطريق المستقيم إلا اتبعوها ، لكى ينتشر الصلاح والأمان والاطمئنان بين الناس ، ولكى تسود الفضائل وتمحق الرذائل .

هم الذى يتأسون بسيدنا إبراهيم - عليه السلام - فى فضائله ومناقبه ، وفى جهاده ، وصبره ، وفى حبه لدينه وعقيدته ، وفى تنقله من مكان إلى آخر من أجل إحقاق الحق ، وإبطال الباطل ، فقد أمرنا الله - تعالى - بذلك فى آيات كثيرة منها قوله - سبحانه :

﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ . . ﴾ [الأنعام : ٩٠]

(ل) اعتزاله للشرك والمشركين وما ترتب على ذلك من نعم :

اقتضت سنة الله ـ تعالى ـ أنه لايضيع أجر من أحسن عملا ، قال ـ سبحانه ـ ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ .

ولقد وفى إبراهيم ـ عليه السلام ـ بكل ما أمره الله ـ تعالى ـ به ، أو نهاه عنه ، وجاهد فى سبيل إعلاء كلمة الله جهادا كبيرا ، وبلغ جميع ما كلفه ـ سبحانه ـ بتبليغه ، ولم يترك وسيلة لهداية قومه إلى الحق إلا سلكها ، فماذا كانت نتيجة كل ذلك؟

كانت نتيجة كل ذلك ، أن رفع الله ـ تعالى ـ درجة إبراهيم ـ عليه السلام ـ وأن رزقه الذرية الصالحة التى كان منها الأنبياء والصالحون ، وأن خلد الله ـ تعالى ـ ذكره الحسن ، وأبقى أثره الطيب ، استجابة لقوله ـ عليه السلام ـ :

﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ (٨٤) ﴾ [الشعراء]

أى : واجعل لى يا إلهى ذكرا حسنا ، وسمعة طيبة ، وأثرا كريما فى الأمم التى ستأتى من بعدى ، وقد أجاب الله ـ تعالى ـ دعوته ، وجعل من نسله أشرف خلق الله على الإطلاق سيدنا محمد ﷺ .

ولقد حكى لنا القرآن الكريم جانبا من النعم التى أنعم الله ـ تعالى ـ بها على عبده إبراهيم ، بسبب وفائه وإيمانه وجهاده واعتزاله للشرك والمشركين .

ففى سورة الأنعام ، وبعد أن ساق لنا القرآن الكريم طرفا من جداله مع قومه لكى يخلصوا العبادة لخالقهم ، أتبع ذلك بجانب من نعم الله ـ تعالى ـ على إبراهيم فقال :

وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾

قال الإمام الرازى عند تفسيره لهذه الآيات الكريمة : اعلم أنه ـ تعالى ـ لما حكى عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ أنه أظهر حجة الله ـ تعالى ـ فى التوحيد ونصرها ، وذب عنها ، عدَّد وجوه نعمه وإحسانه عليه :

فأولها : قوله : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ والمراد أنا نحن آتيناه تلك الحجة وهديناه إليها ، وأوقفنا عقله على حقيقتها .

وثانيها : أنه ـ تعالى ـ خصه بالرفعة والاتصال إلى الدرجات العالية ، وهى قوله ـ سبحانه ـ: ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ﴾ .

وثالثها : أنه جعله عزيزا فى الدنيا ، وذلك لأنه ـ تعالى ـ جعل أشرف الناس وهم الأنبياء والرسل من نسله وذريته ، وأبقى هذه الكرامة فى نسله إلى يوم القيامة ، لأن من أعظم أنواع السرور : «علم المرء بأنه يكون من عقبه الأنبياء والصالحون . .» .(١)

وجمهور المفسرين على أن الضمير فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ . . ﴾ يعود على إبراهيم ـ عليه السلام ـ لأن الكلام فى شأنه ، وفى شأن النعم التى منحها الله إياه .

أى : وجعل الله من ذرية إبراهيم ـ عليه السلام ـ هؤلاء الأنبياء الكرام ، داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون ، وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا ـ عليهم الصلاة والسلام ـ .

وفى سورة «مريم» ، بعد أن حكى ـ سبحانه ـ ما قاله إبراهيم لأبيه ، وما رد به أبوه عليه ، نجد قوله ـ تعالى ـ حكاية عن إبراهيم :

﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا . فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا . وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ [مريم : ٤٨ – ٥٠]

أى : وقال إبراهيم لأبيه بعد أن رأى تصميمه على الكفر : إننى بجانب استغفارى لك ، فإنى سأعتزلك وأعتزل قومك ، وأعتزل عبادتكم للأصنام ، وارتحل إلى أرض الله الواسعة بعيدا عنكم ، فلما فعل إبراهيم ذلك : وهبنا له إسحاق ويعقوب بعد أن فارق أباه وقومه ، ليأنس بهما ، وكل واحد منهما جعلناه نبيا .

وهكذا نرى أن اعتزال الشرك والمشركين ، والفسق والفاسقين ، يؤدى إلى السعادة الدينية والدنيوية .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٤ ص٨٢ .

وفى سورة الأنبياء مايؤكد هذا المعنى ، فبعد أن قص علينا القرآن الكريم المحاورات الطويلة التى دارت بين إبراهيم وقومه ، وما أتبع ذلك من إلقائهم به فى النار .

بعد كل ذلك قال ـ سبحانه ـ :

﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ. وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ. وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧١ - ٧٣]

أى : ونجينا إبراهيم ـ عليه السلام ـ مما أضمره له قومه من سوء ، وأخرجناه ومعه ابن أخيه لوط ـ عليه السلام ـ من أرض العراق إلى أرض الشام التى جعلناها مهبطا للوحى ، ومكانا للرسل الكرام لمدة طويلة ، ووهبنا لإبراهيم يعقوب زيادة على إسحاق ، وجميعهم من عبادنا الصالحين ، وجعلناهم أئمة فى الخير ، وأوحينا إليهم أن يفعلوا الطاعات ، وأن يأمروا غيرهم بفعلها ، كما أمرناهم بالمحافظة على الصلاة والزكاة ، فامتثلوا أمرنا ، وكانوا من عبادنا الذين أخلصوا لنا الطاعة والعبادة .

فالآيات الكريمة قد أشارت إلى أن من هاجر من أرض إلى أخرى من أجل إعلاء كلمة الله ـ تعالى ـ ، رزقه الله نظير ذلك الخير والبركة والذرية الصالحة .

وشبيه بهذه الآيات قوله ـ تعالى ـ :

﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [العنكبوت : ٢٦ ، ٢٧]

أى : فآمن لوط لإبراهيم وصدقه فى كل ما جاء به من عند ربه ، وقال إبراهيم بعد أن آذاه قومه : إنى مهاجر إلى الجهة التى أمرنى بالهجرة إليها ربى ، إنه هو الغالب على أمره ، الحكيم فى كل أفعاله .

ووهبنا لإبراهيم بعد أن هاجر ابنه إسحاق ، كما وهبنا لإسحاق يعقوب ، وجعلنا بفضلنا ورحمتنا فى ذرية إبراهيم النبوة ، إذ من نسله جميع الأنبياء من بعده ، كما جعلنا فى ذريته ـ أيضا ـ الكتب التى أنزلناها على الأنبياء من بعده ، كالتوراة ، والإنجيل أو القرآن ، وآتيناه أجره على أعماله الصالحة فى الدنيا ، بأن رزقناه الزوجة الصالحة والذكر الحسن بعد وفاته ، وإنه فى الآخرة سيكون ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه .

وبعد فهذه نفحات من قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ كما وردت فى القرآن الكريم ، فإذا ما رجعنا إلى كتب السنة النبوية الشريفة ، وجدنا ثناء مستطابا من النبى ﷺ على أبيه

إبراهيم ، وعلى سائر الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ومن ذلك ما أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه عن أنس - رضى الله عنه - قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا خير البرية ، فقال ﷺ : «ذاك إبراهيم - عليه السلام - » .

وما قاله ﷺ هو لون من تواضعه ومن مديحه لأبيه إبراهيم ، وإلا فهو ﷺ أفضل الرسل ، وأفضل الخلق على الإطلاق .

وجاء فى حديث الإسراء والمعراج الذى أخرجه الشيخان وغيرهما ، أن الرسول ﷺ قال فيه : «ورأيت إبراهيم ، فإذا أقرب من رأيت به شبها صاحبكم - يعنى نفسه ﷺ » .

نسأل الله - تعالى - أن يحشرنا مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ، ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

قصة إسماعيل وإسحاق ويعقوب

(عليهم الصلاة والسلام)

١ ـ إن الذى يتدبر القرآن الكريم ، يرى أن حديثه عن هؤلاء الأنبياء الثلاثة ـ إسماعيل وإسحاق ويعقوب ـ قد ارتبط فى معظم الأحيان بحديثه عن أبيهم إبراهيم ـ عليه السلام ـ وقد وضحنا ذلك خلال حديثنا عن قصته ـ عليه السلام ـ .

إلا أننا بجانب هذا التوضيح ، نحب أن نسوق ترجمة مختصرة ، لكل واحد من هؤلاء الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وهدفنا من ذلك : الاتعاظ والتأسى بهؤلاء الأخيار ، الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه .

٢ ـ أما إسماعيل ـ عليه السلام ـ فقد جاء الحديث عنه فى اثنى عشر موضعا من القرآن الكريم ، منها قوله تعالى : ﴿ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ [البقرة : ١٢٥]

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾ [البقرة : ١٢٧]

وقوله ـ عز وجل ـ :

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٥]

هذا . . وفى سورة «مريم» آيتان كريمتان ، ذكرتا جانبا من النعم والفضائل التى منحها الله ـ تعالى ـ لإسماعيل ـ عليه السلام ـ وهاتان الآيتان هما قوله سبحانه :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥) ﴾ [مريم]

أى : واذكر ـ أيها الرسول الكريم ـ لقومك خبر جدك إسماعيل بن إبراهيم ـ عليهما السلام ـ لكى يقتدوا به فى صفاته الجليلة ، إنه كان صادق الوعد ، ويكفى للدلالة على وفائه بعهده ، أنه وعد أباه بالصبر على ذبحه فلم يخلف وعده ، بل قال ـ كما حكى القرآن عنه ـ : ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ .

ووصفه ـ سبحانه ـ بصدق الوعد، وإن كان غيره من النبيين كذلك، تشريفا وتكريما له، ولأن هذا الوصف من الأوصاف التى اكتملت شهرتها فيه .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا ﴾ أى : وكان من رسلنا الذين أرسلناهم لتبليغ شريعتنا، ومن أنبيائنا الذين رفعنا منزلتهم وأعلينا قدرهم .

ثم وصفه ـ سبحانه ـ بصفة كريمة ثالثة فقال : ﴿ كَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ ﴾ أى : وكان بجانب حرصه على أداء هاتين الفريضتين، يأمر أهله وأقرب الناس إليه بالحرص على أدائهما، لكى يكون هو وأهله قدوة لغيرهم فى العمل الصالح، وكان نبينا ﷺ يفعل ذلك امتثالا لقوله تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾

وفى الحديث الشريف : «رحم الله رجلا قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته، فإن أبت نضح فى وجهها الماء، ورحم الله امرأة قامت من الليل وأيقظت زوجها فإن أبى نضحت فى وجهه الماء» .

وفى حديث آخر : «إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين، كتبا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات» .

ثم ختم ـ سبحانه ـ هذه الصفحات الجليلة بقوله : ﴿ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ أى : وكان إسماعيل ـ عليه السلام ـ عند ربه مرضى الخصال، لاستقامته فى أقواله وأفعاله، ولصدق وعده، ولأمره أهله بالصلاة والزكاة ولاشك أن من اجتمعت فيه هذه المناقب، كان ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه .

٣ ـ وقد ذكر المحدثون فى كتبهم قصة زواج إبراهيم ـ عليه السلام ـ بهاجر أم إسماعيل، وممن ذكر ذلك الإمام البخارى فى صحيحه، فقد قال : عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : «أول ما اتخذت النساء المنطق من قبل أم اسماعيل، اتخذت منطقا لتعفى أثرها على سارة ـ زوجة إبراهيم ـ عليه السلام» .

أى : أن أول من اتخذت الحزام الذى تشد به المرأة وسطها هاجر أم إسماعيل، وقد اتخذته لئلا تتعثر فى ثيابها، وقد فعلت ذلك هربا من السيدة سارة التى أشارت على سيدنا إبراهيم بطردها لشدة غيرتها منها بعد أن ولدت إسماعيل، وكانت سارة عاقرا .

قال ابن عباس : فخرج إبراهيم ـ عليه السلام ـ بهاجر وابنها إسماعيل وهى ترضعه، وسار بهما حتى وضعهما عند البيت، عند دوحة زمزم فى أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جرابا فيه تمر، وسقاء، فيه ماء، ثم قفى ـ أى : رجع إبراهيم ـ عليه السلام ـ، فتبعته أم إسماعيل فقالت : يا إبراهيم أين تذهب

وتتركنا فى هذا الوادى الذى ليس به أنيس ولاشىء؟ فقالت له ذلك مرارا وجعل لايلتفت إليها ، فقالت له : الله أمرك بهذا؟ قال : نعم . قالت : إذا لايضيعنا .

ثم رجعت فانطلق إبراهيم ، حتى إذا كان عند الثنية - أى : أعلى مكة - حيث لاتراه ، استقبل البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ .

قال ابن عباس : وجعلت أم إسماعيل ترضعه وتشرب من ذلك الماء ، حتى إذا نفذ مافى السقاء عطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه وهو يلتوى ، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا ، أقرب جبل فى الأرض يليها فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا؟ فلم تر أحدا فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت بطن الوادى رفعت طرف ذراعها ، ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى ، وأتت المروة فقامت عليها ، فلم تر أحدا ففعلت ذلك سبع مرات .

قال ابن عباس : قال النبى ﷺ : «فلذلك سعى الناس بينهما» .

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا ، فإذا هى بالملك عند موضع زمزم ، فظهر الماء ، فجعلت تحوضه - أى : تجعله كالحوض - فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك : لاتخافى الضيعة ، فإن ههنا بيتا لله يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لايضيع أهله .

قال ابن عباس : وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية ، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله ، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من قبيلة جرهم ، فنزلوا أسفل مكة ، فرأوا طائرا عائفا - أى : يتردد على الماء ويحوم حوله - فقالوا : إن هذا الطائر ليدور على ماء ، فأرسلوا بعضهم فإذا هم بالماء ، فجاءوا إليه فوجدوا أم إسماعيل عنده ، فقالوا لها : أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت : نعم ولكن لاحق لكم فى الماء عندنا ، قالوا : نعم فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم ، وشب إسماعيل وتعلم العربية منهم ، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم .

وماتت أم إسماعيل - قيل : كان عمرها تسعين سنة ودفنت بالحجر - ثم جاء إبراهيم إلى مكة فالتقى بابنه إسماعيل - بعد فراق بينهما لايعلمه إلا الله - فقال له : يا إسماعيل : إن الله أمرنى أن أبنى ههنا بيتا ، فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى» .[1]

قال الإمام ابن كثير فى كتابه «البداية والنهاية» جـ١ ص٢٠٩ : وكان إسماعيل - عليه

(١) راجع صحيح البخارى : جـ٣ ص٤٣٩ . كتاب الحج .

السلام - رسولا إلى أهل تلك الناحية وما والاها ، من قبائل جرهم والعماليق وأهل اليمن ، ومات إسماعيل - عليه السلام - بعد أن بلغ من العمر مائة وسبعا وثلاثين سنة ، ودفن بالحجر مع أمه هاجر .

وقد ذكر علماء النسب وأيام الناس : أن إسماعيل - عليه السلام - أول من ركب الخيل ، وأنه أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة ، وكان قد تعلمها من العرب العاربة الذين نزلوا عندهم بمكة من جرهم والعماليق وأهل اليمن .

٤ - وأما حديث القرآن عن إسحاق - عليه السلام - فقد جاء فى سبعة عشر موضعا وكان الحديث عنه مرتبطا - فى الأعم الأغلب - بالحديث عن أبيه إبراهيم - عليه السلام - .

قال تعالى :

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ . . ﴾ [البقرة : ١٣٦]

وقال - سبحانه : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا . . ﴾ [الأنعام : ٨٤]

وقال - عز وجل - :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ . . ﴾ [إبراهيم : ٣٩]

وقد جاءت بشارة إبراهيم - عليه السلام - بابنه إسحاق فى آيات متعددة منها ، قوله - تعالى - : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ. وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ [الصافات : ١١٢ ، ١١٣]

أى : ومن مظاهر فضلنا على نبينا إبراهيم - عليه السلام - أننا بشرناه بولد آخر بعد إسماعيل ، ألا وهو إسحاق ، الذى جعلناه نبيا من أنبيائنا الصالحين لحمل رسالتنا ، وأفضنا على إبراهيم ، وعلى إسحاق الكثير من بركاتنا الدينية والدنيوية ، بأن جعلنا عددا كبيرا من الأنبياء من نسلهما ، ومع ذلك فقد اقتضت حكمتنا أن نجعل من ذريتهما من هو محسن فى قوله وعمله ، ومن هو ظالم لنفسه بالكفر والمعاصى ، ظلما واضحا بينا ، وسنجازى كل فريق بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

قال الإمام ابن كثير فى كتابه «البداية والنهاية» جـ١ ص١٧٥ ما ملخصه : وقد كانت البشارة لإبراهيم وزوجه سارة بإسحاق كانت من الملائكة ، لما مروا بهما مجتازين ذاهبين إلى قرى قوم لوط ، ليدمروا عليهم قراهم بسبب كفرهم وفجورهم .

وقد حكى القرآن ذلك فى آيات متعددة منها قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣) ﴾

[هود]

ثم قال الإمام ابن كثير : «وقد ولد إسحاق ولأبيه إبراهيم مائة سنة ، بعد أخيه إسماعيل بأربع عشرة سنة ، وكان عمر أمه «سارة» حين بشرت بابنها إسحاق تسعين سنة» .

وكانت وفاة إسحاق بقرية «حبرون» التى فى أرض كنعان ، حيث كان يسكن إبراهيم ـ عليه السلام ـ ودفن إسحاق مع أبيه إبراهيم ببلدة الخليل بفلسطين وكان عمره عند وفاته مائة وثمانين سنة .

٥ ـ وأما حديث القرآن عن يعقوب ـ عليه السلام ـ فقد تكرر بهذا الاسم ست عشرة مرة ، منها قوله ـ سبحانه ـ :

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٢] .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٣]

وقوله ـ عز وجل ـ : ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ ﴾ [ص : ٤٥]

ويعقوب ـ عليه السلام ـ أطلق عليه القرآن ـ أيضا ـ لفظ إسرائيل ، وقد جاء ذلك مرتين ، إحداهما فى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٣]

والثانية فى قوله ـ سبحانه ـ : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ﴾ [مريم : ٥٨]

ولفظ إسرائيل معناه : صفوة الله ، أو عبد الله .

أما خطاب الله تعالى لذريته ، مع نسبتهم إليه ، فقد جاء فى أكثر من أربعين موضعا ، منها قوله ـ تعالى ـ : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ [البقرة : ٤٠]

وقوله ـ سبحانه ـ :

﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً ﴾ [الإسراء : ٢]

وقوله ـ عز وجل ـ :

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ (٨٠) ﴾ [طه : ٨٠]

وقوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ .. ﴾ [الصف : ٦]

٦ ـ قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : وذكر أهل الكتاب أن إسحاق ـ عليه السلام ـ تزوج وسنه أربعون سنة ، وكان ذلك فى حياة أبيه إبراهيم ـ عليه السلام ـ فأنجب إسحاق من زوجته توأمين هما : العيص ويعقوب ، وهو إسرائيل الذى ينتسب إليه بنو إسرائيل ، ولما بلغ يعقوب سن الرشد تزوج وأنجب من الذكور اثنى عشر ولدا ، وذلك أنه أنجب من زوجته «ليا» ستة أولاد هم : راءوبين ، وشمعون ، ولاوى ، ويهوذا ، وإيساخر ، وزابلون .

وأنجب من زوجته «راحيل» اثنين هما : يوسف وبنيامين .

وأنجب من زوجته «زلفا» اثنين هما جاد وأشير

وأنجب من زوجته «بلها» اثنين هما : دان ونفتالى .

٧ ـ وقد قص علينا القرآن الكريم أن يعقوب وأولاده ، استدعاهم يوسف ـ عليه السلام ـ للحضور إلى مصر فتركوا فلسطين ولبوا دعوته وحضروا إلى مصر .

قال تعالى :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا ـ أى : يعقوب وأولاده ـ عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) ﴾ . [يوسف]

٨ ـ وقد ذكروا أن يعقوب عندما دخل مصر كان عمره مائة وثلاثين سنة ، وأقام بمصر سبع عشرة سنة .

ثم لحق بربه وسنه مائة وسبعة وأربعون عاما ، فاستأذن يوسف ـ عليه السلام ـ ملك مصر فى الخروج مع أبيه يعقوب ليدفنه عند أهله ـ بفلسطين ـ فأذن له ، وتم دفن يعقوب ـ عليه السلام ـ ببلدة «حبرون» ـ المسماة بالخليل الآن ـ بجوار جده إبراهيم وأبيه إسحاق ـ عليهما السلام ـ (راجع البداية والنهاية جـ١ ص٢٣٨) .

هذه لمحة عن حياة ثلاثة من أنبياء الله الصالحين ، وهم إسماعيل وإسحاق ، ويعقوب ـ عليهم السلام ـ قصدنا منها العبرة والعظة ، وضربنا صفحا عن كثير من الأقوال التى لا نرى فائدة من وراء ذكرها .

قصـــــة يوسف

ـ عليه السلام ـ

١ ـ قصة يوسف ـ عليه السلام ـ وردت فى القرآن الكريم فى سورة كاملة تسمى سورة «يوسف» ، وكان نزول هذه السورة على النبى ﷺ قبل هجرته من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة ، أى : أنها من السور المكية الخالصة .

وقد ورد فى سبب نزولها روايات متعددة منها : ما روى عن سعد بن أبى وقاص أنه قال : أنزل القرآن على النبى ﷺ فتلاه على أصحابه زمانا ، فقالوا : يا رسول الله ، لو قصصت علينا ، فنزلت سورة «يوسف» ، وعدد آياتها : إحدى عشرة ومائة آية .

ويغلب على الظن أن نزولها على النبى ﷺ كان فى الفترة التى أعقبت حادث الإسراء والمعراج ، والتى اشتد فيها الأذى الذى أنزله المشركون بالنبى ﷺ بعد وفاة عمه أبى طالب وزوجته السيدة خديجة ـ رضى الله عنها ـ .

فكان نزول هذه السورة فيه مافيه من التسلية للنبى ﷺ عما أصابه من قومه ، حيث قصت عليه مافعله إخوة يوسف به ، وما تعرض له هذا النبى الكريم من كيد وحقد ، ومن أذى واضطهاد ومن دسائس ومؤامرات .

٢ ـ والذى يتدبر سورة «يوسف» يراها قد قصت علينا قصته مع إخوته ومع غيرهم بأسلوب مشوق حكيم ، يهدى النفوس ، ويشرح الصدور ، ويكشف عن الخفايا التى لايعلمها إلا الله ـ تعالى ـ ، ويصور أحوال النفس الإنسانية تصويرا بديعا معجزا .

كما يراها قد ساقت ما ساقت من حكم وعظات ، بأسلوب يمتاز بحسن التقسيم ، وجمال العرض ، والدقة المتناهية فى إبراز تسلسل الأحداث .

لقد تحدثت السورة الكريمة فى مطلعها عن رؤيا يوسف ، وعن نصيحة أبيه له بعد أن قصها عليه .

ثم قصت علينا ما دار بين إخوة يوسف بشأنه من مكر وحسد ، وإجماعهم على أن يلقوا به فى الجب ، وتنفيذهم لذلك بعد خديعتهم لأبيهم .

ثم حدثتنا عن انتشال السيارة ليوسف من الجب ، وعن بيعهم له بثمن بخس ، وعن وصية من اشتراه لامرأته بأن تكرم مثواه ، وعن محنته مع تلك المرأة التى راودته عن نفسه .

ثم انتقلت السورة إلى الحديث عن شيوع خبر امرأة العزيز مع فتاها ، وعما فعلته مع من أشاع هذا الخبر ، وعن لجوء يوسف إلى ربه يسأله النجاة ، من كيد هؤلاء النسوة .

ثم حدثتنا بعد ذلك عن يوسف السجين المظلوم ، وكيف أن السجن لم يمنعه من دعوة رفاقه فى السجن إلى إخلاص العبادة لله الواحد القهار .

ثم حكت لنا تلك الرؤيا المفزعة التى رآها الملك ، وكيف أن يوسف ـ عليه السلام ـ قد فسرها له تفسيرا حكيما صحيحا أدى تنفيذه إلى مافيه الخير والصلاح .

ثم فصلت السورة حديثها عن اللقاءات التى تمت بين يوسف وإخوته بعد فراق طويل ، وحكت ما دار فى هذه اللقاءات من محاورات ، ومجادلات ، انتهت بلقاء يوسف مع أبيه وإخوته ، وقال لهم : ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين .

٣ ـ هذا عرض مجمل للأحداث الكلية التى اشتملت عليها سورة «يوسف» ـ عليه السلام ـ ولنبدأ السير مع السورة الكريمة من أولها ، لنرى ما اشتملت عليه من حكم حكيمة ، ومن تشريعات قويمة ، ومن قصص يشهد بأن هذا القرآن من عند الله ـ تعالى ـ .

لقد افتتحت السورة الكريمة بقوله ـ سبحانه ـ :

الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٦﴾

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ الٓر ﴾ من الحروف المقطعة التى افتتحت بها تسع وعشرون سورة من سور القران الكريم ، وأقرب الأقوال إلى الصواب فيها : أن هذه الحروف المقطعة قد وردت فى افتتاح بعض السور على سبيل الإيقاظ والتنبيه إلى إعجاز القرآن الكريم .

فكأن الله ـ تعالى ـ يقول لأولئك المعارضين فى أن القرآن من عند الله : هاكم القرآن ترونه مؤلفا من كلام هو من جنس ما تؤلفون منه كلامكم ، ومنظوما من حروف هي من جنس الحروف الهجائية التى تنظمون منها حروفكم ، فإن كنتم فى شك من كونه منزلا من عند الله فهاتوا سورة من مثله ، فعجزوا وانقلبوا خائبين ، وثبت أن هذا القرآن من عند الله تعالى .

وقوله : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ أى : تلك الآيات التى نتلوها عليك ـ يا محمد ـ فى هذه السورة وغيرها ، هى آيات الكتاب الواضح إعجازه ، الظاهر أمره .

ثم بين ـ سبحانه ـ الحكمة من إنزاله بلسان عربى مبين فقال : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

أى : إنا أنزلنا هذا القران الكريم بلسان عربى واضح ، على قلب نبينا محمد ﷺ لعلكم ـ أيها المكلفون بالإيمان به ـ تعقلون معانيه ، وتفهمون ألفاظه ، وتنتفعون بهداياته .

٥ ـ ثم بين ـ سبحانه ـ أن هذا القرآن مشتمل على أحسن القصص وأحكمها وأصدقها ، فقال : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ .

والقصص : جمع قصة ، وهى الأخبار التى يرد بعضها فى أعقاب بعض ، ويتبع بعضها بعضا ، أى : نحن ـ أيها الرسول الكريم ـ نقص عليك أحسن أنواع البيان ، وأوفاه بالغرض الذى سيق من أجله ، بسبب ما أوحيناه إليك من هذا القرآن ، والحال أنك كنت قبل أن ننزل عليك هذا القرآن ، من الغافلين عن تفاصيل هذا القصص وعن دقائق أخباره وأحداثه ، شأنك فى ذلك شأن قومك الأميين .

قال ـ تعالى ـ : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود : ٤٩]

وإنما كان القرآن أحسن القصص ، لاشتماله على أصدق الأخبار ، وأبلغ الأساليب وأجمعها للحكم والعبر والعظات .

٦ ـ ثم حكى ـ سبحانه ـ قصة يوسف ـ عليه السلام ـ كمثال لأحسن القصص ، فقال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ .

ويوسف : واحد من أنبياء الله الصالحين ، وأبوه يعقوب ، وهو كذلك من الأنبياء ، وفى الحديث الصحيح عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال : «إن الكريم ابن الكريم ، ابن الكريم ، ابن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، فهو نبى وأبوه نبى ، وجده نبى ، وجد أبيه نبى ـ عليهم الصلاة والسلام» .

والمعنى : اذكر ـ أيها الرسول الكريم ـ وقت أن قال يوسف لأبيه يعقوب : يا أبت إنى رأيت فى منامى أحد عشر كوكبا تسجد لى ، ورأيت كذلك الشمس والقمر ساجدين لى .

قال الإمام ابن كثير ـ رحمه الله ـ : وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام : أن الأحد عشر كوكبا عبارة عن إخوته ، وكانوا أحد عشر رجلا ، والشمس والقمر عبارة عن أبيه وأمه .

روى هذا عن ابن عباس ، والضحاك وقتادة ، وسفيان الثورى ، وعبدالرحمن بن زيد ، وقد وقع تفسير هذا المنام بعد أربعين سنة ، وقيل : بعد ثمانين ، وذلك حين رفع أبويه على العرش ـ وهو سريره ـ وإخوته بين يديه ، وخروا له سجدا ، وقال : «يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا» .

٧ ـ ثم حكى ـ سبحانه ـ بعد ذلك ما قاله يعقوب لابنه يوسف بعد أن قص عليه رؤياه فقال : ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ .

والكيد هو الاحتيال الخفى بقصد الإضرار بالغير ، يقال : كاد فلان فلانا فهو يكيده كيدا ، إذا احتال لإهلاكه .

والمعنى : قال يعقوب لابنه يوسف ـ عليهما السلام ـ بشفقة ورحمة بعد أن سمع منه ما رآه فى منامه : يا بنى لاتخبر إخوتك بما رأيته فى منامك ، فإنك إن أخبرتهم بذلك احتالوا لإهلاكك احتيالا خفيا ، لاقدرة لك على مقاومته أو دفعه .

وإنما قال له ذلك لأن هذه الرؤيا ، تدل على أن الله ـ تعالى ـ سيعطى يوسف من فضله عطاء عظيما ، ويهبه منصبا جليلا ، ومن شأن صاحب النعمة أن يكون محسودا من كثير

من الناس ، فخاف يعقوب من حسد إخوة يوسف له ، إذا ما قص عليهم رؤياه ، كما خاف من عدوانهم عليه .

وجملة : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ واقعة موقع التعليل للنهى عن قص الرؤيا على إخوته .

٨ - أى : لاتخبر إخوتك بما رأيته فى منامك ، فيحتالوا للإضرار بك حسدا منهم لك ، وهذا الحسد يغرسه الشيطان فى نفوس الناس ، لتتولد بينهم العداوة والبغضاء ، هذا وقد أخذ العلماء من هذه الآية أحكاما منها :

أنه يجوز للإنسان فى بعض الأوقات أن يخفى بعض النعم التى أنعم الله بها عليه ، خشية حسد الحاسدين ، أو عدوان المعتدين .

وأن الرؤيا الصادقة حالة يكرم الله بها بعض عباده الذى زكت نفوسهم ، فيكشف لهم عما يريد أن يطلعهم عليه قبل وقوعه .

ومن الأحاديث التى وردت فى فضل الرؤيا الصالحة ما أخرجه الإمام البخارى عن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت : أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة ، فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .

وفى حديث آخر : «الرؤيا الصالحة من الرجل الصالح ، جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة» .

وفى حديث ثالث : «لم يبق من النبوة إلا المبشرات ، وهى الرؤيا الصالحة من الرجل الصالح ، يراها أو ترى له» .

كذلك أخذ جمهور العلماء من هذه الآية أن إخوة يوسف لم يكونوا أنبياء .

قال الآلوسى : والظاهر أن إخوة يوسف لم يكونوا أنبياء ، وهذا ما عليه الأكثرون سلفا وخلفا . .

أما السلف فإنه لم ينقل عن أحد من الصحابة أو التابعين أنه قال بنبوتهم ، وأما الخلف : فكثير منهم نفى عنهم أن يكونوا أنبياء ، وعلى رأس من قال بذلك الإمام ابن تيمية ، فى مؤلف خاص له بهذه المسألة قال فيه : الذى يدل عليه القران واللغة والاعتبار : «أن إخوة يوسف ليسوا بأنبياء ، وليس فى القرآن ولا فى السنة ما يشير إلى أنهم كانوا أنبياء» . (١)

---

(١) تفسير الآلوسى : جـ١٢ ص١٦٤ .

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما توقعه يعقوب لابنه يوسف من خير وبركة فقال : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ يَجْتَبِيكَ ﴾ من الاجتباء بمعنى الاصطفاء والاختيار ، مأخوذ من جبيت الشىء إذا اخترته لما فيه من النفع والخير .

وتأويل الأحاديث : تفسيرها تفسيرا صحيحا .

أى : وكما اجتباك ربك واختارك لهذه الرؤيا الحسنة ، فإنه ـ سبحانه ـ سيجتبيك ويختارك لأمور عظام فى مستقبل الأيام ، حيث يهبك من صدق الحس ، ونفاذ البصيرة ، مايجعلك تدرك الأحاديث إدراكا سليما ، وتعبر الرؤى تعبيرا سليما صادقا .

ويتم نعمته عليك بالنبوة والرسالة ، والملك والرياسة ، وعلى آل يعقوب بالنعم الوفيرة ، كما أتمها على أبويك إبراهيم وإسحاق من قبل هذا الوقت الذى رأيت فيه هذه الرؤيا المباركة ، إن ربك عليم بكل شىء ، حكيم فى كل تصرفاته .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة ، قد نوهت بشأن القرآن الكريم ، وساقت بأسلوب حكيم ، ما قاله يعقوب لابنه يوسف ـ عليهما السلام ـ بعد أن قص عليه ما رآه فى المنام .

٢ ـ كيد إخوة يوسف له.. وحقدهم عليه

٩ ـ بعد أن بين ـ سبحانه ـ فى الآيات السابقة ما قاله يعقوب لابنه يوسف ، أتبع ذلك ببيان حالة إخوة يوسف وهم يتآمرون عليه ، وحالتهم وهم يجادلون أباهم فى شأنه ، وحالتهم وهم ينفذون مؤامراتهم ، وحالتهم بعد أن نفذوها وعادوا إلى أبيهم ليلا ، يتباكون ، فقال ـ تعالى ـ :

لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾

١٠ - وقوله - سبحانه - : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴾ شروع فى حكاية قصة يوسف مع إخوته ، والآيات : جمع آية والمراد به العبر والعظات والدلائل على قدرة الله - تعالى - .

أى : لقد كان فى قصة يوسف مع إخوته عبر وعظات عظيمة ، لكل من سأل عن قصتهم ، وفتح قلبه للانتفاع بما فيها من حكم وأحكام ، تشهد بصدق النبى ﷺ فيما يبلغه عن ربه .

وهذا الافتتاح لتلك القصة ، كفيل بتحريك الانتباه لما سيلقى بعد ذلك منها ، من تفصيل لأحداثها ، وبيان لماجرى فيها .

١١ - وقوله - سبحانه - : ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ بيان لما قاله إخوة يوسف فيما بينهم قبل أن ينفذوا جريمتهم ، والمراد بأخيه : أخوه من أبيه وأمه وهو «بنيامين» ، وكان أصغر من يوسف ، أما بقيتهم فكانوا إخوة له من أبيه فقط .

والعصبة : كلمة تطلق على ما بين العشرة إلى الأربعين من الرجال ، وهى مأخوذة من العصب بمعنى الشد ، لأن كلا من أفرادها يشد الآخر ويقويه ويعضده ، أو لأن الأمور تعصب بهم ، أى : تشتد وتقوى .

والمراد بالضلال هنا : عدم وضع الأمور المتعلقة بالأبناء فى موضعها الصحيح ، وليس المراد به : الضلال فى العقيدة أو الدين .

أى : قال إخوة يوسف وهم يتشاورون فى المكر به : ليوسف وأخوه بنيامين ، أحب إلى أبينا منا ، مع أننا نحن جماعة من الرجال الأقوياء ، الذين عندهم القدرة على خدمته ومنفعته والدفاع عنه دون يوسف وشقيقه بنيامين ، إن أبانا بفعله هذا لفى خطأ ظاهر ، حيث فضل فى المحبة صبيين صغيرين على مجموعة من الرجال الأشداء الأقوياء ، النافعين له ، القادرين على خدمته ، وهم يقصدون بقولهم هذا درء الخطأ عن أنفسهم فيما سيفعلونه بيوسف ، وإلقاء هذا الخطأ على أبيهم الذى فرق بينهم - فى زعمهم - فى المعاملة .

وهذا الحكم منهم على أبيهم ليس فى محله ، لأن يعقوب - عليه السلام - كان عنده من أسباب التفضيل ليوسف عليهم ما ليس عندهم .

قال الآلوسى ما ملخصه : «يروى أن يعقوب - عليه السلام - كان يوسف أحب إليه من بقية إخوته ، لما يرى فيه من المناقب الحميدة ، فلما رأى الرؤيا تضاعفت له المحبة ، ولا لوم

على الوالد فى تفضيله بعض أولاده على بعض فى المحبة ، لأن المحبة ليست مما يدخل تحت وسع البشر . .»[1]

١٢ ـ ثم أخبر ـ سبحانه ـ عما اقترحوه للقضاء على يوسف فقال : ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ .

ولفظ ﴿ اطْرَحُوهُ ﴾ مأخوذ من الطرح ، ومعناه : رمى الشىء وإلقاؤه بعيدا .

والمعنى : لقد بالغ أبونا فى تفضيل يوسف وأخيه علينا ، مع أننا أولى بذلك منهما ، وما دام هو مصرا على ذلك ، فالحل أن تقتلوا يوسف ، أو أن تلقوا به فى أرض بعيدة ، مجهولة حتى يموت فيها غريبا ، فإن فعلتم ذلك ، خلصت لكم محبة أبيكم دون أن يشاركم فيها أحد ، فيقبل عليكم بكليته ، ويكن كل توجهه إليكم وحدكم ، بعد أن كان توجهه إلى يوسف وأخيه .

وستكونون بعد الفراغ من أمر يوسف بسبب قتله أو طرحه فى أرض بعيدة ، قوما صالحين فى دينكم ، بأن تتوبوا إلى الله بعد ذلك ، فيقبل الله توبتكم ، وصالحين فى دنياكم بعد أن خلت من المنغصات التى كان يثيرها وجود يوسف بينكم .

وهكذا النفوس عندما تسيطر عليها الأحقاد ، وتقوى فيها رذيلة الحسد ، تفقد تقديرها الصحيح للأمور ، وتحاول التخلص ممن يزاحمها بالقضاء عليه ، وتصور الصغائر فى صورة الكبائر ، والكبائر فى صورة الصغائر ، فإخوة يوسف هنا ، يرون أن محبة أبيهم لأخيهم جرم عظيم يستحق إزهاق روح الأخ ، وفى الوقت نفسه يرون أن هذا الإزهاق للروح البريئة شىء هين ، فى الإمكان أن يعودوابعده قوما صالحين أمام خالقهم ، وأمام أبيهم ، وأمام أنفسهم .

١٣ ـ ثم بين ـ سبحانه ـ ما اقترحه أحدهم ، وما استقر عليه رأيهم ، فقال :

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ .

والجب : الحفرة العميقة فى الأرض ، وغيابة الجب : أى : ألقوه فى موضع مظلم من الجب حتى لايراه أحد .

والسيارة : جمع سيار ، والمراد بهم جماعة المسافرين الذين يبالغون فى السير لكى يصلوا إلى مقصودهم .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ١٢ ص١٧١ .

والمعنى : قال قائل من إخوة يوسف ، أفزعه ما هم مقدمون عليه بشأن أخيهم الصغير : لاتقتلوا يوسف ، لأن قتله جرم عظيم ، وبدلا من ذلك ، ألقوه فى قعر الجب حيث يغيب خبره ، إلى أن يلتقطه من الجب بعض المسافرين ، فيذهب به إلى ناحية بعيدة عنكم ، وبذلك تستريحون منه ويخلو لكم وجه أبيكم .

ولم يعين القرآن اسم هذا القائل أو صفته ، لأنه لايتعلق بذكر ذلك غرض ، وقد رجح بعض المفسرين ، أن المراد بهذا القائل : «يهوذا» .

والفائدة فى وصفه بأنه منهم : الإخبار بأنهم لم يجمعوا على قتله أو إلقائه فى أرض بعيدة حتى يدركه الموت .

وجواب الشرط فى قوله : ﴿ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ ، محذوف لدلالة قوله : ﴿ وأَلْقُوهُ ﴾ عليه .

أى : إن كنتم فاعلين ما هو خير وصواب ، فألقوه فى غيابة الجب ، ولاتقتلوه ولاتطرحوه أرضا .

وفى هذه الجملة من هذا القائل ، محاولة منه لتثبيطهم عما اقترحوه من القتل أو التغريب بأسلوب حكيم ، حيث فوض الأمر إليهم تعظيما لهم ، وحذرا من سوء ظنهم به .

قالوا : وفى هذا الرأى عبرة وحكمة وسلامة تفكير ، حيث إن صاحبه نهى إخوته عن الإفراط فى الانتقام ، والاكتفاء بما يحصل به الغرض ، وهو إبعاد يوسف عن وجه أبيهم ، وهذا الإبعاد يتم عن طريق إلقائه فى غيابة الجب .

١٤ - ثم حكى - سبحانه - محاولات هؤلاء الإخوة مع أبيهم ، ليأذن لهم بخروج يوسف معهم فقال : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ . أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

أى : قال أخوة يوسف لأبيهم محاولين استرضاءه لاستصحاب يوسف معهم : يا أبانا أى شىء جعلك لاتأمنا على أخينا يوسف فى خروجه معنا؟ والحال أننا نخلص له النصيحة ، فهو أخونا ونحن لانريد له إلا الخير الخالص ، والود الصالح .

ثم أضافوا إلى ذلك قولهم : ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾ والرتع والرتوع : هو الاتساع فى الملاذ والتنعم فى العيش ، يقال : رتع الانسان فى النعمة إذا أكل مايطيب له ، ورتعت الدابة إذا أكلت حتى شبعت .

والمراد باللعب هنا : الاستجمام ورفع السآمة ، كالجرى والتسابق وما يشبههما ، أى : أرسل يا أبانا معنا أخانا ليتسع فى أكل الفواكه ونحوها ، وليدفع السآمة عن نفسه ، عن طريق القفز والجرى والتسابق معنا ، وإنا لحافظون له كل الحفظ من أن يصيبه أذى أو مكروه .

وهو أسلوب يبدو فيه الإلحاح الشديد على أبيهم ، لإقناعه بما يريدون تنفيذه وتحقيقه من مآرب سيئة .

١٥ ـ ثم أخبر ـ سبحانه ـ عما رد به عليهم أبوهم فقال : ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ .

والحزن : الغم الحاصل لوقوع مكروه أو فقد محبوب ، والحزن : فزع النفس من مكروه يتوقع حصوله .

أى : قال يعقوب لأبنائه ردا على إلحاحهم فى طلب يوسف للذهاب معهم : يا أبنائى إننى ليحزننى حزنا شديدا فراق يوسف لى ، وفضلا عن ذلك فإننى أخشى إذا أخذتموه معكم فى رحلتكم أن يأكله الذئب ، وأنتم عنه غافلون بسبب اشتغالكم بشئون أنفسكم ، وقلة اهتمامكم برعايته وحفظه .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾ رد مؤكد من أخوة يوسف على تخوف أبيهم وتردده فى إرساله معهم .

أى : قال إخوة يوسف لأبيهم محاولين إدخال الطمأنينة على قلبه ، وإزالة الخوف والحزن عن نفسه ، يا أبانا والله لئن أكل الذئب يوسف وهو معنا ، ونحن عصابة من الرجال الأقوياء الحريصين على سلامته ، إنا إذا فى هذه الحالة لخاسرون خسارة عظيمة ، نستحق بسببها عدم الصلاح لأى شيء نافع .

١٦ ـ وأخيرا استسلم الأب ، لإلحاح أبنائه الكبار ، ليتحقق قدر الله الذى قدره على يوسف ، ولتسير قصة حياته فى الطريق الذى شاء الله ـ تعالى ـ لها أن تسير فيه .

وقد حكى القرآن ذلك بأسلوبه البليغ فقال : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ .

أى : فلما أقنعوا أباهم بإرسال يوسف معهم ، وذهبوا به فى الغد إلى حيث يريدون ، وأجمعوا أمرهم على أن يلقوا به فى الجب ، فعلوا به مافعلوه من الأذى ، ونفذوا مايريدون تنفيذه بدون رحمة أو شفقة ، وأوحينا إلى يوسف عند إلقائه فى الجب ، عن طريق

الإلهـام القلبى ، أو عن طريق جـبـريل ـ عليـه السـلام ـ أو عن طريق الرؤيا الصـالحـة ، لتخبـرنهم فى الوقت الذى يشـاؤه الله ـ تعالى ـ فى مسـتقبل الأيام ، بما فعلوه معك فى صغرك ، من إلقائك فى الجب ، ومن إنجاء الله ـ تعالى ـ لك .

فالمراد بأمرهم هذا : إيذاؤهم له ، وإلقاؤهم إياه فى قعر الجب ، ولم يصرح ـ سبحانه ـ به لشدة شناعته .

وجملة ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ حالية ، أى : والحال أنهم لايحسون بذلك ، ولا يشعرون فى ذلك الوقت الذى تخبرهم فيه بأمرهم هذا ، بأنك أنت يوسف ، لاعتقادهم أنك قد هلكت ، ولطول المدة التى حصل فيها الفراق بينك وبينهم ، ولتباين حالك وحالهم فى ذلك الوقت ، فأنت ستكون الأمين على خزائن الأرض ، وهم سيقدمون عليك فقراء ، يطلبون عونك ورفدك .

وقد تحقق كل ذلك ـ كما سيأتى ـ عند تفسير قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ . . ﴾ .

وكان هذا الإيحاء ـ على الراجح ـ قبل أن يبلغ سن الحلم ، وقبل أن يكون نبيا ، فكان المقصود منه إدخال الطمأنينة على قلبه ، وتبشيره بما سيصير إليه أمره من عز وغنى وسلطان .

١٧ ـ ثم حكى ـ سبحانه ـ أقوالهم لأبيهم بعد أن فعلوا فعلتهم وعادوا إليه ليلا يبكون فقال :

﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ . قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ .

والعشاء : وقت غيبوبة الشفق الباقى من شعاع الشمس ، وبدء حلول الظلام .

والمراد بالبكاء هنا : البكاء المصطنع للتمويه والخداع لأبيهم ، حتى يقنعوه ـ فى زعمهم ـ أنهم لم يقصروا فى حق أخيهم .

أى : وجاءوا أباهم بعد أن أقبل الليل بظلامه يتبـاكون ، متظاهرين بالحزن والأسى لما حدث ليوسف ، وفى الأمثال : «دموع الفاجر بيديه» .

قـالوا : يا أبانا ذهبنا نتسـابق ، عن طريق الرمى بالسـهـام ، وتركنا أخـانا يوسف عند الأشياء التى نتمتع بها فى رحلتنا كالثياب ، والأطعمة ، وما يشبه ذلك ، فأكله الذئب دون أن يبقى منه شيئا ، وما أنت ـ يا أبانا ـ بمصدق لنا فيما أخبرناك به من أن يوسف قد أكله الذئب ، حتى ولو كنا صادقين فى ذلك ، لسوء ظنك بنا ، وشدة محبتك له .

وهذه الجملة توحى بكذبهم على أبيهم ، وبمخادعتهم له ، ويكاد المريب أن يقول : خذونى - كما يقولون - .

ولم يكتف أخوة يوسف بهذا التباكى بل أضافوا إلى ذلك تمويها آخر ، حكاه القرآن فى قوله : ﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ .

أى : وبعد أن ألقوا بيوسف فى الجب ، واحتفظوا بقميصه معهم ، وضعوا على هذا القميص دما مصطنعا ليس من جسم يوسف ، وإنما من جسم شىء آخر ، قد يكون ظبيا وقد يكون خلافه .

وأدرك يعقوب - عليه السلام - من قسمات وجوههم ، ومن دلائل حالهم ، ومن نداء قلبه المفجوع ، أن يوسف لم يأكله الذئب ، وأن هؤلاء المتباكين هم الذين دبروا له مكيدة ما ، وأنهم قد اصطعنوا هذه الحيلة المكشوفة مخادعة له ، ولذا جابههم بقوله :

﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ .

أى : قال يعقوب لأبنائه بأسى ولوعة بعد أن فعلوا ما فعلوا وقالوا ما قالوه : قال لهم : ليس الأمر كما زعمتم من أن يوسف قد أكله الذئب ، وإنما الحق أن نفوسكم الحاقدة عليه ، هى التى زينت لكم أن تفعلوا معه فعلا سيئا قبيحا ، ستكشف الأيام عنه بإذن ربى ومشيئته ، وسأصبر على فعلكم هذا صبرا جميلا ، لاشكوى معه لأحد سوى الله - عز وجل - ولا رجاء إلا منه - سبحانه - ، فهو الذى أستعين به على احتمال ما تصفون من أن ابنى يوسف قد أكله الذئب ، وهو وحده الكفيل بإظهار الحقائق ، وكشف المستور ، ولقائى بيوسف فى الوقت الذى يشاؤه - سبحانه - .

قال الإمام القرطبى : «وقد استدل الفقهاء بهذه الآية فى إعمال الأمارات والعلامات ، فى مسائل من الفقه كالقسامة وغيرها ، وأجمعوا على أن يعقوب قد استدل على كذب أبنائه بصحة القميص ، وهكذا يجب على الحاكم أن يلحظ الأمارات والعلامات . .» .(١)

وقال الآلوسى : «أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة : أن إخوة يوسف بعد أن ألقوا به فى الجب ، أخذوا ظبيا فذبحوه ، ولطخوا بدمه قميصه ، ولما جاءوا به إلى أبيهم جعل يقلبه ويقول : تا الله ما رأيت كاليوم ذئبا أحلم من هذا الذئب!! أكل ابنى ولم يمزق عليه قميصه» .(٢)

---

(١) تفسير القرطبى جـ٩ ص١٥٠

(٢) تفسير الآلوسى : جـ١٢ ص١٧٩ .

وإلى هنا نجد الآيات الكريمة ، قد حكت لنا بأسلوبها البليغ ، وتصويرها المؤثر ، ما تآمر به إخوة يوسف عليه ، وما اقترحوه لتنفيذ مكرهم ، وما قاله لهم أوسطهم عقلا ، ورأيا ، وما تحايلوا به على أبيهم لكى يصلوا إلى مآربهم ، وما رد به عليهم أبوهم ، وما قالوه له بعد أن نفذوا جريمتهم فى أخيهم ، بأن ألقوا به فى الجب ، وما رد به أبوهم عليهم .

٣ـ انتشال يوسف من الجب وبيعه بثمن بخس ـ دراهم معدودة ـ

١٨ ـ ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك ، لتقص علينا مرحلة أخرى من مراحل حياة يوسف ـ عليه السلام ـ حيث حدثتنا عن انتشاله من الجب ، وعن بيعه بثمن قليل ، دراهم معدودة ، وعن وصية الذى اشتراه لامرأته ، وعن مظاهر رعاية الله ـ تعالى ـ له ، فقال ـ سبحانه ـ :

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

١٩ ـ فقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ . . ﴾ ، شروع فى الحديث عما جرى ليوسف من أحداث بعد أن ألقى به إخوته فى الجب ، والسيارة : جماعة المسافرين ، وكانوا ـ كما قيل ـ متجهين من بلاد الشام إلى مصر .

والوارد : هو الذى يرد الماء ليأخذ منه ما يحتاج إليه هو وغيره .

أى : وبعد أن ألقى إخوة يوسف به فى الجب ، وتركوه ، وانصرفوا لشأنهم ، جاءت إلى ذلك المكان قافلة من المسافرين ، فأرسلوا واردهم ليبحث لهم عن ماء ليشربوا

منه ، فوجد جبا فأدلى دلوه فيه ، فتعلق به يوسف ، فلما خرج ورآه فرح به ، وقال : يابشرى هذا غلام .

وأوقع النداء على البشرى : للتعبير عن ابتهاجه وسروره ، حتى لكأنها شخص عاقل يستحق النداء ، أى : يا بشارتى أقبلى فهذا أوان إقبالك .

والضمير المنصوب فى قوله تعالى : ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾ يعود إلى يوسف ، أما الضمير المرفوع فيعود ـ على الراجح ـ إلى السيارة وهم جماعة المسافرين ، وأسر من الإسرار الذى هو الإخفاء .

والمعنى : وأخفى جماعة المسافرين خبر التقاط يوسف من الجب ، مخافة أن يطلبه أحد من السكان المجاورين للجب ، واعتبروه بضاعة خفية لهم ، وعزموا على بيعه على أنه من العبيد الأرقاء ، ولعل يوسف قد أخبرهم بقصته بعد إخراجه من الجب ، ولكنهم لم يلتفتوا إلى ما أخبرهم به طمعا فى بيعه وفى الانتفاع بثمنه .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أى : والله ـ تعالى ـ لايخفى عليه شىء من إسرارهم وإخفائهم ومن عملهم السيىء في حق يوسف ، حيث أنهم استرقوه وباعوه بثمن بخس ، وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ـ كما جاء فى الحديث الصحيح ـ فهو نبى ، وأبوه يعقوب نبى ، وجده إسحاق نبى ، وجد أبيه وهو إبراهيم ـ عليه السلام ـ نبى .

٢٠ ـ وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ ، بيان لما فعله جماعة المسافرين بيوسف بعد أن أسروه بضاعة .

والمعنى : أن هؤلاء المسافرين بعد أن أخذوا يوسف ليجعلوه عرضا من عروض تجارتهم ، باعوه فى الأسواق بثمن قليل تافه ، وهو عبارة عن دراهم معدودة ، وكان هؤلاء المسافرون الذى باعوا يوسف بثمن قليل ، من الزاهدين فى بقائه معهم ، والراغبين فى التخلص منه بأقل ثمن قبل أن يظهر من يطالبهم به .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا . .﴾ ، بيان لبعض مظاهر رعاية الله ليوسف ـ عليه السلام ـ .

والذى اشتراه ، قالوا إنه كان رئيس الشرطة لملك مصر فى ذلك الوقت ، ولقبه القرآن بالعزيز ـ كما سيأتى فى قوله تعالى : ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ . .﴾ .

أى : وقال الرجل المصرى الذى اشترى يوسف لزوجته «زليخا» : اجعلى محل إقامة يوسف كريما ، وأنزليه منزلا حسنا مرضيا ، وتفقديه بالإحسان إليه .

فقوله تعالى : ﴿ مَثْوَاهُ ﴾ من المثوى وهو مكان الإقامة والاستقرار ، يقال ثوى فلان بمكان كذا ، إذا أقام به ، ومنه قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ . . ﴾ أى : وما كنت مقيما فيهم .

وقوله : ﴿ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا . . ﴾ ، بيان لسبب أمره لها بإكرام مثواه أى : عسى هذا الغلام أن ينفعنا فى قضاء مصالحنا ، وفى مختلف شئوننا ، أو نتبناه فيكون منا بمنزلة الولد ، فإنى أرى فيه علامات الرشد والنجابة ، وإمارات الأدب وحسن الخلق .

قالوا : وهذه الجملة الكريمة ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا . . ﴾ ، توحى بأنهما لم يكن عندهما أولاد .

ثم بين ـ سبحانه ـ نعما أخرى أنعم بها على يوسف ـ عليه السلام ـ فقال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

أى : ومثل ذلك التمكين البديع الدال على رعايتنا له ، مكنا ليوسف فى أرض مصر ، حتى صار أهلا للأمر والنهى فيها ، وفعلنا ذلك التمكين له ، لنعلمه من تأويل الأحاديث ، بأن نهبه من صدق اليقين ، واستنارة العقل ، مايجعله يدرك معنى الكلام إدراكا سليما ، ويفسر الرؤى تفسيرا صحيحا صادقا ، والله ـ تعالى ـ متمم ما قدره وأراده ، لايمنعه من ذلك مانع ، ولاينازعه منازع ، ولكن أكثر الناس لايعلمون ذلك حق العلم فيما يأتون ويذرون من أقوال وأفعال .

والتعبير بقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ احتراس لإنصاف ومدح القلة من الناس الذين يعطيهم الله من فضله ، مايجعلهم لايندرجون فى الكثرة التى لاتعلم ، بل هو ـ سبحانه ـ يعطيهم من فضله مايجعلهم يعلمون مالا يعلمه غيرهم .

٢١ ـ ثم بين ـ سبحانه ـ مظهرا آخر من مظاهر إنعامه على يوسف فقال : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

والأشد : قوة الإنسان ، وبلوغه النهاية فى ذلك ، مأخوذ من الشدة بمعنى القوة والارتفاع .

أى : وحين بلغ يوسف ـ عليه السلام ـ منتهى شدته وقوته ، أعطيناه بفضلنا وإحساننا حكمة تجعله موفقا فى قوله وعمله ، وعلما نافعا ، وفهما سليما لشئون الدين والدنيا ، بمثل ذلك الجزاء الحسن والعطاء الكريم ، نعطى ونجازى المحسنين الذين يحسنون أداء ما كلفهم الله ـ تعالى ـ به ، فكل من أحسن فى أقواله وأعماله أحسن الله ـ سبحانه ـ جزاءه .

٤ـ تعرض يوسف ـ عليه السلام ـ للفتن بعد أن بلغ أشده

٢٢ ـ بعد أن حدثتنا السورة الكريمة عن شراء عزيز مصر ليوسف ، وعن وصيته لامرأته بإكرام مثواه . . انتقلت السورة لتحدثنا عن مرحلة من أدق المراحل وأخطرها فى حياة يوسف ـ عليه السلام ـ وهى مرحلة التعرض للفتن والمؤامرات بعد أن بلغ أشده وآتاه الله حكما وعلما ، وقد واجه يوسف ـ عليه السلام ـ هذه الفتن بقلب سليم ، وخلق قويم ، فنجاه الله ـ تعالى ـ منها .

استمع إلى السورة الكريمة وهى تحكى بأسلوبها ما فعلته امرأة العزيز من ترغيب وترهيب ، وإغراء وتهديد . . فتقول :

﴿وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾

٢٣ ـ وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ . . ﴾ رجوع إلى شرح ما جرى ليوسف فى منزل العزيز بعد أن أمر امرأته بإكرام مثواه ، وما كان من حال تلك المرأة مع يوسف ، وكيف أنها نظرت إليه بعين تخالف العين التى نظر بها إليه زوجها .

والمراودة ـ كما يقول صاحب الكشاف ـ مفاعلة من راد يرود إذا جاء وذهب ، كأن المعنى : خادعته عن نفسه ، أى : فعلت معه مايفعله المخادع لصاحبه عن الشىء الذى لا يريد أن يخرجه من يده ، يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه .

والتعبير عن حالها معه بالمراودة المقتضية لتكرار المحاولة : للإشعار بأنه كان منها الطلب المستمر ، المصحوب بالإغراء والترفق والتحايل على ما تشتهيه منه بشتى الوسائل والحيل ، وكان منه ـ عليه السلام ـ الإباء والامتناع عما تريده خوفا من الله ـ تعالى ـ .

وقال ـ سبحانه ـ دون ذكر لاسمها : ﴿ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا ﴾ ، سترا لها ، وابتعادا عن التشهير بها ، وهذا من الأدب السامى الذى التزمه القرآن الكريم فى تعبيراته وأساليبه ، حتى يتأسى أتباعه بهذا اللون من الأدب فى التعبير .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ ﴾ أى : أنها أحكمت إغلاق جميع الأبواب الموصلة إلى المكان الذى راودته فيه عن نفسه ، زيادة فى حمله على الاستجابة لها .

ثم أضافت إلى كل تلك المغريات أنها قالت له : ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ ، أى : هأنذا مهيئة لك فأسرع فى الإقبال نحوى .

وهذه الدعوة السافرة منها له ، تدل على أن تلك المرأة كانت قد بلغت النهاية فى الكشف عن رغبتها ، وأنها قد خرجت عن المألوف من بنات جنسها ، فقد جرت العادة أن تكون المرأة مطلوبة لا طالبة .

و ﴿ هَيْتَ ﴾ ، اسم فعل أمر بمعنى أقبل وأسرع ، فهى كلمة حض وحث وتحريض على الفعل .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ ، بيان لما رد به يوسف عليها ، بعد أن تجاوزت فى إثارته كل حد .

والضمير فى قوله : ﴿ إِنَّهُ رَبِّي ﴾ يعود على الله ـ عز وجل ـ فيكون لفظ ربى بمعنى خالقى ، أى : قال يوسف فى الرد عليها : معاذ الله وأعتصم به من أن أفعل الفحشاء والمنكر ، بعد أن أكرمنى الله ـ تعالى ـ بما أكرمنى به من النجاة من الجب ، ومن تهيئة الأسباب التى جعلتنى أعيش معززا مكرما ، وإذا كان ـ سبحانه ـ قد حبانى كل هذه النعم فكيف أرتكب ما يغضبه؟ لا ثم لا ، لن أفعل ما يغضبه ـ سبحانه ـ لأن من يفعل ما يغضب الله ـ تعالى ـ يكن من الخاسرين .

وجوز بعضهم عودة الضمير فى ﴿إِنَّهُ﴾ إلى زوجها، فيكون المعنى : قال يوسف فى رده عليها : معاذ الله أن أخون زوجك الذى اشترانى بماله فى شرفه، وأن أعتدى على عرضه بعد أن أمرك بإكرامى .

وفى هذه الجملة تذكير لها بألطف أسلوب بحقوق الله ـ تعالى ـ وبحقوق زوجها، وتنبيه لها إلى وجوب الإقلاع عما تريده منه .

وجملة : ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾، تعليل آخر لصدها عما تريده منه .

أى : إن كل من ارتكب مانهى الله عنه، تكون عاقبته الخيبة والخسران، وعدم الفلاح والظفر وإدراك المأمول فى الدنيا والآخرة .

والمتأمل فى هذه الآية الكريمة : يرى أن القرآن الكريم قد قابل دواعى الغواية الثلاث التى جاهرت بها امرأة العزيز والمتمثلة فى المراودة، وتغليق الأبواب، وقولها : ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، بدواعى العفاف الثلاث التى رد بها عليها يوسف، والمتمثلة فى قوله ـ تعالى ـ حكاية عنه ـ : ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾، وذلك ليثبت أن الاعتصام بالعفاف والشرف والأمانة، كان سلاح يوسف ـ عليه السلام ـ فى تلك المعركة العنيفة بين نداء العقل ونداء الشهوة .

٢٤ ـ ولكن نداء العقل والعفاف، ونداء الشهوة الجامحة، لم ينته عند هذا الحد، بل نرى القرآن الكريم يحكى لنا صداما آخر بينهما فيقول : ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ..﴾ .

وهذه الآية الكريمة خلط المفسرون لها بين الأقوال الصحيحة والأقوال السقيمة خلطا كبيرا، وسنكتفى هنا بذكر الرأى الذى تطمئن إليه نفوسنا، ونطرح ما عداه من الآراء التى لانرتاح إليها فنقول وبالله التوفيق .

الهم : المقاربة من الفعل من غير دخول فيه، تقول : هممت بفعل هذا الشىء إذا أقبلت نفسك عليه دون أن تفعله .

وقال بعض العلماء : الهم نوعان : هم ثابت معه عزم وعقد ورضا، وهو مذموم مؤاخذ به صاحبه، وهم بمعنى خاطر وحديث نفسى من غير تصميم، وهو غير مؤاخذ به صاحبه، لأن المناهى فى الصدور، وتصورها فى الأذهان، لامؤاخذة بها مالم توجد فى الأعيان .

أخرج الشيخان ـ البخارى ومسلم ـ عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ أنه قال : «إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها، مالم تتكلم به أو تعمل به» .

وقد أجمع العلماء على أن هم امرأة العزيز بيوسف كان هما بمعصية ، وكان مقرونا بالعزم والجزم والقصد ، بدليل المراودة ، وتغليق الأبواب ، وقولها له : ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ .

كما أجمعوا على أن يوسف ـ عليه السلام ـ لم يأت بفاحشة ، وأن همه كان مجرد خاطرة قلب بمقتضى الطبيعة البشرية ، من غير جزم أو عزم ، وهذا اللون من الهم لايدخل تحت التكليف ، ولايخل بمقام النبوة ، كالصائم يرى الماء البارد فى اليوم الشديد الحرارة ، فتميل نفسه إليه ، ولكن دينه يمنعه من الشرب منه فلا يؤاخذ بهذا الميل .

والمراد ببرهان ربه : ما غرسه الله ـ تعالى ـ فى قلبه من العلم المصحوب بالعمل ، بأن هذا الفعل الذى دعته إليه امرأة العزيز قبيح ، ولايليق به .

أو هو ـ كما قال الإمام ابن جرير ـ : «رؤيته من آيات الله ما زجره عما كان هم به» .

والمعنى : ولقد قصدت امرأة العزيز من يوسف قصدا جازما ، أن يطاوعها فى فعل ما نهى الله ـ تعالى ـ عنه ، بعد أن أغرته بشتى الوسائل ، وهم يوسف ـ عليه السلام ـ بأن يطاوعها بمقتضى طبيعته البشرية ، وما ركب فيها من شهوات ، ولكنه استطاع بسبب خشيته من ربه أن يقاوم هذه الشهوات ، وأن يكبحها ، وأن يتغلب عليها ، وأن يقف بنفسه عند حدود الله ـ تعالى ـ فلايتجاوزها .

فالمراد ببرهان ربه : مراقبته لخالقه ، وخوفه منه ، ووقوفه عند حدوده ، هذا هو الرأى الذى نختاره فى معنى هذه الآية الكريمة ، وقد استخلصناه من أقوال المفسرين القدامى والمحدثين .

فمن المفسرين القدامى الذين ذكروا هذا الرأى : صاحب الكشاف ـ رحمه الله ـ فقد قال ما ملخصه : وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾ معناه : ولقد همت بمخالطته ، ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ ، أى : وهم بمخالطتها ، وقوله : ﴿ لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ .. ﴾ جوابه محذوف تقديره لولا أن رأى برهان ربه لخالطها ، فحذف لأن قوله ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ يدل عليه ، كقولك : هممت بقتله لولا أنى خفت الله ، إذ معناه : لولا أنى خفت الله لقتلته .

فإن قلت : كيف جاز على نبى الله أن يكون منه هم بالمعصية؟ .

قلت : المراد أن نفسه مالت إلى المخالطة ، ونازعت إليها عن شهوة الشباب ، ميلا يشبه الهم به ، وكما تقتضيه تلك الحال التى تكاد تذهب بالعقول والعزائم ، وهو يكسر ما به ، ويرده بالنظر فى برهان الله المأخوذ على المكلفين بوجوب اجتناب المحارم ، ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى هما لشدته ، لما كان صاحبه ممدوحا عند الله بالامتناع ، لأن استعظام الصبر على الابتلاء ، على حسب عظم الابتلاء وشدته ، ولو كان همه كهمها عن عزيمة ، لمامدحه الله ـ تعالى ـ بأنه من عباده المخلصين . (١)

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص٣١١ .

ومن المفسرين المحدثين الذين ذكروا هذا الرأى الإمام الآلوسى فقد قال ـ رحمه الله ـ وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾ أى قصدت المخالطة وعزمت عليها عزما جازما ، لايلويها عنها صارف بعدما باشرت مباديها .

﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ ، أى : مال إلى مخالطتها بمقتضى الطبيعة البشرية ، ومثل ذلك لايكاد يدخل تحت التكليف ، وليس المراد أنه قصدها قصدا اختياريا ، لأن ذلك أمر مذموم تنادى الآيات بعدم اتصافه به ، وإنما عبر عنه بالهم لمجرد وقوعه فى صحبة همها ، فى الذكر على سبيل المشاكلة لا لشبهه به .

وقوله : ﴿ لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ . . ﴾ ، أى : محبته الباهرة الدالة على كمال قبح الزنا وسوء سبيله ، والمراد برؤيته له ، كمال إيقانه به ، ومشاهدته له مشاهدة وصلت إلى مرتبة عين اليقين .(1)

هذا ، وهناك آراء أخرى ـ فى معنى الآية ـ رأينا أن نضرب عنها صفحا ، لأنه لا دليل عليها لا من النقل ولا من العقل ولا من اللغة ، وإنما هى من الأوهام الإسرائيلية التى تتنافى مع أخلاق عباد الله المخلصين ، الذين على رأسهم يوسف ـ عليه السلام ـ .

وقوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ ، بيان لمظهر من مظاهر رحمة الله ـ تعالى ـ به ، ورعايته له .

والكاف : نعت لمصدر محذوف ، والإشارة بذلك تعود إلى الإراءة المدلول عليها بقوله تعالى : ﴿ لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ . . ﴾ ، أو إلى التثبيت المفهوم من ذلك .

والصرف : نقل الشىء من مكان إلى مكان ، والمراد به هنا : الحفظ من الوقوع فيما نهى الله ـ تعالى ـ عنه .

أى : أريناه مثل هذه الإراءة ، أو ثبتناه تثبيتا مثل هذا التثبيت ، لنعصمه ونحفظه ونصونه عن الوقوع فى السوء والفحشاء ، لأن يوسف ـ عليه السلام ـ من عبادنا الذين أخلصوا دينهم لنا .

٢٥ ـ ثم حكى ـ سبحانه ـ ما كان من يوسف وامرأة العزيز بعد ذلك فقال : ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ ﴾ ، أى : وتسابقا هو وهى نحو الباب الخارجى للبيت .

---

(1) تفسير الآلوسى : جـ١٢ ص١٩١ .

وسبب تسابقهما : أن يوسف ـ عليه السلام ـ أسرع بالفرار من أمامها إلى الباب هروبا منها بعد أن طلبت منه ارتكاب الفاحشة ، وهى أسرعت خلفه لتمنعه من الوصول إلى الباب ومن الخروج منه .

وجملة : ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ ﴾ حالية ، والقد : القطع والشق ، وأكثر استعماله فى الشق والقطع الذى يكون طولا ، وهو المراد هنا ، لأن الغالب أنها جذبته من الخلف وهو يجرى أمامها فانخرق القميص إلى أسفله .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ﴾ ، أى : ووجدا وصادفا زوجها عند الباب الذى تسابقا وتدافعا للوصول إليه .

قالوا : والتعبير عن الزوج بالسيد ، يبدو أنه كان عادة من عادات القوم فى ذلك الوقت ، فعبر عنه القرآن بذلك حكاية لدقائق ما كان متبعا فى التاريخ القديم .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ، حكاية لما قالته لزوجها عندما فوجئت به عند الباب وهى تسرع وراء يوسف .

أى : قالت تلك المرأة لزوجها ، عندما فوجئت به لدى الباب : إن الجزاء العادل ، والعقاب المناسب لمن أراد بأهلك ـ تعنى نفسها ـ سوءا ـ أى : فاحشة تسوءك ـ هذا العقاب أو الجزاء يكون بالإلقاء به فى السجن ، أو بإنزال العذاب الأليم به ، عن طريق الضرب الشديد ، أو الجلد الموجع ، لتجاوزه الحدود ، واعتدائه على أهلك ، وهذا القول الذي حكاه القرآن عنها ، يدل على أن تلك المرأة كانت فى نهاية المكر والدهاء ، والتحكم فى إرادة زوجها .

ورحم الله الإمام الآلوسى ، فقد علق على قولها هذا الذى حكاه القرآن عنها بقوله : «ولقد أتت تلك المرأة ـ فى هذه الحالة التى يدهش فيها الفطن اللوذعى حيث شاهدها زوجها وهى على تلك الحالة المريبة ـ أتت بحيلة جمعت فيها غرضيها وهما : تبرئة ساحتها مما يلوح من ظاهر حالها ، واستنزال يوسف عن رأيه فى استعصائه عليها ، وعدم طاعته لها ، بإلقاء الرعب فى قلبه .

ولم تصرح بالاسم بأن تقول ـ مثلا ـ : ما جزاء يوسف الذى أراد بأهلك سوءا ، بل أتت بلفظ عام ، تهويلا للأمر ، ومبالغة فى التخويف ، كأن ذلك قانون مطرد فى حق كل من أراد بأهله سوءا .

ثم إن حبها ليوسف حملها على أن تبدأ العقوبة بذكر السجن ، وتؤخر العذاب الأليم ، لأن المحب لايسعى فى إيلام المحبوب ، لاسيما أن قولها : ﴿ إِلاَّ أَن يُسْجَنَ .. ﴾ ، قد يكون المراد منه السجن لمدة يوم أو يومين . .»[1]

---

(١) تفسير الآلوسى : جـ١٢ ص١٩٥ .

والحق أن هذه الجملة الكريمة ، التى حكاها القرآن عن تلك المرأة ، تدل على اكتمال قدرتها على المكر ، والدهاء ، ومن مظاهر ذلك : محاولتها إيهام زوجها بأن يوسف - عليه السلام - قد اعتدى عليها بما يسوؤها ويسوءه ، ولكن بدون تصريح بهذا العدوان - شأن العاشق مع معشوقه - حتى لايسعى زوجها فى التخلص منه بالطريقة التى يراها . . وفى الوقت نفسه إفهام يوسف عن طريق مباشر ، بأن أمره بيدها لابيد زوجها ، وأنها هى الآمرة الناهية ، فعليه أن يخضع لما تريده منه ، وإلا فالسجن أو العذاب الأليم هو مصيره المحتوم .

٢٦ - وهنا نجد يوسف لايجد مفرا من الرد على هذا الاتهام الباطل فيقول : ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي . .﴾ ، أى : قال يوسف مدافعا عن نفسه : إنى ما أردت بها سوءا كما تزعم ، وإنما هى التى بالغت فى ترغيبى وإغرائى بارتكاب ما لايليق معها .

ثم قال - تعالى - : ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ، وهذا الشاهد ذهب بعضهم إلى أنه كان ابن خال لها ، وقيل : ابن عم لها ، وقيل : إنه كان صبيا فى المهد ، كما وردت بذلك بعض الآثار ، فقد أخرج ابن جرير والبيهقى والإمام أحمد فى مسنده ، عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ أنه قال : تكلم فى المهد أربعة وهم صغار : ابن ماشطة ابنة فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وعيسى ابن مريم .

وعلى أية حال فالآية الكريمة تدل دلالة واضحة على أن الله - تعالى - قد سخر فى تلك اللحظة الحرجة ، من يدلى بشهادته ، لتثبت براءة يوسف أمام العزيز ، وألقى الله - تعالى - هذه الشهادة على لسان من هو من أهلها ، لتكون أوجب للحجة عليها ، وأوثق لبراءة يوسف ، وأنفى للتهمة عنه .

وقد قال هذا الشاهد فى شهادته :إن كان قميص يوسف قد قطع من الأمام كانت تلك المرأة صادقة فى أن يوسف قد أراد بها سوءا ، لأن ذلك يدل على أنها دفعته عنها من الأمام وهو يريد الاعتداء عليها ، وكان هو من الكاذبين فى قوله : ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي . .﴾ .

وإن كان قميصه قُدَّ من الخلف ، كانت هى كاذبة فى دعواها أن يوسف أراد بها سوءا ،لأن ذلك يدل على أنه حاول الهرب منها ، فتعقبته حتى الباب ، وأمسكت به من الخلف ، وكان هو من الصادقين فى قوله : إنها راودته عن نفسه .

وقوله - سبحانه - : ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ ، بيان لما قاله زوجها بعد أن انكشفت له الحقيقة انكشافا تاما .

أى : فلما رأى العزيز قميص يوسف قد شق من الخلف ، وجه كلامه إلى زوجته معاتبا إياها بقوله : إن محاولتك اتهام يوسف بما هو برىء منه ، هو نوع من كيدكن ومكركن ، إن مكركن عظيم فى بابه ، لأن كثيرا من الرجال لايفطنون إلى مراميه .

وهكذا واجه ذلك الرجل خيانة زوجته له بهذا الأسلوب الهادئ الناعم ، بأن نسب كيدها ومكرها لا إليها وحدها ، بل إلى الجنس كله فقال : ﴿إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ﴾ . . ثم وجه كلامه إلى يوسف فقال له : ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ ، أى : يا يوسف أعرض عن هذا الأمر الذى دار بينك وبينها فاكتمه ، ولاتتحدث به خوفا من الفضيحة ، وحفاظا على كرامتى وكرامتها .

وقوله : ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ ، خطاب منه لزوجته التى ثبتت عليها الجريمة ثبوتا تاما .

أى : واستغفرى الله من ذنبك الذى وقع منك ، بسبب قصدك فعل السوء مع يوسف ، ثم اتهامك له بما هو برىء منه .

وجملة : ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ ، تعليل لطلب الاستغفار ، أى : توبى إلى الله مما حدث منك ، لأن ماحدث منك مع يوسف ، جعلك من جملة القوم المتعمدين لارتكاب الذنوب ، وجعلها من جملة الخاطئين للتخفيف عليها فى المؤاخذة .

وهكذا نجد هذا الرجل ـ صاحب المنصب الكبير ـ يعالج الجريمة التى تثور لها الدماء فى العروق ، وتستلزم حسما وحزما ، فى الأحكام ، بهذا الأسلوب الهادئ البارد ، شأن المترفين فى كل زمان ومكان ، الذين تهمهم ظواهر الأمور دون حقائقها ، وأشكالها دون جواهرها ، فهو يلوم امرأته لوما خفيفا يشبه المدح ، ثم يطلب من يوسف كتمان الأمر ، ثم يطلب منها التوبة من ذنوبها المتعمدة ، ثم تستمر الأمور بعد ذلك على ماهى عليه من بقاء يوسف معها فى بيتها ، بعد أن كان منها معه مايستلزم عدم اجتماعهما .

٢٧ ـ هذا ، ومن العبر والعظات والأحكام التى نأخذها من هذه الآيات الكريمة ما يأتى :

(أ) أن اختلاط الرجال بالنساء بطريقة تأباها الشرائع السماوية ، وتأباها ـ أيضا ـ مكارم الأخلاق ، كثيرا مايؤدى إلى الوقوع فى الفاحشة ، وذلك لأن ميل الرجل إلى المرأة أمر طبيعى ، وما بالذات لايتغير .

ووجود يوسف ـ عليه السلام ـ مع امرأة العزيز تحت سقف واحد فى سن كانت هى فيها مكتملة الأنوثة ، وكان هو فيها فتى شابا جميلا ، أدى إلى فتنتها به ، وإلى أن تقول له فى نهاية الأمر : ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ ، أى : إنى قد هيأت نفسى لك .

ولاشك أن من الأسباب الأساسية التى جعلتها تقول هذا القول العجيب ، وجودهما لفترة طويلة تحت سقف واحد .

لذا حرمت شريعة الإسلام تحريما قاطعا الخلوة بالأجنبية ، سدا لباب الوقوع فى الفتن ، ومنعا من تهيئة الوسائل للوقوع فى الفاحشة .

ومن الأحاديث التى وردت فى ذلك : ما أخرجه الشيخان عن عقبة بن عامر ، أن رسول الله ﷺ قال : «إياكم والدخول على النساء ، فقال رجل من الأنصار : أفرأيت الحمو يا رسول الله؟ فقال ﷺ : الحمو الموت» والحمو هو قريب الزوج كأخيه وابن عمه ـ أى : أن دخول قريب الزوج بدون ضرورة شرعية على غير محارمه قد يؤدى إلى ارتكاب فاحشة تؤدى إلى قتله ، وقد قيل لامرأة كانت سيدة قومها ومع ذلك وقعت فى الفاحشة ، ما الذى حملك على ذلك وأنت كذا وكذا؟ فقال : حملنى على ذلك قرب الوساد ، وطول السواد ! أى : حملنى على ذلك قربى ممن أحبه ، وكثرة محادثتى له ، إذ السواد ـ بكسر السين ـ مصدر ساوده إذا أسر إليه بالحديث .

(ب) أن هم الإنسان بالفعل ، ثم رجوعه عنه قبل الدخول فى مرحلة التصميم والتنفيذ لامؤاخذة فيه .

قال القرطبى ـ رحمه الله ـ : الهم الذى هم به يوسف ، من نوع مايخطر فى النفس ، ولايثبت فى الصدر ، وهو الذى رفع الله فيه المؤاخذة عن الخلق ، إذ لا قدرة للمكلف على دفعه . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «قالت الملائكة يا ربنا ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة ، وهو ـ سبحانه ـ أبصر بعبده فقال : ارقبوه فإن عملها فاكتبوها له بمثلها ، وإن تركها فاكتبوها له حسنة . .»

وفى الحديث الصحيح : «إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ، مالم تعمل أو تتكلم به» .

(جـ) أن من الواجب على المؤمن إذا ما دعى إلى معصية أن يستعيذ بالله من ذلك ، وأن يذكر الداعى له بضررها ، وبسوء عاقبة المرتكب لها ، كما قال يوسف ـ عليه السلام ـ : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

(د) أن يوسف ـ عليه السلام ـ قد خرج من هذه المحنة مشهودا له بالبراءة ونقاء العرض ، من الله ـ تعالى ـ ومن خلقه الذين سخرهم لهذه الشهادة .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : واعلم أن الذين لهم تعلق بهذه الواقعة يوسف ـ عليه السلام ـ ، وتلك المرأة ، وزوجها ، ورب العالمين ، والكل شهد ببراءة يوسف عن المعصية .

أما يوسف فقد قال : ﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي . . ﴾ ، وقال : ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ

مِـمَّا يَدْعُـونَنِي إِلَيْـهِ﴾ ، وأمـا امـرأة العـزيز فـقـد قـالـت : ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِـهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ، وأما زوجها فقد قال : ﴿إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ .

وأما شـهـادة رب العـالمين ببـراءته ، ففى قوله ـ تعالى ـ : ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ . (١)

(هـ) أن موقف العزيز من امرأته كان موقفا ضعيفا متراخيا ، وهذا الموقف هو الذى جعل تلك المرأة المتحكمـة فى زمام زوجـها ، تقول بعد ذلك بكل تبجح وتكشف واستـهـتـار : ﴿وَلَقَـدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِـهِ فَـاسْتَـعْـصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْـعَلْ مَـا آمُرُهُ لَيُـسْـجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ .

(و) أن القـرآن الكريم قد صـور تلك المحنة فى حيـاة يوسف وامرأة العزيز تصـويرا واقعـيا صادقا ، ولكن بأسلوب حكيم ، وبطريقة عفة مهذبة ، بعيدة مما يخدش الحياء ، أو يجرح الشعور ، ولم تأخذ تلك الواقعة من قصة يوسف الطويلة ، سوى حجمها المناسب ، فهى لم تأخذ سوى بضع آيات ، من بين عشرات الآيات التى حكاها القرآن عن قصة يوسف ـ عليه السلام ـ وفى هذا العرض مافيه من عبرة وعظة ، لمن يسرفون وهم يتحدثون عن هذه الجوانب العاطفية ، التى يجب أن يكون الكلام عنها بقدر وحكمة .

(١) تفسير الفخر الرازى : جـ١٨ ص١١٦ .

٥ - يوسف يقول:

«رب السجن أحب إلىّ مما يدعوننى إليه»

٢٨ - ثم حكت السورة الكريمة بعد ذلك ما قالته بعض النساء ، بعد أن شاع خبر امرأة العزيز مع فتاها ، وما فعلته معهن من أفعال تدل على شدة مكرها ودهائها ، وما قاله يوسف - عليه السلام - بعد أن سمع ماسمع من تهديدهن وإغرائهن . . قال - تعالى - :

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾

٢٩ - وقوله - سبحانه - : ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسه . .﴾ ، حكاية لما تناقلته الألسنة عن امرأة العزيز ، فقد جرت العادة بين النساء أن يتحدثن عن أمثال هذه الأمور فى مجالسهن ، ولايكتمنها ، خصوصا إذا كانت صاحبة الحادثة من نساء الطبقة المرموقة ، كامرأة العزيز .

أى : وقال نسوة من نساء مدينة مصر ، على سبيل النقد والتشهير والتعجب : إن امرأة العزيز ، صاحبة المكانة العالية ، والمنزلة الرفيعة ، بلغ بها الحال فى انقيادها لهواها ، وفى خروجها عن طريق العفة ، أنها تراود فتاها عن نفسه ، أى : أنها تطلب منه موافقتها على ما تريده منه ، وتتخذ لبلوغ غرَضها شتى الوسائل والحيل .

ولم يبين لنا القرآن الكريم عدد هؤلاء النسوة ولا صفاتهن ، لأنه لايتعلق بذلك غرض نافع ، ولأ الذى يهدف إليه القرآن ، هو بيان أن ما حدث بين يوسف وامرأة العزيز ، قد شاع أمره بين عدد من النساء فى مدينة كبيرة كمصر .

وفى وصفها بأنها امرأة العزيز : زيادة فى التشهير بها ، فقد جرت العادة بين الناس ، بأن مايتعلق بأصحاب المناصب الرفيعة من أحداث ، يكون أكثر انتشارا بينهم ،وأشد فى النقد والتجريح .

وجملة : ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ ، بيان لحالها معه ، والمقصود بها تأكيد لومها وانقيادها لشهواتها ، ولفظ ﴿ شَغَفَ ﴾ مأخوذ من الشغاف ـ بكسر الشين ـ وهو غلاف القلب ، أو سويداؤه ، أو حجابه ، يقال : شغف الهوى قلب فلان شغفا ، إذا بلغ نهايته .

والمراد أن حبها إياه قد تمكن من قبلها تمكنا لامزيد عليه .

وجملة : ﴿ إِنَّا لَنرَاهَا فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ : مقررة لمضمون ما قبلها من لوم امرأة العزيز ، وتحقير سلوكها .

أى : إنا لنراها فى خطأ عظيم واضح ، بحيث لايخفى على العقلاء ، لأنها ـ وهى المرأة المرموقة وزوجة الرجل الكبير ـ تراود فتاها عن نفسه .

والتعبير بقولهن : ﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا . . ﴾ بصيغة التأكيد ، للإشعار بأن حكمهن عليها بالضلال ليس عن جهل ، وإنما هو عن علم وروية ، مع التلويح بأنهن يتنزهن عن مثل هذا السلوك الذي صدر عنها .

قال صاحب المنار : «وهن ما قلن ذلك إنكارا للمنكر ، وكرها للرذيلة ، ولا حبا فى المعروف ونصرا للفضيلة ، وإنما قلنه مكرا وحيلة ، ليصل إليها قولهن فيحملها على دعوتهن لرؤيته . . فهو مكر لا رأى» .(١)

٣٠ ـ وهنا تحكى لنا السورة الكريمة كيف قابلت تلك المرأة الداهية الجريئة ، مكر بنات جنسها وطبقتها بمكر أشد من مكرهن بها فقال ـ تعالى ـ : ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً . . ﴾ .

---

(١) تفسير المنار جـ١٢ ص٢٩١ .

أى : فلما سمعت امرأة العزيز بسوء مقالة هؤلاء النسوة فيها ، أرسلت إليهن ، ودعتهن إلى الحضور إليها فى دارها لتناول الطعام ، وهيأت لهن فى مجلس طعامها ما يتكئن عليه من الوسائد والنمارق وما يشبه ذلك ، مما يساعد على طول البقاء ، كما هى عادة المترفين عند تناول الطعام .

وبعد أن حضرن هذا المجلس ﴿ وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا . . ﴾ ليقطعن به ما يأكلنه من لحم وفاكهة ، مما يدل على أن الحضارة المادية كانت قد بلغت فى مصر شأوا بعيدا . .

بعد كل ذلك قالت ليوسف ـ عليه السلام ـ ﴿ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ﴾ ، أى : ادخل عليهن وهن على تلك الحالة من الأكل والاتكاء . . فامتثل لأمرها ودخل عليهن ، ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ .

أى : فلما دخل عليهن ورأين جماله الباهر ، أصابهن الدهش ، وجرحن أيديهن وخدشنها بالسكاكين التى بأيديهن دون أن يشعرن بذلك ، وقلن عندما شاهدن طلعة يوسف على سبيل التعجب : «ماهذا الذى نراه أمامنا بشرا كسائر البشر ، لتفوقه فى الحسن عنهم ، وإنما هو ملك كريم من الملائكة المقربين ، تمثل فى هذه الصورة البديعة التى تخلب الألباب» .

ووصفنه بذلك بناء على ما ركز فى الطباع من تشبيه ماهو مفرط فى الجمال والحسن بالملك ، وتشبيه ماهو شديد القبح والسوء بالشيطان .

٣١ ـ وهنا شعرت امرأة العزيز بانتصارها على هؤلاء النسوة ، فقالت لهن على سبيل التفاخر والتشفى ، وبدون استحياء أو تلميح : ﴿ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾ .

أى قالت لهن : إن كان الأمر كما قلتن : فذلك هو الملك الكريم الذى لمتننى فى حبى له ، وقلتن ما قلتن فى شأنى لافتتانى به ، والآن قد علمتن أنى معذورة فيما حدث منى معه . .

ثم جاهرت أمامهن بأنها قد أغرته وراودته عن نفسه فقال : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ .

أى : والله لقد راودته بشتى المغريات عن أن يستجيب لرغبتى ، فأبى وامتنع امتناعا شديدا عن الاستجابة لى .

ثم قالت أمامهن بعد ذلك فى تبجح واستهتار وتهديد : ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ .

أى : والله لئن لم يفعل يوسف ما أمرته به من الاستجابة لرغباتى ، ليكونن مصيره إلى السجن ، أو ليكونن من الأذلاء المهانين المقهورين .

وفى هذا التهديد مافيه من الدلالة على ثقتها من سلطانها على زوجها ، وأنه لا يستطيع أن يعصى لها أمرا ، مع أنه عزيز مصر .

٣٢ ـ ووصل إلى مسامع يوسف ـ عليه السلام ـ هذا التهديد السافر ، والإصرار على تنفيذ الشهوات الجامحة ، فلجأ إلى ربه مستجيرا به ، ومحتميا بحماه ، فقال : ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ .

أى : قال يوسف متضرعا إلى ربه : يا رب إن السجن الذى هددتنى به تلك المرأة ومن معها ، أحب إلىّ مما يدعوننى إليه من ارتكاب الفواحش معهن .

وقال : أحب إلىّ مما يدعوننى إليه ، ولم يقل : مما تدعونى إليه امرأة العزيز ، لأنهن جميعا كن مشتركات فى دعوته إلى الفاحشة بطريق مباشر أو غير مباشر ، بعد أن شاهدن هيئته وجماله ، وبعد أن سمعن ما قالته فى شأنه ربة الدار .

ثم اعترف يوسف ـ عليه السلام ـ بضعفه البشرى فقال : ويارب إن لم تصرف عنى كيدهن ومكرهن ، أصب إليهن ، أى : أمل إليهن ، وأستجب لإلحاحهن ، وأكن بسبب هذه المطاوعة لهن من الجاهلين السفهاء ، الذين يخضعون لأهوائهم وشهواتهم فيقعون فى القبائح والمنكرات .

وقد أجاب الله ـ تعالى ـ دعاء عبده يوسف ، فأنقذه من مكرهن فقال : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

أى : فاستجاب الله ـ تعالى ـ ليوسف دعاءه وضراعته ، فدفع عنه بلطفه وقدرته كيد هؤلاء النسوة ومكرهن ، بأن أدخل اليأس فى قلوبهن من الطمع فى استجابته لهن ، وبأن زاده ثباتا على ثباته ، وقوة على قوته ، فلم ينخدع بمكرهن ، ولم تلن له قناة أمام ترغيبهن أو ترهيبهن ، إنه ـ سبحانه ـ هو السميع لدعاء الداعين ، والمجيب لضراعة المخلصين ، العليم بأحوال القلوب ، وبما تنطوى عليه من خير أو شر .

قال الإمام ابن كثير : وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ . . ﴾

ذلك لأن يوسف ـ عليه السلام ـ عصمه الله عصمة عظيمة ، وحماه فامتنع منها أشد الامتناع ، واختار السجن على ذلك ، وهذا فى غاية مقامات الكمال ، لأنه مع شبابه ،

وجماله وكماله ، تدعوه سيدته ، وهى امرأة عزيز مصر ، وهى مع هذا فى غاية الجمال والمال والرياسة ، فيمتنع من ذلك ، ويختار السجن خوفا من الله ورجاء فى ثوابه .

ولهذا ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : «سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ، إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لاتعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله» .(١)

(١) تفسير ابن كثير جـ٤ ص٣١٣ .

٦ ـ يوسف ـ عليه السلام ـ لم يشغله السجن عن الدعوة إلى إخلاص العبادة لله ـ تعالى

٣٣ ـ ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك قصة دخول يوسف السجن مع ثبوت براءته مما نسب إليه ، وكيف أنه وهو فى السجن لم ينس الدعوة إلى عبادة الله ـ تعالى ـ وحده ، وترك عبادة ما سواه ، وكيف أنه أقام الأدلة على صحة مايدعو إليه ، وفسر لصاحبيه فى السجن رؤياهما تفسيرا صادقا صحيحا .

استمع إلى القرآن وهو يحكى كل ذلك بأسلوبه البليغ المؤثر فيقول :

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ

سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾

٣٤ ـ وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ ، بيان لما فعله العزيز وحاشيته مع يوسف ـ عليه السلام ـ بعد أن ثبتت براءته .

ولفظ «بدا» من البَداء ـ بفتح الباء ـ وهو ـ كما يقول الإمام الرازى ـ عبارة عن تغير الرأى عما كان عليه فى السابق .

والضمير فى «لهم» يعود إلى العزيز وأهل مشورته .

والمراد بالآيات : الحجج والبراهين الدالة على براءة يوسف ونزاهته ، كانشقاق قميصه من دبر ، وقول امرأة العزيز : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ ، وشهادة الشاهد بأن يوسف هو الصادق وهى الكاذبة .

والمعنى : ثم ظهر للعزيز وحاشيته ، من بعد ما رأوا الأدلة الواضحة على براءة يوسف ، وعلى طهارة عرضه ، وصدقه فى قوله ، بدا لهم بعد كل ذلك أن يغيروا رأيهم فى شأنه ، وأن يسجنوه فى المكان المعد لذلك إلى مدة غير معلومة من الزمان ، ولاشك أن الأمر بسجن يوسف ـ عليه السلام ـ كان بتأثير من امرأة العزيز ، تنفيذا لتهديداتها بعد أن صمم يوسف على عصيانها فيما تدعوه إليه ، فقد سبق أن حكى القران عنها قولها : ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ ، ولاشك ـ أيضا ـ أن هذا القرار بسجن يوسف يدل على أن امرأة العزيز كانت مالكة لقياد زوجها صاحب المنصب الكبير ، فهى تقوده حيث تريد كما يقود الرجل دابته .

ولقد عبر عن هذا المعنى صاحب الكشاف ـ رحمه الله ـ فقال ـ ما ملخصه ـ : قوله ـ تعالى ـ : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ .. ﴾ ، وهى الشواهد على براءته ، وما كان ذلك إلا باستنزال المرأة لزوجها ، وكان مطواعا لها ، وجملا ذلولا زمامه فى يدها ، حتى أنساه ذلك ما عاين من الآيات ، وعمل برأيها فى سجنه ، لإلحاق الصغار به كما أوعدته ، وذلك لما أيست من طاعته لها ، وطمعت فى أن يذلله السجن ويسخره لها . (١)

٣٥ ـ ثم بين ـ سبحانه ـ جانبا من أحواله بعد أن دخل السجن فقال : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ .. ﴾ .

ولفظ «فتيان» : تثنية فتى ، وهو الإنسان الذي جاوز الحلم ودخل في سن الشباب ، قالوا : وهذان الفتيان كان أحدهما : خبازا للملك وصاحب طعامه ، وكان الثانى ساقيا للملك وصاحب شرابه ، وقد أدخلهما الملك السجن لاتهامهما بالخيانة .

أى : بعد أن بدا للعزيز وحاشيته سجن يوسف ، نفذوا ما بدا لهم فسجنوه ، ودخل معه فى السجن فتيان من خدم الملك ، قال أحدهما وهو ساقى الملك ليوسف ـ عليه السلام ـ : ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ ، أى : إنى رأيت فى منامى أنى أعصر عنبا ليصير خمرا .

وقال الآخر ـ وهو خباز الملك ـ : إنى رأيت فى المنام أنى أحمل فوق رأسى سلالا بها خبز ، وهذا الخبز تأكل الطير منه وهو فوق رأسى .

أخبرنا يا يوسف بتفسير ما رأيناه فى منامنا ، لأننا نراك ونعتقدك من القوم الذين يحسنون تأويل الرؤى ، كما أننا نتوسم فيك الخير والصلاح ، لإحسانك إلى غيرك من السجناء الذين أنت واحد منهم .

٣٦ ـ وقبل أن يبدأ يوسف ـ عليه السلام ـ فى تأويل رؤياهما ، أخذ يمهد لذلك بأن يعرفهما بنفسه وبعقيدته ، ويدعوهما إلى عبادة الله ـ تعالى ـ وحده ، ويقيم لهما الأدلة على ذلك ، وهذا شأن المصلحين العقلاء المخلصين لعقيدتهم ، الغيورين على نشرها بين الناس ، إنهم يسوقون لغيرهم من الكلام الحكيم مايجعل هذا الغير يثق بهم ، ويقبل عليهم ، ويستجيب لهم .

وهذا ما كان من يوسف ـ عليه السلام ـ فقد بدأ فى رده عليهما بقوله : ﴿ قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا .. ﴾ .

---

(١) تفسير الكشاف : جـ٢ ص٣١٩ .

أى : قال يوسف لرفيقيه فى السجن اللذين سألاه أن يفسر لهما رؤياهما : لايأتيكما - أيها الرفيقان - طعام ترزقانه فى سجنكما فى حال من الأحوال ، إلا وأخبرتكما بماهيته وكيفيته وسائر أحواله قبل أن يصل إليكما .

وإنما قال لهما ذلك ليبرهن على صدقه فيما يقول فيستجيبا لدعوته لهما إلى الحق .

وقوله : ﴿ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾ ، نفى لما قد يتبادر إلى ذهنهما من أن علمه مأخوذ عن الكهانة أو التنجيم أو غير ذلك مما لايقره الدين .

أى : ذلك التفسير الصحيح للرؤيا ، والإخبار عن المغيبات كإخباركما عن أحوال طعامكما قبل أن يصل إليكما ، ذلك كله إنما هو العلم الذى علمنى إياه ربى وخالقى ومالك أمرى ، وليس عن طريق الكهانة والتنجيم كما يفعل غيرى .

ثم أضاف إلى ذلك قوله : ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ ﴾ أى : دين قوم ، ﴿ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ أى : لايدينون بالعبودية لله - تعالى - وحده الذى خلقهم ورزقهم ﴿ وَهُم بِالآخِرَةِ ﴾ ، ومافيها من ثواب وعقاب ، ﴿ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ أى : جاحدون لمايجب الإيمان به .

وفى هذه الجملة الكريمة تعريض بما كان عليه العزيز وقومه من إشراك وكفر ، ولم يواجه الفتيين بأنهما على دين قومهما ، وإنما ساق كلامه على سبيل العموم ، لكى يزيد فى استمالتهما إليه ، وإقبالهما عليه .

وهذا شأن الدعاة العقلاء ، يلتزمون فى دعوتهم إلى الله الحكمة والموعظة الحسنة ، بدون إحراج أو تنفير .

٣٧ - ولما كان تركه لملة قوم ، يقتضى دخوله فى ملة قوم آخرين ، نراه يصرح بالملة التى اتبعها فيقول : ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي ﴾ ، الكرام المؤمنين بوحدانية الله - تعالى - : ﴿ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ - عليهم السلام - ، وسماهم آباء جميعا لأن الأجداد آباء ، وقدم الجد الأعلى ثم الجد الأقرب ثم الأب ، لكون إبراهيم - عليه السلام - هو أصل تلك الملة التى اتبعها ، ثم تلقاها عنه إسحاق ، ثم تلقاها عن إسحاق يعقوب - عليه السلام - .

وفى هذه الجملة الكريمة بيان منه - عليه السلام - لرفيقيه فى السجن ، بأنه من سلسلة كريمة كلها أنبياء ، فحصل له بذلك الشرف الذى ليس بعده شرف .

وقوله : ﴿ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ ، تنزه عن الشرك بأبلغ وجه أى : ماصح وما استقام لنا أن نشرك بالله - تعالى - أى شىء من الإشراك ، قليلا ذلك الشىء أو كثيرا ، فنحن أهل بيت النبوة الذين عصمهم الله عن ذلك .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ ﴾ ، اعتراف منه برعاية الله ـ تعالى ـ له ولآبائه . أى : ذلك الإخلاص لله ـ تعالى ـ فى العبادة ، كائن من فضله ـ سبحانه ـ علينا معشر هذا البيت ، وعلى غيرنا من الناس الذين هداهم الله إلى الحق ، ولكن أكثر الناس لايشكرون الله ـ تعالى ـ على نعمه الجزيلة ، وآلائه التى لاتحصى .

٣٨ ـ وبعد أن عرف يوسف صاحبيه فى السجن بنفسه وبملته وبآبائه ، شرع يقيم لهم الأدلة على صحة عقيدته فقال : ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ .

أى : يا صاحِبَىَّ ورفيقىَّ فى السجن : أخبرانى بربكما ، أعبادة عدد من الأرباب المتفرقة فى ذواتها وصفاتها خير لكم ، أم عبادة الله ـ تعالى ـ الواحد فى ذاته وصفاته ، القهار لكل من غالبه أو نازعه؟ لاشك أن عبادتكما لخالقكما ورازقكما هى العبادة الصحيحة التى ما خلقكما الله ـ تعالى ـ إلا من أجلها .

ثم انتقل يوسف ـ عليه السلام ـ إلى تفنيد العقائد الباطلة فقال : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ ﴾ ـ سبحانه ـ ﴿ إِلاَّ أَسْمَاءً ﴾ أى : ألفاظا فارغة لاقيمة لها سميتموها آلهة بزعمكم ﴿ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم ﴾ ، أما هى فليس لها من هذا الاسم المزعوم ظل من الحقيقة ، لأنها مخلوقة وليست خالقة ، ومرزوقة وليست رازقة .

﴿ مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ ، أى : ما أنزل الله بتسميتها أربابا من برهان أو دليل وقوله : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ . . ﴾ ، انتقال من الأدلة الدالة على وحدانيته ـ سبحانه ـ إلى الأمر بإخلاص العبادة له وحده .

أى : أمر ـ سبحانه ـ عباده أن لايجعلوا عبادتهم إلا له وحده ، لأنه هو خالقهم ورازقهم ، وذلك الذى أمرناكم به من وجوب إخلاص العبادة لله ـ تعالى ـ وحده ، هو الحق المستقيم الثابت ، ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك حق العلم ، لاستيلاء الشهوات والمطامع على نفوسهم .

٣٩ ـ وبعد أن عرف يوسف صاحبيه فى السجن بنفسه وبعقيدته وأقام لهما الأدلة على أن العبادة لاتكون إلا لله وحده ، أتبع ذلك بتفسير رؤيتهما فقال : ﴿ يَا صَاحِبَيِ

السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا . . ﴾ ، وهو ساقى الملك فيخرج من السجن بريئا ويسقى «ربه» أى : سيده «خمرا» .

وأما الآخر وهو خباز الملك وصاحب طعامه فيقتل ثم يصلب فتأكل الطير من رأسه بعد موته .

ثم أكد لهما الأمر واثقا من صدق العلم الذى علمه الله إياه فقال : ﴿ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ ، أى : تم تفسير الأمر الذى سألتمانى عنه تفسيرا صحيحا .

ثم ختم يوسف حديثه مع صاحبيه فى السجن بأن أوصى الذى سينجو منهما بوصية حكاها القرآن فى قوله : ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ .

أى : وقال يوسف للفتى الذى ظن أنه سينجو منهما ـ وهو ساقى الملك ـ قال له : أيها الساقى بعد أن تخرج من السجن وتعود إلى عملك عند سيدك الملك : اذكر حقيقة أمرى عنده ، وبلغه بأنى برىء وبأنى مظلوم ولا أستحق دخول السجن بسبب طهارتى .

ولكن الساقى بعد أن عاد إلى عمله عند الملك ، لم ينفذ الوصية ، لأن الشيطان أنساه ما قاله يوسف له ، فكانت النتيجة أن لبث يوسف فى السجن مظلوما بضع سنين ـ والبضع من ثلاث إلى تسع ـ .

وقد قالوا : إن يوسف قد لبث في السجن بعد خروج الساقى منه سبع سنين .

قال الإمام ابن كثير : قوله ـ سبحانه ـ : ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ . . ﴾ .

أى : قال يوسف للساقى : اذكر قصتى عند سيدك ، فنسى ذلك الموصى ، أن يذكر مولاه بذلك ، وكان نسيانه من جملة مكايدة الشيطان ، هذا هو الصواب وهو أن الضمير فى قوله : ﴿ فَأَنسَاهُ ﴾ عائد على الناجى منهما ، كما قال مجاهد ومحمد بن إسحاق وغير واحد من المفسرين . (١)

ويرى بعضهم أن الضمير فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَأَنسَاهُ ﴾ يعود إلى يوسف وأن المراد بالرب هنا : الخالق ـ عز وجل ـ وعليه يكون المعنى : وقال يوسف للفتى الذى اعتقد نجاته

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٤ ص٣١٦ .

وهو ساقى الملك ، اذكر مظلمتى عند سيدك الملك عندما تعود إليه ، فأنسى الشيطان يوسف أن يذكر حاجته لله ـ تعالى ـ وحده ، فلبث فى السجن بضع سنين .

والذى يبدو لنا أن الرأى الأول وهو عودة الضمير ﴿أَنسَاهُ﴾ ، إلى ساقى الملك أرجح ، لأنه هو الظاهر من معنى الآية ، ولأن قوله ـ تعالى ـ بعد ذلك : ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ . .﴾ ، يدل دلالة واضحة على أن الضمير فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَأَنسَاهُ﴾ ، يعود إلى ساقى الملك ، وأن المراد بربه سيده ومخدومه ، ولأن مباشرة الأسباب لاتتنافى مع الاعتماد على الله .[1]

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد قصت علينا بأسلوبها المشوق الحكيم ، جانبا من حياة يوسف فى السجن ، فماذا كان بعد ذلك؟ .

---

(١) راجع تفسير الفخر الرازى جـ١٨ ص١٤٤ .

٧- رؤيا الملك وتفسير يوسف -عليه السلام- لها

٤٠ - تحكى لنا الآيات الآتية أن الله - تعالى - فتح باب الفرج ليوسف - عليه السلام - وكان من أسباب ذلك أن رأى الملك فى منامه رؤيا أفزعته ، ولم يستطع أحد تأويلها تأويلا صحيحا سوى يوسف - عليه السلام - .

استمع إلى القرآن وهو يقص ذلك فيقول :

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ

٤١ ـ قال الإمام ابن كثير: «هذه الرؤيا من ملك مصر، مما قدر الله ـ تعالى ـ أنها كانت سببا لخروج يوسف من السجن معززا مكرما، وذلك أن الملك رأى هذه الرؤيا فهالته وتعجب من أمرها، وما يكون تفسيرها، فجمع الكهنة وكبراء دولته وأمراءها، وقص عليهم ما رأى، وسألهم عن تأويلها فلم يعرفوا ذلك» . (١)

وقوله: ﴿عِجَافٌ﴾، جمع عجفاء، والعجف ـ بفتح العين والجيم ـ الضعف، وذهاب العافية، يقال: هذا رجل أعجف، وامرأة عجفاء، إذا ظهر ضعفهما وهزالهما.

أى: وقال ملك مصر فى ذلك الوقت لكبار رجال مملكته: إنى رأيت فيما يرى النائم ﴿سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾، قد امتلأن لحما وشحما ﴿يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ﴾، بقرات ﴿عِجَافٌ﴾، أى: ضعاف.

ورأيت ـ أيضا ـ فيما يرى النائم ﴿سَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ﴾، قد امتلأت حبا، وإلى جانبها سبع سنبلات ﴿أُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ قد ذهبت نضارتها وخضرتها، ومع ذلك فقد التوت اليابسات على الخضر حتى غلبتها.

يأيها الأشراف والعلماء من قومى فسروا لى رؤياى، وبينوا لى ما تدل عليه ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾، تعرفون تفسير هذه الرؤيا، وتعلمون تعبيرها، وتأويلها علما صحيحا.

فقوله ـ سبحانه ـ : ﴿تَعْبُرُونَ﴾ من العبر، وهو اجتياز الطريق أو النهر من جهة إلى أخرى، وسمى المفسر للرؤيا عابرا، لأنه يتأمل فيها وينتقل من كل طرف فيها إلى الطرف الآخر، كما ينتقل عابر النهر أو الطريق من جهة إلى أخرى.

والتعريف فى لفظ ﴿الْمَلِكُ﴾ للعهد، أى: ملك مصر، وسماه القرآن هنا ملكا ولم يسمه فرعون، لأن هذا الملك لم يكن من الفراعنة ملوك مصر القبط، وإنما كان ملكا لمصر أيام أن حكمها «الهكسوس» وهم العمالقة، الذين ملكوا مصر من سنة ١٩٠٠ ق.م إلى سنة ١٥٢٥ ق.م تقريبا.

فالتعبير بالملك هنا دون التعبير عنه بفرعون، مع أن القرآن قد عبر عن ملك مصر فى زمن موسى بفرعون، يعد من دقائق إعجاز القرآن العلمى.

ويبدو أن القوم فى ذلك الزمان، كان بعضهم يشتغل بتفسير الرؤى، وكان لهذا

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٤ ص٢١٧.

التفسير مكانته عندهم ، فقد مرت بنا رؤيا يوسف ، ورؤيا رفيقيه فى السجن ، ثم جاءت رؤيا الملك ، وهذا يشعر بأن انفراد يوسف - عليه السلام - بتأويل رؤيا الملك فى زمن كثر فيه البارعون فى تأويل الرؤى ، كان بمثابة معجزة أو ما يشبه المعجزة من الله - تعالى - ليوسف ، حتى تزداد مكانته عند الملك وحاشيته .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ ﴾ ، حكاية لما رد به الكهان والأشراف على ما طلبه الملك منهم .

والأضغاث : جمع ضغث - بكسر الضاد - وهو ماجمع فى حزمة واحدة من مختلف النبات وأعواد الشجر ، فصار خليطا غير متجانس .

والأحلام : جمع حُلم - بإسكان اللام وضمها - وهو ما يراه النائم فى منامه ، وتطلق كثيرا على ما ليس بحسن ، ففى الحديث الصحيح : «الرؤيا من الله والحلم من الشيطان» .

أى : قال الملأ للملك : ما رأيته - أيها الملك فى نومك - ماهو إلا تخاليط أحلام ، فلاتهتم بها ، وإننا نحن لسنا من أهل العلم بتفسير تخاليط الأحلام ، وإنما نحن من أهل العلم بتفسير المنامات المعقولة المفهومة .

وقولهم هذا إنما هو اعتذار عن جهلهم بمعرفة تفسير رؤيا الملك .

ويبدو أن الملك كان يتوقع منهم هذا الجهل ، كما يشعر به قوله : ﴿ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ ، فقد أتى بإن المفيدة للشك .

٤٢ - ثم بين - سبحانه - ما حدث بعد أن عجز الملأ من قوم الملك عن تأويل رؤياه فقال : ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ .

وأصل ﴿ ادَّكَرَ ﴾ إذتكر بوزن افتعل مأخوذ من الذكر - بتشديد الذال وضمها - قلبت تاء الافتعال دالا لثقلها ولتقارب مخرجيها ، ثم قلبت الذال دالا ليتأتى إدغامها فى الدال لأنها أخف من الذال .

والأمة : الجماعة التى تؤم وتقصد لأمر ما ، والمراد بها هنا : المدة المتطاولة من الزمان ، وكان هذا الساقى قد نسى ما أوصاه به يوسف من قوله له : ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ .

أى : وقال أحد الرجلين اللذين كانا مع يوسف فى السجن ، ثم خرج منه بريئا وهو ساقى الملك ، قال هذا الساقى للملك وحاشيته بعد أن تذكر ما كان من أمره مع يوسف :

«أنا أخبركم بتفسير رؤيا الملك ، فابعثونى إلى من عنده العلم الصحيح الصادق بتفسيرها» .

ولم يذكر لهم اسم المرسل إليه وهو يوسف ـ عليه السلام ـ لأنه أراد أن يفاجئهم بخبره بعد حصول تأويله للرؤيا ، فيكون ذلك أوقع فى قلوبهم ، وأسمى لشأن يوسف .

وقوله : ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ . . ﴾ ، من بديع الإيجاز بالحذف فى القرآن الكريم ، لأن المحذوف لايتعلق بذكره غرض .

والتقدير : قال لهم : أنا أخبركم بتفسير هذه الرؤيا فأرسلونى إلى من عنده العلم بتفسيرها ، فأرسلوه فجاء إلى يوسف وقال له : يا يوسف يأيها الصديق ، أى : يا من أصبح الصدق خلقك وشأنك وطبعك ، كما عرفت ذلك منك وقت أن كنت معك فى السجن ﴿ أَفْتِنَا ﴾ أى : فسر لنا تلك الرؤيا التى رآها الملك ، والتى عجز الناس عن تفسيرها ، وهى أن الملك رأى فى منامه ﴿ سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ، تفسيرها فينتفعون به ، وترتفع منزلتك عندهم .

٤٣ ـ وهنا نجد يوسف ـ عليه السلام ـ لايكتفى بتأويل الرؤيا تأويلا مجردا ، بل يئولها تأويلا صادقا صحيحا ، مصحوبا بالنصح والإرشاد إلى مايجب عمله فى مثل هذه الأحوال فقال : ـ كما حكى القرآن عنه ـ : ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا . . ﴾ .

أى : قال يوسف للساقى : ارجع إلى قومك فقل لهم : إن يوسف يأمركم أن تزرعوا أرضكم سبع سنين زراعة مستمرة على حسب عادتكم .

﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ ﴾ من زرعكم فى كل سنة ﴿ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ ﴾ ، أى : فاتركوا الحب فى سنبله ، ولاتخرجوه منها حتى لايتعرض للتلف بسبب السوس أو ما يشبهه .

﴿ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ ، أى : اتركوا الحب فى سنبله إلا شيئا قليلا منه فأخرجوه من السنابل لحاجتكم إليه فى مأكلكم .

وفى هذه الجملة إرشاد لهم إلى الاقتصاد فى مأكولاتهم إلى أقصى حد ممكن لأن المصلحة تقتضى ذلك .

وقوله : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ ، أى : بعد تلك السنين السبع المذكورات التى تزرعونها على عادتكم المستمرة فى الزراعة .

﴿ سَبْعٌ شِدَادٌ ﴾ ، أى : سبع سنين صعاب على الناس لما فيهن من الجدب والقحط ﴿ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ﴾ أى : يأكل أهل تلك السنين الشداد ، كل ما ادخروه فى السنوات السبع المتقدمة من حبوب فى سنابلها .

وقوله : ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ ، أى : أن تلك السنين المجدبة ستأكلون فيها كل ما ادخرتموه فى السنوات السابقة ، إلا شيئا قليلا منه يبقى محرزا ومدخرا ، لتنتفعوا به فى زراعتكم ، وحاصل تفسير يوسف لتلك الرؤيا : أنه فسر البقرات السمان والسنبلات الخضر ، بالسنين السبع المخصبة ، وفسر البقرات العجاف والسنبلات اليابسات ، بالسنين السبع المجدبة التى ستأتى فى أعقاب السنين المخصبة ، وفسر ابتلاع البقرات العجاف للبقرات السمان ، بأكلهم ما جمع فى السنين المخصبة فى السنين المجدبة .

وقوله : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ ، تبشير لهم بأن الخير سيأتيهم بعد تلك السنوات الشداد ، فقد جرت سنة الله ـ تعالى ـ أن يعقب العسر باليسر .

ولفظ ﴿ يُغَاثُ ﴾ ، من الغوث بمعنى إزالة الهم والكرب عن طريق الأمطار التى يسوقها الله ـ تعالى ـ لهم بعد تلك السنوات الشداد التى قل فيها المطر .

ولفظ ﴿ يَعْصِرُونَ ﴾ من العصر وهو الضغط على ما من شأنه أن يعصر ، لإخراج مافيه من مائع سواء أكان هذا المائع زيتا أم ماء أم غيرهما .

أى : ثم يأتى من بعد تلك السنين السبع الشداد ، عام فيه تزول الهموم والكروب ، بسبب إرسال الله ـ تعالى ـ المطر عليهم ، فتخضر الأرض وتنبت من كل زوج بهيج ، وفيه يعصرون من ثمار مزروعاتهم ما من شأنه أن يعصر كالزيتون وما يشبهه ، وهذا كناية عن بدء حلول الرخاء بهم ، بعد تلك السنوات الشداد .

وما قاله يوسف ـ عليه السلام ـ عن هذا العام الذى يأتى فى أعقاب السنوات السبع الشداد ، لا مقابل له فى رؤيا الملك ، بل هو خارج عنها ، وذلك لزيادة التبشير للملك وللناس ، ولإفهامهم أن هذا العلم إنما بوحى من الله ـ تعالى ـ الذى يجب أن يخلص له الجميع العبادة والطاعة .

وإلى هنا نرى أن يوسف ـ عليه السلام ـ قد فسر رؤيا الملك تفسيرا سليما حكيما ، كان من نتائجه الخير للملك وقومه ، فماذا فعل الملك بعد ذلك مع يوسف؟

٨ـ يوسف ـ عليه السلام ـ

فى مجلس ملك مصر

٤٤ ـ ثم قص علينا القرآن الكريم ماطلبه الملك من حاشيته ، وما رد به يوسف ـ عليه السلام ـ على رسول الملك ، وما قالته النسوة وامرأة العزيز فى شأن يوسف وما طلبه ـ عليه السلام ـ من الملك ، استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى ذلك فيقول :

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ * وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

٤٥ - وقوله - تعالى - : ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ..﴾، حكاية لما طلبه الملك فى ذلك الوقت من معاونيه فى شأن يوسف - عليه السلام - وفى الكلام حذف يفهم من المقام .

والتقدير : وقال الملك بعد أن سمع من ساقيه ما قاله يوسف فى تفسير الرؤيا : أحضروا لى يوسف هذا لأراه وأسمع منه ، وأستفيد من علمه ..

وهذا يدل - كما يقول الإمام الرازى فى تفسيره - على فضيلة العلم ، «فإنه - سبحانه - جعل ما علمه ليوسف سببا لخلاصه من المحنة الدنيوية ، فكيف لايكون العلم سببا للخلاص من المحن الأخروية» . (١)

وقوله - سبحانه - : ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ..﴾، بيان لما قاله يوسف - عليه السلام - لرسول الملك .

أى : فلما جاء رسول الملك إلى يوسف ليخبره بأن الملك يريد لقاءه ، قال له يوسف بأناة وإباء : ارجع إلى «ربك» أى : إلى سيدك الملك «فاسأله» قبل خروجى من السجن وذهابى إليه «ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن» أى : ما حال وما شأن النسوة اللاتى حدث بينى وبينهن ماحدث ، وما حقيقة أمرهن معنى .

ولم يكشف له يوسف عن حقيقة أمرهن معه ، لزيادة تهييجه على البحث والتقصى ، حتى تسفر الحقيقة عن وجهها ، ويعرف البرىء من غير البرىء .

واكتفى بالسؤال عن تقطيعهن لأيديهن ، دون التعرض لمكرهن به ، وكيدهن له ، سترا لهن وتنزها منه - عليه السلام - عن ذكرهن بما يسوءهن ، ولذا فقد اكتفى بالإشارة الإجمالية إلى كيدهن ، وفوض أمرهن إلى الله - تعالى - فقال : ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ .

أى : إن ربى وحده هو العليم بمكرهن بى ، وكيدهن لى ، وهو - سبحانه - الذى يتولى حسابهن على ذلك .

ولاشك فى أن امتناع يوسف - عليه السلام - عن الذهاب إلى الملك إلا بعد التحقيق فى قضيته ، يدل دلالة واضحة على صبره ، وسمو نفسه ، وعلو همته .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية بعض الأحاديث التى تدل على فضل يوسف - عليه السلام - فقال ما ملخصه : «وقد وردت السنة بمدحه على ذلك ، أى : على امتناعه من الخروج من السجن حتى يتحقق الملك ورعيته عن براءة ساحته

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١٨ ص١٥١ .

ونزاهة عرضه - ففى الصحيحين عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: رب أرنى كيف تحيى الموتى؟ قال: أو لم تؤمن؟ قال: بلى ولكن ليطمئن قلبى، ويرحم الله لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد، ولو لبثت فى السجن مالبث يوسف لأجبت الداعى.

وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة فى قوله - تعالى -: ﴿فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾، أن رسول الله ﷺ قال: «لو كنت أنا لأسرعت الإجابة، وما ابتغيت العذر».

وروى عبدالرزاق عن عكرمة قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه، والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان، ولو كنت مكانه ما أجبتهم حتى أشترط أن يخرجونى، ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه، والله يغفر له حين أتاه الرسول، ولو كنت مكانه لبادرتهم إلى الباب، ولكنه أراد أن يكون له العذر».(١)

وهذه الأحاديث التى ذكرها الإمام ابن كثير هنا، إنما تدل على تواضع الرسول ﷺ وإلا فإنه أقوى الرسل عزما، وأرفعهم مقاما، وأشدهم صبرا.

٤٦ - ثم بين - سبحانه - ما قاله الملك بعد أن بلغه الرسول ما قاله يوسف له فقال: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ..﴾.

وفى الكلام حذف يفهم من السياق، والتقدير: وبعد أن رجع رسول الملك إليه وأخبره بما قاله يوسف: استجاب الملك لما طلبه يوسف منه، فأحضر النسوة وقال لهن: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ..﴾.

أى: قال الملك لهن: ما الأمر الهام الذى حملكن فى الماضى على أن تراودن يوسف عن نفسه؟ وهل وجدتن فيه ميلا إلى الاستجابة لكن؟

وأمام هذه المواجهة التى واجههن بها الملك، لم يملكن الإنكار، بل قلن بلسان واحد: ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾، أى: معاذ الله ما علمنا عليه من سوء قط، وإنما الذى رأيناه منه هو البعد عن كل سوء وهنا قالت امرأة العزيز - ويبدو أنها كانت حاضرة معهن عند الملك -: «الآن حصحص الحق»، أى: الآن ظهر الحق وانكشف انكشافا تاما بعد أن كان خافيا.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٤ ص٣١.

والفعل : «حصحص» أصله حص ، وهو مأخوذ من الحص بمعنى الاستئصال والإزالة ، تقول : فلان حص شعره ، إذا استأصله وأزاله فظهر ما كان خافيا من تحته .

ثم أضافت إلى ذلك قولها : ﴿ راوَدتُّه عَن نَّفْسه ﴾ ، أى : أنا التى طلبت منه ماطلبت ﴿ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ، فى كل قوله ﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾ .

وهكذا يشاء الله - تعالى - أن تثبت براءة يوسف على رءوس الأشهاد ، بتلك الطريقة التى يراها الملك ، وتنطق بها امرأة العزيز ، والنسوة اللائى قطعن أيديهن .

ثم واصلت امرأة العزيز حديثها فقالت : ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ . وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

أى : ذلك الذى قلته واعترفت به على نفسي من أنى راودته عن نفسه ، إنما قلته ليعلم يوسف أنى لم أخنه فى غيبته ، ولم أقل فيه شيئا يسوءه بعد أن فارقنى ، وإنما قلت ذلك لأن الله - تعالى - يعلم السر وأخفى ، وأنه - سبحانه - لاينفذ كيد الخائنين ولايسدده ، بل يفضحه ويزهقه ولو بعد حين من الزمان . .

وإنى لا أبرئ نفسى ولا أنزهها عن الميل إلى الهوى ، وعن محاولة وصفه بما هو برىء منه ، والنفس البشرية أمارة بالسوء وبالميل مع الهوى والشهوات ، إلا نفسا رحمها الله وعصمها من الزلل والانحراف ، إن ربى كثير الغفران والرحمة لمن يشاء من عباده .

والذى يتأمل هذا الكلام الذى حكاه القرآن عن امرأة العزيز يراه زاخرا بالصراحة التى ليس بعدها صراحة ، وبالمشاعر والانفعالات الدالة على احترامها ليوسف - عليه السلام - الذى خاف مقام ربه ونهى نفسه عن الهوى .

ويبدو لنا - والله أعلم - أن هذا الكلام ما قالته امرأة العزيز ، إلا بعد أن استقرت عقيدة الإيمان التى آمن بها يوسف فى قلبها ، وبعد أن رأت فيه إنسانا نقيا عفيفا يختلف فى استعصامه بالله وفى سمو نفسه عن غيره .

٤٧ - وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد حدثتنا عن القسم الأول من حياة يوسف - عليه السلام - ، القسم الذى تعرض خلاله لألوان من المحن والآلام ، بعضها من إخوته ، وبعضها من امرأة العزيز ، وبعضها من السجن ومرارته .

ثم بدأت بعد ذلك فى الحديث عن الجانب الثانى من حياته - عليه السلام - ، وهو

جانب الرخاء والعز والتمكين فى حياته فقال - تعالى - : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي .. ﴾ .

أى : وقال الملك لحاشيته بعد أن سمع ما سمع من طهارة يوسف وعفافه : ائتونى به ليكون خالصا لنفسى ، وخاصا بى فى تصريف أمورى ، وكتمان أسرارى ، وتسيير دفة الحكم فى مملكتى ، ونفذ الجند ما أمرهم ملكهم به ، وأحضروا يوسف إلى مجلسه فلما رآه وكلمه ازداد تقديره له ، وإعجابه به وقال له : ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ .

أى : إنك يايوسف منذ هذا اليوم صرت عندنا صاحب الكلمة النافذة ، والمنزلة الرفيعة ، التى تجعلنا نأتمنك على كل شىء فى هذه المملكة .

٤٨ - وهنا طلب يوسف من الملك بعزة وإباء أن يجعله فى الوظيفة التى يحسن القيام بأعبائها فقال : ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ .

أى : قال يوسف - عليه السلام - للملك : اجعلنى - أيها الملك - المتصرف الأول فى خزائن أرض مصر ، لأنى شديد الحفظ لما فيها ، عليم بوجوه تصريفها فيما يفيد وينفع ، فأنت ترى أن يوسف - عليه السلام - لم يسأل الملك شيئا لنفسه من أعراض الدنيا ، وإنما طلب منه أن يعينه فى منصب يتمكن بواسطته من القيام برعاية مصالح الأمة ، وتدبير شئونها ، لأنها مقبلة على سنوات عجاف تحتاج إلى خبرة يوسف وأمانته ، وكفاءته ، وعلمه . .

قال القرطبى ما ملخصه : ودلت الآية على جواز أن يطلب الإنسان عملا يكون له أهلا .

فإن قيل : فإن ذلك يعارضه ما جاء عن رسول الله ﷺ فى الأحاديث الصحيحة من نهيه عن طلب الإمارة .

فالجواب : أولا : إن يوسف إنما طلب الولاية لعلمه أنه لا أحد يقوم مقامه فى العدل ، والإصلاح ، وتوصيل الحقوق لأهلها ، فرأى أن ذلك فرض متعين عليه .

الثانى : أنه لم يقل : اجعلنى على خزائن الأرض ، لأنى حسيب كريم ، وإن كان كذلك ، ولم يقل إنى جميل مليح ، وإنما قال : إنى حفيظ عليم ، فسألها بالحفظ والعلم لا بالنسب والجمال .

الثالث : إنما قال ذلك عند من لايعرفه فأراد تعريف نفسه ، وصار ذلك مستثنى من قوله :﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ﴾ (١)

(١) تفسير القرطبى جـ٩ ص٢١٦ .

والخلاصة . . أن يوسف ـ عليه السلام ـ إنما قال ما قاله للملك ، وطلب منه ما طلب ، لأنه علم أن هذا المنصب لايصلح له أحد سواه فى ذلك الوقت ، وفى تلك الظروف ، فهو يريد من ورائه خدمة الأمة لاجر منفعة شخصية لنفسه .

وما قاله إنما هو من باب التحدث بنعمة الله ، الذى أعطاه هذه الصفات الكريمة ، والمناقب العالية ، وليس من باب التزكية المحظورة .

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك سنة من سننه التى لاتختلف فقال : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ .

أى : ومثل هذا التمكين العظيم مكنا ليوسف فى أرض مصر بعد أن مكث فى سجنها بضع سنين ، بأن هيئنا له بعد هذا الظلم الذى نزل به ، أن يتنقل فى أماكنها ومنازلها حيث يشاء له التنقل ، دون أن يمنعه مانع من الحلول فى أى مكان فيها ، ونحن بقدرتنا ورحمتنا وإرادتنا نعطى من نشاء عطاءه من عبادنا ، ولا نضيع أجر المحسنين الذين يتقنون أداء ما كلفناهم به ، ولعطاء الآخرة أعظم وأبقى من عطاء الدنيا للمؤمنين الصادقين ، وهكذا كافأ الله ـ تعالى ـ يوسف على صبره وتقواه وإحسانه ، بما يستحقه من خير وسعادة فى الدنيا والآخرة .

ثم تطوى السورة بعد ذلك أحداثا تترك معرفتها إلى فهم القارئ وفطنته .

فهى لم تحدثنا ـ مثلا ـ عن الطريقة التى اتبعها يوسف فى إدارته لخزائن أرض مصر ، اكتفاء بقوله : ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ ، للدالة على كفاءته وأمانته .

كذلك لم تحدثنا عن أحوال الناس فى السنوات السبع العجاف ، وفى السنوات الخضر ؛ لأن هذا مقرر ومعروف فى دنيا الناس .

كذلك لم تحدثنا عن صلة الملك وحاشيته بيوسف ، بعد أن صار أمينا على خزائن الأرض ، بل أفسحت المجال كله للحديث عن يوسف ، إنزالا للناس منازلهم ، إذ هو صاحب التفسير الصحيح لرؤيا الملك ، وصاحب الأفكار الحكيمة التى أنقذت الأمة من فقر سبع سنوات شداد ، وصاحب الدعوة إلى وحدانية الله ـ تعالى ـ وإخلاص العبادة له ، بين قوم يشركون مع الله فى العبادة آلهة أخرى .

٩ - اللقاء الأول بين يوسف وإخوته

٤٩ - وبعد أن تحدثت السورة الكريمة هذا الحديث الطويل عن رؤيا يوسف ، وعن إلقاء إخوته له فى الجب ، وعن خروجه منه وبيعه بثمن زهيد ، وعن المؤامرات التى تعرض لها فى بيت امرأة العزيز ، وعن إلقائه فى السجن لبضع سنين ، وعن خروجه من السجن ، وتمكينه فى أرض مصر .

بعد كل ذلك انتقلت السورة إلى الحديث عن لقاء يوسف بإخوته ، وعما دار بينه وبينهم من محاورات ، وعن إكرامه لهم ، فقال - تعالى - :

وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾

قال الفخر الرازى عند تفسيره لهذه الآيات : اعلم أنه لما عم القحط فى البلاد ، ووصل - أيضا - إلى البلدة التى كان يسكنها يعقوب - عليه السلام - ، وصعب الزمان عليهم - فى فلسطين بالشام - فقال لبنيه : إن بمصر رجلا صالحا يمير الناس - أى : يعطيهم الطعام وماهم فى حاجة إليه فى معاشهم - فاذهبوا إليه بدراهمكم ، وخذوا منه الطعام ، فخرجوا إليه وهم عشرة ، ولم يبق منهم سوى «بنيامين» مع أبيه يعقوب ، ودخلوا على يوسف ، وصارت هذه الواقعة كالسبب فى اجتماع يوسف مع إخوته وظهور صدق ما أخبر الله عنه فى قوله ليوسف حال ما ألقوا به فى الجب : ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

والمعنى : وجاء إخوة يوسف من بلادهم الشام متجهين إلى مصر ، ليلتمسوا فيها وسائل العيش بعد أن أصاب فلسطين القحط ، ﴿ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ ﴾ أى : على يوسف بعد

أن وصلوا مصر «فعرفهم» يوسف بمجرد رؤيته لهم ، أما هم فلم يعرفوه لطول عهد فراقهم له ، ولقلة اهتمامهم بشأنه بعد أن ألقوا به فى الجب ، وللمنصب العظيم الذى صار يشغله ، وهم ما توقعوا أن يصل يوسف إلى هذا المنصب .

ويبدو أن هذه المجاعة التى حدثت لمصر فى السنين السبع العجاف ، قد عمت البلاد المجاورة لها كفلسطين وبلاد الشام ، وأن مصر كانت محط أنظار المعسرين من مختلف البلاد ، بفضل حسن سياسة يوسف ، وأخذه الأمور بالعدالة والرحمة وسهره على مصالح الناس .

٥٠ ـ ثم بين ـ سبحانه ـ ما قاله يوسف لإخوته بعد أن أعطاهم ماهم فى حاجة إليه فقال : ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ. فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلا تَقْرَبُونِ ﴾ .

أى : وحين أعطى يوسف إخوته ماهم فى حاجة إليه من زاد ومتاع ، قال لهم : أنا أريد منكم فى الزيارة القادمة لمصر ، أن تحضروا معكم أخاكم من أبيكم لكى أراه ، وقوله : ﴿ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ ، تحريض لهم على الإتيان به ، وترغيب لهم فى ذلك حتى ينشطوا فى إحضاره معهم .

أى : ألا ترون أنى أكرمت وفادتكم ، وأعطيتكم فوق ماتريدون من الطعام ، وأنزلتكم ببلدى مصر منزلا كريما ؟ .

ومادام أمرى معكم كذلك ، فلابد من أن تأتونى معكم بأخيكم من أبيكم فى المرة القادمة ، لكى أزيد فى إكرامكم وعطائكم .

ثم أتبع هذا الترغيب بالترهيب فقال : ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلا تَقْرَبُونِ ﴾ ، أى : لقد رأيتم منى كل خير فى لقائكم معى هذا ، وقد طلبت منكم أن تصحبوا معكم أخاكم من أبيكم فى لقائكم القادم معى ، فإن لم تأتونى به معكم عند عودتكم إلىّ ، فإنى لن أبيع لكم شيئا مما تريدونه من الأطعمة وغيرها ، وفضلا عن ذلك فإنى أحذركم من أن تقربوا بلادى فضلا عن دخولها .

وهذا التحذير منه لهم ، يشعر بأن إخوته قد ذكروا له أنهم سيعودون إليه مرة أخرى ، لأن مامعهم من طعام لايكفيهم إلا لوقت محدود من الزمان .

٥١ ـ وقد رد إخوة يوسف عليه بقولهم : ﴿ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ ، أى : قال

إخوة يوسف له بعد أن أكد لهم وجوب إحضار شقيقه «بنيامين» معهم عند عودتهم إليه : سنطلب من أبينا حضور بنيامين معنا ، وسيكون هذا الطلب بكل رفق ولين ومحايلة ، وإنا لفاعلون هذه المراودة باجتهاد لا كلل معه ولا ملل ، وفاء لحقك علينا .

وقولهم هذا يدل على أنهم كانوا يشعرون بأن إحضار أخيهم لأبيهم معهم ـ وهو بنيامين الشقيق الأصغر ليوسف ـ ليس أمرا سهلا أو ميسورا ، وإنما يحتاج إلى جهد كبير من أبيهم حتى يقنعوه بإرساله معهم .

ثم بين ـ سبحانه ـ مافعله يوسف مع إخوته وهم على وشك الرحيل فقال : ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

والفتيان : جمع فتى ، والمراد بهم هنا : الذين يقومون بخدمته ومساعدته فى عمله .

والبضاعة فى الأصل : القطعة الوفيرة من الأموال التى تقتنى للتجارة ، مأخوذة من البضع بمعنى القطع ، والمراد بها هنا : أثمان الطعام الذى أعطاه يوسف لهم ، والرحال جمع رحل ، وهو مايوضع على البعير من متاع الراكب .

والمعنى : وقال يوسف ـ عليه السلام ـ لفتيانه الذين يقومون بتلبية مطالبه : أعيدوا إلى رحال هؤلاء القوم ـ وهم إخوته ـ الأثمان التى دفعوها لنا فى مقابل ما أخذوه منا من طعام ، وافعلوا ذلك دون أن يشعروا بكم ، لعل هؤلاء القوم عندما يعودون إلى بلادهم ، ويفتحون أمتعتهم ، فيجدون فيها الأثمان التى دفعوها لنا فى مقابل ما أخذوه منا من طعام وغيره ، لعلهم حينئذ يرجعون إلينا مرة أخرى ، ليدفعوها لنا فى مقابل ما أخذوه .

وكأن يوسف ـ عليه السلام ـ أراد بفعله هذا حملهم على الرجوع إليه ومعهم «بنيامين» ، لأن من شأن النفوس الكبيرة أن تقابل الإحسان بالإحسان ، وأن تأنف من أخذ المبيع دون أن تدفع لصاحبه ثمنه .

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد حدثتنا عما دار بين يوسف وإخوته بعد أن دخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ، وبعد أن طلب منهم أن يعودوا إليه ومعهم أخوهم لأبيهم «بنيامين» الشقيق الأصغر ليوسف ، فماذا كان بعد ذلك ؟ .

١٠ - إخوة يوسف - عليه السلام - يحاورون أباهم فى شأن سفر أخيهم «بنيامين» معهم إلى مصر

٥٢ - ثم قصت علينا السورة الكريمة ما دار بين إخوة يوسف وبين أبيهم يعقوب ، من محاورات طلبوا خلالها منه أن يأذن لهم فى اصطحاب «بنيامين» معهم فى رحلتهم القادمة إلى مصر ، كما قصت علينا ما رد به أبوهم عليهم ، فقال - تعالى - :

فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَـٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

٥٣ ـ وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ..﴾ ،حكاية لما قاله إخوة يوسف لأبيهم فور التقائهم به .

والمراد بالكيل : الطعام المكيل الذى هم فى حاجة إليه .

والمراد بمنعه : الحيلولة بينهم وبينه فى المستقبل ، لأن رجوعهم بالطعام قرينة على ذلك ، والآية الكريمة معطوفة على كلام محذوف يدرك من السياق ، والتقدير : ترك إخوة يوسف مصر ، وعادوا إلى بلادهم فلسطين ، بعد أن وعدوه بتنفيذ ماطلبه منهم ، فلما وصلوا إلى بلادهم ، ودخلوا على أبيهم قالوا له بدون تمهل : ﴿يَا أَبَانَا﴾ لقد حكم عزيز مصر بعدم بيع أى طعام لنا بعد هذه المرة ، إذا لم نأخذ معنا أخانا «بنيامين» ، ليراه عند عودتنا إليه ، فقد قال لنا مهددا عند مغادرتنا له﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلا تَقْرَبُونِ﴾ ، وأنت تعلم أننا لا بد من عودتنا إليه ، لجلب احتياجنا من الطعام وغيره ، فنرجوك أن توافقنا على اصطحاب «بنيامين» معنا ، وإنا له لحافظون حفظا تاما من أى مكروه ، والآية الكريمة واضحة الدلالة على أن قولهم هذا لأبيهم ، كان بمجرد رجوعهم إليه ، وكان قبل أن يفتحوا متاعهم ليعرفوا ما بداخله .

وكأنهم فعلوا ذلك ليشعروه ، بأن إرسال «بنيامين» معهم عند سفرهم إلى مصر ، أمر على أكبر جانب من الأهمية ، وأن عدم إرساله سيترتب عليه منع الطعام عنهم ، ولكن يبدو أن قولهم هذا ، قد حرك كوامن الأحزان والآلام فى نفس يعقوب ، فهم الذين سبق لهم أن قالوا له فى شأن يوسف ـ أيضا ـ : ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ .

لذا نجده يرد عليهم فى استنكار بقوله : ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ..﴾ ، أى : قال لهم : أتريدون أن أئتمنكم على ابنى «بنيامين» كما ائتمنتكم على شقيقه يوسف من قبل هذا الوقت ، فكانت النتيجة التى تعرفونها جميعا وهي فراق يوسف لى فراقا لا يعلم مداه إلا الله ـ تعالى ـ ؟ لا إننى لا أثق بوعودكم بعد الذى حدث منكم معى فى شأن يوسف ، وإنما أثق بحفظ الله ورعايته فهو ـ سبحانه ـ خير حافظ لمن يريد حفظه ، فمن حفظه سلم ، ومن لم يحفظه لم يسلم ، وهو ـ سبحانه ـ أرحم الراحمين لخلقه ، فأرجو أن يشملنى برحمته ، ولا يفجعنى فى «بنيامين» كما فجعت فى شقيقه يوسف من قبل .

٥٤ ـ ويبدو أن الأبناء قد اقتنعوا برد أبيهم عليهم ، واشتموا من هذا الرد عدم إمكان

إرساله معهم ، لذا لم يراجعوه مرة أخرى ، لذا اتجه الأبناء بعد هذه المحاورة مع أبيهم إلى أمتعتهم ليفتحوها ويخرجوا منها ما أحضروه من زاد وطعام من مصر ، فكانت المفاجأة التى حكاها القرآن فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ . . ﴾ .

أى : وحين فتحوا أوعيتهم التى بداخلها الطعام الذى اشتروه من عزيز مصر ، فوجئوا بوجود أثمان هذا الطعام قد ردت عليهم معه ، ولم يأخذها عزيز مصر ، بل دسها داخل أوعيتهم دون أن يشعروا ، فدهشوا وقالوا لأبيهم متعجبين : ﴿ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا . . ﴾ ، أى : قالوا بدهشة يا أبانا ماذا نطلب من الإحسان والكرم أكثر من هذا الذى فعله عزيز مصر؟ لقد أعطانا الطعام الذى نريده ، ثم رد علينا ثمنه الذى دفعناه له دون أن يخبرنا بذلك .

وقوله ـ سبحانه ـ حكاية عنهم : ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ معطوف على مقدر يفهم من الكلام ، أى : هذه بضاعتنا ردت إلينا ، فننتفع بها فى معاشنا ، ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ أى : ونجلب لأهلنا الميرة وهى الزاد الذى يؤتى به من مكان إلى آخر .

﴿ وَنَحْفَظُ أَخَانَا ﴾ ، عند سفره معنا من أى مكروه ﴿ وَنَزْدَادُ ﴾ بوجوده معنا عند الدخول على عزيز مصر ﴿ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ أى : ويعطينا العزيز حمل بعير من الزاد ، زيادة على هذه المرة نظرا لوجود أخينا معنا .

ولعل قولهم هذا كان سببه أن يوسف ـ عليه السلام ـ كان يعطى من الطعام على عدد الرءوس ، حتى يستطيع أن يوفر القوت للجميع فى تلك السنوات الشداد ، واسم الإشارة فى قوله ـ سبحانه ـ : ﴿ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ يعود إلى الزاد الذى أحضروه من مصر : أى : ذلك الطعام الذى أعطانا عزيز مصر إياه ، طعام يسير ، لايكفينا إلا لمدة قليلة من الزمان ، ويجب أن نعود إلى مصر لنأتى بطعام آخر .

وفى هذه الجمل المتعددة التى حكاها القرآن عنهم : تحريض واضح منهم لأبيهم على أن يسمح لهم باصطحاب «بنيامين» معهم فى رحلتهم القادمة إلى مصر ، ومن مظاهر هذا التحريض : مدحهم لعزيز مصر الذى رد لهم أثمان مشترياتهم ، وحاجتهم الملحة إلى استجلاب طعام جديد ، وتعهدهم بحفظ أخيهم ، وازدياد الأطعمة بسبب وجوده معهم .

٥٥ ـ ولكن يعقوب ـ عليه السلام ـ مع كل هذا التحريض والإلحاح ، لم يستجب لهم

إلا على كره منه ، واشترط لهذه الاستجابة ما حكاه القرآن فى قوله : ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ . . ﴾ .

أى : قال يعقوب ـ عليه السلام ـ لهم : والله لن أرسل معكم «بنيامين» إلى مصر ، حتى تحلفوا لى بالله بأن تقولوا : والله لنأتينك به عند عودتنا ، ولن نتخلى عن ذلك ، إلا أن نهلك جميعا أوأن نغلب عليه بما هو فوق طاقتنا .

يقال : أحيط بفلان ، إذا هلك أو قارب الهلاك ، وأصله من إحاطة العدو بالشخص واستعمل فى الهلاك ، لأن من أحاط به العدو يهلك غالبا .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ ، أى : فلما أعطى الأبناء أباهم العهد الموثق باليمين ، بأن أقسموا له بأن يأتوا بأخيهم معهم عند عودتهم من مصر ، قال لهم على سبيل التأكد والحث على وجوب الوفاء : الله ـ تعالى ـ على ما نقول أنا وأنتم مطلع ورقيب ، وسيجازى الأوفياء خيرا ، وسيجازى الناقضين لعهودهم بما يستحقون من عقاب .

ثم حكى ـ سبحانه ـ بعد ذلك ما وصى به يعقوب أبناءه عند سفرهم فقال : ﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ . . ﴾ .

أى : وقال يعقوب لأبنائه وهو يودعهم : يا أبنائى إذا وصلتم إلى مصر ، فلاتدخلوا كلكم من باب واحد ، وأنتم أحد عشر رجلا ، بل ادخلوا من أبوابها المتفرقة ، بحيث يدخل كل اثنين أو ثلاثة من باب معين ، وكانت أبواب مصر ـ كما قيل ـ أربعة أبواب .

وقد ذكر المفسرون أسبابا متعددة لوصية يعقوب هذه لأبنائه ، وأحسن هذه الأسباب ، ما ذكره الآلوسى فى قوله : «نهاهم عن الدخول من باب واحد ، حذرا من إصابة العين ـ أى : من الحسد ـ ، فإنهم كانوا ذوى جمال وشارة حسنة ، فكانوا مظنة لأن يعانوا ـ أى : يحسدوا ـ ، إذا ما دخلوا كوكبة واحدة» .

ثم قال : والعين حق كما صح عن رسول الله ﷺ وصح ـ أيضا ـ بزيادة «ولو كان شىء يسبق القدر سبقته العين» ، وقد ورد ـ أيضا ـ : «إن العين لتدخل الرجل القبر والجمل القدر» .[1]

وقيل : إن السبب فى وصية يعقوب لأبنائه بهذه الوصية ، خوفه عليهم من أن يسترعى عددهم حراس مدينة مصر إذا ما دخلوا من باب واحد ، فيترامى فى أذهانهم

(١) تفسير الآلوسى جـ١٣ ص١٥ .

أنهم جواسيس أو ما شابه ذلك ، فربما سجنوهم أو حالوا بينهم وبين الوصول إلى يوسف - عليه السلام - .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ .. ﴾ ، اعتراف منه - عليه السلام - بأن دخولهم من الأبواب المتفرقة ، لن يحول بينهم وبين ما قدره الله - تعالى - وأراده لهم ، وإنما هو أمرهم بذلك من باب الأخذ بالأسباب المشروعة ، أى : وإنى بقولى هذا لكم ، لا أدفع عنكم شيئا قدره الله عليكم ولو كان هذا الشىء قليلا ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ - تعالى - وحده لاينازعه فى ذلك منازع ، ولايدافعه مدافع ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ ، أى : عليه - سبحانه - وحده فوضت أمرى .

﴿ وعَلَيْهِ ﴾ وحده ﴿ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ ، أى المريدون للتوكل الحق ، والاعتماد الصدق الذى لايتعارض مع الأخذ بالأسباب التى شرعها الله وأمر بها ، إذ أن كلا من التوكل ومن الأخذ بالأسباب ، مطلوب من العبد ، إلا أن العاقل عندما يأخذ فى الأسباب يجزم بأن الحكم لله وحده فى كل الأمور ، وأن الأسباب ماهي إلا أمور عادية ، يوجد الله - تعالى - بها ما يريد إيجاده ، ويمنع ما يريد منعه ، فهو الفعال لما يريد .

ويعقوب - عليه السلام - عندما أوصى أبناءه بهذه الوصية ، أراد بها تعليمهم الاعتماد على توفيق الله ولطفه ، مع الأخذ بالأسباب المعتادة الظاهرة ، تأدبا مع الله - تعالى - واضع الأسباب ومشرعها .

٥٦ - ثم بين - سبحانه - أن الأبناء قد امتثلوا أمر أبيهم لهم فقال : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا .. ﴾ .

والمراد بالحاجة هنا : نصيحته لأبنائه بأن يدخلوا من أبواب متفرقة خوفا عليهم من الحسد .

ومعنى ﴿ قَضَاهَا ﴾ أظهرها ، ولم يستطع كتمانها ، يقال : قضى فلان حاجة لنفسه إذا أظهر ما أضمره فيها .

أى : وحين دخل أبناء يعقوب من الأبواب المتفرقة التى أمرهم أبوهم بالدخول منها ما كان هذا الدخول يغنى عنهم ، أى : يدفع عنهم من قدر الله من شىء قدره عليهم ، ولكن الذى حمل يعقوب على أمرهم بذلك ، حاجة ، أى : رغبة خطرت فى نفسه «قضاها» أى : أظهرها ووصاهم بها ، ولم يستطع إخفاءها لشدة حبه لهم ، مع اعتقاده بأن كل شىء بقضاء الله وقدره .

وقوله ـ تعالى ـ ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ ، ثناء منه ـ سبحانه ـ على نبيه يعقوب ـ عليه السلام ـ بالعلم وحسن التدبير .

أى : وإن يعقوب ـ عليه السلام ـ لذو علم عظيم للشىء الذى علمناه إياه عن طريق وحينا ، فهو لاينسى منه شيئا إلا ما شاء الله ، ولكن أكثر الناس لايعلمون ما أعطاه الله ـ تعالى ـ لأنبيائه وأصفيائه من العلم والمعرفة وحسن التأتى للأمور .

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد فصلت الحديث عما دار بين إخوة يوسف وبين أبيهم فى شأن سفر أخيهم «بنيامين» ـ شقيق يوسف ـ معهم إلى مصر ، بناء على طلب يوسف منهم ذلك ، فماذا كان منهم بعد هذه الأحداث؟ .

١١ ـ اللقاء الثانى بين يوسف ـ عليه السلام ـ وبين إخوته ومعهم شقيقه «بنيامين»

٥٧ ـ حكت لنا سورة يوسف بعد ذلك أن إخوته سافروا إلى مصر ، ومعهم شقيقه «بنيامين» ، والتقوا جميعا هناك بيوسف ، وتكشف هذا اللقاء عن أحداث مثيرة ، زاخرة بالانفعالات والمفاجآت والمحاورات ، التى حكاها القرآن فى قوله ـ تعالى ـ :

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾

۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾

٥٨ ـ وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ..﴾، شروع فى بيان ما دار بين يوسف ـ عليه السلام ـ وبين شقيقه بنيامين بعد أن حضر إلى مصر مع إخوته .

وقوله : ﴿آوَى﴾ من الإيواء بمعنى الضم ، يقال : آوى فلان فلانا إذا ضمه إلى نفسه .

وقوله : ﴿فَلا تَبْتَئِسْ﴾ افتعال من البؤس ، وهو الشدة والضر ، والحزن .

أى : وحين دخل إخوة يوسف عليه ، ما كان منه إلا أن ضم إليه شقيقه بنيامين ، وقال له مطمئنا ومواسيا : إنى أنا أخوك الشقيق ، فلاتحزن ولاتبتئس بسبب ما فعله إخوتنا معنا من الحسد والأذى ، فإن الله ـ تعالى ـ قد عوض صبرنا خيرا ، وأعطانا الكثير من خيره وإحسانه .

قال الإمام ابن كثير : «يخبر الله ـ تعالى ـ عن إخوة يوسف حين دخلوا على يوسف ومعهم أخوه بنيامين ، وأدخلهم دار كرامته ، ومنزل ضيافته ، وأفاض عليهم الصلة

والإحسان ، واختلى بأخيه فأطلعه على شأنه وما جرى له ، وقال له لا تأسف على ما صنعوا بى ، وأمره بكتمان هذا عنهم ، وألا يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه ، وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده معززا مكرما معظما» .(١)

٥٩ ـ ثم بين ـ سبحانه ـ ما فعله يوسف ـ عليه السلام ـ مع إخوته ، لكى يبقى أخاه معه ، فلا يسافر معهم عند رحيلهم فقال : ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ . . ﴾ .

والجهاز ـ كما سبق أن بينا ـ : ما يحتاج إليه المسافر من زاد ومتاع ، والسقاية : إناء كان الملك يشرب فيه ، وعادة يكون من معدن نفيس ، وقد كان يوسف ـ عليه السلام ـ يكتال به فى ذلك الوقت ، نظرا لقلة الطعام وندرته ، وهذه السقاية هى التى أطلق عليها القرآن بعد ذلك لفظ الصواع .

أى : وحين أعطى يوسف إخوته ماهم فى حاجة إليه من زاد وطعام ، أوعز إلى بعض فتيانه أن يدسوا السقاية فى متاع أخيه «بنيامين» دون أن يشعر بهم أحد .

وقوله : ﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ ، بيان لما قاله بعض أعوان يوسف لإخوته عندما تهيئوا للسفر ، وأوشكوا على الرحيل ، والمراد بالمؤذن هنا : المنادى بصوت مرتفع ليعلم الناس ما يريد إعلامهم به .

والمراد بالعير هنا : أصحابها ، والأصل فيها أنها اسم للإبل التى تحمل الطعام أى : ثم نادى مناد على إخوة يوسف وهم يتجهزون للسفر بقوله : يا أصحاب هذه القافلة توقفوا حتى يفصَل فى أمركم فأنتم متهمون بالسرقة .

ثم بين ـ سبحانه ـ ما قاله إخوة يوسف بعد أن سمعوا المؤذن يستوقفهم ويتهمهم بالسرقة فقال ـ تعالى ـ : ﴿ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ .

أى : قال إخوة يوسف بدهشة وفزع لمن ناداهم وأخبرهم بأنهم سارقون : ماذا تفقدون ـ أيها الناس ـ من أشياء حتى تتهموننا بأننا سارقون؟ .

وهنا رد عليهم هذا المنادى ومن معه من حراس : نفقد صواع الملك ، أى : الوعاء الذى يشرب فيه ، ويكتال به عند الحاجة .

﴿ وَلِمَن جَاءَ بِهِ ﴾ ، أى : بهذا الوعاء أو دل على سارقه ﴿ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ ، أى : من

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٤٨٥ .

الطعام زيادة على حقه كمكافأة له ﴿ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾ أى : وأنا بهذا العطاء كفيل بأن أدفعه لمن جاءنا بصواع الملك .

٦٠ ـ وهنا نجد إخوة يوسف يردون عليهم ردا يدل على استنكارهم لهذه التهمة ، وعلى تأكدهم من براءتهم فيقولون : ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ .

أى : قال إخوة يوسف لمن اتهمهم بالسرقة ، والله يا قوم لقد علمتم من حالنا وسلوكنا وأخلاقنا ، أننا ما جئنا إلى بلادكم لكى نفسد فيها أو نرتكب مالا يليق ، وما كنا فى يوم من الأيام ونحن فى أرضكم لنرتكب هذه الجريمة . لأنها تضرنا ولاتنفعنا ، حيث إننا فى حاجة إلى التردد على بلادكم لجلب الطعام ، ولو ارتكبنا جريمة السرقة لمنعتمونا من دخول بلادكم التى لاغنى لنا عنها .

وهنا يرد عليهم المنادى وأعوانه الذين يبدو أنهم يتحدثون بما كلفهم به يوسف : ﴿ فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ ، أى : قالوا لهم : إذا فما جزاء وعقاب هذا السارق لصواع الملك فى شريعتكم ، إن وجدنا هذا الصواع فى حوزتكم ، وكنتم كاذبين فى دعواكم أنكم ما كنتم سارقين؟ .

فرد عليهم إخوة يوسف ببيان حكم هذا السارق فى شريعتهم : ﴿ جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ .

والمراد بالجزاء هنا : العقاب الذى يعاقب به السارق فى شريعتهم ، والضمير فى قوله : ﴿ جَزَاؤُهُ ﴾ يعود إلى السارق .

أى : قال إخوة يوسف : جزاء هذا السارق الذى يوجد صواع الملك فى رحلة ومتاعه أن يصبح عبدا رقيقا بعد أن كان حرا لمدة سنة ، هذا هو جزاؤه فى شريعتنا عقوبة له على السرقة .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ .. ﴾ معطوف على كلام محذوف يفهم من السياق .

والتقدير : وبعد هذه المحاورة التى دارت بين إخوة يوسف ، وبين الذين اتهموهم بالسرقة ، والتى انتهت بموافقة إخوة يوسف على تفتيش أمتعتهم للبحث عن صواع

الملك ، قام الحراس بالتفتيش ، فبدأ المكلف بذلك بتفتيش أمتعتهم ، قبل أن يفتش متاع بنيامين فلم يجد شيئا ، فلما انتهى إلى متاع بنيامين وجد الصواع بداخله فأخرجه منه على مشهد منهم جميعا ، ويبدو أن الحوار من أوله كان بمشهد من يوسف ـ عليه السلام ـ وبتوجيه منه للمؤذن ومن معه .

ويطوى القرآن ما اعترى إخوة يوسف من دهشة وخزى ، بعد أن وجدت السقاية فى رحل بنيامين ، وبعد أن أقسموا بالله على براءتهم من تهمة السرقة .

يطوى القرآن ذلك كله ، ليترك للعقول أن تتصوره ، ثم يعقب على ماحدث ببيان الحكمة التى من أجلها ألهم الله ـ تعالى ـ يوسف أن يفعل ذلك فيقول : ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ ، و﴿ كِدْنَا ﴾ من الكيد ، وأصله الاحتيال والمكر ، وهو : صرف غيرك عما يريده بحيلة ، وهو مذموم إن تحرى به الفاعل الشر والقبيح ، ومحمود إن تحرى به الفاعل الخير والمراد به هنا : النوع المحمود .

والمعنى : مثل هذا التدبير الحكيم دبرنا من أجل أن نحقق ليوسف ما يوصله إلى غرضه ومقصده ، وهو احتجاز أخيه بنيامين معه ، بأن ألهمناه بأن يضع السقاية فى رحل أخيه ، وبأن يسأل إخوته عن حكم السارق فى شريعتهم .

وقوله : ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. ﴾ ، أى : مثل هذا التدبير الحكيم ألهمناه ليوسف ، وما كان ليستطيع أن يحتجز أخاه معه لو نفذ شريعة ملك مصر ، لأن شريعته لاتجيز استرقاق السارق سنة كما هو الحال فى شريعة يعقوب ـ عليه السلام ـ التى عليها أبناؤه ، وإنما تعاقب السارق بضربه وتغريمه قيمة ما سرقه .

فالمقصود بدين الملك : شريعته التى يسير عليها أهل مملكته .

وقوله : ﴿ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. ﴾ بيان لمظهر من مظاهر فضل الله ـ تعالى ـ على يوسف ـ عليه السلام ـ أى : دبرنا ليوسف هذا التدبير الحكيم ، ولولاه لما استطاع أن يحتجز أخاه ، وما كان ليوسف أن يفعل كل ذلك التدبير الحكيم فى حال من الأحوال ، إلا فى حال مشيئة الله ـ تعالى ـ ومعونته وإذنه بذلك ، فهو الذى ألهمه أن يدس السقاية فى رحل أخيه ، و أن يسأل إخوته عن عقوبة السارق فى شريعتهم ، حتى يطبقها على من يوجد صواع الملك فى رحلة منهم .

﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ﴾ ، رفعه وتكريمه ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ ﴾ ، من أولئك المرفوعين ﴿ عَلِيمٌ ﴾ يزيد عنهم فى علمهم وفى مكانتهم عند الله ـ تعالى ـ .

٦١ ـ ثم حكى ـ سبحانه ـ ما قاله إخوة يوسف فى أعقاب ثبوت تهمة السرقة على «بنيامين» ـ شقيق يوسف ـ فقال : ﴿ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ . . ﴾ .

أى : قال إخوة يوسف بعد هذا الموقف المحرج لهم : إن يسرق بنيامين هذا الصواع الخاص بالملك ، فقد سرق أخ له من قبل ـ وهو يوسف ـ ما يشبه ذلك ، وقد ذكر المفسرون هنا روايات متعددة فى مراد إخوة يوسف بقولهم هذا ، ومنها : أن يوسف وهو صغير سرق صنما من ذهب وفضة ، ثم كسره وألقاه فى عرض الطريق ، فعيره إخوته بذلك .

وقوله : ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ .

أى : سمع يوسف ـ عليه السلام ـ ما قاله إخوته فى شأنه وفى شأن شقيقه ، فساءه ذلك ، ولكنه كظم غيظه ، ولم يظهر لهم تأثره مما قالوه ، وإنما رد عليهم بقوله : بل أنتم أيها الإخوة أشد فى الشر والأذى منى أنا وأخى ، لأنكم أنتم الذين كذبتم على أبيكم وخدعتموه ، وقلتم له بعد أن ألقيتم بى في الجب : لقد أكله الذئب . . ﴿ وَاللَّهُ ﴾ ـ تعالى ـ ﴿ أَعْلَمُ ﴾ منى ومنكم ﴿ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ به غيركم من الأوصاف التى خالفها الحق ولا يؤيدها الواقع .

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما قاله إخوة يوسف له بعد ذلك على سبيل الرجاء والاستعطاف فقال ـ تعالى ـ : ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ . . ﴾ .

أى : قالوا له يأيها العزيز الذى أكرمنا وأحسن إلينا ، إن أخانا بنيامين الذى احتجزته عندك لمدة سنة على سبيل الاسترقاق ، له أب شيخ كبير قد تقدمت به السن ، وهذا الأب يحب هذا الابن حبا جما ، فخذ أحدنا مكانه حتى لا نفجع أبانا فيه ، وإننا ما طلبنا منك هذا الطلب ، إلا لاعتقادنا أنك من المحسنين إلينا ، المكرمين لنا ، فسر على طريق هذا الإحسان والإكرام ، وأطلق سراح أخينا بنيامين ليسافر معنا .

ولكن يوسف ـ عليه السلام ـ رد عليهم ردا حازما حاسما قال فيه : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ ، أى : حاش لله ونعوذ بالله من ﴿ أَن نَّأْخُذَ ﴾ فى جريمة السرقة إلا الشخص الذى ﴿ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ ﴾ ، أى : وجدنا صواع الملك عنده وهو بنيامين .

وأنتم الذين أفتيتم بأن السارق فى شريعتكم عقوبته استرقاقه لمدة سنة ، فنحن نسير فى هذا الحكم تبعا لشريعتكم .

و ﴿إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾ إذا أخذنا شخصا آخر سوى الذى وجدنا متاعنا عنده ، والظلم تأباه شريعتنا كما تأباه شريعتكم ، فاتركوا الجدال فى هذا الأمر الذى لاينفع معه الجدال لأننا لانريد أن نكون ظالمين .

وبهذا الرد الحاسم قطع يوسف حبال آمال إخوته فى العفو عن «بنيامين» ، أو فى أخذ أحدهم مكانه ، فانسحبوا من أمامه تعلوهم الكآبة ، وطفقوا يفكرون فى مصيرهم وفى موقفهم من أبيهم عند العودة إليه .

٦٢ ـ وقد حكى القرآن ذلك بأسلوبه البليغ فقال : ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ .

وقوله : ﴿اسْتَيْأَسُوا﴾ أى : يئسوا يأسا تاما .

وقوله : ﴿خَلَصُوا﴾ من الخلوص بمعنى الانفراد ، و﴿نَجِيًّا﴾ بمعنى المناجاة فى السر والفاء فى قوله : ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا﴾ للعطف على محذوف يفهم من السياق .

والتقدير : لقد بذل إخوة يوسف أقصى جهودهم معه ليطلق لهم سراح أخيهم «بنيامين» ، أو ليأخذ أحدهم بدله ، فلما يئسوا يأسا تاما من الوصول إلى مطلوبهم انفردوا عن الناس ليتشاوروا فيما يفعلونه ، وفيما سيقولونه لأبيهم عندما يعودون إليه ولايجد معهم بنيامين .

وهنا قال لهم كبيرهم فى السن وهو «روبيل» أو كبيرهم فى العقل وهو «يهوذا» ـ ولم يذكر القرآن اسم كبيرهم ، لأنه لايتعلق بذكره غرض ـ قال لهم : ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا﴾ ، وأنتم تريدون الرجوع إلى أبيكم ﴿أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ عندما أرسل معكم بنيامين بأن تحافظوا عليه ، وألا تعودوا إليه بدونه .

وألم تعلموا كذلك أنكم فى الماضى قد فرطتم وقصرتم فى شأن يوسف ، حيث عاهدتم أباكم على حفظه ، ثم ألقيتم به فى الجب .

لاشك أنكم قد علمتم كل ذلك ، ولهذا فوالله لن أبرح أرض مصر ولن أفارقها حتى يأذن لى أبى بمفارقتها ، أو حتى يحكم الله لى بالخروج منها وبمفارقتها على وجه لايؤدى إلى نقض الميثاق مع أبى ، وهو ـ سبحانه ـ أحكم الحاكمين ، لأنه لايحكم إلا بالحق والعدل .

ثم واصل كبيرهم حديثه معهم فقال : ﴿ ارْجِعُوا ﴾ يا إخوتى ﴿ إِلَىٰ أَبِيكُمْ ﴾ ، يعقوب ﴿ فَقُولُوا ﴾ له برفق وتلطف : ﴿ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ ﴾ بنيامين ﴿ سَرَقَ ﴾ صواع الملك ، ووجد الصواع فى رحله ، وقولوا له - أيضا - إننا ﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا ﴾ ، أى : وما شهدنا على أخينا بهذه الشهادة إلا على حسب علمنا ويقيننا بأنه سرق ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ ، أى : وما كنا نعلم الغيب بأنه سيسرق صواع الملك ، عندما أعطيناك عهودنا ومواثيقنا بأن نأتيك به معنا ، وقولوا له - أيضا - على سبيل زيادة التأكيد ، إن كنت فى شك من قولنا هذا فاسأل أهل القرية التى كنا فيها ، بأن ترسل من تريد إرساله إلى أهل مصر لتسألهم عن هذه الحادثة وهى سرقة «بنيامين» لصواع الملك فإنهم يعرفونها جيدا واسأل كذلك ﴿ الْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ أى : قوافل التجارة التى صاحبتنا عند ذهابنا إلى مصر وعند رجوعنا منها ، فسيخبرونك بهذه الحادثة بالتفصيل وإنا لصادقون صدقا تاما فى كل ما أخبرناك به .

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد صورت بأسلوب حافل بالإثارة والمحاورة ، والأخذ والرد ، والترغيب والترهيب ، ما دار بين يوسف وإخوته عندما قدموا إليه للمرة الثانية ، ومعهم شقيقه «بنيامين» فماذا كان بعد ذلك ؟ .

١٢ ـ يعقوب ـ عليه السلام ـ يحرض أولاده على البحث عن يوسف وأخيه بنيامين

٦٣ ـ لقد حكت الآيات الكريمة بعد تلك المحاورة التى دارت بين إخوة يوسف وهم بأرض مصر ، أن عادوا إلى أبيهم ، وتركوا بمصر كبيرهم وأخاهم بنيامين ، ويطوى القرآن ـ على عادته فى هذه السورة الكريمة ـ أثر ذلك على قلب أبيهم المفجوع ، . إلا أنه يسوق رده عليهم ، الذى يدل على كمال إيمانه ، وسعة آماله فى رحمة الله ـ تعالى ـ فيقول :

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾

٦٤ ـ أى : قال يعقوب ـ عليه السلام ـ لبنيه الذين حضروا إليه من رحلتهم ، فأخبروه بما هيج أحزانه ، قال لهم : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ أى : ليس الأمر كما تدعون ، ولكن أنفسكم هى التى زينت لكم أمرا أنتم أردتموه ، فصبرى على ما قلتم صبر جميل ، أى : لا جزع معه ولا شكوى إلا لله ـ تعالى ـ .

ولعل الذى حمل يعقوب ـ عليه السلام ـ على هذا القول ، المفيد لتشككه فى صدق ما أثبتوه لأنفسهم من البراءة ، هو ماضيهم معه ، فإنهم قد سبق لهم أن فجعوه فى يوسف ، بعد أن عاهدوه على المحافظة عليه .

ولكن يعقوب هنا أضاف إلى هذه الجملة جملة أخرى تدل على قوة أمله فى رحمة

الله ، وفى رجائه الذى لايخيب فى أن يجمع شمله بأبنائه جميعا فقال ـ عليه السلام ـ : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ .

أى : عسى الله ـ تعالى ـ أن يجمعنى بأولادى جميعا ـ يوسف وبنيامين وروبيل ـ الذى تخلف عنهم فى مصر ، إنه ـ سبحانه ـ هو العليم بحالى ، الحكيم فى كل مايفعله ويقضى به ، وهذا القول من يعقوب ـ عليه السلام ـ يدل دلالة واضحة على كمال إيمانه ، وحسن صلته بالله ـ تعالى ـ ، وقوة رجائه فى كرمه وعطفه ولطفه ، ـ سبحانه ـ وكأنه بهذا القول يرى بنور الله الذى غرسه فى قلبه ، مالايراه غيره بحواسه وجوارحه .

ثم يصور ـ سبحانه ـ ما اعترى يعقوب من أحزان على يوسف ، جددها فراق بنيامين له فقال ـ تعالى ـ : ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ .

ولفظ ﴿ كَظِيمٌ ﴾ هنا بمعنى مكظوم ، وهو الممتلئ بالحزن ولكنه يخفيه عن الناس ولا يظهره لهم .

والمعنى : وبعد أن استمع يعقوب إلى ما قاله أبناؤه له ، ورد عليهم بمايدل على شكه فى صدقهم ، انتابته الأحزان والهموم ، وتجددت فى قلبه الشجون ، وتركهم واعتزل مجلسهم وهو يقول :﴿ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ أى : يا حزنى على ابنى يوسف أقبل فهذا أوان إقبالك .

﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ ﴾ حتى ضعف بصره ، وانقلب سواد عينيه بياضا من كثرة البكاء ، ومن كثرة امتلائه بالحزن المكتوم فى قلبه على فراق يوسف .

قالوا : وإنما تأسف على فراق يوسف دون أخويه ـ بنيامين وروبيل ـ مع أن الرزء الأحدث أشد على النفس ، لأن المصيبة فى فراق يوسف كانت الأصل فى حزنه ، وكانت القاعدة التى ترتبت عليها الرزايا والخطوب بعد ذلك ولأن من شأن المصيبة الجديدة أن تذكر بالمصيبة السابقة عليها ، وتهيج أحزانها ، وقد عبر عن هذا المعنى «متمم بن نويرة فى رثائه لأخيه مالك بن نويرة» حيث قال :

لقد لامنى عند القبور على البكا ... رفيقى لتذراف الدموع السوافك

فقال أتبكى كل قبر لقيته ... لقبر ثوى بين اللوى والدكادك

فقلت له إن الشجى يبعث الشجى ... فدعنى ، فهذا كله قبر مالك

٦٥ ـ ثم يحكى القرآن بعد ذلك ما قاله أبناء يعقوب له ، وقد رأوه على هذه الصورة من

الهم والحزن فيقول : ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ ولفظ ﴿حَرَضًا﴾ مصدر حرض ـ كتعب ـ والحرض : الإشراف على الهلاك من شدة الحزن أو المرض ، أى : قال أبناء يعقوب له : يا أبانا ، تا الله مايزال تذكرك ليوسف بهذا الحزن الشديد ، حتى تشرف على الموت ، أو تكون من المفارقين لهذه الدنيا .

وهنا يرد عليهم الأب الذى يشعر بغير مايشعرون به من ألم وأمل بقوله : ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي﴾ ، أى : همى الذى انطوى عليه قلبى ﴿وَحُزْنِي﴾ الشديد على فراق يوسف ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ تعالى وحده ، لا إلى غيره فهو العليم بحالى ، وهو القادر على تفريج كربى فاتركونى وشأنى مع ربى وخالقى فإنى ﴿أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ﴾ أى : من لطفه وإحسانه وثوابه على الصبر على المصيبة ﴿مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ أنتم ، وإنى لأرجو أن يرحمنى وأن يلطف بى ، وأن يجمع شملى بمن فارقنى من أولادى ، فإن حسن ظنى به ـ سبحانه ـ عظيم .

ثم يمضى يعقوب ـ عليه السلام ـ فى رده على أولاده ، فيأمرهم أن يواصلوا بحثهم عن يوسف وأخيه ، وألا يقنطوا من رحمة الله فيقول : ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ .

أى : قال يعقوب لأولاده : يابنى اذهبوا إلى أرض مصر ، أو إلى أى مكان تتوقعون فيه وجود يوسف وأخيه ﴿فَتَحَسَّسُوا﴾ أمرهما ، وتعرفوا حالهما بدون كلل أو ملل وفى التعبير بقوله : ﴿فَتَحَسَّسُوا﴾ ، إشارة إلى أمره لهم بالبحث الجاد الحكيم المتأنى ، إذ التحسس هو طلب الشىء بطريق الحواس بدقة وحكمة وصبر على البحث .

وقوله : ﴿وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ أى : ولاتقنطوا من فرج الله وسعة رحمته .

وأصل معنى : ﴿الرَّوْحِ﴾ التنفس ، يقال : أراح الإنسان إذا تنفس ، ثم استعير لحلول الفرج ، وكلمة ﴿رَّوْحِ﴾ ـ بفتح الراء ـ أدل على هذا المعنى ، لما فيها من ظل الاسترواح من الكرب الخانق ، بسبب ما تتنسمه الأرواح من رحمة الله .

وقوله : ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ ، تعليل لحضهم على التحسس .

أى : إنه لايقنط من رحمة الله ـ تعالى ـ إلا القوم الكافرون ، لعدم علمهم بعظيم قدرته ، وسعة رحمته ، أما المؤمنون فإنهم لاييأسون من فرج الله أبدا ، حتى ولو أحاطت بهم الكروب ، واشتدت عليهم المصائب .

١٣ ـ اللقاء الثالث بين يوسف وإخوته

٦٦ ـ استجاب أبناء يعقوب لنصيحة أبيهم ، فأعدوا عدتهم للرحيل إلى مصر للمرة الثالثة ، ثم ساروا فى طريقهم حتى دخلوها ، والتقوا بعزيز مصر ـ وهو يوسف ـ عليه السلام ـ الذى احتجز أخاهم بنيامين ، وتحكى السورة ما دار بينه وبينهم من مفاجآت مثيرة فتقول :

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾

٦٧ ـ وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ .. ﴾ حكاية لما قاله إخوة يوسف له ، بعد لقائهم معه للمرة الثالثة .

والبضاعة : هى القطعة من المال ، يقصد بها شراء شىء معين .

والمزجاة : هي القليلة الرديئة التى ينصرف عنها التجار إهمالا لها ، وأصل الإزجاء : السوق ، والدفع قليلا قليلا .

وسميت البضاعة الرديئة القليلة مزجاة ، لأنها ترد وتدفع ولايقبلها التجار إلا بأبخس الأثمان .

والمعنى : وقال إخوة يوسف له بأدب واستعطاف بعد أن دخلوا عليه للمرة الثالثة : يأيها العزيز أصابنا وأصاب أهلنا الفقر والجدب ، وجئنا معنا من بلادنا ببضاعة قليلة رديئة ، يردها وينصرف عنها كل من يراها من التجار إهمالا لها ، واحتقارا لشأنها .

﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ ، أى : هذا هو حالنا وشأننا قد شرحناه لك ، ومادام أمرنا كذلك ، فأتم لنا كيلنا ولاتنقص منه شيئا ، وتصدق علينا فوق حقنا بما أنت أهل له من كرم ورحمة ، إن الله ـ تعالى ـ يجزى المتصدقين على غيرهم جزاء كريما حسنا .

وهنا رد عليهم يوسف ـ عليه السلام ـ بقوله : ﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ ، أى : قال لهم على سبيل التعريض بهم ،والتذكير بأخطائهم ، هل علمتم مافعلتموه بيوسف وبأخيه من أذى وعدوان عليهما ، وقت أن كنتم تجهلون سوء عاقبة هذا الأذى والعدوان؟ وقوله هذا يدل على سمو أخلاقه ، حتى لكأنه يلتمس لهم العذر ، لأن مافعلوه معه ومع أخيه كان فى وقت جهلهم وقصور عقلهم وعدم علمهم بقبح ما أقدموا عليه .

٦٨ ـ وهنا يعود إلى الإخوة صوابهم ، وتلوح لهم سمات أخيهم يوسف ، فيقولون له فى دهشة وعجب : أئنك لأنت أخونا يوسف الذى أكرمنا ، والذى فارقناه وهو صغير ، فأصبح الآن عزيز مصر ، والمتصرف فى شئونها؟ .

فرد عليهم بقوله : ﴿ أَنَا يُوسُفُ ﴾ ، الذى تتحدثون عنه ، والذى فعلتم معه مافعلتم ﴿ وَهَذَا أَخِي ﴾ بنيامين الذى ألهمنى الله الفعل الذى عن طريقه احتجزته عندى ، ولم أرسله معكم .

﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ ﴾ ـ تعالى ـ ﴿ عَلَيْنَا ﴾ حيث جمعنا بعد فراق طويل ، وبدل أحوالنا من عسر إلى يسر ، ومن ضيق إلى فرج .

ثم علل ذلك بما حكاه عنه القران فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

أى : إن من شأن الإنسان الذى يتقى الله ـ تعالى ـ ويصون نفسه عن كل مالايرضاه ، ويصبر على قضائه وقدره ، فإنه يرحمه الله برحمته ، ويكرمه بكرمه ، لأنه ـ سبحانه ـ لايضيع أجر من أحسن عملا ، وتلك سنته التى لاتتخلف ولاتتبدل .

وهنا يتجسد فى أذهان إخوة يوسف مافعلوه معه فى الماضى ، فينتابهم الخزى والخجل ، حيث قابل إساءتهم إليه بالإحسان إليهم ، فقالوا له فى استعطاف وتذلل : ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ .

أى : نقسم بالله ـ تعالى ـ لقد اختارك ـ سبحانه ـ لرسالته ، وفضلك علينا بالتقوى وبالصبر ، وبكل الصفات الكريمة ، أما نحن فقد كنا خاطئين فيما فعلناه معك ، ومتعمدين لما ارتكبناه فى حقك من جرائم ، ولذلك أعزك الله وأذلنا ، وأغناك وأفقرنا ، ونرجو منك الصفح والعفو .

فرد عليهم يوسف بقوله : ﴿ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ ، أى قال لهم : يا إخوتى لا لوم ولا تأنيب ولاتعبير عليكم اليوم ، فقد عفوت عما صدر منكم فى حقى وفى حق أخى من أخطاء وآثام ، وأرجو الله أن يغفر لكم ما فرط منكم من ذنوب ، وهو ـ سبحانه ـ أرحم الراحمين بعباده .

٦٩ ـ ثم انتقل يوسف ـ عليه السلام ـ من الحديث عن الصفح عنهم إلى الحديث عن أبيه الذي ابيضت عيناه عليه من الحزن عليه فقال : ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

أى : اذهبوا ـ يا إخوتى ـ بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى الذى طال حزنه بسبب فراقى له يأت بصيرا ، أى : يرتد إليه كامل بصره ، بعد أن ضعف من شدة الحزن ، وأتونى معه إلى هنا ومعكم أهلكم جميعا من رجال ونساء وأطفال .

وقول يوسف هذا إنما هو بوحى من الله ـ تعالى ـ فهو ـ سبحانه ـ الذى ألهمه أن إلقاء قميصه على وجه أبيه يؤدى إلى ارتداد بصره إليه كاملا ، وهذا من باب خرق العادة بالنسبة لهذين النبيين الكريمين .

واستجاب الإخوة لتوجيه يوسف ، فأخذوا قميصه وعادوا إلى أوطانهم ، ويصور القرآن ماحدث فيقول : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ .

ومعنى : ﴿ فَصَلَتِ الْعِيرُ ﴾ خرجت من مكان إلى آخر ، يقال : فصل فلان من بلدة كذا ، إذا جاوز حدودها إلى حدود بلدة أخرى .

وقوله : ﴿ تُفَنِّدُونِ ﴾ من الفند ، وهو ضعف العقل بسبب المرض والتقدم فى السن .

أى : وحين غادرت الإبل التى تحمل إخوة يوسف حدود مصر ، وأخذت طريقها إلى الأرض التى يسكنها يعقوب وبنوه ، قال يعقوب لمن كان جالسا معه : استمعوا إلىّ ، إنى لأجد رائحة يوسف التى تدل عليه ، وتشير إلى قرب لقائى به ، ولولا أن تنسبونى إلى ضعف العقل لصدقتمونى فيما قلت . .

وقد أشم الله ـ تعالى ـ يعقوب رائحة يوسف من مسيرة أيام ، وهى معجزة ظاهرة ، قال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ : أوصل الله ـ تعالى ـ ريح قميص يوسف إلى يعقوب ، كما أوصل عرش بلقيس إلى سليمان قبل أن يرتد إليه طرفه .

٧٠ ـ ولكن المحيطين بيعقوب ، الذين قال لهم هذا القول ، لم يشموا ما شمه ولم يحسوا ما أحسه ، فردوا عليه بقولهم : ﴿ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ .

أى : نقسم بالله إنك يا يعقوب مازلت غارقا فى خطئك القديم الذى لاتريد أن يفارقك ، وهو حبك ليوسف ، وأملك فى لقائه وفى الإكثار من ذكره ، وتحقق ما وجده يعقوب من رائحة يوسف ، وحل أوان المفاجأة التى حكاها القرآن فى قوله :﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ .

أى : وحين اقترب أبناء يعقوب من دار أبيهم ، تقدم البشير الذى يحمل قميص يوسف إلى يعقوب ، فألقى القميص على وجهه فعاد إلى يعقوب بصره كأن لم يكن به ضعف أو مرض من قبل ذلك .

وهذه معجزة أخرى أكرم الله بها نبيه يعقوب ، حيث رد إليه بصره بسبب إلقاء قميص يوسف على وجهه .

وهنا قال يعقوب لمن أنكر عليه قوله : ﴿ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ ألم أقل لكم قبل ذلك إنى أعلم من الله ـ تعالى ـ ومن رحمته ومن فضله وإحسانه مالا تعلمون أنتم؟ .

ولم يجد الأبناء إزاء هذه الأحداث والمفاجآت إلا أن يقولوا لأبيهم يعقوب : ﴿ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ ، أى : تضرع إلى الله ـ تعالى ـ أن يغفر لنا ما فرط منا من ذنوب فى حقك وفى حق أخوينا يوسف وبنيامين ، إنا كنا خاطئين فى حقك وفى حقهما ، ومن شأن الكريم أن يصفح ويعفو عمن اعترف له بالخطأ فى حقه .

فكان رد أبيهم عليهم أن قال لهم : سوف أتضرع إلى ربى لكى يغفر لكم ذنوبكم إنه ـ سبحانه ـ هو الكثير المغفرة والرحمة لمن يشاء من عباده .

١٤ ـ لقاء يوسف ـ عليه السلام ـ بأهله أجمعين

٧١ ـ صورت لنا السورة الكريمة قبل ذلك ما دار بين يوسف وإخوته ، وبين يعقوب وبنيه من مناقشات ومن لقاءات مثيرة ، وحافلة بالبشارات والمفاجآت .

ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد ، فقد كانت هناك مفاجآت أخرى تحققت معها رؤيا يوسف وهو صغير ، كما تحقق معها تأويل يعقوب لها ، فقد هاجر يعقوب ببنيه وأهله إلى مصر للقاء ابنه يوسف ، وهناك اجتمع شملهم ، استمع إلى القرآن وهو يحكى ذلك بأسلوبه البليغ ، فى آخر القصة فيقول :

فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾

٧٢ ـ وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ .. ﴾ معطوف على كلام محذوف ، والتقدير : استجاب إخوة يوسف لقوله لهم : ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ، فأتوه بهم جميعا ، حيث رحلوا من بلاد الشام التى كانوا يعيشون فيها إلى مصر ومعهم أبوهم يعقوب ـ عليه السلام ـ فلما وصلوا إليها ودخلوا على يوسف ، ضم إليه أبويه وعانقهما عناقا حارا ، وقال للجميع : ﴿ ادْخُلُوا ﴾ بلاد ﴿ مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ من الجوع والخوف .

وقد ذكر المفسرون هنا كلاما يدل على أن يوسف ـ عليه السلام ـ وحاشيته ووجهاء مصر ، عندما بلغهم قدوم يعقوب بأسرته إلى مصر ، خرجوا جميعا لاستقبالهم ، والمراد بدخول مصر : الاستقرار بها ، والسكن فى ربوعها .

قالوا : وكان عدد أفراد أسرة يعقوب الذين حضروا معه ليقيموا فى مصر مابين الثمانين والتسعين .

والمراد بالعرش فى قوله ـ سبحانه ـ : السرير الذى كان يجلس عليه .

أى : وأجلس يوسف أبويه معه على السرير الذى كان يجلس عليه ، تكريما لهما ، وإعلاء من شأنهما .

﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ أى : وخر يعقوب وأسرته ساجدين من أجل يوسف ، وكان ذلك جائزا فى شريعتهم على أنه لون من التحية ، وليس المقصود به السجود الشرعى لأنه لايكون إلا لله ـ تعالى ـ وإنما المقصود به أنهم فعلوا معه مايدل على احترامه وتوقيره .

وقال يوسف متحدثا بنعمة الله : يا أبت هذا السجود الذى سجدتموه لى الآن ، هو تفسير رؤياى التى رأيتها فى صغرى ، فقد جعل ربى هذه الرؤيا حقا ، وأرانى تأويلها وتفسيرها بعد أن مضى عليها هذا الزمن الطويل .

قالوا : وكان بين هذه الرؤيا وبين ظهور تأويلها : أربعون سنة .

والمراد بها ما أشار إليه القران فى مطلع هذه السورة حيث قال ـ سبحانه ـ حكاية عن يوسف : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ .

ثم قال يوسف ـ أيضا ـ : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي ﴾ ربى ـ سبحانه ـ ﴿ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ ، بعد أن مكثت فيه بضع سنين ، وأحسن بى ـ أيضا ـ حيث جمعنى بكم فى مصر ، بعد أن كنتم مقيمين فى البادية ، من أرض كنعان بفلسطين ، وبعد أن أفسد الشيطان بينى وبين إخوتى ، حيث حملهم على أن يلقوا بى فى الجب .

وأسند النزغ الذى بمعنى الإفساد إلى الشيطان ، لأنه هو الموسوس به ، والدافع إليه ، ولأن فى ذلك سترا على إخوته وتأدبا معهم .

وقوله : ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ ، تذييل قصد به الثناء على الله ـ تعالى ـ بما هو أهله .

أى : إن ربى وخالقى لطيف التدبير لما يشاء تدبيره من أمور عباده ، رفيق بهم فى جميع شئونهم من حيث لايعلمون ، وأنه ـ سبحانه ـ هو العليم بأحوال خلقه ، الحكيم فى جميع أقواله وأفعاله .

ثم ختم يوسف ثناءه على الله ـ تعالى ـ بهذا الدعاء الجامع لكل خير فقال : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ﴾ ، أى : يا رب قد أعطيتنى شيئا عظيما من الملك والسلطان بفضلك

وكرمك ﴿ وَعَلَّمْتَنِي ﴾ ، ـ أيضا ـ شيئا كثيرا ﴿ من تَأْوِيلِ الأَحَادِيث ﴾ أى : من تفسيرها وتعبيرها تعبيرا صادقا بتوفيقك وإحسانك ﴿ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ ، أى : خالقهما على غير مثال سابق ﴿ أَنتَ وَلِيِّي ﴾ وناصرى ومعينى ﴿ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي ﴾ ، عندما يدركنى أجلى على الإسلام ، وأبقنى ﴿ مُسْلِمًا ﴾ مدة حياتى ﴿ وَأَلْحِقْنِي ﴾ فى قبرى ويوم الحساب ﴿ بِالصَّالِحِينَ ﴾ من عبادك ، وبهذا الدعاء الجامع لألوان الخير الذى توجه به يوسف إلى خالقه ، يختتم القران قصة هذا النبى الكريم مع أبيه ومع إخوته ومع غيرهم ممن عاشرهم والتقى بهم ، وهو دعاء يدل على أن يوسف ـ عليه السلام ـ لم يشغله الجاه والسلطان ، عن طاعة ربه ، وعن تذكر الآخرة وما فيها من حساب وثواب وعقاب .

٧٣ ـ وبعد . . فهذه قصة يوسف ـ عليه السلام ـ كما وضحتها آيات القرآن الكريم ، تلك القصة الزاخرة بالحكم والأحكام ، وبالآداب والأخلاق ، وبالمحاورات والمجادلات ، وبأحوال النفوس البشرية فى حبها وغضبها ، وعسرها ويسرها ، وخيرها وشرها ، وعطائها ومنعها ، وسرها وعلانيتها ، ورضاها وغضبها ، وحزنها وسرورها . ومن الدروس النافعة ، والعظات البليغة ، التى يجب أن نتعلمها من هذه القصة مايلى :

(أ) أن الحسد رذيلة إذا سيطرت على النفوس ، أفقدتها رشدها وصوابها ، وتقديرها الصحيح للأمور ، وأن الإنسان الحقود هو الذى يتمنى زوال النعمة عن غيره .

وبسبب الحسد ، ارتكبت أول جريمة قتل على ظهر الأرض ، فقد قتل قابيل أخاه هابيل ، لأن الله ـ تعالى ـ تقبل صدقة هابيل لإخلاصه ، ولم يقبل صدقة قابيل لظلمه ، فما كان من قابيل إلا أن حسد أخاه على ما آتاه الله من فضله ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ وبسبب الحسد فعل إخوة يوسف معه ما فعلوا ، من كراهية ، ومن إلقاء به فى غيابة الجب دون رحمة أو شفقة منهم له .

والحسد حقيقة واقعة ، وأثره لاشك فيه ، وإلا لما أمر الله ـ تعالى ـ نبيه ﷺ أن يستعيذ به من شرور الحاسدين ، قال ـ تعالى ـ :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ . مِن شَرِّ مَا خَلَقَ . وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ . وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ . وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ [الفلق : ١ - ٥]

وفى الحديث الشريف : «العين حق ، العين تدخل الجمل القِدْر ، والرجلَ القبر ، ولو كان شىء يسبق القدر لسبقته العين» .

وقد نهى النبى ﷺ نهيا شديدا عن هذه الرذيلة ، فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إياكم والحسد ، فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب» .

وعن الزبير بن العوام ﵁ أن رسول الله ﷺ قال : «دَبَّ إليكم داء الأمم قبلكم : الحسد والبغضاء ، وهى الحالقة ، أما إنى لا أقول : تحلق الشعر لكن تحلق الدِّين ، والذى نفسى بيده ، لاتدخلون الجنة حتى تؤمنوا ، ولاتؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أدلكم على ما تتحابون به؟ أفشلوا السلام بينكم» .

(ب) أن إخوة يوسف وإن كانوا جميعا مخطئين فى حقه ، إلا أن هذا الخطأ كانت درجاته متفاوتة فيما بينهم ، إذ منهم من قال : ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ .. ﴾ ، ومنهم من قال : ﴿ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ .

وهذا الرأى الأخير هو الذى استقر عليه أمرهم ، والذى اقترح هذا الرأى منهم كان على شىء من العقل والحكمة ، لأنه اكتفى بالعقوبة التى يحصل بها غرضهم وقصدهم ، وهى إبعاد يوسف عن وجه أبيهم ، وهذا الإبعاد يتم عن طريق إلقائه فى الجب ، فيكفى عن القتل أو الطرح فى الأرض حتى يموت ، وهكذا قيض الله ـ تعالى ـ ليوسف من بين إخوته من يقترح الاقتصاد فى الانتقام .

(جـ) أن الخلوة التى تكون بين الرجال والنساء غير المحارم ، حرمتها شريعة الإسلام تحريما قاطعا ، وذلك لأنها تؤدى إلى الوقوع فيما نهى الله ـ تعالى ـ عنه ، إذ ميل الرجل إلى المرأة ، وميل المرأة إلى الرجل ، أمر طبيعى ، وما بالذات لايتغير .

ووجود يوسف ـ عليه السلام ـ مع امرأة العزيز تحت سقف واحد ، أدى إلى فتنتها به ، وإلى أن تقول له فى نهاية الأمر بعد إغراءات شتى : ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ ، أى : أنا متهيئة لما تريده منى .

ولاشك أن من الأسباب الأساسية التى جعلتها تقول هذا القول ـ الذى فيه خروج على طبيعة الأنثى التى جرت العادة أن تكون مطلوبة لا طالبة ـ وجودهما فى بيت واحد ، ومن الأحاديث النبوية الشريفة التى حذرت من اختلاط الرجال بالنساء ، ما جاء فى الصحيحين عن عقبة بن عامر ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : «إياكم والدخول على النساء» فقال رجل من الأنصار : أفرأيت الحمو يا رسول الله؟ قال ﷺ «الحمو الموت» ، والحمو : هو قريب الزوج كأخيه وابن عمه .

وسئلت امرأة كانت من علية القوم ، وقد انحرفت عن طريق العفاف ، لماذا كان منك ذلك وأنت من أنت فى قومك؟ فقالت : قرب الوساد ، وطول السِّواد ، أى : وطول الحديث مع من أحب ، ولاشك ـ أيضا ـ فى أن موقف زوج تلك المرأة التى كانت تعيش مع يوسف فى بيت واحد ، كان موقفا فيه مافيه من الرخاوة وقلة الغيرة وبرود الطبع ،

شأن المترفين فى كل زمان ومكان ، ولا أدل على ذلك من أنه حتى بعد أن قامت القرائن على انحراف امرأته ، لم يفرق بينها وبين يوسف - عليه السلام - بل استمر الحال على ماهو عليه من بقائها مع يوسف - عليه السلام - تحت سقف واحد ، وكل ما قاله : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ .

(د) أن المصطفين الأخيار من عباد الله - تعالى - لايستطيع الشيطان أن يتغلب عليهم مهما قدم لهم من شهوات ومغريات ، بل إنهم ليفضلون السجن وما يشبهه من أذى ، على اقتراف مايتنافى مع مكارم الأخلاق .

ولقد ضرب يوسف - عليه السلام - فى هذا الشأن أروع الأمثال ، ألا تراه أمام تهديد تلك المرأة التى راودته عن نفسه فاستعصم ، يلتمس العون من ربه فيقول : ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ . فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

قال الإمام ابن كثير : قوله - تعالى - : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ وذلك لأن يوسف - عليه السلام - عصمه الله عصمة عظيمة ، وحماه فامتنع منها أشد الامتناع ، واختار السجن على ذلك ، وهذا فى غاية مقامات الكمال ، إنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيدته وهى امرأة عزيز مصر ، وهى مع هذا فى غاية الجمال والمال والرياسة ، فيمتنع من ذلك ويختار السجن خوفا من الله - تعالى - ورجاء فى ثوابه . .[1]

(هـ) أن الإنسان صاحب الرسالة يحرص على تبليغ الرسالة التى أمره الله - تعالى - بتبليغها كل الحرص ، ولايشغله عن أداء وظيفته سجن أو تهديد .

انظر إلى يوسف - عليه السلام - يتعرض للمؤامرات والفتن ، ويلقى به فى السجن ظلما وعدوانا ، ومع ذلك نراه وهو بالسجن يدعو من معه إلى إخلاص العبادة لله الواحد القهار ، فيقول كما حكى القرآن عنه :

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٤ ص٣١٣ .

(و) أن سنة الله ـ عز وجل ـ قد اقتضت أنه لايضيع أجر من أحسن عملا وأنه ـ سبحانه ـ يأتى بالفرج بعد الشدة ، وباليسر بعد العسر .

وهذا ما نراه واضحا فى قصة يوسف ـ عليه السلام ـ فبعد تعرضه للفتن والظلم ، وبعد إلقائه فى السجن لبضع سنين ، بعد كل ذلك نراه يخرج من السجن معززا مكرما ، لأنه قد فسر رؤيا الملك تفسيرا حكيما صادقا ، أنقذ مصر من مجاعة سبع سنين ، ونراه لايقبل الذهاب إلى الملك إلا بعد أن يشهد الجميع ببراءته وعلى رأسهم امرأة العزيز ، ولقد شهد الجميع بذلك ، فقد قال الملك لامرأة العزيز وحاشيتها : ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ، وهكذا نرى أن الحق مهما طال خفاؤه لابد من ظهوره ، وأن الليل البهيم لابد من أن يعقبه صبح منير ، وأن العاقبة للمتقين .

(ز) أن الإنسان صاحب المواهب العالية ، والتفكير السليم ، والفهم الصحيح للأمور ، عندما يلمس فى نفسه الكفاءة لأداء عمل معين يخدم عن طريقه أمته ، لابأس من أن يطلب هذا العمل بعزة وإباء وإخلاص .

ألا ترى أن يوسف ـ عليه السلام ـ يقول له ملك مصر بعد أن شاهد فيه الصدق والعلم والعقل الراجح ، والعفاف النادر : ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أى : إنك منذ اليوم عندنا صاحب الكلمة النافذة ، والمنزلة الرفيعة ، التى تجعلنا نأتمنك على كل شىء فى مملكتنا ، فيجيبه يوسف ـ عليه السلام ـ بصيغة الأمر ، وبعزة وشمم : ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ أى : اجعلنى أمينا على خزائن مملكتك ، المشتملة على مايحتاج إليه الناس من طعام وأموال ، لأنى شديد الحفظ لما فيها واسع الخبرة فى هذا المجال .

فأنت ترى أن يوسف لم يطلب هذا المنصب الرفيع لهوى فى نفسه ، وإنما طلبه لرعاية مصالح الناس ، وتدبير أمورهم فى تلك السنوات العجاف .

(ح) أن الآباء العقلاء لايمنعهم خطأ أبنائهم من محبتهم ورعايتهم والحرص على سلامتهم ، انظر إلى يعقوب ـ عليه السلام ـ ، إخوة يوسف يلقون به فى الجب ،ثم يأتون بعد ذلك يتباكون ويقولون : قد أكله الذئب ، ثم بعد ذلك يلحون عليه فى أخذ شقيق يوسف معهم فى سفرهم إلى مصر ، فيوافقهم على كره منه ، بعد أخذ المواثيق عليهم بالمحافظة عليه ، وعودته معهم ، ومع كل هذا نراه يقول لهم وهو يودعهم خوفا عليهم

من الحسد : ﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

أى : يا أولادى أنتم أحد عشر رجلا ، فإذا ما وصلتم إلى مصر ، فلاتدخلوا كلكم من باب واحد ، بل ادخلوا من أبوابها المتفرقة ، بحيث يدخل كل اثنين أو ثلاثة من باب ، فإنى أخاف عليكم من الحسد وهكذا الآباء ، قلوبهم لاتكف عن رعاية الأبناء حتى ولو أخطأ الأبناء فى حق آبائهم .

(ط) أن النفوس النقية الكريمة ، التى أضاء الله - تعالى - بصيرتها ، ورزقها الإيمان العميق ، والعزم المتين ، والخلق القويم ، لاتفقد الأمل فى رحمة الله - تعالى - مهما اشتدت المصائب والكوارث ، انظر - أيضا - إلى يعقوب - عليه السلام - يرجع إليه أولاده من مصر وليس معهم «بنيامين» شقيق يوسف - عليه السلام ثم يقولون له : ﴿ إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ ، فتتجدد أحزانه على ولديه - يوسف وبنيامين - ولكنه لايفقد الأمل فى الالتقاء بهما ، بل يقول لهم : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ .

ثم يقول لهم : ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

وقد حقق الله - تعالى - لعبده يعقوب آماله ، حيث أتاه بهم جميعا بفضله وإحسانه .

(ى) أن الذى يتدبر قصة يوسف - عليه السلام - فى شتى مراحل حياته ، كما حكاها القرآن الكريم ، يزداد إيمانا واعتقادا بأن هذا القران من عند الله - تعالى - لأن الرسول ﷺ الذى نزل عليه هذا القرآن ، لم يكن معاصرا ليوسف - عليه السلام - ولا لغيره من الأنبياء الكرام ، ومع ذلك فقد قص علينا القرآن قصة يوسف - عليه السلام - بهذا الأسلوب البليغ ، وبذلك البيان الصادق ، بما يدل على أن هذا القران من عند عالم الغيب والشهادة ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ وقد ختمت قصة يوسف - عليه السلام - بقوله - سبحانه - : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ .

هذه بعض الدروس والعظات ، التى نتعلمها من هذه القصة التى فيها ما فيها من أحكام حكيمة ، ومن تشريعات قويمة ، ومن آداب حميدة .

نسأل الله - تعالى - أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا ، وشفاء صدورنا ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

قصة لوط - عليه السلام - مع قومه

١ - وردت قصة لوط - عليه السلام - مع قومه ، فى سور متعددة ، منها : الأعراف ، وهود ، والحجر ، والأنبياء ، والشعراء ، والنمل ، والعنكبوت ، والصافات ، والقمر .

وقد تكرر اسم «لوط» - عليه السلام - مع قومه فى القرآن الكريم سبعا وعشرين مرة .

قال - تعالى - فى سورة الأعراف :

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

قال ابن كثير : «لوط ، هو ابن هاران بن آزر وهو ابن أخى إبراهيم ، وكان قد آمن مع إبراهيم وهاجر معه إلى أرض الشام ، فبعثه الله إلى أهل سدوم وما حولها من القرى يدعوهم إلى الله - تعالى - ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التى اخترعوها ، لم يسبقهم بها أحد من بنى آدم ولا من غيرهم ، وهى إتيان الذكور دون الإناث ، وهذا شىء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه ولايخطر ببالهم حتى صنع ذلك أهل سدوم - وهى قرية بوادى الأردن - عليهم لعائن الله» .[١]

وقوله - تعالى - : ﴿ وَلُوطًا ﴾ منصوب بفعل مضمر معطوف على ما سبق أى : وأرسلنا لوطا إلى قومه ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ .

أى : أتفعلون تلك الفعلة التى بلغت نهاية القبح والفحش ، والتى ما فعلها أحد قبلكم فى زمن من الأزمان ، فأنتم أول من ابتدعها فعليكم وزرها ووزر من عملها إلى يوم القيامة .

والاستفهام للإنكار والتوبيخ ، قال عمر بن دينار : «ما نزا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط» ، وقال الوليد بن عبد الملك : «لولا أن الله قص علينا خبر قوم لوط ما ظننت أن ذكرا يعلو ذكرا» .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٢٣٠

ثم أضاف لوط إلى إنكاره على قومه إنكارا آخر وتوبيخا أشنع فقال : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ .

أى : إنكم أيها القوم لممسوخون فى طبائعكم حيث تأتون الرجال الذين خلقهم الله ليأتوا النساء ، ولا حامل لكم على ذلك إلا مجرد الشهوة الخبيثة القذرة .

والإتيان : كناية عن الاستمتاع والجماع ، من أتى المرأة إذا غشيها .

وفى إيراد لفظ ﴿ الرِّجَالَ ﴾ دون الغلمان والمردان ونحوهما ، مبالغة فى التوبيخ والتقريع .

قال صاحب الكشاف : «و ﴿ شَهْوَةً ﴾ مفعول له أى : للاشتهاء ولا حامل لكم عليه إلا مجرد الشهوة من غير داع آخر ، ولاذم أعظم منه ، لأنه وصف لهم بالبهيمية ، وأنه لا داعى لهم من جهة العقل البتة كطلب النسل ونحوه»[1] .

وقوله : ﴿ مِّن دُونِ النِّسَاءِ ﴾ أى : تأتون الرجال حالة كونكم تاركين النساء اللائى هن موضع الاشتهاء عند ذوي الطبائع السليمة ، والأخلاق المستقيمة .

قال الجمل : «وإنما ذمهم وعيرهم ووبخهم بهذا الفعل الخبيث ، لأن الله ـ تعالى ـ خلق الإنسان وركب فيه شهوة النكاح لبقاء النسل وعمران الدنيا ، وجعل النساء محلا للشهوة وموضعا للنسل ، فإذا تركهن الإنسان وعدل عنهن إلى غيرهن من الرجال فقد أسرف وجاوز واعتدى ، لأنه وضع الشىء فى غير محله وموضعه الذى خلق له ، لأن أدبار الرجال ليست محلا للولادة التى هى مقصودة بتلك الشهوة للإنسان»[2] .

وقوله : ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ ، إضراب عن الإنكار إلى الأخبار عن الأسباب التى جعلتهم يرتكبون هذه القبائح ، وهى أنهم عادتهم الإسراف وتجاوز الحدود فى كل شىء .

أى : أنتم أيها القوم لستم ممن يأتى الفاحشة مرة ثم يهجرها ويتوب إلى الله بل أنتم قوم مسرفون فيها وفى سائر أعمالكم ، ولا تقفون عند حد الاعتدال فى عمل من الأعمال .

وقد حكى القرآن أن لوطا ـ عليه السلام ـ قال لهم فى سورة العنكبوت : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ﴾ .

وقال لهم فى سورة الشعراء : ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ ، أى : متجاوزون لحدود الفطرة وحدود الشريعة .

---

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص١٢٥

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ٢ ص١٦٢ .

وقال لهم فى سورة النمل : ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ ، وهو يشمل الجهل الذى هو ضد العلم ، والجهل الذى هو بمعنى السفه والطيش .

ومجموع الآيات يدل على أنهم كانوا مصابين بفساد العقل ، وانحطاط الخلق ، وإيثار الغى والعدوان على الرشاد والتدبر .

ولقد حكى القرآن جوابهم القبيح على نصائح نبيهم لهم ، فقال : ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ﴾ .

أى : وما كان جواب الطغاة المستكبرين على نصائح نبيهم لوط ـ عليه السلام ـ إلا أن قال بعضهم لبعض : أخرجوا لوطا ومن معه من المؤمنين من قريتكم سدوم التى استوطنتموها وعشتم بها .

ولكن لماذا هذا الإخراج؟ بين القرآن أسبابه كما تفوهت به ألسنتهم الخبيثة ، واتفقت عليه قلوبهم المنكوسة فقال : ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ .

أى : إن لوطا وأتباعه أناس يتنزهون عن إتيان الرجال ، وعن كل عمل من أعمالنا لايرونه مناسبا لهم ، يقال : تطهر الرجل ، أى : تنزه عن الآثام والقبائح .

وما أعجب العقول عندما تنتكس ، والأخلاق عندما ترتكس ، إنها تستنكف أن يبقى معها الطهور المتعفف عن الفحش ، وتعمل على إخراجه ، ليبقى لها الملوثون الممسوخون ، وإنه لمنطق يتفق مع المنحرفين ، الذين انحطت طباعهم ، وانقلبت موازينهم ، وزين لهم الشيطان سوء أعمالهم فرأوه حسنا .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال : وقولهم : ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ سخرية بهم وبتطهرهم من الفواحش ، وافتخار بما كانوا فيه من القذارة ، كما يقول الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظهم : «أبعدوا عنا هذا المتقشف ، وأريحونا من هذا المتزهد» .[1]

ثم حكت السورة عاقبة الفريقين فقالت : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ ﴾ ، أى : وأنجينا لوطا ومن يختص به من ذويه أو من المؤمنين به .

قالوا : ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط ، كما قال ـ تعالى ـ ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ إِلاَّ امْرَأَتَهُ ﴾ ، استثناء من أهله ، أى : فأنجيناه وأهله إلا امرأته فإنا لم ننجها لخبثها وعدم إيمانها .

---

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص١٢٧ .

قال ابن كثير : إنها لم تؤمن به ، بل كانت على دين قومها ، تمالئهم عليه وتخبرهم بمن يقدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم ، ولهذا لما أمر لوط ـ عليه السلام ـ ليسرى بأهله أمر أن لايعلمها ولايخرجها من البلد ، ومنهم من يقول : بل اتبعتهم فلما جاء العذاب التفتت هى فأصابها ما أصابهم ، والأظهر أنها لم تخرج من البلد ولا أعلمها لوط بل بقيت معهم ، ولهذا قال ههنا : ﴿إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ ، أى : «الباقين فى العذاب» .[1]

والغابر : الباقى ، يقال : غبر الشىء يغبر غبورا ، أى «بقى» ، وقد يستعمل فيما مضى ـ أيضا ـ فيكون من الأضداد ، ومنه قول الأعشى : فى الزمن الغابر ، أى : الماضى .

وقوله : ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ ، أى : وأرسلنا على قوم لوط نوعا من المطر عجيبا أمره ، وقد بينه الله فى آية أخرى بقوله : ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ .[2]

أى : جازيناهم بالعقوبة التي تناسب شناعة جرمهم فإنهم لما قلبوا الأوضاع فأتوا الرجال دون النساء ، أهلكناهم بالعقوبة التى قلبت عليهم قريتهم فجعلت أعلاها أسفلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل أى من طين متجمد .

ثم ختمت القصة بالدعوة إلى التعقل والتدبر والاعتبار فقال ـ تعالى ـ ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ .

أى : فانظر أيها العاقل نظرة تدبير واتعاظ فى مآل أولئك الكافرين المقترفين لأشنع الفواحش ، واحذر أن تعمل أعمالهم حتى لايصيبك ما أصابهم وسر فى الطريق المستقيم لتنال السعادة فى الدنيا والآخرة .

هذا وقد وردت أحاديث تصرح بقتل من يعمل عمل قوم لوط ، فقد روى الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجة والترمذى والحاكم والبيهقى عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط ، فاقتلوا الفاعل والمفعول به» .

وذهب الإمام أبو حنيفة إلى أن اللائط يلقى من شاهق ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط ، وذهب بعض العلماء إلى أنه يرجم ، سواء أكان محصنا أم غير محصن .[3]

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٢٣١

(٢) سورة الحجر الآية ٧٤ .

(٣) راجع تفسير القاسمى ص٢٨٠٧ وما بعدها ، وتفسير الآلوسى جـ٧ ص١٧٢ وما بعدها .

٢ ـ وفى سورة «هود» آيات كريمة ، تحدثت عن جانب مما دار بين لوط ـ عليه السلام ـ وبين قومه من محاورات ، انتهت بهلاكهم وتدميرهم ، حيث قال ـ تعالى ـ :

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ۚ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾

وقد بدأ ـ سبحانه ـ القصة هنا بتصوير ما اعترى لوطا ـ عليه السلام ـ من ضيق وغم عندما جاءته الرسل فقال : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ .. ﴾ .

أى : وحين جاء الملائكة إلى لوط ـ عليه السلام ـ بعد مفارقتهم لإبراهيم ، ساءه وأحزنه مجيئهم ، لأنه كان لايعرفهم ، ويعرف أن قومه قوم سوء ، فخشى أن يعتدى قومه عليهم ، بعادتهم الشنيعة ، وهو عاجز عن الدفاع عنهم .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ ، تصوير بديع لنفاد حيلته ، واغتمام نفسه وعجزه عن وجود حيلة للخروج من المكروه الذى حل بهم .

قال القرطبى :«والذرع مصدر ذرع ، وأصله : أن يذرع البعير بيديه فى سيره ذرعا على قدر سعة خطوه فإذا حمل عليه أكثر من طاقته ضاق عن ذلك وضعف ومد عنقه فضيق الذرع عبارة عن ضيق الوسع .

وإنما ضاق ذرعه بهم لما رأى من جمالهم ، وما يعلمه من فسوق قومه» .(١)

﴿ وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ أى : وقال لوط ـ عليه السلام ـ فى ضجر وألم : هذا اليوم الذى جاءنى فيه هؤلاء الضيوف ، يوم «عصيب» أى : شديد هوله وكربه .

وأصل العصب : الشد والضغط ، فكأن هذا اليوم لشدة وقعه على نفسه قد عصب به الشر والبلاء ، أى : شد به .

قال صاحب تفسير التحرير والتنوير : «ومن بديع ترتيب هذه الجمل أنها جاءت على ترتيب حصولها فى الوجود ، فإن أول ما يسبق إلى نفس الكاره للأمر أن يساء به ويتطلب المخلص منه ، فإذا علم أنه لامخلص له منه ضاق به ذرعا ، ثم يصدر تعبيرا عن المعانى يريح به نفسه» .(٢)

ثم بين ـ سبحانه ـ ما كان من قوم لوط ـ عليه السلام ـ عندما علموا بوجود هؤلاء الضيوف عنده فقال : ﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ .. ﴾ .

ويهرعون ـ بضم الياء وفتح الراء فى صيغة المبنى للمفعول ـ أى : يدفع بعضهم بعضا بشدة ، كأن سائقا يسوقهم إلى المكان الذى فيه لوط وضيوفه .

يقال : هُرع الرجل وأهرع ـ بالبناء للمفعول فيهما ـ إذا أعجل وأسرع لدافع يدفعه إلى ذلك .

قال الآلوسى : والعامة على قراءته مبنيا للمفعول ، وقرأ جماعة يهرعون ـ بفتح الياء مع البناء للفاعل ـ من هرع ـ بفتح الهاء والراء ـ وأصله من الهرع وهو الدم الشديد السيلان ، كأن بعضه يدفع بعضا .(٣)

أى : وبعد أن علم قوم لوط بوجود هؤلاء الضيوف عند نبيهم ، جاءوا إليه مسرعين يسوق بعضهم بعضا إلى بيته من شدة الفرح ، ومن قبل هذا المجىء كان هؤلاء القوم الفجرة ، يرتكبون السيئات الكثيرة ، التى من أقبحها إتيانهم الرجال شهوة من دون النساء .

وقد طوى القرآن الكريم ذكر الغرض الذى جاءوا من أجله ، وأشار إليه بقوله : ﴿ وَمِن

(١) تفسير القرطبى جـ٩ ص٧٤ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير للشيخ ابن عاشور جـ١٢ ص١٣٥ .

(٣) تفسير الآلوسى جـ١٢ ص٩٥ .

قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ ، للإشعار بأن تلك الفاحشة صارت عادة من العادات المتأصلة فى نفوسهم الشاذة ، فلا يسعون إلا من أجل قضائها .

ثم حكى القرآن بعد ذلك ما بادرهم به نبيهم بعد أن رأى هياجهم وتدافعهم نحو داره فقال : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ . . ﴾ .

والمراد ببناته هنا : زوجاتهم ونساؤهم اللائى يصلحن للزواج ، وأضافهن إلى نفسه ، لأن كل نبى أب لأمته من حيث الشفقة وحسن التربية والتوجيه .

قال ابن كثير : قوله ـ تعالى ـ : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ . . ﴾ ، يرشدهم إلى نسائهم ، فإن النبى للأمة بمنزلة الوالد ، فأرشدهم إلى ماهو أنفع لهم ، كما قال لهم فى آية أخرى : ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ . وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ .

قال مجاهد : لم يكن بناته ، ولكن كنَّ من أمته ، وكل نبى أبو أمته .

وقال سعيد بن جبير : يعنى نساؤهم ، هن بناته ، وهو أب لهم(١) .

ومنهم من يرى أن المراد ببناته هنا : بناته من صلبه ، وأنه عرض عليهم الزواج بهن .

ويضعف هذا الرأى أن لوطا ـ عليه السلام ـ كان له بنتان أو ثلاثة ـ كما جاء فى بعض الروايات ـ وعدد المتدافعين من قومه إلى بيته كان كثيرا ، فكيف تكفيهم بنتان أو ثلاثة للزواج ؟ .

ويبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الصواب ، وقد رجحه الإمام الرازى بأن قال ما ملخصه : «وهذا القول عندى هو المختار ، ويدل عليه وجوه منها : أنه قال : ﴿ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ ، وبناته اللاتى من صلبه لاتكفى للجمع العظيم ، أما نساء أمته ففيهن كفاية للكل .

ومنها إن صحت الرواية أنه كان له بنتان وهما : زنتا وزعورا ، وإطلاق لفظ البنات على البنتين لايجوز ، لما ثبت أن أقل الجمع ثلاثة» .(٢)

والمعنى : أن لوطا ـ عليه السلام ـ عندما رأى تدافعهم نحو بيته لارتكاب الفاحشة التى

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٤ ص٢٦٨ .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ١٨ ص٣٢

ما سبقهم بها من أحد من العالمين ، قال لهم برجاء ورفق : ﴿ يَا قَوْمِ ﴾ هؤلاء نساؤكم اللائى بمنزلة بناتى ارجعوا إليهن فاقضوا شهوتكم معهن فهن أطهر لكم نفسيا وحسيا من التلوث برجس اللواط ، وأفعل التفضيل هنا وهو ﴿ أَطْهَرُ ﴾ ليس على بابه ، بل هو للمبالغة فى الطهر .

قال القرطبى : «وليس ألف أطهر للتفضيل ، حتى يتوهم أن فى نكاح الرجال طهارة ، بل هو كقولك الله أكبر - أى : كبير - ولم يكابر الله - تعالى - أحد حتى يكون الله - تعالى - أكبر منه» .(١)

ثم أضاف إلى هذا الإرشاد لهم إرشادا آخر فقال : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي .. ﴾ ، أى : فى ضيوفى الذين هم فى جوارى وأمانى .

قال الجمل : «ولفظ الضيف فى الأصل مصدر ، ثم أطلق على الطارق ليلا ، ولذلك يقع على المفرد والمذكر وضديهما بلفظ واحد ، وقد يثنى فيقال : ضيفان ويجمع فيقال : أضياف وضيوف» .(٢)

وتخزون : من الخزى وهو الإهانة والمذلة ، يقال : خزى الرجل يخزى خزيا ، إذا وقع فى بلية فذل بذلك .

أى : بعد أن أرشدهم إلى نسائهم ، أمرهم بتقوى الله ومراقبته ، فقال لهم : فاتقوا الله ، ولا تجعلونى مخزيا مفضوحا أمام ضيوفى بسبب اعتدائكم عليهم ، فإن الاعتداء على الضيف كأنه اعتداء على المضيف .

ويبدو أن لوطا - عليه السلام - قد قال هذه الجملة ليلمس بها نخوتهم إن كان قد بقى فيهم بقية من نخوة ، ولكنه لما رأى إصرارهم على فجورهم وبخهم بقوله : ﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ ، يهدى إلى الرشد والفضيلة ، وينهى عن الباطل والرذيلة فيقف إلى جانبى ، ويصرفكم عن ضيوفى؟ .

ولكن هذا النصح الحكيم من لوط لهم لم يحرك قلوبهم الميتة الآسنة ، ولا فطرتهم الشاذة المنكوسة ، بل ردوا عليه بقولهم : ﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ .

---

(١) تفسير القرطبى جـ٩ ص٨٦

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ٢ ص٤١٢ .

أى : قال قوم لوط له بسفاهة ووقاحة : لقد علمت يالوط علما لاشك معه ، أننا لا رغبة لنا فى النساء ، لا عن طريق الزواج ولا عن أى طريق آخر ، فالمراد بالحق هنا : الرغبة والشهوة فى زعمهم .

وقولهم : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ ، إشارة خبيثة منهم إلى العمل الخبيث الذى ألفوه ، وهو إتيان الذكور دون النساء أى : وإنك لتعلم علما يقينا الشىء الذى نريده فلماذا تراجعنا ؟! .

وقولهم هذا الذى حكته الآية الكريمة عنهم ، يدل دلالة واضحة على أنهم قد بلغوا النهاية فى الخبث والوقاحة وتبلد الشعور .

لذا رد عليهم لوط ـ عليه السلام ـ رد اليائس من ارعوائهم عن غيهم ، المتمنى لوجود قوة إلى جانبه تردعهم وتكف فجورهم ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ .

والقوة : ما يتقوى به الإنسان على غيره ، وآوى : أى ألجأ وانضوى تقول : أويت إلى فلان فأنا آوى إليه أويا أى : انضممت إليه .

والركن فى الأصل : القطعة من البيت أو الجبل ، والمراد به هنا الشخص القوى الذى يلجأ إليه غيره لينتصر به .

ولو شرطية وجوابها محذوف ، والتقدير : قال لوط ـ عليه السلام ـ : بعد أن رأى من قومه الاستمرار فى غيهم ، ولم يقدر على دفعهم ـ على سبيل التفجع والتحسر ـ : لو أن معى قوة أدفعكم بها لبطشت بكم .

ويجوز أن تكون لو للتمنى فلا تحتاج إلى جواب أى : ليت معى قوة أستطيع بمناصرتها لى دفع شركم .

وقوله : ﴿ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ ، معطوف على ما قبله ، أو ليتنى أستطيع أن أجد شخصا قويا من ذوى المنعة والسلطان أحتمى به منكم ومن تهديدكم لى .

قالوا : وإنما قال لوط ـ عليه السلام ـ ذلك ، لأنه كان غريبا عنهم ، ولم يكن له نسب أو عشيرة فيهم .

وهنا ـ وبعد أن بلغ الضيق بلوط ما بلغ ـ كشف له الملائكة عن حقيقتهم ، وبشروه بما يدخل الطمأنينة على قلبه ﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ .. ﴾ ، أى : إنا رسل ربك أرسلنا إليك لنخبرك بهلاكهم ، فاطمئن فإنهم لن يصلوا إليك بسوء فى نفسك أو فينا .

روى أن الملائكة لما رأوا ما لقيه لوط ـ عليه السلام ـ من الهم والكرب بسببهم قالوا له : يا لوط إن ركنك لشديد ، ثم ضربهم جبريل بجناحه فطمس أعينهم ، فارتدوا على أدبارهم ، يقولون النجاء ، وإليه الإشارة بقوله ـ تعالى ـ فى سورة القمر : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ .

وقوله : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ . . ﴾ ، أى : فاخرج من هذه القرية مصحوبا بالمؤمنين من أهلك فى جزء من الليل يكفى لابتعادك عن هؤلاء المجرمين .

وقوله : ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ . . ﴾ ، معطوف على ما قبله وهو قوله : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ .

أى : فأسر بأهلك فى جزء من الليل ، ولايلتفت منكم أحد إلى ما وراءه ، اتقاء لرؤية العذاب ، ﴿ إِلَّا امْرَأَتَكَ ﴾ يا لوط فاتركها ولاتأخذها معك لأنها كافرة خائنة ولأنها سيصيبها العذاب الذى سينزل بهؤلاء المجرمين ، فيهلكها معهم .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : «قوله : ﴿ إِلَّا امْرَأَتَكَ ﴾ قرأ ابن كثير وأبوعمرو بالرفع ، وقرأ الباقون بالنصب .

قال الواحدى : من نصب فقد جعلها مستثناة من الأهل ، على معنى : فأسر بأهلك إلا امرأتك أى فلا تأخذها معك .

وأما الذين رفعوا فالتقدير ، ولايلتفت منكم أحد لكن امرأتك تلتفت فيصيبها ما أصابهم .

روى عن قتادة أنه قال : إنها كانت مع لوط حين خرج من القرية ، فلما سمعت العذاب التفتت وقالت : واقوماه فأصابها حجر فأهلكها» .[1]

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ بشارة أخرى للوط ـ عليه السلام ـ الذى تمنى النصرة على قومه .

أى : إن موعد هلاك هؤلاء المجرمين يبتدئ من طلوع الفجر وينتهى مع طلوع الشمس ، أليس الصبح بقريب من هذا الوقت الذى نحدثك فيه؟ .

قال ـ تعالى ـ فى سورة الحجر ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴾ ، أى : وهم داخلون فى وقت الشروق ، فكان ابتداء العذاب عند طلوع الصبح وانتهاؤه وقت الشروق .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١٨ ص٣٦ .

والجملة الكريمة ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ . . ﴾ كالتعليل للأمر بالإسراء بأهله بسرعة ، أو جواب عما جاش بصدره من استعجاله العذاب لهؤلاء المجرمين .

والاستفهام فى قوله ـ سبحانه ـ ﴿ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ ، للتقرير أى : بلى إنه لقريب .

قال الآلوسى : روى أنه ـ عليه السلام ـ سأل الملائكة عن موعد هلاك قومه فقالوا له : موعدهم الصبح ، فقال : أريد أسرع من ذلك ، فقالوا له : أليس الصبح بقريب ، ولعله إنما جعل ميقات هلاكهم الصبح لأنه وقت الدعة والراحة فيكون حلول العذاب حينئذ أفظع ولأنه أنسب بكون ذلك عبرة للناظرين .[1]

ثم حكى ـ سبحانه ـ فى نهاية القصة ماحل بهؤلاء المجرمين من عذاب فقال : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ . مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ .

أى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ بإهلاك هؤلاء القوم المفسدين ﴿ جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ أى : جعلنا أعلى بيوتهم أسفلها ، بأن قلبناها عليهم ، وهى عقوبة مناسبة لجريمتهم حيث قلبوا فطرتهم ، فأتوا الذكران من العالمين ، وتركوا ما خلق لهم ربهم من أزواجهم .

وقوله : ﴿ أَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴾ زيادة فى عقوبتهم ولعنهم .

أى : جعلنا أعلى قراهم أسفلها ، وأمطرنا عليها حجارة ﴿ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ أى : من حجر وطين مختلط ، قد تحجر وتصلب ﴿ مَّنضُودٍ ﴾ أى : متتابع فى النزول بدون انقطاع موضوع بعض على بعض ، من النضد وهو وضع الأشياء بعضها إلى بعض .

﴿ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ﴾ أى : معلمة بعلامات من عند ربك لايعلمها إلا هو ، ومعدة إعدادا خاصا لإهلاك هؤلاء القوم .

﴿ وَمَا هِيَ ﴾ أى تلك القرى المهلكة ﴿ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ وهم مشركو مكة ﴿ بِبَعِيدٍ ﴾ ، أى : ببعيدة عنهم ، بل هى قريبة منهم ، ويمرون عليها فى أسفارهم إلى الشام .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ١٢ ص١٠١

قال ـ تعالى ـ :

﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات : ١٣٧ ، ١٣٨]

أى : وإنكم يا أهل مكة لتمرون على هؤلاء القوم المهلكين من قوم لوط فى وقت الصباح أى النهار ، وتمرون عليهم بالليل أفلا تعقلون ذلك فتعتبروا وتتعظوا ؟ .

ويجوز أن يكون الضمير فى قوله : ﴿ وَمَا هِيَ ﴾ ، يعود إلى الحجارة التى أهلك بها هؤلاء القوم .

أى : وماهى تلك الحجارة الموصوفة بما ذكر من الظالمين ببعيد ، بل هى حاضرة مهيأة بقدرة الله ـ تعالى ـ لإهلاك الظالمين بها .

والمراد بالظالمين مايشمل قوم لوط ، ويشمل كل من عصى الله وتجاوز حدوده ، ولم يتبع ما جاء به الرسول ﷺ .

وهكذا كانت نهاية قوم لوط ، فقد انطوت صفحتهم كما انطوت من قبلهم صفحات قوم نوح وهود وصالح ـ عليهم الصلاة والسلام ـ .

هذا ومن العبر والأحكام التى نأخذها من هذه الآيات الكريمة ، أنه لابأس على المسلم من أن يستعين بغيره لنصرة الحق الذى يدعو إليه ، ولخذلان الباطل الذى ينهى عنه .

فلوط ـ عليه السلام ـ عندما رأى من قومه الإصرار على غوايتهم ومفاسدهم تمنى لو كانت معه قوة تزجرهم وتردعهم وتمنعهم عن فسادهم .

وقد علق الإمام ابن حزم على ماجاء فى الحديث الشريف بشأن لوط ـ عليه السلام ـ فقال ما ملخصه :

«وظن بعض الفرق أن ما جاء فى الحديث الصحيح من قوله ﷺ : رحم الله لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد ، إنما هو من باب الإنكار على لوط ـ عليه السلام ـ فى قوله : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ .

والحق أنه لاتخالف بين القولين ، بل كلاهما حق ، لأن لوطا ـ عليه السلام ـ إنما أراد منعة عاجلة يمنع بها قومه مما هم عليه من الفواحش ، من قرابة أو عشيرة أو أتباع مؤمنين ، وما جهل قط لوط ـ عليه السلام ـ أنه يأوى من ربه ـ تعالى ـ إلى أمنع قوة وأشد .

ولاجناح على لوط ـ عليه السلام ـ فى طلب قوة من الناس ، فقد قال الله ـ تعالى ـ :

﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ ﴾ . [البقرة : ٢٥١] .

وقد طلب رسول الله ﷺ من الأنصار نصرته حتى يبلغ كلام ربه ، فكيف ينكر على لوط أمرا هو فعله ؟! .

تالله ما أنكر ذلك رسول الله ﷺ وإنما أخبر أن لوطا كان يأوى إلى ركن شديد ، يعنى من نصر الله له بالملائكة ، ولم يكن لوط علم بأنهم ملائكة» .(١)

٣ ـ وفى سورة الحجر آيات كريمة قصت علينا ما دار بين الملائكة وبين لوط ـ عليه السلام ـ بعد أن جاءوا إليه ، وما دار بين لوط ـ عليه السلام ـ وبين قومه المجرمين من مجادلات ومحاورات ، وما حل بهؤلاء المجرمين من عذاب جعل أعلى مدينتهم أسفلها ، فقال ـ تعالى ـ :

فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴾ شروع فى بيان إهلاك المجرمين ، وتنجية آل لوط .

(١) تفسير القاسمى جـ٩ ص٣٤٧٢ .

والآية الكريمة معطوفة على كلام محذوف يفهم من السياق ، والتقدير : وخرج الملائكة من عند إبراهيم - بعد أن بشروه بغلامه ، وبعد أن أخبروه بوجهتهم - فاتجهوا إلى المدينة التى يسكنها لوط - عليه السلام - وقومه ، فلما دخلوا عليه قال لهم : «إنكم قوم منكرون» .

أى : إنكم قوم غير معروفين لى ، لأنى لم يسبق لى أن رأيتكم ، ولا أدرى من أى الأقوام أنتم ، ولا أعرف الغرض الذى من أجله أتيتم ، وإن نفسى ليساورها الخوف والقلق من وجودكم عندى .

ويبدو أن لوطا - عليه السلام - قد قال لهم هذا الكلام بضيق نفس ، لأنه يعرف شذوذ المجرمين من قومه ، ويخشى أن يعلموا بوجود هؤلاء الضيوف أصحاب الوجوه الجميلة عنده ، فيعتدوا عليهم دون أن يملك الدفاع عنهم .

وقد صرح القرآن الكريم بهذا الضيق النفسى ، الذى اعترى لوطا بسبب وجود هؤلاء الضيوف عنده ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ . (١)

وقال - سبحانه - : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴾ مع أن المجىء كان للوط - عليه السلام - والخطاب كان معه ، تشريفا وتكريما للمؤمنين من قوم لوط ، فكأنهم كانوا حاضرين ومشاهدين لوجود الملائكة بينهم ، ولما دار بينهم وبين لوط - عليه السلام - .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ . وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ .

حكاية لما رد به الملائكة على لوط ، لكى يزيلوا ضيقه بهم ، وكراهيته لوجودهم عنده .

وقوله : ﴿ يَمْتَرُونَ ﴾ من الامتراء ، وهو الشك الذى يدفع الانسان إلى المجادلة المبنية على الأوهام لا على الحقائق .

أى : قال الملائكة للوط لإدخال الطمأنينة على نفسه : يا لوط نحن ما جئنا لإزعاجك أو إساءتك ، وإنما جئناك بأمر كان المجرمون من قومك ، يشكون فى وقوعه ، وهو العذاب الذى كنت تحذرهم منه إذا ما استمروا فى كفرهم وفجورهم .

وإنا ما أتيناك إلا بالأمر الثابت المحقق الذى لا مرية فيه ولاتردد ، وهو إهلاك هؤلاء المجرمين من قومك ، وإنا لصادقون فى كل ما قلناه لك ، وأخبرناك به فكن آمنا مطمئنا .

(١) سورة هود الآية ٧٧ .

فالإضراب فى قوله : ﴿ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ ﴾ إنما هو لإزالة ما وقر فى قلب لوط ـ عليه السلام ـ تجاه الملائكة من وساوس وهواجس .

وعبر عن العذاب بقوله : ﴿ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ زيادة فى إدخال الأنس على نفسه ، وتحقيقا لوقوع العذاب بهم .

وقوله : ﴿ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ تأكيد على تأكيد .

وهذه التأكيدات المتعددة والمتنوعة تشعر بأن لوطا ـ عليه السلام ـ كان فى غاية الهم والكرب لمجىء الملائكة إليه بهذه الصورة التى تغرى المجرمين بهم دون أن يملك حمايتهم أو الدفاع عنهم .

لذا كانت هذه التأكيدات من الملائكة له فى أسمى درجات البلاغة ، حتى يزول خوفه ، ويزداد اطمئنانه إليهم ، قبل أن يخبروه بما أمرهم الله ـ تعالى ـ بإخباره به ، وهو قوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ ﴾ أى : بجزء من الليل ، والمراد به الجزء الأخير منه .

أى : قال الملائكة للوط ـ عليه السلام ـ بعد أن أزالوا خوفه منه : يا لوط إنا نأمرك بإذن الله ـ تعالى ـ أن تخرج من هذه المدينة التى تسكنها مع قومك وأن يخرج معك أتباعك المؤمنون وليكن خروجكم فى الجزء الأخير من الليل .

وقوله : ﴿ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ ﴾ أى : وكن وراءهم لتطلع عليهم وعلى أحوالهم .

قال الإمام ابن كثير : يذكر الله ـ تعالى ـ عن الملائكة أنهم أمروا لوطا أن يسرى بأهله بعد مضى جانب من الليل ، وأن يكون لوط ـ عليه السلام ـ يمشى وراءهم ليكون أحفظ لهم .

وهكذا كان رسول الله ﷺ يمشى فى الغزاة يزجى الضعيف ويحمل المنقطع[1]

وقوله : ﴿ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ أى : ولايلتفت منكم أحد أيها المؤمنون خلفه ، حتى لايرى العذاب المروع النازل بالمجرمين .

وإنما أمرهم ـ سبحانه ـ بعدم الالتفات إلى الخلف ، لأن من عادة التارك لوطنه أن يلتفت إليه عند مغادرته ، كأنه يودعه .

(١) تفسير ابن كثير جـ٤ ص٤٥٩ .

وقوله : ﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ ارشاد من الملائكة للوط ـ عليه السلام ـ إلى الجهة التى أمره الله ـ تعالى ـ بالتوجه إليها .

أى : وامضوا فى سيركم إلى الجهة التى أمركم الله ـ تعالى ـ بالسير إليها ، مبتعدين عن ديار القوم المجرمين ، تصحبكم رعاية الله وحمايته .

قيل : أمروا بالتوجه إلى بلاد الشام ، وقيل : إلى الأردن وقيل : إلى مصر .

ولم يرد حديث صحيح يحدد الجهة التى أمروا بالتوجه إليها ، ولكن الذى نعتقده أنهم ذهبوا بأمر الله ـ تعالى ـ إلى مكان آخر ، أهله لم يعملوا ما كان يعمله العادون من قوم لوط ـ عليه السلام ـ .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ بيان لجانب آخر من جوانب الرعاية والتكريم للوط ـ عليه السلام ـ .

والمراد بذلك الأمر : إهلاك الكافرين من قوم لوط ـ عليه السلام ـ .

وجملة ﴿أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ مفسرة ومبينة لذلك الأمر .

وعبر عن عذابهم وإهلاكهم بالإبهام أولا ، ثم بالتفسير والتوضيح ثانيا ، للإشعار بأنه عذاب هائل شديد .

ودابرهم : أى آخرهم الذى يدبرهم ، يقال : فلان دبر القوم يدبرهم دبورا إذا كان آخرهم فى المجىء ، والمراد أنهم استؤصلوا بالعذاب استئصالا .

وقوله : ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ أى : داخلين فى الصباح .

والمعنى : وقضينا الأمر بإبادتهم ، وأوحينا إلى نبينا لوط ـ عليه السلام ـ أن آخر هؤلاء المجرمين مقطوع ومستأصل ومهلك مع دخول وقت الصباح .

وفى هذا التعبير مافيه من الدلالة على أن العذاب سيمحقهم جميعا ، بحيث لا يبقى منهم أحدا ، لا من كبيرهم ولا من صغيرهم ، ولا من أولهم ولا من آخرهم .

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما حدث من القوم المجرمين ، بعد أن تسامعوا بأن فى بيت لوط ـ عليه السلام ـ شبانا فيهم جمال ووضاءة فقال ـ تعالى ـ : ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ .

والمراد بأهل المدينة : أهل مدينة سدوم التى كان يسكنها لوط وقومه .

ويستبشرون : أى يبشر بعضهم بعضا بأن هناك شبانا فى بيت لوط ـ عليه السلام ـ من الاستبشار وهو إظهار الفرح والسرور .

وهذا التعبير الذى صورته الآية الكريمة يدل دلالة واضحة على أن القوم قد وصلوا إلى الدرك الأسفل من الانتكاس والشذوذ وانعدام الحياء .

إنهم لا يأتون لارتكاب المنكر فردا أو أفرادا ، وإنما يأتون جميعا ـ أهل المدينة ـ وفى فرح وسرور ، وفى الجهر والعلانية ، لا فى السر والخفاء .

ولأى غرض يأتون؟ إنهم يأتون لارتكاب الفاحشة التى لم يسبقهم إليها أحد من العالمين .

وهكذا النفوس عندما ترتكس وتنتكس ، تصل فى مجاهرتها بإتيان الفواحش ، إلى مالم تصل إليه بعض الحيوانات .

ويقف لوط ـ عليه السلام ـ أمام شذوذ قومه مغيظا مكروبا ، يحاول أن يدفع عن ضيفه شرورهم ، كما يحاول أن يحرك فيهم ذرة من الآدمية فيقول لهم : ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ﴾ .

أى : قال لوط ـ عليه السلام ـ لمن جاءوا يهرعون إليه من قومه لارتكاب الفاحشة مع ضيوفه : ياقوم إن هؤلاء الموجودين عندى ضيوفى الذين يلزمنى حمايتهم فابتعدوا عن دارى وعودوا إلى دياركم ، ولاتفضحونى عندهم بتعرضكم لهم بالفاحشة فأهون فى نظرهم ، لعجزى عن حمايتهم ، وأنتم تعلمون أن كرامة الضيف جزء من كرامة مضيفه .

وعبر لوط ـ عليه السلام ـ عن الملائكة بالضيف لأنه لم يكن قد علم أنهم ملائكة ولأنهم قد جاءوا إليه فى هيئة الآدميين .

ثم أضاف لوط ـ عليه السلام ـ إلى رجاء قومه رجاء آخر ، حيث ذكرهم بتقوى الله فقال : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ﴾ .

أى : واتقوا الله وصونوا أنفسكم عن عذابه وغضبه ، ولاتخزون مع ضيفى ، وتذلونى وتهينونى أمامهم .

ولكن هذه النصائح الحكيمة من لوط ـ عليه السلام ـ لقومه ، لم تجد أذنا صاغية بل قابلوها بسوء الأدب معه ، وبالتطاول عليه ، شأن الطغاة الفجرة ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ .

والاستفهام للإنكار ، والواو للعطف على محذوف ، والعالمين : جمع عالم ، وهو كل موجود سوى الله - تعالى - والمراد بالعالمين هنا : الرجال الذين كانوا يأتون معهم الفاحشة من دون النساء .

أى : قال قوم لوط له بوقاحة وسوء أدب ، أو لم يسبق لنا يا لوط أننا نهيناك عن أن تحول بيننا وبين من نريد ارتكاب الفاحشة معه من الرجال ، وإذا كان الأمر كذلك فكيف ساغ لك بعد هذا النهى أن تمنعنا عما نريده ، من ضيوفك وأنت تعلم ما نريده منهم ؟

ولكن لوطا - عليه السلام - مع شناعة قولهم هذا ، لم ييأس من محاولة منعهم عما يريدونه من ضيوفه ، فأخذ يرشدهم إلى ما تدعو إليه الفطرة السليمة فقال : ﴿ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ .

والمراد ببناته هنا : زوجاتهم ونساؤهم اللائى يصلحن للزواج ، وأضافهن إلى نفسه لأن كل نبى أب لأمته من حيث الشفقة والرعاية وحسن التربية - كما سبق أن أشرنا .

والمعنى : أن لوطا - عليه السلام - لما رأى هيجان قومه ، وإصرارهم على ارتكاب الفاحشة مع ضيوفه قال لهم على سبيل الإرشاد إلى ما يشبع الفطرة السليمة : يا قوم هؤلاء نساؤكم اللائى هن بمنزلة بناتى ، فاقضوا معهن شهوتكم إن كنتم فاعلين لما أرشدكم إليه من توجيهات وآداب .

وعبر بإن فى قوله : ﴿ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ لشكه فى استجابتهم لما يدعوهم إليه فكأنه يقول لهم : إن كنتم فاعلين لما أطلبه منكم ، وما أظنكم تفعلونه لانتكاس فطرتكم ، وانقلاب أمزجتكم .

وجواب الشرط محذوف ، أى : إن كنتم فاعلين ما أرشدكم إليه فهو خير لكم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ يرى جمهور المفسرين أنه كلام معترض بين أجزاء قصة لوط - عليه السلام - مع قومه ، لبيان أن الموعظة لا تجدى مع القوم الغاوين ، ولتسلية الرسول ﷺ عما أصابه من سفهاء قومه .

فالخطاب فيه للنبى ﷺ واللام فى ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ لام القسم ، والمقسم به حياته ﷺ والعمر - بفتح العين - لغة فى العمر - بضمها ، ومعناهما : مدة حياة الإنسان وبقائه فى هذه الدنيا ، إلا أنهم ألزموا مفتوح العين فى القسم ، وهو مبتدأ وخبره محذوف وجوبا والتقدير لعمرك قسمى أو يمينى .

والسكرة : ذهاب العقل ، مأخوذة من السكر - بفتح السين وإسكان الكاف - وهو السد والإغلاق ، وأطلقت هنا على الغواية والضلالة لإزالتها الرشد والهداية عن عقل

الإنسان و﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ من العمه بمعنى التحير والتردد فى الأمر ، وهو للبصيرة بمنزلة العمى للبصر .

يقال : عمه فلان - كفرح - عمها ، إذا تردد وتحير ، فهو عمه وعامه وهم عمهون وعمه كركع .

والمعنى : بحق حياتك - أيها الرسول الكريم - إن هؤلاء المكذبين لك ، لفى غفلتهم وغوايتهم يترددون ويتحيرون ، شأنهم فى ذلك شأن الضالين من قبلهم كقوم لوط وقوم شعيب وقوم صالح ، وغيرهم من المتكبرين فى الأرض بغير الحق .

ثم ختم - سبحانه - القصة ببيان النهاية الأليمة لهؤلاء المفسدين من قوم لوط فقال - تعالى - : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ. فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ .

والصيحة : من الصياح وهو الصوت الشديد ، يقال : صاح فلان إذا رفع صوته بشدة ، وأصل ذلك تشقيق الصوت من قولهم : انصاح الخشب أو الثوب ، إذا انشق فسمع منه صوت ، قالوا : وكل شىء أهلك به قوم فهو صيحة وصاعقة .

﴿ مُشْرِقِينَ ﴾ : اسم فاعل من أشرقوا إذا دخلوا فى وقت شروق الشمس ، أى : أن الله - تعالى - بعد أن أخبر لوطا - عليه السلام - بإهلاك قومه ، وأمره عن طريق الملائكة بالخروج ومعه المؤمنون من هذه المدينة ، جاءت الصيحة الهائلة من السماء فأهلكتهم جميعا وهم داخلون فى وقت شروق الشمس .

وقال - سبحانه - قبل ذلك : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ وقال هنا : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴾ للإشارة إلى أن ابتداء عذابهم كان عند الصباح وانتهاءه باستئصال شأفتهم كان مع وقت الشروق .

والضمير فى قوله : ﴿ عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ ، يعود إلى المدينة التى كان يسكنها المجرمون من قوم لوط .

أى : فجعلنا بقدرتنا عالى هذه المدينة سافلها ، بأن قلبناها قلبا كاملا ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ ، أى على هؤلاء من قوم لوط ﴿ حِجَارَةً ﴾ كائنة ﴿ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ أى من طين متحجر ، فهلكوا جميعا .

وهكذا أخذ الله - تعالى - هؤلاء المجرمين أخذ عزيز مقتدر ، حيث أهلكهم بهذه العقوبة التى تتناسب مع جريمتهم ، فهم قلبوا الأوضاع ، فأتوا بفاحشة لم يسبقوا إليها فانتقم الله - تعالى - منهم بهذه العقوبة التى جعلت أعلى مساكنهم أسفلها .

ثم ساقت السورة الكريمة بعض العبر والعظات التى يهتدى بها العقلاء من قصتى إبراهيم ولوط - عليهما السلام - فقال - تعالى - : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ. وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

فاسم الإشارة فى قوله - سبحانه - ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ ، يعود إلى ما تضمنته القصة السابقة من عبر وعظات .

والآيات جمع آية ، والمراد بها هنا الأدلة والعلامات الدالة على ما يوصل إلى الحق والهداية ، والمتوسمون : جمع المتوسم ، وهو المتأمل فى الأسباب وعواقبها ، وفى المقدمات ونتائجها .

والمعنى : إن فى ذلك الذى سقناه فى قصتى إبراهيم ولوط - عليهما السلام - لأدلة واضحة على حسن عاقبة المؤمنين وسوء عاقبة الغاوين ، لمن كان ذا فكر سليم ، وبصيرة نافذة تتأمل فى حقائق الأشياء ، وتتعرف على ما يوصلها إلى الهداية والطريق القويم .

قال بعض العلماء عند تفسيره لهذه الآية : هذه الآية أصل فى الفراسة ، أخرج الترمذى من حديث أبى سعيد مرفوعا : «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» ثم قرأ ﷺ هذه الآية .

وفى هذه الآية الكريمة تعريض لمن تمر عليهم العبر والعظات ، والأدلة الدالة على وحدانية الله - تعالى - ، وكمال قدرته فلا يعتبرون ولا يتعظون ولا يتفكرون فيها ، لانطماس بصيرتهم ، واستيلاء الأهواء والشهوات على نفوسهم ، كما قال - تعالى - :

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ. وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾

والضمير فى قوله - سبحانه - : ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ ، يعود إلى المدينة أو القرى التى كان يسكنها قوم لوط - عليه السلام - .

أى : وأن هذه المساكن التى كان يسكنها هؤلاء المجرمون ، لبطريق ثابت واضح يسلكه الناس ، ويراه كل مجتاز له وهو فى سفره من الحجاز إلى الشام ، كما قال - تعالى - : ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ. وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ .

والمقصود تذكير كفار قريش وغيرهم بعاقبة الظالمين ، حتى يقلعوا عن كفرهم وجحودهم ، وحتى يعتبروا ويتعظوا ، ويدخلوا مع الداخلين فى دين الإسلام .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ، تذييل قصد به التعميم بعد التخصيص ، لأن اسم الإشارة هنا يعود إلى جميع ما تقدم من قصتى إبراهيم ولوط ـ عليهما السلام ـ وإلى ما انضم إليهما من التذكير بآثار الأقوام المهلكين .

أى : إن فيما ذكرناه فيما سبق من أدلة واضحة على حسن عاقبة المتقين ، وسوء نهاية الظالمين ، لعبرة واضحة ، وحكمة بالغة ، للمؤمنين الصادقين .

وخصهم بالذكر لأنهم هم المنتفعون بالأدلة والعظات ، وللتنبيه على أن التفرس فى الأمور لمعرفة أسبابها ونتائجها ، من صفاتهم وحدهم .

وجمع الآيات قبل ذلك فى قوله : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ وأفردها هنا فقال : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ للإشعار بأن المؤمنين الصادقين تكفى لهدايتهم ، ولزيادة إيمانهم ، آية واحدة من الآيات الدالة على أن دين الإسلام هو الدين الحق ، وفى ذلك مافيه من الثناء عليهم ، والمدح لهم ، بصدق الإيمان ، وسلامة اليقين .

٤ ـ وفى سورة «الشعراء» آيات كريمة حدثتنا عن قصة لوط ـ عليه السلام ـ مع قومه بأسلوب فيه مافيه من الإعجاز وقوة التأثير ، فقال ـ تعالى ـ :

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ ۚ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ۖ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾

لقد بدأ لوط ـ عليه السلام ـ دعوته لقومه فى هذه الآيات بتقوى الله ، وبإخبارهم بأنه رسول أمين من الله ـ تعالى ـ إليهم ، وبأنه لا يسألهم أجرا على دعوته لهم إلى الحق والفضيلة .

ثم نهاهم عن أبرز الرذائل التى كانت متفشية فيهم فقال : ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ. وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ .

والاستفهام للإنكار والتقريع ، والذكران : جمع ذكر وهو ضد الأنثى

والعادون : جمع عاد ، يقال : عدا فلان فى الأمر يعدو ، إذا تجاوز الحد فى الظلم .

أى : قال لوط لقومه : أبلغ بكم انحطاط الفطرة ، وانتكاس الطبيعة ، أنكم تأتون الذكور الفاحشة ، وتتركون نساءكم اللائى أحلهن الله ـ تعالى ـ لكم ، وجعلهن الطريق الطبيعى للنسل وعمارة الكون؟ .

إنكم بهذا الفعل القبيح الذميم ، تكونون قد تعديتم حدود الله ـ تعالى ـ وتجاوزتم ما أحله الله لكم ، إلى ما حرمه عليكم .

وقد ردوا عليه بما يدل على شذوذهم وعلى انتكاس فطرتهم ، فقد قالوا له على سبيل التهديد والوعيد : ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ .

أى : قالوا له متوعدين : لئن لم تسكت يا لوط عن نهيك إيانا عما نحن فيه ، لتكونن من المخرجين من قريتنا إخراجا تاما ، ولنطردنك خارج ديارنا .

وهكذا النفوس عندما تنحدر فى الرذيلة وتنغمس فى المنكر ، تعادى من يدعوها إلى الفضيلة وإلى الطهر والعفاف .

وقد رد لوط ـ عليه السلام ـ على سفاهتهم وسوء أدبهم : ﴿ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴾ .

والقالين : جمع قال ، يقال : قليت فلانا أقليه ـ كرميته أرميه ـ إذا كرهته كرها شديدا .

أى : قال لهم لوط موبخا ومؤنبا : إنى لعملكم القبيح الذى ترتكبونه مع الذكور من المبغضين له أشد البغض ، المنكرين له أشد الإنكار .

ثم توجه إلى ربه ـ تعالى ـ بقوله : ﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ ، أى : نجنى يا رب ، ونج أهلى المؤمنين معى ، مما يعمل هؤلاء الأشرار من منكر لم يسبقهم إليه أحد ، فأجاب الله ـ تعالى ـ دعاءه فقال : ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴾ .

والمراد بهذه العجوز ، امرأته وكانت كافرة وراضية عن فعل قومها .

والغابرين : جمع غابر وهو الباقى بعد غيره ، يقال : غبر الشىء يغبر غبورا ، إذا بقى .

وقوله : ﴿ إِلاَّ عَجُوزًا ﴾ استثناء من أهله .

أى : فاستجبنا للوط دعاءه ، فأنجيناه وأهله المؤمنين جميعا ، إلا امرأته العجوز فإننا لم ننجها بل بقيت مع المهلكين لخبثها وعدم إيمانها .

﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ ﴾ ، أى : ثم أهلكنا قوم لوط المصرين على كفرهم وعلى إتيانهم المنكر ، تدميرا شديدا ، فإنا جعلنا أعلى قريتهم سافلها ، وأبدناهم عن آخرهم .

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم ﴾ بعد ذلك الإهلاك ﴿ مَّطَرًا ﴾ عجيبا أمره فقد كان نوعا من الحجارة ، كما جاء فى آية أخرى فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾ بيان لسوء مصيرهم

أى : دمرنا هؤلاء القوم ، وأمطرنا عليهم مطرا من الحجارة زيادة فى إهانتهم فساءت عاقبتهم ، وتحقق ما أنذرناهم به من دمار .

ثم ختم ـ سبحانه ـ قصة لوط ـ عليه السلام ـ مع قومه ، بمثل ما ختم به القصص السابقة فقال : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

٥ ـ وفى سورة «النمل» تحدثت بعض الآيات عن جانب من هذه القصة فقال ـ تعالى ـ :

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَلُوطًا .. ﴾ منصوب بفعل مضمر محذوف ، والتقدير : واذكر ـ أيها العاقل ـ وقت أن أرسلنا لوطا إلى قومه ، فقال لهم على سبيل الزجر والتوبيخ :

﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ أى : أتأتون الفاحشة التى لم يسبقكم إليها أحد ، وهى إتيان الذكور دون الإناث ، وأنتم تبصرون بأعينكم أنها تتنافى مع الفكرة السوية حتى بالنسبة للحيوان الأعجم ، فأنتم ترون وتشاهدون أن الذكر من الحيوان لا يأتى الذكر ، وإنما يأتى الأنثى حيث يتأتى عن طريقها التوالد والتناسل وعمارة الكون .

فقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ جملة حالية المقصود بها زيادة تبكيتهم وتوبيخهم لأنهم يشاهدون تنزه الحيوان عنها ، كما يعلمون سوء عاقبتها ، وسوء عاقبة الذين خالفوا أنبياءهم من قبلهم .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ ، تأكيد للإنكار السابق ، وتوضيح للفاحشة التى كانوا يأتونها .

أى : أئنكم ـ أيها الممسوخون فى فطرتكم وطبائعكم ـ لتصبون شهوتكم التى ركبها الله ـ تعالى ـ فيكم فى الرجال دون النساء اللاتى جعلهن الله ـ تعالى ـ محل شهوتكم ومتعتكم .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ إضراب عن الإنكار إلى الإخبار عن الأسباب التى جعلتهم يرتكبون هذه القبائح ، وهى أنهم قوم دينهم الجهل والسفاهة والمجون وانطماس البصيرة .

وقد حكى القرآن أن لوطا قد قال لهم فى سورة الأعراف : ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ .

وقال لهم فى سورة الشعراء : ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ وقال لهم هنا : ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ ، ومجموع الآيات يدل على أنهم كانوا مصابين بفساد العقل ، وانحراف الفطرة ، وتجاوز كل الحدود التى ترتضيها النفوس الكريمة .

ثم حكى القرآن بعد ذلك جوابهم السيىء على نبيهم فقال : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ .. ﴾ .

أى : هكذا نصح لوط قومه وزجرهم ، فما كان جوابهم شيئا من الأشياء سوى قول بعضهم لبعض : أخرجوا لوطا والمؤمنين معه من قريتكم التى يساكنونكم فيها .

وفى التعبير بقولهم : ﴿ مِّن قَرْيَتِكُمْ ﴾ إشارة إلى غرورهم وتكبرهم فكأنهم يعتبرون لوطا وأهله المؤمنين دخلاء عليهم ، ولا مكان لهم بين هؤلاء المجرمين لأن القرية ـ وهى سدوم ـ هى قريتهم وحدهم دون لوط وأهله .

وقوله ـ تعالى ـ حكاية عنهم : ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ تعليل للإخراج وبيان لسببه ، أى أخرجوهم من قريتكم لأنهم أناس يتنزهون عن الفعل الذى نفعله ، وينفرون من الشهوة التى نشتهيها وهى إتيان الرجال .

وما أعجب العقول عندما تنتكس ، والنفوس عندما ترتكس ، إنها تأبى أن يبقى معها الأطهار ، وزين لهم الشيطان سوء أعمالهم فرأوه حسنا .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال : «وقولهم : ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ سخرية بهم وبتطهرهم من الفواحش ، وافتخارا بما كانوا فيه من القذارة ، كما يقول الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظهم : أبعدوا عنا هذا المتقشف وأريحونا من هذا المتزهد» .[1]

ثم بين ـ سبحانه ـ ما آل إليه أمر الفريقين فقال : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ . وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾ .

أى : فكانت عاقبة تلك المحاورة التى دارت بين لوط وقومه ، أن أنجينا لوطا وأهله الذين آمنوا معه ، ﴿ إِلَّا امْرَأَتَهُ ﴾ فإننا لم ننجها لخبثها وعدم إيمانها ، فبقيت مع القوم الكافرين ، حيث قدرنا عليها ذلك بسبب كفرها وممالأتها لقومها .

﴿ وَأَمْطَرْنَا ﴾ على هؤلاء المجرمين ﴿ مَّطَرًا ﴾ عظيما هائلا عجيبا وهو حجارة من سجيل دمرتهم تدميرا ، ﴿ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾ أى : فبئس العذاب عذابهم .

وهكذا تكون عاقبة كل من آثر الكفر على الإيمان ، والرذيلة على الفضيلة .

٦ ـ وفى سورة «العنكبوت» آيات كريمة ، ذكرت جانبا مما دار بين لوط وقومه من محاورات ومجادلات فقال ـ تعالى ـ :

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ

---

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ، ص١٢٧ .

فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِه . . ﴾ منصوب بالعطف على إبراهيم فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِه ﴾ أو بفعل مضمر .

أى : واذكر ـ أيها العاقل لتعتبر وتتعظ ـ نبينا لوطا ـ عليه السلام ـ وقت أن قال لقومه على سبيل الزجر والتوبيخ والإنكار لما هم عليه من فعل قبيح :

﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : إنكم لتفعلون الفعلة البالغة أقصى دركات القبح والفحش ، والتى ما فعلها أحد قبلكم ، بل أنتم أول من ابتدعها ، وهى إتيان الذكور دون الإناث .

قال عمر بن دينار : ما نزا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط .

وقال الوليد بن عبدالملك : لولا أن الله ـ تعالى ـ قد قص علينا خبر قوم لوط ، ما ظننت أن ذكرا يعلو ذكرا .

وجاء قوله ـ عليه السلام ـ مؤكدا بجملة من المؤكدات ، لتسجيل هذه الفاحشة عليهم بأقوى أسلوب ، وبأنهم لم يسبقهم أحد إلى ارتكابها .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ . . ﴾ ، بيان لتلك الفاحشة التى كانوا يقترفونها والاستفهام للتأنيب والتقريع .

والسبيل : الطريق ، والنادى : اسم جنس للمكان الذى يجتمع فيه الناس لأمر من الأمور ، أى : أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ، وتقطعون الطريق على المارة بأن تنهبوا أموالهم ، أو بأن تكرهوهم إكراها على ارتكاب الفاحشة معهم ، أو بأن تعتدوا عليهم بأى صورة من الصور ، وفضلا عن كل ذلك فإنكم ترتكبون المنكرات فى مجالسكم الخاصة ، وفى نواديكم التى تتلاقون فيها .

فأنت ترى أن نبيهم ـ عليه السلام ـ قد وصفهم بأوصاف ، كل صفة أقبح من سابقتها ، والباعث لهم على ارتكاب تلك المنكرات ، هو انتكاس فطرتهم ، وفساد نفوسهم ، وشذوذ شهواتهم .

فماذا كان جوابهم على نبيهم ـ عليه السلام؟ لقد كان جوابهم فى غاية التبجح والسفاهة ، وقد حكاه القرآن فى قوله : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

أى : فما كان جواب قوم لوط عليه ، إلا أن قالوا له على سبيل الاستخفاف بوعظه وزجره : ائتنا يا لوط بعذاب الله الذى تتوعدنا به ، إن كنت صادقا فى دعواك أنك رسول ، وفى دعواك أن عذابا سينزل علينا ، بسبب أفعالنا هذه التى ألفناها وأحببناها .

وهكذا نرى أن هؤلاء المجرمين ، قد قابلوا نبيهم تارة بالاستخفاف والاستهزاء كما هنا ، وتارة بالتهديد والوعيد ، كما فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ .

ولذا لجأ لوط ـ عليه السلام ـ إلى ربه ، يلتمس منه النصرة والعون فقال : ﴿ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ، أى : انصرنى بأن تنزل عذابك على هؤلاء القوم المفسدين ، الذين مردوا على ارتكاب فواحش ، لم يسبقهم بها أحد من العالمين .

وأجاب الله ـ تعالى ـ دعاء نبيه لوط ـ عليه السلام ـ وأرسل ـ سبحانه ـ ملائكته لنبيه إبراهيم ليبشروه بابنه اسحاق ، قبل أن ينفذوا عذاب الله فى قوم لوط ، قال ـ تعالى ـ :

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ . . ﴾ أى : وحين جاء الملائكة إلى إبراهيم ليبشروه بابنه إسحاق ، قالوا له : يا إبراهيم ، إنا مرسلون من

ربك لإهلاك أهل هذه القرية وهى قرية سدوم التى يسكنها قوم لوط ، والسبب فى ذلك ﴿ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ حيث أتوا بفاحشة لم يسبقهم إليها أحد ، وقطعوا الطريق على الناس ، واقترفوا فى مجالسهم المنكرات .

وهنا قال لهم إبراهيم ـ عليه السلام ـ بخشيته وشفقته : ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطًا .. ﴾ أى : إن فى هذه القرية التى جئتم لإهلاكها لوطا ، وهو نبى من أنبياء الله الصالحين فكيف تهلكونها وهو معهم فيها؟ وهنا رد عليه الملائكة بما يزيل خشيته فقالوا : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا .. ﴾ من الأخيار ومن الأشرار ، ومن المؤمنين ومن الكافرين .

﴿ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ أى : اطمئن يا إبراهيم فإن الله ـ تعالى ـ قد أمرنا أن ننجى لوطا وأن ننجى معه من الهلاك أهله المؤمنين ، إلا امرأته فستبقى مع المهلكين ، لأنها منهم ، بسبب خيانتها للوط ـ عليه السلام ـ حيث كانت تقر جرائم قومها ، ولاتعمل على إزالتها وإنكارها ، كما هو شأن الزوجات الصالحات .

ثم بين ـ سبحانه ـ حال لوط ـ عليه السلام ـ بعد أن وصل إليه الملائكة لينفذوا قضاء الله ـ تعالى ـ فى قومه فقال ـ عز وجل ـ : ﴿ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا .. ﴾ .

أى : اعترته المساءة والأحزان بسبب مجيئهم ، لخوفه اعتداء قومه عليهم .

ولاحظ الملائكة على لوط ـ عليه السلام ـ قلقه وخوفه ، فقالوا له على سبيل التبشير وإدخال الطمأنينة على نفسه ، يا لوط : ﴿ لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ ﴾ أى : لاتخف علينا من قومك ، ولاتحزن لمجيئنا إليك بتلك الصورة المفاجئة .

ثم أفصحوا له عن مهمتهم فقالوا : ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ .

أى : إنا منجوك وأهلك المؤمنين من العذاب الذى ننزله بقومك ، إلا امرأتك فسيدركها العذاب مع قومك ، وستهلك مع الهالكين بسبب تواطئها معهم ، ورضاها بأفعالهم القبيحة .

ثم أخبروه بالكيفية التى ينزل بها العذاب على قومه فقالوا : ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ .

والرجز : العذاب الذى يزعج به ويجعله فى حالة اضطراب وهلع ، يقال : ارتجز فلان ، إذا اضطرب وانزعج .

أى : إنا منزلون بأمر الله - تعالى - وإرادته ، على أهل هذه القرية - وهى قرية سدوم التى كان يسكنها قوم لوط - ﴿ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ أى : عذابا شديدا كائنا من السماء ، بحيث لايملكون دفعه أو النجاة منه ، بسبب فسوقهم عن أمر ربهم ، وخروجهم عن طاعته .

ثم بين - سبحانه - أن حكمته قد اقتضت ، أن يجعل آثار هؤلاء الظالمين باقية بعدهم ، لتكون عبرة وعظة لغيرهم فقال : ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

أى : ولقد تركنا من هذه القرية بعد تدميرها ، علامة بينة ، وآية واضحة ، تدل على هلاك أهلها ، حتى تكون عبرة لقوم يستعملون عقولهم فى التدبر والتفكر .

قال ابن كثير : وذلك أن جبريل - عليه السلام - اقتلع قراهم من قرار الأرض ، ثم رفعها إلى عنان السماء ، ثم قلبها عليهم ، وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد ، وجعل مكانها بحيرة خبيثة منتنة ، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد ، وهم من أشد الناس عذابا يوم المعاد ، ولهذا قال : ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ كما قال : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ. وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ .

٧ - وفى سورة «القمر» جانب من الحديث عن قصة لوط - عليه السلام - مع قومه ، حيث قال - سبحانه - :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ (٣٤) نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٩) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٤٠) ﴾

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴾ أى كذبوا بالإنذارات والتهديدات التى هددهم بها نبيهم لوط ، إذا لم يستجيبوا لإرشاداته وأمره ونهيه .

فكانت نتيجة هذا التكذيب والفجور الذى انغمسوا فيه الهلاك والدمار كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴾ .

والحاصب : الريح التى تحصب ، أى : ترمى بالحصباء ، وهى الحجارة الصغيرة التى تهلك من تصيبه بأمر الله ـ تعالى ـ .

والسحر : هو الوقت الذى يختلط فيه سواد آخر الليل ، ببياض أول النهار وهو قبيل مطلع الفجر بقليل .

أى : إنا أرسلنا عليهم ريحا شديدة ترميهم بالحصباء فتهلكهم ، إلا آل لوط ، وهم من آمن به من قومه ، فقد نجيناهم من هذا العذاب المهلك فى وقت السحر .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا . . ﴾ ، أى : أنجينا آل لوط من العذاب الذى نزل بقومه على سبيل الإنعام الصادر من عندنا عليهم لا من عند غيرنا .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴾ ، بيان لسبب هذا الإنعام والإنجاء . .

أى : بمثل هذا الجزاء العظيم ، المتمثل فى إنجائنا للمؤمنين من آل لوط وفى إنعامنا عليهم ، نجازى كل شاكر لنا ، ومستجيب لأمرنا ونهينا .

فالآية الكريمة بشارة للمؤمنين الشاكرين حتى يزدادوا من الطاعة لربهم ، وتعريض بسوء مصير الكافرين ، الذين لم يشكروا الله ـ تعالى ـ على نعمه .

وفى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ مِّنْ عِندِنَا ﴾ تنويه عظيم بهذا الإنعام ، لأنه صادر من عنده ـ تعالى ـ الذى لاتعد ولاتحصى نعمه .

ثم بين ـ سبحانه ـ الأسباب التى أدت بقوم لوط إلى الدمار والهلاك فقال : ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴾ .

والبطشة : المرة من البطش ، بمعنى الأخذ بعنف وقوة ، والمراد بها هنا : الإهلاك الشديد .

والتمارى : تفاعل من المراء بمعنى الجدال ، والمراد به هنا : التكذيب والاستهزاء ، ولذا عدى بالباء دون فى ، أى : والله لقد أنذرهم لوط ـ عليه السلام ـ وخوفهم من عذابنا الشديد الذى لايبقى ولايذر ، ولكنهم كذبوه واستهزءوا به ، وبتهديده وبتخويفه إياهم .

ثم يحكى - سبحانه - صورة أخرى من فجورهم فقال : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ .

أى : والله لقد حاول هؤلاء الكفرة الفجرة المرة بعد المرة ، مع لوط - عليه السلام - أن يمكنهم من فعل الفاحشة مع ضيوفه .

فكانت نتيجة محاولاتهم القبيحة أن ﴿ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴾ أى حجبناها عن النظر ، فصاروا لايرون شيئا أمامهم .

قال القرطبى : «يروى أن جبريل - عليه السلام - ضربهم بجناحه فعموا ، وقيل : صارت أعينهم كسائر الوجه لايرى لها شق ، كما تطمس الريح الأعلام بما تسفى عليها من التراب ، وقيل : طمس الله على أبصارهم فلم يروا الرسل» .(١)

وأسند المراودة إليهم جميعا : لرضاهم عنها ، بقطع النظر عمن قال بها .

وقوله : ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ مقول لقول محذوف ، أى طمسنا أعينهم وقلنا لهم : ذوقوا عذابى الشديد الذى ينزل بكم ، بسبب تكذيبكم لرسولى ، واستخفافكم بما وجه إليكم من تخويف وإنذار .

والمراد من هذا الأمر : الخبر ، أى : فأذقتهم عذابى الذى أنذرهم به لوط - عليه السلام - .

ثم بين - سبحانه - ماحل بهم من عذاب فقال : ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ ، والبكرة : أول النهار وهو وقت الصبح ، وجىء بلفظ بكرة للإشعار بتعجيل العذاب لهم ، أى : والله لقد نزل بهم عذابنا فى الوقت المبكر من الصباح نزولا دائما ثابتا مستقرا لاينفك عنهم ، ولاينفكون عنه ، وقلنا لهم : ذوقوا عذابى ، وسوء عاقبة تكذيبكم لرسولى لوط - عليه السلام - .

ثم ختم - سبحانه - قصتهم بما ختم به القصص السابقة فقال : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ .

قال صاحب الكشاف : «فإن قلت : ما فائدة تكرير قوله : ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ .

قلت : فائدته أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين إدراكا واتعاظا ،

(١) راجع تفسير القرطبى جـ١٧ ص١٤٤

وأن يستأنفوا تنبها واستيقاظا إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث عليه ، وأن يقرع لهم العصا مرات ، ويقعقع لهم الشن تارات لئلا يغلبهم السهو ، ولا تستولى عليهم الغفلة ، وهذا حكم التكرير ، كقوله : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ عند كل نعمة عدها فى سورة الرحمن .

وكقوله : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ، عند كل آية أوردها فى سورة المرسلات ، وكذلك تكرير الأنباء والقصص فى أنفسها ، لتكون تلك العبر حاضرة للقلوب مصورة للأذهان ، مذكورة غير منسية فى كل أوان» .(١)

وبعد : فهذه قصة لوط ـ عليه السلام ـ مع قومه الذين انتكست نفوسهم ، ومسخت فطرتهم ، وارتكبوا فاحشة لم يرتكبها أحد من البشر قبلهم ومن العبر والعظات التى نأخذها من هذه القصة :

(أ) أن رسل الله ـ تعالى ـ قد أرسلهم ـ سبحانه ـ إلى الناس ، ليخرجوهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، ومن الانغماس فى الرذائل إلى التحلى بالفضائل ، وهذا ما نراه واضحا فى قصة لوط ـ عليه السلام ـ مع قومه ، فإنه بعد أن أمرهم بإخلاص العبادة لله ـ تعالى ـ ، نهاهم بشتى الأساليب الحكيمة عن هذه الفاحشة القبيحة السافلة التى تنزه عنها جميع الناس من قبلهم ، والتى لا نراها فى عالم الحيوان الأعجم .

(ب) أن النفوس إذا انتكست ، والعقول إذا ارتكست ، والفطرة إذا مسخت ، تحولت الرذائل بالنسبة لها إلى فضائل ، والنجاسات والخبائث إلى فعل عادى يلام من ينبذه .

ألا ترى إلى الأنجاس من قوم لوط ـ عليه السلام ـ يقول بعضهم لبعض ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ .

أى : أخرجوا هؤلاء الذين آمنوا بلوط ـ عليه السلام ـ وبدعوته من قريتكم ، لأنهم قوم يحبون الطهارة التى تتنافى مع طبيعتنا وفطرتنا التى نشأنا عليها .

وهكذا النفوس عندما تنتكس تصبح الفضائل فى نظرها رذائل .

(جـ) أن أصحاب الإيمان العميق ، والخلق القويم ، والغيرة على نشر الطهارة فى النفوس ، والدفاع عن الفضائل ، والحرص الشديد على كرامة من يكونون فى صحبتهم ، يستميتون فى الذب عن دينهم وعن الفضائل ، وعن كل ما أمر الله ـ تعالى ـ بالدفاع عنه .

---

(١) تفسير الكشاف جـ٤ ص٤١ .

وهذا ما نراه فى أكمل صورة ، فى قصة لوط ـ عليه السلام ـ مع قومه ، إنك تراه تارة يأمرهم بتقوى الله ، وأنه لايسألهم أجرا عما يأمرهم به أو ينهاهم عنه ، فيقول لهم : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

وتارة يذكرهم بأن هذه الفاحشة التى انغمسوا فيها ، لم يسبقهم إليها أحد ، وأنها رذيلة تحتقرها الفطرة السليمة فيقول لهم : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ .

وتارة يقول لهم : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ .

وتارة يرشدهم إلى ما تقتضيه الطبيعة البشرية السوية ، فيقول لهم : ﴿ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ .

وتارة يلجأ إلى خالقه ـ عز وجل ـ يلتمس منه النجاة والنصرة على هؤلاء المجرمين فيقول : ﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ ويقول : ﴿ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

وهكذا ، نرى أن لوطا ـ عليه السلام ـ لم يترك وسيلة من وسائل الترغيب أو الترهيب إلا وسلكها مع قومه ، ولكنهم عموا وصموا عن دعوته .

(د) أن المجرمين من قوم لوط ـ عليه السلام ـ لم يرتكبوا ما ارتكبوا من قبائح مخزية على استحياء ، وإنما هم يجاهرون بذلك ، ويقابلون نصائح نبيهم بالاستهزاء والاستخفاف ، فهو عندما يقول لهم : ﴿ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ .. ﴾ ، يقولون له بكل سماجة وانحطاط : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ .

وعندما يقول لهم : ﴿ قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ . وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ . قَالُوا ﴾ يردون عليه بوقاحة وسوء أدب ﴿ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ .

أى : أو لم يسبق لنا يا لوط أننا نهيناك عن أن تحول بيننا وبين من نريد ارتكاب الفاحشة معه من الرجال ، فكيف تجرأت على محاولة منعنا عما نريده من ضيوفك ، وأنت تعلم ما نريده منهم؟ .

وإنه لكلام يدل على أن هؤلاء المجرمين قد بلغوا الدرك الأسفل فى انتكاس الفطرة ، وانطماس البصيرة .

(هـ) أن لوطا ـ عليه السلام ـ لقوة إيمانه، وعلو همته، وعظم غيرته على كرامته، وكرامة ضيوفه، وحرصه على زوال تلك الرذيلة من طبائع هؤلاء المجرمين، تمنى أن تكون من حوله قوة باطشة تردعهم، عن هذا المنكر، ولذا قال: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾.

أى: ليت لى قوة تعاوننى على دفع شروركم وقبائحكم، وليتنى أستطيع أن أجد شخصا قويا من ذوى المنعة والسلطان أحتمى به منكم ومن تهديدكم لى، ولوط ـ عليه السلام ـ عندما قال ذلك إنما كان يبغى ـ والله أعلم ـ القوة المادية العاجلة التى تردع هؤلاء المجرمين، وقوله هذا من باب مباشرة الأسباب التى شرعها الله ـ تعالى ـ لنصرة الحق، مع اعتماده المطلق على قدرة الله ـ تعالى ـ التى لايعجزها شىء.

وفى الحديث الصحيح قال ﷺ: «ويرحم الله لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد»، أى: كان لوط ـ عليه السلام ـ يأوى إلى ركن شديد متمثل فى رعاية الله ـ تعالى ـ إلا أنه طلب القوة المادية العاجلة التى تعينه وتنصره على هؤلاء المجرمين، قالوا: وقد كان لوط ـ عليه السلام ـ غريبا عن القوم الذين أرسل إليهم، ولم يجتمع فى النسب معهم، لأنه نشأ بالعراق، ثم هاجر مع عمه إبراهيم ﷺ إلى بلاد الشام، ثم أرسله الله ـ تعالى ـ إلى قرية «سدوم» التى كان يعيش بها أولئك الأشرار.

وفى الحديث الشريف الذى أخرجه الطبرى عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «مابعث الله من نبى بعد لوط إلا فى ثروة من قومه، حتى بعث الله نبيكم فى ثروة من قومه»، أى: فى كثرة ومنعة من عشيرته.

(و) أن حكمة الله ـ تعالى ـ قد اقتضت أن تكون عقوبته العادلة للمجرمين، متناسبة مع جرائمهم وقبائحهم، ولعل مما يؤيد ذلك أن قوم لوط ـ عليه السلام ـ حين قلبوا الأوضاع، وتركوا ما أحله الله ـ تعالى ـ لهم، وانغمسوا فيما حرمه ـ سبحانه ـ عليهم، كانت العقوبة متسقة مع قبائحهم، حيث عاقبهم الله ـ تعالى ـ بأن جعل ما هو الأعلى من قريتهم هو الأسفل، فهلكوا جميعا هلاكا مصحوبا باللعنة والطرد من رحمته ـ عز وجل ـ.

قال ـ تعالى ـ: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ. مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾.

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ. فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾.

(ز) أن قصة لوط مع قومه قد تكررت فى القرآن الكريم فى سور متعددة ، تارة بصورة مفصلة ، وتارة بصورة فيها شىء من الاختصار ، وأتت فى كل سورة بأسلوب له إيحاءاته ومقاصده ، وتأثيره .

ولعل من أسرار هذا التكرار للقصة الواحدة فى سور متعددة ، أن ترسخ المعانى فى الأذهان ، وأن تكون العقول على تذكر لما اشتملت عليه القصة من عبر وعظات ، وصدق الله ـ تعالى ـ إذ يقول : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

قصة موسى وهارون - عليهما السلام -

١ - تعد قصة موسى وهارون - عليهما السلام - وما حدث بينهما وبين فرعون ، وبين قومهما من بنى إسرائيل ، تعد على رأس القصص التى تكرر الحديث عنها فى القرآن الكريم فى أكثر من عشرين سورة ، تارة بصورة مفصلة ، وتارة بصورة مختصرة ، ومن السور القرآنية التى تحدثت عن هذه القصة بصورة مفصلة ، سورة : البقرة ، الأعراف وطه ، والشعراء ، والقصص .

وموسى - عليه السلام - ينتهى نسبه إلى إبراهيم - عليه السلام - فهو موسى بن عمران ابن يصهر ، بن ماهيث ، بنى لاوى ، بن يعقوب ، بن إسحاق ، بن إبراهيم .

وكانت ولادته فى القرن الثالث عشر أو الرابع عشر قبل ميلاد عيسى - عليه السلام - وفى ظروف كان فيها فرعون مصر فى ذلك الزمان ، يقتل الذكور من بنى إسرائيل عند ولادتهم ، ويترك الإناث ، قالوا : لأن من قومه من أخبره أنه سيظهر رجل من بنى إسرائيل ، سيكون هلاكك على يديه .

ويرجح بعض المؤرخين أن ولادة موسى - عليه السلام - كانت فى عهد «منفتاح» ابن رمسيس الثانى ، وكلاهما أنزل أشد الضربات ببنى إسرائيل ، لأنهم كانوا عونا للهكسوس الذين انحدروا إلى مصر من آسيا الصغرى ، فحكموها لمدة تصل إلى خمسمائة سنة ، حكما ظالما للمصريين ، فلما تمكن «أحمس» ملك مصر من طردهم والتغلب عليهم ، بدأ هو ومن جاء بعده من ملوك مصر فى إذلال بنى إسرائيل الذين كانوا منذ عهد يوسف - عليه السلام - يسكنون مصر ، ويتحالفون مع كل الغزاة الغرباء عن مصر .

وقد تكرر اسم موسى - عليه السلام - فى القران الكريم ، أكثر من مائة مرة ، وكان النبى ﷺ عندما يشتد به الأذى يقول :«رحم الله أخى موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر» .

وكانت وفاته - على الأرجح - خلال الفترة التى ابتلى الله - تعالى - قومه من بنى إسرائيل بالتيه فى أرض سيناء وقد دعا الله - تعالى - أن يدنيه من الأرض المقدسة ، التى بها بيت المقدس ، وأن يموت بها ، فأجاب الله - تعالى - دعاءه .

ففى الصحيحين عن أبى هريرة - رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إن موسى - عليه السلام - عندما أحس بدنو أجله سأل الله - تعالى - أن يدنيه من الأرض المقدسة ، فأجاب الله - تعالى - دعاءه ، ثم قال ﷺ : فلو كنت ثَمَّ لأريتكم قبره إلى جانب الطريق تحت الكثيب الأحمر» .

وأما هارون ـ عليه السلام ـ فهو أخو موسى لأمه ، وقيل لأبيه وأمه ، وكان نعم العون لأخيه موسى ـ عليهما السلام ـ وكانت وفاته ـ كما قيل ـ قبيل وفاة موسى بزمن يسير .

٢ ـ هذا ، وفى سورة «القصص» أكثر من أربعين آية ، تحدثت عن الظروف التى ولد خلالها موسى ـ عليه السلام ـ وعما فعلته أمه بعد مولده ، وعن حاله بعد أن بلغ أشده واستوى ، وعن هجرته إلى أرض مدين ، وعن تشريفه بالنبوة وهو فى طريقه من أرض مدين إلى مصر ، وعن دعوته فرعون وقومه إلى إخلاص العبادة لله الواحد القهار .

وتبدأ هذه الآيات بقوله ـ تعالى ـ :

﴿ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾

وفرعون : اسم كان يطلق فى القديم على كل ملك لمصر ، كما يقال لملك الروم «قيصر» ، ولملك اليمن «تُبّع» ولملك الفرس «كسرى» ، وقد تكرر اسم فرعون فى القرآن أربعا وسبعين مرة .

والمعنى : نتلو عليك ـ أيها الرسول الكريم ـ تلاوة كلها حق وصدق ، شيئا عجيبا وخبرا هاما ، يتعلق بقصة موسى ـ عليه السلام ـ وبقصة فرعون .

وقوله ـ سبحانه ـ ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أى : نتلوا عليك هذه الآيات ، لقوم يؤمنون بها ، وينتفعون بما اشتملت عليه من هدايات وعبر وعظات .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا . . ﴾ كلام مستأنف لتفصيل ما أجمله من النبأ .

وقوله : ﴿عَلا فِي الأَرْضِ﴾ أى تكبر فيها وطغى ، من العلو بمعنى الارتفاع .

والمقصود أنه جاوز كل حد فى غروره وظلمه وعدوانه ، والمراد بالأرض : أرض مصر وما يتبعها من بلاد ، و﴿شِيَعًا﴾ جمع شيعة ، وهم الأتباع والجماعات وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعته .

أى : إن فرعون طغى وبغى وتجبر فى الأرض ، وجعل أهلها شيعا وأتباعا له ، وصار يستعمل كل طائفة منهم ، فيما يريده من أمور دولته ، فهذه الطائفة للبناء وتلك للسحر ، وثالثة لخدمته ومناصرته على ما يريد .

وجملة ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ﴾ ، لبيان حال الذين جعلهم شيعا وأحزابا ، والمراد بهذه الطائفة : بنو إسرائيل .

أى : أنه بعد أن جعل أهل مملكته شيعا وأحزابا اختص طائفة منهم بالإذلال والقهر والظلم ، فصار يذبح الذكور من بنى إسرائيل بمجرد ولادتهم ، ويترك الإناث أحياء .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : وفى ذبح الذكور دون الإناث مضرة من وجوه أحدهما أن ذبح الأبناء يقتضى فناء الرجال ، وذلك يقتضى انقطاع النسل .

ثانيها : أن هلاك الذكور يقتضى فساد مصالح النساء فى المعيشة ، فإن المرأة لتتمنى الموت إذا انقطع عنها تعهد الرجال .

ثالثها : أن قتل الذكور عقب الحمل الطويل ، وتحمل الكد ، والرجاء القوى فى الانتفاع به ، من أعظم العذاب .

رابعها : أن بقاء النساء بدون الذكران من أقاربهم ، يؤدى إلى صيرورتهن مستفرشات للأعداء ، وذلك نهاية الذل والهوان .(١)

قالوا : وإنما كان فرعون يذبح الذكور من بنى إسرائيل دون الإناث ، لأن الكهنة أخبروه ، بأن مولودا سيولد من بنى إسرائيل ، يكون ذهاب ملك فرعون على يده .

وقوله ـ سبحانه ـ ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ، تعليل وتأكيد لما كان عليه فرعون من تجبر وطغيان .

أى : إن فرعون كان من الراسخين فى الفساد ، ولذلك فعل مافعل من ظلم لغيره ، ومن تطاول جعله يقول للناس : ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١ ص٣٥٨

ثم بين ـ سبحانه ـ ما اقتضته إرادته وحكمته ، من تنفيذ وعيده فى القوم الظالمين ، مهما احتاطوا وحذروا ، ومن إنقاذه للمظلومين بعد أن أصابهم من الظلم ما أصابهم فقال : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ. وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ .

والمعنى : لقد طغى فرعون وبغى ، ونحن بإرادتنا وقدرتنا ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ ﴾ ونتفضل على بنى إسرائيل ، الذين استضعفوا فى الأرض بأن ننجيهم من ظلمه ، وننقذهم من قهره وبغيه .

﴿ وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ للأرض المباركة ، التى نعطيهم إياها متى آمنوا وأصلحوا ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف : ١٣٧]

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ أى : ونجعلهم أقوياء راسخى الأقدام فى الأرض التى نورثهم إياها ، بعد القوم الظالمين .

﴿ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا ﴾ أى : ونطلع فرعون وهامان ـ وهو وزير فرعون ـ وجنودهما التابعين لهما ﴿ مِنْهُم ﴾ أى : من بنى إسرائيل المستضعفين فى الأرض ﴿ مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ أى : ما كانوا يحاولون دفعه واتقاءه ، فقد كان فرعون وجنده يقتلون الذكور من بنى إسرائيل ، خوفا من ظهور غلام منهم يكون هلاك فرعون على يده .

قال ابن كثير : أراد فرعون بحوله وقوته ، أن ينجو من موسى ، فما نفعه ذلك بل نفذ الله ـ تعالى ـ حكمه ، بأن يكون إهلاك فرعون على يد موسى ، بل يكون هذا الغلام الذى احترزت من وجوده ـ يا فرعون ـ وقتلت بسببه ألوفا من الولدان ، إنما منشؤه ومرباه على فراشك وفى دارك ، وهلاكك وهلاك جندك على يديه ، لتعلم أن رب السموات العلا ، هو القاهر الغالب العظيم ، الذى ما شاء كان ، ومالم يشأ لم يكن .(١)

وهكذا تعلن السورة الكريمة فى مطلعها ، أن ما أراده الله ـ تعالى ـ لابد أن يتم ، أمام أعين فرعون وجنده ، مهما احتاطوا ومهما احترسوا ، ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ .

(١) تفسير ابن كثير جـ٦ ص٢٣١ .

٣ - ثم فصل - سبحانه - الحديث عن موسى - عليه السلام - فذكر ما ألهمه لأمه عند ولادته ، وما قالته امرأة فرعون له عند التقاط آل فرعون لموسى ، وما كانت عليه أم موسى من حيرة وقلق ، وما قالته لأخته وكيف رد الله - تعالى - بفضله وكرمه موسى إلى أمه ، لنستمع إلى السورة الكريمة ، وهى تفصل هذه الأحداث ، بأسلوبها البديع المؤثر فتقول :

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

قال الإمام الرازى : اعلم أنه - تعالى - لما قال : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا ﴾ ، ابتداء بذكر أوائل نعمه فى هذا الباب فقال : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ . (١)

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٦ ص٤٢٦

والوحى إلى أم موسى يجوز أن يكون عن طريق الإلهام ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ أو عن طريق المنام ، أو عن طريق إرسال ملك أخبرها بذلك .

قال الآلوسى : والظاهر أن الإيحاء إليها كان بإرسال ملك ، ولاينافى ذلك الإجماع على عدم نبوتها ، لما هو معلوم أن الملائكة قد ترسل إلى غير الأنبياء وتكلمهم .

والظاهر - أيضا - أن هذا الإيحاء كان بعد الولادة . . وقيل : كان قبلها .[1]

والخوف : حالة نفسية تعترى الإنسان ، فتجعله مضطرب المشاعر ، لتوقعه حصول أمر يكرهه .

والحزن : اكتئاب نفسى يحدث للإنسان من أجل وقوع ما يكرهه ، كموت عزيز لديه ، أو فقده لشىء يحبه .

وفى الكلام حذف يعرف من السياق ، والتقدير : وحملت أم موسى به فى الوقت الذى كان فرعون يذبح الأبناء ، ويستحيى النساء ، وأخفت حملها عن غيرها ، فلما وضعته أصابها ما أصابها من خوف وفزع على مصير ابنها ، وهنا ألهمناها بقدرتنا ، وإرادتنا ، وقذفنا فى قلبها أن أرضعيه فى خفاء وكتمان ، ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ ﴾ من فرعون وحاشيته أن يقتلوه كما قتلوا غيره من أبناء بنى إسرائيل .

﴿ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ أى : فى البحر والمراد به نهر النيل ، وسمى بحرا لاتساعه .

﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ﴾ أى : ولاتخافى عليه من حصول مكروه له ، ولاتحزنى لمفارقته لك ، فهو فى رعايتنا وحمايتنا ، ومن رعاه الله - تعالى - وحماه ، فلاخوف عليه ولاحزن .

وجملة ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ تعليل للنهى عن الخوف والحزن وتبشير لها بأن ابنها سيعود إليها ، وسيكون من رسل الله - عز وجل - .

وهكذا نجد الآية الكريمة قد اشتملت على أبلغ الأساليب وأبدعها ، فى بيان قدرة الله - تعالى - ورعايته لمن يريد رعايته .

قالوا : مدح الأصمعى امرأة لإنشادها شعرا حسنا ، فقرأت هذه الآية الكريمة ثم قالت له : أبعد هذه الآية فصاحة ، لقد اشتملت على أمرين وهما ﴿ أَرْضِعِيهِ ﴾ ، ﴿ فَأَلْقِيهِ ﴾

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٢٠ ص٤٥ .

ونهيين وهما ﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ﴾ ، وخبرين ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ وبشارتين فى ضمن الخبرين وهما : الرد والجعل المذكوران .

والفاء فى قوله : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا .. ﴾ هى الفصيحة .

والالتقاط : وجود الشىء والحصول عليه من غير طلب ولاقصد .

والمراد بآل فرعون : جنوده وأتباعه الذين عثروا على التابوت الذى به موسى ، وحملوه إلى فرعون .

والمعنى : ونفذت أم موسى ما أوحيناه إليها ، فأرضعت ابنها موسى ، وألقته فى اليم حين خافت عليه القتل ، فالتقطه آل فرعون من اليم ، ليكون لهم عدوا وحزنا ، وليعلموا أن ما أردناه لابد أن يتم مهما احترسوا واحتاطوا وحذروا ، فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ ، تعليل لما قبله

أى : فعلنا ما فعلنا من جعل موسى عدوا وحزنا لفرعون وآله ، لأن فرعون ووزيره هامان ، وجنودهما الذين يناصرونهما ، كانوا مرتكبين للذنوب العظيمة فى كل ما يأتون ويذرون ، ومن مظاهر ذلك قتلهم لذكور بنى إسرائيل ، وإبقاؤهم لإناثهم .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا .. ﴾ ، بيان لما أنطق الله به امرأة فرعون للدفاع عن موسى ـ عليه السلام ـ .

قال الجمل : وامرأة فرعون هى : آسيا بنت مزاحم ، وكانت من خيار النساء ، ومن بنات الأنبياء ، وكانت أما للمساكين ترحمهم وتتصدق عليهم .(١)

ويكفى فى مدحها قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ . (٢)

أى : وقالت امرأة فرعون بعد أن أخرج موسى من التابوت ، ورأته بين أيدى فرعون وآله : ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ أى : هذا الطفل هو قرة عين لى ولك ، أى : هو محل السرور والفرح لعينى يا فرعون .

فالجملة الكريمة كناية عن السرور به ، إذ لفظ ﴿ قُرَّتُ ﴾ مأخوذ من القرار بمعنى الاستقرار ، وذلك لأن العين إذا رأت ما تحبه ، استقر نظرها عليه ، وانشغلت به عن غيره .

---

(١) حاشية الجمل فى الجلالين جـ٣ ص٣٣٧

(٢) سورة التحريم آية ١١ .

ثم أضافت إلى ذلك قولها ﴿ لا تَقْتُلُوهُ ﴾ والخطاب لفرعون وجنده .

ثم عللت النهى عن قتله بقولها : ﴿ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا ﴾ فى مستقبل حياتنا ، فنجنى من ورائه خيرا .

﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ لنا ، فإن هيئته وصورته تدل على النجابة والجمال واليمن .

وهكذا شاءت إرادة الله ـ تعالى ـ أن تجعل امرأة فرعون ـ سببا فى إنقاذ موسى من القتل ، وفى أن يعيش فى بيت فرعون ، ليكون له فى المستقبل عدوا وحزنا .

وقوله ـ تعالى ـ ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ ، جملة حالية ، أى : فعلوا ما فعلوا والحال أنهم لايشعرون أن هلاكهم سيكون على يديه .

والظاهر أن هذه الجملة من كلام الله ـ تعالى ـ وليست حكاية لما قالته امرأة فرعون .

ثم صورت السورة الكريمة تصويرا بديعا مؤثرا ، ما كانت عليه أم موسى من لهفة وقلق ، بعد أن فارقها ابنها ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ .. ﴾ ، أى : وبعد أن ألقت أم موسى به فى اليم ، والتقطه آل فرعون ، وعلمت بذلك أصبح قلبها وفؤادها خاليا من التفكير فى أى شىء فى هذه الحياة ، إلا فى شىء واحد وهو مصير ابنها موسى ـ عليه السلام ـ وأنها كادت أن تصرح للناس بأن الذى التقطه فرعون هو ابنها ، وذلك لشدة دهشتها وخوفها عليه من فرعون وجنده .

وفى هذا التعبير مافيه من الدقة فى تصوير الحالة النفسية ، حتى لكأنها صارت فاقدة لكل شىء فى قلبها سوى أمر ابنها وفلذة كبدها .

وجواب الشرط فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾ ، محذوف دل عليه ما قبله .

أى : لولا أن ربطنا على قلبها بقدرتنا وإرادتنا ، بأن ثبتناه وقويناه ، لأظهرت للناس أن الذى التقطه آل فرعون هو ابنها .

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ علة لتثبيت قلبها وتقويته ، فهو متعلق بقوله : ﴿ رَّبَطْنَا ﴾ .

أى : ربطنا على قلبها لتكون من المصدقين بوعد الله ـ تعالى ـ وأنه سيرد إليها ابنها ، كى تقر عينها ولاتحزن .

ثم بين ـ سبحانه ـ ما فعلته أم موسى بعد ذلك فقال : ﴿ وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ .. ﴾

أى : لم تسكت أم موسى بعد أن علمت بالتقاط آل فرعون له ، بل قالت لأخت موسى ﴿ قُصِّيهِ . . ﴾ أى تتبعى أثره وخبره وما آل إليه أمره .

والفاء فى قوله ـ سبحانه ـ : ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ ﴾ ، هى الفصيحة ، والجنب : الجانب .

أى : فقصت أخت موسى أثره ، فأبصرته عن جانب منها ، وكأنها لاتريد أن تطلع أحدا على أنها تبحث عن أخيها ، وتتبع أثره .

والتعبير بقوله ـ تعالى ـ ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ ﴾ يشعر بأن أخت موسى أبصرت أخاها إبصارا فيه مخادعة لآل فرعون ، حتى لاتجعلهم يشعرون بأنها تبحث عنه .

ويشهد لذلك قوله ـ تعالى ـ ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ أى : وهم ـ أى آل فرعون ـ لايشعرون أنها أخته تبحث عنه وتتبع أخباره .

ثم بين ـ سبحانه ـ مظهرا من مظاهر حكمته وقدرته وتدبيره لأمر موسى كى يعود إلى أمه ، فقال ـ تعالى : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ . . ﴾ .

والمراد بالتحريم هنا : المنع ، والمراضع : جمع مرضع ـ بضم الميم وكسر الضاد ـ وهى المرأة التى ترضع .

أى : ومنعنا موسى بقدرتنا وحكمتنا من أن يرضع من المرضعات وكان ذلك من قبل أن تعلم بخبره أمه وأخته .

قال ابن كثير : قوله ـ تعالى ـ ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ . . ﴾ أى : تحريما قدريا ، وذلك لكرامة الله له ، صانه عن أن يرتضع غير ثدى أمه ، لأنه ـ سبحانه ـ جعل ذلك سببا إلى رجوعه إلى أمه ، لترضعه وهى آمنة بعد أن كانت خائفة . .[1]

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ ، حكاية لما قالته أخت موسى لفرعون وحاشيته ، والاستفهام للتحضيض .

أى : وبعد أن بصرت أخت موسى به عن جنب ، ورأت رفضه للمراضع ، وبحثهم عمن يرضعه ، قالت : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ . . ﴾ أى : يقومون بتربيته وإرضاعه من أجل راحتكم وراحته ، ﴿ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ أى : وهم لايمنعون ما ينفعه فى تربيته وغذائه ، ولايقصرون فيما يعود عليه بالخير والعافية .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٢٣٣ .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ . . ﴾ معطوف على كلام محذوف ، والتقدير : فسمعوا منها ماقالت ، ودلتهم على أمه ، فرددناه إليها ، كى يطمئن قلبها وتقر عينها برجوع ولدها إليها ، ولاتحزن لفراقه .

ولتعلم أن وعد الله ـ تعالى ـ حق ، أي : أن وعده ـ سبحانه ـ لاخلف فيه ، بل هو كائن لا محالة ، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : ولكن أكثر الناس لايعلمون هذه الحقيقة حق العلم ، ولذا يستعجلون الأمور ، دون أن يفطنوا إلى حكمته ـ سبحانه ـ فى تدبير أمر خلقه .

وبذلك نرى هذه الآيات قد صاغت لنا بأبلغ أسلوب ، جانبا من حياة موسى ـ عليه السلام ـ ومن رعاية الله ـ تعالى ـ له وهو مازال فى سن الرضاعة .

* * *

٤ ـ ثم قص علينا ـ سبحانه ـ جانبا من حياة موسى ـ عليه السلام ـ بعد أن بلغ أشده ، واستوى فقال ـ تعالى ـ :

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن

يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾

أى : وحين بلغ موسى ـ عليه السلام ـ منتهى شدته وقوته ، واكتمال عقله ، قالوا : وهى السن التى كان فيها بين الثلاثين والأربعين .

﴿ آتَيْنَاهُ ﴾ ، بفضلنا وقدرتنا ﴿ حُكْمًا ﴾ أى : حكمة وهى الإصابة فى القول والفعل ، وقيل : النبوة .

﴿ وَعِلْمًا ﴾ ، أى : فقها فى الدين ، وفهما سليما للأمور ، وإدراكا قويما لشئون الحياة .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ بيان لسنة من سننه ـ تعالى ـ التى لا تتخلف .

أى : ومثل هذا الجزاء الحسن والعطاء الكريم ، الذى أكرمنا به موسى وأمه نعطى ونجازى المحسنين ، الذين يحسنون أداء ما كلفهم الله ـ تعالى ـ به ، فكل من أحسن فى أقواله وأعماله ، أحسن الله ـ تعالى ـ جزاءه ، وأعطاه الكثير من آلائه .

ثم حكى ـ سبحانه ـ بعض الأحداث التى تعرض لها موسى ـ عليه السلام ـ فى تلك الحقبة من عمره فقال : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ .

والمراد بالمدينة : مصر ، وقيل : ضاحية من ضواحيها ، كعين شمس ، أو منف .

وجملة ﴿ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ حال من الفاعل ، أى : دخلها مستخفيا .

قيل : والسبب فى دخوله على هذه الحالة ، أنه بدت منه مجاهرة لفرعون وقومه بما يكرهون ، فخافهم وخافوه ، فاختفى وغاب ، فدخلها متنكرا .[1]

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ٢٠ ص٥٢ .

أى : وفى يوم من الأيام ، وبعد أن بلغ موسى سن القوة والرشد ، دخل المدينة التى يسكنها فرعون وقومه : ﴿ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ أى : دخلها مستخفيا فى وقت كان أهلها غافلين عما يجرى فى مدينتهم من أحداث ، بسبب راحتهم فى بيوتهم فى وقت القيلولة ، أو ما يشبه ذلك .

﴿ فَوَجَدَ ﴾ موسى ﴿ فِيهَا ﴾ أى فى المدينة ﴿ رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ ﴾ أى : يتخاصمان ويتنازعان فى أمر من الأمور .

﴿ هَذَا مِن شِيعَتِهِ ﴾ أى : أحد الرجلين كان من طائفته وقبيلته ، أى : من بنى إسرائيل : ﴿ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ ، أى : والرجل الثانى كان من أعدائه وهم القبط الذين كانوا يسيمون بنى إسرائيل سوء العذاب .

﴿ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ ، أى : فطلب الرجل الإسرائيلى من موسي ، أن ينصره على الرجل القبطى .

﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ ﴾ أى : فاستجاب موسى لمن استنصر به ، فوكز القبطى ، أى : فضربه بيده مضمومة أصابعها فى صدره ، ﴿ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ أى : فقتله ، وهو لايريد قتله ، وإنما كان يريد دفعه ومنعه من ظلم الرجل الإسرائيلى .

والتعبير بقوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ يشير إلى أن موسى ـ عليه السلام ـ كان على جانب عظيم من قوة البدن ، كما يشير ـ أيضا ـ إلى ما كان عليه من مروءة عالية ، حملته على الانتصار للمظلوم بدون تقاعس أو تردد .

ولكن موسى ـ عليه السلام ـ بعد أن رأى القبطى جثة هامدة ، استرجع وندم ، وقال : ﴿ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ ، أى : قال موسى : هذا الذى فعلته وهو قتل القبطى ، من عمل الشيطان ومن وسوسته ، ومن تزيينه ﴿ إِنَّهُ ﴾ أى : الشيطان ﴿ عَدُوٌّ ﴾ للإنسان ﴿ مُّضِلٌّ ﴾ له عن طريق الحق ﴿ مُّبِينٌ ﴾ أى : ظاهر العداوة والإضلال ، ثم أضاف إلى هذا الندم والاسترجاع ندما واستغفارا آخر فقال : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ﴾ .

أى : قال موسى ـ عليه السلام ـ بعد قتله القبطى بدون قصد ـ مكررا الندم

والاستغفار : يا رب إنى ظلمت نفسى ، بتلك الضربة التى ترتب عليها الموت ، فاغفر لى ذنبى ، ﴿ فَغَفَرَ ﴾ الله - تعالى ﴿ لَهُ ﴾ ذنبه ، ﴿ إِنَّهُ ﴾ - سبحانه - ﴿ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ، ثم أكد موسى عليه السلام - للمرة الثالثة ، توبته إلى ربه ، وشكره إياه على نعمه فقال : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾

أى : يا رب بسبب إنعامك علىّ ، أعاهدك أنى لن أكون مناصرا للمجرمين أو مدافعا عنهم .

وهذه الضراعة المتكررة إلى الله - تعالى - من موسى - عليه السلام - تدل على نقاء روحه ، وشدة صلته بربه ، وخوفه منه ، ومراقبته له - سبحانه - فإن من شأن الأخيار فى كل زمان ومكان ، أنهم لا يعينون الظالمين ، ولا يقفون إلى جانبهم .

قال القرطبى : ويروى عن النبى ﷺ أنه قال : «من مشى مع مظلوم ليعينه على مظلمته ، ثبت الله قدميه على الصراط يوم القيامة ، يوم تزل الأقدام ، ومن مشى مع ظالم ليعينه على ظلمه ، أزال الله قدميه على الصراط يوم تدحض فيه الأقدام» .(١)

ثم بين - سبحانه - ما كان من أمر موسى بعد هذه الحادثة فقال : ﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ .

أى : واستمر موسى - عليه السلام - بعد قتله للقبطى ، يساوره القلق ، فأصبح يسير فى طرقات المدينة التى حدث فيها القتل ، ﴿ خَائِفًا ﴾ من وقوع مكروه به ﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ ما يسفر عنه هذا القتل من اتهامات وعقوبات ومساءلات .

والتعبير بقوله : ﴿ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ يشعر بشدة القلق النفسى الذى أصاب موسى - عليه السلام - فى أعقاب هذا الحادث ، كما يشعر - أيضا - بأنه - عليه السلام - لم يكن فى هذا الوقت على صلة بفرعون وحاشيته ، لأنه لو كان على صلة بهم ، ربما دافعوا عنه ، أو خففوا المسألة عليه .

و ﴿ إِذَا ﴾ فى قوله - تعالى - : ﴿ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ﴾ فجائية .

أى : وبينما موسى على هذه الحالة من الخوف والترقب ، فإذا بالشخص الإسرائيلى الذى نصره موسى بالأمس ، يستغيث به مرة أخرى من قبطى آخر ويطلب منه أن يعينه عليه ، وهنا قال موسى - عليه السلام - لذلك الإسرائيلي المشاكس : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ .

---

(١) تفسير القرطبى جـ١٣ ص٢٦٣

أى : قال له موسى - عليه السلام - بحدة وغضب : إنك لضال بين الضلال وجاهل واضح الجهالة ، لأنك تسببت فى قتلى لرجل بالأمس ، وتريد أن تحملنى اليوم على أن أفعل ما فعلته بالأمس ، ولأنك لجهلك تنازع من لاقدرة لك على منازعته أو مخاصمته .

ومع أن موسى - عليه السلام - قد قال للإسرائيلى ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ إلا أن همته العالية ، وكراهيته للظلم ، وطبيعته التى تأبى التخلى عن المظلومين كل ذلك دفعه إلى إعداد نفسه لتأديب القبطى ، ويحكى القرآن ذلك فيقول : ﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا .. ﴾ .

أى : فحين هيأ موسى - عليه السلام - نفسه للبطش بالقبطى الذى هو عدو لموسى وللإسرائيلى ، حيث لم يكن على دينهما .

﴿ قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ .

ويرى بعض المفسرين ، أن القائل لموسى هذا القول ، هو الإسرائيلى ، الذى طلب من موسى النصرة والعون ، وسبب قوله هذا : أنه توهم أن موسى يريد أن يبطش به دون القبطى ، عندما قال له : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ .

فيكون المعنى : قال الإسرائيلى لموسى بخوف وفزع : يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا - هى نفس القبطى - بالأمس ، وما تريد بفعلك هذا إلا أن تكون ﴿ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ ﴾ أى : ظالما قتالا للناس فى الأرض ، ﴿ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ الذى يصلحون ، بين الناس فتدفع التخاصم بالتى هى أحسن .

ويرى بعضهم أن القائل لموسى هذا القول هو القبطى ، لأنه فهم من قول موسى للإسرائيلى ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ أنه - أى : موسى - هو الذى قتل القبطى بالأمس .

وقد رجح الإمام الرازى هذا الوجه الثانى فقال : والظاهر هذا الوجه ، لأنه - تعالى - قال : ﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ ﴾ ، فهذا القول إذن منه - أى من القبطى - لا من غيره - وأيضا - قوله : ﴿ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ ﴾ ، لايليق إلا بأن يكون قولا من كافر - وهو القبطى - .

وما رجحه الإمام الرازى هو الذى نميل إليه ، وإن كان أكثر المفسرين قد رجحوا الرأى

الأول ، وسبب ميلنا إلى الرأى الثانى ، أن السورة الكريمة قد حكت ما كان عليه فرعون ، وملؤه من علو وظلم واضطهاد لبنى إسرائيل ، ومن شأن الظالمين أنهم يستكثرون الدفاع عن المظلومين ، بل ويتهمون من يدافع عنهم بأنه جبار فى الأرض لذا نرى أن القائل هذا القول لموسى ، هو القبطى ، وليس الإسرائيلى ـ والله أعلم بمراده .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ . . ﴾ معطوف على كلام محذوف يرشد إليه السياق .

والتقدير : وانتشر خبر قتل موسى للقبطى بالمدينة ، فأخذ فرعون وقومه فى البحث عنه لينتقموا منه . . وجاء رجل ـ قيل هو مؤمن من آل فرعون ـ من أقصى المدينة ، أى : من أطرافها وأبعد مكان فيها ﴿ يَسْعَىٰ ﴾ أى : يسير سيرا سريعا نحو موسى ، فلما وصل إليه قال له : ﴿ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ ﴾ وهم زعماء قوم فرعون .

﴿ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ أى : يتشاورون فى أمرك ليقتلوك ، أو يأمر بعضهم بعضا بقتلك ، وقوله : ﴿ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ أى : قال الرجل لموسى : مادام الأمر كذلك يا موسى فاخرج من هذه المدينة ، ولاتعرض نفسك للخطر ، إنى لك من الناصحين بذلك ، قبل أن يظفروا بك ليقتلوك .

واستجاب موسى لنصح هذا الرجل ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا ﴾ أى : من المدينة ، حالة كونه ﴿ خَائِفًا ﴾ من الظالمين ﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ التعرض له منهم ، ويعد نفسه للتخفى عن أنظارهم .

وجعل يتضرع إلى ربه قائلا : ﴿ رَبِّ نَجِّنِي ﴾ ، بقدرتك وفضلك ﴿ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ بأن تخلصنى من كيدهم ، وتحول بينهم وبينى ، فأنا ما قصدت بما فعلت إلا دفع ظلمهم وبغيهم .

وإلى هنا تكون السورة الكريمة ، قد قصت علينا هذا الجانب من حياة موسى ، بعد أن بلغ أشده واستوى ، وبعد أن دفع بهمته الوثابة ظلم الظالمين ، وخرج من مدينتهم خائفا يترقب ملتمسا من خالقه ـ عز وجل ـ النجاة من مكرهم .

* * *

٥ ـ ثم حكت لنا السورة الكريمة بعد ذلك ، ما كان منه عندما توجه إلى جهة مدين ، وما حصل له فى تلك الجهة من أحداث فقال ـ تعالى ـ :

وَلَمَّا
تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا
وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن
دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ
يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ
فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا
تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا
جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾
قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ
﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ
حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِي
إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ
قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ۖ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

﴿ مَدْيَن ﴾ اسم لقبيلة شعيب ـ عليه السلام ـ أو لقريته التى كان يسكن فيها ، سميت بذلك نسبة إلى مدين بن إبراهيم ـ عليه السلام ـ .

وإنما توجه إليها موسى ـ عليه السلام ـ لأنها لم تكن داخلة تحت سلطان فرعون وملئه .

أى : وبعد أن خرج موسى من مصر خائفا يترقب ، صرف وجهه إلى جهة قرية مدين التى على أطراف الشام جنوبا ، والحجاز شمالا .

صرف وجهه إليها مستسلما لأمر ربه ، متوسلا إليه بقوله : ﴿ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ .

أى : قال على سبيل الرجاء فى فضل الله ـ تعالى ـ وكرمه : عسى ربى الذى خلقنى بقدرته ، وتولانى برعايته وتربيته ، أن يهدينى ويرشدنى إلى أحسن الطرق التى تؤدى بى إلى النجاة من القوم الظالمين .

وأجاب الله ـ تعالى ـ دعاءه ، ووصل موسى بعد رحلة شاقة مضنية إلى أرض مدين ، ويقص علينا القرآن ما حدث له بعد وصوله إليها فيقول : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ .

والمعنى وحين وصل موسى ـ عليه السلام ـ إلى الماء الذى تستقى منه قبيلة مدين ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً ﴾ أى جماعة كثيرة ﴿ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ أى : يسقون إبلهم وغنمهم ، ودوابهم المختلفة .

﴿ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ﴾ أى : ووجد بالقرب منهم ، أو فى جهة غير جهتهم .

﴿ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ أى : امرأتين تطردان وتمنعان أغنامهما أو مواشيهما عن الماء ، حتى ينتهى الناس من السقى ، ثم بعد ذلك هما تسقيان دوابهما إذ لا قدرة لهما على مزاحمة الرجال .

وهنا قال لهما موسى ـ صاحب الهمة العالية والمروءة السامية والنفس الوثابة نحو نصرة المحتاج قال لهما بما يشبه التعجب : ﴿ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ أى : ما شأنكما؟ وما الدافع لكما إلى منع غنمكما من الشرب من هذا الماء ، مع أن الناس يسقون منه؟

وهنا قالتا له على سبيل الاعتذار وبيان سبب منعهما لمواشيهما عن الشرب : ﴿ لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ .

أى : قالتا لموسى ـ عليه السلام ـ : إن من عادتنا ألا نسقى مواشينا حتى يصرف الرعاء دوابهم عن الماء ، ويصبح الماء خاليا لنا ، لأننا لاقدرة لنا على المزاحمة ، وليس عندنا رجل يقوم بهذه المهمة ، وأبونا شيخ كبير فى السن ، لايقدر ـ أيضا ـ على القيام بمهمة الرعى والمزاحمة على السقى .

وبعد أن سمع موسى منهما هذه الإجابة ، سارع إلى معاونتهما ـ شأن أصحاب النفوس الكبيرة ، والفطرة السليمة ـ وقد عبر القرآن عن هذه المسارعة بقوله : ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾ .

أى : فسقى لهما مواشيهما سريعا ، من أجل أن يريحهما ويكفيهما عناء الانتظار ،

وفى هذا التعبير إشارة إلى قوته ، حيث أنه استطاع - وهو فرد غريب بين أمة من الناس يسقون - أن يزاحم تلك الكثرة من الناس ، وأن يسقى للمرأتين الضعيفتين غنمهما دون أن يصرفه شىء عن ذلك .

وقوله - تعالى - : ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ﴾ فقال : ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ ، بيان لما فعله موسى وقاله بعد أن سقى للمرأتين غنمهما ، ثم أعرض عنهما متجها إلى الظل الذى كان قريبا منه فى ذلك المكان ، قيل كان ظل شجرة وقيل ظل جدار .

فقال : على سبيل التضرع إلى ربه : ياربى إنى فقير ومحتاج إلى أى خير ينزل منك على سواء أكان هذا الخير طعاما أو غيره .

واستجاب الله - تعالى - لموسى دعاءه ، وأرسل إليه الفرج سريعا ، يدل لذلك قوله - تعالى - بعد هذا الدعاء من موسى : ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا . .﴾ .

وفى الكلام حذف يفهم من السياق وقد أشار إليه ابن كثير بقوله : لما رجعت المرأتان سراعا بالغنم إلى أبيهما ، أنكر حالهما ومجيئهما سريعا ، فسألهما عن خبرهما فقصتا عليه ما فعل موسى - عليه السلام - فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها ، كما قال - تعالى - : ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ ، أى : مشى الحرائر ، كما روى عمر بن الخطاب أنه قال : كانت مستترة بكم درعها ، أى قميصها .

ثم قال ابن كثير : وقد اختلف المفسرون فى هذا الرجل من هو؟ على أقوال أحدها أنه شعيب النبى - عليه السلام - الذى أرسله الله إلى أهل مدين ، وهذا هو المشهور عند كثيرين ، وقد قاله الحسن البصرى وغير واحد ورواه ابن أبى حاتم .

وقد روى الطبرانى عن مسلمة بن سعد العنزى أنه وفد على رسول الله ﷺ فقال له : مرحبا بقوم شعيب ، وأختان موسى .

وقال آخرون : بل كان ابن أخى شعيب ، وقيل : رجل مؤمن من آل شعيب .

ثم قال - رحمه الله - ثم من المقوى لكونه ليس بشعيب ، أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه فى القرآن هاهنا ، وما جاء فى بعض الأحاديث من التصريح بذكره فى قصة موسى لم يصح إسناده .[1]

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٦ ص٢٣٨ .

والمعنى : ولم يطل انتظار موسى للخير الذى التمسه من خالقه ـ عز وجل ـ فقد جاءته إحدى المرأتين اللتين سقى لهما ، حالة كونها ﴿ تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ﴾ أى : على تحشم وعفاف شأن النساء الفضليات .

﴿ قَالَتْ ﴾ بعبارة بليغة موجزة : ﴿ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ ﴾ للحضور إليه ﴿ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ أى : ليكافئك على سقيك لنا غنمنا .

واستجاب موسى لدعوة أبيها وذهب معها للقائه ، ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ ﴾ أى : فلما وصل موسى إلي بيت الشيخ الكبير ، ﴿ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ ﴾ أى : وقص عليه ما جرى له قبل ذلك ، من قتله القبطى ، ومن هروبه إلى أرض مدين .

﴿ قَالَ ﴾ أى : الشيخ الكبير لموسى ﴿ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أى : لاتخف يا موسى من فرعون وقومه ، فقد أنجاك الله ـ تعالى ـ منهم ومن كل ظالم .

وهذا القول من الشيخ الكبير لموسى ، صادف مكانه ، وطابق مقتضاه ، فقد كان موسى ـ عليه السلام ـ أحوج مايكون فى ذلك الوقت إلى نعمة الأمان والاطمئنان بعد أن خرج من مصر خائفا يترقب .

ثم يحكى القرآن بعد ذلك ، ما أشارت به إحدى الفتاتين على أبيها : فقال ـ تعالى ـ : ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا ﴾ ، ولعلها التى جاءت إلى موسى على استحياء لتقول له : ﴿ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ .

﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ﴾ أى : قالت لأبيها بوضوح واستقامة قصد ـ شأن المرأة السليمة الفطرة النقية العرض القوية الشخصية ـ يا أبت استأجر هذا الرجل الغريب ليكفينا تعب الرعى ، ومشقة العمل خارج البيت .

ثم عللت طلبها بقولها : ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴾ ، أى : استأجره ليرعى غنمنا ، فإنه جدير بهذه المهمة ، لقوته وأمانته ، ومن جمع فى سلوكه وخلقه بين القوة والأمانة ، كان أهلا لكل خير ، ومحلاً لثقة الناس به على أموالهم وأعراضهم .

واستجاب الشيخ الكبير لما اقترحته عليه ابنته ، وكأنه أحس بصدق عاطفتها ، وطهارة مقصدها وسلامة فطرتها ، فوجه كلامه إلى موسى قائلا : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ﴾ .

أى : قال الشيخ الكبير لموسى مستجيبا لاقتراح ابنته : يا موسى إنى أريد أن أزوجك إحدى ابنتى هاتين .

ولعله أراد بإحداهما ، تلك التى قالت له : يا أبت استأجره ، لشعوره ـ وهو الشيخ الكبير ، والأب العطوف ، الحريص على راحة ابنته ـ بأن هناك عاطفة شريفة تمت بين قلب ابنته ، وبين هذا الرجل القوى الأمين ، هو موسى ـ عليه السلام ـ .

وفى هذه الآيات ما فيها من الإشارة إلى رغبة المرأة الصالحة ، فى الرجل الصالح وإلى أنه من شأن الآباء العقلاء أن يعملوا على تحقيق هذه الرغبة .

قال الشوكانى : فى هذه الآية مشروعية عرض ولى المرأة لها على الرجل ، وهذه سنة ثابتة فى الإسلام ، كما ثبت من عرض عمر لابنته حفصة على أبى بكر وعثمان ، وغير ذلك مما وقع فى أيام الصحابة أيام النبوة ، وكذلك ما وقع من عرض المرأة لنفسها على رسول الله ﷺ .[1]

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ﴾ بيان لما اشترطه الشيخ الكبير على موسى ـ عليه السلام ـ .

أى قال له بصيغة التأكيد : إنى أريد أن أزوجك إحدى ابنتى هاتين ، بشرط أن تعمل أجيرا عندى لرعى غنمى ﴿ ثَمَانِيَ حِجَجٍ ﴾ أى : ثمانى سنين .

وقوله : ﴿ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ﴾ أى : فإن أتممت عشر سنين كأجير عندى لرعاية غنمى ، فهذا الإتمام من عندك على سبيل التفضل والتكريم فإنى لا أشترط عليك سوى ثمانى حجج .

وقوله : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ، بيان لحسن العرض الذى عرضه الشيخ على موسى .

أى : وما أريد أن أشق عليك أو أتعبك فى أمر من الأمور خلال استئجارى لك ، بل ستجدنى ـ إن شاء الله ـ تعالى ـ من الصالحين ، فى حسن المعاملة ، وفى لين الجانب ، وفى الوفاء بالعهد .

وقال : ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ ﴾ للدلالة على أنه من المؤمنين ، الذين يفوضون أمورهم إلى الله ـ تعالى ـ ويرجون توفيقه ومعونته على الخير .

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما رد به موسى فقال : ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ .

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ٤ ص١٦٩ .

أى : ﴿ قَالَ ﴾ موسى فى الرد على الشيخ الكبير ﴿ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ﴾ ، أى : ذلك الذى قلته لى واشترطته علىّ ، كائن وحاصل بينى وبينك ، وكلانا مطالب بالوفاء به .

والمعنى : أى الأجلين ، أى الثمانية الأعوام أو العشرة الأعوام ﴿ قَضَيْتُ ﴾ أى : وفيت به ، وأديته معك أجيرا عندك ﴿ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ ﴾ أى : فلا ظلم علىّ .

والمقصود بقوله : ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ توثيق العهد وتأكيده ، وأنه لاسبيل لواحد منها على الخروج عنه أصلا .

أى : والله ـ تعالى ـ شهيد ووكيل ورقيب على ما اتفقنا عليه ، وتعاهدنا على تنفيذه وكفى بشهادته ـ سبحانه ـ شهادة .

وقد ساق الإمام ابن كثير جملة من الآثار التى تدل على أن موسى ـ عليه السلام ـ قد قضى أطول الأجلين ، ومن ذلك ما جاء عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : سألت جبريل : أى الأجلين قضى موسى؟ قال : أكملهما وأتمهما ، وفى رواية : «أبرهما وأوفاهما» .[1]

هذا ، والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة ، يرى فيها بجلاء ووضوح ، ما جبل عليه موسى ـ عليه السلام ـ من صبر على بأساء الحياة وضرائها ، ومن همة عالية تحمله فى كل موطن على إعانة المحتاج ، ومن طبيعة إيجابية تجعله دائما لايقف أمام مالا يرضيه مكتوف اليدين ، ومن عاطفة رقيقة تجعله فى كل الأوقات دائم التذكر لخالقه ، كثير التضرع إليه بالدعاء .

كما يرى فيها الفطرة السوية ، والصدق مع النفس ، والحياء ، والعفاف ، والوضوح ، والبعد عن التكلف والالتواء ، كل ذلك متمثل فى قصة هاتين المرأتين اللتين سقى لهما موسى غنمهما ، واللتين جاءته إحداهما تمشى على استحياء ، ثم قالت لأبيها : يا أبت استأجره .

كما يرى فيها ماكان يتجلى به ذلك الشيخ الكبير من عقل راجح ، ومن قول طيب حكيم ، يدخل الأمان والاطمئنان على قلب الخائف ، ومن أبوة حانية رشيدة ، تستجيب للعواطف الشريفة ، وتعمل على تحقيق رغباتها عن طريق الزواج الذى شرعه الله ـ تعالى ـ .

٦ ـ ومضت السنوات التى قضاها موسى أجيرا عند الشيخ الكبير فى مدين ، ووفى كل واحد منهما بما وعد به صاحبه ، وتزوج موسى بإحدى ابنتى الشيخ الكبير ، وقرر الرجوع

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٦ ص٢٤٠ .

بأهله إلى مصر ، فماذا حدث له فى طريق عودته؟ يحكى لنا القرآن الكريم بأسلوبه البديع ماحدث لموسى ـ عليه السلام ـ بعد ذلك فيقول :

فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾

والمراد بالأجل فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ . . ﴾ المدة التى قضاها موسى أجيرا عند الشيخ الكبير ، بجهة مدين .

والمعنى : ومكث موسى عشر سنين فى مدين ، فلما قضاها وتزوج بإحدى ابنتى الشيخ الكبير ، استأذن منه ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾ أى وسار بزوجته متجها إلى مصر ليرى أقاربه وذوى رحمه ، أو أى مكان آخر قيل : هو بيت المقدس .

﴿آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ ولفظ ﴿آنَسَ﴾ من الإيناس ، وهو إبصار الشيء ورؤيته بوضوح لا التباس معه ، حتى لكأنه يحسه بجانب رؤيته له .

أى : وخلال سيره بأهله إلى مصر ، رأى بوضوح وجلاء ﴿مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ أى : رأى من الجهة التى تلى جبل الطور نارا عظيمة .

وقوله - سبحانه - ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا..﴾ حكاية لما قاله موسى - عليه السلام - لزوجته ومن معها عندما أبصر النار .

أى : عندما أبصر موسى بوضوح وجلاء ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾ فى مكانكم ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ على مقربة منى وسأذهب إليها .

﴿لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ ينفعنا فى مسيرتنا ﴿أَوْ﴾ أقتطع لكم منها ﴿جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ .

أى : قال موسى لأهله امكثوا فى مكانكم حتى أرجع إليكم ، فإنى أبصرت نارا سأذهب إليها ، لعلى آتيكم من جهتها بخبر يفيدنا فى رحلتنا ، أو أقتطع لكم منها قطعة من الجمر ، كى تستدفئوابها من البرد .

قال ابن كثير ما ملخصه : وكان ذلك بعدما قضى موسى الأجل الذى كان بينه وبين صهره فى رعاية الغنم ، وسار بأهله ، قيل : قاصدا بلاد مصر بعد أن طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين ، ومعه زوجته ، فأضل الطريق ، وكانت ليلة شاتية ، ونزل منزلا بين شعاب وجبال ، فى برد وشتاء ، وسحاب وظلام وضباب وجعل يقدح بزند معه ليورى نارا - أى : ليخرج نارا - كما جرت العادة به ، فجعل لايقدح شيئا ، ولايخرج منه شرر ولا شىء ، فبينما هو كذلك إذ آنس من جانب الطور ناراً .(١)

ثم بين - سبحانه - ماحدث لموسى بعد أن وصل إلى الجهة التى فيها النار فقال - تعالى - : ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ، أى : فحين أتى موسى - عليه السلام - إلى النار التى أبصرها ، ﴿نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾ أى سمع نداء من الجانب الأيمن بالنسبة له ، أى : لموسى وهو يسير إلى النار التى رآها .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٥ ص٢٧٠ .

ويرى بعضهم أن المراد بالأيمن ، أى المبارك ، مأخوذ من اليمن بمعنى البركة .

أى : فلما اقترب موسى من النار ، نودى من ذلك المكان الطيب ، الكائن على يمينه وهو يسير إليها ، والمشتمل على البقعة المباركة من ناحية الشجرة .

ولعل التنصيص على الشجرة ، للإشارة إلى أنها كانت الوحيدة فى ذلك المكان .

و﴿ أَن ﴾ فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ تفسيرية لأن النداء قول .

أى : نودى أن يا موسى تنبه وتذكر إنى أنا الله رب العالمين .

قال الإمام ابن كثير : وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : الذى يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين ، الفعال لما يشاء لا إله غيره ، ولا رب سواه ، تعالى وتقدس وتنزه عن مماثلة المخلوقات فى ذاته وأقواله ـ سبحانه ـ .[1]

قوله ـ سبحانه ـ : ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ معطوف على قوله : ﴿ أَن يَا مُوسَىٰ ﴾ فكلاهما مفسرد للنداء ، والفاء فى قوله فصيحة .

والمعنى : نودى أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين ، ونودى أن ألق عصاك فألقاها ، ﴿ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ ﴾ أى تضطرب بسرعة ، ﴿ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ أى : كأنها فى سرعة حركتها وشدة اضطرابها ﴿ جَانٌّ ﴾ أى : ثعبان يدب بسرعة ويمرق فى خفة ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ أى : ولى هاربا خوفا منها ، دون أن يفكر فى العودة إليها ، ليتبين ماذا بها ، وليتأمل ماحدث لها .

يقال : عقب المقاتل إذا كر راجعا إلى خصمه ، بعد أن فر من أمامه .

وهنا جاءه النداء مرة أخرى ، فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴾ .

أى : يا موسى أقبل نحو المكان الذي كنت فيه ، ولاتخف مما رأيته ، إنك من عبادنا الآمنين عندنا ، المختارين لحمل رسالتنا .

ثم أمره ـ سبحانه ـ بأمر آخر فقال : ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ . . ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٦ ص٢٤٤ .

أى : أدخل يدك يا موسى فى فتحة ثوبك ، تخرج بيضاء من غير مرض أو عيب ﴿ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ﴾ والجناح : اليد ، والرهب : الخوف والفزع .

والمقصود بالجملة الكريمة ﴿ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ﴾ إرشاد موسى إلى مايدخل الطمأنينة على قلبه ، ويزيل خوفه .

والمعنى : افعل يا موسى ما أمرناك به ، فإذا أفزعك أمر يدك وما تراه من بياضها وشعاعها ، فأدخلها فى فتحة ثوبك ، تعد إلى حالتها الأولى .

وإذا انتابك خوف عند معاينة الحية ، فاضمم يدك إلى صدرك ، يذهب عنك الخوف .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ يعود إلى العصا واليد ، والتذكير لمراعاة الخبر وهو ﴿ بُرْهَانَانِ ﴾ والبرهان : الحجة الواضحة النيرة التى تلجم الخصم ، وتجعله لايستطيع معارضتها ، أى : فهاتان المعجزتان اللتان أعطيناك إياهما يا موسى ، وهما العصا واليد ، حجتان واضحتان كائنتان ﴿ مِن رَّبِّكَ ﴾ فاذهب بهما إلى ﴿ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ لكى تبلغهم رسالتنا ، وتأمرهم بإخلاص العبادة لنا .

﴿ إِنَّهُمْ ﴾ ، أى : فرعون وملأه ﴿ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ أى : خارجين من الطاعة إلى المعصية ، ومن الحق إلى الباطل .

وهنا تذكر موسى ما كان بينه وبين فرعون وقومه من عداوة ، فقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ إذا ذهبت إليهم بهذه الآيات ، وهو - عليه السلام - لايقول ذلك ، هروبا من تبليغ رسالة الله - تعالى - وإنما ليستعين برعايته - عز وجل - وبحفظه عندما يذهب إلى هؤلاء الأقوام الفاسقين .

ثم أضاف إلى ذلك قوله : ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا ﴾ أى هو أقدر منى على المدافعة عن الدعوة وعلى تبيان الحق وتوضيحه .

﴿ فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾

أى : فأرسل أخى هارون معى إلى هؤلاء القوم ، لكى يساعدنى ويعيننى على تبليغ رسالتك ، ويصدقنى فيما أدعوهم إليه ، ويخلفنى إذا اعتدى علىّ ، ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ إذا لم يكن معى أخى هارون يعيننى ويصدقنى .

والمتأمل فى هذا الكلام الذى ساقه الله - تعالى - على لسان موسى - عليه السلام - يرى فيه إخلاصه فى تبليغ رسالة ربه ، وحرصه على أن يؤتى هذا التبليغ ثماره الطيبة على أكمل صورة وأحسن وجه .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت تصديق أخيه ما الفائدة فيه؟

قلت : ليس الغرض بتصديقه أن يقول له صدقت ، أو يقول للناس صدق أخى ، وإنما هو أن يخلص لسانه الحق ، ويبسط القول فيه ، ويجادل به الكفار كما يصدق القول بالبرهان ، وفضل الفصاحة إنما يحتاج إليه لذلك ، لا لقوله : صدقت ، فإن سحبان وباقلا يستويان فيه .(١)

ثم حكى القرآن بعد ذلك ، أن الله - تعالى - قد أجاب لموسى رجاءه فقال : ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ .

أى قال - سبحانه - لقد استجبنا لرجائك يا موسى ، وسنقويك ونعينك بأخيك ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا ﴾ بقدرتنا ومشيئتنا ﴿ سُلْطَانًا ﴾ أى : حجة وبرهانا وقوة تمنع الظالمين ﴿ فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾ بأذى ولا يتغلبان عليكما بحجة .

وقوله : ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ متعلق بمحذوف ، أى : فوضا أمركما إلىّ ، واذهبا إلى فرعون وقومه بآياتنا على صدقكما .

وقوله - تعالى - : ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ مؤكد لمضمون ما قبله ، من تقوية قلب موسى ، وتبشيره بالغلبة والنصر على أعدائه .

أى : أجبنا طلبك يا موسى ، وسنقويك بأخيك ، فسيرا إلى فرعون وقومه ، فسنجعل لكما الحجة عليهم ، وستكونان أنتما ومن اتبعكما من المؤمنين أصحاب الغلبة والسلطان على فرعون وجنده .

ونفذ موسى وهارون - عليهما السلام - أمر ربهما - عز وجل - فذهبا إلى فرعون ليبلغاه دعوة الحق ، وليأمراه بإخلاص العبادة لله - تعالى - .

٧ - وتحكى الآيات الكريمة بعد ذلك ما دار بين موسى وبين فرعون وقومه من محاورات ومجادلات ، انتهت بانتصار الحق ، وهلاك الباطل ، تحكى الآيات كل ذلك فتقول :

---

(١) تفسير الكشاف جـ٣ ص٤١٠ .

فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾

والمراد بالآيات فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ العصا واليد ، وجمعهما تعظيما لشأنهما ، ولاشتمال كل واحدة منهما على دلائل متعددة على صدق موسى ـ عليه السلام ـ فيما جاء به من عند ربه ـ تعالى ـ .

والمعنى : ووصل موسى إلى فرعون وقومه ، ليأمرهم بعبادة الله وحده ، فلما جاءهم بالمعجزات التى أيدناه بها ، والتى تدل على صدقه دلالة واضحة .

﴿ قَالُوا ﴾ له على سبيل التبجح والعناد ﴿ مَا هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّفْتَرًى ﴾ أى : قالوا له : ما هذا الذى جئت به يا موسى إلا سحر أتيت به من عند نفسك .

ثم أكدوا قولهم الباطل هذا بآخر أشد منه بطلانا ، فقالوا ـ كما حكى القرآن عنهم : ﴿ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ ﴾ .

أى : وما سمعنا بهذا الذى جئتنا به يا موسى ، من الدعوة إلى عبادة الله وحده ومن إخبارك لنا بأنك نبى ، ما سمعنا بشىء من هذا كائنا أو واقعا فى عهد آبائنا الأولين .

وقولهم هذا يدل على إعراضهم عن الحق ، وعكوفهم على ما ألفوه بدون تفكر أو تدبر ، وقد رد عليهم موسى ردا منطقيا حكيما ، حكاه القرآن فى قوله : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ . . ﴾ .

أى : وقال موسى فى رده على فرعون وملئه : ربى الذى خلقنى وخلقكم ، أعلم منى ومنكم بمن جاء بالهدى والحق من عنده ، وسيحكم بينى وبينكم بحكمه العادل .

ولم يصرح موسى ـ عليه السلام ـ بأنه يريد نفسه ، بالإتيان بالهداية لهم من عند الله ـ تعالى ـ ليكفكف من عناده وغرورهم ، وليرخى لهم حبل المناقشة ، حتى يخرس ألسنتهم عن طريق المعجزات التى أيده الله ـ تعالى ـ بها .

وقوله : ﴿ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ﴾ معطوف على ما قبله .

أى : وربى ـ أيضا ـ أعلم منى ومنكم بمن تكون له النهاية الحسنة ، والعاقبة الحميدة .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ تذييل قصد به بيان سنة من سننه ـ تعالى ـ التى لاتتخلف أى إنه ـ سبحانه ـ قد اقتضت سنته أن لايفوز الظالمون بمطلوب ، بل الذين يفوزون بالعاقبة الحميدة هم الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا .

ولكن هذا الرد المهذب الحكيم من موسى ـ عليه السلام ـ لم يعجب فرعون المتطاول المغرور فأخذ فى إلقاء الدعاوى الكاذبة ، التى حكاها القرآن عنه فى قوله : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ .

أى : وقال فرعون لقومه ـ على سبيل الكذب والفجور ـ يأيها الأشراف من أتباعى إنى ما علمت لكم من إله سواى .

وقوله فى هذا يدل على ما بلغه من طغيان وغرور ، فكأنه يقول لهم : إنى لم أعلم بأن هناك إلها لكم سواى ، ومالا أعلمه فلا وجود له .

وقد قابل قومه هذا الهراء والهذيان ، بالسكوت والتسليم ، شأن الجهلاء الجبناء وصدق الله إذ يقول : ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ . (١)

---

(١) سورة الزخرف الآية ٥٤ .

ثم تظاهر بعد ذلك بأنه جاد فى دعواه أمام قومه بأنه لا إله لهم سواه وأنه حريص على معرفة الحقيقة فقال لوزيره هامان : ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ .

والصرح : البناء الشاهق المرتفع ، أى فاصنع لى يا هامان من الطين آجرا قويا ، ثم هيئ لى منه بناء عاليا مكشوفا ، أصعد عليه ، لعلى أرى إله موسى من فوقه ، والمراد بالظن فى قوله : ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ اليقين : أى : وإنى لمتيقن أن موسى من الكاذبين فى دعواه أن هناك إلها غيرى ، فى هذا الكون .

وهكذا ، استخف فرعون بعقول قومه الجاهلين الجبناء ، فأفهمهم أنه لا إله لهم سواه ، وأن موسى كاذب فيما ادعاه .

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ. أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ .(١)

قال ابن كثير : وذلك لأن فرعون ، بنى هذا الصرح ، الذى لم ير فى الدنيا بناء أعلى منه .

وإنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته ، تكذيب موسى فيما قاله من أن هناك إلها غير فرعون ، ولهذا قال : ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ أى : فى قوله إن ثم ربا غيرى .(٢)

ثم بين ـ سبحانه ـ الأسباب التى حملت فرعون على هذا القول الساقط الكاذب ، فقال : ﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾ .

والاستكبار : التعالى والتطاول على الغير بحمق وجهل ، أى : وتعالى فرعون وجنوده فى الأرض التى خلقناها لهم ، دون أن يكون لهم أى حق فى هذا التطاول والتعالى وظنوا واعتقدوا أنهم إلينا لايرجعون لمحاسبتهم ومعاقبتهم يوم القيامة .

فماذا كانت نتيجة ذلك التطاول والغرور ، والتكذيب بالبعث والحساب؟ لقد كانت نتيجته كما قال ـ تعالى ـ بعد ذلك : ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ﴾ .

---

(١) سورة غافر الآيتان ٣٦ ، ٣٧

(٢) تفسير ابن كثير جـ٦ ص٢٤٨ .

والنبذ : الطرح والإهمال للشيء لحقارته وتفاهته .

أي : فأخذنا فرعون وجنوده بالعقاب الأليم أخذا سريعا حاسما فألقينا بهم فى البحر ، كما يلقى بالنواة أو الحصاة التى لاقيمة لها ، ولا اعتداد بها .

﴿ فَانظُرْ ﴾ أيها العاقل نظر تدبر واعتبار ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ لقد كانت عاقبتهم الإغراق الذى أزهق أرواحهم واستأصل باطلهم .

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ ﴾ أى : فرعون وجنوده ، ﴿ أَئِمَّةً ﴾ فى الكفر والفسوق والعصيان بسبب أنهم ﴿ يَدْعُونَ ﴾ غيرهم إلى ما يوصل ﴿ إِلَى النَّارِ ﴾ وسعيرها والاحتراق بها .

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ ﴾ أى : ويوم القيامة لايجدون من ينصرهم ، بأن يدفع العذاب عنهم بأية صورة من الصور .

﴿ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ﴾ التى قضوا حياتهم فيها فى الكفر والضلال ، أتبعناهم فيها ﴿ لَعْنَةً ﴾ أى : طردا وإبعادا عن رحمتنا .

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ والشيء المقبوح : هو المطرود المبعد عن كل خير ، أى : وهم يوم القيامة ـ أيضا ـ من المبعدين عن رحمتنا بسبب كفرهم وفسوقهم .

والتعبير بقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ يتناسب كل التناسب مع ما كانوا عليه فى الدنيا من تطاول وغرور واستعلاء .

فهؤلاء الذين كانوا فى الدنيا كذلك ، صاروا فى الآخرة محل الازدراء وقبح الهيئة والاشمئزاز من كل عباد الله المخلصين .

ثم ختم ـ سبحانه ـ قصة موسى ـ ببيان جانب مما منحه ـ عز وجل ـ له من نعم فقال : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ أى آتيناه التوراة لتكون هداية ونورا ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَىٰ ﴾ أى : أنزلنا التوراة على موسى ، من بعد إهلاكنا للقرون الأولى من الأقوام المكذبين ، كقوم نوح وهود وصالح وغيرهم .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ أى : آتيناه التوراة من أجل أن تكون أنوارا لقلوبهم يبصرون بها الحقائق ، كما يبصرون بأعينهم المرئيات ، ومن أجل أن تكون هداية لهم إلى الصراط المستقيم ، ورحمة لهم من العذاب .

وقوله - سبحانه - : ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ تعليل لهذا الإيتاء وحض لهم على الشكر .

أى آتيناهم الكتاب الذى عن طريقه يعرفون الحق من الباطل ، كى يكونوا دائما متذكرين لنعمنا ، وشاكرين لنا على هدايتنا لهم ورحمتنا بهم .

وإلى هنا نرى السورة الكريمة ، قد حدثتنا عن جوانب متعددة من حياة موسى - عليه السلام - .

حدثتنا عن رعاية الله - تعالى - له حيث أراد له أن يعيش فى بيت فرعون وأن يحظى برعاية امرأته ، وأن يعود بعد ذلك إلى أمه كى تقر عينها به ، دون أن يصيبه أذى من فرعون الذى كان يذبح الذكور من بنى إسرائيل ويستحيى نساءهم .

ثم حدثتنا عن رعاية الله - تعالى - له ، بعد أن بلغ أشده واستوى ، حيث نجاه من القوم الظالمين ، بعد أن قتل واحدا منهم .

ثم حدثتنا عن رعاية الله - تعالى - له ، بعد أن خرج من مصر خائفا يترقب متجها إلى قرية مدين ، التى قضى فيها عشر سنين أجيرا عند شيخ كبير من أهلها .

ثم حدثتنا عن رعاية الله - تعالى - له ، بعد أن قضى تلك المدة ، وسار بأهله متجها إلى مصر ، وكيف أن الله - تعالى - أمره بتبليغ رسالته إلى فرعون وقومه ، وأنه - عليه السلام - قد لبى أمر ربه - سبحانه - وبلغ رسالته على أتم وجه وأكمله ، فكانت العاقبة الطيبة له ولمن آمن به ، وكانت النهاية الأليمة لفرعون وجنوده .

وهكذا طوفت بنا السورة الكريمة مع قصة موسى - عليه السلام - ذلك الطواف الذى نرى فيه رعاية الله - تعالى - لموسى ، وإعداده لحمل رسالته ، كما نرى فيه نماذج متنوعة لأخلاقه الكريمة ، ولهمته العالية ، لصبره على تكاليف الدعوة ، ولسنن الله - تعالى - فى خلقه ، تلك السنن التى لاتختلف فى بيان أن العاقبة الحسنة للمتقين ، والعاقبة القبيحة للكافرين والفاسقين .

٨ - وفى سورتى «النمل» و«طه» آيات كريمة ، صورت لنا بأسلوب آخر ، جانبا من قصة إعداد موسى - عليه السلام - لحمل الرسالة ، وتزويده بالمعجزات وذهابه ومعه أخوه هارون إلى فرعون لدعوته بإخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، ونهيه عن قتل الذكور من بنى إسرائيل ، وتبدأ آيات سورة «النمل» بقوله - تعالى - :

إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن

فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ۖ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ

أى : واذكر ـ أيها الرسول الكريم ـ وذكر أتباعك ليعتبروا ويتعظوا ، وقت أن قال موسى لأهله ، وهو فى طريقه من جهة مدين إلى مصر .

إنى أبصرت ـ إبصاراً لا شبهة فيه ـ ناراً ، فامكثوا فى مكانكم ، فإنى ﴿ سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ أى : سآتيكم من جهتها بخبر ينفعنا فى رحلتنا هذه ، ونسترشد به فى الوصول إلى أهدى الطرق التى توصلنا إلى المكان الذى نريده .

﴿ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ أى : أو آتيكم بشعلة مقتطعة لعلكم تستدفئون بها من البرد .

ثم بين ـ سبحانه ـ ما حدث لموسى عندما اقترب من النار فقال : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا . . ﴾ .

والمراد بمن فى النار : هو من قريب منها ، وهو موسى ـ عليه السلام ـ .

والمراد بمن حولها : الملائكة الحاضرون لهذا النداء ، أو الأماكن المجاورة لها .

أى : فلما وصل موسى ـ عليه السلام ـ إلى القرب من مكان النار ، نودى موسى من قبل الله ـ عز وجل ـ على سبيل التكريم والتحية : أن قدس وطهر واختير للرسالة من هو بالقرب منها وهو موسى ـ عليه السلام ـ ومن حولها من الملائكة ، أو الأماكن القريبة منها .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ من تتمة النداء ، وخبر منه ـ تعالى ـ لموسى بالتنزيه ، لئلا يتوهم من سماع كلامه ـ تعالى ـ التشبيه بما للبشر من كلام .

أى : وتنزه الله ـ عز وجل ـ وتقدس رب العالمين عن كل سوء ونقص ومماثلة للحوادث .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ إعلام منه ـ عز وجل ـ لعبده موسى بأن المخاطب له ، إنما هو الله ـ تعالى ـ الذى عز كل شىء وقهره وغلبه ، والذى أحكم كل شىء خلقه .

أى : يا موسى إن الحال والشأن أنى أنا الله العزيز الحكيم ، الذى أخاطبك وأناجيك ، فتنبه لما آمرك به ، ونفذ ما أكلفك بفعله .

ثم حكى ـ سبحانه ـ بعد ذلكم بعض ما أمر به موسى ـ عليه السلام ـ فقال : ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ﴾ .

أى : نودى أن بورك من فى النار ومن حولها ، ونودى أن ألق عصاك التى بيدك .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ .. ﴾ معطوف على كلام مقدر .

أى : فاستجاب موسى ـ عليه السلام ـ لأمر ربه فألقى عصاه فصارت حية ، فلما رآها تهتز ، أى : تضطرب وتتحرك بسرعة شديدة حتى لكأنها ﴿ جَانٌّ ﴾ فى شدة حركتها وسرعة تقلبها ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا ﴾ عنها من الخوف ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ أى : ولم يرجع على عقبه ، بل استمر فى إدباره عنها دون أن يفكر فى الرجوع إليها .

والجان : الحية الصغيرة السريعة الحركة ، أو الحية الكبيرة ، والمراد هنا : التشبيه بها فى شدة الحركة وسرعتها مع عظم حجمها .

وإنما ولى موسى مدبرا عنها ، لأنه لم يخطر بباله أن عصاه التى بيده ، يحصل منها ما رآه بعينه ، من تحولها إلى حية تسعى وتضطرب وتتحرك بسرعة كأنها جان ، ومن طبيعة الإنسان أنه إذا رأى أمرا غريبا اعتراه الخوف منه ، فما بالك بعصا تتحول إلى حية تسعى .

ثم بين ـ سبحانه ـ ما نادى به موسى على سبيل التثبيت وإدخال الطمأنينة على قلبه ، فقال : ﴿ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ ﴾ .

أى : فلما ولى موسى ولم يعقب عندما ألقى عصاه فانقلبت حية ، ناداه ربه ـ تعالى ـ بقوله : ﴿ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ ﴾ مما رأيت ، أو من شىء غيرى مادمت فى حضرتى .

وجملة : ﴿ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴾ تعليل للنهى عن الخوف ، أى : إنى لايخاف عندى من اخترته لحمل رسالتى ، وتبليغ دعوتى .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، استثناء منقطع مما قبله .

أى : إنى يا موسى لايخاف لدى المرسلون ، لكن من ظلم وارتكب فعلا سيئا من عبادى ، ثم تاب إلىّ توبة صادقة ، بأن ترك الظلم إلى العدل والشر إلى الخير ، والمعصية إلى الطاعة ، فإنى أغفر له ما فرط منه ؛ لأنى أنا وحدى الواسع المغفرة والرحمة .

ثم أرشد ـ سبحانه ـ موسى ـ عليه السلام ـ إلى معجزة أخرى ، لتكون دليلا على صدقه فى رسالته إلى من يرسله إليهم فقال :

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾

والمعنى : وأدخل يا موسى يدك اليمنى فى فتحة ثوبك ، ثم أخرجها تراها تخرج بيضاء من غير سوء ، أى : تخرج منيرة مشرقة واضحة البياض دون أن يكون بها أى سوء من مرض أو برص أو غيرهما ، وإنما يكون بياضها بياضا مشرقا مصحوبا بالسلامة بقدرة الله ـ تعالى ـ وإرادته .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ﴾ أى : وأدخل يا موسى يدك فى جيبك تخرج حالة كونها بيضاء ، وحالة كونها من غير سوء ، وحالة كونها مندرجة أو معدودة فى ضمن تسع آيات زودناك بها ، لتكون معجزات لك أمام فرعون وقومه ، على أنك صادق فيما تبلغه عن ربك .

والمراد بالآيات التسع التى أعطاها الله ـ تعالى ـ لموسى ـ عليه السلام ـ : العصا ، واليد ، والسنون ، والبحر ، والطوفان ، والجراد ،والقمل ، والضفادع ، والدم ، كما جاء ذلك عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم .

وتحديد الآيات بالتسع ، لاينفى أن هناك معجزات أخرى ، أعطاها الله ـ تعالى ـ لموسى ـ عليه السلام ـ إذ من المعروف عند علماء الأصول أن تحديد العدد بالذكر لايدل على نفى الزائد عنه .

وقوله - تعالى - : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ استئناف مسوق لبيان سبب إرسال موسى إلى فرعون وقومه .

أى : هذه الآيات التسع أرسلناك بها يا موسى إلى فرعون وقومه ، لأنهم كانوا قوما فاسقين عن أمرنا ، وخارجين على شرعنا ، وعابدين لغيرنا من مخلوقاتنا .

ثم بين - سبحانه - موقف فرعون وقومه من هذه المعجزات الدالة على صدق موسى فقال : ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ. وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ .

والمعنى : وذهب موسى - عليه السلام - ومعه المعجزات الدالة على صدقه ، إلى فرعون وقومه ليدعوهم إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، فلما جاءهم موسى بتلك المعجزات المضيئة الواضحة للدلالة على صدقه ، قالوا على سبيل العناد والغرور ، هذا الذى نراه منك يا موسى ، سحر بين وظاهر فى كونه سحرا .

وجحد فرعون وقومه هذه المعجزات التى جاء بها موسى من عند ربه - تعالى - مع أن أنفسهم قد علمت علما لاشك معه أنها معجزات وليست سحرا ، ولكنهم خالفوا علمهم ويقينهم ﴿ظُلْمًا﴾ للآيات حيث أنزلوها عن منزلتها الرفيعة وسموها سحرا ﴿وَعُلُوًّا﴾ أى : ترفعا واستكبارا عن الإيمان بها .

﴿فَانظُرْ﴾ أيها العاقل ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ لقد كانت عاقبتهم أن أغرقهم الله جميعا ، بسبب كفرهم وظلمهم وجحودهم وفسادهم فى الأرض .

وفى قوله - سبحانه - : ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ تسلية عظمى للرسول ﷺ عما أصابه من الكافرين .

فهم كانوا كفرعون وقومه فى جحود الحق الذى جاءهم به الرسول ﷺ مع يقينهم بأنه حق ، ولكن حال بينهم وبين الدخول أسباب متعددة ، على رأسها العناد ، والحسد ، والعكوف على ما كان عليه الآباء ، والكراهية لتغيير الأوضاع التى تهواها نفوسهم ، وزينتها لهم شهواتهم .

٩ - وأما الآيات التى جاءت فى سورة «طه» وقصت علينا من قصة نبوة موسى - عليه السلام - ومن تكليف الخالق - عز وجل - له ولأخيه هارون بالذهاب إلى فرعون ، فمنها قوله - تعالى - :

وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿٩﴾ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾

والمعنى : لقد أتاك - أيها الرسول الكريم - خبر أخيك موسى ، وقت أن رأى نارا وهو عائد ليلا من مدين إلى مصر ﴿ فَقَالَ لِأَهْلِهِ ﴾ أى : لامرأته ، ومن معها ﴿ امْكُثُوا ﴾ أى : أقيموا فى مكانكم ولا تبرحوه حتى أعود إليكم .

ثم بين - سبحانه - ما حدث لموسى بعد أن اقترب من النار فقال : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ . إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ .

أى : فلما أتى موسى - عليه السلام - إلى النار ، واقترب منها . . ﴿ نُودِيَ ﴾ من قبل الله - عز وجل - ﴿ يَا مُوسَىٰ . إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ﴾ الذى خلقك فسواك فعدلك ﴿ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾ تعظيما لأمرنا ، وتأدبا فى حضرتنا .

وقوله : ﴿ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ تعليل للأمر بخلع النعل ، أى : أزل نعليك من رجليك لأنك الآن موجود بالوادى ﴿ الْمُقَدَّسِ ﴾ أى : المطهر المبارك ، المسمى طوى .

﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ ﴾ أى : اصطفيتك من بين أفراد قومك لحمل رسالتى ، وتبليغ دعوتى ﴿ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴾ إليك منى ، ونفذ ما آمرك به .

﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا ﴾ مستحق للعبادة والطاعة والخضوع ﴿ فَاعْبُدْنِي ﴾ عبادة خالصة لوجهى .

﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ ﴾ التى هى من أشرف العبادات ، وأفضل الطاعات ﴿ لِذِكْرِي ﴾ أى : وأدم إقامة الصلاة بخشوع وإخلاص ، ليشتد تذكرك لى ، واتصالك بى ، وذلك لأن الصلاة مشتملة على الكثير من الأذكار التى فيها الثناء على ذاتى وصفاتى .

أو المعنى : وأدم الصلاة لذكرى خاصة ، بحيث تكون خالصة لوجهى ، ولا رياء فيها لأحد ، ثم بين ـ سبحانه ـ أن الساعة آتية لاريب فيها فقال :

﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ. فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ .

أى : إن الساعة التى هى وقت البعث والحساب والثواب والعقاب ، آتية أى : كائنة وحاصلة لاشك فيها .

وقوله : ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ أى : أقرب أن أخفى وقتها ولا أظهره لا إجمالا ولاتفصيلا ، ولولا أن فى إطلاع أصفيائى على بعض علاماتها فائدة ، لما تحدثت عنها .

وقوله : ﴿ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ .

أى : إن الساعة آتية لاريب فيها ، لكى تجزى كل نفس على حساب سعيها وعملها فى الدنيا .

قال ـ تعالى ـ :

﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً ﴾

[الإسراء : ١٩]

وقال ـ سبحانه ـ :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ. وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : ٧ – ٨]

ثم حذر ـ سبحانه ـ من عدم الاستعداد للساعة ، ومن الشك فى إتيانها فقال : ﴿ فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا ﴾ أى : فلا يصرفنك عن الإيمان بها ، وعن العمل الصالح الذى ينفعك

عند مجيئها﴿ مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا ﴾ من الكافرين والفاسقين ﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ فى إنكارها وفى تكذيب ما يكون فيها من ثواب أو عقاب ﴿ فَتَرْدَىٰ ﴾ أى : فتهلك إن أنت أطعت هذا الذى لايؤمن بها .

فالآية تحذير شديد من اتباع المنكرين لقيام الساعة والمعرضين عن الاستعداد لها ، بعد أن أكد ـ سبحانه ـ فى آيات كثيرة أن الساعة آتية لاريب فيها .

قال ـ تعالى ـ : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾ . (١)

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد أثبتت وحدانية الله ـ تعالى ـ كما فى قوله : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا ﴾ كما أثبتت وجوب التوجه إليه وحده بالعبادة كما فى قوله ـ سبحانه ـ : ﴿ فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴾ كما أثبتت أن يوم القيامة لاشك فى إتيانه فى الوقت الذى يريده الله ـ تعالى ـ ، كما قال ـ عز وجل ـ : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ . . ﴾ .

١٠ ـ ثم بين ـ سبحانه ـ بعض التوجيهات والأوامر التى وجهها ـ عز وجل ـ إلى نبيه موسى ـ عليه السلام ـ كما حكى ما التمسه موسى من خالقه ـ تعالى ـ فقال :

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُواْ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي

---

(١) سورة الحج الآيتان ٦ ، ٧

وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾

والاستفهام فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ للتقرير ، لأن الله ـ تعالى ـ عالم بما فى يمين موسى ، فالمقصود من هذا السؤال اعتراف موسى وإقراره بأن ما فى يده إنما هى عصا فيزداد بعد ذلك يقينه بقدرة الله ـ تعالى ـ عندما يرى العصا التى بيمينه قد انقلبت حية تسعى .

والآية الكريمة : شروع فى بيان ما كلف الله ـ تعالى ـ به عبده موسى ـ عليه السلام ـ من الأمور المتعلقة بالخلق ، إثر حكاية ما أمر ـ سبحانه ـ به موسى من إخلاص العبادة له ، والإيمان بالساعة وما فيها من حساب وثواب وعقاب .

والمعنى : وأى شىء بيدك اليمنى يا موسى؟ فأجاب موسى بقوله ـ كما حكى القرآن عنه ـ ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ ﴾ أى : الشىء الذى بيمينى هو عصاى . . ونسبها إلى نفسه لزيادة التحقق والتثبت من أنها خاصة به ، وكائنة بيده اليمنى .

ثم بين وظيفتها فقال : ﴿ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا ﴾ أى : أعتمد عليها لتساعدنى فى حال السير ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ﴾ أى : واضرب بها الشجر اليابس ليسقط ورقه فترعاه أغنامى .

يقال هش فلان الشجرة بالعصا ـ من باب رد ـ فهو يهشها هشا ، إذا ضربها بعصاه ، أو بما يشبهها ليتساقط ورقها ، ومفعول أهش محذوف ، أى : وأهش بها الشجر والورق .

﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾ أى : ولى فى هذه العصا حاجات أخرى ، ومنافع غير التى ذكرتها .

وقد كان يكفى موسى ـ عليه السلام ـ فى الجواب أن يقول : هى عصاى ، ولكنه أضاف إلى ذلك أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ، لأن المقام يستدعى البسط والإطالة فى الكلام ، إذ هو مقام حديث العبد مع خالقه ، والحبيب مع حبيبه .

وأجمل فى قوله : ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾ إما حياء من الله ـ تعالى ـ لطول الكلام فى الجواب ، وإما رجاء أن يسأل عن هذه المآرب المجملة ، فيجيب عنها بالتفصيل تلذذا فى الخطاب .

قال القرطبى : وفى هذه الآية دليل على جواب السؤال بأكثر مما سئل ، لأنه لما قال : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ ذكر معانى أربعة وهى : إضافة العصا إليه ، وكان حقه أن يقول عصا ، والتوكؤ ، والهش ، والمآرب المطلقة ، فذكر موسى من منافع عصاه معظمها .

وفى الحديث : سئل النبى ﷺ عن ماء البحر فقال : «هو الطهور ماؤه الحل ميتته» ، وسألته امرأة عن الصغير حين رفعته إليه فقالت : ألهذا حج؟ قال : «نعم ولك أجر» .[1]

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴾ جملة مستأنفة جواب عن سؤال مقدر ، كأنه قيل : فماذا قال الله ـ تعالى ـ لموسى بعد ذلك؟

فكان الجواب : قال ـ سبحانه ـ لموسى : اطرح يا موسى هذه العصا التى بيمينك لترى مايكون بعد ذلك ﴿ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ .

أى : فامتثل موسى أمر ربه ، فألقاها على الأرض ، ونظر إليها فإذا هى قد تحولت بقدرة الله ـ تعالى ـ إلى «حية» أى : ثعبان عظيم ـ «تسعى» ، أى : تمشى على الأرض بسرعة وخفة حركة ، ووصفها ـ سبحانه ـ هنا بأنها ﴿ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ ووصفها فى سورة الشعراء ﴿ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾[2] ووصفها فى سورة النمل بأنها ﴿ تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ .

ولاتنافى بين هذه الأوصاف ، لأن الحية اسم جنس يطلق على الصغير والكبير ، والذكر والأنثى ، والثعبان : هو العظيم منها ، والجان : هو الحية الصغيرة الجسم السريعة الحركة .

وقد صرحت بعض الآيات أن موسى ـ عليه السلام ـ عندما رأى عصاه قد تحولت إلى ذلك ، ولى مدبرا ولم يعقب ، قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ .. ﴾ .

ولكن الله ـ تعالى ـ ثبت فؤاده ، وطمأن نفسه : ﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ﴾ أى : خذ هذه الحية التى تحولت عصاك إليها ولاتخف منها ، كما هو الشأن فى الطبائع البشرية ، فإنا ﴿ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴾ أى : سنعيد هذه الحية إلى هيئتها الأولى التى كانت عليها قبل أن تصير حية تسعى ، وهى أن نعيدها بقدرتنا التى لايعجزها شىء إلى عصا كما كانت من قبل .

---

(١) تفسير القرطبى جـ١١ ص١٨٦ .

(٢) الآية ٣٢

فالجملة الكريمة مسوقة لتعليل وجوب الامتثال للأمر وعدم الخوف ، أى : خذها ولاتخف منها ، فإن هذه الحية سنرجعها عصا كما كانت من قبل .

قالوا : ومن الحكم التى من أجلها حول الله ـ تعالى ـ العصا إلى حية تسعى : توطين قلب موسى ـ عليه السلام ـ على ذلك ، حتى لايضطرب إذا ما تحولت إلى ثعبان عظيم عندما يلقيها أمام فرعون وقومه .

فقد جرت عادة الإنسان أن يقل اضطرابه من الشىء العجيب الغريب بعد رؤيته له لأول مرة .

ثم وجه ـ سبحانه ـ أمرا آخر إلى عبده موسى فقال : ﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ﴾ والمعنى : واضمم ـ يا موسى ـ يدك اليمنى إلى عضد يدك اليسرى بأن تجعلها تحته عند الإبط ، ثم أخرجها فإنها تخرج ﴿ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ أى : تخرج منيرة مشرقة واضحة البياض دون أن يعلق بها أى سوء من برص أو مرض أو غيرها ، وإنما يكون بياضها بياضا مشرقا بقدرة الله ـ تعالى ـ وإرادته .

وقوله : ﴿ آيَةً أُخْرَىٰ ﴾ أى : معجزة أخرى غير معجزة العصا التى سبق أن منحناها لك .

وقوله : ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴾ تعليل لمحذوف ، أى : فعلنا ما فعلنا من إعطائك معجزة العصا ومعجزة اليد ، لنريك بهاتين المعجزتين بعض معجزاتنا الكبرى الدالة على عظيم قدرتنا ، وانفرادنا بالربوبية .

ثم صرح ـ سبحانه ـ بالمقصود من إعطاء موسى هاتين المعجزتين العظيمتين فقال : ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ أى : اذهب يا موسى ومعك هاتان المعجزتان ، فادعه إلى عبادتى وحدى ، ومره فليحسن إلى بنى إسرائيل ولايعذبهم ، وانهه عن التجبر والظلم ، فإنه قد طغى وبغى وتجاوز حدود الحق والعدل ، وزعم للناس أنه ربهم الأعلى .

وهنا التمس موسى ـ عليه السلام ـ العون من خالقه ، لكى يتسنى له أداء ما كلفه به فقال : ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ أى : أسألك يا إلهى أن توسع صدرى بنور الإيمان والنبوة ، وأن تجعله يتقبل تكاليفك بسرور وارتياح .

﴿ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾ أى : وسهل لى ما أمرتنى به ، فإنك إن لم تحطنى بهذا التيسير ، فلا طاقة لى بحمل أعباء هذه الرسالة .

وقوله : ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي . يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ دعاء ثالث تضرع به إلى خالقه

ـ تعالى ـ أى : وأسألك يا رب أن تحل عقدة من لسانى حتى يفهم الناس قولى لهم ، وحديثى معهم ، فَهْما يتأتى منه المقصود .

وقد روى أنه كان بلسانه حبسة ، والأرجح أن هذا هو الذى عناه ، ويؤيده قوله ـ تعالى ـ فى آية أخرى : ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ . [1]

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي . هَٰرُونَ أَخِي . اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي . وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ دعاء آخر تضرع به إلى ربه فى أمر خارجى عنه ، بعد أن دعاه فى أمر يتعلق بصدره ولسانه .

أى : وأسألك ـ يا إلهى ـ أن تجعل لى «وزيرا» أى : معينا وظهيرا من أهلى فى إبلاغ رسالتك ، وهذا الوزير والمعين هو أخى هارون ، الذى أسألك أن تقوى به ظهرى ، وأن تجعله شريكا لى فى تبليغ رسالتك ، حتى نؤديها على الوجه الأكمل ،وكأن موسى ـ عليه السلام ـ قد علم من نفسه حدة الطبع ، وسرعة الانفعال ، فالتجأ إلى ربه لكى يعينه بأخيه هارون ، ليقوى به ويتشاور معه فى الأمر الجليل ، الذى هو مقدم عليه ، وهو تبليغ رسالة الله إلى فرعون الذى طغى وبغى وقال لقومه أنا ربكم الأعلى .

وقوله : ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً . وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً . إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً ﴾ تعليل للدعوات الصالحات التى تضرع بها موسى إلى ربه ـ تعالى ـ .

أى : أجب ـ يا إلهى ـ دعائى بأن تشرح صدرى . . وتشد بأخى هارون أزرى ، كى نسبحك تسبيحا كثيرا ، ونذكرك ذكرا كثيرا ، إنك ـ سبحانك ـ كنت ومازال بنا بصيرا ، لايخفى عليك شىء من أمرنا أومن أمر خلقك ، فأنت المطلع على حالنا وعلى ضعفنا ، وأنت العليم بحاجتنا إليك وإلى عونك ورعايتك .

بهذه الدعوات الخاشعات ابتهل موسى إلى ربه وأطال الابتهال فى بسط حاجته ، وكشف ضعفه ، فماذا كانت النتيجة؟

لقد كانت النتيجة أن أجاب الله له دعاءه ، وحقق له مطالبه ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ ، أى : لقد أجبنا دعاءك يا موسى ، وأعطيناك ماسألتنا إياه بفضلنا وإحساننا .

١١ ـ المحاورات والمناقشات بين موسى ـ عليه السلام ـ وبين فرعون وملئه :

وهذه المحاورات قد وردت فى سور متعددة ، وبأساليب شتى ، فيها المنطق السليم ،

---

(١) سورة القصص الآية ٣٤ .

والحجة الناصعة ، والشجاعة الفائقة ، من جانب موسى ـ عليه السلام ـ وفيها التهديد السافر ، والجهل الفاضح ، والتباهى بالقوة والطغيان ، من جانب فرعون .

ومن الآيات القرآنية التى قصت علينا جانبا من تلك المناقشات التى حدثت بين موسى وفرعون ، قوله ـ تعالى ـ فى سورة «طه» :

ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ

والمعنى اذهب يا موسى أنت وأخوك إلى حيث آمركما متسلحين بآياتى ومعجزاتى ، ولاتضعفا أو تتراخيا فى ذكرى وتسبيحى وتقديسى بما يليق بذاتى وصفاتى من العبادات والقربات ، فإن تذكركما لى هو عدتكما وسلاحكما وسندكما فى كل أمر تقدمان عليه .

فالآية الكريمة تدعو موسى وهارون ، كما تدعو كل مسلم فى كل زمان ومكان إلى المداومة على ذكر الله ـ تعالى ـ فى كل موطن ، بقوة لاضعف معها وبعزيمة صادقة لافتور فيها ولا كلال .

وقد مدح ـ سبحانه ـ المداومين على تسبيحه وتحميده وتقديسه فى كل أحوالهم فقال : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ .

قال ابن كثير : والمراد بقوله : ﴿ وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾ أنهما لايفتران فى ذكر الله بل يذكران الله فى حال مواجهة فرعون ، ليكون ذكر الله عونا لهما عليه ، وقوة لهما ، وسلطاناكاسرا له ، كما جاء فى الحديث «إن عبدى كل عبدى الذى يذكرنى وهو مناجز قرنه» .[1]

(١) تفسير ابن كثير جـ٣ ص٢٨٧ .

ثم أرشدهما ـ سبحانه ـ إلى الوجهة التى يتوجهان إليها فقال : ﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ .

أى : اذهبا إلى فرعون لتبلغاه دعوتى ، ولتأمراه بعبادتى ، فإنه قد طغى وتجاوز حدوده ، وأفسد فى الأرض ، وقال لقومه : أنا ربكم الأعلى ، وقال لهم ـ أيضا ـ ما علمت لكم من إله غيرى .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ ، إرشاد منه ـ سبحانه ـ إلى الطريقة التى ينبغى لهما أن يسلكاها فى مخاطبة فرعون .

أى : اذهبا إليه ، وادعواه إلى ترك ماهو فيه من كفر وطغيان ، وخاطباه بالقول اللين ، وبالكلام الرقيق ، فإن الكلام السهل اللطيف من شأنه أن يكسر حدة الغضب ، وأن يوقظ القلب للتذكر ، وأن يحمله على الخشية من سوء عاقبة الكفر والطغيان .

وهذا القول اللين الذى أمرهما الله ـ تعالى ـ به هنا قد جاء مايفسره فى آيات أخرى ، منها قوله ـ تعالى ـ : ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ . فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ . وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ .

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد اشتملت على ألطف أساليب المخاطبة وأرقها وألينها وأحكمها .

قال ابن كثير : قوله : ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا . . ﴾ هذه الآية فيها عبرة عظيمة ، وهى أن فرعون كان فى غاية العتو والاستكبار ، وموسى كان صفوة الله من خلقه إذ ذاك ، ومع هذا أمر أن لايخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين كما قال يزيد الوقاشى عند قراءته لهذه الآية : يا من يتحبب إلى من يعاديه ، فكيف بمن يتولاه ويناديه؟

والحاصل أن دعوتهما له تكون بكلام رقيق لين قريب سهل ، ليكون أوقع فى النفوس ، وأبلغ وأنجع ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ . . ﴾ (1)

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما قاله موسى وهارون عندما أمرهما ـ جل جلاله ـ بذلك فقال : ﴿ قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ .

---

(1) تفسير ابن كثير جـ3 ص288 .

أى : قال موسى وهارون بعد أن أمرهما ربهما بالذهاب إلى فرعون لتبليغه دعوة الحق : يا ربنا إننا نخاف ﴿ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا ﴾ أى يعالجنا بالعقوبة قبل أن ننتهى من الحديث معه فى الأمر .

﴿ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ أى : يزداد طغيانه ، فيقول فى حقك يا ربنا مالا نريد أن نسمعه ، ويقول فى حقنا ما نحن بريئون منه ، ويفعل معنا ما يؤذينا .

وقد جمع ـ سبحانه ـ بين القولين اللذين حكاهما عنهما ، لأن الطغيان أشمل من الإفراط ، إذ الجملة الأولى تدل على الإسراع بالأذى لأول وهلة ، أما الثانية فتشمل الإسراع بالأذى ، وتشمل غيره من ألوان الاعتداء سواء أكان فى الحال أم فى الاستقبال .

وهنا يجيبهما الخالق ـ جل وعلا ـ بما يثبت فؤادهما ويزيل خوفهما فقال : ﴿ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ .

أى : قال الله ـ تعالى ـ لهما لاتخافا من بطش فرعون ، إننى معكما بقوتى وقدرتى ورعايتى ، وإننى أسمع كلامكما وكلامه ، وأرى فعلكما وفعله ، ولايخفى على شىء من حالكما وحاله ، فاطمئنا أننى معكما بحفظى ونصرى وتأييدى ، وأن هذا الطاغية ناصيته بيدى ، ولايستطيع أن يتحرك أو يتنفس إلا بإذنى .

ثم رسم لهما ـ سبحانه ـ طريق الدعوة فقال : ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ . . ﴾ .

أى : فأتيا فرعون ، وادخلا عليه داره أو مكان سلطانه ، وقولا له بلا خوف أو وجل ﴿ إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ ﴾ الذى خلقك فسواك فعدلك .

وكان البدء بهذه الجملة لتوضيح أساس رسالتهما ، ولإحقاق الحق من أول الأمر ، ولإشعاره منذ اللحظة الأولى بأنهما قد أرسلهما ربه وربهما ورب العالمين ، لدعوته إلى الدين الحق ، وإلى اخلاص العبادة لله الواحد القهار ، وإلى التخلى عن الكفر والطغيان ، وأنهما لم يأتياه بدافع شخصى منهما ، وإنما أتياه بتكليف من ربه ورب العالمين .

أما الجملة الثانية التى أمرهما الله ـ تعالى ـ أن يقولاها لفرعون فقد حكاها ـ سبحانه ـ بقوله : ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ ، أى : فأطلق سراح بنى إسرائيل ، ودعهم يعيشون أحرارا فى دولتك ولاتعذبهم باستعبادهم وقهرهم ، وقتل أبنائهم واستحياء نسائهم .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ ، جملة ثالثة تدل على صدقهما فى رسالتهما .

والمراد بالآية هنا : جنسها فتشمل العصا واليد وغيرهما من المعجزات التى أعطاها الله - تعالى - لنبيه موسى - عليه السلام - .

أى : قد جئناك بمعجزة من ربك تثبت صدقنا ، وتؤيد مدعانا ، وتشهد بأنا قد أرسلنا الله - تعالى - إليك لهدايتك ، ودعوتك أنت وقومك إلى الدخول فى الدين الحق .

فالجملة الكريمة تقرير لما تضمنه الكلام السابق من كونهما رسولين من رب العالمين ، وتعليل لوجوب إطلاق بنى إسرائيل وكف الأذى عنهم .

أما الجملة الرابعة التى أمرهما الله - تعالى - بأن يقولاها لفرعون فهى قوله - سبحانه - : ﴿ وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴾ .

أى : وقولا له - أيضا - السلامة من العذاب فى الدارين لمن اتبع الهدى بأن آمن بالله - تعالى - وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

وفى هذه الجملة من الترغيب فى الدخول فى الدين الحق مافيها ، ولذا استعملها النبى ﷺ فى كثير من كتبه ، ومن ذلك قوله ﷺ فى رسالته إلى هرقل ملك الروم : بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى .

ثم حكى - سبحانه - الجملة الخامسة التى أمر موسى وهارون أن يخاطبا بها فرعون . فقال : ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ .

أى : وقولا له : ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا ﴾ من عند ربنا وخالقنا ﴿ أَنَّ الْعَذَابَ ﴾ فى الدنيا والآخرة ﴿ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ ﴾ بآياته وحججه - سبحانه - ﴿ وَتَوَلَّىٰ ﴾ عنها ، وأعرض عن الاستجابة لها .

وبذلك نرى فى هذه الآيات الكريمة أسمى ألوان الدعوة إلى الحق وأحكمها ، فهى قد بدأت بالأساس الذى تقوم عليه كل رسالة سماوية ﴿ إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ ﴾ وثنت ببيان أهم ما أرسل موسى وهارون من أجله ، ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ وثلثت بإقامة الأدلة على صدقهما ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ ، وربعت بالترغيب والاستمالة ﴿ وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴾

ثم ختمت بالتحذير والترهيب من المخالفة ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ .

١٢ - وبعد أن غرس - سبحانه - الطمأنينة فى قلب موسى وهارون وزودهما بأحكم الوسائل وأنجعها فى الدعوة إلى الحق ، أتبع ذلك بحكاية جانب من الحوار الذى دار بينهما وبين فرعون بعد أن التقوا جميعا وجها لوجه فقال - تعالى - :

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ * مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ ﴾

فقوله - تعالى - : ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴾ حكاية لما قاله فرعون لموسى وهارون عليهما السلام - بعد أن ذهبا إليه ليبلغاه دعوة الحق كما أمرهما ربهما - سبحانه - .

ولم تذكر السورة الكريمة كيف وصلا إليه ، لأن القرآن لايهتم بجزئيات الأحداث التى لاتتوقف عليها العبر والعظات ، وإنما يهتم بذكر الجوهر واللباب من الأحداث .

والمعنى : قال فرعون لموسى وهارون بعد أن دخلا عليه ، وأبلغاه ما أمرهما ربهما بتبليغه : من ربكما يا موسى الذى أرسلكما إلىّ؟

وكأنه ـ لطغيانه وفجوره ـ لا يريد أن يعترف بأن رب موسى وهارون هو ربه وخالقه كما قالا له قبل ذلك ﴿ إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ ﴾ .

وخص موسى بالنداء مع أنه وجه الخطاب إليهما لظنه أن موسى ـ عليه السلام ـ هو الأصل في حمل رسالة الحق إليه ، وأن هارون هو وزيره ومعاونه ، أو أنه لخبثه ومكره ، تجنب مخاطبة هارون لعلمه أنه أفصح لسانا من موسى ـ عليهما السلام ـ .

ثم حكى ـ سبحانه ـ بعد ذلك أن موسى قد رد على فرعون ردا يخرسه ويكبته فقال : ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ .

أى : قال موسى فى رده على فرعون : يا فرعون ربنا وربك هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذى أعطى كل مخلوق من مخلوقاته ، وكل شىء من الأشياء الصورة التى تلائمه ، والهيئة التى تتحقق معها منفعته ومصلحته ، ثم هداه إلى وظيفته التى خلقه من أجلها ، وأمده بالوسائل والملكات التى تحقق هذه الوظيفة .

ثم حكى ـ سبحانه ـ بعد ذلك ما قاله فرعون لموسى : ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىٰ ﴾ .

أى : قال فرعون بعد أن رد عليه موسى هذا الرد الحكيم : يا موسى فما حال القرون الأولى ، كقوم نوح وعاد وثمود ، الذين كذبوا أنبياءهم ، وعبدوا غير الله ـ تعالى ـ الذى تدعونى لعبادته؟

وسؤاله هذا يدل على خبثه ومكره ، لأنه لما سمع من موسى الجواب المفحم له على سؤاله السابق ﴿ مَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴾ أراد أن يصرف الحديث إلى منحى آخر يتعلق بأمور لا صلة لها برسالة موسى إليه وهى دعوته لعبادة الله ـ تعالى ـ وحده ، وإطلاقه سراح بنى إسرائيل من الأسر .

ولذا رد عليه موسى ـ عليه السلام ـ بما يخرس لسانه ، ويبطل كيده ، فقال ـ كما حكى القرآن عنه ـ ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى ﴾ .

أى : علم حال هذه القرون الأولى محفوظ عند ربى وحده ، فى كتاب هو اللوح المحفوظ ، وهو ـ سبحانه ـ لا يخفى عليه شىء من أحوالهم ، وسيجازيهم بما يستحقون من ثواب أو عقاب .

وقوله : ﴿ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى ﴾ مؤكد لما قبله ، أى : لا يخطىء ربى فى عمله ، ولا ينسى شيئا مما علمه لأنه منزه عن ذلك ، فالضلال هنا بمعنى الخطأ وقلة الإدراك .

وجمع - سبحانه - بين نفى الضلال والنسيان ؛ لإفادة تنزهه عن أن يغيب شىء من أحوال هذا الكون عن علمه الشامل لكل شىء ، ولبيان أن علمه باق بقاء أبديا لا نسيان معه ، ولا زوال له .

ثم بين له آثار علم الله - تعالى - وقدرته فقال : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا . . ﴾ .

أى : هو - سبحانه - الذى جعل لكم الأرض ممهدة كالفراش ، ليتسنى لكم الانتفاع بخيراتها .

﴿ وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً ﴾ أى : وجعل لكم فى داخلها طرقا تنتقلون فيها من مكان إلى مكان ، ومن بلدة إلى أخرى لقضاء مصالحكم .

﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾

أى : وأنزل - سبحانه - بقدرته من السماء ماء نافعا كثيرا فأخرجنا بسبب هذا الماء من الأرض أصنافا شتى - أى متفرقة - من النبات ، وهذه الأصناف مختلفة المنافع والألوان والطعوم والروائح ، مما يدل على كمال قدرتنا ، ونفاذ إرادتنا .

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة قد اشتملت على أربع منن قد امتن الله بها على عباده ، وهى : تمهيد الأرض وجعل الطرق فيها ، وإنزال المطر من السماء وإخراج النبات المتنوع من الأرض .

وهذه المنن وإن كانت ظاهرة وواضحة فى جميع فجاج الأرض ، إلا أنها أظهر ما تكون وأوضح ما تكون فى أرض مصر ، التى كان يعيش فيها فرعون حيث تبدو الأرض فيها منبسطة ممهدة على جانبى النيل الممتد امتدادا كبيرا .

وكان الأجدر بفرعون - لو كان يعقل - أن يخلص العبادة لواهب هذه المنن ، ومسدى هذه النعم ، وهو الله رب العالمين .

والأمر فى قوله - سبحانه - : ﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ﴾ للإباحة .

أى : هذه الأرض وما اشتملت عليه من طرق ومن نبات شتى هى لمنفعتكم ومصلحتكم ، فكلوا - أيها الناس - من هذه الثمار المتنوعة التى انشقت عنها الأرض ، وارعوا أنعامكم من إبل وبقر وغنم فى المكان الصالح للرعى من هذه الأرض ، واشكروا الله - تعالى - على هذه النعم لكى يزيدكم منها .

واسم الإشارة فى قوله ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴾ ، يعود إلى المذكور من تلك النعم السابقة .

و ﴿النُّهَىٰ﴾ جمع نُهْية - بضم النون وإسكان الهاء - وهى العقل ، سمى بذلك لأنه ينهى صاحبه عما لايليق .

والمعنى : إن فى ذلك الذى ذكرناه لكم من نعمة تمهيد الأرض ، وجعل الطرق فيها ؛ وإنزال المطر عليها ، وإخراج النبات منها ، إن فى كل ذلك لآيات وعظات وعبر ، لأصحاب العقول السليمة ، والأفكار القويمة .

ثم بين - سبحانه - أن هذه الأرض منها خلق الإنسان ، وإليها يعود ، ومنها يبعث للحساب يوم القيامة ، فقال - تعالى - : ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ .

أى : من هذه الأرض خلقنا أباكم آدم ، وأنتم تبع له ، وفرع عنه ، كما قال - تعالى - : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ .

وقوله : ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ أى : وفى الأرض نعيدكم عند موتكم ، حيث تكون محل دفنكم واستقرار أجسادكم .

وقوله : ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ ، أى : ومن الأرض نخرجكم مرة أخرى أحياء يوم القيامة للحساب والجزاء .

وقوله - تعالى - : ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ بيان للموقف الجحودى الذى وقفه فرعون من الحجج والمعجزات التى طرحها أمامه موسى - عليه السلام - .

والمعنى : ولقد أرينا فرعون بعينيه آياتنا كلها الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا وصدق نبينا موسى ، فكانت نتيجة ذلك أن كذب بها ، وأبى أن يستجيب للحق .

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ ، أى : قال فرعون لموسى على سبيل التهديد ، والوعيد : يا موسى أجئتنا من المكان الذى هربت إليه ، ومعك هذه الآيات التى رأيناها ، لكى تخرجنا من أرضنا التى عشنا فيها وهى أرض مصر بسبب ما أظهرته أمامنا من سحر وخفة يد .

وسمى اللعين ما جاء به موسى - عليه السلام - من معجزات سحرا ؛ ليزيل من أذهان قومه أثر هذه المعجزات الباهرة .

وقال : ﴿ لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا ﴾ ليحمل أتباعه على الوقوف فى وجه موسى بإبراز أن موسى جاء ليحتل أرضهم ، ويحوز أموالهم ، ويجعل السلطان لغيرهم .

ثم أضاف فرعون إلى تهديده لموسى تهديدا آخر فقال : ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لاَّ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴾ .

أى : قال فرعون لموسى مهددا ومتوعدا : أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ، فلنأتينك بسحر مثل سحرك ، فاجعل بيننا وبينك موعدا للمباراة والمنازلة ، لا نخلف نحن ولا أنت هذا الوعد ، وأن يكون مكان منازلتنا لك فى مكان يتوسط المدينة ، بحيث يستطيع جميع سكانها أن يحضروا إليه .

والمتأمل فى الآية الكريمة يرى أن فرعون قد قال ما قال لموسى وهو كأنه قد جمع أطراف النصر بين يديه .

ويشهد لذلك : تصديره كلامه بالقسم ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ ﴾ وتركه لموسى اختيار الموعد الذى يناسبه ﴿ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا ﴾ واشتراطه عدم الخلف فى الوعد ﴿ لاَّ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنتَ ﴾ واقتراحه أن يكون مكان المبارزة فى وسط المدينة ، حتى يراها جميع الناس ﴿ مَكَانًا سُوًى ﴾ .

ولقد حكى القرآن أن موسى - عليه السلام - قد قبل تحدى فرعون ، ورد عليه يقول : ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ .

أى : قال موسى لفرعون : موعد المنازلة بينى وبينكم هو يوم زينتكم وعيدكم ، وفى هذا اليوم أطلب منكم أن يجمع الناس جميعا فى وقت الضحى عند ارتفاع الشمس ، لكى يشهدوا ما يكون بينى وبين سحرتك يا فرعون .

وبذلك نرى أن موسى - عليه السلام - قد قابل تهديد فرعون له ، بتهديد أشد وأعظم ، فقد طلب منه أن يكون موعد المبارزة يوم العيد ، كما طلب منه - أيضا - أن يجمع الناس فى وقت الضحى لكى يشاهدوا تلك المباراة .

١٣ - وفى سورة «الشعراء» آيات كريمة ، قصت علينا جانبا من المحاورات والمناقشات التي حدثت بين موسى وفرعون ، وتبدأ هذه الآيات بقوله - تعالى - :

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾

أى : واذكر ـ أيها الرسول الكريم ـ وقت أن نادى ربك نبيه موسى قائلا له : اذهب إلى القوم الظالمين لتبلغهم رسالتى ، وتأمرهم بإخلاص العبادة لى ، وهؤلاء الظالمون هم : ﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بعبادتهم لغير الله ـ تعالى ـ .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ أَلا يَتَّقُونَ ﴾ تعجيب من حالهم ، أى : ائتهم يا موسى وقل لهم : ألا يتقون الله ـ تعالى ـ ويخشون عقابه ، ويكفون عن كفرهم وظلمهم .

ثم حكى ـ سبحانه ـ رد موسى فقال : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ .

أى : قال موسى فى الإجابة على ربه ـ عز وجل ـ : يا رب إنى أعرف هؤلاء القوم ، وأعرف ما هم عليه من ظلم وطغيان ، وإنى أخاف تكذيبهم لى عندما أذهب إليهم لتبليغ وحيك ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي ﴾ أى : وينتابنى الغم والهم بسبب تكذيبهم لى .

﴿ وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي ﴾ أى : وليس عندى فصاحة اللسان التى تجعلنى أظهر مافى نفسى من تفنيد لأباطيلهم ، ومن إزهاق لشبهاتهم ، خصوصا عند اشتداد غضبى عليهم .

﴿ فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَرُونَ ﴾ أى : فأرسل وحيك الأمين إلى أخى هارون ، ليكون معينا لى على تبليغ ما تكلفنى بتبليغه .

﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ ﴾ حيث إنى قتلت منهم نفسا ﴿ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ عندما أذهب إليهم ، على سبيل القصاص منى .

فأنت ترى أن موسى - عليه السلام - قد شكا إلى ربه خوفه من تكذيبهم وضيق صدره من طغيانهم ، وعقدة فى لسانه ، وخشيته من قتلهم له عندما يرونه .

وليس هذا من باب الامتناع عن أداء الرسالة ، أو الاعتذار عن تبليغها ، وإنما هو من باب طلب العون من الله - تعالى - والاستعانة به - عز وجل - على تحمل هذا الأمر والتماس الإذن منه فى إرسال هارون معه ، ليكون عونا له فى مهمته ، وليخلفه فى تبليغ الرسالة فى حال قتلهم له .

وشبيه بهذا الجواب ما حكاه عنه - سبحانه - فى سورة طه فى قوله - تعالى - :

﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ . قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي . وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي . وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي . يَفْقَهُوا قَوْلِي . وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي . هَٰرُونَ أَخِي . اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي . وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي . كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا . وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا . إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾ .

[طه : ٢٤ - ٣٥]

وقد رد الله - تعالى - على نبيه موسى - عليه السلام - ردا حاسما لإزالة الخوف ، ومزهقا لكل ما يحتمل أن يساور نفسه من عدوان عليه ، فقال - تعالى - : ﴿ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾ .

أى : قال الله - تعالى - لموسى على سبيل الإرشاد والتعليم : كلا ، لاتخف أن يكذبوك أو أن يضيق صدرك ، أو ألاينطلق لسانك ، أو أن يقتلوك ، كلا لاتخف من شىء من ذلك ، فأنا معكما برعايتى ، ومادام الأمر كذلك فاذهب أنت وأخوك بآياتنا الدالة على وحدانيتنا فإننا معكم سامعون لما تقولانه لهم ولما يقولونه لكما .

وعبر - سبحانه - بكَلاَّ المفيدة للزجر ؛ لزيادة إدخال الطمأنينة على قلب موسى - عليه السلام - .

والمراد بالآيات هنا : المعجزات التى أعطاها - سبحانه - لموسى وعلى رأسها العصا . .

والفاء فى قوله : ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ، لترتيب ما بعدها على ما قبلها من الوعد برعايتهما .

أى : اذهبا وأنتما متسلحان بآياتنا الدالة على صدقكما ، فنحن معكم برعايتنا وقدرتنا ، فأتيا فرعون بدون خوف أو وجل منه ﴿ فَقُولَا ﴾ له بكل شجاعة وجرأة ﴿ إِنَّا

رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ، أى : رب جميع العوالم التى من بينها عالم الجن ، وعالم الملائكة .

وقد أرسلنا - سبحانه - إليك ، لكى تطلق سراح بنى إسرائيل من ظلمك وبغيك ، وتتركهم يذهبون معنا إلى أرض الله الواسعة لكى يعبدوا الله - تعالى - وحده .

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد قصت علينا ، ما أمر الله - تعالى - به نبيه موسى - عليه السلام - وما زوده به - سبحانه - من إرشاد وتعليم ، بعد أن التمس منه - سبحانه - العون والتأييد .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما دار بين موسى وفرعون من محاورات فقال - تعالى - :

قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾

أى : قال فرعون لموسى بعد أن عرفه ، وبعد أن طلب منه موسى أن يرسل معه بنى إسرائيل ، قال له : يا موسى ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾ أى : ألم يسبق لك أنك عشت فى منزلنا ، ورعيناك وأنت صغير عندما قالت امرأتى ﴿ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ .

﴿ وَلَبِثْتَ فِينَا ﴾ أى : فى كنفنا وتحت سقف بيتنا ﴿ مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ عددا ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ ﴾ وهى قتلك لرجل من شيعتى ﴿ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ .

أى : وأنت من الجاحدين بعد ذلك لنعمتى التى أنعمتها عليك ، فى حال طفولتك ، وفى حال صباك ، وفى حال شبابك ، لأنك جئتنى أنت وأخوك بما يخالف ديننا ، وطلبتما منا أن نرسل معكما بنى إسرائيل ، فهل هذا جزاء إحسانى إليك؟

وهكذا نرى فرعون يوجه إلى موسى ـ عليه السلام ـ تلك الأسئلة على سبيل الإنكار عليه لما جاء به ، متوهما أنه قد قطع عليه طريق الإجابة .

ولكن موسى ـ عليه السلام ـ وقد استجاب الله ـ تعالى ـ دعاءه ، وأزال عقدة لسانه ، رد عليه ردا حكيما ، فقال ـ كما حكى القرآن عنه ـ : ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ .

أى : قال موسى فى جوابه على فرعون : أنا لا أنكر أنى قد فعلت هذه الفعلة التى تذكرنى بها ، ولكنى فعلتها وأنا فى ذلك الوقت من الضالين ، أى : فعلت ذلك قبل أن يشرفنى الله بوحيه ، ويكلفنى بحمل رسالته ، وفضلا عن ذلك فأنا كنت أجهل أن هذه الوكزة تؤدى إلى قتل ذلك الرجل من شيعتك ، لأنى ما قصدت قتله ، وإنما قصدت تأديبه ومنعه من الظلم لغيره .

فالمراد بالضلال هنا : الجهل بالشىء ، والذهاب عن معرفة حقيقته .

وقوله : ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾ بيان لما ترتب على فعلته التى فعلها .

أى : وبعد هذه الفعلة التى فعلتها وأنا من الضالين ، توقعت الشر منكم ، ففررت من وجوهكم حين خشيت منكم على نفسى فكانت النتيجة أن وهبنى ﴿ رَبِّي حُكْمًا ﴾ أى : علما نافعا ﴿ وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ الذين اصطفاهم الله ـ تعالى ـ لحمل رسالته والتشرف بنبوته .

ثم أضاف موسى - عليه السلام - إلى هذا الرد الملزم لفرعون ، ردا آخر أشد إلزاما وتوبيخا فقال : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ .

وهذا الكلام من موسى - عليه السلام - يرى بعضهم أنه قاله على جهة الاعتراف له بالنعمة ، فكأنه يقول له : تلك التربية التى ربيتها لى نعمة منك علىّ ، ولكن ذلك لايمنع من أن أكون رسولا من الله - تعالى - إليك ، لكى تقلع عن كفرك ، ولكى ترسل معنا بنى إسرائيل .

ويرى آخرون أن هذا الكلام من موسى لفرعون ، إنما قاله على سبيل التهكم به ، والإنكار عليه فيما امتن به عليه ، فكأنه يقول له : إن ما تمنّ به علىّ هو فى الحقيقة نقمة ، وإلا فأية منة لك علىّ فى استبعادك لقومى وأنا واحد منهم ، إن خوف أمى من قتلك لى هو الذى حملها على أن تلقى بى في البحر ، وتربيتى فى بيتك كانت لأسباب خارجة عن قدرتك .

ويبدو لنا أن هذا الرأى أقرب إلى الصواب ، لأنه هو المناسب لسياق القصة .

وبهذا الجواب التوبيخى أفحم موسى - عليه السلام - فرعون ، وجعله يحول الحديث عن هذه المسألة التى تتعلق بتربيته لموسى إلى الحديث عن شىء آخر حكاه القرآن فى قوله : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى قال فرعون لموسى : أى شىء رب العالمين الذى أنت وأخوك جئتما لتبلغا رسالته لى ، وما صفته؟

وهذا السؤال يدل على طغيان فرعون - قبحه الله - وتجاوزه كل حد فى الفجور ، فإن هذا السؤال يحمل فى طياته استنكارا أن يكون هناك إله سواه ، كما حكى عنه القرآن فى آية أخرى قوله : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي .. ﴾ . (١)

فهو ينكر رسالة موسى - عليه السلام - من أساسها .

وهنا يرد موسى ، بقوله : ﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ .

أى : قال موسى : ربنا - يا فرعون - هو رب السموات ورب الأرض ، ورب ما بينهما من أجرام وهواء ، وإن كنتم موقنين بشىء من الأشياء ، فإيمانكم بهذا الخالق العظيم وإخلاصكم العبادة له أولى من كل يقين سواه .

وفى هذا الجواب استصغار لشأن فرعون ، وتحقير لمزاعمه ، فكأنه يقول له : إن ربنا هو رب هذا الكون الهائل العظيم ، أما ربوبيتك أنت - فمع بطلانها - هى ربوبية لقوم معينين خدعتهم بدعواك الألوهية ، فأطاعوك لسفاهتهم وفسقهم .

---

(١) سورة القصص الآية ٣٨ .

وهنا يلتفت فرعون إلى من حوله ليشاركوه التعجيب مما قاله موسى وليصرفهم عن التأثر بما سمعوه منه ، فيقول لهم : ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ أى : ألا تستمعون إلى هذا القول الغريب الذى يقوله موسى ، والذى لاعهد لنا به ، ولا قبول عندنا له ولاصبر لنا عليه .

ولكن موسى - عليه السلام - لم يمهلهم حتى يردوا على فرعون بل أكد لهم وحدانية الله - تعالى - وهيمنته على هذا الكون ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ .

أى : ربنا الذى هو رب السموات والأرض وما بينهما ، هو ربكم أنتم - أيضا - وهو رب آبائكم الأولين ، فكيف تتركون عبادته ، وتعبدون عبدا من عباده ومخلوقا من مخلوقاته هو فرعون؟

وهنا لم يملك فرعون إلا الرد الدال على إفلاسه وعجزه ، فقال ملتفتا إلى من حوله : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ .

أى : قال فرعون - على سبيل السخرية بموسى - مخاطبا أشراف قومه : إن رسولكم الذى أرسل إليكم بما سمعتم ﴿ لَمَجْنُونٌ ﴾ لأنه يتكلم بكلام لاتقبله عقولنا ، ولاتصدقه آذاننا ، وسماه رسولا على سبيل الاستهزاء ، وجعل رسالته إليهم لا إليه ، لأنه - فى زعم نفسه - أكبر من أن يرسل إليه رسول ، ولكى يهيجهم حتى ينكروا على موسى قوله .

ولكن موسى - عليه السلام - لم يؤثر ما قاله فرعون فى نفسه ، بل رد عليه وعليهم بكل شجاعة وحزم فقال : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

أى : قال موسى : ربنا رب السموات والأرض وما بينهما ، وربكم ورب آبائكم الأولين ، ورب المشرق الذى هو جهة طلوع الشمس وطلوع النهار ، ورب المغرب الذى هو غروب الشمس وغروب النهار .

وخصهما بالذكر ، لأنهما من أوضح الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ولأن فرعون أو غيره من الطغاة لايجرؤ ولايملك ادعاء تصريفهما أو التحكم فيهما على تلك الصورة البديعة المطردة ، والتى لا اختلال فيها ولا اضطراب .

كما قال إبراهيم للذى حاجه فى ربه : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ .

وجملة ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ حض لهم على التعقل والتدبر ، وتحذير لهم من التمادى فى الجحود والعناد .

أى : ربنا وربكم هو رب هذه الكائنات كلها ، فأخلصوا العبادة له ، إن كانت لكم عقول تعقل ما قلته لكم ، وتفهم ما أرشدتكم إليه .

وهكذا انتقل بهم موسى من دليل إلى دليل على وحدانية الله وقدرته ، ومن حجة إلى حجة ، ومن أسلوب إلى أسلوب لكى لايترك مجالا فى عقولهم للتردد فى قبول دعوته .

ولكن فرعون ـ وقد شعر بأن حجة موسى قد ألقمته حجرا ـ انتقل من أسلوب المحاورة فى شأن رسالة موسى إلى التهديد والوعيد ـ شأن الطغاة عندما يعجزون عن دفع الحجة بالحجة ـ قال لموسى ـ عليه السلام ـ : ﴿ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ .

أى : قال فرعون لموسى بثورة وغضب : لئن اتخذت إلها غيرى يا موسى ليكون معبودا لك من دونى ، لأجعلنك واحدا من جملة المسجونين فى سجنى فهذا شأنى مع كل من يتمرد على عبادتى ، ويخالف أمرى .

ولكن موسى ـ عليه السلام ـ لم يخفه هذا التهديد والوعيد ، بل رد عليه ردا حكيما فقال له : ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾

والاستفهام للإنكار ، والواو للعطف على كلام مقدر يستدعيه المقام ، والمعنى ، أتفعل ذلك بى بأن تجعلنى من المسجونين ، ولو جئتك بشىء مبين ، يدل دلالة واضحة على صدقى فى رسالتى وعلى أنى رسول من رب العالمين؟

وعبر عن المعجزة التى أيده الله بها بأنها ﴿ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾ للتهويل من شأنها والتفخيم من أمرها ، ولعل مقصد موسى ـ عليه السلام ـ بهذا الكلام ، أن يجر فرعون مرة أخرى إلى الحديث فى شأن الرسالة التى جاءه من أجلها بعد أن رآه يريد أن يحول مجرى الحديث عنها إلى التهديد والوعيد ، وأن يسد منافذ الهروب عليه أمام قومه ، ولذا نجد فرعون لايملك أمام موسى إلا أن يقول له : ﴿ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

أى : فأت بهذا الشىء المبين ، إن كنت ـ يا موسى ـ من الصادقين فى كلامك السابق .

وهنا كشف موسى ـ عليه السلام ـ عما أيده الله ـ تعالى ـ به من معجزات حسية خارقة ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ ﴾ على الأرض أمام فرعون وقومه ﴿ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ .

أى : فإذا هى حية عظيمة فى غاية الجلاء والوضوح على أنها حية حقيقية ، لا شائبة معها للتخييل أو التمويه كما يفعل السحرة .

ولم يكتف موسى بذلك فى الدلالة على صدقه ، ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ ﴾ أى : من جيبه ﴿ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ أى : فإذا هى بيضاء بياضا يخالف لون جسمه - عليه السلام - فهى تتلألأ كأنها قطعة من القمر ، ولها شعاع يكاد يغشى الأبصار ، وليس فيها ما يشير على أن بها سوءا أو مرضا .

وهنا أحس فرعون بالرعب يسرى فى أوصاله ، وبأن ألوهيته المزعومة قد أوشكت على الانكشاف ، وبأن معجزة موسى توشك أن تجعل الناس يؤمنون به ، فالتفت إليهم وكأنه يحاول جذبهم إليه ، واستطلاع رأيهم فيما شاهدوه ، ويحكى القرآن ذلك بأسلوبه البليغ فيقول .

قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾

أى : قال فرعون للملأ المحيطين به - بعد أن زلزلته معجزة موسى ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ - أى : لساحر بارع فى فن السحر ، فهو مع اعترافه بضخامة ما أتى به موسى ، يسميه سحرا .

ثم يضيف إلى ذلك قوله لهم : ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم ﴾ هذا الساحر ﴿ مِّنْ أَرْضِكُم ﴾ التى نشأتم عليها ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ أى : فبأى شىء تشيرون علىّ وأنتم حاشيتى ومحل ثقتى؟

وفى هذه الجملة الكريمة تصوير بديع لنفس هذا الطاغية وأمثاله .

إنه منذ قليل كان يرغى ويزبد ، وإذا به بعد أن فاجأه موسى بمعجزته ، يصاب بالذعر ويقول لمن زعم أنه ربهم الأعلى ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ .

وهكذا الطغاة عندما يضيق الخناق حول رقابهم يتذللون ويتباكون ، فإذا ما انفك الخناق من حول رقابهم ، عادوا إلى طغيانهم وفجورهم .

ورد الملأ من قوم فرعون عليه بقولهم : ﴿ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ أى : أخر أمرهما ، ﴿ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ أى : وابعث فى مدن مملكتك رجالا من شرطتك يحشرون السحرة ، أى : يجمعونهم عندك لتختار منهم من تشاء .

وقوله : ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ مجزوم فى جواب الأمر ، أى : إن تبعثهم يأتوك بكل سحار فائق فى سحره ، عليم بفنونه ومداخله .

ولبى فرعون طلب مستشاريه ، فأرسل فى المدائن من يجمع له السحرة ﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ ﴾ أى : المعروفون ببراعتهم فيه ﴿ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ أى : جمعوا وطلب منهم الاستعداد لمنازلة موسى ـ عليه السلام ـ فى وقت معين هو «يوم الزينة» أى : يوم العيد ، كما قال ـ تعالى ـ فى آية أخرى : ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ .

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما فعله أعوان فرعون من حض الناس على حضور تلك المباراة فقال : ﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴾ أى : فى ذلك اليوم المعلوم الذى ينازل فيه السحرة موسى؟ فالمقصود بالاستفهام الحض على الحضور والحث على عدم التخلف .

والترجى فى قولهم : ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾ المقصود به ـ أيضا ـ حض السحرة على بذل أقصى جهدهم ليتغلبوا على موسى ـ عليه السلام ـ فكأنهم يقولون لهم : ابذلوا قصارى جهدكم فى حسن إعداد سحركم فنحن نرجو أن تكون الغلبة لكم ، فنكون معكم لا مع موسى ـ عليه السلام ـ .

ثم يحكى القرآن بعد ذلك ما قاله السحرة لفرعون عند التقائهم به فيقول : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ ﴾ ، بعد أن التقى بهم ليشجعهم على الفوز ، ﴿ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا ﴾ مجزيا ﴿ إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ لموسى ـ عليه السلام ـ .

وهنا يرد عليهم فرعون ، فيعدهم ، ويمنيهم ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ .

أى : نعم لكم الأجر العظيم الذى يرضيكم ، وفضلا عن ذلك فستكونون عندى من الرجال المقربين إلى نفسى ، والذين أخصهم برعايتى ومشورتى .

وهكذا يعد فرعون السحرة ويمنيهم ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا ﴾ .

١٣ - وفى سورة الأعراف ، طرف من تلك المحاورات والمجادلات التى نشبت بين موسى - عليه السلام - وبين فرعون وجنده .

ومن هذه الآيات قوله - تعالى - :

وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾

أى : وقال موسى - عليه السلام - فى أدب واعتزاز - لفرعون : يا فرعون إنى رسول من رب العالمين ، أرسلنى إليك لأدعوك لعبادته ، والخضوع له .

ثم بين له أنه بمقتضى هذه الرسالة لايقول إلا كلمة الحق ، فقال : ﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ . . ﴾ أى : جدير بأن لا أقول على الله إلا القول الحق .

ثم قال : ﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أى : قد جئتكم بحجة قاطعة من الله أعطانيها دليلا على صدقى فيما جئتكم به ، وفى قوله : ﴿ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ إشعار بأن ما جاء به من حجج وبراهين لم يكن من صنعه ، وإنما هو من عند رب العالمين ، الذى بيده ملكوت كل شىء .

﴿ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أى : قد جئتكم ببينة عظيمة الشأن فى الدلالة على صدقى ، فأطلق بنى إسرائيل من أسرك وأعتقهم من رقك وقهرك ، ودعهم يخرجون أحرارا من تحت سلطانك ليذهبوا معى إلى دار سوى دارك .

وإلى هنا يكون موسى ـ عليه السلام ـ قد بين لفرعون طبيعة رسالته وطالبه برفع الظلم عن المظلومين فماذا كان رد فرعون؟

يحكى القرآن رده فيقول : ﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ ﴾ أى : بمعجزة تشهد بصدقك من عند من أرسلك كما تدعى ﴿ فَأْتِ بِهَا ﴾ أى : فأحضرها عندى ليثبت بها صدقك فى دعواك ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فى دعواك أنك من الملتزمين لقول الحق .

وهنا يحكى لنا القرآن ما أسرع بفعله موسى للرد على فرعون فقال : ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ أى فألقى موسى عصاه التى كانت بيده أمام فرعون فإذا هى ثعبان مبين ، أى : ظاهر بين لاخفاء فى كونه ثعبانا حقيقيا يسعى فى خفة وسرعة كأنه جان .

والثعبان : الذكر العظيم من الحيات ، وقيل : إنه الحية مطلقا .

وقد ذكر بعض المفسرين روايات عن ضخامة هذا الثعبان وأحواله ، إلا أننا أضربنا عنها صفحا لضعفها .

ثم حكى القرآن معجزة أخرى لموسى تشهد بصدقه فقال : ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ أى : وأخرج موسى يده من درعه بعد أن أدخلها فيه أو من طوق قميصه ، أو من إبطه ، فإذا هى بيضاء بياضا عجيبا خارقا للعادة من غير أن يكون بها علة من مرض أو غيره ، قيل : إنه كان لها شعاع يغلب ضوء الشمس .

وبذلك يكون موسى قد أتى بالبينة التى تدعو فرعون وملأه إلى الإيمان به فهل آمنوا؟ كلا إنهم ما آمنوا بل استمروا فى ضلالهم ، وحكى لنا القرآن أن حاشية فرعون السيئة ، وأصحاب الجاه والغنى فى دولته غاظهم ما جاء به موسى ، يدل على ذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ .

أى : قال الأغنياء من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم ، أى : راسخ فى علم السحر ، ماهر فيه ، ولم يكتفوا بهذا القول الباطل ، بل أخذوا يثيرون الناس على موسى ، ويهولون لهم الأمر ليقفوا فى وجهه فقالوا :﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ .

أى : يريد هذا الساحر أن يسلب منكم ملككم ، وأن يصبح هو ملكا على مصر ، فماذا تأمرون لاتقاء هذا الخطر الداهم؟ وبماذا تشيرون فى أمره؟

ثم حكى القرآن ما أشار به الملأ من قوم فرعون فقال : ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ . يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ .

والمعنى : قال الملأ من قوم فرعون حين استشارهم فى أمر موسى : أخر أمره وأمر أخيه ولا تتعجل بالقضاء فى شأنهما ، وأرسل فى مدائن ملكك رجالا أو جماعات من الشرطة يجمعون إليك السحرة المهرة ، لكى يقفوا فى وجه هذا الساحر العليم ، ويكشفوا عن سحره ويبطلوه بسحر مثله ، أو أشد ، وكان السحر فى عهد فرعون من الأعمال الغالبة التى يحسنها كثير من أهل مملكته .

١٤ ـ وفى سورة «يونس» آيات كريمة ، قصت علينا جانبا من المحاورات التى حدثت بين موسى ـ عليه السلام ـ وبين فرعون وجنده الذين أقروه على ظلمه وغروره ، وتبدأ هذه الآيات بقوله ـ تعالى ـ :

ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

والمعنى : ثم بعثنا من بعد هؤلاء الرسل الكرام الذين جاءوا لأقوامهم بالأدلة والبينات .

﴿ مُّوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ عليهما السلام . . ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ﴾ الذى قال لقومه : «أنا ربكم الأعلى» وإلى ﴿ مَلَئِهِ ﴾ أى : خاصته وأشراف مملكته وأركان دولته ، ولذلك اقتصر عليهم ، لأن غيرهم كالتابع لهم .

﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ أى : بعثناهما إليهم مؤيدين بآياتنا ، الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا وعلى صدقهما فيما يبلغانه عنا من هدايات وتوجيهات .

ثم بين - سبحانه - موقف فرعون وملئه من دعوة موسى لهم فقال : ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ أى : فاستكبروا عن طاعتهما ، وأعجبوا بأنفسهم ، وكانوا قوما شأنهم وديدنهم الإجرام وهو ارتكاب ما عظم من الذنوب والقبائح .

ثم بين - سبحانه - ماتفوهوا به من أباطيل عندما جاءهم موسى بدعوته فقال : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

أى : فلما وصل إليهم الحق الذى جاءهم به موسى - عليه السلام - من عندنا لا من عند غيرنا ﴿ قَالُوا ﴾ على سبيل العناد والحقد والغرور ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ الذى جئت به يا موسى ﴿ لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أى : لسحر واضح ظاهر لا يحتاج إلى تأمل أو تفكير .

والتعبير بقوله : ﴿ جَاءَهُمُ ﴾ يفيد أن الحق قد وصل إليهم بدون تعب منهم ، فكان من الواجب عليهم - لو كانوا يعقلون - أن يتقبلوه بسرور واقتناع .

وفى قوله : ﴿ مِنْ عِندِنَا ﴾ تصوير لشناعة الجريمة التى ارتكبوها فى جانب الحق ، الذى جاءهم من عند الله - تعالى - لا من عند غيره .

والمراد بالحق هنا : الآيات والمعجزات التى جاءهم بها موسى - عليه السلام - لتكون دليلا على صدقه فيما يبلغه عن ربه .

وقولهم - كما حكى القرآن عنهم - ﴿ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ بالقسم المؤكد : يدل على تبجحهم الذميم ، وكذبهم الأثيم ، حيث وصفوا الحق الذى لاباطل معه بأنه سحر واضح ، وهكذا عندما تقسو القلوب وتفسق النفوس ، تتحول الحقائق فى زعمها إلى أكاذيب وأباطيل .

ثم حكى القرآن الكريم رد موسى - عليه السلام - على مفترياتهم ، فقال : ﴿ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ .

وفى الآية الكريمة كلام محذوف دل عليه المقام ، والتقدير :

قال موسى لفرعون وملئه منكرا عليهم غرورهم وكذبهم ، ﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ ﴾ الذى هو أبعد مايكون عن السحر ، حين مشاهدتكم له ، أتقولون عنه ﴿ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

يا سبحان الله!! أفلا عقل لكم يحجزكم عن هذا القول الذى يدل على الجهالة والغباء ، انظروا وتأملوا ﴿أَسِحْرٌ هَذَا﴾ الذى ترون حقيقته بأعينكم ، وترتجف من عظمته قلوبكم ، والحال أنه ﴿وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ فى أى عمل من شأنه أن يهدى إلى الخير والحق .

ثم كشف القرآن الكريم عن حقيقة الدوافع التى جعلتهم يصفون الحق بأنه سحر مبين فقال ـ تعالى ـ : ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ .

أى : قال فرعون وملؤه لموسى ـ عليه السلام ـ بعد أن جاءهم بالحق المبين : أجئتنا ياموسى بما جئتنا به ﴿لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أى : لتصرفنا عن الدين الذى وجدنا عليه آباءنا ، وتكون لك ولأخيك هارون ﴿الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ﴾ أى : السيادة والرياسة والزعامة الدينية والدنيوية فى الأرض بصفة عامة ، وفى أرض مصر بصفة خاصة .

ثم أكدوا إنكارهم لما جاءهم به موسى ـ عليه السلام ـ من الدين الحق فقالوا ـ كما حكى القرآن عنهم ـ ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ أى : وما نحن لكما بمصدقين فيما جئتما به ، لأن تصديقنا لكما يخرجنا عن الدين الذى وجدنا عليه آباءنا ، وينزع منا ملكنا الذى تتمتع بكبريائه خاصتنا ، وتعيش تحت سلطانه وقهره عامتنا .

وأفردوا موسى ـ عليه السلام ـ بالخطاب فى قولهم : ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا . .﴾ لأنه هو الذى كان يجابههم بالحجج التى تقطع دابر باطلهم ، ويرد على أكاذيبهم بما يفضحهم ويكشف عن غرورهم وغبائهم .

وجمعوا بين موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ فى قولهم ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ باعتبار شمول الكبرياء والرياسة والملك لهما وباعتبار أن الإيمان بأحدهما يستلزم الإيمان بالآخر .

هذا ، والذى يتدبر هذه الآية الكريمة ، يرى أن التهمة التى وجهها فرعون وملؤه إلى موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ هى تهمة قديمة جديدة فقوم نوح ـ مثلا ـ يمتنعون عن قبول دعوته ، لأنه فى نظرهم جاء بما جاء به بقصد التفضل عليهم ، وفى هذا يقول القرآن

الكريم : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ. فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ ،(١) أى : يريد أن تكون له السيادة والفضل عليكم فيكون زعيما وأنتم له تابعون .

١٥ - وفى سورة «الإسراء» نرى مشادة عنيفة ، ومحاورات تحمل التهديد والوعيد من جانب فرعون لموسى - عليه السلام - ومن جانب موسى لفرعون ، كما نرى فيها سوء عاقبة فرعون بسبب كفره وفجوره .

وهذه الآيات تبدأ بقوله - تعالى - :

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

والمراد بالآيات التسع فى قوله - تعالى - : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ . . ﴾ : العصا ، واليد ، والسنون ، والبحر ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، قال ذلك ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم .

والمعنى : لاتظن - أيها الرسول الكريم - أن إيمان هؤلاء المشركين من قومك ، متوقف على إجابة ما طلبوه منك ، وما اقترحوه عليك من أن تفجر لهم من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب . . إلخ ،لاتظن ذلك .

(١) سورة المؤمنون الآيتان ٢٣ ، ٢٤ .

فإن الخوارق مهما عظمت لاتنشىء الإيمان فى القلوب الجاحدة الحاقدة ، بدليل أننا قد أعطينا أخاك موسي تسع معجزات ، واضحات الدلالة على صدقه فى نبوته ، ولكن هذه المعجزات لم تزد المعاندين من قومه إلا كفرا على كفرهم ورجسا على رجسهم ، فاصبر - أيها الرسول - على تعنت قومك وأذاهم ، كما صبر أولو العزم من الرسل قبلك .

هذا . . والخطاب فى قوله - تعالى - : ﴿ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ ﴾ للنبى ﷺ والمسئولون هم المؤمنون من بنى إسرائيل كعبد الله بن سلام وأصحابه .

والمعنى : ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ، وقت أن أرسله الله - تعالى - إلى فرعون وقومه ، فاسأل - أيها الرسول الكريم - المؤمنين من بنى إسرائيل عن ذلك ، فستجد منهم الجواب عما جرى بين موسى وأعدائه عن طريق ما طالعوه فى التوراة .

والمقصود بسؤالهم : الاستشهاد بهم حتى يزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم ، لأن من شأن الأدلة إذا تضافرت وتعددت ، أن تكون أقوى وأثبت فى تأييد المدعى .

والفاء فى قوله : ﴿ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُوراً ﴾ هى الفصيحة : إذ المعنى : فامتثل موسى أمرنا ، وسأل بنى إسرائيل عن أحوالهم ، وطلب من فرعون أن يرسلهم معه ، بعد أن أظهر له من المعجزات مايدل على صدقه ، فقال فرعون لموسى على سبيل التعالى والتهوين من شأنه - عليه السلام - يا موسى إنى لأظنك مسحورا .

أى : سُحرت فخولط عقلك واختل ، وصرت تتصرف تصرفا يتنافى مع العقل السليم ، وتدعى دعاوى لاتدل على تفكير قويم .

وهذا شأن الطغاة فى كل زمان ومكان ، عندما يرون الحق قد أخذ يحاصرهم ، ويكشف عن ضلالهم وكذبهم ، يرمون أهله - زورا وبهتانا - بكل نقيصة .

وهنا يحكى القران الكريم ما رد به موسى علي فرعون فيقول : ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ ﴾ .

أى : قال موسي لفرعون ردا على كذبه وافترائه : لقد علمت يافرعون أنه ما أوجد هذه الآيات التسع إلا الله - تعالى - خالق السموات والأرض ، وقد أوجدها - سبحانه - بصورة واضحة جلية ، حتى لكأنها البصائر فى كشفها للحقائق وتجليتها .

فقوله : ﴿ بَصَائِرَ ﴾ حال من ﴿ هَؤُلاءِ ﴾ أى : أنزل هذه الآيات حال كونها بينات واضحات تدلك على صدقى .

وفى هذا الرد توبيخ لفرعون على تجاهله الحقائق ، حيث كان يعلم علم اليقين أن

موسى ـ عليه السلام ـ ليس مسحورا ولا ساحرا ، وأن الآيات التى جاء بها إنما هى من عند الله ـ تعالى ـ .

وقوله : ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً ﴾ توبيخ آخر لفرعون ، وتهديد له ؛ لأنه وصف نبيا من أنبياء الله ـ تعالى ـ بأنه مسحور .

ومثبورا بمعنى مهلك مدمر ، يقال : ثبر الله ـ تعالى ـ الظالم يثبره ثبورا ، إذا أهلكه .

أو بمعنى مصروفا عن الخير ، مطبوعا على الشر من قولهم : ما ثبرك يا فلان عن هذا الأمر؟ أى : ما الذى صرفك ومنعك عنه .

والظن هنا بمعنى اليقين ، والمعنى ؛ وإنى لأعتقد يا فرعون أن مصيرك إلى الهلاك والتدمير ، بسبب إصرارك على الكفر والطغيان ، من بعد إتيانى بالمعجزات الدالة على صدقى فيما أبلغه عن ربى الذى خلقنى وخلقك وخلق كل شىء .

ثم حكى القرآن بعد ذلك ماهم به فرعون ، بعد أن أخرسه موسى ـ عليه السلام ـ بقوة حجته ، وثبات جنانه فقال : ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الأَرْضِ ﴾ .

أى : فأراد فرعون بعد أن وبخه موسى وهدده ، أن يطرده وقومه من أرض مصر التى يسكنون معه فيها ، وأن يقطع دابرهم .

كما أشار إلى ذلك ـ سبحانه ـ فى قوله : ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) ﴾ [الأعراف] .

ثم حكى ـ سبحانه ـ ماترتب على ما أراده فرعون من استفزاز لموسى وقومه فقال : ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا . وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ ﴾ .

أى : أراد فرعون أن يطرد موسى وقومه من أرض مصر ، وأن يهلكهم ، فكانت النتيجة أن عكسنا عليه مكره وبغيه حيث أهلكناه هو وجنده بالغرق ، دون أن نستثنى منهم أحدا .

وقلنا من بعد هلاكه لبنى إسرائيل على لسان نبينا موسى ـ عليه السلام ـ : «اسكنوا الأرض التى أراد أن يستفزكم منها فرعون وهى أرض مصر .

قال الآلوسى : وهذا ظاهر إن ثبت أنهم دخلوها بعد أن خرجوا منها ، وبعد أن أغرق الله فرعون وجنده ، وإن لم يثبت فالمراد من بنى إسرائيل : ذرية أولئك الذين أراد فرعون استفزازهم ، واختار غير واحد أن المراد من الأرض ـ الأرض المقدسة ـ وهى أرض الشام .[1]

---

(١) تفسير الآلوسى جـ١٥ ص١٨٦ .

وعلى أية حال فالآية الكريمة تحكى سنة من سنن الله - تعالى - فى إهلاك الظالمين ، وفى توريث المستضعفين الصابرين أرضهم وديارهم .

ورحم الله الإمام ابن كثير ، فقد قال عند تفسيره لهذه الآية ، وفى هذا بشارة لمحمد ﷺ بفتح مكة ، مع أن هذه السورة نزلت قبل الهجرة ، وكذلك وقع ، فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول ﷺ منها ، كما قال - تعالى - : ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ ولهذا أورث الله - تعالى - رسوله مكة ، فدخلها ، وقهر أهلها ، ثم أطلقهم حلما وكرما ، كما أورث الله القوم الذين كانوا مستضعفين من بنى إسرائيل ، مشارق الأرض ومغاربها ، وأورثهم بلاد فرعون» .(١)

ثم ختم - سبحانه - الآيات الكريمة بقوله : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ .

أى : فإذا جاء وعد الدار الآخرة ، أى : الموعد الذى حدده الله - تعالى - لقيام الساعة ، أحييناكم من قبوركم ، وجئنا بكم جميعا أنتم وفرعون وقومه ، مختلطين أنتم وهم ، ثم نحكم بينكم وبينهم بحكمنا العادل .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد حكت لنا جانبا مما دار بين موسى - عليه السلام - وبين فرعون من محاورات ومجادلات ، وبينت لنا سنة من سنن الله - تعالى - التى لاتتخلف فى نصرة المؤمنين ، ودحر الكافرين .

١٦ - مرحلة مبارزة موسى للسحرة ، وما قاله فرعون لهم ، وما قالوه له ، والنتيجة :

وهذه المرحلة من قصة موسى - عليه السلام - زاخرة بالعظات والعبر ، التى نراها من خلال محاورة موسى للسحرة ، ومن خلال محاورتهم لفرعون ، ووعده لهم بالعطايا السخية .

وقد وردت هذه المبارزة فى مواطن متعددة من سور القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله - تعالى - فى سورة «الأعراف» .

وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٥ ص١٢٤ .

﴿ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ. قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ .

أى : وأقبل السحرة سريعا على فرعون بعد أن أرسل إليهم فقالوا له بلغة المحترف الذى مقصده الأول مما يعمله الأجر والعطاء : إن لنا لأجرا عظيما إن كانت لنا الغلبة على هذا الساحر العليم؟ فهم يستوثقون أولا من جزالة الأجر وضخامته ، وهنا يجيبهم فرعون بقوله : نعم لكم أجر مادى جزيل إذا انتصرتم عليه ، وفضلا عن ذلك فأنتم تكونون بهذا الانتصار من الظافرين بقربى وجوارى ، فهو يغريهم بالأجر المادى ويعدهم بالقرب المعنوى من قلبه ، تشجيعا لهم على الإجادة ، وهو وهم لايعلمون أن الموقف ليس موقف الاحتراف والمهارة والتضليل ، وإنما هو موقف المعجزة والرسالة والاتصال بالقوة التى لايستطيع الوقوف فى وجهها الساحرون ولا المتجبرون وغيرهم .

هذا ، وقد اختلف المفسرون فى عدد هؤلاء السحرة فقيل ؛ كانوا اثنين وسبعين ساحرا ، وقيل : كانوا أكثر من ذلك بكثير .

وبعد أن اطمأن السحرة على الأجر ، وتطلعت نفوسهم إليه ، يحكى لنا القرآن أنهم توجهوا إلى موسى بلغة الواثق من قوته ، المتحدى لخصمه : ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴾ .

أى : أنت يا موسى مخير بين أن تلقى عصاك أولا ، وبين أن نلقى نحن أولا وأنت

تفعل ما تشاء بعدنا ، وكأنهم يقولون له : وفى كلتا الحالتين فنحن على ثقة من الفوز والنصر فأرح نفسك واستسلم لنا مقدما .

ولقد حكى لنا القرآن فى سورة طه أن موسى نصحهم بعدم الدخول معه فى معركة هم الخاسرون فيها قطعا ، فقال : ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴾ . (١)

أما هنا فيحكى لنا القرآن أن موسى ـ عليه السلام ـ قد طلب منهم أن يلقوا أولا مستهينا بتحديهم له ، غير مبال بهم ولابمن جمعهم ، لأنه قد اعتمد على خالقه : ﴿ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ .

أى : قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون أولا ، فلما ألقوا ما كان معهم من الحبال والعصى ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ﴾ أى : خيلو إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة فى الخارج مع أنه لم يكن إلا مجرد صنعة وخيال ، ولذا لم يقل ـ سبحانه ـ سحروا الناس .

وقوله : ﴿ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾ أى : خوفوهم وأفزعوهم بما فعلوا من السحر ﴿ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ أى : فى باب السحر ، أو فى عين من رآه ، فإنه ألقى كل واحد منهم عصاه فصارت كأنها ثعابين .

والتعبير بقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾ تعبير مصور بليغ ، فهو يوحى بأنهم استجاشوا وجدان الناس قسرا ، وساقوهم سوقا بوسائل مصطنعة مفتعلة لاتستند إلى واقع سليم . روى أنهم ألقوا حبالا غلاظا وخشبا طوالا ، فإذا حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادى يركب بعضها بعضا .

وروى أنهم لونوا حبالهم وخشبهم وجعلوا فيها مايوهم الحركة ، قيل جعلوا فيها الزئبق .

ويمضى القرآن فيبين لنا أن هذا السحر العظيم الذى استرهب الناس وسحر أعينهم ، قد تهاوى فى لحظة ، وانطوى فى ومضة ، وزالت آثاره بعد أن قذفه موسى بسلاح الحق الذى سلحه به ربه ، استمع إلى القرآن وهو يحكى ذلك فيقول :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ . فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴾ .

---

(١) الآية ٦١ من سورة طه .

والمعنى : وأوحينا إلى موسى - بعد أن أوجس خيفة مما رآه من أمر السحرة - أن ألق عصاك ولاتخف إنك أنت الأعلى ، فألقاها فإذا هى تبتلع وتلتقم بسرعة ما يكذبون ويموهون به أولئك السحرة فوقع الحق . أى : ظهر وتبين وثبت الحق الذى عليه موسى ، وفسد وبطل ماكانوا يعملون من الحيل والتخييل وذهب تأثيره ، وترتب على ذلك أن أصابت الهزيمة المنكرة فرعون وملأه وسحرته فى ذلك المجمع العظيم ، الذى حشر الناس له فى يوم عيدهم وزينتهم ، وانقلب الجميع إلى بيوتهم صاغرين أذلاء بعد أن أنزل بهم موسى الخذلان والخيبة .

(وأنْ) فى قوله : ﴿أَنْ أَلْقِ﴾ يجوز أن تكون مفسرة لتقدم مافيه معنى القول دون حروفه وهو الإيحاء ، ويجوز أن تكون مصدرية فتكون هى وما بعدها مفعول الإيحاء .

وفى التعبير بقوله - سبحانه - : ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تجسيم لهذا الحق الذى كان عليه موسى ، وتثبيت واستقرار له ، حتى لكأنه شىء ذو ثقل نزل على شىء آخر خفيف الوزن فأزاله ومحاه من الوجود .

وهذه الآيات الكريمة تصور لنا كيف أن الباطل قد يسحر عيون الناس ببريقه لفترة من الوقت ، وقد يسترهب قلوبهم لساعة من الزمان ، حتى ليخيل إلى الكثيرين الغافلين أنه غالب وجارف ، ولكن ما أن يواجهه الحق الهادئ الثابت المستقر بقوته التى لاتغالب حتى يزهق ويزول ، وينطفئ كشعلة الهشيم ، وإذا بأتباع هذا الباطل يصيبهم الذل والصغار ، وهم يرون صروحهم تتهاوى ، وآمالهم تتداعى ، أمام نور الحق المبين ، وإذا بتحديهم الصريح ، وتطاولهم الأحمق يتحول إلى استسلا م مهين ، وذل مشين .

ثم يحكى لنا القرآن بعد ذلك موقف السحرة بعد أن رأوا بأعينهم أن ما فعله موسى - عليه السلام - ليس من قبيل السحر فقال : ﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ. وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ ، أى : خروا سجدا .

والمراد أن ظهور بطلان سحرهم ، وإدراكهم بأن موسى على الحق ، قد حملهم على السجود لله - تعالى - وأن نور الحق قد بهرهم وجعلهم يسارعون إلى الإيمان حتى لكأن أحدا قد دفعهم إليه دفعا ، وألقاهم إليه إلقاء .

وقوله : ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ أى : قال السحرة بعد أن تبين لهم الحق وخروا ساجدين لله ، آمنا بمالك أمر العالمين ومدبر شئونهم ، والمتصرف فيهم ، ألا وهو ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ الذى لا إله سواه .

وهكذا نرى أثر الحق عندما تخالط بشاشته القلوب الواعية ، لقد آمن السحرة وصرحوا بذلك أمام فرعون وشيعته ، لأنهم أدركوا عن يقين قطعى أن ما جاء به موسى - عليه السلام - ليس من قبيل السحر ، والعالم فى فنه هو أكثر الناس استعدادا للتسليم بالحقيقة حين تتكشف له ، ومن هنا فقد تحول السحرة من التحدى السافر إلى التسليم المطلق أمام صولة الحق الذى لايجحده إلا مكابر حقود .

ولكن فرعون وملأه لم يرقهم ما شاهدوا من إيمان السحرة ، ولم يدركوا لانطماس بصيرتهم فعل الإيمان فى القلوب ، فأخذ يتوعدهم بالموت الأليم ويحكى القرآن ذلك فيقول : ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ أى : قال فرعون منكرا على السحرة إيمانهم ، آمنتم برب موسى وهارون قبل أن آمركم أنا بذلك؟ فهو لغروره وجهله ظن أن الإيمان بالحق بعد أن تبين يحتاج إلى استئذان .

ثم أضاف إلى ذلك اتهامهم بأن إيمانهم لم يكن عن إخلاص ليصرف الناس عنهم فقال : ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ أى : إن ماصنعتموه من الإيمان برب موسى وهارون ليس عن اقتناع منكم بذلك ، بل هو حيلة احتلتموها أنتم وموسى قبل أن يلقى كل منكم بسحره ، لكى تخرجوا من مصر أهلها الشرعيين ، وتخلص لكم ولبنى إسرائيل .

وغرضه من هذا القول إفهام قبط مصر أن إيمان السحرة كان عن تواطؤ مع موسى ، وأنهم يهدفون من وراء ذلك إلى إخراجهم من أوطانهم ، فعليهم - أى القبط - أن يستمسكوا بدينهم وأن يعلنوا عداوتهم لموسى وللسحرة ولبنى إسرائيل .

ولاشك أن هذا لون من الكذب الخبيث أراد من ورائه فرعون صد الناس عن الإيمان بموسى - عليه السلام - .

ثم أتبع هذا الاتهام الباطل بالوعيد الشديد فقال : ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أى : فسوف تعلمون عاقبة ما فعلتم ، ثم فصل هذا الوعيد بقوله : ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ .

أى : أقسم لأقطعن من كل شق منكم عضوا مغايرا للآخر ، كاليد من الجانب الأيمن ، والرجل من الجانب الأيسر ، ثم لأصلبنكم أجمعين تفضيحا لكم ، وتنكيلا لأمثالكم ، ومع أن فرعون قد توعد هؤلاء المؤمنين بالعذاب والتشويه والتنكيل والموت القاسى البطىء المرهوب ، فإننا نراهم يقابلون كل ذلك بالصبر الجميل ، والإيمان العميق ، والاستهانة ببطش فرعون وجبروته فيقولون له بكل ثبات واطمئنان : ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ أى : راجعون .

ثم قالوا له على سبيل الاستهزاء والتوبيخ ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ﴾ أى : وما تكره منا وتعيب إلا الإيمان بالله ، مع أن ما تكرهه منا وتعيبه علينا هو أعظم محاسننا ، لأنه خير الأعمال ، وأعظم المناقب ، فلا نعدل عنه طلبا لمرضاتك .

ثم ختموا مناقشتهم لفرعون بالانصراف عنه والالتجاء إلى الله - تعالى - فقالوا : ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ أى : يا ربنا أفض علينا صبرا واسعا لنثبت على دينك ، وتوفنا إليك حالة كوننا مسلمين لك مذعنين لأمرك ونهيك ، مستسلمين لقضائك .

وبذلك يكون السحرة قد ضربوا للناس فى كل زمان ومكان أروع الأمثال فى التضحية من أجل العقيدة ، وفى الوقوف أمام الطغيان بثبات وعزة ، وفى الصبر على المكاره والآلام ، وفى المسارعة إلى الدخول فى الطريق الحق بعد أن تبين لهم ، وفى التعالى عن كل مغريات الحياة .

قال قتادة : كانوا فى أول النهار كفارا سحرة ، وفى آخره شهداء بررة ، فرضى الله عنهم وحشرنا فى زمرتهم .

١٧ - وفى سورة «طه» ست عشرة آية قصت علينا بصورة مفصلة ، تلك المحاورات التى دارت بين موسى - عليه السلام - وبين السحرة ، والتى انتهت بانتصار موسى عليهم ، وبمسارعتهم إلى الدخول فى الدين الحق ، كما تحكى لنا أن موسى - عليه السلام - قبل أن يبارزهم نصحهم بالعدول عن هذه المبارزة التى تنتهى بفشلهم ، وتبدأ هذه الآيات بقوله - تعالى - :

قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ

فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾

فقوله ـ تعالى ـ : ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ . . ﴾ حكاية لما وجهه موسى ـ عليه السلام ـ من نصح وإنذار ، بعد أن جمعهم فرعون ومناهم بالهدايا إن انتصروا على موسى ـ عليه السلام ـ .

أى : قال موسى ـ عليه السلام ـ للسحرة الذين التقى بهم وجها لوجه بعد أن حشدهم فرعون أمامه ، فقال لهم : الويل والهلاك لكم ، ولا تفتروا على الله ـ تعالى ـ كذبا ، بأن تقفوا فى وجهى ، وتزعموا أن معجزاتى هى نوع من السحر فإنكم لو فعلتم ذلك أهلككم الله ـ تعالى ـ وأبادكم بعذاب عظيم من عنده .

وجملة ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴾ معترضة لتقرير وتأكيد ما قبلها .

أى : وقد خاب وخسر كل من قال على الله ـ تعالى ـ قولا باطلا لا حقيقة له ، وفرعون أول المبطلين المفترين الخاسرين ، فاحذروا أن تسيروا فى ركابه ، أو أن تطيعوا له أمرا .

ويبدو أن هذه النصيحة الصادقة المخلصة كان لها أثرها الطيب فى نفوس بعض السحرة ، بدليل قوله ـ تعالى ـ بعد ذلك ﴿ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴾ ، والنجوى : المسارة فى الحديث .

أى : وبعد أن سمع السحرة من موسى نصيحته لهم وتهديده إياهم بالاستئصال والهلاك ، إذا ما استمروا فى ضلالهم ، اختلفوا فيما بينهم ، ﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴾ أى : وبالغوا فى إخفاء ما يسارون به عن موسى وأخيه ـ عليهما السلام ـ .

فمنهم من قال ـ كما روى عن قتادة ـ إن كان ما جاءنا به موسى سحرا فسنغلبه ، وإن كان من عند الله فسيكون له أمر .

ومنهم من قال بعد أن سمع كلام موسى : ما هذا بقول ساحر .

ومنهم من أخذ فى حض زملائه المترددين على منازلة موسى ـ عليه السلام ـ لأنه جاء هو وأخوه لتغيير عقائد الناس ولاكتساب الجاه والسلطان، ولسلب المنافع التى تأتى لهم أى للسحرة عن طريق السحر.

ويبدو أن هذا الفريق الأخير هو الذى استطاع أن ينتصر على غيره من السحرة فى النهاية، بدليل قوله ـ تعالى ـ بعد ذلك: ﴿قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ . فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾.

فهاتان الآيتان تشيران إلى خوف السحرة من موسى وهارون، وإلى أنهم بذلوا أقصى جهدهم فى تجميع صفوفهم، وفى تشجيع بعضهم لبعض، حتى لايستلب موسى ـ عليه السلام ـ منهم جاههم وسلطانهم ومنافعهم.

أى: قال السحرة بعضهم لبعض بطريق التناجى والإسرار، وما استقر عليه رأيهم، من أن موسى وهارون ساحران ﴿يُرِيدَانِ﴾ عن طريق سحرهما أن يخرجا السحرة من أرضهم مصر: ليستوليا هما وأتباعهما عليها.

ويريدان كذلك أن يذهبا بطريقتكم المثلى، أى: بمذهبكم ودينكم الذى هو أمثل المذاهب وأفضلها، وبملككم الذى أنتم فيه، وبعيشكم الذى تنعمون به.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾ أى: إذا كان الأمر كذلك من أن موسى وهارون قد حضرا ليخرجاكم من أرضكم بسحرهما، فأحكموا سحركم وأعزموا عليه ولاتجعلوه متفرقا.

﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ أى: ثم ائتوا جميعا مصطفين، حتى يكون أمركم أكثر هيبة فى النفوس، وأعظم وقعا على القلوب، وأدعى إلى الترابط والثبات، وقوله: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾ تذييل مؤكد لما قبله.

أى: وقد أفلح وفاز بالمطلوب فى يوم النزال من طلب العلو، وسعى من أجله، واستطاع أن يتغلب على خصمه، لأننا إذا تغلبنا على موسى كانت لنا الجوائز العظمى، وإذا تغلب علينا خسرنا خسارة ليس هناك ماهو أشد منها.

وحانت ساعة المبارزة والمنازلة، فتقدم السحرة نحو موسى ـ عليه السلام ـ وقالوا له ـ كما حكى القرآن عنهم ـ: ﴿..يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾

أى : قال السحرة لموسى على سبيل التخيير الذى يبدو فيه التحدى والتلويح بالقوة : يا موسى إما أن تلقى أنت عصاك قبلنا ، وإما أن تتركنا لنلقى حبالنا وعصينا قبلك .

ثم حكى القرآن بعد ذلك أن موسى - عليه السلام - ترك فرصة البدء لهم ، واستبقى لنفسه الجولة الأخيرة ، فقال - تعالى - : ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ .

أى : قال لهم موسى بل ألقوا أنتم أولا ، فامتثلوا أمره ، وألقوا ما معهم ، فإذا حبالهم وعصيهم التى طرحوها ، جعلت موسى - لشدة اهتزازها واضطرابها - يخيل إليه من شدة سحرهم ، أن هذه الحبال والعصى حيات تسعى على بطونها .

ويبدو أن فعل السحرة هذا ، قد أثر فى موسى - عليه السلام - بدليل قوله - تعالى - : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ .

والإيجاس : الإخفاء والإضمار ، والخيفة : الخوف ، أى : فأخفى موسى - عليه السلام - فى نفسه شيئا من الخوف ، حين رأى حبال السحرة وعصيهم كأنها حيات تسعى على بطونها ، وخوفه هذا حدث له بمقتضى الطبيعة البشرية عندما رأى هذا الأمر الهائل من السحر ، وبمقتضى أن يؤثر هذا السحر فى نفوس الناس فيصرفهم عما يفعله .

وهنا ثبته الله - تعالى - وقواه ، وأوحى إليه - سبحانه - بقوله : ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴾ .

أى : قلناله عندما أوجس فى نفسه خيفة من فعل السحرة : لاتخف يا موسى مما فعلوه ، إنك أنت الأعلى عليهم بالغلبة والظفر ، وأنت الأعلى ؛ لأن معك الحق ومعهم الباطل .

وقد أكد الله - تعالى - هذه البشارة لموسى بجملة من المؤكدات أحدها : إن المؤكدة ، وثانيها : تكرير الضمير ، وثالثها : التعبير بالعلو المفيد للاستعلاء عليهم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ﴾ زيادة فى تشجيعه وتثبيته .

والمعنى : وألق يا موسى ما فى يمينك تبتلع كل ما صنعه السحرة من تمويه وتزوير وتخييل ، جعل الناس يتوهمون أن حبالهم وعصيهم تسعى .

قال ابن كثير : وذلك أنها صارت تنينا هائلا - أى حية عظيمة - ذا عيون وقوائم ، وعنق ورأس وأضراس ، فجعلت تتبع تلك الحبال والعصى حتى لم تبق منها شيئا إلا تلقفته

وابتلعته ، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عيانا جهارا نهارا ، فقامت المعجزة ، واتضح البرهان ، وبطل ما كانوا يعملون .[1]

وقوله : ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ﴾ تعليل لقوله : ﴿ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ﴾ .

والتقدير : وألق يا موسى عصاك تلقف ما صنعوه فإن الذى صنعوه إنما هو كيد من جنس كيد السحرة وصنعهم وتمويههم .

﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ ﴾ أى : ولايفوز هذا الجنس من الناس ﴿ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ أى : حيث كان ، أى : أن الساحر لايفلح ولايفوز أينما كان ، وحيثما أقبل ، وأنّى اتجه ، لأنه يصنع للناس التخييل والتمويه والتزوير والتزييف للحقائق .

ثم كانت بعد ذلك المفاجأة الكبرى فقد آمن السحرة حين رأوا ما رأوا بعد أن ألقى موسى ما فى يمينه ، قال ـ تعالى ـ : ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ .

أى : فزال الخوف ، وألقى موسى ما في يمينه ، وصارت حية ، وتلقفت حبالهم وعصيهم ، وعلم السحرة أن ذلك معجزة ، فخروا سجدا لله على وجوههم قائلين آمنا برب هارون وموسى .

والحق أن التعبير بقوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا .. ﴾ يدل على قوة البرهان الذى عاينوه ، حتى لكأنهم أمسكهم إنسان وألقاهم ساجدين بالقوة لعظم المعجزة التى عاينوها ، وأطلق ـ سبحانه ـ عليهم اسم الحسرة فى حال سجودهم له ـ تعالى ـ وإيمانهم به ، نظرا إلى حالهم الماضية .

وهكذا النفوس النقية عندما يتبين لها الحق ، لاتلبث أن تفئ إليه ، وتستجيب لأهله ، قال الكرخى : خروا ساجدين لله لأنهم كانوا فى أعلى طبقات السحر ، فلما رأوا ما فعله موسى خارجا عن صناعتهم ، عرفوا أنه ليس من السحر ألبتة .[2]

وقال صاحب الكشاف : «ما أعجب أمرهم ، قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ، ثم ألقوا رؤوسهم بعد ساعة للشكر والسجود ، فما أعظم الفرق بين الإلقاءين» .[3]

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك ما توعد فرعون به السحرة ، وموقفهم من هذا الوعيد فقال ـ تعالى ـ :

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٥ ص٢٩٦ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ٣ ص١٠١

(٣) تفسير الكشاف جـ٣ ص٧٥ .

قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾

أى : قال فرعون للسحرة بعد أن شاهدهم وقد خروا لله - تعالى - ساجدين : ﴿آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ أى : هل آمنتم لموسى وصدقتموه فى دعوته وانقدتم له ، قبل أن أعطيكم الإذن بذلك ، فالاستفهام للتقريع والتهديد .

﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ أى : أن موسى الذى انقدتم له لهو كبيركم وشيخكم الذى علمكم فنون السحر ، فأنتم تواطأتم معه ، وآمنتم به لأنكم من أتباعه .

وغرضه من هذا القول صرف الناس عن التأسى بهم ، وعن الإيمان بالحق الذى آمن به السحرة والظهور أمام قومه بمظهر الثبات والتماسك بعد أن استبد به وبهم الخوف والهلع ، من هول ما رأوه .

ثم أضاف إلى قوله هذا تهديدا أشد فقال : ﴿فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ .

أى : فوالله لأقطعن أيديكم اليمنى - مثلا - مع أرجلكم اليسرى ، ولأصلبنكم على جذوع النخل ، لتكونوا عبرة لغيركم ممن تسول له نفسه أن يفعل فعلكم .

فالمراد من قوله : ﴿مِّنْ خِلافٍ﴾ أى : من الجهة المخالفة أو من الجانب بأن يقطع اليد اليمنى ومعها الرجل اليسرى ، لأن ذلك أشد على الإنسان من قطعهما من جهة واحدة إذ قطعهما من جهة واحدة يبقي عنده شيء كاملٌ صحيح ، بخلاف قطعهما من جهتين مختلفتين فإنه إفساد للجانبين .

واختار أن يصلبهم فى جذوع النخل ، لأن هذه الجذوع أخشن من غيرها والتصليب عليها أشق من التصليب على غيرها ، وأظهر للرائى لعلوها عن سواها ، فهو لطغيانه وفجوره اختار أقسى ألوان العذاب ليصبها على هؤلاء المؤمنين .

وقوله : ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ تهديد فوق تهديد ، ووعيد إثر وعيد أى : والله لتعلمن أيها السحرة أينا أشد تعذيبا لكم ، وأبقى فى إنزال الهلاك بكم ، أنا أم موسى وربه .

وكأنه بهذا التهديد يريد أن يهون من كل عذاب سوى عذابه لهم ، ومن كل عقاب غير عقابه إياهم .

ثم حكى - سبحانه - أن السحرة بعد أن استقر الإيمان فى قلوبهم ، قد قابلوا تهديد فرعون لهم بالاستخفاف وعدم الاكتراث فقال : ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾ .

أى : قال السحرة فى ردهم على تهديد فرعون لهم : لن نختارك يا فرعون ولن نرضى بأن نكون من حزبك ، ولن نقدم سلامتنا من عذابك ، على ما ظهر لنا من المعجزات التى جاءنا بها موسى ، والتى على رأسها عصاه التى ألقاها فإذا هى تبتلع حبالنا وعصينا .

وجملة ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ الواو فيها للعطف على «ما» فى قوله : ﴿مَا جَاءَنَا﴾

أى : لن نختارك يا فرعون على الذى جاءنا من البينات على يد موسى ، ولا على الذى فطرنا أى : خلقنا وأوجدنا فى هذه الحياة .

ويصح أن تكون هذه الواو للقسم ، والموصول مقسم به ، وجواب القسم محذوف دل عليه ما قبله ، والمعنى : وحق الذى فطرنا لن نؤثرك يا فرعون على ما جاءنا من البينات .

وقوله : ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾ تصريح منهم بأن تهديده لهم لا وزن له عندهم ، ورد منهم على قوله : ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ .

أى : لن نقدم طاعتك على طاعة خالقنا بعد أن ظهر لنا الحق ، فافعل ما أنت فاعله ،

ونفذ ما تريد تنفيذه فى جوارحنا ، فهى وحدها التى تملكها ، أما قلوبنا فقد استقر الإيمان فيها ، ولاتملك شيئا من صرفها عما آمنت به .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا ﴾ تعليل لعدم مبالاتهم بتهديده لهم .

أى : افعل يا فرعون ما أنت فاعله بأجسامنا ، فإن فعلك هذا إنما يتعلق بحياتنا فى هذه الحياة الدنيا ، وهي سريعة الزوال ، وعذابها أهون من عذاب الآخرة .

﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا ﴾ وخالقنا ومالك أمرنا ﴿ لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا ﴾ السالفة ، التى اقترفناها بسبب الكفر والإشراك به - سبحانه - .

﴿ و ﴾ ليغفر لنا ﴿ مَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ﴾ لكى نعارض به موسى - عليه السلام - معارضة من هو على الباطل لمن هو على الحق ، وقد كنا لانملك أن نعصيك .

وخصوا السحر بالذكر مع دخوله فى خطاياهم ، للإشعار بشدة نفورهم منه ، وبكثرة كراهيتهم له بعد أن هداهم الله إلى الإيمان .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ تذييل قصدوا به الرد على قول فرعون لهم : ﴿ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾ .

أى : والله - تعالى - خير ثوابا منك يا فرعون ، وأبقى جزاء وعطاء ، فإن ثوابه - سبحانه - لانقص معه ، وعطاءه أبقى من كل عطاء .

وقوله - عز وجل - : ﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا . . ﴾ يصح أن يكون كلاما مستأنفا ساقه الله - تعالى - لبيان سوء عاقبة المجرمين وحسن عاقبة المؤمنين .

ويصح أن يكون من بقية كلام السحرة فى ردهم على فرعون .

والمعنى : ﴿ إِنَّهُ ﴾ أى : الحال والشأن ﴿ مَن يَأْتِ رَبَّهُ ﴾ يوم القيامة فى حال كونه ﴿ مُجْرِمًا ﴾ .

أى : مرتكبا لجريمة الكفر والشرك بالله - تعالى - ﴿ فَإِنَّ لَهُ ﴾ أى : لهذا المجرم ﴿ جَهَنَّمَ ﴾ يعذب فيها عذابا شديدا من مظاهره أنه ﴿ لَا يَمُوتُ فِيهَا ﴾ فيستريح ﴿ وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ حياة فيها راحة .

ثم بين ـ سبحانه ـ حسن عاقبة المؤمنين فقال : ﴿ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا ﴾ به إيمانا حقا ، و﴿ قَدْ عَمِلَ ﴾ الأعمال ﴿ الصَّالِحَاتِ ﴾ بجانب إيمانه ، ﴿ فَأُوْلَئِكَ ﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿ لَهُمُ ﴾ بسبب إيمانهم وعملهم الصالح ﴿ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴾ أى : المنازل الرفيعة والمكانة السامية .

وقوله : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ بدل من الدرجات العلى .

أى : لهم جنات باقية دائمة تجرى من تحت أشجارها وثمارها الأنهار ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ خلودا أبديا

﴿ وَذَلِكَ ﴾ العطاء الجزيل الباقى جزاء من تزكى ، أى : من تطهر وتجرد من دنس الكفر والمعاصى .

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد صورت لنا بأسلوبها البليغ المؤثر ، تلك المحاورات التى دارت بين موسى وفرعون والسحرة ، والتى انتهت بانتصار الحق ، واندحار الباطل .

١٨ ـ وفى سورة الشعراء تصوير بليغ لتلك المبارزة التى دارت بين موسى ـ عليه السلام ـ وبين السحرة ، ومن الآيات التى حكم ذلك قوله ـ تعالى ـ :

قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾

أى : قال موسى للسحرة بعد أن أعدوا عدتهم لمنازلته ، ومن خلفهم فرعون وقومه يشجعونهم على الفوز قال لهم : ﴿ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴾ من السحر ، فسوف ترون عاقبة منازلتكم لى .

وأسلوب الآية الكريمة يشعر بعدم مبالاة موسى - عليه السلام - بهم أو بتلك الحشود التى من ورائهم ، فهو مطمئن إلى نصر الله - سبحانه - له .

﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا ﴾ أى : عند إلقائهم لتلك الحبال والعصى ﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ ﴾ أى : بقوته وجبروته وسطوته ﴿ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ لا موسى - عليه السلام - ولم تفصل السورة هنا ما فصلته سورة «الأعراف» من أنهم حين ألقوا حبالهم وعصيهم ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ أو ما وضحته سورة «طه» من أنهم حين ألقوا حبالهم : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ . . . ﴾ .

ولعل السر فى عدم التفصيل هنا ، أن السورة الكريمة تسوق الأحداث متتابعة تتابعا سريعا ، تربط معها قلب القارئ وعقله عما تسفر عنه هذه الأحداث من ظهور الحق ، ومن دحور الباطل .

ولذا جاء التعقيب السريع بما فعله موسى - عليه السلام - فقال - تعالى - : ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ ﴾ أى : تبتلع بسرعة ، وتأخذ بقسوة ﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ أى : ما فعلوه وما يفعلونه من السحر ، الذى يقلبون به حقائق الأشياء عن طريق التمويه والتخييل ، ورأى السحرة بأعينهم ومعهم الحشود من خلفهم ، رأوا ما أجراه الله - تعالى - على يد موسى - عليه السلام - رأوا كل ذلك فذهلوا وبهروا وأيقنوا أن ما جاء به موسى ليس سحرا وإنما هو شىء آخر فوق طاقة البشر ، ولو كان سحرا لعرفوه فهم رجاله ، وأيضا لو كان سحرا لبقيت حبالهم وعصيهم على الأرض ، ولكنها ابتلعتها عصا موسى - عليه السلام - عندئذ لم يتمالكوا أنفسهم ، بل فعلوا ما حكاه القرآن عنهم فى قوله - سبحانه - : ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴾ أى : فخروا ساجدين على وجوههم بدون تردد ، وهم يقولون : ﴿ آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ .

وهكذا بعد أن شاهد السحرة الحق يتلألأ أمام أبصارهم ، لم يملكوا إلا أن ينطقوا به على رؤوس الأشهاد ، وتحولوا من قوم يلتمسون الأجر من فرعون قائلين : أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين إلى قوم آخرين هجروا الدنيا ، ومغانمها ، واستهانوا بالتهديد والوعيد ، ونطقوا بكلمة الحق فى وجه من كانوا يقسمون بعزته إنا لنحن الغالبون .

وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول فى حديثه الذى رواه الشيخان : «مامن قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن ، إن شاء أقامه ، وإن أشاء أزاغه» .

ثم يحكى ـ سبحانه ـ بعد ذلك موقف فرعون وقد رأى ما حطمه وزلزله فقال ـ تعالى ـ : ﴿ قَالَ ﴾ أى : فرعون للسحرة ﴿ آمَنتُمْ لَهُ ﴾ أى : لموسى ﴿ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾ بالإيمان به .

﴿ إِنَّهُ ﴾ أى : موسى ـ عليه السلام ـ ﴿ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ أى : فأنتم متواطئون معه على هذه اللعبة ﴿ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ما أنزله بكم من عذاب .

﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ﴾ أى : لأقطعن من كل واحد منكم يده اليمنى مع رجله اليسرى ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أى : فى جذوع النخل ـ كما جاء فى آية أخرى ـ والمتأمل فى قول فرعون كما حكاه القرآن عنه يرى فيه الطغيان والكفر ، فهو يستنكر على السحرة إيمانهم بدون إذن ، ويرى فيه الكذب الباطل الذى قصد من ورائه تشكيك قومه فى صدق موسى وفى نبوته فهو يقول لهم : ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ .

ويرى فيه بعد هذا التلبيس على قومه ، التهديد الغليظ ـ شأن الطغاة فى كل زمان ومكان ـ فهو يقول للسحرة الذين صاروا مؤمنين : ﴿ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أى : بدون استثناء لواحد منهم .

ولم يلتفت السحرة إلى هذا التهديد والوعيد بعد أن استقر الإيمان فى قلوبهم ، بل قالوا ـ كما حكى القرآن عنهم ـ : ﴿ لَا ضَيْرَ ﴾ مصدر ضاره الأمر يضوره ويضيره ضيرا ، أى : ضره وألحق به الأذى .

أى : قالوا ـ بكل ثبات وعدم مبالاة بوعيده ـ لا ضرر علينا من عقابك فسنتحمله صابرين فى سبيل الحق الذى آمنا به .

﴿ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ أى : راجعون إليه ، فيجازينا على صبرنا .

﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا ﴾ التى وقعنا فيها قبل الإيمان ، كعبادة فرعون وكتعاطى السحر ﴿ أَن كُنَّا ﴾ أى : لأن كنا ﴿ أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بالحق بعد أن جاءنا .

وفى سورة «يونس» أربع آيات تحكى لنا ما طلبه فرعون من حاشيته ، وما نصح به موسى ـ عليه السلام ـ السحرة وما اقتضته سنة الله ـ عز وجل ـ من جعل العاقبة للمتقين .

وهذه الآيات فى قوله - تعالى - :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ ۖ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

أى : وقال فرعون لخاصته بعد أن رأى من موسى الإصرار على دعوته ودعوة قومه إلى عبادة الله وحده ، وبعد أن شاهد عصاه وقد تحولت إلى ثعبان مبين .

قال فرعون لخاصته بعد أن رأى كل ذلك من موسى - عليه السلام - ﴿ ائْتُونِي ﴾ أيها الملأ ﴿ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ أى : بكل ساحر من أفراد مملكتى تكون عنده المهارة التامة فى فن السحر ، والخبرة الواسعة بطرقه وأساليبه .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ .. ﴾ معطوف على كلام محذوف يستدعيه المقام والتقدير : فامتثل القوم أمر فرعون وأسرعوا فى إحضار السحرة ، فلما جاءوا والتقوا بموسى - عليه السلام - وخيروه بقولهم : ﴿ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴾ .

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ ﴾ على سبيل التحدى ﴿ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴾ من ألوان سحركم ، ليرى الناس حقيقة فعلكم وليميزوا بين حقى وباطلكم .

﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا ﴾ أى : فلما ألقى السحرة حبالهم وعصيهم .

﴿ قَالَ ﴾ لهم ﴿ مُوسَىٰ ﴾ على سبيل السخرية مما صنعوه .

﴿ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ أى : قال لهم موسى : أيها السحرة إن الذى جئتم به هو السحر بعينه ، وليس الذى جئت به أنا مما وصفه فرعون وملؤه بأنه سحر مبين .

وإن الذى جئتم به سيمحقه الله ويزيل أثره من النفوس ، عن طريق ما أمرنى الله - سبحانه - من إلقاء عصاى ، فقد جرت سنته - سبحانه - أنه لايصلح عمل الذين يفسدون فى الأرض ولايصلحون ، وصنيعكم هذا هو من نوع الإفساد وليس من نوع الإصلاح .

وقوله : ﴿ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ تأكيد لسنة الله - تعالى - فى تنازع الحق والباطل ، والصلاح والفساد .

أى : أنه جرت سنة الله - تعالى - ألا يصلح عمل المفسدين ، بل يمحقه ويبطله ، وأنه - سبحانه - يحق الحق أى : يثبته ويقويه ويؤيده ﴿ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ النافذة ، وقضائه الذى لايرد ، ووعده الذى لايتخلف ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ ذلك لأن كراهيتهم لإحقاق الحق وإبطال الباطل ، لاتعطل مشيئة الله ، ولاتحول بين تنفيذ آياته وكلماته وقد كان الأمر كذلك فقد أوحى الله إلى موسى ﴿ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ . فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

وهكذا نرى أن المبارزة بين موسى - عليه السلام - وبين السحرة ، قد انتهت بنصرة الحق ، وخذلان الباطل ، وإيمان السحرة إيمانا عميقا صادقا .

١٩ - اشتداد ظلم فرعون وملئه لبنى إسرائيل ، بعد انتصار موسى - عليه السلام - على السحرة ، وبعد إيمانهم بالحق الذى جاء به موسى - عليه السلام - .

وقد قص علينا القرآن الكريم فى سور متعددة ، تلك التهديدات التى وجهها فرعون وقومه لموسى - عليه السلام - ولبنى إسرائيل ، ومن ذلك قوله - تعالى - فى سورة «الأعراف» .

وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾

أى : وقال الزعماء والوجهاء من قوم فرعون له ، بعد أن أصابتهم الهزيمة والخذلان فى معركة الطغيان والإيمان ، قالوا له على سبيل التهييج والإثارة : أتترك موسى وقومه أحرارا آمنين فى أرضك ، ليفسدوا فيها بإدخال الناس فى دينهم ، أو جعلهم تحت سلطانهم ورياستهم .

وروى أنهم قالوا له ذلك بعد أن رأوا عددا كبيرا من الناس ، قد دخل فى الإيمان متبعا السحرة الذين قالوا ﴿ آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾ معناه : أتتركهم أنت يعبدون رب موسى وهارون ، ويتركون عبادتك وعبادة آلهتك ، فيظهر للناس عجزك وعجزها ، فتكون الطامة الكبرى التى بها يفسد ملكك .

قال السدى : إن فرعون كان قد صنع لقومه أصناما صغارا وأمرهم بعبادتها ، وسمى نفسه الرب الأعلى .

والمتأمل فى هذا الكلام الذى حكاه القرآن عن الملأ من قوم فرعون ، يراه يطفح بأشد ألوان التآمر والتحريض ، فهم يخوفونه فقدان الهيبة والسلطان بتحطيم الأوهام التى يستخدمها السلطان ، لذا نراه يرد عليهم بمنطق الطغاة المستكبرين فيقول : ﴿ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ .

أى : لاتخافوا ولا ترتاعوا أيها الملأ فإن قوم موسى أهون من ذلك ، وسننزل بهم ما كنا نفعله معهم من قبل وهو تقتيل الأبناء ، وترك النساء أحياء ، وإنا فوقهم غالبون كما كنا ما تغير شىء من حالنا ، فهم الضعفاء ونحن الأقوياء ، وهم الأذلة ونحن الأعزة .

فأنت ترى أن ما قاله الملأ من قوم فرعون هو منطق حاشية السوء فى كل عهود الطغيان ، فهم يرون أن الدعوة إلى وحدانية الله إفساد فى الأرض ؛ لأنها ستأتى على بنيانهم من القواعد ، ولأنها هى الدعوة إلى وحدانية الله التى ستحرر الناس من ظلمهم وجبروتهم ، وتفتح العيون على النور الذى يخشاه أولئك الفاسقون .

وترى أن ما قاله فرعون هو منطق الطغاة المستكبرين دائما ، فهم يلجأون إلى قوتهم المادية ليحموا بها آثامهم ، وشهواتهم ، وسلطانهم القائم على الظلم ، والبطش ، والمنافع الشخصية .

ويبلغ موسى وقومه هذا التهديد والوعيد من فرعون وملئه فماذا قال موسى ـ عليه السلام ـ؟ لقد حكى القرآن عنه أنه لم يحفل بهذا التهديد بل أوصى قومه بالصبر ، ولوح

لهم بالنصر ، استمع إلى القرآن وهو يحكى قول موسى - عليه السلام - فيقول : ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

أى : قال موسى لقومه على سبيل التشجيع والتسلية حين ضجوا وارتعبوا من تهديدات فرعون وملئه : يا قوم استعينوا بالله فى كل أموركم ، واصبروا على البلاء ، فهذه الأرض ليست ملكا لفرعون وملئه ، وإنما هى ملك لله رب العالمين ، وهو - سبحانه - يورثها لمن يشاء من عباده ، وقد جرت سنته - سبحانه - أن يجعل العاقبة الطيبة لمن يخشاه ولا يخشى أحدا سواه .

بهذا الأسلوب المؤثر البليغ ، وبهذه الوصايا الحكيمة ، وصى موسى قومه بنى إسرائيل فماذا كان ردهم عليه؟ لقد كان ردهم يدل على سفاهتهم ، فقد قالوا له : ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ أى : قال بنو إسرائيل لموسى ردا على نصيحته لهم : لقد أصابنا الأذى من فرعون قبل أن تأتينا يا موسى بالرسالة ، فقد قتل منا ذلك الجبار الكثير من أبنائنا وأنزل بنا ألوانا من الظلم ، والاضطهاد وأصابنا الأذى بعد أن جئتنا بالرسالة كما ترى من سوء أحوالنا ، واشتغالنا بالأشغال الحقيرة المهينة ، فنحن لم نستفد من رسالتك شيئا ، فإلى متى نسمع منك تلك النصائح التى لاجدوى من ورائها؟

ومع هذا الرد السفيه من قوم موسى - عليه السلام - عليه ، نراه يرد عليهم بما يليق به فيقول : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ﴾ فرعون الذى فعل بكم ما فعل من أنواع الظلم وتوعدكم بما توعد من صنوف الاضطهاد .

﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : يجعلكم خلفاء فيها من بعد هلاكه هو وشيعته .

﴿ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ أى : فيرى - سبحانه - الكائن منكم من العمل ، حسنه وقبيحه ، ليجازيكم على حسب أعمالكم ، فإن استخلافكم فى الأرض من بعد هلاك أعدائكم ليس محاباة لكم ، وإنما هو استخلاف للاختبار والامتحان ، فإن أحسنتم زادكم الله من فضله ، وإن أسأتم كان مصيركم كمصير أعدائكم .

وفى التعبير «بعسى» الذى يدل على الرجاء أدب عظيم من موسى مع ربه - عز وجل - وتعليم للناس من بعده أن يلتزموا هذا الأدب السامى مع خالقهم ، وفيه كذلك منع لهم من الاتكال وترك العمل ، لأنه لو جزم لهم فى الوعد فقد يتركون السعى والجهاد اعتمادا على ذلك .

وقيل : إن موسى ساق لهم ما وعدهم به فى صيغة الرجاء لئلا يكذبوه ، لضعف نفوسهم بسبب ما طال عليهم من الذل والاستخذاء لفرعون وقومه ، واستعظامهم لملكه وقوته ، فكأنهم يرون أن ماقاله لهم موسى مستبعد الحصول ، لذا ساقه لهم فى صورة الرجاء .

٢٠ ـ وفى سورة «غافر» نجد بضع آيات ، تصور لنا بأسلوب مؤثر ، تلك التهم الباطلة التى وجهها فرعون وشيعته إلى موسى ـ عليه السلام ـ وتلك التهديدات الساخرة له ولقومه من بنى إسرائيل .

كما نرى فيها جانبا من تلك الدعوات الخاشعة التى تضرع بها موسى ـ عليه السلام ـ إلى خالقه ـ عز وجل ـ .

وتبدأ هذه الآيات بقوله ـ تعالى ـ :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾

والمراد بالسلطان المبين : الحجة القاهرة التى تغلب بها فى الحجاج والجدال على فرعون .

أى : والله لقد منحنا موسى ـ عليه السلام ـ بفضلنا وقدرتنا معجزات باهرات ، ومنحناه ـ أيضا ـ حجة قوية واضحة ، يدمر بها حجج أعدائه .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ . . ﴾ بيان لمن أرسله الله ـ تعالى ـ إليهم .

وفرعون : لقب لكل ملك من ملوك مصر فى تلك العهود السابقة ، والمراد به هنا : ذلك الملك الجبار الظالم الذى أرسل فى عهده موسى ـ عليه السلام ـ ، ويقال إنه «منفتاح» بن رمسيس الثانى .

و﴿ هَامَانَ ﴾ هو وزير فرعون و﴿ قَارُونَ ﴾ هو الذى كان من قوم موسى فبغى عليهم ، وأعطاه الله ـ تعالى ـ الكثير من الأموال ، ثم خسف به وبداره الأرض .

وخص ـ سبحانه ـ هؤلاء الثلاثة بالذكر ، مع أن رسالة موسى كانت لهم ولأتباعهم ، لأنهم هم الزعماء البارزون ، الذين كانوا يدبرون المكايد ضد موسى ـ عليه السلام ـ فيتبعهم العامة من أقوامهم .

وقوله : ﴿ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ بيان لما وصفوا به موسى ـ عليه السلام ـ أى : أرسلناه إلى هؤلاء الطغاة ومعه آياتنا الدالة على صدقه ، فكان جوابهم على دعوته إياهم إلى عبادة الله ـ تعالى ـ وحده ، أن قالوا فى شأنه إنه ساحر يموه على الناس بسحره ، وأنه كذاب فى دعواه أنه رسول من رب العالمين .

وهكذا كانت نتيجة أول لقاء بين موسى ـ عليه السلام ـ وبين هؤلاء الطغاة الظالمين ، أنهم وصفوه بالسحر والكذب ، وهو المؤيد بآيات الله ، وبحججه الظاهرة وما وصفوه بذلك إلا من أجل الحسد والعناد ، والحرص على دنياهم وملكهم .

ثم لم يكتفوا بهذا القول ، بل انتقلوا إلى مرحلة أخرى أشد وأطغى ، فقالوا ـ كما حكى القرآن عنهم ـ : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ . . ﴾ .

أى : فحين وصل إليهم موسى ـ عليه السلام ـ بدعوته ، وخاطبهم بما أمره الله ـ تعالى ـ أن يخاطبهم به ، وجابههم بالحق الذى زوده الله ـ تعالى ـ به .

ما كان منهم إلا أن قالوا ـ على سبيل التهديد والوعيد ـ : «اقتلوا الذكور من أبناء الذين آمنوا مع موسى ، ودخلوا فى دينه ، واتركوا الإناث بدون قتل لخدمتكم ، وليكون ذلك أبلغ فى إذلالهم ، إذ بقاء النساء بدون رجال فتنة كبيرة ، وذل عظيم .

والتعبير بقوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا ﴾ يشعر بأن هؤلاء الظالمين قد جاءهم الحق إلى بيوتهم ومساكنهم ، وأنهم لم يخرجوا لطلبه ، وإنما هو الذى جاءهم عن طريق موسى ، المؤيد بآيات الله ـ تعالى ـ .

والقائلون : ﴿ اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ﴾ هم الملأ من قوم فرعون الذين كانوا يزينون له الظلم والعدوان ، إرضاء له ، وإرهابا لموسى - عليه السلام - ولمن آمن معه .

قال الإمام الرازى : والصحيح أن هذا القتل كان غير القتل الذى وقع فى وقت ولادة موسي ، لأن القتل فى ذلك الوقت كان بسبب أن المنجمين قد أخبروا فرعون بولادة عدو له يظهر عليه ، فأمر بقتل الأبناء فى ذلك الوقت ، وأما فى هذا الوقت ، فموسى - عليه السلام - كان قد جاءه وأظهر المعجزات ، فعند ذلك أمر بقتل أبناء الذين آمنوا معه ، لئلا ينشأوا على دين موسي ، فيقوى بهم ، وهذه العلة مختصة بالبنين دون البنات ، فلهذا السبب أمر بقتل الأبناء .(١)

وقوله - تعالى - : ﴿ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ ﴾ توهين لشأن الكافرين فى كل زمان ومكان ، وتشجيع للمؤمنين على أن يسيروا فى طريق الحق دون أن يرهبهم وعد أو وعيد ، فإن النصر سيكون فى النهاية لهم .

أى : وما كيد الكافرين ومكرهم وعدوانهم ، إلا مصيره إلى الضلال والضياع والبطلان ، يقال : ضل فلان الطريق إذا ضاع منه الرشد ، والتبست عليه السبل ، وصار تائها لايعرف له طريقا يوصله إلى ما يريد .

ثم بين - سبحانه - لونا آخر من ألوان فجور فرعون وبغيه فقال : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ . . ﴾ .

أى : وقال فرعون لحاشيته ومستشاريه وخاصته : اتركونى لأقتل موسى - عليه السلام - وأتخلص منه ومن أقواله التى فيها مافيها من الضرر بى وبكم .

ويبدو من أسلوب الآية الكريمة أن اتجاه فرعون لقتل موسى كان يجد معارضة من بعض مستشاريه ، لأنهم يرون أن قتله لاينهى المتاعب ، بل قد يزيدها اشتعالا لأن عامة الناس سيفهمون أن قتل موسى كان بسبب أنه على الحق ، فتثور ثائرتهم لقتله ، أو لأنهم كانوا يخافون أن قتله سيؤدى إلى نزول العذاب بهم ، غضبا من رب موسى ، ولعل بعضهم كان يعتقد أن موسى على حق ولكن الخوف منعه من الجهر بذلك ، أو لأنهم كانوا يرون أن قتل موسى سيؤدى إلى تفرغ فرعون لهم ، وهم لايريدون هذا التفرغ ، لأنه يؤدى إلى ضياع الكثير من منافعهم .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٧ ص٣٠٢ .

وقوله : ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ تظاهر من فرعون بأنه لايبالى بما يكون من وراء قتله لموسى ، وأنه غير مكترث لابموسى ولا برب موسى .

فالجملة الكريمة بيان لما جبل عليه هذا الطاغية من فجور وتكبر واستهزاء بالحق فكأنه يقول : إنى قاتل لموسى وليدع ربه لكى يخلصه منى . .!!

ثم نرى فرعون بعد ذلك يتظاهر أمام حاشيته ، أنه ما حمله على إرادة قتل موسى ، إلا الحرص على منفعتهم فيقول : ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ .

أى : اتركونى لأقتل موسى ، وليدع ربه لكى يخلصه منى ، إن كان فى إمكانه ذلك ، فإنى أخاف إن لم أقتله أن يبدل دينكم الذى أنتم عليه بدين آخر ، أو بأن يظهر فى الأرض التى تعيشون عليها الفساد ، عن طريق بث الفتن وإيقاد نار العداوة فى صفوفكم ، والعمل على اضطراب أمر دنياكم ومعاشكم .

وهكذا الطغاة الماكرون فى كل زمان ومكان : يضربون الحق بكل سلاح من أسلحتهم الباطلة ، ثم يزعمون بعد ذلك أمام العامة والبسطاء والمغلوبين على أمرهم ، أنهم ما فعلوا ذلك إلا من أجل الحرص على مصالحهم الدينية والدنيوية!

قال الإمام الرازى : والمقصود من هذا الكلام ، بيان السبب لقتل موسى ، وهو أن وجوده يوجب إما فساد الدين ، أو فساد الدنيا ، أما فساد الدين : فلأن القوم اعتقدوا أن الدين الصحيح هو الذى كانوا عليه ، فلما كان موسى ساعيا فى إفساده كان فى اعتقادهم أنه ساع فى إفساد الدين الحق .

وأما فساد الدنيا : فهو أنه لابد وأن يجتمع عليه قوم ، ويصير ذلك سببا لوقوع الخصومات وإثارة الفتن .

ولما كان حب الناس لأديانهم فوق حبهم لأموالهم ، لاجرم بدأ فرعون يذكر الدين فقال : ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ ثم أتبعه بذكر فساد الدنيا فقال : ﴿ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ .(١)

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما قاله موسى ـ عليه السلام ـ بعد أن سمع من فرعون تهديداته له ، وتطاوله عليه ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٧ ص٣٠٣ .

أى : قال موسى ـ عليه السلام ـ لقومه على سبيل التثبيت لهم على الحق يا قوم ، إنى استجرت وتحصنت بربى وربكم من شر كل مستكبر عن الإيمان بالحق ، كافر بيوم الحساب وما فيه من ثواب وعقاب .

وفى هذا القول الذى قاله موسى لقومه : يتجلى صدق إيمانه ، وقوة يقينه ووثوقه برعاية الله ـ تعالى ـ له ، كما يتجلى فيه حرصه على نصحه لقومه بالثبات على الحق ، لأن الله ـ تعالى ـ الذى هو ربه وربهم ، كفيل برعايته ورعايتهم وبإنجائه وبإنجائهم من فرعون وملئه ، كما يتجلى فيه أن الاستكبار عن اتباع الحق ، والتكذيب بالبعث ، على رأس الأسباب التى تعين على قسوة القلب ، وفساد النفس .

٢١ ـ نزول المصائب والكوارث بفرعون وقومه ، وطلبهم من موسى ـ عليه السلام ـ أن يدعو ربه بأن يبعدها عنهم .

ولقد حكى لنا القرآن الكريم أن فرعون وقومه قد حلت بهم الشدائد والمحن ، لاسيما بعد أن فعلوا ما فعلوا من إيذاء وإرهاب لموسى ـ عليه السلام ـ ومن قتل وإذلال لقومه من بنى إسرائيل ، كما قص علينا القرآن الكريم أن موسى ـ عليه السلام ـ بعد أن طال ظلم فرعون وحاشيته لبنى إسرائيل ، وبعد أن أصر هو وأعوانه على كفرهم ، وفسوقهم ، بعد كل ذلك دعا موسى ـ عليه السلام ـ عليهم ، فأجاب الله ـ تعالى ـ دعاءه .

ومن الآيات القرآنية التى صورت كل ذلك قوله ـ تعالى ـ :

وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ

وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

والمعنى : ولقد أخذنا آل فرعون أى : اختبرناهم وامتحناهم بالجدب والقحط ، وضيق المعيشة ، وانتقاص الثمرات لعلهم يثوبون إلى رشدهم ، ويتذكرون ضعفهم أمام قوة خالقهم ، ويرجعون عما هم فيه من الكفر والعصيان ، فإن الشدائد من شأنها أن ترقق القلوب ، وتصفى النفوس ، وترغب فى الضراعة إلى الله ، وتدعو إلى اليقظة والتفكير ومحاسبة النفس على الخطايا اتقاء للبلايا .

ثم بين ـ سبحانه ـ أن آل فرعون لم يعتبروا بهذا الأخذ والامتحان ، وإنما ازدادوا تمردا وكفرا فقال : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ ﴾ .

أى : فإذا جاءهم ما يستحسنونه من الخصب والسعة والرخاء قالوا بغرور وصلف : ما جاء هذا الخير إلا من أجلنا لأننا أهل له ، ونحن مستحقوه وبكدنا واجتهادنا وامتيازنا على غيرنا ناسين فضل الله عليهم ، ولطفه بهم غافلين عن شكره على نعمائه .

﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ﴾ أى : وإن اتفق أن أصابتهم سيئة أى : حالة تسوؤهم كجدب أو قحط أو مصيبة فى الأبدان أو الأرزاق ، تشاءموا بموسى ومن معه من أتباعه ، وقالوا : ما أصابنا ما أصابنا إلا بشؤمهم ونحسهم ، ولو لم يكونوا معنا لما أصبنا .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ استئناف مسوق للرد على خرافاتهم وأباطيلهم ، وصدر بلفظ «ألا» الذى يفيد التنبيه ؛ لإبراز كمال العناية بمضمون هذا الخبر .

أى : إنما سبب شؤمهم هو أعمالهم السيئة المكتوبة لهم عند الله ، فهى التى ساقت إليهم ما يسوؤهم وليس لموسى ولا لمن معه أى تدخل فى ذلك ، ولكن أكثرهم يجهلون هذه الحقيقة ، فيقولون ما يقولون مما تمليه عليهم أهواؤهم وجهالاتهم .

وفى إسناد عدم العلم إلى أكثرهم ، إشعار بأن قلة منهم تعلم ذلك ، ولكنها لاتعمل بمقتضى علمها .

هذا ، وقد أفادت الآية الكريمة أن القوم لم يتأثروا بالجدب الشديد ، ولا بالرخاء العظيم ، وأن الخصب الواسع زادهم غرورا وبطرا ، والشدائد ـ كما يقول صاحب الكشاف ـ تجعل الناس «أضرع خدودا وألين أعطافا ، وأرق أفئدة» .

ثم تحكى السورة الكريمة أن آل فرعون قد لجوا فى طغيانهم يعمهون فقالت : ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ .

أى : قال الملأ من قوم فرعون لموسى بعد أن رأوا من حججه الدالة على صدقه : إنك يا موسى إن تجئنا بكل نوع من أنواع الآيات التى تستدل بها على أحقية دعوتك لأجل أن تسحرنا بها ، أى : تصرفنا بها عما نحن فيه ، فما نحن لك بمصدقين ولا لرسالتك بمتبعين .

ومنطقهم هذا يدل على منتهى العناد والجحود ، فهم قد صاروا فى حالة نفسية لايجدى معها دليل ، ولاينفع فيها إقناع ؛ لأنهم قد أعلنوا الإصرار على التكذيب حتى ولو أتاهم نبيهم بألف دليل ودليل ، وهكذا شأن الجبارين الذين قست قلوبهم ، ومسخت نفوسهم وأظلمت مشاعرهم ، حين يدمغهم الحق ، ويطاردهم الدليل الساطع بنوره الواضح ، إنهم تأخذهم العزة بالإثم فيأبون أى لون من ألوان التفكير والتدبر .

ثم حكت السورة الكريمة ما حل بهؤلاء الفجرة من عقوبات جزاء عتوهم وعنادهم فقالت : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ .

أى : فأرسلنا على هؤلاء الجاحدين عقوبة لهم الطوفان ، أى : الماء الكثير الذى أغرق زروعهم .

وأرسلنا عليهم ﴿ الْجَرَادَ ﴾ فأكل زروعهم وثمارهم وأعشابهم ، حتى ترك أرضهم سوداء قاحلة .

وأرسلنا عليهم ﴿ الْقُمَّلَ ﴾ وهو ضرب معروف من الحشرات المؤذية .

وأرسلنا عليهم ﴿ الضَّفَادِعَ ﴾ فصعدت من الأنهار والخلجان والمنابع فغطت الأرض وضايقتهم فى معاشهم ومنامهم .

وأرسلنا عليهم ﴿ الدَّمَ ﴾ فصارت مياه الأنهار مختلطة به ، فمات السمك فيها ، وقيل المراد بالدم : الرعاف الذى كان يسيل من أنوفهم .

تلك هى النقم التى أنزلها الله - تعالى - على هؤلاء المجرمين ، بسبب فسوقهم عن أمر ربهم ، وتكذيبهم لنبيهم - عليه السلام - .

وقوله : ﴿ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ ﴾ أى : عظات مبينات واضحات لايشك عاقل فى كونها آيات إلهية لامدخل فيها للسحر كما يزعمون .

ثم بين - سبحانه - حالهم عند نزول العقاب بهم فقال : ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ .

ثم بين - سبحانه - موقفهم الجحودى فقال : ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ ، أى : فلما كشفنا عنهم العذاب مرة بعد مرة إلى الوقت الذى أجل لهم وهو وقت إغراقهم فى اليم ، إذا هم ينكثون : أى : ينقضون عهدهم الذى التزموه ، ويحنثون فى قسمهم فى كل مرة .

ثم حكت السورة الكريمة نهايتهم الأليمة ، بسبب نقضهم لعهودهم ومواثيقهم فى كل مرة ، وبسبب تكذيبهم لآيات الله ، وعصيانهم لنبيهم موسى - عليه السلام - فقالت : ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ أى : فانتقمنا منهم عند بلوغ الأجل المضروب لإهلاكهم بأن أغرقناهم فى اليم - أى البحر - وذلك بسبب تكذيبهم لآياتنا الواضحة ، وحججنا الساطعة وكانوا عنها غافلين بحيث لايتدبرونها ، ولايتفكرون فيما تحمله من عظات وعبر .

والقرآن هنا يسوق حادث إغراق فرعون وملئه بصورة مجملة ، فلايفصل خطواته كما فصلها فى مواطن أخرى ، وذلك لأن المقام هنا هو مقام الأخذ الحاسم بعد الإمهال الطويل ، فلاداعى إذن إلى طول العرض والتفصيل ، إن الحسم السريع هنا أوقع فى النفس ، وأرهب للحس ، وأزجر للقلب ، وأدعى إلى العظة والاعتبار ، ولأن سورة الأعراف - كما سبق أن بينا - يغلب عليها هذا الاسلوب الذى يزلزل قلوب الطغاة ، ويغرس فى

النفوس الرهبة والخوف وهى تقص على الناس ما أصاب الظالمين من عذاب دنيوى مضى وصار تاريخا يعلمونه ويتحدثون عنه ، وهو ما حل بالأمم السابقة التى كذبت رسلها وعتت عن أمر ربها .

ثم هى تحكى لهم ما أعد للمستكبرين من عذاب أخروى بسبب عصيانهم وانتهاكهم لحرمات الله .

ثم بين - سبحانه - مظاهر فضله وكرمه على بنى إسرائيل بعد أن بين نهاية فرعون وآله فقال : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ .

أى : وأعطينا القوم الذين كانوا يستضعفون فى مصر من فرعون وملئه بالاستبعاد وقتل الأبناء ، وسوء العذاب ، أعطيناهم من طريق الاستخلاف - قبل أن يزيغوا ويضلوا - مشارق أرض الشام ومغاربها التى باركنا فيها بالخصوبة وسعة الأرزاق ، وبكونها مساكن الأنبياء والصالحين ليكون ذلك امتحانا لهم ، واختبارا لنفوسهم .

وقوله : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ أى : ونفذت كلمة الله الحسنى ومضت عليهم تامة كاملة ، حيث رزقهم - سبحانه - النصر على أعدائهم ، والتمكين فى الأرض بسبب صبرهم على ظلم فرعون وملئه .

ثم ختمت الآية بقوله - تعالى - : ﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ ﴾ من بناء القصور الشاهقة والمنازل القوية ، وما كانوا يرفعونه من البساتين ، والصروح المشيدة ، كصرح هامان وغيره .

و ﴿ يَعْرِشُونَ ﴾ بكسر الراء وضمها - أى يرفعون من العرش وهو الشئ المسقف المرفوع .

وهكذا تنهى السورة الكريمة هذا الدرس بذكر ما أصاب الظالمين والغادرين من دمار وخراب ، وما أصاب المستضعفين الصابرين من خير واستخلاف فى الأرض .

٢٢ - وفى سورة «الزخرف» نجد آيات كريمة تحكى لنا كيف أن فرعون قد استهزأ برسالة موسى - عليه السلام - وتبعه فى ذلك من كان على شاكلته فى الفسوق والعصيان ، ووصفوا من جاء لهدايتهم بأنه ساحر ، فلما حل بهم البلاء والجدب طلبوا من موسى - عليه السلام - أن يدعو الله - تعالى - أن يفرج كربهم ، فلما فرج كربهم عادوا إلى ضلالهم وجحودهم ، ولم يكتفوا بكل ذلك ، بل نرى فرعون يتباهى أمام قومه ، بأنه خير من موسى - عليه السلام - فكانت نهايته ونهاية الذين استخف بهم الهلاك والدمار .

وهذه الآيات هى قوله - تعالى - :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴿٥٦﴾

أى : والله لقد أرسلنا نبينا موسى - عليه السلام - ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، والتى على رأسها اليد والعصا . . وأرسلناه بهذه الآيات ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ أى : أشراف قومه ﴿ فَقَالَ ﴾ لهم ناصحا ومرشدا : إنى رسول رب العالمين إليكم ، لآمركم بعبادة الله - تعالى - : وحده ، وأنهاكم عن عبادة غيره .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ أى : فحين جاء موسى - عليه السلام - إلى فرعون وملئه بآياتنا الدالة على قدرتنا ، سارعوا إلى الضحك منها ، والسخرية بها ، بدون تأمل أو تدبر ، شأن المغرورين الجهلاء .

فقوله - تعالى - : ﴿ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ جواب ﴿ لَمَّا ﴾ والتعبير يشير إلى مسارعتهم إلى السخرية ، والاستخفاف بالآيات التى جاء بها موسى - عليه السلام - مع أن هذه الآيات كانت تقتضى منهم التدبر والتفكر لو كانوا يعقلون .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا .. ﴾ بيان لقسوة قلوبهم ، وعدم تأثرهم بالآيات والمعجزات .

أى : وما نريهم من آية دالة على صدق نبينا موسى ، إلا وتكون هذه الآية أكبر من أختها السابقة عليها ، فى الدلالة على ذلك ، مع كون الآية السابقة عظيمة وكبيرة فى ذاتها .

والمقصود بالجملة الكريمة ، بيان أن هؤلاء القوم لم يأتهم موسى - عليه السلام - بآية واحدة تشهد بصدقه فيما جاءهم به من عند ربه ، وإنما أتاهم بمعجزات متعددة ، وكل معجزة أدل على صدقه فيما جاءهم به من عند ربه ، وإنما أتاهم بمعجزات متعددة ، وكل معجزة أدل على صدقه مما قبلها .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ بيان للمصير السيئ الذى آلوا إليه .

أى : وأخذناهم بسبب إصرارهم على الكفر والمعاصى ، بالعذاب الدنيوى الشديد لكى يرجعوا عما هم عليه من كفر وفسوق ، ولكنهم لم يرجعوا .

فالمراد بالعذاب هنا العذاب الدنيوى ، الذى أشار إليه - سبحانه - بقوله :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ . (١)

ثم حكى - سبحانه - ما قالوه بعد أن نزل بهم العذاب ، فقال : ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾ .

أى : وحين أخذنا فرعون وقومه بالعذاب قالوا لموسى - على سبيل التذلل والتعظيم من شأنه - يأيها الساحر الذى غلبنا بسحره وعلمه ، ادع لنا ربك بحق عهده إليك بالنبوة ، لئن كشف عنا ربك هذا العذاب الذى نزل بنا إننا لمهتدون . أى : إننا لمؤمنون ثابتون على ذلك متبعون لك فى كل ما تأمرنا به أو تنهانا عنه .

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٣٣ .

فدعا موسى ـ عليه السلام ـ ربه أن يكشف عنهم العذاب ، فأجاب الله دعوته بأن كشفه عنهم ، فماذا كانت النتيجة؟ كانت النتيجة أنهم نقضوا عهودهم ، واستمروا على كفرهم ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ ﴾ أى : فحين كشفنا عنهم العذاب الذى حل بهم ﴿ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ أى : إذا هم ينقضون عهدهم بالإيمان فلايؤمنون .

ومن سوء أدبهم أنهم قالوا : ادع لنا ربك ، فكأن الله ـ تعالى ـ رب موسى وحده ، وليس ربا لهم .

ثم حكى ـ سبحانه ـ جانبا من طغيان فرعون وفجوره ، واستخفافه بعقول قومه فقال : ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ ﴾ أى : أن فرعون جمع زعماء قومه ، وأخبرهم بما يريد أن يقول لهم .

أو أنه أمر مناديا ينادى فى قومه جميعا ، ليعلمهم بما يريد إعلامهم به ، وأسند ـ سبحانه ـ النداء إلى فرعون لأنه هو الآمر به .

والتعبير بقوله : ﴿ فِي قَوْمِهِ ﴾ يشعر بأن النداء قد وصل إليهم جميعا ودخل فى قلوبهم .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ حكاية لما قاله فرعون لقومه .

أى : أن فرعون جمع عظماء قومه ، وقال لهم ـ بعد أن خشى إيمانهم بموسى : ﴿ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ ﴾ بحيث لاينازعنى فى ذلك منازع ، ولايخالفنى فى ذلك مخالف ، فالاستفهام للتقرير .

وفضلا عن ذلك فإن هذه الأنهار التى ترونها متفرعة من النيل تجرى تحت قدمه ، أو من تحت قصرى .

﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ذلك ، وتستدلون به على قوة أمرى ، وسعة ملكى ، وعظم شأنى .

و﴿ أَمْ ﴾ فى قوله : ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ هى المنقطعة المقدرة بمعنى بل التى هى للإضراب ، والإشارة بهذا تعود لموسى ـ عليه السلام ـ .

أى : بل أنا خير من هذا الذى هو فقير وليس صاحب ملك أو سطوة أو مال . . وفى الوقت نفسه ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ أى : لايكاد يظهر كلامه لعقدة فى لسانه .

ثم أضاف إلى ذلك قوله - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ .

والأسورة : جمع سوار ، وهو كناية عن تمليكه ، وكانوا إذا ملكوا رجلا عليهم ، جعلوا فى يديه سوارين ، وطوقوه بطوق من ذهب ، علامة على أنه ملكهم .

أى : فهلا لو كان موسى ملكا أو رسولا ، أن يحلى نفسه بأساور من ذهب ، أو جاء إلينا ومعه الملائكة محيطين به ، ومتقارنين معه ، لكى يعينوه ويشهدوا له بالنبوة .

ولاشك أن هذه الأقوال التى تفوه بها فرعون ، تدل على شدة طغيانه ، وعلى عظم غروره ، وعلى استغلاله الضخم لغفلة قومه ، وسفاهتهم وضعفهم .

ورحم الله الإمام ابن كثير فقد قال ما ملخصه : وهذا الذى قاله فرعون - لعنه الله - كذب واختلاق ، وإنما حمله على هذا الكفر والعناد ، وهو ينظر إلى موسى - عليه السلام - بعين كافرة شقية ، وقد كان موسى من الجلالة والعظمة والبهاء فى صورة تبهر أبصار ذوى الألباب .

وقوله : ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ افتراء - أيضا - فإنه وإن كان قد أصاب لسانه فى حال صغره شىء من جهة تلك الجمرة ، فقد سأل ربه أن يحل عقدة من لسانه ، فاستجاب الله - تعالى - له ، وفرعون إنما أراد بهذا الكلام ، أن يروج على رعيته ، لأنهم كانوا جهلة أغبياء .(1)

وقوله - تعالى - : ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ بيان لما كان عليه فرعون من لؤم وخداع ، ولما كان عليه قومه من جبن وخروج على طاعة الله - تعالى - .

أى : وبعد أن قال فرعون لقومه ما قال من تطاول على موسى - عليه السلام - طلب منهم الخفة والسرعة والمبادرة إلى الاستجابة لما قاله لهم ، فأجابوه إلى طلبه منهم ، لأنهم كانوا قوما خارجين عن طاعتنا ، مؤثرين الغى على الرشد ، والضلالة على الهداية .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبتهم فقال : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴾ .

أى : فلما أغضبنا فرعون وقومه أشد الغضب ، بسبب إصرارهم على الكفر والفسوق ، والعصيان ، انتقمنا منهم انتقاما شديدا ، حيث أغرقناهم أجمعين فى اليم .

---

(1) راجع تفسير ابن كثير جـ7 ص218 .

﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا ﴾ أى : قدوة لمن بعدهم فى الكفر ،فى استحقاق مثل عقوبتهم كما جعلناهم ﴿ مَثَلاً ﴾ أى : عبرة وعظة ﴿ لِّلآخِرِينَ ﴾ الذين يعملون مثل أعمالهم .

وبذلك نرى فى هذه الآيات الكريمة ، جانبا من قصة موسى ـ عليه السلام ـ مع فرعون وملئه .

ويتجلى فى هذا الجانب من القصة طغيان فرعون ، واستخفافه بعقول قومه ، ومجاهرته بالكذب ، والفجور ، فكانت عاقبتهم جميعا الدمار والبوار .

٢٣ ـ وفى سورة «يونس» آيات كريمة قصت علينا دعاء موسى ـ عليه السلام ـ على فرعون وملئه ، بعد أن تجاوزوا الحدود فى طغيانهم وعدوانهم وظلمهم لأتباع موسى ـ عليه السلام ـ وأن الله ـ تعالى ـ قد أجاب دعاءه ، فأخذ فرعون وجنده أخذ عزيز مقتدر .

استمع إلى قوله ـ تعالى ـ :

فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾

والمراد بالذرية هنا : العدد القليل من الشباب ، الذين آمنوا بموسى ، بعد أن تخلف عن الإيمان آباؤهم وأغنياؤهم .

والضمير فى قوله ﴿ مِّن قَوْمِهِ ﴾ يعود لموسى ـ عليه السلام ـ والمعنى :

فما آمن لموسى ـ عليه السلام ـ فى دعوته إلى وحدانية الله ، إلا عدد قليل من شباب قومه بنى إسرائيل ، الذين كانوا يعيشون فى مصر ، والذين كان فرعون يسومهم سوء العذاب ، أما آباؤهم وأصحاب الجاه فيهم ، فقد انحازوا إلى فرعون طمعا فى عطائه وخوفا من بطشه بهم .

وقوله : ﴿ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ بيان لطبيعة إيمانهم .

أى : فما آمن لموسى إلا عدد قليل من شباب قومه ، والحال أن إيمانهم كان مع خوف من فرعون ومن اشراف قومهم أن يفتنوهم عن دينهم ، أى : يعذبوهم ليحملوهم على ترك اتباع موسى ـ عليه السلام ـ .

وقوله : ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ اعتراض تذييلى مؤكد لمضمون ما قبله ، ومقرر لطغيان فرعون وعتوه .

أى : وإن فرعون لمتكبر ومتجبر فى أرض مصر ، كلها وإنه لمن المسرفين المتجاوزين لكل حد فى الظلم والبغى وادعاء ماليس له .

والمتجبرون والمسرفون يحتاجون فى مقاومتهم إلى إيمان عميق ، واعتماد على الله وثيق ، وثبات يزيل المخاوف ويطمئن القلوب إلى حسن العاقبة ولذا قال موسى لأتباعه المؤمنين : ﴿ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ .

أى : قال موسى لقومه تطمينا لقلوبهم ، وقد رأى الخوف من فرعون يعلو وجوه بعضهم : يا قوم ﴿ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ ﴾ حق الإيمان ، وأسلمتم وجوهكم له حق الإسلام فعليه وحده اعتمدوا وبجنابه وحده تمسكوا ، فإن من توكل على الله واتجه إليه ، كان الله معه بنصره وتأييده .

ثم حكى القرآن جوابهم الذى يدل على صدق يقينهم فقال : ﴿ فَقَالُوا ﴾ أى : مجيبين لنصيحة نبيهم ﴿ عَلَى اللَّهِ ﴾ وحده لا على غيره ﴿ تَوَكَّلْنَا ﴾ واعتمدنا وفوضنا أمورنا إليه .

﴿ رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أى : يا ربنا لاتجعلنا موضوع فتنة وعذاب للقوم الظالمين ، بأن تمكنهم منا فيسوموننا سوء العذاب ، وعندئذ يعتقدون أنهم على الحق ونحن على الباطل ، لأننا لو كنا على الحق ـ فى زعمهم ـ لما تمكنوا منا ، ولما انتصروا علينا .

ثم أضافوا إلى هذا الدعاء دعاء آخر ، أكثر صراحة من سابقه فى المباعدة بينهم وبين الظالمين فقالوا : ﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ .

أى : نحن لانلتمس منك يا مولانا ألا تجعلنا فتنة لهم فقط ، بل نلتمس منك - أيضا - أن تنجينا من شرور القوم الكافرين ، وأن تخلصنا من سوء جوارهم ، وأن تفرق بيننا وبينهم كما فرقت بين أهل المشرق وأهل المغرب .

وبعد هذا الدعاء الخالص ، وجه الله - تعالى - نبيه موسى وأخاه هارون - عليهما السلام - إلى مايوصل إلى نصرهما ونصر أتباعهما فقال - تعالى - : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً .. ﴾ .

والمعنى : وأوحينا إلى موسى وأخيه هارون بعد أن لج فرعون فى طغيانه وفى إنزال العذاب بالمؤمنين - أن اتخذا لقومكما المؤمنين بيوتا خاصة بهم فى مصر ، ينزلون بها ، ويستقرون فيها ، ويعتزلون فرعون وجنده ، إلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا .

وقوله : ﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ أى : واجعلوا هذه البيوت التى حللتم بها مكانا لصلاتكم وعبادتكم بعد أن حال فرعون وجنده بينكم وبين أداء عباداتكم فى الأماكن المخصصة لذلك .

وقوله : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ أى : داوموا عليها ، وأدوها فى أوقاتها بخشوع وإخلاص ، فإن فى أدائها بهذه الصورة ، وسيلة إلى تفريج الكروب ، وفى الحديث الشريف : «كان رسول ﷺ إذا حزبه أمر لجأ إلى الصلاة» .

وقوله : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ تذييل قصد به بعث الأمل فى نفوسهم متى أدوا ما كلفوا به ، أى : وبشر المؤمنين بالنصر والفلاح فى الدنيا ، وبالثواب الجزيل فى الآخرة .

هذا ، ومن التوجيهات الحكيمة التى نأخذها من هذه الآية الكريمة ، أن مما يعين المؤمنين على النصر والفلاح ، أن يعتزلوا أهل الكفر والفسوق والعصيان ، إذا لم تنفع معهم النصيحة ، وأن يستعينوا على بلوغ غايتهم بالصبر والصلاة ، وأن يقيموا حياتهم فيما بينهم على المحبة الصادقة ، وعلى الأخوة الخالصة ، وأن يجعلوا توكلهم على الله وحده ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ .

ثم حكى القرآن الكريم بعد ذلك ، ما تضرع به موسى - عليه السلام - إلى الله - تعالى - من دعوات خاشعات بعد أن يئس من إيمان فرعون وملئه فقال - سبحانه - :

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

والمعنى : وقال موسى ـ عليه السلام ـ مخاطبا ربه ، بعد أن فقد الأمل فى إصلاح فرعون وملئه : يا ربنا إنك أعطيت فرعون وأشراف قومه ، وأصحاب الرياسات منهم ، الكثير من مظاهر الزينة والرفاهية والتنعم ، كما أعطيتهم الكثير من الأموال فى هذه الحياة الدنيا .

وهذا العطاء الجزيل لهم ، قد يضعف الإيمان فى بعض النفوس ، إما بالإغراء الذى يحدثه مظهر النعمة فى نفوس الناظرين إليها ، وإما بالترهيب الذى يملكه هؤلاء المنعمون بحيث يصيرون قادرين على إذلال غيرهم .

واللام فى قوله : ﴿ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ﴾ لام العاقبة والصيرورة أى : أعطيتهم ما أعطيتهم من الزينة والمال ، ليخلصوا لك العبادة والطاعة ، وليقابلوا هذا العطاء بالشكر ، ولكنهم لم يفعلوا بل قابلوا هذه النعم بالجحود والبطر ، فكانت عاقبة أمرهم الخسران والضلال ، فأزل يامولانا هذه النعم من بين أيديهم .

وقوله : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ ، دعاء عليهم بما يستحقونه من عقوبات بسبب إصرارهم على الكفر والضلال .

والمعنى : وقال موسى مخاطبا ربه : يا ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ، وقد أعطيتهم ذلك ليشكروك ، ولكنهم لم يفعلوا ، بل قابلوا عطاءك بالجحود ، اللهم يا ربنا اطمس على أموالهم بأن تهلكها وتزيلها وتمحقها من بين أيديهم ، حتى ترحم عبادك المؤمنين ، من سوء استعمال الكافرين لنعمك فى الإفساد والأذى .

﴿ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ ، بأن تزيدها قسوة على قسوتها ، وعنادا على عنادها مع

استمرارها على ذلك ، حتى يأتيهم العذاب الأليم الذى لاينفع عند إتيانه إيمان ، ولاتقبل معه توبة ، لأنهما حدثا فى غير وقتهما .

قال الإمام ابن كثير : «وهذه الدعوة كانت من موسى - عليه السلام - غضبا لله - تعالى - ولدينه على فرعون وملئه ، الذين تبين له أنه لاخير فيهم ، كما دعا نوح - عليه السلام - على قومه فقال : ﴿ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ ولهذا استجاب الله - تعالى - لموسى - عليه السلام - هذه الدعوة فيهم . .» .(١)

فقال : ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ .

أى : قال الله - تعالى - لموسى وهارون - عليهما السلام - : أبشرا فقد أجبت دعوتكما فى شأن فرعون وملئه ﴿ فَاسْتَقِيمَا ﴾ على أمرى وامضيا فى دعوتكما الناس إلى الحق ، واثبتا على ما أنتما عليه من الإيمان لى والطاعة لأمرى .

﴿ وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ ماجرت به سنتى في خلقى ، ولايدركون طريق الخير من طريق الشر .

وكان الجواب من الله - تعالى - لموسى وهارون ، مع أن الداعى موسى فقط كما صرحت الآيات السابقة ، لأن هارون كان يؤمِّن على دعاء أخيه موسى ، والتأمين لون من الدعاء .

هذا . . ومن الحكم والعظات التى نأخذها من هاتين الآيتين الكريمتين : أن من علامات الإيمان الصادق ، أن يكون الإنسان غيورا على دين الله ، ومن مظاهر هذه الغيرة أن يتمنى زوال النعمة من بين أيدي المصرين على جحودهم وفسوقهم وبطرهم لأن وجود النعم بين أيديهم كثيرا مايكون سببا فى إيذاء المؤمنين ، وإدخال القلق والحيرة على نفوس بعضهم .

وأن الداعى متى توجه إلى الله - تعالى - بقلب سليم ، ولسان صادق ، كان دعاؤه مرجو القبول عنده - سبحانه - .

٢٣ - خروج بنى إسرائيل من مصر ، وتعقب فرعون لهم ، وغرقه وجنوده أمام أعينهم .

وذلك بعد أن قضى موسى - عليه السلام - ما قضاه من الزمان فى مصر ، يدعو فرعون وقومه إلى وحدانية الله - عز وجل - وبعد أن تعرض هو وبنو إسرائيل لألوان من الأذى والاضطهاد من فرعون وملئه ، وبعد أن قتل فرعون من ذكور بنى إسرائيل من قتل .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٤ ص٢٢٥ .

بعد كل ذلك ، أوحى الله ـ تعالى ـ إلى نبيه موسى ـ عليه السلام ـ أن يأمر قومه من بنى إسرائيل بأن يعدوا أنفسهم للخروج من مصر ، حتى ينجو من بطش فرعون وظلمه .

وقصة خروج بنى إسرائيل من مصر ، قد وردت فى سور متعددة فى القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ فى سورة «الشعراء» :

وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم متبعون ﴿٥٢﴾ فأرسل فرعون في المدائن حاشرين ﴿٥٣﴾ إن هؤلاء لشرذمة قليلون ﴿٥٤﴾ وإنهم لنا لغائظون ﴿٥٥﴾ وإنا لجميع حاذرون ﴿٥٦﴾ فأخرجناهم من جنات وعيون ﴿٥٧﴾ وكنوز ومقام كريم ﴿٥٨﴾ كذلك وأورثناها بني إسرائيل ﴿٥٩﴾ فأتبعوهم مشرقين ﴿٦٠﴾ فلما تراءا الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون ﴿٦١﴾ قال كلا إن معي ربي سيهدين ﴿٦٢﴾ فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ﴿٦٣﴾ وأزلفنا ثم الآخرين ﴿٦٤﴾ وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ﴿٦٥﴾ ثم أغرقنا الآخرين ﴿٦٦﴾ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴿٦٧﴾ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴿٦٨﴾

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ﴾ معطوف على كلام مقدر يفهم من سياق القصة .

والتقدير : وبعد أن انتصر موسى على السحرة نصرا جعلهم يخرون ساجدين لله ـ تعالى ـ وبعد أن مكث موسى فى مصر حينا من الدهر ، يدعو فرعون وقومه إلى إخلاص العبادة لله ـ تعالى ـ فلم يستجيبوا له ، وبعد أن تعرض هو وأتباعه لصنوف من الأذى .

بعد كل ذلك ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ﴾ أى : سر ببنى إسرائيل ليلا إلى

جهة البحر ، وعبر ـ سبحانه ـ عنهم بعبادى ، تلطفا بهم بعد أن ظلوا تحت ظلم فرعون مدة طويلة .

وقوله : ﴿ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ تعليل للأمر بالإسراء ، أى : سر بهم ليلا إلى جهة البحر ، لأن فرعون سيتبعكم بجنوده ، وسأقضى قضائى فيه وفى جنده .

والفاء فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ هى الفصيحة ، والحاشرين جمع حاشر : والمراد بهم الذين يحشرون الناس ويجمعونهم فى مكان معين لأمر من الأمور الهامة .

قالوا : جمعوا له جيشا كبيرا يتكون من مئات الآلاف من الجنود ، أى وعلم فرعون بخروج موسى ومعه بنو إسرائيل ، فأرسل جنوده ليجمعوا له الناس من المدائن المتعددة فى مملكته .

وبعد أن اكتمل عددهم ، أخذ فى التهوين من شأن موسى ومن معه فقال : ﴿ إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ .

والشرذمة : الطائفة القليلة من الناس .

أى : إن هؤلاء الذين خرجوا بدون إذنى وإذنكم ، لطائفة قليلة من الناس الذين هم بمنزلة العبيد والخدم لى ولكم .

﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴾ أى : وإنهم بجانب قلتهم ، وخروجهم بدون إذننا ، يأتون بأقوال وأفعال تغيظنا وتغضبنا ، على رأسها اقتراحهم علينا أن نترك ديننا .

﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴾ أى : متيقظون لمكائدهم ، ومحتاطون لمكرهم ، وممسكون بزمام الأمور حتى لايؤثر فينا خداعهم .

وكلام فرعون هذا ـ الذى حكاه القرآن عنه ـ يوحى بهلعه وخوفه مما فعله موسى ـ عليه السلام ـ إلا أنه أراد أن يستر هذا الهلع والجزع بالتهوين من شأنه ومن شأن الذين خرجوا معه وبتحريض قومه على اللحاق بهم وتأديبهم ، وبالظهور بمظهر المستعد هو وقومه لمجابهة الأخطار والتمرد بكل قوة وحزم .

ثم حكى ـ سبحانه ـ بعد ذلك ما اقتضته إرادته ومشيئته فى فرعون وقومه فقال : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ أى : فأخرجناهم بقدرتنا وإرادتنا من ﴿ جَنَّات ﴾ .

أى : بساتين كانوا يعيشون فيها ﴿ وَعُيُونٍ ﴾ عذبة الماء كانوا يشربون منها .

﴿ وَكُنُوزٍ ﴾ أى : أموال كانت تحت أيديهم ﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ أى : ومساكن حسنة جميلة كانوا يقيمون فيها .

أى : أخرجناهم من كل ذلك بقدرتنا ومشيئتنا ليلقوا مصيرهم المحتوم وهو الغرق ، بسبب إصرارهم على كفرهم وطغيانهم .

وقوله : ﴿ كَذَلِكَ ﴾ خبر لمبتدأ محذوف ، أى : الأمر كذلك .

وقوله : ﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أى : وأورثنا تلك الجنات والعيون والكنوز والمنازل الحسنة لبنى إسرائيل .

قال الجمل : وقوله : ﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا ﴾ أى : الجنات والعيون والكنوز لبنى إسرائيل ، وذلك أن الله ـ عز وجل ـ رد بنى إسرائيل إلى مصر بعد هلاك فرعون وقومه ، فأعطاهم جميع ما كان لفرعون وقومه من الأموال والمساكن الحسنة .

والظاهر أن هذه الجملة اعتراضية وأن قوله ـ بعد ذلك ـ ﴿ فَأَتْبَعُوهُم ﴾ معطوف على قوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ لأن إعطاء البساتين وما بعدها لبنى إسرائيل ، كان بعد هلاك فرعون وقومه .[1]

ومن العلماء من يرى أن بنى إسرائيل لم يعودوا لمصر بعد هلاك فرعون وقومه ، وأن الضمير فى قومه ـ تعالى ـ : ﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا ﴾ لايعود إلى الجنات والعيون التى أخرج الله ـ تعالى ـ منها فرعون وقومه ، فيقول : ولايعرف أن بنى إسرائيل عادوا إلى مصر بعد خروجهم إلى الأرض المقدسة ، وورثوا ملك مصر وكنوز فرعون ومقامه ، لذلك يقول المفسرون إنهم ورثوا مثل ما كان لفرعون وملئه ، فهى وراثة لنوع ما كانوا فيه من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم .

وقيل : المراد بالوراثة هنا : وراثة ما استعاره بنو إسرائيل من حلى آل فرعون عند خروجهم من مصر مع موسى ـ عليه السلام ـ .

ويبدو لنا أنه لامانع من عودة الضمير فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا ﴾ إلى الجنات والعيون والكنوز التى أخرج الله ـ تعالى ـ منها فرعون وقومه ، بأن عاد موسى ومن معه

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ٣ ص٢٨٠ .

إلى مصر ـ لفترة معينة ـ بعد هلاك فرعون وملئه ، ثم خرجوا منها بعد ذلك مواصلين سيرهم إلى الأرض المقدسة ، التى أمرهم موسى ـ عليه السلام ـ بدخولها .

ولعل ممايؤيد ما نرجحه قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ . (١)

وقوله ـ سبحانه ـ :

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ . (٢)

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك ماحدث من فرعون وقومه ، وما قاله بنو إسرائيل عندما شاهدوهم ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ .

أى : أخرجنا فرعون وقومه من أموالهم ومساكنهم ، فساروا مسرعين خلف موسى ومن معه ، ﴿ فَأَتْبَعُوهُم ﴾ أى : فلحقوا بهم ﴿ مُّشْرِقِينَ ﴾ أى : فى وقت شروق الشمس ، يقال : أشرق فلان إذا دخل فى وقت الشروق ، كأصبح إذا دخل فى وقت الصباح .

﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ ﴾ أى : تقاربا بحيث يرى كل فريق خصمه .

﴿ قَالَ ﴾ بنو إسرائيل لنبيهم موسى ـ عليه السلام ـ والخوف يملأ نفوسهم ، ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ أى : سيدركنا بعد قليل فرعون وجنوده ، ولاقدرة لنا . . على قتالهم .

وهنا رد عليهم موسى ـ عليه السلام ـ بثقة وثبات بقوله : ﴿ كَلاَّ ﴾ أى : كلا لن يدركوكم ، فاثبتوا ولاتجزعوا ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ .

بهذه الجزم والتأكيد رد موسى على بنى إسرائيل ، وهو رد يدل على قوة إيمانه ، وثبات يقينه ، وثقته التى لاحدود لها فى نصر الله ـ تعالى ـ له ، وفى هدايته إياه إلى طريق الفوز والفلاح .

---

(١) سورة الأعراف ١٣٧

(٢) سورة القصص الآيتان ٥ ، ٦

ولم يطل انتظار موسى لنصر الله ـ تعالى ـ بل جاءه سريعا متمثلا فى قوله ـ سبحانه ـ ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾ أى : البحر الأحمر ـ على أرجح الأقوال ـ وهو الذى كان يسمى ببحر القلزم .

فضربه ﴿ فَانفَلَقَ ﴾ إلى اثنى عشر طريقا ، ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ ﴾ أى : قسم منه ﴿ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ أى : كالجبل الشامخ الكبير .

وسار موسى ومن معه فى الطريق اليابس بين أمواج البحر ـ بقدرة الله ـ تعالى ـ ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ ﴾ ، أى : وقربنا ـ بقدرتنا وحكمتنا ـ هناك القوم الآخرين وهم فرعون وجنوده ، أى : قربناهم من موسي وقومه فدخلوا وراءهم فى الطريق الذى سلكوه بين أمواج البحر ، فماذا كانت النتيجة؟

كانت النتيجة أن خرج موسى ومن معه سالمين ، أما فرعون وجنوده فقد انطبق عليهم البحر فأغرقهم أجمعين .

وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَأَنجَيْنَا ﴾ ـ أى : بقدرتنا ورحمتنا ـ ﴿ مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ من الغرق ومن لحاق فرعون بهم ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ ﴾ وهم فرعون وجنوده .

ثم ختم ـ سبحانه ـ هذه القصة ـ كما ختم غيرها ـ بقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

أى : إن فى ذلك الذى قصصناه عليك ـ أيها الرسول الكريم ـ من قصة موسى وفرعون ، ﴿ لآيَةً ﴾ عظيمة تدعو إلى إخلاص العبادة والطاعة لنا ، ومع ذلك فلم يؤمن بما جاء به نبينا موسى ، إلا عدد قليل ، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ ﴾ ـ أيها الرسول الكريم ـ ﴿ لَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أى : الغالب المنتقم من أعدائه ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ أى : الواسع الرحمة بأوليائه حيث جعل العاقبة لهم .

وهكذا ساق لنا ـ سبحانه ـ هنا جانبا من قصة موسى ـ عليه السلام ـ بهذا الأسلوب البديع ، لتكون عبرة وعظة لقوم يؤمنون .

٢٤ ـ وفى سورة «الدخان» آيات كريمة صورت بأسلوبها البليغ المؤثر ، جانبا من قصة خروج بنى إسرائيل من مصر ، ومن دعوة موسى ـ عليه السلام ـ لفرعون وقومه ، ومن غرقهم بسبب إصرارهم على كفرهم وبغيهم .

وتبدأ هذه الآيات بقوله - تعالى - :

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

والمعنى : والله لقد اختبرنا فرعون وقومه من قبل أن نرسلك - أيها الرسول الكريم - إلى هؤلاء المشركين ، وكان اختبارنا وامتحاننا لهم عن طريق إرسال نبينا موسى إليهم ، وعن طريق ابتلائهم بالسراء ، والضراء لعلهم يرجعون إلى طاعتنا ، ولكنهم لم يرجعوا فأهلكناهم .

فالآية الكريمة مقصود بها تسلية الرسول ﷺ عما أصابه من قومه ، ببيان أن تكذيب الأقوام لرسلهم ، حاصل من قبله ، فعليه أن يتأسى بالرسل السابقين فى صبرهم .

والمراد بالرسول الكريم فى قوله - تعالى - : ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ موسى - عليه السلام - ، فقد أرسله - سبحانه - إلى فرعون وقومه ، فبلغهم رسالة ربه ، ولكنهم كذبوه وعصوه .

ووصف - سبحانه - نبيه موسى بالكرم ، على سبيل التشريف له ، والإعلاء من قدره ، فقد كان - عليه السلام - كليما لربه ، ومطيعا لأمره ، ومتحليا بأسمى الأخلاق وأفضلها .

أى : جاء إلى فرعون وقومه رسول كريم ، هو موسى - عليه السلام - فقال لهم : سلموا إلىّ بنى إسرائيل ، وأطلقوهم من الذل والهوان ، واتركوهم يعيشون أحرارا فى هذه الدنيا .

ويؤيد هذا المعنى قوله - تعالى - فى موضع آخر : ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ .

ويصح أن يكون المراد بقوله : ﴿ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ ﴾ بمعنى : أن استجيبوا لدعوتى ، والمراد بالعباد : ما يشمل بنى إسرائيل وغيرهم ، ويكون لفظ ﴿ عِبَادَ اللَّهِ ﴾ منصوب بحرف نداء محذوف .

وعليه يكون المعنى : أرسلنا إلى فرعون وقومه رسولا كريما ، فجاء إليهم وقال لهم على سبيل النصح والإرشاد : يا عباد الله إنى رسول الله إليكم ، فاستمعوا إلى قولى ، واتبعوا ما أدعوكم إليه من عبادة الله - تعالى - وحده ، وترك عبادة غيره .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ تعليل لما تقدم ، أى : استجيبوا لدعوتى ، وأطيعوا أمرى ، فإنى مرسل من الله - تعالى إليكم ، وأمين على الرسالة لأنى لم أبدل شيئا مما كلفنى به ربى .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَأَن لاَّ تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ﴾ معطوف على قوله : ﴿ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ ﴾ وداخل فى حيز القول .

أى : قال لهم : أرسلوا معى بنى إسرائيل ، واستجيبوا لدعوتى ، واحذروا أن تتجبروا أو تتكبروا على الله - تعالى - بأن تستخفوا بوحيه أو تعرضوا عن رسوله .

﴿ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أى : إنى آتيكم من عنده - تعالى - بحجة واضحة لاسبيل إلى إنكارها ، وببرهان ساطع يشهد بصدقى وأمانتى .

﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴾ أى : وإنى اعتصمت واستجرت بربى وربكم من أن ترجمونى بالحجارة ، أو أن تلحقوا بى ما يؤذينى ، وهذا الاعتصام بالله - تعالى - يجعلنى لا أبالى بكم ، ولا أتراجع عن تبليغ دعوته - سبحانه - بحال من الأحوال .

﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴾ أى : وقال لهم - أيضا - فى ختام نصحه لهم : إنى لن أتراجع عن دعوتكم إلى الحق مهما وضعتم فى طريقى من عقبات وعليكم أن تؤمنوابى ، فإن لم تؤمنوا بى ، فكونوا بمعزل عنى بحيث تتركونى وشأنى حتى أبلغ رسالة ربى ، فإنه لاموالاة ولاصلة بينى وبينكم ، مادمتم مصرين على كفركم .

فأنت ترى أن موسى - عليه السلام - قد طلب من فرعون وقومه الاستجابة لدعوته ، ونهاهم عن التكبر والغرور ، وبين لهم أنه رسول أمين ، على وحى الله - تعالى - وأنه

معتصم بربه من كيدهم ، وأن عليهم إذا لم يؤمنوا به أن يتركوه وشأنه ، لكى يبلغ رسالة ربه ، ومن شاء بعد ذلك فليؤمن ، ومن شاء فليكفر .

ولكن الإرشادات الحكيمة من موسى لفرعون وقومه ، لم تجد أذنا صاغية ، فإن الطغيان فى كل زمان ومكان ، لايعجبه منطق الحق والعدل والمسالمة ، ولكن الذى يعجبه هو التكبر فى الأرض بغير الحق ، وإيثار الغى على الرشد .

ولذا نجد موسى - عليه السلام - يلجأ إلى ربه يطلب منه العون والنصرة فيقول - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾ .

والآية الكريمة معطوفة على كلام محذوف ، يفهم من السياق ، والتقدير : وبعد أن أمر موسى فرعون وقومه بإخلاص العبادة لله - تعالى - ونهاهم عن الإشراك به ، بعد كل ذلك أصروا على تكذيبه ، وأعرضوا عن دعوته ، وآذوه بشتى ألوان الأذى فدعا ربه دعاء حارا قال فيه : يا رب إن هؤلاء القوم - وهم فرعون وشيعته - قوم راسخون فى الكفر والإجرام ، فأنزل بهم عقابك الذى يستحقونه .

ثم حكت السورة الكريمة بعد ذلك مايدل على أن الله - تعالى - قد أجاب دعاء موسى - عليه السلام - وأنه - سبحانه - قد أرشده إلى مايفعله فقال : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ .

والكلام على تقدير القول ، أى : فقال الله - تعالى - على سبيل التعليم والإرشاد : سر يا موسى ببنى إسرائيل وبمن آمن معك من القبط من مصر ، بقطع من الليل ﴿ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ من جهة فرعون وملئه ، متى علموا بخروجكم .

﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً .. ﴾ أى : ومتى وصلت إلى البحر - أى : البحر الأحمر - فاضربه بعصاك ، ينفلق - بإذن الله - فسر فيه أنت ومن معك ، واتركه ساكنا مفتوحا على حاله ، فإذا ما سار خلفك فرعون وجنوده أغرقناهم فيه .

وقوله : ﴿ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ تعليل للأمر بتركه رهوا ، أى : اترك البحر على حاله ، فإن أعداءك سيغرقون فيه إغراقا يدمرهم ويهلكهم .

ثم بين - سبحانه - سوء مآلهم فقال : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ و ﴿ كَمْ ﴾ هنا خبرية للتكثير والتهويل ، أى : ما أكثر ما ترك هؤلاء المغرقون خلفهم من بساتين ناضرة ، وعيون يخرج منها الماء النمير .

﴿ وَزُرُوعٍ ﴾ كثيرة متنوعة ﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ أى : ومحافل ومنازل كانت مزينة بألوان من الزينة والزخرفة .

﴿ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴾ أى : وتنعم وترفه كانوا فيه يتلذذون ، بمابين أيديهم من رغد العيش ، وكثرة الفاكهة . . ﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ .

ثم بين ـ سبحانه ـ أن فرعون وقومه بعد أن غرقوا ، لم يحزن لهلاكهم أحد ، فقال : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾ .

أى : أن هؤلاء المغرقين ، الذين كانوا ملء السمع والبصر ، وكانوا يذلون غيرهم ، وكانوا يملكون الجنات والعيون ، هؤلاء الطغاة ، لم يحزن لهلاكهم أحد من أهل السموات أو أهل الأرض ، ولم يؤخر عذابهم لوقت آخر فى الدنيا أو فى الآخرة ، بل نزل بهم الغرق والدمار بدون تأخير أو تسويف .

فالمقصود من الآية الكريمة بيان هوان منزلة هؤلاء المغرقين ، وتفاهة شأنهم وعدم أسف أحد على غرقهم ، لأنهم كانوا ممقوتين من كل عاقل .

٢٥ ـ وفى سورة «طه» جانب من قصة خروج بنى إسرائيل من مصر ، وتذكيرهم بنعم الله ـ تعالى ـ عليهم ، لكى يشكروه على كرمه وفضله قال ـ تعالى ـ :

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾

أى : والله لقد أوحينا إلى عبدنا موسى - عليه السلام - وقلنا له : سر بعبادى من بنى إسرائيل فى أول الليل متجها بهم من مصر إلى البحر الأحمر فإذا ما وصلت إليه ، ﴿ فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا . . ﴾ .

أى : فاجعل لهم طريقا فى البحر يابسا .

والمراد بالطريق جنسه فإن الطرق التى حدثت بعد أن ضرب موسى بعصاه البحر ، كانت اثنى عشر طريقا بعدد أسباط بنى إسرائيل .

وعبر - سبحانه - عن بنى إسرائيل الذين خرجوا مع موسى بعنوان العبودية لله - تعالى - للإشعار بعطفه - عز وجل - عليهم ورحمته بهم ، وللتنبيه على طغيان فرعون حيث استعبد واستذل عبادا للخالق - سبحانه - وجعلهم عبيدا له .

وقوله - سبحانه - : ﴿ لاَّ تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَىٰ ﴾ تذييل قصد به تثبيت فؤاد موسى - عليه السلام - وإدخال الطمأنينة على قلبه .

أى : اضرب لهم طريقا فى البحر يابسا ، حالة كونك غير خائف من أن يدركك فرعون وجنوده من الخلف ، وغير وجل من أن يغرقكم البحر من أمامكم .

فالآية الكريمة قد اشتملت على كل ما من شأنه أن يغرس الأمان والاطمئنان فى قلب موسى ومن معه .

ثم بين - سبحانه - موقف فرعون بعد أن علم بأن موسى قد خرج بقومه من مصر فقال - تعالى - : ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ .

أى : وبعد أن علم فرعون بخروج موسى وبنى إسرائيل من مصر ، جمع جنوده وأسرع فى طلب موسى ومن معه ، فكانت نتيجة ذلك ، أن أغرق الله - تعالى - فرعون وجنوده فى البحر ، وأهلكهم عن آخرهم .

والتعبير بالاسم المبهم الذى هو الموصول فى قوله : ﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ يدل على تعظيم ما غشيهم وتهويله ، أى : فعلاهم وغمرهم من ماء البحر مالايعلم كنهه إلا الله - تعالى - بحيث صاروا جميعا فى طيات أمواجه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴾ بيان لحال فرعون قبل أن يهلكه الله - تعالى - بالغرق .

أى : وأضل فرعون فى حياته قومه عن طريق الحق ، وما هداهم إليها وإنما هداهم إلى طريق الغى والباطل ، فكانت عاقبتهم جميعا الاستئصال والدمار .

ثم ذكر - سبحانه - بنى إسرائيل بنعمة عليهم فقال : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ ﴾ فرعون وجنده ، بأن أغرقناهم أمام أعينكم وأنتم تنظرون إليهم ، بعد أن كانوا يسومونكم سوء العذاب .

﴿ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ ﴾ أى : وواعدنا نبيكم موسى فى هذا المكان لإعطائه التوراة لهدايتكم وإصلاح شأنكم ، وهذا الوعد هو المشار إليه بقوله - تعالى - : ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ .

وقوله : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴾ نعمة ثالثة من نعمه - سبحانه - عليهم .

والمن : مادة حلوة لزجة تشبه العسل كانت تسقط على الشجر من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس .

والسلوى : طائر لذيذ الطعم ، يشبه الطائر الذى يسمى السمانى ، كانوا يأخذونه ويتلذذون بأكله .

وقيل : هما كناية عما أنعم الله به عليهم ، وهما شىء واحد ، سمى أحدهما «مَنًّا» لامتنان الله - تعالى - عليهم ، وسمى الثانى «سلوى» لتسليتهم به .

أى : ونزلنا عليكم بفضلنا ، ورحمتنا وأنتم فى التيه تلك المنافع والخيرات التى تأخذونها من غير كد أو تعب .

والأمر فى قوله - سبحانه - ﴿ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ للإباحة ، والجملة مقول لقول محذوف ، أى : وقلنا لهم كلوا من طيبات ما رزقناكم من المن والسلوى ، ومن غيرها من اللذائذ التى أحلها الله لكم .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ تحذير لهم من تجاوز الحدود التى شرعها الله - تعالى - لهم ، إذ الطغيان مجاوزة الحد فى كل شىء .

والمعنى : كلوا يا بنى إسرائيل من الطيبات التى رزقكم الله إياها ، واشكروه عليها ، ولا تتجاوزوا فيما رزقناكم الحدود التى شرعناها لكم ، فإنكم إذا فعلتم ذلك حق عليكم

غضبى ، ونزل بكم عقابى ، ومن حق عليه غضبى ونزل به عقابى ﴿فَقَدْ هَوَىٰ﴾ أى : إلى النار .

ثم فتح - سبحانه - باب الأمل لعباده فقال : ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ﴾ أى : لكثير المغفرة ﴿لِّمَن تَابَ﴾ من الشرك والمعاصى ﴿وَآمَنَ﴾ بكل ما يجب الإيمان به ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أى : وعمل عملا مستقيما يرضى الله - تعالى - ﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ أى : ثم واظب على ذلك ، وداوم على استقامته وصلاحه إلى أن لقى الله - تعالى - .

٢٦ - وفى سورة «يونس» بضع آيات ، حكت لنا بأسلوبها البليغ كيف كانت نهاية فرعون ، وماذا قال عندما أدركه الغرق ، وماذا كان الرد عليه .

وهذه الآيات هى قوله - تعالى - :

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢) وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣)﴾

والمعنى : وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر ، وهم تحت رعايتنا وقدرتنا ، حيث جعلناه لهم طريقا يبسا ، فساروا فيه حتي بلغوا نهايته ، فأتبعهم فرعون وجنوده لا لطلب الهداية والإيمان ، ولكن لطلب البغى والعدوان .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله فرعون عندما نزل به قضاء الله الذى لايرد فقال - تعالى - :

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ .

أى : لقد اتبع فرعون وجنوده بنى إسرائيل بغيا وعدوا ، فانطبق عليه البحر ، ولفه تحت أمواجه ولججه ، حتى إذا أدركه الغرق وعاين الموت وأيقن أنه لانجاة له منه ، قال آمنت وصدقت ، بأنه لامعبود بحق سوى الإله الذى آمنت به بنو إسرائيل ، وأنا من القوم الذين أسلموا نفوسهم لله وحده ، وأخلصوها لطاعته .

ولما كان هذا القول قد جاء فى غير أوانه ، وأن هذا الإيمان لاينفع لأنه جاء عند معاينة الموت ، فقد رد الله - تعالى - على فرعون بقوله - سبحانه - : ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ .

أى : الآن تدعى الإيمان حين يئست من الحياة ، وأيقنت بالموت ، والحال أنك كنت قبل ذلك من العصاة المفسدين فى الأرض ، المصرين على تكذيب الحق الذى جاءك به رسولنا موسى - عليه السلام - .

قال الإمام ابن كثير : «وهذا الذى حكاه الله - تعالى - عن فرعون من قوله هذا فى حاله ذاك ، من أسرار الغيب التى أعلم الله - تعالى - بها رسوله ﷺ ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : لما قال فرعون : آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرآئيل ، قال جبريل لى يا محمد لو رأيتنى وقد أخذت حالا من حال البحر - أى طينا أسود من طين البحر - فدسسته فى فمه مخافة أن تناله الرحمة» ، رواه الترمذى ، وابن جرير ، وابن أبى حاتم فى تفاسيرهم ، من حديث حماد بن سلمة ، وقال الترمذى : حديث حسن .

ثم ساق ابن كثير بعد ذلك جملة من الأحاديث فى هذا المعنى .(١)

وقوله - سبحانه - : ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً . .﴾ تهكم به ، وتخييب لآماله ، وقطع لدابر أطماعه .

والمعنى إن دعواك الإيمان الآن مرفوضة ، لأنها جاءت فى غير وقتها ، وإننا اليوم بعد أن حل بك الموت ، نلقى بجسمك الذى خلا من الروح على مكان مرتفع من الأرض لتكون عبرة وعظة للأحياء الذين يعيشون من بعدك سواء أكانوا من بنى إسرائيل أم من غيرهم ، حتى يعرف الجميع بالمشاهدة ، أو الإخبار سوء عاقبة المكذبين ، وأن الألوهية لاتكون إلا لله الواحد الفرد الصمد .

وقوله : ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ تذييل قصد به دعوة الناس جميعا إلى التأمل والتدبر ، والاعتبار بآيات الله ، وبمظاهر قدرته .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ٤ ص٢٢٧ طبعة دار الشعب

أى : وإن كثيرا من الناس لغافلون عن آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا على إهلاك كل ظالم جبار .

قال ابن كثير : وكان هلاك فرعون يوم عاشوراء ، كما قال البخارى : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا غندر ، حدثنا شعبة ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قدم النبى ﷺ المدينة واليهود تصوم يو م عاشوراء فقالوا : هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون ، فقال النبى ﷺ لأصحابه : أنتم أحق بموسى منهم فصوموه .(١)

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك بعض مظاهر نعمه على بنى إسرائيل بعد أن أهلك عدوهم فرعون فقال - تعالى - :

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ .

والمعنى : ولقد أنزلنا بنى إسرائيل بعد هلاك عدوهم فرعون منزلا صالحا مرضيا ، فيه الأمان والاطمئنان لهم ، وأعطيناهم فوق ذلك الكثير من ألوان المأكولات والمشروبات الطيبات التى أحللناها لهم .

وقوله : ﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ . . ﴾ توبيخ لهم على موقفهم الجحودى من هذه النعم التى أنعم الله بها عليهم .

أى : أنهم ما تفرقوا فى أمور دينهم ودنياهم على مذاهب شتى ، إلا من بعد ما جاءهم العلم الحاسم لكل شبهة ، وهو ما بين أيديهم من الوحى الذى أمرهم الله - تعالى - أن يتلوه حق تلاوته ، وألا يستخدموه فى التأويلات الباطلة .

فالجملة الكريمة توبخهم على جعلهم العلم الذى كان من الواجب عليهم أن يستعملوه - فى الحق والخير - وسيلة للاختلاف والابتعاد عن الطريق المستقيم .

وقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ تذييل قصد به الزجر عن الاختلاف واتباع الباطل .

أى : إن ربك يفصل بين هؤلاء المختلفين ، فيجازى أهل الحق بما يستحقونه من ثواب ، ويجازى أهل الباطل بما يستحقونه من عقاب .

هذا ومن كل ما سبق يتبين لنا أن خروج بنى إسرائيل من مصر بقيادة موسى - عليه السلام - كان نعمة بالنسبة لهم ، وكان نقمة على فرعون وملئه ﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ . فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ . فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ . إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٤ ص٢٢٩ .

٢٧ ـ ماذا كان موقف بنى إسرائيل من موسى ـ عليه السلام ـ بعد غرق فرعون وقومه؟

كان موسى ـ عليه السلام ـ واحدا من بنى إسرائيل ، إذ ينتهى نسبه إلى يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ـ عليهم السلام ـ كماسبق أن بينا .

وقد أرسله الله ـ تعالى ـ إلى فرعون وقومه ، ليدعوهم إلى إخلاص العبادة لله الواحد القهار ، ولينقذ بنى إسرائيل من ظلم فرعون وملئه لهم ، حيث كانوا يذبحون الذكور من بنى إسرائيل عند ولادتهم ، ويتركون الإناث أحياء ، كما حكى القرآن الكريم ذلك فى آيات متعددة وقد رأينا فيما سبق كيف أن موسى ـ عليه السلام ـ قد لبى دعوة ربه ـ عز وجل ـ ، وبقى يكرر الدعوة لفرعون وقومه لكى يخلصوا عبادتهم لله ـ تعالى ـ ويمتنعوا عن الظلم مدة متطاولة لايعلمها إلا الله ـ عز وجل ـ وكانت نتيجة إصرار فرعون وقومه على الكفر والجحود والعناد ، أن أغرقهم جميعا أمام أعين بنى إسرائيل .

وبدأ موسى ـ عليه السلام ـ بعد هلاك فرعون وملئه ، يتفرغ لدعوة قومه من بنى إسرائيل لعبادة الله ـ تعالى ـ وحده ، وللتحلي بمكارم الأخلاق ، وللمداومة على شكر الله ـ عز وجل ـ لكى يزيدهم من نعمه .

ومن الآيات القرآنية التى حكت لنا جانبا من دعوة موسى ـ عليه السلام ـ لهؤلاء القوم ، قوله ـ تعالى ـ فى سورة «إبراهيم» :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾

والمتدبر فى هذه الآيات الكريمة يرى أن موسى ـ عليه السلام ـ قد استعمل فى دعوته لقومه من بنى إسرائيل أسمى الأساليب وأحكمها ، فهو دعاهم ـ أولا ـ إلى إخلاص العبادة لله الواحد القهار ، ثم ذكرهم ـ ثانيا ـ بنعم الله عليهم ، حيث أنجاهم من ظلم فرعون وملئه لهم ، حيث كانوا يذبحون الذكور ويستحيون الإناث ، ثم ذكرهم ـ ثالثا ـ بآيات الله التى فيها السعادة لمن آمن وعمل صالحا ، وفيها الشقاء لمن كفر وعمل سيئا ، ثم ذكرهم ـ رابعا ـ بسنة من سنن الله فى خلقه وهى أنه ـ سبحانه ـ يزيد الشاكرين من نعمه ، ويعذب الجاحدين لهذه النعم ثم وضح لهم ـ خامسا ـ أن جحود الجاحدين وكفر الكافرين لن يضر الله ـ تعالى ـ شيئا ، لأنه ـ سبحانه ـ غنى عن العالمين .

هذا جانب من النصائح السديدة والتوجيهات الحكيمة ، التى وجهها موسى ـ عليه السلام ـ لقومه من بنى إسرائيل ، فماذا كان موقفهم من نبيهم وهاديهم ومرشدهم الذى أنقذهم من ظلم فرعون لهم ، والذى لم يأل جهدا فى الدفاع عنهم؟

إن المتدبر للقرآن الكريم ، يرى بوضوح أن أكثر بنى إسرائيل قد وقفوا من نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ مواقف فيها مافيها من العصيان له ، والمخالفة لأمره ، والتطاول عليه ، والإصرار على الإشراك بالله ـ تعالى ـ فى العبادة .

ومن بين مواقفهم المخزية التى تدل على جهلهم وغبائهم ، أنهم طلبوا من موسى ـ عليه السلام ـ وهو رسولهم من الله ـ تعالى ـ : أن يجعل لهم آلهة كما لغيرهم آلهة .

وقد حكى القرآن ذلك فى قوله ـ تعالى ـ فى سورة «الأعراف» :

وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾

إن هذه الآيات تحكى قصة عجيبة لبنى إسرائيل ملخصها : أنهم بعد أن خرجوا من مصر بقيادة موسى - عليه السلام - تبعهم فرعون وجنوده ليعيدوهم إليها ، إلا أن الله - تعالى - انتقم لهم من فرعون ، وجنده فأغرقهم أمام أعينهم وسار بنو إسرائيل نحو المشرق متجهين إلى الأرض المقدسة بعد أن عبروا البحر ، ولكنهم ما إن جاوزوا البحر الذى غرق فيه عدوهم والذى مازالت رماله الرطبة عالقة بنعالهم ، حتى وقعت أبصارهم على قوم يعبدون الأصنام ، فماذا كان من بنى إسرائيل؟

كان منهم أن عاودتهم طبيعتهم الوثنية ، فطلبوا من نبيهم موسى - عليه السلام - الذى جاء لهدايتهم وإنقاذهم مما هم فيه من ظلم أن يصنع لهم آلهة من جنس الآلهة التى يعبدها أولئك القوم .

وهنا غضب عليهم موسى غضبا شديدا ، ووصفهم بأنهم قوم يجهلون الحق ، وبين لهم فساد ما عليه المشركون وذكرهم بما حباهم الله - تعالى - به من نعم جزيلة ، توجب عليهم إفراده ، بالخضوع والعبادة والطاعة والشكر .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ﴾ بيان للمنة العظيمة التى منحهم الله إياها ، وهى عبورهم البحر بعد أن ضربه موسى بعصاه ، فأصبح طريقا يابسا يسيرون فيه بأمان واطمئنان حتى عبروه إلى الناحية الأخرى ، يصحبهم لطف الله ، وتحدوهم عنايته ورعايته ، والمراد بالبحر : بحر القلزم ، وهو المسمى الآن بالبحر الأحمر .

وقوله - تعالى - : ﴿ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ﴾ بيان لما شاهدوه من أحوال بعض المشركين عقب عبورهم البحر ، ونجاتهم من عدوهم ، فماذا كانت نتيجة هذه المشاهدة؟ لقد كان المتوقع منهم أن يحتقروا ما شاهدوه ، وأن ينفروا مما أبصروه ، لأن العهد لم يطل بهم منذ أن كانوا يسامون سوء العذاب فى ظل عبادة الأصنام عند فرعون وقومه ، ولأن نجاتهم مما كانوا فيه من ذل وهوان ، قد تمت على يد نبيهم الذى دعاهم إلى توحيد الله - تعالى - لكى يزيدهم من فضله .

ولكن طبيعة بنى إسرائيل المعوجة لم تفارقهم ، فهاهم أولاء ما إن وقعت أبصارهم على قوم يعكفون ويداومون على عبادة أصنام لهم[1] ، حتى انجذبوا إليها ، وطلبوا من نبيهم الذى جاء لهدايتهم ، أن يجعل لهم وثنا كغيرهم لكى يعبدوه من جديد ، لقد حكى القرآن عنهم أنهم عندما شاهدوا هذا المنظر ، مالبثوا أن قالوا لنبيهم : ﴿ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا

---

(١) اختلف المفسرون فى شأن القوم الذين كانوا يعكفون على أصنام لهم عند مرور بنى إسرائيل بهم ، فقيل هم من عرب لخم ، وقيل هم من لخم وجذام ، وقيل كانوا من الكنعانيين الذين أمر موسى ، قومه بقتالهم وقيل إنهم من العرب الذين كانوا يقيمون بقرب حدود مصر .

﴿إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ قالوا ذلك لأن الإيمان لم يستقر فى قلوبهم ، ولأن ما ألفوه من عبادة الأصنام أيام استعباد فرعون لهم ، مازال متمكنا من نفوسهم ، ومسيطرا على عقولهم .

وهكذا عدوى الأمراض تصيب النفوس كما تصيب الأبدان ، وهكذا طبيعة بنى إسرائيل ما تكاد تهتدى حتى تضل ، وما تكاد ترتفع حتى تنحط ، وما تكاد تسير فى طريق الاستقامة حتى ترتكس وتنتكس .

وفى قولهم لنبيهم ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ بصيغة الأمر ، أكبر دليل على غباء عقولهم ، وسوء أدبهم ، لأنهم لو استأذنوه - مثلا - فى اتخاذ صنم يعبدونه ، كغيرهم لكان شأنهم أقل غرابة ، ولكن الذى حصل منهم أنهم طلبوا منه - وهو نبيهم الداعى لهم إلى توحيد الله - تعالى - والمنقذ لهم من عدوهم الوثنى الجبار - أن يقوم هو بنفسه بصناعة صنم لكى يعبدوه كغيرهم!

ولقد غضب موسى - عليه السلام - من طلبهم هذا - وهو الغضوب بطبيعته لربه ودينه - فرد عليهم ردا قويا فيه توبيخ لهم وتعجب من قولهم بعد أن رأوا من المعجزات ما رأوا فقال : ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أى : إنكم يا بنى إسرائيل بطلبكم هذا برهنتم على أنكم قوم قد ملأ الجهل قلوبكم ، وغطى على عقولكم ، فصرتم لاتفرقون بين ما عليه هؤلاء من ضلال مبين ، وبين ما تستحقه الألوهية من صفات وتعظيم ولم يقيد ما يجهلونه ليفيد أنه جهل كامل شامل يتناول فقد العلم ، وسفه النفس ، وفساد العقل ، وسوء التقدير .

وبعد أن كشف لهم سوء حالهم ، وفرط جهالاتهم ، بين لهم فساد ما طلبوه فى ذاته ، وقبح عاقبة من أرادوا تقليدهم ، فقال لهم بأسلوب الاستئناف المفيد للتعليل ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

أى : إن هؤلاء الذين تبغون تقليدهم فى عبادة الأوثان ، محكوم على ماهم فيه بالدمار ، ومقضى على ما يعملونه من عبادة الأصنام بالاضمحلال والزوال لأن دين التوحيد سيظهر فى هذه الديار ، وستصير العبادة لله الواحد القهار .

وبهذا الرد يكون موسى - عليه السلام - قد كشف لقومه عن سوء ما يطلبون وصرح لهم بأن مصير ما يبغونه إلى الهلاك والتدمير .

ثم مضى موسى - عليه السلام - يستنكر عليهم هذا الطلب ، ويبين لهم أن الله وحده هو المستحق للعبادة فقال : ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ .

أى قال موسى ـ عليه السلام ـ مذكرا قومه بنعم الله عليهم الموجبة لإفراده بالعبادة والخضوع : أغير الله أطلب لكم معبودا أحملكم على العبودية له ، وهو فضلكم على عالمى زمانكم ، وقد كان الواجب عليكم أى تخصوه بالعبادة ، كما اختصكم هو بشتى النعم الجليلة ، فالاستفهام فى الآية الكريمة للإنكار المشرب معنى التعجب لابتغائهم معبودا سوى الله ـ تعالى ـ الذى غمرهم بنعمه ، وأحاطهم بألوان إحسانه .

ثم ذكرهم ـ سبحانه ـ بنعمة إنجائهم من العذاب والتنكيل ، ليبتليهم أيشكرون أم يكفرون ، فقال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ .

والمعنى : واذكروا يا بنى إسرائيل لتعتبروا وتتعظوا وتشكروا الله على نعمه وقت أن أنجيناكم من آل فرعون الذين كانوا يعذبونكم أشق العذاب وأصعبه ، حيث كانوا يزهقون أرواح ذكوركم ويستبقون نفوس نسائكم ليستخدموهن ويستذلوهن ، وفى ذلكم العذاب وفى النجاة منه امتحان لكم لتشكروا الله على نعمه ، ولتقلعوا عن السيئات التى تؤدى بكم إلى الإذلال فى الدنيا ، والعذاب فى الآخرة .

وجعلت النجاة هنا من آل فرعون ولم تجعل منه ، مع أنه هو الآمر بتعذيب بنى إسرائيل ، للتنبيه على أن حاشيته وبطانته كانت عونا على إذاقتهم سوء العذاب ، وفى إنزال ألوان الإذلال بهم .

وجعلت الآية الكريمة استحياء النساء عقوبة لبنى إسرائيل ـ مع أنه فى ظاهره نعمة لهم ـ لأن هذا الإبقاء على النساء كان المقصود منه الاعتداء على أعراضهن ، واستعمالهن فى شتى أنواع الخدمة ، وإذلالهن بالاسترقاق ، فبقاؤهن كذلك بقاء ذليل وعذاب أليم ، تأباه النفوس الكريمة ، والطباع الحرة الأبية .

وبهذا تكون الآيات الكريمة قد ردت على بنى إسرائيل فيما طلبوا أبلغ رد وأحكمه ، ووصفتهم بما هم أهله من سوء تدبير ، وسفاهة تفكير ، فقد بدأت بإثبات جهلهم بربهم وبأنفسهم ، حيث طلبوا من نبيهم أن يجعل لهم إلها كما لغيرهم آلهة ، ثم ثنت بإظهار فساد ما طلبوه فى ذاته ، لأن مصيره إلى الزوال والهلاك ، وما كان كذلك لايصلح أن يكون إلها ، ثم بينت بعد ذلك بأن العبادة لغير الله لاتجوز بأى حال ، لأنه هو وحده صاحب الخلق والأمر ، ثم ذكرتهم فى ختامها بوجوه النعم التى أسبغها الله عليهم ، لتشعرهم بأن ما طلبوه من نبيهم ، هو من قبيل مقابلة الإحسان بالجحود والنكران ، ولتحملهم على أن يتدبروا أمرهم ، ويراجعوا أنفسهم ، ويتوبوا إلى خالقهم توبة صادقة نصوحا ، إن كانوا ممن ينتفع بالعظات ويعتبر بالمثلات .

٢٨ - عصيانهم لنبيهم موسى - عليه السلام - واستخفافهم بتوجيهاته :

وقد حكى القرآن ذلك عنهم فى مواطن متعددة من آياته ، ومن أبرز ألوان تخاذلهم عن طاعة نبيهم ما قصه القرآن علينا فى قوله - تعالى - فى سورة «المائدة» :

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾

هذه الآيات الكريمة تصور لنا ما جبل عليه بنو إسرائيل من جبن شديد ، وعزيمة خوارة ، وعصيان لرسلهم ، وإيثار للذلة مع الراحة على العزة مع الجهاد وهى تحكى بأسلوبها البليغ قصة تاريخية معروفة ، وملخص هذه القصة .

أن بنى إسرائيل بعد أن ساروا مع نبيهم موسى - عليه السلام - إلى بلاد الشام ، عقب غرق فرعون أمام أعينهم ، أوحى الله - تعالى - إلى موسى أن يختار من قومه اثنى عشر نقيبا ، وأمره أن يرسلهم إلى الأرض المقدسة التى كان يسكنها الكنعانيون حينئذ ، ليتحسسوا أحوال سكانها ، وليعرفوا شيئا من أخبارهم .

ولقد نفذ موسى - عليه السلام - ما أمره به ربه - سبحانه - وكان مما قاله موسى للنقباء عند إرسالهم لمعرفة أحوال سكان الأرض المقدسة : «لاتخبروا أحدا سواى عما ترونه» .

فلما دخل النقباء الأرض المقدسة ، واطلعوا على آحوال سكانها ، وجدوا منهم قوة عظيمة ، وأجساما ضخمة ، فعاد النقباء إلى موسى وقالوا له - وهو فى جماعة من بنى إسرائيل - قد جئنا إلى الأرض التى بعثتنا إليها ، فإذا هى فى الحقيقة تدر لبنا وعسلا ، وهذا شىء من ثمارها ، غير أن الساكنين فيها أقوياء ، ومدينتهم حصينة ، وأخذ كل نقيب منهم ينهى سبطه عن القتال ، إلا اثنين منهم فإنهما نصحا القوم بطاعة نبيهم موسى - عليه السلام - وبقتال الكنعانيين معه ، ولكن بنى إسرائيل عصوا أمر هذين النقيبين ، وأطاعوا أمر بقية النقباء العشرة ، وأصروا على عدم الجهاد ، ورفعوا أصواتهم بالبكاء ، وقالوا : يا ليتنا متنا فى مصر أو فى هذه البرية .

وحاول موسى - عليه السلام - أن يصدهم عما ترددوا فيه من جبن وعصيان وأن يحملهم على قتال الجبارين ، ولكنهم عموا وصموا .

وأوحى الله - تعالى - إلى موسى أن الأرض المقدسة محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض جزاء عصيانهم وجبنهم .

هذا هو ملخص هذه القصة كما وردت فى كتب التفسير والتاريخ ، وقد حشا بعض المفسرين كتبهم بأوصاف للجبارين - الذين ورد ذكرهم فى الآيات الكريمة - لاتقبلها العقول السليمة ، وليس لها أصل يعتمد عليه بل هى مما يستحى من ذكره كما قال ابن كثير .(١)

هذا ، وقوله - تعالى - : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ كلام مستأنف ساقه الله - تعالى - لبيان بعض ما فعله بنو إسرائيل من رذائل بعد أخذ الميثاق عليهم ، وتفصيل لكيفية نقضهم لهذا الميثاق .

أى : واذكر يا محمد لهؤلاء اليهود المعاصرين لك ، قول موسى لآبائهم على سبيل النصح والإرشاد : يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم ، أى : تذكروا إنعامه عليكم بالشكر والطاعة .

وفى قول موسى لهم - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ تلطف معهم فى الخطاب ، وحمل لهم على شكر النعمة ، واستعمالها فيما خلقت له لكى يزيدهم الله منها ، وفيه كذلك تذكير لهم بما يربطهم به من رابطة الدم والقرابة التى تجعله منهم ، يهمه مايهمهم ويسعده ما يسعدهم ، فهو يوجه إليهم ما هو كائن لهدايتهم وسعادتهم .

---

(١) من ذلك ما جاء فى وصفهم أن منهم عوج بن عنق الذى كان طوله ثلاثة آلاف ذراع ، وأن سبعين رجلا من قوم موسى استظلوا فى ظل واحد منهم ، وقال الآلوسى بعد أن حكى ماقيل فيهم من صفات : وهى عندى حديث خرافة .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ ، بيان لنعم ثلاث أسبغها الله عليهم .

أما النعمة الأولى : فهى جعل كثير من الأنبياء فيهم كموسى وهارون ، وإسحق ، ويعقوب ، ويوسف ـ عليهم السلام ـ وقد أرسل الله ـ تعالى ـ هؤلاء الأنبياء وغيرهم فى بنى إسرائيل ، لكى يخرجوهم من ظلمات الكفر والفسوق والعصيان إلى نور الهداية والطاعة والإيمان .

وأما النعمة الثانية : فهى جعلهم ملوكا ، أى : جعلكم أحرارا تملكون أمر أنفسكم بعد أن كنتم مملوكين لفرعون وقومه ، الذين كانوا يسومونكم سوء العذاب .

أى : جعلكم تملكون المساكن وتستعملون الخدم ، بعد أن كنتم لاتملكون شيئا من ذلك وأنتم تحت سيطرة فرعون وقومه .

وهذه النعمة ـ أى : نعمة الحرية بعد الذل ، والسعة بعد الضيق ـ من النعم العظمى التى لايقدرها ويحافظ عليها إلا أصحاب النفوس الكبيرة ، التى تعاف الظلم وتأبى الضيم ، وتحسن الشكر لله ـ تعالى ـ .

وأما النعمة الثالثة : فهى أنه ـ سبحانه ـ آتاهم من ألوان الإكرام والمنن مالم يؤت أحدا من عالمى زمانهم ، فقد فلق لهم البحر فساروا فى طريق يابس حتى نجوا وغرق عدوهم ، وأنزل عليهم المن والسلوى ليأكلوا من الطيبات ، وفجر لهم من الحجر اثنتى عشرة عينا حتى يعلم كل أناس مشربهم ، إلى غير ذلك من ألوان النعم التى حباهم الله ـ تعالى ـ بها ، والتى كانت تستلزم منهم المبادرة إلى امتثال أوامره ، واجتناب نواهيه .

وبعد هذا التذكير بالنعم وجه إليهم نداء ثانيا طلب منهم فيه دخول الأرض المقدسة فقال ـ كما حكى القرآن عنه ـ : ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ .

ومعنى المقدسة : المطهرة المباركة بسبب أنها كانت موطنا لكثير من الأنبياء .

والمراد بها : بيت المقدس وقيل المراد بها : أريحاء وقيل : الطور وما حوله .

قال ابن جرير : وهى لاتخرج عن أن تكون من الأرض التى مابين الفرات وعريش مصر ، لإجماع أهل التأويل والسير والعلماء بالإخبار على ذلك .

ومعنى ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ : قدر لكم سكناها ، ووعدكم إياها متى آمنتم به وأطعتم أنبياءه ، أو معناه : فرض عليكم دخولها وأمركم به كما أمركم بأداء الصلاة والزكاة .

ومفعول ﴿ كَتَبَ ﴾ محذوف ، أى : كتب لكم أن تدخلوها وفرض عليكم دخولها لإنقاذكم من الأهوال التى نزلت بكم فى أرض مصر من فرعون وجنده .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ تحذير لهم من الجبن والإحجام ، بعد ترغيبهم الشديد فى الشجاعة والإقدام .

والمعنى : امضوا أيها القوم لأمر الله ، وسيروا خلفى لقتال الأعداء ودخول الأرض المقدسة التى أمركم ـ سبحانه ـ بدخولها ، ولا ترجعوا القهقرى منصرفين عن القتال خوفا من أعدائكم ، ومبتعدين عن طاعتى وأمرى ، فإن ذلك يؤدى بكم إلى الخسران فى الدنيا والآخرة ، وإلى الحرمان من خيرات الأرض التى أوجب الله عليكم دخولها .

هذا ، وقد جاءت هذه الجملة الكريمة ، وهى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ تحمل طابع التحذير الشديد ، وتنذرهم بالخسران المبين إذا لم يستجيبوا لأمر الله بعد أن ساق لهم موسى ألوانا من المشجعات والمرغبات فى الجهاد ، وذلك لأنه ـ عليه السلام ـ كان متوقعا منهم الإحجام عن القتال ، بعد أن جرب عنادهم وعصيانهم ، ونكوصهم على أعقابهم فى مواطن كثيرة ، فهذه التجارب جعلته وهو يأمرهم بدخول الأرض المقدسة يذكر لهم أكبر النعم ويسوق لهم أكرم الذكريات وأقوى الضمانات وأشد التحذيرات لكى يقبلوا على الجهاد بعزيمة صادقة .

ولكن بنى إسرائيل هم بنو إسرائيل ، مهما قيل لهم من ألوان الترغيب والترهيب فإن همتهم الساقطة وعزيمتهم الخائرة ، وطبيعتهم المنتكسة لم تتركهم فقد قالوا لنبيهم متذرعين بالمعاذير الكاذبة : ﴿ يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾ .

أى : قال بنو إسرائيل لنبيهم موسى ـ عليه السلام ـ إن الأرض التى وعدتنا بدخولها فيها قوم متغلبون على من يقاتلهم ، ولاقدرة لنا على لقائهم وإنا لن ندخل هذه الأرض المقدسة التى أمرتنا بدخولها مادام هؤلاء الجبارون فيها ، فإن يخرجوا منها لأى سبب من الأسباب التى لاشأن لنا بها ، فنحن على استعداد لدخولها فى راحة ويسر ، وبلا أدنى تعب أو جهد .

ولاشك أن قولهم هذا الذى حكته الآية الكريمة عنهم ليدل على منتهى الجبن والضعف ، لأنهم لايريدون أن ينالوا نصرا باستخدام حواسهم البدنية أو العقلية ، وإنما يريدون أن ينالوا مايبغون بقوة الخوارق والآيات ، وأمة هذا شأنها لاتستحق الحياة الكريمة ، لأنها لم تقدم العمل الذى يؤهلها لتلك الحياة .

ثم بين القرآن بعد ذلك أن رجلين مؤمنين منهم قد استنكروا إحجام قومهم عن الجهاد ، وحرضاهم على طاعة نبيهم فقال : ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

والمراد بالرجلين : يوشع بن نون ، وكالب بن يوقنا ، وكانا من الاثنى عشر نقيبا .

وقد وصف الله ـ تعالى ـ هذين الرجلين بوصفين :

أولهما : قوله : ﴿ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾ أى : من الذين يخافون الله وحده ويتقونه ولا يخافون سواه ، وفى وصفهم بذلك تعريض بأن من عداهما من القوم لا يخافونه ـ تعالى ـ بل يخافون العدو .

وقيل المعنى : من الذين يخافون الأعداء ويقدرون قوتهم إلا أن الله ـ تعالى ـ ربط على قلبيهما بطاعته ، فجعلهما يقولان ما قالا .

الوصف الثانى : فهو قوله : ﴿ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ فهذه الجملة صفة ثانية للرجلين ، أى : قال رجلان موصوفان بأنهما من الذين يخافون الله ـ تعالى ـ ولا يخافون سواه ، وبأنهما من الذين أنعم الله عليهما بالإيمان والتثبيت والثقة بوعده ، والطاعة لأمره قالا لقومهما ، ادخلوا عليهم الباب .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ﴾ تشجيع من الرجلين لقومهما ليزيلا عنهم الخوف من قتال الجبارين .

أى : قال الرجلان اللذان يخافان الله لقومهما : ادخلوا على أعدائكم باب مدينتهم وفاجئوهم بسيوفكم ، وباغتوهم بقتالكم إياهم ، فإذا فعلتم ذلك أحرزتم النصر عليهم ، وأدركتم الفوز ، فإنه «ماغزى قوم فى عقر دارهم إلا ذلوا» .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ دعوة من الرجلين المؤمنين لقومهما ، بأن يكلوا أمورهم إلى خالقهم بعد مباشرة الأسباب ، وأن يعقدوا عزمهم على دخول الباب على أعدائهم ، إن كانوا مؤمنين حقا ، فإن النصر يحتاج إلى تأييد من الله ـ تعالى ـ لعباده ، وإلى توكل عليه وحده ، وإلى عزيمة صادقة ، ومباشرة للأسباب التى توصل إليه .

ولكن هذه النصيحة الحكيمة من هذين الرجلين المؤمنين ، لم تصادف من بنى

إسرائيل قلوبا واعية ، ولا آذانا صاغية بل قابلوها بالتمرد والعناد ، وكرروا لنبيهم موسى - عليه السلام - نفيهم القاطع للإقدام على دخول الأرض المقدسة مادام الجبارون فيها فقالوا - كما حكى القرآن عنهم - : ﴿ يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا ﴾ .

أى : قالوا غير عابئين بالنصيحة ، بل معلنين العصيان والمخالفة : يا موسى إنا لن ندخل هذه الأرض التى أمرتنا بدخولها فى أى وقت من الأوقات ، مادام أولئك الجبارون يقيمون فيها ، لأننا لاقدرة لنا على مواجهتهم .

وقد أكدوا امتناعهم عن دخول هذه الأرض فى هذه المرة بثلاث مؤكدات ، هى : إن ، ولن ، وكلمة أبدا .

أى : لن ندخلها بأى حال من الأحوال مادام الجبارون على قيد الحياة ويسكنون فيها .

ثم أضافوا إلى هذا القول الذى يدل على جبنهم وخورهم ، سلاطة فى اللسان ، وسوء أدب فى التعبير ، وتطاولا على نبيهم فقالوا :

﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ .

أى : إذا كان دخول هذه الأرض يهمك أمره ، فاذهب أنت وربك لقتال سكانها الجبابرة وأخرجاهم منها لأنه - سبحانه - ليس ربا لهم - فى زعمهم - إن كانت ربوبيته تكلفهم قتال سكان تلك الأرض .

وقولهم : ﴿ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ تأكيد منهم لعدم دخولهم لتلك الأرض المقدسة .

أى : إنا هاهنا قاعدون فى مكاننا لن نبرحه ، ولن نتقدم خطوة إلى الأمام لأن كل مجد وخير يأتينا عن طريق قتال الجبارين فنحن فى غنى عنه ، ولا رغبة لنا فيه .

ثم قصت علينا السورة الكريمة أن موسى - عليه السلام - بعد أن رأى من قومه ما رأى من عناد وجبن ، لجأ إلى ربه يشكو إليه منهم ، يلتمس منه أن يفرق بينه وبينهم ، فقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

أى : قال موسى باثا شكواه وحزنه إلى الله ، ومعتذرا إليه من فسوق قومه وسفاهتهم وجبنهم : رب إنك تعلم أنى لا أملك لنصرة دينك أمر أحد ألزمه بطاعتك سوى أمر نفسي ، وأمر أخى هارون ، ولاثقة لى فى غيرنا أن يطيعك فى العسر واليسر والمنشط والمكره .

ولم يذكر الرجلين اللذين قالا لقومهما فيما سبق ﴿ ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ ﴾ لعدم ثقته الكاملة فى دخولهما معه أرض الجبارين ، وفى وقوفهما بجانبه عند القتال إذا تخلى بقية

القوم عنه فإن بعض الناس كثيرا مايقدم على القتال مع الجيش الكبير ، ولكنه قد يحجم إذا رأى أن عدد المجاهدين قليل ، ومن هنا لم يذكر أنه يملك أمر هذين الرجلين كما يملك أمر نفسه وأمر أخيه .

وصرح موسى ـ عليه السلام ـ بأنه يملك أمر أخيه هارون كما يملك أمر نفسه ، لمؤازرته التامة له فى كفاحه ظلم فرعون ، ولوقوفه إلى جانبه بعزيمة صادقة فى كل موطن من مواطن الشدة وليقينه بأنه مؤيد بروح من الله ـ تعالى ـ .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ بيان لما يرجوه موسى من ربه ـ عز وجل ـ بعد أن خرج بنو إسرائيل عن طاعته .

والمعنى : قال موسى مخاطبا ربه : لقد علمت يا إلهى أنى لا أملك لنصرة دينك إلا أمر نفسى وأمر أخى ، أما قومى فقد خرجوا عن طاعتى وفسقوا عن أمرك ومادام هذا من شأنهم فافصل بيننا وبينهم بقضائك العادل ، بأن تحكم لنا بما نستحق ، وتحكم عليهم بما يستحقون ، فإنك أنت الحكم العدل بين العباد .

وهذا الرجاء من موسى لربه فى معنى الدعاء عليهم بسبب جبنهم وعصيانهم وقد أجاب الله ـ تعالى ـ دعاءه فيهم ، بأن أضلهم ظاهرا كما ضلوا باطنا ، وجاء الحكم الفاصل ممن يملكه فقال ـ تعالى ـ : ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

والمعنى : قال الله ـ تعالى ـ لنبيه موسى مجيبا لدعائه : يا موسى إن الأرض المقدسة محرمة على هؤلاء الجبناء العصاة مدة أربعين سنة ، يسيرون خلالها فى الصحراء تائهين حيارى لايستقيم لهم أمر ، ولايستقر لهم قرار ، فلاتحزن عليهم بسبب هذه العقوبة ، فإننا ماعاقبناهم بهذه العقوبة إلا بسبب خروجهم عن طاعتنا ، وتمردهم على أمرنا ، وجبنهم عن قتال أعدائنا ، وسوء أدبهم مع أنبيائنا .

٢٩ ـ عكوفهم على عبادة العجل فى غيبة نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ .

وقد فصلت سورة «طه» الحديث عما كان من بنى إسرائيل من جهالات وسفاهات تدل على انطماس بصيرتهم ، حيث عبدوا عجلا جسدا له خوار وتبدأ الآيات التى تشهد على ذلك بقوله ـ تعالى ـ :

وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ

لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾

وهذه الآيات الكريمة تحكى قصة ملخصها : أن موسى ـ عليه السلام ـ بعد أن أهلك الله ـ تعالى ـ فرعون وجنوده ، سار ببنى إسرائيل متجها ناحية جبل الطور ، ثم تركهم مستخلفا عليهم أخاه هارون ، وذهب لمناجاة ربه ومعه سبعون من وجهائهم ، ثم عجل من بينهم شوقا للقاء ربه ، فأخبره ـ سبحانه ـ بما أحدثه قومه فى غيبته عنهم ، وجملة ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ مقول لقول محذوف .

والمعنى : وقلنا لموسى : أى شىء جعلك تتعجل المجىء إلى هذا المكان قبل قومك وتخلفهم وراءك مع أنه ينبغى لرئيس القوم أن يتأخر عنهم فى حالة السفر ، ليكون نظره محيطا بهم ونافذا عليهم؟

فأجاب موسى معتذرا لربه ـ تعالى ـ بقوله : ﴿ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي ﴾ أى : على مقربة منى ، وسيلحقون بى بعد زمن قليل ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ أى : وقد حملنى على أن أحضر قبلهم ، شوقى إلى مكالمتك ـ يا إلهى ـ وطمعى فى زيادة رضاك عنى .

فموسى ـ عليه السلام ـ قد علل تقدمه على قومه فى الحضور بعلتين ، **الأولى** : أنهم كانوا على مقربة منه ، والثانية حرصه على استدامة رضى ربه عنه .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾ إخبار منه ـ سبحانه ـ بما فعله قومه بعد مفارقته لهم .

والسامرى : اسم الشخص الذى كان سببا فى ضلال بنى إسرائيل ، قيل : كان من زعماء بنى إسرائيل وينسب إلى قبيلة تعرف بالسامرة .

وقيل : إنه كان من قوم يعبدون البقر ، وقيل غير ذلك من أقوال مظنونة غير محققة .

أى : قال الله ـ تعالى ـ لموسى : فإنا قد أضللنا قومك من بعد مفارقتك لهم ، وكان السبب فى ضلالهم السامرى ، حيث دعاهم إلى عبادة العجل فانقادوا له وأطاعوه .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴾ بيان لما كان منه ـ عليه السلام ـ بعد أن علم بضلال قومه .

والمعنى فرجع موسى إلى قومه ـ بعد مناجاته لربه وبعد تلقيه التوراة ـ حالة كونه ﴿ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴾ أى : غضبان شديد الغضب .

فالمراد بالأسف : شدة الغضب ، وقيل المراد به : الحزن والجزع .

ثم بين ـ سبحانه ـ ما قاله موسى لقومه بعد رجوعه إليهم فقال :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ﴾ .

أى : قال لهم على سبيل الزجر والتوبيخ يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا لاسبيل لكم إلى إنكاره ، ومن هذا الوعد الحسن : إنزال التوراة لهدايتكم وسعادتكم وإهلاك عدوكم أمام أعينكم ، فلماذا أعرضتم عن عبادته وطاعته مع أنكم تعيشون فى خيره ورزقه؟

ثم زاد فى تأنيبهم وفى الإنكار عليهم فقال : ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴾ .

والمعنى : أفطال عليكم الزمان الذى فارقتكم فيه؟ لا إنه لم يطل حتى تنسوا ما أمرتكم به ، بل إنكم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم ، فأخلفتم موعدى الذى وعدتمونى إياه وهو أن تثبتوا على إخلاص العبادة لله ـ تعالى ـ .

ثم حكى ـ سبحانه ـ معاذيرهم الواهية التى تدل على بلادة عقولهم ، وانتكاس أفكارهم ، وتفاهة شخصيتهم فقال ـ تعالى ـ : ﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا . . ﴾ .

أى : قال بنو إسرائيل لنبيهم موسى على سبيل الاعتذار الذى هو أقبح من الذنب : ما أخلفنا موعدك فعبدنا العجل بأمرنا وطاقتنا واختيارنا ، فقد كان الحال أكبر من أن يدخل تحت سلطاننا ، ولو خلينا بيننا وبين أنفسنا ، ولم يسول لنا السامرى ما سول لبقينا على العهد الذى عاهدناك عليه ، وهو أن نعبد الله ـ تعالى ـ وحده .

وقوله : ﴿ وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴾ حكاية لبقية ما قالوه من أعذار قبيحة .

أى : قال بنو إسرائيل لموسى : ما أخلفنا عهدك بأمرنا ، ولكنا حملنا أثقالا وأحمالا من زينة القبط التى أخذناها منهم بدون حق ، ﴿ فَقَذَفْنَاهَا ﴾ فى النار بتوجيه من السامرى ﴿ فَكَذَلِكَ ﴾ أى : فكما ألقينا ما معنا ﴿ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴾ ما معه من تلك الزينة .

قال ابن كثير : وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة أنهم تورعوا عن زينة القبط ، فألقوها عنهم ، فعبدوا العجل ، فتورعوا عن الحقير ، وفعلوا الأمر الكبير .(١)

ثم بين ـ سبحانه ـ ما صنعه لهم السامرى من تلك الحلى فقال : ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴾ .

أى : فكانت نتيجة ما قذفوه من الحلى فى النار ، أن أخرج السامرى لهم من ذلك ﴿ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا ﴾ أى : صوت كصوت البقر .

قيل : إن الله ـ تعالى ـ خلق الحياة فى ذلك العجل على سبيل الاختبار والامتحان لهم .

وقيل : لم تكن به حياة ، ولكن السامرى صنعه لهم بدقة وجعل فيه منافذ إذا دخلت فيها الريح أخرجت منه صوتا كصوت خوار البقر .

فقال بنو إسرائيل عندما رأوا العجل الذى صنعه لهم السامرى : هذا إلهكم وإله موسى فاعبدوه ، لأن موسى نسى إلهه هنا ، وذهب ليبحث عنه فى مكان آخر .

وقولهم هذا : يدل على بلادتهم وسوء أدبهم مع نبيهم ، فهم لم يكتفوا بعبادة العجل ، بل زعموا أن نبيهم الداعى لهم إلى توحيد الله ، قد كان يعبد العجل ، وأنه قد نسى مكانه فذهب يبحث عنه .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا ﴾ تقريع لهم على جهلهم وغبائهم وسوء أدبهم .

والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، أى : أبلغ عمى البصيرة عند هؤلاء السفهاء أنهم لم يفطنوا إلى أن هذا العجل الذى اتخذوه إلها ، لايستطيع أن يجيبهم إذا سألوه

(١) تفسير ابن كثير جـ٥ ص٣٠٤ .

أو خاطبوه ، ولا يرد عليهم قولا يقولونه له ، ولايملك لهم شيئا لا من الضر ولا من النفع .

ثم بين ـ سبحانه ـ موقف هارون ـ عليه السلام ـ من هؤلاء الجاهلين الذين عبدوا العجل ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ (٩١) ﴾ .

وجملة : ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ ﴾ قسمية مؤكدة لماقبلها .

أى : والله لقد نصح هارون ـ عليه السلام ـ عبدة العجل من قومه ، قبل رجوع موسى إليهم ، فقال لهم مستعطفا : ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ ﴾ أى : ياقوم إن ضلالكم وكفركم إنما هو بسبب عبادتكم العجل ، فالضمير فى ﴿ بِهِ ﴾ يعود إلى العجل .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ ﴾ هو وحده المستحق للعبادة والطاعة .

وجمع ـ سبحانه ـ بين لفظى الرب والرحمن ؛ لجذبهم نحو الحق ، واستمالتهم نحوه ، وللتنبيه على أنهم متى تابوا قبل الله توبتهم ، لأن ـ سبحانه ـ هو الرحمن الرحيم .

والفاء فى قوله : ﴿ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴾ لترتيب مابعدها على ماقبلها .

أى : ومادام الأمر كذلك فاتبعونى وأطيعوا أمرى ، فى الثبات على الحق ، وفى نبذ عبادة العجل ، وفى المحافظة على ماعاهدكم عليه موسى ـ عليه السلام ـ .

ولكن هذه النصيحة الحكيمة من هارون لهم لم تجد أذنا صاغية ، بل قابلوا نصيحته لهم بالاستخفاف والتصميم على ماهم فيه من ضلال ، إذ قالوا فى الرد عليه : ﴿ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ ﴾ أى : سنستمر على عبادة العجل ، وسنواظب على هذه العبادة مواظبة تامة ﴿ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ فنرى ماذا يكون منه .

فهم لجهالاتهم وانطماس بصائرهم ، وسوء أدبهم ، يرون أن هارون ـ عليه السلام ـ ليس أهلا للنصيحة والطاعة ، مع أنه قد خاطبهم بأحكم أسلوب ، وألطف منطق .

ثم بين ـ سبحانه ـ ما قاله موسى لأخيه هارون بعد أن رأى ماعليه قومهما من ضلال فقال ـ تعالى ـ :

﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤) ﴾ .

أى : قال موسى لأخيه هارون على سبيل اللوم والمعاتبة : يا هارون أى شىء منعك من مقاومتهم وقت أن رأيتهم ضلوا بسبب عبادتهم للعجل و«لا» فى قوله : ﴿ أَلاَّ تَتَّبِعَنِ ﴾ مزيدة للتأكيد ، والاستفهام فى قوله : ﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ للإنكار .

أى : ما الذى منعك من أن تتبعنى فى الغضب عليهم لدين الله حين رأيتهم عاكفين علي عبادة العجل ، أفعصيت أمرى فيما قدمت إليك من قولى : ﴿ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ وفيما أمرتك به من الصلابة فى الدين ، لأن وجودك فيهم وقد عبدوا غير الله ـ تعالى ـ يعتبر تهاونا معهم فيما لا يصح التهاون فيه .

وكأن موسى ـ عليه السلام ـ كان يريد من أخيه هارون ـ عليه السلام ـ موقفا يتسم بالحزم والشدة مع هؤلاء الجاهلين ، حتى ولو أدى الأمر لمقاتلتهم .

وهنا يرد هارون على أخيه موسى ردا يبدو فيه الرفق والاستعطاف فيقول :

﴿ يَا بْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي ﴾ .

أى : قال هارون لموسى محاولا أن يهدىء من غضبه ، بتحريك عاطفة الرحم فى قلبه : يا ابن أمى لاتمسك بلحيتى ولا برأسى على سبيل التأنيب لى ، فإنى لست عاصيا لأمرك ، ولامعرضا عن اتباعك .

وقوله : ﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ استئناف لتعليل موجب النهى ، بتحقيق أنه غير عاص لأمره ، وغير معرض عن أتباعه .

أى : يا ابن أمى لاتأخذ بلحيتى ولا برأسى فإنى ما حملنى على البقاء معهم ، وعلى ترك مقاتلتهم بعد أن عبدوا العجل ، إلا خوفى من أن تقول لى ـ لو قاتلتهم أو فارقتهم بمن معى من المؤمنين ـ إنك بعملك هذا قد جعلت بنى إسرائيل فرقتين متنازعتين ﴿ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ أى : ولم تتبع وتطع قولى لك : ﴿ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ولذلك لم أقدم على مقاتلتهم بمن معى من المؤمنين ، ولم أقدم كذلك على مفارقتهم ، بل بقيت معهم ناصحا واعظا ، حتى تعود أنت إليهم ، فتتدارك الأمر بنفسك ، وتعالجه برأيك .

هذا ، وبعد أن انتهى موسى من سماع اعتذار أخيه هارون ، اتجه بغضبه إلى السامرى - رأس الفتنة ومديرها - فأخذ فى زجره وتوبيخه ، وقد حكى - سبحانه - ذلك فى قوله :

قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾

أى : قال موسى - عليه السلام - للسامرى : ﴿ مَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴾ أى : ما الأمر العظيم الذى جعلك تفعل مافعلت؟

وقد رد السامرى على موسى بقوله : ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ﴾ أى : علمت مالم يعلمه القوم ، وفطنت لما لم يفطنوا له ، ورأيت مالم يروه .

﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا ﴾ روى أن السامرى رأى جبريل - عليه السلام - حين جاء إلى موسى ليذهب به إلى الميقات لأخذ التوراة عن الله - عز وجل - ولم ير جبريل أحد غير السامرى من قوم موسى ، ورأى الفرس كلما وضعت حافرها على شىء أخضر ، فعلم أن للتراب الذى تضع عليه الفرس حافرها شأنا ، فأخذ منه حفنة وألقاها فى الحلى المذاب فصار عجلا جسدا له خوار .

والمعنى قال السامرى لموسى : علمت مالم يعلمه غيرى فأخذت حفنة من تراب أثر حافر فرس الرسول وهو جبريل - عليه السلام - فألقيت هذه الحفنة فى الحلى المذاب ، فصار عجلا جسدا له خوار .

﴿ وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ أى : ومثل هذا الفعل سولته لى نفسى ، أى : زينته وحسنته لى نفسى ، لأجعل بنى إسرائيل يتركون عبادة إلهك ياموسى ، ويعبدون العجل الذى صنعته لهم .

وعلى هذا التفسير الذى سار عليه كثير من المفسرين ، يكون المراد بالرسول : جبريل ـ عليه السلام ـ ويكون المراد بأثره : التراب الذى أخذه من موضع حافر فرسه .

هذا وقد نقل الفخر الرازى عن أبى مسلم الأصفهانى رأيا آخر فى تفسير الآية فقال ماملخصه : ليس فى القرآن مايدل على ما ذكره المفسرون ، فهنا وجه آخر ، وهو أن يكون المراد بالرسول : موسى ـ عليه السلام ـ وبأثره سنته ورسمه الذى أمر به ، فقد يقول الرجل : فلان يقص أثر فلان ويقتص أثره إذا كان يمتثل رسمه ، والتقدير : أن موسى لما أقبل على السامرى بالتوبيخ وبسؤاله عن الأمر الذى دعاه إلى إضلال القوم بعبادة العجل ، رد عليه بقوله : بصرت بما لم يبصروا به ، أى : عرفت أن الذى أنتم عليه ليس بحق ، وقد كنت قبضت قبضة من أثرك أيها الرسول ، أى : أخذت شيئا من علمك ودينك فنبذته ، أى : كرهته .[1]

وعلى هذا التفسير الذى ذهب إليه أبومسلم يكون المراد بالرسول : موسى ـ عليه السلام ـ ويكون المراد بأثره : دينه وسنته وعلمه .

ويكون المعنى الإجمالى للآية : أن السامرى قال لموسى ـ عليه السلام ـ كنت قد أخذت جانبا من دينك وعلمك ، ثم تبين لى أنك على ضلال فنبذت ما أخذته عنك ، وسولت لى نفسي أن أصنع للناس عجلا لكى يعبدوه ؛ لأن عبادته أراها هى الحق .

ويبدو لنا أن ماذهب إليه أبومسلم ، أقرب إلى مايفيده ظاهر القرآن الكريم ، إذا ما استبعدنا تلك الروايات التى ذكرها المفسرون فى شأن السامرى وفى شأن رؤيته لجبريل .

ولانرى حرجا فى استبعادها ، لأنها عارية عن السند الصحيح إلى رسول الله ﷺ أو إلى أصحابه ، ويغلب على ظننا أنها من الإسرائيليات التى نرد العلم فيها إلى الله ـ تعالى ـ .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ ﴾ حكاية لما قال موسى ـ عليه السلام ـ للسامرى .

والمعنى : قال موسى للسامرى : مادمت قد فعلت ذلك فاذهب ، فإن لك فى مدة حياتك ،

---

(١) راجع تفسير الفخر الرازى جـ٦ ص٧٠ .

أن تعاقب بالنبذ من الناس، وأن تقول لهم إذا ما اقترب أحد منك : ﴿لا مِسَاسَ﴾ أى : لا أمس أحدا ولايمسنى أحد، ولا أخالط أحدا ولايخالطنى أحد .

قال صاحب الكشاف : عوقب فى الدنيا بعقوبة لاشىء أعظم منها وأوحش وذلك أنه مُنع من مخالطة الناس منعا كليا، وحرم عليهم ملاقاته ومكالمته ومبايعته ومواجهته، وكل مايعايش به الناس بعضهم بعضا، وإذا اتفق أن يماس أحدا - رجلا أو امرأة - حم الماس والممسوس - أى أصيبا بمرض الحمى - فتحامي الناس وتحاموه، وكان يصيح : لامساس، وعاد فى الناس أوحش من القاتل اللاجىء إلى الحرم، ومن الوحش النافر فى البرية .(١)

وقال الآلوسى ما ملخصه : والسر فى عقوبته على جنايته بما ذكر، أنه ضد ما قصده، من إظهار ذلك ليجتمع عليه الناس ويعززوه، فكان مافعله سببا لبعدهم عنه وتحقيره .

وقيل : عوقب بذلك ليكون الجزاء من جنس العمل، حيث نَبذ فَنُبِذَ، فإن ذلك التحامى عنه أشبه شىء بالنبذ .(٢)

قالوا : وهذه الآية الكريمة أصل فى نفى أهل البدع والمعاصى وهجرانهم وعدم مخالطتهم .

ثم بين - سبحانه - عقوبة السامرى فى الآخرة، بعد بيان عقوبته فى الدنيا فقال : ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ﴾ .

أى : وإن لك موعدا فى الآخرة لن يخلفك الله - تعالى - إياه، بل سينجره لك، فيعاقبك يومئذ العقاب الأليم الذى تستحقه بسبب ضلالك وإضلالك، كما عاقبك فى الدنيا بعقوبة الطرد والنفور من الناس .

ثم بين - سبحانه - مافعله موسى - عليه السلام - بالعجل الذى صنعه السامرى لإضلال الناس، فقال : ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ .

أى : وقال موسى - أيضا - للسامرى : وانظر إلى معبودك العجل الذى أقمت على عبادته أنت وأتباعك فى غيبتى عنكم .

﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُ﴾ بالنار أمام أعينكم، والجملة جواب لقسم محذوف، أى : والله لنحرقنه ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾، أى : ثم لنذرينه فى البحر تذرية، بحيث لايبقى منه عين ولا أثر .

---

(١) تفسير الكشاف جـ٣ ص٨٥ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ١٦ ص٢٥٦ .

وقد نفذ موسى - عليه السلام - ذلك حتى يظهر للأغبياء الجاهلين الذين عبدوا العجل ، أنه لايستحق ذلك ، وإنما يستحق التذرية ، وأن عبادتهم له إنما هى دليل واضح على انطماس بصائرهم ، وشدة جهلهم .

وقوله - تعالى - : ﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ استئناف مسوق لإحقاق الحق ، وإبطال الباطل ، أى : إنما المستحق للعبادة والتعظيم هو الله - تعالى - وحده ، الذى وسع علمه كل شىء ، ولاتخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

٣٠ - وفى سورة «الأعراف» آيات كريمة ، فصلت الحديث - أيضا - عن عكوف بنى إسرائيل على عبادة العجل الذى صنعه لهم السامرى ، وهذه الآيات هى قوله - تعالى - :

وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾

والمعنى : واتخذ قوم موسى من بعد فراقه لهم لأخذ التوراة عن ربه عجلا جسدا له صوت البقر ليكون معبودا لهم .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً ﴾ تقريع لهم على جهالاتهم وبيان لفقدان عقولهم .

والمعنى : أبلغ عمى البصيرة بهؤلاء القوم ، أنهم لم يفطنوا حين عبدوا العجل ، أنه لايقدر على مايقدر عليه آحاد البشر ، من الكلام والإرشاد إلى أى طريق من طرق الإفادة ، وليس ذلك من صفات ربهم الذى له العبادة ، لأن من صفاته ـ تعالى ـ أنه يكلم أنبياءه ورسله ، ويرشد خلقه إلى طريق الخير ، وينهاهم عن طريق الشر!

ثم أكد ـ سبحانه ـ ذمهم بقوله : ﴿ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ أى : اتخذوا العجل معبودا لهم وهم يشاهدونه لايكلمهم بأى كلام ، ولايرشدهم إلى أى طريق ، ولاشك أنهم بهذا الاتخاذ كانوا ظالمين لأنفسهم بعبادتهم غير الله ، وبوضعهم الأمور فى غير مواضعها .

ثم بين ـ سبحانه ـ ما كان منهم بعد أن رأوا ضلالهم فقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ أى : وحين اشتد ندمهم على عبادة العجل ، وتبينوا ضلالهم واضحا كأنهم أبصروه بعيونهم قالوا متحسرين : ﴿ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ أى : لنكونن من الهالكين الذين حبطت أعمالهم .

وكان هذا الندم بعد رجوع موسى إليهم من الميقات وقد أعطاه الله التوراة ، بدليل أنه لما نصحهم هارون بترك عبادة العجل ، قالوا : ﴿ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ وبدليل أن موسى ـ عليه السلام ـ لما رجع أنكر عليهم ماهم عليه وهذا دليل على أنهم كانوا مستمرين على عبادته إلى أن رجع موسى إليهم وبصرهم بماهم عليه من ضلال مبين .

وعبر ـ سبحانه ـ عن شدة ندمهم بقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ ﴾ لأن من شأن الذى اشتد ندمه وحسرته أن يعض يده غما فتصير يده مسقوطا فيها لأن فاه قد وقع فيها ، وكأن أصل الكلام ولما سقطت أفواههم فى أيديهم ، أى ندموا أشد الندم .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴾ ، بيان للحالة التى كان عليها موسى ـ عليه السلام ـ عند رجوعه من الطور ، ومشاهدته للعجل الذى عبده قومه ، فهو كان غاضبا عليهم لعبادتهم غير الله ـ تعالى ـ وحزينا لفتنتهم بعبادتهم عجلا جسدا له خوار .

وقول موسى لقومه : ﴿ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي ﴾ ذم منه لهم ، والمعنى : بئس خلافة خلفتمونيها من بعد ذهابى عنكم إلى مناجاة ربى ، وبئس الفعل فعلكم بعد فراقى إياكم . حيث عبدتم العجل ، وأشربت قلوبكم محبته ، ولم تعيروا التفاتا لما عهدت به إليكم ، من توحيد الله ، وإخلاص العبادة والسير على سنتى وشريعتى .

وقوله تعالى : ﴿ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ معناه : أسبقتم بعبادة العجل ما أمركم به ربكم وهو انتظارى حافظين لعهدى ، وما أوصيتكم به من التوحيد وإخلاص العبادة لله حتى آتيكم بكتاب الله ، فغيرتم وعبدتم العجل .

ثم بين ـ سبحانه ـ أن غضب موسي ترتب عليه أمران يدلان على شدة الانفعال ، **أولهما** : قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ ﴾ أى طرحها من يديه لما اعتراه من فرط الدهش ، وشدة الضجر ، حين أشرف على قومه وهم عاكفون على عبادة العجل ، فإلقاؤه الألواح لم يكن إلا غضبا لله ، وحمية لدينه ، وسخطا على قومه الذين عبدوا مايضرب به المثل فى البلادة .

وثانيها : قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ﴾ أى : أخذ موسى بشعر رأس أخيه هارون يجره إليه غضبا منه ، لظنه أنه قد قصر فى نصحهم وزجرهم عن عبادة العجل ، ولكن هارون ـ عليه السلام ـ أخذ يستجيش فى نفس موسى عاطفة الأخوة الرحيمة ، ليسكن من غضبه الشديد ، وليكشف له عن طبيعة الموقف ، وليبرئ ساحته من مغبة التقصير ، فقال له : ﴿ يا ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ، أى : قال هارون لموسى مستعطفا : يا ابن أمى ـ بهذا النداء الرقيق وبتلك الوشيجة الرحيمة ـ لاتعجل بلومى وتعنيفى فإنى ما آليت جهدا فى الإنكار عليهم ، وما قصرت فى نصيحتهم ولكنهم لم يستمعوا إلىّ ، بل قهرونى واستضعفونى ، وأوشكوا أن يقتلونى عندما بذلت أقصي طاقتى لأخفف هياجهم واندفاعهم نحو العجل ، فلاتفعل بى ماهو أمنيتهم ومحل شماتتهم ، من الاستهانة بى والإساءة إلىّ ، فإن من شأن الأخوة التى بيننا أن تكون ناصرة معينة حين يكون هناك أعداء ، ولاتجعلنى فى زمرة القوم الظالمين ، فإنى بريء منهم ، ولقد نصحتهم ولكنهم قوم لايحبون الناصحين .

وهنا اقتنع موسى ـ عليه السلام ـ ببراءة هارون من مغبة التقصير فقال :

﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .

أى : قال موسى ليرضى أخاه ، وليظهر لأهل الشماتة رضاه عنه بعد أن ثبتت براءته : رب اغفر لى مافرط منى من قول أو فعل فيه غلظة على أخى ، واغفر له كذلك ما عسى أن يكون قد قصر فيه مما أنت أعلم به منى ، وأدخلنا فى رحمتك التى وسعت كل شىء فأنت أرحم بعبادك من كل راحم .

وبهذا يكون القرآن الكريم قد برأ ساحة هارون من التقصير ، وأثبت أنه قد عرض نفسه للأذى فى سبيل أن يصرف عابدى العجل عن عبادته .

ثم أصدر القرآن الكريم حكمه الفاصل فى شأن عبدة العجل فقال ـ تعالى ـ :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾ .

والمعنى : إن الذين اتخذوا العجل معبودا ، واستمروا على ضلالتهم سيحيق بهم سخط شديد من ربهم ، ولاتقبل توبتهم إلا إذا قتلوا أنفسهم ، وسيصيبهم كذلك هوان وصغار فى الحياة الدنيا ، وبمثل هذا الجزاء نجازى المفترين جميعا فى كل زمان ومكان ، لخروجهم عن طاعتنا ، وتجاوزهم لحدودنا ، فهو جزاء متكرر كلما تكررت الجريمة من بنى إسرائيل وغيرهم .

ثم فتح ـ سبحانه ـ بابه لكل تائب صادق فى توبته فقال ـ تعالى ـ : ﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

والمعنى : والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعد فعلهم لها توبة صادقة نصوحا ، ورجعوا إلى الله ـ تعالى ـ معتذرين نادمين مخلصين الإيمان له ، فإن الله ـ تعالى ـ من بعد الكبائر التى أقلعوا عنها لساتر عليهم أعمالهم السيئة ، وغير فاضحهم بها ، رحيم بهم وبكل من كان مثلهم من التائبين .

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة ـ بعد أن دمغت بنى إسرائيل بما يستحقونه من تفريع ووعيد ـ قد فتحت أمامهم وأمام غيرهم باب التوبة ليفيئوا إلى نور الحق ، وليتركوا ما انغمسوا فيه من ضلالات وجهالات .

ثم بين ـ سبحانه ـ ما فعله موسى بعد أن هدأ غضبه فقال : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ .

والمعنى : وحين سكت غضب موسى بسبب اعتذار أخيه وتوبة قومه أخذ الألواح التى كان قد ألقاها .

وظاهر الآية يفيد أن الألواح لم تتكسر ، ولم يرفع من التوراة شىء ، وأنه أخذها بعينها .

وقوله : ﴿ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ أى : أخذ موسى الألواح التى سبق له أن ألقاها ، وفيما نسخ من هذه الألواح أى : كتب فى هذه الألواح هداية عظيمة على طريق الحق ، ورحمة واسعة للذين يخافون أشد الخوف من خالقهم - عز وجل - .

ثم تمضى السورة فى حديثها عن بنى إسرائيل فتحكى لنا قصة موسى مع السبعين الذين اختارهم من قومه فنقول :

وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾

أى : اختار موسى سبعين رجلا من قومه للميقات الذى وقته الله له ، ودعاهم للذهاب معه .

وهؤلاء السبعون كانوا من خيرتهم أو كانوا خلاصتهم ، لأن الجملة الكريمة جعلتهم بدلا من القوم جميعا فى الاختيار ، وكأن بنى إسرائيل على كثرتهم لايوجد من بينهم فضلاء سوى هؤلاء السبعين .

وتختلف روايات المفسرين فى سبب هذا الميقات وزمانه ، فمنهم من يرى أنه الميقات الكلامى الذى كلم الله فيه موسى تكليما فقد كان معه سبعون رجلا من شيوخ بنى إسرائيل ينتظرونه فى مكان وضعهم فيه غير مكان المناجاة ،فلما تمت مناجاة موسى لربه طلبوا منه أن يخاطبوا الله - تعالى - وأن يكلموه كما كلمه موسى ، وأن يروه جهرة فأخذتهم الصاعقة ، وكان ذلك قبل أن يخبر الله - تعالى - موسى أن قومه قد عبدوا العجل فى غيبته .

والذى نرجحه وعليه المحققون من المفسرين والسياق القرآنى يؤيده أن هذا الميقات الذى جاء فى هذه الآية غير الميقات الأول ، وأنه كان بعد عبادة بنى إسرائيل للعجل فى غيبة

موسى ، فقد عرفنا أن الله قد أخبره بذلك عند ذهابه إليه لتلقى التوراة ، فرجع موسى إليهم مسرعا ووبخهم على صنيعهم وأحرق العجل ، وأمره الله ـ تعالى ـ بعد ذلك أن يأتيه مع جماعة من بنى إسرائيل ليتوبوا إليه من عبادة العجل فاختار موسى هؤلاء السبعين .

وهكذا نرى أن هؤلاء السبعين المختارين من بنى إسرائيل قد طلبوا من نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ مالايصح لهم أن يطلبوه فأخذتهم الرجفة بسبب ذلك ، أو بسبب أنهم عندما عبد بنو إسرائيل العجل فى غيبة موسى لم ينهوهم عن المنكر ، ولم يأمروهم بالمعروف .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ ﴾ أى : فلما أخذت هؤلاء السبعين المختارين الرجفة قال موسى : يا رب إننى أتمنى لو كانت سبقت مشيئتك أن تهلكهم من قبل خروجهم معى إلى هذا المكان ، وأن تهلكنى معهم حتى لا أقع فى حرج شديد مع بنى إسرائيل ، لأنهم سيقولون لى : قد ذهبت بخيارنا لإهلاكهم .

ويرى بعض المفسرين أن هذه الرجفة التى أخذتهم وصعقوا منها أدت إلى موتهم جميعا ثم أحياهم الله ـ تعالى ـ بعد ذلك ، ويرى آخرون أنهم غشى عليهم ثم أفاقوا .

وقد قال موسى هذا القول لاستجلاب العفو من ربه عن هذه الجريمة التى اقترفها قومه ، بعد أن منّ عليهم ـ سبحانه ـ بالنعم السابقة الوافرة ، وأنقذهم من فرعون وقومه ، فكأنه يقول : يارب لقد رحمتهم من ذنوب كثيرة ، ارتكبوها فيما سبق فارحمهم الآن كما رحمتهم من قبل جريا على مقتضى كرمك .

وقوله : ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ﴾ استئناف مقرر لما قبله ، أى : ما الفتنة التى وقع فيها السفهاء إلا اختبارك وابتلاؤك وامتحانك لعبادك ، فأنت الذى ابتليتهم واختبرتهم ، فالأمر كله لك وبيدك ، لايكشفه إلا أنت ، كما لم يمتحن به ويختبر إلا أنت ، فنحن عائذون بك منك ، ولاجئون منك إليك ،ماشئت كان وما لم تشأ لم يكن .

وقوله : ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ أى : أنت القائم بأمورنا كلها لا أحد غيرك ، فاغفر لنا مافرط منا ، وارحمنا برحمتك التى وسعت كل شىء ، وأنت خير الغافرين إذ كل غافر سواك إنما يغفر لغرض نفسانى ، كحب الثناء واجتلاب المنافع ، أما أنت ـ يا إلهنا ـ فمغفرتك لا لطلب عوض أو غرض وإنما هى لمحض الفضل والكرم .

ثم أضاف موسى إلى هذه الدعوات الطيبات دعوات أخرى فقال ـ كما حكى القرآن عنه ـ ﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ ﴾ أى : وأثبت لنا فى هذه الدنيا مايحسن من نعمة وطاعة وعافية وتوفيق ، وأثبت لنا فى الآخرة ـ أيضا ـ ما يحسن من مغفرة ورحمة وجنة عرضها السموات والأرض .

وقوله : ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ استئناف مسوق لتعليل الدعاء فإن التوبة الصادقة تجعل الدعاء جديرا بالإجابة ، أى : لأنا تبنا إليك من المعاصى التى جئناك للاعتذار منها ، فاكتب لنا الحسنات فى الدارين ، ولاتحرمنا من عطائك الجزيل .

وقوله : ﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال ينساق إليه الجواب ، كأنه قيل : فماذا قال الله ـ تعالى ـ عند دعاء موسى ، فكان الجواب : قال عذابى . . الخ

ثم قال الله ـ تعالى ـ لموسى ردا على دعائه : يا موسى إن عذابى الذى تخشى أن يصيب قومك أصيب به من أشاء تعذيبه من العصاة ، فلا يتعين أن يكون قومك محلا له بعد توبتهم ، فقد اقتضت حكمتى أن أجازى الذين أساءوا بما عملوا وأجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ فلاتضيق على قومك ، ولا عن غيرهم من خلقى ممن هم أهل لها .

ثم بين ـ سبحانه ـ من هم أهل لرحمته فقال :

﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

أى : فسأكتب رحمتى للذين يصونون أنفسهم عن كل ما يغضب الله ويؤدون الزكاة المفروضة عليهم فى أموالهم .

وتخصيص إيتاء الزكاة بالذكر مع اقتضاء التقوى له للتعريض بقوم موسي ، لأن إيتاءها كان شاقا على نفوسهم لحرصهم الشديد على المال .

ولعل الصلاة لم تذكر مع أنها مقدمة على سائر العبادات ، اكتفاء عنها بالاتقاء الذى هو عبارة عن فعل الواجبات بأسرها وترك المنهيات عن آخرها وسأكتبها كذلك للذين هم بآياتنا يؤمنون .

٣١ ـ تعنتهم فى الأسئلة ، وسوء أدبهم مع نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ :

إن المتدبر للقرآن الكريم يرى أن هذا السلوك من بنى إسرائيل مع نبيهم ، قد تكرر فى مواضع شتى ، وفى حوادث متعددة .

ومن ذلك ما حكاه القرآن عنهم فى قوله ـ تعالى ـ فى سورة «البقرة» :

وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴿٦٧﴾ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون ﴿٦٨﴾ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ﴿٦٩﴾ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون ﴿٧٠﴾ قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لا شية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴿٧١﴾ وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون ﴿٧٢﴾ فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون ﴿٧٣﴾ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون ﴿٧٤﴾

ذكر المفسرون أنه كان فى بنى إسرائيل رجل غنى ، وله ابن عم فقير لا وارث له سواه ، فلما طال عليه موته قتله ليرثه ، وحمله إلى قرية أخرى فألقاه فيها ، ثم أصبح يطلب ثأره وجاء بناس إلى نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ يدعى عليهم القتل ، فسألهم موسى ـ عليه

السلام ـ فجحدوا ، فسألوه أن يدعو الله ليبين لهم بدعائه القاتل الحقيقى ، فدعا موسى ربه فأوحى الله ـ تعالى ـ إليه أن يطلب منهم أن يذبحوا بقرة ، فقال لهم موسى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً .. ﴾ .[1]

وقد ساق القرآن الكريم هذه القصة بأسلوبه البديع ، الذى يأخذ بمجامع القلوب ، ويحرك النفوس إلى النظر والاعتبار ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ .

ومعنى الآية الكريمة : واذكروا ـ يا بنى إسرائيل ـ لتعتبروا وتتعظوا وقت أن حدث فى أسلافكم قتيل ولم يعرف الجانى ، فطلب بعض أهله وغيرهم ممن يهمه الأمر من موسى ـ عليه السلام ـ أن يدعو الله ـ تعالى ـ ليكشف لهم عن القاتل الحقيقى ، فقال لهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ فدهشوا وقالوا بسفاهة وحماقة ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ ؟ أى : أتجعلنا موضع سخريتك؟ ﴿ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ الذين يخبرون عنه بما لم يأمر به .

والذى عليه جمهور المفسرين أن أمرهم بذبح البقرة كان بعد تنازعهم فى شأن القاتل من هو؟ وذلك ليعرف القاتل الحقيقى إذا ضرب القتيل ببعضها ، كما سيأتى فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ .

وقد أمرهم الله ـ تعالى ـ بذبح بقرة دون غيرها من الحيوانات ، لأنها من جنس ما عبدوه وهو العجل ، وفى أمرهم بذلك تهوين لشأن هذا الحيوان الذى عظموه وعبدوه وأحبوه فكأنه ـ سبحانه ـ يقول لهم : إن هذا البقر الذى يضرب به المثل فى البلادة ، لايصلح أن يكون معبودا من دون الله ، وإنما يصلح للحرث والسقى والعمل والذبح .

وقولهم : ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ يدل على سفههم وسوء ظنهم بنبيهم وعدم توقيرهم له وجهلهم بعظمة الله ـ تعالى ـ ومايجب أن يقابل به أمره من الانقياد والامتثال ، لأنهم لو كانوا عقلاء لامتثلوا أمر نبيهم ، وانتظروا النتيجة بعد ذلك ولكنهم قوم لايعقلون .

ولما كان قولهم هذا يدل على اعتقادهم بأن موسى ـ عليه السلام ـ قد أخبر عن الله بما لم يؤمر به ، أجابهم موسى بقوله : ﴿ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ أى :

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص١٩٧ بتصرف وتلخيص وهناك روايات أخرى فى شأن هذه القصة ذكرها ابن جرير وأبوحيان وغيرهما لم نذكرها لأنها تختلف عن النص الذى سقناه إلا فى التفاصيل .

ألتجىء إلى الله وأبرأ إليه من أن أكون من السفهاء الذين يروون عنه الكذب والباطل ، وفى هذا الجواب تبرؤ وتنزه عن الهزء ، وهو المزاح الذى يخالطه احتقار واستخفاف بالممازح معه - لأنه لايليق بعقلاء الناس فضلا عن رسل الله - عليهم السلام - كماأن فيه - أيضا - ردا لهم - عن طريق التعريض بهم - إلى جادة الأدب الواجب فى جانب الخالق ، حيث بين لهم أن ما ظنوه به لايليق إلا بمن يجهل عظمة الله - تعالى - .

هذا وما أرشدهم إليه نبيهم - عليه السلام - كان كافيا لحملهم على أن يذبحوا أى بقرة تنفيذا لأمر ربهم ، ولكن طبيعتهم الملتوية المعقدة لم تفارقهم ، فأخذوا يسألون كماأخبر القرآن عنهم بقوله : ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ﴾ ؟

أى : قال بنو إسرائيل لموسى اطلب لنا من ربك أن يبين لنا حالها وصفاتها ، وسبب سؤالهم عن صفتها ، تعجبهم من بقرة مذبوحة بأيديهم ، يضرب ببعضها ميت لتعود إليه الحياة ، وكأنهم - لقلة فهمهم - قد توقعوا أن البقرة التى يكون لها أثر فى معرفة قاتل القتيل ، لابد أن تكون لها صفة متميزة عن سائر جنسها .

وسؤالهم بهذه الطريقة يوحى بسوء أدبهم مع الله - تعالى - ومع نبيهم موسى - عليه السلام - لأنهم قالوا ﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ فكأنما هو رب موسى وحده ، لاربهم كذلك ، وكأن المسألة لاتعنيهم هم وإنما تعنى موسى وربه ومع هذافقد أجابهم إجابة المربى الحكيم للأتباع السفهاء الذين ابتلى بهم فقال : ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ .

أى : قال لهم موسى بعد أن أخبره الله بصفتها : إنه - تعالى - يقول : إن البقرة التى آمركم بذبحها لامسنة ولاصغيرة ، بل نصف بينهما ، فاتركوا الإلحاح فى الأسئلة ، وسارعوا إلى امتثال ما أمرتم به .

وقد أكد - سبحانه - جملة ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ ﴾ تنزيلا لهم منزلة المنكرين لتعنتهم فى السؤال ومحاولتهم التنصل مما أمروا به .

ولم يقل القرآن الكريم من أول الأمر : إنها بقرة عوان بل جاء بالوصفين السابقين ﴿ لاَّ فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ ﴾ للتعريض بغباوتهم والتلميح بعدم فهمهم للأساليب الموجزة لذا لجأ فى جوابهم إلى تنكير التوصيف حتى لايعودوا إلى تكرار الأسئلة .

وقوله - تعالى - : ﴿ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ يقصد به قطع العذر مع الحض على الطاعة

والامتثال ، أى : إذاكان الأمر كذلك ، فبادروا إلى تنفيذ ماتؤمرون به ، لتصلوا إلى معرفة القاتل الحقيقى بأيسر طريق ، ولاتضيقوا على أنفسكم ماوسعه الله لكم ، ولاتكثروا من المراجعة ، فإنها ليست فى مصلحتكم .

ومع ذلك فقد أبوا إلا تنطعا ، واستقصاء فى السؤال فأخذوا يسألون عن لونها بعد أن عرفوا سنها ، فقالوا كما حكى القرآن عنهم : ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ .

والمعنى : قال بنوإسرائيل لنبيهم ، مشددين على أنفسهم بعد أن عرفوا صفة البقرة من جهة سنها : سل لنا ربك يبين لنا مالونها ، لكى يسهل علينا الحصول عليها ، فأجابهم بقوله : إنه ـ تعالى ـ يقول إن البقرة التى أمرتكم بذبحها صفراء فاقع لونها ، تعجب فى هيئتها ومنظرها وحسن شكلها الناظرين إليها .

وإلى هنا يكونون قد عرفوا وصف البقرة من حيث سنها ووصفها من حيث لونها ، فهل أغنتهم هذه الأوصاف؟ كلا! ما أغنتهم ، فقد أخذوا يسألون للمرة الثالثة عما هم فى غنى عنه فقالوا ـ كماحكى القرآن عنهم ـ : ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ . قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ .

ومعنى الآيتين الكريمتين : قال بنو إسرائيل لموسى بعد أن عرفوا سن البقرة ولونها : سل من أجلنا ربك أن يزيدنا إيضاحا لحال البقرة التى أمرنا بذبحها ، حيث إن البقر الموصوف بالوصفين السابقين كثير ، فاشتبه علينا أيها نذبح ، وإنا إن شاء الله بعد هذا البيان منك لمهتدون إليها ، ومنفذون لماتكلفنا به ، فأجابهم موسى بقوله : ﴿ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا ﴾ أى : قال إنه ـ سبحانه ـ يقول : إنها بقرة سائمة ليست مذللة بالعمل فى الحراثة ولا فى السقى ، وهى بعد ذلك سليمة من كل عيب ، ليس فيها لون يخالف لونها الذى هو الصفرة الفاقعة ، فلما وجدوا أن جميع مشخصاتها ومميزاتها قد اكتملت ﴿ قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ الواضح ، ولم يبق إشكال فى أمرها ، وبحثوا عنها ، وحصلوها ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ لكثرة أسئلتهم وترددهم .

ثم كشف الله ـ تعالى ـ بعد ذلك عن الغاية التى من أجلها أمروا بذبح البقرة فقال ـ تعالى ـ :

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ . فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

والمعنى : واذكروا يا بنى إسرائيل إذ قتلتم نفسا ، فاختلفتم وتنازعتم فى قاتلها ، ودفع كل واحد منكم التهمة عن نفسه ، والله ـ عز وجل ـ مخرج لامحالة ما كتمتم من أمر القاتل ، فقد بين ـ سبحانه ـ الحق فى ذلك فقال على لسان رسوله ـ موسى ـ عليه السلام ـ اضربوا القتيل بأى جزء من أجزاء البقرة ، فضربتموه ببعضها فعادت إليه الحياة ـ بإذن الله ـ وأخبر عن قاتله ، وبمثل هذا الإحياء لذلك القتيل بعد موته يحيى الله الموتى للحساب والجزاء يوم القيامة ، ويبين لكم الدلائل الدالة على أنه قدير على كل شىء رجاء أن تعقلوا الأمور على وجهها السليم .

وجمهور المفسرين على أن واقعة قتل النفس وتنازعهم فيها ، حصلت قبل الأمر بذبح البقرة ، إلا أن القرآن الكريم أخرها فى الذكر ليعدد على بنى إسرائيل جناياتهم وليشوق النفوس إلى معرفة الحكمة من وراء الأمر بذبحها ، فتتقبلها بشغف واهتمام .

ثم بين القرآن الكريم ، بعد ذلك أن هذه المعجزات الباهرة التى تزلزل المشاعر ، وتهز القلوب وتبعث فى النفوس الإيمان ، لم تؤثر فى قلوب بنى إسرائيل الصلدة لأنه قد طرأ عليهم بعد رؤيتها ما أزال آثارها من قلوبهم ومحا الاعتبار بها من عقولهم ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

والمعنى : ثم صلبت قلوبكم ـ يا بنى إسرائيل ـ وغلظت من بعد أن رأيتم من معجزات منها إحياء القتيل أمام أعينكم ، فهى كالحجارة فى صلابتها ويبوستها ، بل هى أشد صلابة منها ، لأن من الحجارة مافيه ثقوب متعددة ، وخروق متسعة ، فتتدفق منه مياه الأنهار التى تعود بالمنافع على المخلوقات ، ولأن من بينها مايتصدع تصدعا قليلا فيخرج منه ماء العيون ، والآبار ولأن منها مايتردى من رأس الجبل إلى الأرض والسفح من خوف الله وخشيته ، أما أنتم ـ يا بنى إسرائيل ـ فإن قلوبكم لاتتأثر بالمواعظ ولاتنقاد للخير ، ولاتفعل ما تؤمر به ، مهما تعاقبت عليكم النعم والنقم والآيات ، وما الله بغافل عما تعملون .

وبذلك تكون الآية الكريمة قد وصفت بنى إسرائيل بما هم أهله ، من قساوة القلب وانطماس البصيرة ، وعدم التأثر بالعظات مهما كثرت ، وبالآيات مهما توالت .

هذا وقد اشتملت هذه القصة على كثير من العظات والتوجيهات الإلهية ومن ذلك :

١ ـ دلالتها على ماجبل عليه بنو إسرائيل من فظاظة وغلظة ، وسوء أدب مع مرشديهم ، وإلحاف فى الأسئلة بلاموجب ، وعدم استعداد للتسليم بمايأتيهم به الرسل ، ومماطلة فى الانصياع للتكاليف ، وانحراف عن الطريق المستقيم .

٢ ـ دلالتها على صدق النبى ﷺ فيما يبلغه عن ربه ، فقد أخبر فى هذه القصة الواقعية

التى لم يشهد حوادثها بما أوحاه الله إليه وهذا الإخبار من أعلام نبوته ﷺ كما أنها تدل على صدق نبوة موسى - عليه السلام - وأنه رسول من رب العالمين .

٣ - دلالتها على أن التنطع فى الدين ، والإلحاف فى المسألة يؤديان إلى التشديد فى الأحكام ، لأن بنى إسرائيل لو أنهم من أول الأمر عمدوا إلى ذبح أى بقرة لأجزأتهم ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم .

أخرج ابن جرير - رحمه الله - عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : «لو أن القوم أخذوا أدنى بقرة لأجزأتهم ، لكنهم شددوا فشدد الله عليهم» .(١)

وقد جاءت تعاليم الإسلام بالنهى عن كثرة السؤال قال - تعالى - :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢) ﴾ [المائدة]

وفى الحديث الشريف : «ذرونى ماتركتكم ، فإنما أهلك من كان قبلكم بكثرةسؤالهم ، واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشىء فأتوه ، وإذا نهيتكم عن شىء فانتهوا عنه ما استطعتم» .

٤ - دلالتها على قدرة الله - تعالى - فإن إحياء الميت - عن طريق الضرب بقطعة من جسم بقرة مذبوحة - دليل على قدرة الله - تعالى - على الإحياء والإماتة وما هذا الضرب إلا وسيلة كشف للناس عن طريق المشاهدة عن آثار قدرته - تعالى - التى لايدرون كيف تعمل ، فهم يرون آثارها الخارقة ولكنهم لايعرفون كنهها ، وصدق الله حيث يقول :

﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

٣٢ - هذا ، والمتدبر للقرآن الكريم يرى أن بنى إسرائيل قد وقف كثير منهم من نبيهم موسى - عليه السلام - لاموقف المخالفة والعصيان فحسب بل تجاوزوا ذلك إلى الإيذاء والإساءة إلى شخصه .

فقد صرح القرآن الكريم أنهم آذوه حيث وصفوه بماهو برىء منه ، قال - تعالى - :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ .(٢)

---

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص٣٤٧ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٦٩ .

والمراد بالذين آذوه هنا : قومه وعشيرته من بنى إسرائيل ، فقد روى البخارى والترمذى عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

«إن موسى كان رجلا حييا ستيرا ، لايرى من جلده شيء ، فآذاه من آذاه من بنى إسرائيل ، وقالوا : مايستتر هذا الستر إلا من عيب بجلده ، إما برص ، وإما آفة ، وإن الله - تعالى - أراد أن يبرئه مما قالوا ، وإن موسى خلا يوما وحده فوضع ثيابه على حجر ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل على ثيابه ، ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه ، وأخذ موسى عصاه وطلب الحجر ، فجعل يقول : ثوبى حجر حتى انتهى إلى ملأ بنى إسرائيل ، فرأوا جسده أحسن ماخلق الله - تعالى - وبرأه الله مما قالوا ، فذلك قوله - سبحانه - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ.. ﴾ .

أى : احذروا - أيها المؤمنون - أن تكونوا كأولئك السفهاء من بنى إسرائيل ، الذين آذوا نبيهم موسى - عليه السلام - أذى شديدا ، فبرأه الله - تعالى - مما وصفوه به ، وكان عند الله - تعالى - ذا جاه عظيم ، ومكانة سامية ، ومنزلة عالية» .

كما حكى لنا القرآن أن موسى - عليه السلام - تعجب من كثرة إيذاء بنى إسرائيل له ، مع أنه رسولهم وهاديهم ومرشدهم ، فقال - تعالى - :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ . (١)

أى : قال لهم : يا أهلى ويا عشيرتى لماذا تلحقون الأذى بى ، وأنتم تعلمون حق العلم أنى رسول الله - تعالى - إليكم ، لأخرجكم من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان ، ولأنقذكم من ظلم فرعون ، فلما أصروا على زيغهم وضلالهم ، أزاغ الله قلوبهم وصرفها عن الحق إلى الباطل ، لأن سنته - سبحانه - قد اقتضت أنه لايهدى الخارجين عن طريق الحق ، المصرين على عنادهم وكفرهم .

كما حكى لنا القرآن الكريم أن الله - تعالى - بفضله وكرمه ، قد أجرى على يد نبيه موسى كثيرا من النعم على بنى إسرائيل ومن ذلك : إنجاؤهم من فرعون الذى كان يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم ، ومن ذلك فرق البحر بهم حيث نجاهم - سبحانه - وأغرق فرعون وقومه ، بعد أن ضرب موسى بعصاه البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم .

ومن ذلك : نزول التوراة على موسى - عليه السلام - لهدايتهم ومن ذلك : إنزال المن والسلوى عليهم وتظليل الغمام لهم ، استجابة لدعاء موسى - عليه السلام - .

(١) سورة الصف : الآية ٥ .

ومن ذلك : ضرب موسى - عليه السلام - بعصاه الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، فصار كل فريق منهم يشرب من العين المخصصة له ، بعد أن كاد العطش يهلكهم ، إلى غير ذلك من النعم العظيمة التى أجراها الله - تعالى - على يد موسى - عليه السلام - وانتفع بها قومه من بنى إسرائيل انتفاعا عظيما ولكنهم قابلوا هذه النعم بالعصيان لنبيهم موسى - عليه السلام - وبالإساءة إليه ، وبالمخالفة لأمره ، وبالتطاول عليه ﴿فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ .

٣٣ - لقاء موسى - عليه السلام - مع العبد الصالح ، من أجل تحصيل العلم النافع :

كان موسى - عليه السلام - محبا للعلم والمعرفة ، شأنه فى ذلك شأن إخوانه الأنبياء الذين اختارهم الله - تعالى - لحمل رسالته ، وتبليغها إلى الناس ، والذين منحهم - سبحانه - من العقل الراجح ، والعلم النافع ، والحكمة السديدة ، والحجة البليغة ، ماجعلهم يؤدون ما كلفهم خالقهم به على أكمل وجه ، وأعظم بيان .

وقد قص علينا القران الكريم فى سورة «الكهف» ذلك اللقاء الذى تم بين موسى - عليه السلام - وبين عبد من عباد الله الصالحين ، وقد انتهى هذا اللقاء بعد محاورات فيها مافيها من العبر والعظات وتبدأ هذه الآيات التى حكت لنا هذا اللقاء بقوله - تعالى - :

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾

و ﴿ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ ﴾ المكان الذى فيه يلتقى البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط .

قال الآلوسى : والمجمع : الملتقى ، وهو اسم مكان . . والبحران : بحر فارس والروم ، كما روى عن مجاهد وقتادة وغيرهما وملتقاهما : مما يلى المشرق ولعل المراد مكان يقرب فيه التقاؤهما . . وقيل البحران : بحر الأردن وبحر القلزم . .[1]

وقال بعض العلماء : والأرجح - والله أعلم - أن مجمع البحرين - بحر الروم وبحر القلزم .

أى : البحر الأبيض والبحر الأحمر ، ومجمعهما مكان التقائهما فى منطقة البحيرات المرة وبحيرة التمساح ، أو أنه مجمع خليجى العقبة والسويس فى البحر الأحمر ، فهذه المنطقة كانت مسرح تاريخ بنى إسرائيل بعد خروجهم من مصر ، وعلى أية حال فقد تركها القرآن مجملة فنكتفى بهذه الإشارة .[2]

والمعنى : واذكر - أيها الرسول الكريم - لقومك لكى يعتبروا ويتعظوا وقت أن قال أخوك موسى - عليه السلام - لفتاه يوشع بن نون ، اصحبنى فى رحلتى هذه فإنى لا أزال سائرا حتى أصل إلى مكان التقاء البحرين ، فأجد فيه بغيتى ومقصدى ، أو أمضى فى سيرى حقبا ، أى : زمنا طويلا ، إن لم أجد ما أبتغيه هناك .

والآية الكريمة تدل بأسلوبها البليغ ، على أن موسى - عليه السلام - كان مصمما على بلوغ مجمع البحرين مهما تكن المشقة فى سبيل ذلك ، ومهما يكن الزمن الذى يقطعه فى سبيل الوصول إلى غايته ، وهو يعبر عن هذا التصميم بما حكاه عنه القرآن بقوله : «أو أمضى حقبا» .

وقد أشار الآلوسى - رحمه الله - إلى سبب تصميم موسى على هذه الرحلة فقال : وكأن منشأ عزيمة موسى - عليه السلام - على ما ذكره ما رواه الشيخان وغيرهما من حديث ابن عباس عن أبى بن كعب ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «إن موسى - عليه السلام - قام خطيبا فى بنى إسرائيل فسئل : أى الناس أعلم؟ فقال : أنا ، فعاتبه الله - تعالى - على ذلك ، إذ لم يَرُد العلم إليه - سبحانه - فأوحى الله - تعالى - إليه إن لى عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك .

وفى رواية أخرى عنه عن أبى - أيضا - عن رسول الله ﷺ أن موسى - عليه السلام - سأل ربه فقال : أى رب إن كان فى عبادك أحد هو أعلم منى فدلنى عليه فقال له : «نعم فى عبادى من هو أعلم منك ، ثم نعت له مكانه وأذن له فى لقائه» .[3]

---

(١) تفسير الآلوسى جـ١٥ ص٣١٢ .

(٢) فى ظلال القرآن جـ١٥ ص٢٢٨٧ للأستاذ سيد قطب .

(٣) تفسير الآلوسى جـ١٥ ص٣١٣ .

ثم قصت علينا السورة الكريمة ماحدث بعد ذلك فتقول : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ .

والمعنى : وبعد أن قال موسى لفتاه ما قال ، أخذا فى السير إلى مجمع البحرين ، فلما بلغا هذا المكان «نسيا حوتهما» أى : نسيا خبر حوتهما ونسيا تفقد أمره ، فعادت الحياة إلى الحوت ، وسقط فى البحر ، واتخذ «سبيله» أى طريقه «فى البحر سربا» .

أى : واتخذ الحوت طريقه فى البحر ، فكان هذا الطريق مثل السرب أى النفق فى الأرض بحيث يسير الحوت فيه ، وأثره واضح .

قال الإمام ابن كثير : قوله ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ وذلك أنه كان قد أمر بحمل حوت مملوح - أى مشوى - معه وقيل له : متى فقدت الحوت ، فهو ثمة - أى الرجل الصالح الذى هو أعلم منك يا موسى فى هذا المكان - فسارا حتى بلغا مجمع البحرين ، وهناك عين يقال لها عين الحياة ، فناما هناك ، وأصاب الحوت من رشاش ذلك الماء فاضطرب ، وكان فى مكتل مع يوشع ، وطفر من المكتل إلى البحر ، فاستيقظ يوشع ، وسقط الحوت فى البحر ، وجعل يسير فيه ، والماء له مثل الطاق - أى مثل البناء المقوس كالقنطرة - لايلتئم بعده ، ولهذا قال : ﴿ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ أى : مثل السرب فى الأرض .(1)

ثم بين - سبحانه - ما كان منهما بعد ذلك فقال : ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا ﴾ أى : المكان الذى فيه مجمع البحرين .

﴿ قَالَ ﴾ موسى - عليه السلام - ﴿ لِفَتَاهُ ﴾ يوشع بن نون : ﴿ آتِنَا غَدَاءَنَا ﴾ أى : أحضر لنا ما نأكله من هذا الحوت المشوى الذى معنا : ثم علل موسى - عليه السلام - هذا الطلب بقوله : ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ أى تعبا وإعياء .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ ﴾حكاية لما رد به يوشع على موسى - عليه السلام - عندما طلب منه الغداء .

والاستفهام فى قوله : ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ للتعجب مماحدث أمامه من شأن الحوت حيث عادت إليه الحياة ، وقفز فى البحر ، ومع ذلك نسي يوشع أن يخبر موسى عن هذا الأمر العجيب .

---

(1) تفسير ابن كثير جـ٥ ص١٧١ .

أى : قال يوشع لموسى ـ عليه السلام ـ : تذكر وانتبه واستمع إلى ما سألقيه عليك من خبر هذا الحوت ، أرأيت مادهانى فى وقت أن أوينا ولجأنا إلى الصخرة التى عند مجمع البحرين ، فإنى هناك نسيت أن أذكر لك ما شاهدته منه من أمور عجيبة ، فقد عادت إليه الحياة ، ثم قفز فى البحر .

وقال : ﴿ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ ﴾ دون أن يذكر مجمع البحرين ، زيادة فى تحديد المكان وتعيينه ، وأوقع النسيان على الحوت دون الغداء الذى طلبه منه موسى ، للإشعار بأن الغداء الذى طلبه موسى منه ، هو ذلك الحوت الذى فقداه .

وقوله : ﴿ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ جملة معترضة جىء بها لبيان مايجرى مجرى السبب فى وقوع النسيان منه .

أى : وما أنسانى تذكيرك بماحدث من الحوت إلا الشيطان الذى يوسوس للإنسان بوساوس متعددة ، تجعله يذهل وينسى بعض الأمور المهمة .

وقوله : ﴿ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ .

أى : نسيت أن أخبرك بأن الحوت عندما أوينا إلى الصخرة عادت إليه الحياة ، واتخذ طريقه فى البحر اتخاذا عجيبا ، حيث صار يسير فيه وله أثر ظاهر فى الماء والماء من حوله كالقنطرة التى تنفذ منها الأشياء .

وهنا يحكى القرآن مايدل على أن موسى ـ عليه السلام ـ قد أدرك أنه تجاوز المكان الذي حدده له ربه ـ تعالى ـ للقاء العبد الصالح فقال :

﴿ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ .

أى قال موسى لفتاه : ذلك الذى تركته لى من أمر نسيانك لخبر الحوت هو الذى كنا نبغيه ونطلبه ، فإن العبد الصالح الذى نريد لقاءه موجود فى ذلك المكان الذى فقدنا فيه الحوت .

﴿ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ أى : فرجعا من طريقهما الذى أتيا منه ، يتتبعان آثارهما لئلا يضلاعنه ، حتى انتهيا عائدين مرة أخرى إلى موضع الصخرة التى فقد الحوت عندها .

ثم حكى القرآن ماتم لهما بعد أن عادا إلى مكانهما الأول فقال : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ .

أى : وبعد أن عادا إلي مكان الصخرة عند مجمع البحرين مرة أخرى وجدا «عبدا من عبادنا» الصالحين .

﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أى : هذا العبد الصالح منحناه وأعطيناه رحمة عظيمة من عندنا وحدنا لا من عند غيرنا : واختصصناه بها دون غيره ، وهذه الرحمة تشمل النعم التى أنعم الله ـ تعالى ـ بها عليه كنعمة الهداية والطاعة وغيرهما .

﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ أى : وعلمناه من عندنا لا من عند غيرنا علما خاصا ، لايتيسر إلا لمن نريد تيسيره ومنحه له .

والمراد بهذا العبد : الخضر ـ عليه السلام ـ كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة .

ومن العلماء من يرى أنه كان نبيا ، ومنهم من يرى أنه كان عبدا صالحا اختصه الله بلون معين من العلم اللدنى .

أخرج البخارى وغيره عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : «إنما سمى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء ، فإذا هى تهتز من خلفه خضراء» .[1]

ويرى المحققون من العلماء أنه قد مات كما يموت سائر الناس وإلى ذلك ذهب الإمام البخارى وشيخ الإسلام ابن تيمية ، وتلميذه ابن القيم وغيرهم .

ويرى آخرون أنه حى وسيموت فى آخر الزمان .

قال ابن القيم : إن الأحاديث التى يذكر فيها أنه حى كلها كذب ، ولايصح فى ذلك حديث واحد ، وهذه المسألة من المسائل التى فصل العلماء الحديث عنها فارجع إلى أقوالهم فيها إن شئت .[2]

ثم حكى ـ سبحانه ـ بعد ذلك ، ما دار بين موسى والخضر ـ عليهما السلام ـ بعد أن التقيا فقال ـ تعالى ـ :

قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ

(١) تفسير الآلوسى جـ١٥ ص٣١٩

(٢) راجع ابن كثير جـ٥ ص١٧١ ، والآلوسى جـ ١٥ ص٣١٩ وأضواء البيان جـ ٤ ص١٥٧ .

تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾

أى : قال موسي للخضر ـ عليهما السلام ـ بعد أن التقيا هل أتبعك ، أى : هل تأذن لى فى مصاحبتك واتباعك ، بشرط أن تعلمنى من العلم الذى علمك الله إياه : شيئا أسترشد به فى حياتى ، وأصيب به الخير فى دينى .

فأنت ترى أن موسى ـ عليه السلام ـ قد راعى فى مخاطبته للخضر أسمى ألوان الأدب اللائق بالأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ حيث خاطبه بصيغة الاستفهام الدالة على التلطف ، وحيث أنزل نفسه منه منزلة المتعلم من المعلم ، وحيث استأذنه فى أن يكون تابعا له ، ليتعلم منه الرشد والخبر .

قال بعض العلماء : فى هذه الآية دليل على أن المتعلم تبع للعالم ، وإن تفاوتت المراتب ، ولايظن أن فى تعلم موسى من الخضر مايدل على أن الخضر كان أفضل من موسى ، فقد يأخذ الفاضل عن الفاضل ، وقد يأخذ الفاضل عن المفضول ، إذا اختص الله ـ تعالى ـ أحدهما بعلم لايعلمه الآخر ، فقد كان علم موسى يتعلق بالأحكام الشرعية والقضاء بظاهرها ، وكان علم الخضر يتعلق ببعض الغيب ومعرفة البواطن .[١]

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما رد به الخضر على موسى فقال :

﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ .

أى : قال الخضر لموسى : إنك يا موسى إذا اتبعتنى ورافقتنى ، فلن تستطيع معى صبرا ، بأى وجه من الوجوه .

قال ابن كثير : أى : أنك لاتقدر يا موسى أن تصاحبنى لما ترى من الأفعال التى تخالف شريعتك ، لأنى على علم من علم الله ـ تعالى ـ الذى علمنى إياه ، فكل منا مكلف بأمور من الله دون صاحبه ، وأنت لاتقدر على صحبتى .[٢]

وقوله : ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴾ تعليل لعدم استطاعة الصبر معه .

---

(١) تفسير فتح البيان جـ ٥ ص ٤٧٧

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص١٧٨ .

أى : وكيف تصبر ياموسى على أمور ستراها منى ، هذه الأمور ظاهرها أنها منكرات لايصح السكوت عليها ، وباطنها لاتعلمه لأن الله لم يطلعك عليه؟

فالخُبر بمعنى العلم يقال : خبر فلان الأمر يخبره ، أى : علمه ، والاسم الخبر ، وهو العلم بالشىء ، ومنه الخبير ، أى : العالم .

وكأن الخضر يريد بهذه الجملة الكريمة أن يقول لموسى : إنى واثق من أنك لن تستطيع معى صبرا ، لأن ما أفعله سيصطدم بالأحكام الظاهرة ، وبالمنطق العقلى ، وبغيرتك المعهودة فيك ، وأنا مكلف أن أفعل ما أفعل ، لأن المصلحة الباطنة فى ذلك ، وهى تخفى عليك .

ولكن موسى ـ عليه السلام ـ الحريص على تعلم العلم النافع ، يصر على مصاحبة الرجل الصالح ، فيقول له فى لطف وأدب ، مع تقديم مشيئة الله ـ تعالى ـ : ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ .

أى : قال موسى للخضر : ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا ﴾ معك ، غير معترض عليك ، ولا أعصى لك أمرا من الأمور التى تكلفنى بها .

وقدم موسى ـ عليه السلام ـ المشيئة ، أدبا مع خالقه ـ عز وجل ـ واستعانة به ـ سبحانه ـ على الصبر وعدم المخالفة .

وهنا يحكى القرآن الكريم أن الخضر ، قد أكد ماسبق أن قاله لموسى وبين له شروطه إذا أراد مصاحبته فقال : ﴿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ .

أى : قال الخضر لموسى على سبيل التأكيد والتوثيق : ياموسى إن رافقتنى وصاحبتنى ، ورأيت منى أفعالا لاتعجبك ، لأن ظاهرها يتنافي مع الحق ، فلاتعترض عليها ، ولاتناقشنى فيها ، بل اتركنى وشأنى حتى أبين لك فى الوقت المناسب السبب فى قيامى بتلك الأفعال ، وحتى أكون أنا الذى أفسره لك .

قالوا : «وهذا من الخضر تأديب وإرشاد لما يقتضى دوام الصحبة ، فلو صبر ـ موسى ـ ودأب لرأى العجب» .[1]

ثم تحكى السورة بعد ذلك ثلاثة أحداث فعلها الخضر ولكن موسى لم يصبر عليها ، بل اعترض وناقش ، أما الحادث الأول فقد بينه ـ سبحانه ـ بقوله :

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١١ ص١٨ .

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) ﴾

وقوله : ﴿ فَانطَلَقَا ﴾ بيان لماحدث منهما بعد أن استمع كل واحد منهما إلى ما قاله صاحبه .

أى : فانطلق موسى والخضر ـ عليهما السلام ـ على ساحل البحر ، ومعهما يوشع ابن نون ، ولم يذكر فى الآية لأنه تابع لموسى .

ويرى بعضهم أن موسى ـ عليه السلام ـ صرف فتاه بعد أن التقى بالخضر .

أخرج الشيخان عن ابن عباس : أنهما انطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت بهما سفينة فكلموهم أن يحملوهما ، فعرفوا الخضر فحملوهما بغير نول : أى أجر .[1]

وقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾ بيان لما فعله الخضر بالسفينة .

أى : فانطلقا يبحثان عن سفينة ، فلما وجداها واستقرا فيها ، ما كان من الخضر إلا أن خرقها ، قيل : بأن قلع لوحا من ألواحها .

وهنا ما كان من موسى إلا أن قال له على سبيل الاستنكار والتعجب مما فعله : ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾ أى : أفعلت مافعلت لتكون عاقبة الراكبين فيها الغرق والموت بهذ الصورة المؤلمة؟

﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ ، والإمر : الداهية ، وأصله كل شىء شديد كبير ، ومنه قولهم : إن القوم قد أَمِرُوا ، أى : كثروا واشتد شأنهم ، ويقال : هذا أَمْرٌ إمرٌ ، أى : منكر غريب .

أى : قال موسى للخضر بعد خرقه للسفينة : لقد جئت شيئا عظيما ، وارتكبت أمرا بالغا فى الشناعة ، حيث عرضت ركاب السفينة لخطر الغرق .

وهنا أجابه الخضر بقوله : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ أى : ألم أقل لك سابقا إنك لن تستطيع مصاحبتى ، ولا قدرة لك على السكوت على تصرفاتى التى لاتعرف الحكمة من ورائها؟

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص٣٣٥ .

ولكن موسى ـ عليه السلام ـ رد معتذرا لما فرط منه وقال : ﴿ لا تُؤَاخِذْنِي ﴾ أيها العبد الصالح ، بما نسيت ، أى : بسبب نسيانى لوصيتك فى ترك السؤال والاعتراض حتى يكون لى منك البيان ، ﴿ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ أى : ولاتكلفنى من أمرى مشقة فى صحبتى إياك .

والمراد : التمس لى عذرا بسبب النسيان ، ولاتضيق على الأمر ، فإن فى هذا التضييق مايحول بينى وبين الانتفاع بعلمك .

وكأن موسى ـ عليه السلام ـ الذى اعتزم الصبر وقدم المشيئة ، ورضى بشروط الخضر فى المصاحبة ، كأنه قد نسى كل ذلك أمام المشاهدة العملية ، وأمام التصرف الغريب الذى صدر من الخضر دون أن يعرف له سببا .

وهكذا الطبيعة البشرية تلتقى فى أنها تجد للتجربة العملية وقعا وطعما ، يختلف عن الوقع والطعم الذى تجده عند التصور النظرى .

فموسى ـ عليه السلام ـ وعد الخضر بأنه سيصبر ، إلا أنه بعد أن شاهد مالا يرضيه اندفع مستنكرا .

أما الحادث الثانى الذى لم يستطع موسى أن يقف أمامه صامتا ، فقد حكاه القرآن فى قوله :

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا (٧٦) ﴾ .

أى : فانطلق موسى والخضر للمرة الثانية بعد خروجهما من السفينة ، وبعد أن قبل الخضر اعتذار موسى .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلامًا ﴾ فى طريقهما ، ما كان من الخضر إلا أن أخذه ﴿ فَقَتَلَهُ ﴾ ، وهنا لم يستطع موسى ـ عليه السلام ـ أن يصبر على ما رأى ، أو أن يكظم غيظه ، فقال باستنكار وغضب : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً ﴾ أى : طاهرة بريئة من الذنوب ﴿ بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ .

أى : بغير أن ترتكب مايوجب قتلها ، لأنها لم تقتل غيرها حتى تقتص منها ، أى : أن قتلك لهذا الغلام كان بغير حق .

﴿ لَّقَدْ جِئْتَ ﴾ أيها الرجل ﴿ شَيْئًا نُّكْرًا ﴾ أى : منكرا عظيما ، يقال ، نكُر الأمر ، أى : صعب واشتد ، والمقصود : لقد جئت شيئا أشد من الأول فى فظاعته واستنكار العقول له .

ومرة أخرى يذكره الخضر بالشرط الذى اشترطه عليه ، وبالوعد الذى قطع على نفسه ، فيقول له : ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ .

وفى هذه المرة لايكتفى الخضر بقوله : ﴿ أَلَمْ أَقُل إِنَّكَ . . ﴾ بل يضيف لفظ لك ، زيادة فى التحديد والتعيين والتذكير .

أى : ألم أقل لك أنت ياموسى لا لغيرك على سبيل التأكيد والتوثيق : إنك لن تستطيع معى صبرا ، لأنك لم تحط علما بما أفعله .

ويراجع موسى نفسه ، فيجد أنه قد خالف ما اتفق عليه مع الرجل الصالح مرتين ، فيبادر بإخبار صاحبه أن يترك له فرصة أخيرة فيقول : ﴿ إِن سَأَلْتُكَ ﴾ أيها الصديق ﴿ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا ﴾ أى : بعد هذه المرة الثانية ﴿ فَلا تُصَاحِبْنِي ﴾ أى : فلاتجعلنى صاحبا أو رفيقا لك ، فإنك ﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾ أى فإنك قد بلغت الغاية التى تكون معذورا بعدها فى فراقى ، لأنى أكون قد خالفتك مرارا .

وهذا الكلام من موسى ـ عليه السلام ـ يدلك على اعتذاره الشديد للخضر ، وعلى شدة ندمه على مافرط منه ، وعلى الاعتراف له بخطئه .

قال القرطبى : كان رسول الله ﷺ إذا دعا لأحد بدأ بنفسه فقال يوما : «رحمة الله علينا وعلى موسى ، لو صبر على صاحبه لرأى العجب» ، ولكنه قال : ﴿ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي ﴾ . [1]

ثم تسوق لنا السورة الكريمة الحادث الثالث والأخير فى تلك القصة الزاخرة بالمفاجآت والعجائب فنقول :

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) ﴾ .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١١ ص٢٣ .

أى : فانطلق موسى والخضر - عليهما السلام - يتابعان سيرهما ، حتى إذا أتيا أهل قرية من القرى التى صادفتهما فى طريقهما .

﴿ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا ﴾ والاستطعام : سؤال الطعام ، والمراد به هنا سؤال الضيافة لأنه هو المناسب لمقام موسى والخضر - عليهما السلام - ولأن قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾ يشهد له .

أى : فأبى وامتنع أهل تلك القرية عن قبول ضيافتهما بخلا منهم وشحا .

وقوله - تعالى - ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ﴾ أى : وبعد أن امتنع أهل القرية عن استضافتهما ، تجولا فيها ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا ﴾ أى : بناء مرتفعا ﴿ يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ أى : ينهدم ويسقط ﴿ فَأَقَامَهُ ﴾ أى الخضر بأن سواه وأعاد إليه اعتداله ، أو بأن نقضه وأخذ فى بنائه من جديد .

وهنا لم يتمالك موسى - عليه السلام - مشاعره ، لأنه وجد نفسه أمام حالة متناقضة ، قوم بخلاء أشحاء لايستحقون العون ، ورجل يتعب نفسه فى إقامة حائط مائل لهم ، هلا طلب منهم أجرا على هذا العمل الشاق ، خصوصا وهماجائعان لايجدان مأوى لهما فى تلك القرية!

لذا بادر موسى - عليه السلام - ليقول للخضر : ﴿ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ أى : هلا طلبت أجرا من هؤلاء البخلاء على هذا العمل ، حتى تنتفع به ، وأنت تعلم أننا جائعان وهم لم يقدموا لنا حق الضيافة .

فالجملة الكريمة تحريض من موسى للخضر على أخذ الأجر على عمله ، ولوم له على ترك هذا الأجر مع أنهما فى أشد الحاجة إليه .

وكان هذا التحريض من موسى للخضر - عليهما السلام - هونهاية المرافقة والمصاحبة بينهما ، ولذا قال الخضر لموسى : ﴿ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ أى : هذا الذى قلته لى ، يجعلنا نفترق ، لأنك قد قلت لى قبل ذلك : ﴿ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ﴾ وها أنت تسألنى وتحرضنى على أخذ الأجر .

ومع ذلك فانتظر : سأنبئك ، قبل مفارقتى لك ﴿ بِتَأْوِيلِ ﴾ أى : بتفسير وبيان ماخفى عليك من الأمور الثلاثة التى لم تستطع عليها صبرا ، لأنك لم يكن عندك ماعندى من العلم بأسرارها الباطنة التى أطلعنى الله - تعالى - عليها .

ثم حكى القران الكريم ما قاله الخضر لموسى ـ عليهما السلام ـ فى هذا الشأن فقال ـ تعالى ـ :

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ .

أى قال الخضر لموسى : ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ ﴾ التى خرقتها ولم ترض عنها ، ﴿ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ﴾ أى : لضعفاء من الناس لايستطيعون دفع الظلم عنهم ، ولم يكن لهم مال يتعيشون منه سواها ، فكان الناس يركبون فيها ويدفعون لهؤلاء المساكين الأجر الذى ينتفعون به .

﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ أى : أن أجعلها ذات عيب بالخرق الذى خرقته فيها ، ولم أرد أن أغرق أهلها ، كما ظننت ياموسى ، والسبب فى ذلك : أنه ﴿ كَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ ﴾ ظالم من دأبه أن يتعقب السفن الصالحة الصحيحة ، ويستولى عليها ، ويأخذها اغتصابا وقسرا من أصحابها .

فهذا العيب الذى أحدثته فى السفينة ، كان سببا فى نجاتها من يد الملك الظالم وكان سببا فى بقائها فى أيدى أصحابها المساكين .

فالضرر الكبير الذى أحدثته بها ، كان دفعا لضرر أكبر كان ينتظر أصحابها المساكين لو بقيت سليمة .

وظاهر قوله ـ تعالى ـ : ﴿ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ يفيد أن هذا الملك كان يأخذ كل سفينة سواء أكانت صحيحة أم معيبة ، ولكن هذا الظاهر غير مراد ، وإنما المراد : يأخذ كل سفينة سليمة ، بدليل : فأردت أن أعيبها ، أى : لكى لايأخذها ، ومن هنا قالوا : إن لفظ «سفينة» هنا موصوف لصفة محذوفة ، أى : يأخذ كل سفينة صحيحة .

و«غصبا» منصوب على أنه مصدر مبين لنوع الأخذ ، والغصب ـ فعله من باب ضرب ـ : أخذ الشىء ظلما وقهرا .

ثم بين ـ سبحانه ـ ما رد به الخضر على موسى فى اعتراضه على الحادثة الثانية فقال ـ تعالى ـ :

﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) ﴾

أى : ﴿ وَأَمَّا الْغُلامُ ﴾ الذى سبق لى أن قتلته ، واعترضت علىّ فى قتله ياموسى ﴿ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ﴾ ولم يكن هو كذلك فقد أعلمنى الله - تعالى - أنه طبع كافرا .

﴿ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ والخشية : الخوف الذى يشوبه تعظيم ، وأكثر مايكون عن علم بمايخشى منه .

و﴿ يُرْهِقَهُمَا ﴾ من الإرهاق وهو أن يُحمل الإنسان مالايطيقه .

أى : فخشينا لو بقى حيا هذا الغلام أن يوقع أبويه فى الطغيان والكفر ، لشدة محبتهما له ، وحرصهما على إرضائه .

﴿ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ ﴾ والإبدال : رفع شىء وإحلال آخر محله .

أى : ﴿ فَأَرَدْنَا ﴾ بقتله ﴿ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا ﴾ بدل هذا الغلام الكافر الطاغى ، ولدا آخر ﴿ خَيْرًا مِّنْهُ ﴾ أى من هذا الغلام ، ﴿ زَكَاةً ﴾ أى طهارة وصلاحا ﴿ وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ ، أى : وأقرب فى الرحمة بهما ، والعطف عليهما والطاعة لهما .

ثم ختم - سبحانه - القصة ، ببيان ما قاله الخضر لموسى فى تأويل الحادثة الثالثة فقال - تعالى - :

﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٨٢) ﴾ .

أى : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ ﴾ الذى أتعبت نفسى فى إقامته ، ولم يعجبك هذا منى .

﴿ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ مات أبوهما وهما صغيران ، وهذان الغلامان يسكنان فى تلك المدينة ، التى عبر عنها القرآن بالقرية سابقا فى قوله : ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ .

قالوا : ولعل التعبير عنها بالمدينة هنا ، لإظهار نوع اعتداد بها ، باعتداد مافيها من اليتيمين ، وماهو من أهلها وهو أبوهما الصالح .

﴿ وَكَانَ تَحْتَهُ ﴾ أى تحت هذا الجدار ﴿ كَنزٌ لَّهُمَا ﴾ أى : مال مدفون من ذهب وفضة ، ولعل أباهما هو الذى دفنه لهما .

﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ أى : رجلا من أصحاب الصلاح والتقوى ، فكان ذلك منه سببا فى رعاية ولديه ، وحفظ مالهما .

﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴾ ومالك أمرك : ومدبر شئونك ، والذى يجب عليك أن تستسلم وتنقاد لإرادته .

﴿ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ﴾ أى : كمال رشدهما ، وتمام نموهما وقوتهما .

﴿ وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا ﴾ من تحت هذا الجدار وهما قادران على حمايته ، ولولا أنى أقمته لانقض وخرج الكنز من تحته قبل اقتدارهما على حفظه وعلى حسن التصرف فيه .

﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ أى : وما أراده ربك ـ ياموسى ـ بهذين الغلامين ، هو الرحمة التى ليس بعدها رحمة ، والحكمة التى ليس بعدها حكمة .

ثم ينفض الخضر يده من أن يكون قد تصرف بغير أمر ربه فيقول : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ .

أى : وما فعلت ما فعلته عن اجتهاد منى ، أو عن رأيى الشخصى ، وإنما فعلت ما فعلت بأمر ربى ومالك أمرى ، وذلك الذى ذكرته لك من تأويل تلك الأحداث هو الذى لم تستطع عليه صبرا ، ولم تطق السكوت عليه ، لأنك لم يطلعك الله ـ تعالى ـ على خفايا تلك الأمور وبواطنها . . كما أطلعنى .

وحذفت التاء من ﴿ تَسْطِع ﴾ تخفيفا ، يقال : استطاع فلان هذا الشىء واسطاعه بمعنى أطاقه وقدر عليه .

وبذلك انكشف المستور لموسى ـ عليه السلام ـ وظهر ما كان خافيا عليه .

هذا ، وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لآيات تلك القصة جملة من الأحاديث ، منها ما رواه الشيخان ، ومنها ما رواه غيرهما ، ونكتفى هنا بذكر حديث واحد .

قال ـ رحمه الله ـ قال البخارى : حدثنا الحميدي ، حدثنا سفيان ، حدثنا عمرو ابن دينار ، أخبرنى سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : إن نوفا البكالى يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى نبى بنى إسرائيل .

قال ابن عباس : كذب عدو الله ، حدثنا أبى بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : إن موسى قام خطيبا فى بنى إسرائيل ، فسئل أى الناس أعلم؟ فقال أنا ، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه فأوحى الله إليه : إن عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك ، فقال موسى : يارب ، وكيف لى به؟

قال : تأخذ معك حوتا ، تجعله بمكتل ، فحيثما فقدت الحوت فهو ثَمَّ - أى : فهو هناك - .

فأخذ حوتا ، فجعله فى مكتل ، ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون ، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما ،واضطرب الحوت فى المكتل ، فخرج منه فسقط فى البحر ، واتخذ سبيله فى البحر سربا ، وأمسك الله عن الحوت جِرْية الماء ، فصار عليه مثل الطاق ، فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت .

فانطلقا بقية يومهما وليلتهما ، فلما كان الغد قال موسى لفتاه : ﴿آتنا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذى أمره الله به .

قال له فتاه : ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ قال : فكان للحوت سربا ولموسى وفتاه عجبا .

فقال موسى : ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ .

قال : فرجعا يقصان أثرهما ، حتى انتهيا إلى الصخرة ، فإذا رجل مسجى - أى مغطى - بثوب ، فسلم عليه موسى ، فقال الخضر : وأنى بأرضك السلام .

قال : إنك موسى ، قال : موسى نبى بنى إسرائيل قال : نعم ، أتيتك لتعلمنى مما علمت رشدا قال : إنك لن تستطيع معى صبرا .

يا موسى : إنى على علم من علم الله علمنيه ، لاتعلمه أنت ، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه .

قال موسى : ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا ، قال الخضر ، فإن اتبعتنى فلاتسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا .

فانطلقا يمشيان ، فمرت سفينة فكلمهم أن يحملوهما فعرفوا الخضر فحملوهما بغير نول - أى بغير أجر - فلما ركبا فى السفينة ،لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم .

فقال له موسى : قد حملونا بغير نول ، فعمدت إلى سفينتهم فخرقتها ، لتغرق أهلها ، قد جئت شيئا إمرا .

قال له الخضر : ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا ، قال : لاتؤاخذنى بما نسيت ولاترهقنى من أمرى عسرا .

قال : وقال رسول الله ﷺ كانت الأولى من موسى نسيانا ، قال : وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة ، فنقر فى البحر نقرة ، فقال له الخضر : ما علمى وعلمك فى علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من البحر .

ثم خرجا من السفينة ، فبينما هما يمشيان على الساحل ، إذ أبصر الخضر غلاما ، يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه بيده فقتله ـ فقال له موسى : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴾ قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا .

قال وهذه أشد من الأولى ، قال : إن سألتك عن شىء بعدها فلاتصاحبنى .

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا . قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ .

فقال رسول الله ﷺ : وددنا أن موسى كان قد صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما .[1]

وقد أخذ العلماء من هذه القصة أحكاما وآدابا من أهمها ما يأتى :

١ ـ أن الإنسان مهما أوتى من العلم ، فعليه أن يطلب المزيد ، وأن لايعجب بعلمه ، فالله ـ تعالى ـ يقول : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ وطلب من نبيه ﷺ أن يتضرع إليه بطلب الزيادة من العلم فقال : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ .

٢ ـ أن الرحلة فى طلب العلم من صفات العقلاء ، فموسى ـ عليه السلام ـ وهو من أولى العزم من الرسل ، تجشم المشاق والمتاعب لكى يلتقى بالرجل الصالح ، لينتفع بعلمه ، وصمم على ذلك مهما كانت العقبات بدليل قوله ـ تعالى ـ حكاية عنه :

﴿ لا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ .

قال القرطبى عند تفسيره لهذه الآية : فى هذا من الفقه رحلة العالم فى طلب الازدياد

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٥ ص١٧٢ طبعة دار الشعب .

من العلم ، والاستعانة على ذلك بالخادم والصاحب واغتنام لقاء الفضلاء والعلماء ، وإن بعدت أقطارهم ، وذلك كان دأب السلف الصالح ، وبسبب ذلك وصل المرتحلون لطلب العلم إلى الحظ الراجح ، وحصلوا على السعى الناجح ، فرسخت لهم فى العلوم أقدام ، وصح لهم من الذكر والأجر والفضل أفضل الأقسام .

قال البخارى : ورحل جابر بن عبدالله مسيرة شهر إلى عبدالله بن أنيس فى طلب حديث .[1]

٣ ـ جواز إخبار الإنسان عما هو من مقتضى الطبيعة البشرية ، كالجوع والعطش والتعب والنسيان فقد قال موسى لفتاه : ﴿آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا﴾ ورد عليه فتاه بقوله : ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ . . ﴾ .

وفى هذا الرد ـ أيضا ـ من الأدب مافيه ، فقد نسب سبب النسيان إلى الشيطان وإن كان الكل بقضاء الله ـ تعالى ـ وقدره .

٤ ـ أن العلم على قسمين : علم مكتسب يدركه الإنسان باجتهاده وتحصيله . . بعد عون الله ـ تعالى ـ له ، وعلم لدنى يهبه الله ـ سبحانه ـ لمن يشاء من عباده فقد قال ـ تعالى ـ فى شأن الخضر ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ أى : علما خاصا أطلعه الله عليه يشمل بعض الأمور الغيبية .

٥ ـ أن على المتعلم أن يخفض جناحه للمعلم ، وأن يخاطبه بأرق العبارات وألطفها حتى يحصل على ما عنده من علم بسرور وارتياح .

قال بعض العلماء ما ملخصه : وتأمل ما حكاه الله عن موسى فى قوله للخضر : ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ فقد أخرج الكلام بصورة الملاطفة والمشاورة ، فكأنه يقول له : هل تأذن لى فى ذلك أولا ، مع إقراره بأنه يتعلم منه ، بخلاف ما عليه أهل الجفاء أو الكبر ، الذى لايظهر للمعلم افتقاره إلى علمه .[2]

٦ ـ أنه لابأس على العالم ، إذا اعتذر للمتعلم عن تعليمه ، لأن المتعلم لايطيق ذلك لجهله بالأسباب التى حملت العالم على فعل تلك الأمور التى ظاهرها يخالف الحق والعدل والمنطق العقلى ، وأن معرفة الأسباب تعين على الصبر .

فقد قال الخضر لموسى : ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا . وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ فقد جعل الموجب لعدم صبره عدم إحاطته خبرا بالأمر .

---

(١) تفسير القرطبى جـ١١ ص١١

(٢) تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان جـ٥ ص٢٣ للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدى .

٧ ـ إن من علامات الإيمان القوى ، أن يقدم الإنسان المشيئة عند الإقدام على الأعمال ، وأن العزم على فعل الشىء ليس بمنزلة فعله ، فقد قال موسى للخضر : ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ ومع ذلك فعندما رأى منه أفعالا يخالف ظاهرها الحق والصلاح ، لم يصبر .

وأنه لابأس على العالم أن يشترط على المتعلم أمورا معينة قبل أن يبدأ فى تعليمه . فقد قال الخضر لموسى : ﴿ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ .

٨ ـ أنه يجوز دفع الضرر الأكبر بارتكاب الضرر الأصغر ، فإن خرق السفينة فيه ضرر ولكنه أقل من أخذ الملك لها غصبا ، وإن قتل الغلام شر ، ولكنه أقل من الشر الذى يترتب على بقائه ، وهو إرهاقه لأبويه ، وحملهما على الكفر .

كما يجوز للإنسان أن يعمل عملا فى ملك غيره بدون إذنه بشرط أن يكون هذا العمل فيه مصلحة لذلك الغير كأن يرى حريقا فى دار إنسان فيقدم على إطفائه بدون إذنه ، ويدفع ضرر الحريق بضرر أقل منه ، فقد خرق الخضر السفينة ، لكى تبقى لأصحابها المساكين .

٩ ـ أن التأنى فى الأحكام والتثبت من الأمور ، ومحاولة معرفة العلل والأسباب ، كل ذلك يؤدى إلى صحة الحكم ، وإلى سلامة القول والعمل .

وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول : «رحمة الله علينا وعلى موسى ، لو صبر على صاحبه لرأى العجب» .

١٠ ـ أن من دأب العقلاء الصالحين ، استعمال الأدب مع الله ـ تعالى ـ فى التعبير ، فالخضر قد أضاف خرقه للسفينة إلى نفسه فقال : «فأردت أن أعيبها . .» وأضاف الخير الذى فعله من أجل الغلامين اليتيمين إلى الله فقال : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ .

وشبيه بهذا ما حكاه الله ـ تعالى ـ عن صالحى الجن فى قولهم : ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ .

١١ ـ أن صلاح الآباء ينفع الأبناء ، بدليل قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ فى ذريته وتشمل بركة عبادته ما ينفعهم فى الدنيا والآخرة ، بشفاعته فيهم ، ورفع درجتهم إلى أعلى درجة فى الجنة لتقر عينه بهم ، كما جاء فى القرآن ووردت السنة به .

قال سعيد بن جبير عن ابن عباس : حفظا بصلاح أبيهما .

١٢ - أن على الصاحب أن لايفارق صاحبه حتى يبين له الأسباب التى حملته على ذلك ، فأنت ترى أن الخضر قد قال لموسى : ﴿ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ .(١)

أى : قبل مفارقتى لك سأخبرك عن الأسباب التى حملتنى على فعل ما فعلت مما لم تستطع معه صبرا .

ويفهم من ذلك أن موافقة الصاحب لصاحبه - فى غير معصية الله - تعالى - على رأس الأسباب التى تعين على دوام الصحبة ، وتقويتها ، كما أن عدم الموافقة ، وكثرة المخالفة ، تؤدى إلى المقاطعة .

كما يفهم من ذلك - أيضا - أن المناقشة والمحاورة متى كان الغرض منها الوصول إلى الحق ، وإلى العلم ، وكانت بأسلوب مهذب ، وبنية طيبة ، لاتؤثر فى دوام المحبة والصداقة ، بل تزيدهما قوة وشدة .

نسأل الله - تعالى - أن يؤدبنا بأدبه ، وأن يجعل القرآن ربيع قلوبنا ، وأنس نفوسنا .

٣٤ - شوق موسى - عليه السلام - لرؤية ربه وللحديث معه - عز وجل - :

من الصفات الجليلة ، والمزايا الكريمة ، التى منحها الله - تعالى - لرسوله موسى - عليه السلام - أنه كلمه تكليما ، قال - تعالى - : ﴿ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ .(٢)

فهذه الآية الكريمة صريحة فى أن الله - تعالى - قد خاطب نبيه موسى - عليه السلام - بما خاطبه به من كلام حكيم ، ولكن بكيفية نفوض أمرها إليه وحده - سبحانه - ولقد كان موسى - عليه السلام - مشوقا للحديث مع خالقه - عز وجل - ولرؤية ذاته الكريمة .

ويحكى لنا القرآن ذلك فى قوله - تعالى - :

﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٥ ص١٨٣ .

(٢) سورة النساء : الآية ١٦٤ .

فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

قال صاحب الكشاف : «روى أن موسى ـ عليه السلام ـ وعد بنى إسرائيل وهو بمصر ، إن أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب من عند الله ، فيه بيان مايأتون ومايذرون ، فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب فأمره بصوم ثلاثين يوما وهو شهر ذى القعدة ، فلما أتم الثلاثين أمره الله ـ تعالى ـ أن يزيد عليها عشرة أيام من ذى الحجة لذلك ، وقيل أمره الله أن يصوم ثلاثين يوما وأن يعمل فيها بما يقربه من الله ثم أنزل الله عليه فى العشر التوراة وكلمه فيها» .(١)

والمواعدة مفاعلة من الجانبين ، وهى هنا على غير بابها ، لأن المراد بها هنا أن الله ـ تعالى ـ أمر موسى أن ينقطع لمناجاته أربعين ليلة تمهيدا لإعطائه التوراة ، أى : أمرنا موسى أن ينقطع لعبادتنا مدة أربعين ليلة ، نعطيه بعدها التوراة لتكون هداية ونورا له ولقومه .

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما وصى به موسى أخاه هارون فقال : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي ﴾ أى : قال موسى لأخيه هارون حين استودعه ليذهب لمناجاة ربه : كن خليفتى فى قومى ، وراقبهم فيما يأتون ويذورن فإنهم فى حاجة إلى ذلك لضعف إيمانهم ، واستيلاء الشهوات والأهواء عليهم ﴿ وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ الذين ﴿ إِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ .

وإننا لنلمح من هذه الوصية أن موسى ـ عليه السلام ـ كان متوقعا شرا من قومه ، ولقد

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص١٥١ .

صح ما توقعه ، فإنهم بعد أن فارقهم موسى استغلواجانب اللين فى هارون فعبدوا عجلا جسدا له خوار صنعه لهم السامرى .

ثم حكى القرآن ما كان من موسى عندما وصل إلى طور سيناء لمناجاة ربه فقال : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ أى : وحين حضر موسى لميقاتنا الذى وقتناه له وحددناه ، وكلمه ربه ، أى : وخاطبه من غير واسطة ملك ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ أى : قال موسى حين كلمه ربه وسمع منه : رب أرنى ذاتك الجليلة ، والمراد مكنى من رؤيتك ، أو تجل لى أنظر إليك وأراك .

و﴿ أَرِنِي ﴾ فعل أمر مبنى على حذف الياء ، وياء المتكلم مفعول ، والمفعول الثانى محذوف أى : ذاتك أو نفسك ولم يصرح به لأنه معلوم ، وزيادة فى التأدب مع الخالق - عز وجل - .

وجملة ﴿ قَالَ لَن تَرَانِي ﴾ مستأنفة استئنافا بيانيا ، كأنه قيل : فماذا قال الله - تعالى - حين قال موسى ذلك ، فكان الجواب ﴿ قَالَ لَن تَرَانِي ﴾ أى : لن تطيق رؤيتى ،وأنت فى هذه النشأة وعلي الحالة التى أنت عليها فى هذه الدنيا فنفى الرؤية منصب على الحالة الدنيوية ، أمافى الآخرة فقد ثبت فى الأحاديث الصحيحة أن المؤمنين يرون ربهم فى روضات الجنات .

ثم قال - تعالى - : ﴿ وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ أى : لن تطيق رؤيتى : يا موسى وأنت فى هذه الحياة الدنيا ، ولكن انظر إلى الجبل الذى هو أقوى منك ، فإن استقر مكانه أى ثبت مكانه حين أتجلى له ولم يتفتت من هذا التجلى ، فسوف تراني أى تثبت لرؤيتى إذا تجليت لك وإلا فلا طاقة لك برؤيتى .

وفى هذا الاستدراك ﴿ وَلَٰكِنِ انظُرْ ﴾ ... إلخ ، تسلية لموسى - عليه السلام - وتلطف معه فى الخطاب ، وتكريم له ، وتعظيم لأمر الرؤية وأنه لايقوى عليها إلا من قواه الله بمعونته .

ثم بين - سبحانه - ماحدث للجبل عن التجلى فقال : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ أى : فحين ظهر نوره - سبحانه للجبل على الوجه اللائق بجلاله ﴿ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ أى مدقوقا مفتتا ، فنبه - سبحانه - بذلك على أن الجبل مع شدته وصلابته مادام لم يستقر عند هذا التجلى ، فالآدمى مع ضعف بنيته أولى بأن لايستقر ، والدك والدق بمعنى ، وهو تفتيت الشىء وسحقه وفعله من باب رد .

وقوله ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ أى : سقط من هول ما رأى من النور الذى حصل به التجلى مغشيا عليه ، كمن أخذته الصاعقة .

يقال : صعقتهم السماء تصعقهم صعقا فهو صعق أى : غشى عليه .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : فلما أفاق موسى من غشيته ، وعاد إلى حالته الأولى التى كان عليها قبل أن يخر مغشياعليه ، قال تعظيما لأمر الله ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ أى تنزيها لك من مشابهة خلقك فى شىء ﴿ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ من الإقدام على السؤال بغير إذن ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بعظمتك وجلالك أو وأنا أول المؤمنين بأنه لايراك أحد .

والذى نراه أن رؤية الله فى الآخرة ممكنة كما قال أهل السنة لورود الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة التى تشهد بذلك ، أمافى الدنيا فقد منع العلماء وقوعها لأنه لم يرد مايدل على وقوعها فى الدنيا ، وقد بينا ذلك بشىء من التفصيل عند تفسيرنا لقوله ـ تعالى ـ : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ ﴾ .[1]

ثم حكى القرآن بعد ذلك ما كرم الله ـ تعالى ـ به موسى ـ عليه السلام ـ فقال : ﴿ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي ﴾ .

الاصطفاء افتعال من الصفوة ، وصفوة الشىء خالصه وخياره أى : قال الله ـ تعالى ـ لموسى إنى اخترتك واجتبيتك على الناس الموجودين فى زمانك لأن الرسل كانوا قبل موسى وبعده ، فهو اصطفاء على جيل معين من الناس بحكم هذه القرينة .

وقوله : ﴿ بِرِسَالاتِي ﴾ أى : بأسفار التوراة ، أو بإرسالى إياك إلى من أرسلت إليهم ، و﴿ بِكَلامِي ﴾ أى : بتكليمى إياك بغير واسطة قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ .

والجملة الكريمة مسوقة لتسليته ـ عليه السلام ـ عما أصابه من عدم الرؤية فكأنه ـ سبحانه ـ يقول له : إن منعتك الرؤية فقد أعطيتك من النعم العظام ما أعطيتك فاغتنمه ودم على شكرى .

وقدم الرسالة على الكلام لأنها أسبق ، أو ليترقى إلى الأشرف .

---

(١) راجع تفسيرنا لسورة الأنعام ص٢٢٨ من التفسير الوسيط للقرآن الكريم .

ثم قال ـ تعالى ـ : ﴿ فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ أى : فخذ يا موسى ما أعطيتك من شرف الاصطفاء والنبوة والمناجاة وكن من الراسخين فى الشكر على ما أنعمت به عليك ، فأنت أسوة وقدوة لأهل زمانك .

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥) ﴾ .

ثم فصل ـ سبحانه ـ بعض النعم التى منحها لنبيه موسى فقال : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ .

والمراد بالألواح ـ كما قال ابن عباس ـ ألواح التوراة واختلف فى عددها فقيل : سبعة ألواح وقيل عشرة ألواح وقيل أكثر من ذلك .

والذى نراه تفويض معرفة ذلك إلى الله ـ تعالى ـ لأنه لم يرد نص صحيح عن رسول الله ﷺ يوضح عددها أو كيفيتها .

والمعنى : وكتبنا لموسى ـ عليه السلام ـ فى ألواح التوراة من كل شىء يحتاجون إليه من الحلال والحرام ، والمحاسن والقبائح ليكون ذلك موعظة لهم من شأنها أن تؤثر فى قلوبهم ترغيبا وترهيبا ، كما كتبنا له فى تلك الألواح تفصيل كل شىء يتعلق بأمر هذه الرسالة الموسوية .

وإسناد الكتابة إليه ـ تعالى ـ إما على معنى أن ذلك كان بقدرته ـ تعالى ـ وصنعه ولا كسب لأحد فيه ، وإما على معنى أنه كتبها بأمره ووحيه سواء كان الكاتب لهاموسى أم ملك من ملائكته ـ عز وجل ـ .

قال صاحب المنار : قال بعض المفسرين : إن الألواح كانت مشتملة على التوراة : وقال بعضهم بل كانت قبل التوراة ، والراجح أنها كانت أول ما أوتيه من وحى التشريع فكانت أصل التوراة الإجمالى ، وكانت سائر الأحكام من العبادات والمعاملات الحربية والمدنية والعقوبات تنزل يخاطبه بها الله ـ تعالى ـ فى أوقات الحاجة إليها» .[1]

وقوله : ﴿ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى : كتبنا له فيها كل شىء من المواعظ وتفصيل الأحكام .

والضمير فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ يعود إلى الألواح أى : كتبنا له فى

---

(١) تفسير المنار جـ٩ ص١٩٠

الألواح من كل شيء ، وقلنا له خذها بقوة أى بجد وحزم ، وصبر وجلد ، لأنه ـ عليه السلام ـ قد أرسل إلى قوم طال عليهم الأمد وهم فى الذل والاستعباد ، فإذا لم يكن المتولى لإرشادهم وإلى مافيه هدايتهم ذا قوة وصبر ويقين ، فإنه قد يعجز عن تربيتهم ويفشل فى تنفيذ أمر الله فيهم .

قال الجمل : وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ أى التوراة ومعنى بأحسنها بحسنها إذ كل مافيها حسن ، أو أمروا فيها بالخير ونهوا عن الشر ، وفعل الخير أحسن من ترك الشر ، وذلك لأن الكلمة المحتملة لمعنيين أو لمعان تحمل على أشبه محتملاتها بالحق وأقربها إلى الصواب ، أو أن فيها حسنا وأحسن كالقود والعفو ، والانتصار والصبر ، والمأمور به والمباح فأمروا بأن يأخذوا بما هو أكثر ثوابا .(١)

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ توكيد لأمر القوم بالأخذ بالأحسن وبعث عليه على نهج الوعيد والتهديد .

أى : سأريكم عاقبة من خالف أمرى ، وخرج عن طاعتى ، كيف يصير إلى الهلاك والدمار ، فتلك سنتى التى لاتتغير ولاتتبدل .

قال ابن كثير : وإنما قال : ﴿ سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ كما يقول القائل لمن يخاطبه : سأريك غدا مايصير إليه حال من خالفنى على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره .(٢)

وقيل المراد بدار الفاسقين دار فرعون وقومه وهى مصر ، كيف أقفرت منهم ودمروا لفسقهم لتعتبروا فلاتفسقوا مثل فسقهم فيصيبكم ما أصابهم .

وقيل المراد بها منازل عاد وثمود والأقوام الذين هلكوا بسبب كفرهم .

وقيل المراد بها أرض الشام التى كان يسكنها الجبارون ، فإنهم لم يدخلوها إلا بعد أربعين سنة من خروجهم من مصر على يد يوشع بن نون .

والذى نراه أن الرأى الأول أرجح ، لأن الآية الكريمة تحكى سنة من سنن الله فى خلقه ، وهذه السنة تتمثل فى أن كل دار تفسق عن أمر بها تكون عاقبتها الذل والدمار ، ولأنه لم يرد حديث صحيح يعين المراد بدار الفاسقين .

فالآية الكريمة قد اشتملت على جانب من مظاهر نعم الله على نبيه موسى ـ عليه السلام ـ كما اشتملت على الأمر الصريح منه ـ سبحانه ـ له بأن يهيىء نفسه لحمل

(١) حاشية الجمل على الدلالين جـ٢ ص١٩٠

(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٢٤٦ .

تكاليف الرسالة بعزم وصبر ، وأن يأمر قومه بأن يأخذوابأكملها وأعلاها بدون ترخيص أوتحايل ، لأنهم قوم كانت طبيعتهم رخوة وعزيمتهم ضعيفة ، ونفوسهم منحرفة ، كما اشتملت على التحذير الشديد لكل من يخرج عن طاعة الله وينتهك حرماته .

٣٥ ـ أهم الدروس والعظات التى نأخذ من قصة موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ :

تعد قصة موسى ـ عليه السلام ـ كما سبق أن أشرنا ـ على رأس القصص التى فصل القرآن الكريم الحديث عنها تفصيلا يفوق ما جاء عن كثير من قصص الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ بدليل أن قصة موسى ـ عليه السلام ـ مع فرعون ، ومع قومه من بنى إسرائيل قد تكررت فى القرآن الكريم فى أكثر من عشرين سورة ، تارة بصورة فيها إسهاب وتفصيل ، وتارة بصورة فيها اختصار وتركيز ولعل السر فى ذلك أن هذه القصة قد اشتملت على كثير من الأحداث والوقائع والمجادلات والمحاورات والتحديات . . التى تزيد على غيرها .

ومن الدروس النافعة والعظات البليغة التى نتعلمها من هذه القصة :

أن الله ـ تعالى ـ إذا أراد أمرا هيأ له أسبابه ، ويسر له وسائله ، وأن رعايته ـ سبحانه ـ إذا أحاطت بعبد من عباده ، صانته من كل أعدائه ، مهما بلغ مكر وبطش هؤلاء الأعداء .

والدليل على ذلك ، ما قصه الله ـ تعالى ـ علينا من حياة موسى ـ عليه السلام ـ فقد ولد فى وقت كان فرعون فيه يذبح الذكور ويستبقى الإناث من بنى إسرائيل الذين هم قوم موسى ـ عليه السلام ـ .

وقد ذكرنا قبل ذلك الآيات الكريمة التى فصلت قصة ولادة موسى ـ عليه السلام ـ كما جاءت فى سورة «القصص» .

وفى سورة «طه» آيات أخرى تحدثت عن هذه الرعاية التى شمل الله ـ تعالى ـ بها نبيه موسى ـ عليه السلام ـ وتبدأ هذه الآيات بقوله ـ سبحانه ـ :

قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ

وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾

أى : قال الله ـ تعالى ـ لموسى بعد أن ابتهل إليه ـ سبحانه ـ بما ابتهل : لقد أجبنا دعاءك يا موسى ، وأعطيناك ما سألتنا إياه ، فطب نفسا وقر عينا .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴾ تذكير منه ـ سبحانه ـ لموسى ، بجانب من النعم التى أنعم بها عليه ، حتى يزداد ثباتا وثقة بوعد الله ـ تعالى ـ ولذا صدرت الجملة بالقسم .

أى : وبعزتى وجلالى لقد مننا عليك ، وأحسنا إليك ﴿ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴾ قبل ذلك ومنحناك من رعايتنا قبل أن تلتمس منا أن نشرح لك صدرك ، وأن نيسر لك أمرك .

ثم فصل ـ سبحانه ـ هذه المنن التى امتن بها على عبده موسى ، فذكر ثمانية منها : أما أول هذا المنن فتتمثل فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴾ .

والمعنى : ولقد مننا عليك يا موسى مرة أخرى ، وقت أن أوحينا إلى أمك بما أوحينا من أمر عظيم الشأن ، يتعلق بنجاتك من بطش فرعون .

ثم وضح ـ سبحانه ـ ما أوحاه إلى أم موسى فقال : ﴿ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ .. ﴾ .

والمعنى : لقد كان من رعايتنا لك يا موسى أن أوحينا إلى أمك عندما خافت عليك القتل : أن ضعى ابنك فى الصندوق ، ثم بعد ذلك اقذفيه بالصندوق فى البحر ، وبأمرنا وقدرتنا يلقى اليم بالتابوت على شاطىء البحر وساحله ، وفى هذه الحالة يأخذه عدو لى وعدو له ، وهو فرعون الذى طغى وقال لقومه أنا ربكم الأعلى .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ بيان للمنة الثانية .

أى : وألقيت عليك محبة عظيمة كائنة منى ـ لا من غيرى ـ قد زرعتها فى القلوب ، فكل من رآك أحبك .

ولقد كان من آثار هذه المحبة : عطف امرأة فرعون عليه ، وطلبها منه عدم قتله ، وطلبها منه كذلك أن يتخذه ولدا .

وكان من آثار هذه أن يعيش موسى فى صغره معززا مكرما فى بيت فرعون مع أنه فى المستقبل سيكون عدوا له .

وهكذا رعاية الله ـ تعالى ـ ومحبته لموسى جعلته يعيش بين قوى الشر والطغيان آمنا مطمئنا .

قال ابن عباس : أحب الله ـ تعالى ـ موسى ، وحببه إلى خلقه .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ بيان للمنة الثالثة . .

أى : أوحيت إلى أمك بما أوحيت من أجل مصلحتك ومنفعتك وألقيت عليك محبة منى ، ليحبك الناس ، ولتصنع على عينى ، أى : ولتربى وأنت محاط بالحنو والشفقة تحت رعايتى وعنايتى وعينى ، كما يراعى الإنسان بعينه من يحبه ويهتم بأمره .

وهذا ما حدث لموسى فعلا ، فقد عاش فى طفولته تحت عين فرعون ، وهو عدو لله ـ تعالى ـ ومع ذلك لم تستطع عين فرعون أن تمتد بسوء إلى موسى ، لأن عين الله ـ تعالى ـ كانت ترعاه وتحميه من بطش فرعون وشيعته .

فالجملة الكريمة فيها من الرفق بموسى ـ عليه السلام ـ ومن الرعاية له ، مايعجز القلم عن وصفه .

وكيف يستطيع القلم وصف حال إنسان قال الله فى شأنه : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ .

ثم بين ـ سبحانه ـ المنة الرابعة على موسى فقال : ﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ . . ﴾ .

وكان ذلك بعد أن التقط آل فرعون موسى من فوق الشاطىء ، وبعد أن امتنع عن الرضاعة من أى امرأة سوى أمه .

أى : وكان من مظاهر إلقاء محبتى عليك ، ورعايتى لك ، أن أختك بعد أن أمرتها أمك بمعرفة خبرك ، سارت فى طرقات مصر فأبصرتك فى بيت فرعون وأنت تمتنع عن الرضاعة من أى امرأة ، فقالت أختك لفرعون وامرأته ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ﴾ .

أى : ألا تريدون أن أرشدكم إلى امرأة يقبل هذا الطفل الرضاعة منها ، وتحفظه وترعاه ، والفاء فى قوله : ﴿ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ هى الفصيحة ، أى : التى تفصح عن كلام مقدر .

والمعنى : بعد أن قالت أختك لفرعون وامرأته : هل أدلكم على من يكفله ، أجابوها بقولهم : دلينا عليها ، فجاءت بأمك فرجعناك إليها كى تسر برجوعك ، ويمتلئ قلبها فرحا بلقائها بك بعد أن ألقتك فى اليم ، ولاتحزن بسبب فراقك عنها .

ثم حكى ـ سبحانه ـ المنة الخامسة فقال : ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ ﴾ وكان ذلك عندما استنصر به رجل من قومه على رجل من أعدائه .

أى : وقتلت نفسا هى نفس القبطى ، عندما استعان بك عليه الإسرائيلى فنجيناك من الغم الذى نزل بك بسبب هذا القتل .

وقوله ـ عز وجل ـ : ﴿ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾ بيان للمنة السادسة التى امتن الله ـ تعالى ـ بها على موسى ـ عليه السلام ـ .

والفتون : جمع فَتْن كالظنون جمع ظن ، والفتن : الاختبار والابتلاء تقول : فتنت الذهب بالنار ، أى : أدخلته فيها لتعلم جودته من رداءته .

والمعنى : واختبرناك وابتليناك ـ يا موسى ـ بألوان من الفتن والمحن .

ونظم ـ سبحانه ـ هذا الفتن والاختبار فى سلك المنن ، باعتبار أن الله ـ تعالى ـ ابتلاه بالفتن ثم نجاه منها ، ونجاه من شرورها .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية حديثا طويلا سماه بحديث الفتون ذكر فيه قصة مولد موسى ، وإلقائه فى اليم ، وتربيته فى بيت فرعون وقتله للقبطى وهروبه إلى مدين ، وعودته منها إلى مصر ، وتكليف الله ـ تعالى ـ له بالذهاب إلى فرعون ، ودعوته إلى عبادة الله وحده . . . . إلخ .[1]

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴾ أى : فلبثت عشر سنين فى قرية أهل مدين ، تعمل كأجير عند الرجل الصالح ، ثم جئت بعد ذلك إلى المكان الذى ناديتك فيه ﴿ عَلَىٰ قَدَرٍ ﴾ أى على وفق الوقت الذى قدرناه لمجيئك ، وحددناه لتكليمك واستنبائك ، دون أن تتقدم أو تتأخر لأن كل شىء عندنا محدد ومقدر بوقت لايتخلف عنه .

ثم حكى ـ سبحانه ـ المنة الثامنة : فقال : ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ أى : وجعلتك محل صنيعتى وإحسانى ، حيث اخترتك واصطفيتك لحمل رسالتى وتبليغها إلى فرعون وقومه ، وإلى قومك بنى إسرائيل .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ٥ ص٢٧٩ ومابعدها .

فالآية الكريمة تكريم عظيم لموسى - عليه السلام - اختاره الله - تعالى - واجتباه من بين خلقه لحمل رسالته إلى فرعون وبنى إسرائيل .

هذه ثمانى منن ساقها الله - تعالى - هنا مجملة وقد ساقها - سبحانه - فى سورة القصص بصورة أكثر تفصيلا ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

ومماسبق يتبين لنا بوضوح أن رعاية الله - تعالى فوق كل رعاية ، وأنه - سبحانه - إذا أراد أمرا قضاه ، لاراد لمشيئته ، ولامعقب لأمره .

(ب) كذلك من الدروس التى نتعلمها من قصة موسى - عليه السلام - أن الأخيار من الناس ، هم الذين فى شتى مراحل حياتهم يقفون إلى جانب المظلوم بالتأييد والعون ، ويقفون فى وجه الظالم حتى ينتهى عن ظلمه لغيره ، وينهضون لمساعدة كل محتاج إلى المساعدة والمعاونة ، لأن مروءتهم ، وعلو همتهم تأبى عليهم السلبية والقعود عن فعل الخير .

وهم الذين يقفون إلى جانب الحق والعدل ومكارم الأخلاق فى كل المواطن وأمام جميع الأحداث .

وهذا ما نراه واضحا فى حياة سيدناموسى - عليه السلام - حتى قبل نبوته ، فهو قبل النبوة نراه يلبى استغاثة المظلوم من قومه ، كمانراه يسقى للمرأتين الضعيفتين دوابهما ، رحمة بهما ، وعونا لهما ، لأن مروءته وهمته العالية تأبى عليه أن يترك امرأتين هما فى حاجة إلى مساعدته ثم لايساعدهما .

أما بعد النبوة ، فنرى أن جميع مواقفه كانت تمتاز بالشجاعة فى الدفاع عن الحق ، وبالحجة الدامغة التى تزهق باطل خصومه .

ولقد مدح الله - تعالى - نبيه موسى وأخاه هارون - عليهما السلام - مدحا عظيما ، لأنهما أديا ماكلفهما خالقهما به على أحسن وجه وأتمه ، ومن ذلك قوله - سبحانه - فى سورة «مريم» :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣) ﴾ .

والمعنى : واذكر - أيها الرسول الكريم - للناس خبر أخيك موسى - عليه السلام - إنه كان من الذين أخلصناهم واصطفيناهم لحمل رسالتنا ، وكان من الذين أخلصوا لنا وحدنا العبادة والطاعة ، وكان - أيضا - ﴿ رَسُولاً ﴾ من جهتنا لتبليغ ما أمرناه بتبليغه ،

وكان كذلك ﴿ نَبِيًّا ﴾ رفيع القدر ، عالي المكانة والمنزلة ، فقد جمع الله ـ تعالى ـ له بين هاتين الصفتين الساميتين صفة الرسالة وصفة النبوة .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ بيان لفضائل أخرى منحها الله ـ تعالى ـ لموسى ـ عليه السلام ـ أى : وناديناه موسى ـ عليه السلام ـ من الناحية التى عن يمينه وهو فى ذلك المكان المبارك .

وقوله : ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ أى : وقربناه تقريب تشريف وتكريم حالة مناجاته لنا ، حيث أسمعناه كلامنا ، واصطفيناه لحمل رسالتنا إلى الناس .

فقوله : ﴿ نَجِيًّا ﴾ من المناجاة وهى المسارة بالكلام ، وهو حال من مفعول وقربناه ، أى : وقربنا موسى منا حال كونه مناجيا لنا .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ بيان لمظهر آخر من مظاهر فضل الله ـ تعالى ـ على عبده موسى .

أى : ووهبنا لموسى من أجل رحمتنا له ، وعطفنا عليه ، أخاه هارون ليكون عونا له فى أداء رسالته كما قال ـ تعالى ـ حكاية عنه ﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي . هَرُونَ أَخِي .اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي . وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ .

وأيضا من الآيات القرآنية التى مدح الله ـ تعالى ـ فيها هذين النبيين الكريمين ، قوله ـ تعالى ـ فى سورة الصافات :

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾

وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾

والمعنى : لقد أنعمنا على موسى ـ وهارون ـ عليهما السلام بنعمة النبوة ، وبغيرها من النعم الأخرى .

والتى من بينها أننا نجيناهما وقومهما المؤمنين ، من استعباد فرعون إياهم ، ومن ظلمه لهم .

﴿ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾ أى : ونصرنا موسى وهارون ومن آمن بهما ، فكانوا بسبب هذا النصر الذى منحناهم إياه ، هم الغالبون لأعدائهم ، بعد أن كانوا تحت أسرهم وقهرهم .

﴿ وَآتَيْنَاهُمَا ﴾ بعد كل ذلك ﴿ الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴾ أى : الكتاب المبين الواضح وهو التوراة .

﴿ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ أى : وهديناهما وأرشدناهما ـ بفضلنا وإحساننا ـ إلى الطريق الواضح الذى لاعوج فيه .

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ . سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ أى : وأبقينا عليهما فى الأمم المتأخرة الثناء الجميل ، والذكر الحسن .

﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى : مثل هذا التكريم نجازى عبادنا المحسنين ﴿ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى الذين صدقوا فى إيمانهم ، وفى طاعتهم لنا .

(جـ) كذلك من الدروس الحكيمة ، والعظات البليغة ، التى يجب علينا أن نتعلمها من قصة موسى ـ عليه السلام ـ : أن الحق لن يعدم له أنصارا حتى ولو كثر عدد المبطلين .

وهذه السنة الإلهية فى البشر ، نراها واضحة فى قصة موسى ـ عليه السلام ـ فخلال الوعيد والتهديد من فرعون وملئه لموسى ـ عليه السلام ـ قيض الله ـ تعالى ـ لموسى رجلا مؤمنا من آل فرعون كان يخفى إيمانه ، هذا الرجل أخذ يدافع عن موسى دفاعا حكيما مؤثرا ، يحمل الترغيب تارة والترهيب أخرى ، والإرشاد تارة والتأنيب أخرى ، ويحكى القرآن ذلك بأسلوبه البليغ فيقول :

وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا

قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾

أى : وقال رجل مؤمن من آل فرعون وحاشيته ، وكان يكتم إيمانه عنهم ، حتى لايصيبه أذى منهم ، فعندما سمع فرعون يقول : ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ ﴾ قال لهم : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ أى : أتقتلون رجلا لأنه يقول ربى الله وحده ، وقد جاءكم بالحجج البينات ، وبالمعجزات الواضحة من عند ربكم ، كدليل على صدقه فيما يبلغه عنه .

فقوله : ﴿ أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ فى موضع المفعول لأجله ، أى : أتقتلونه من أجل قوله هذا ، وجملة ﴿ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ حالية من فاعل يقول وهو موسى ـ عليه السلام ـ .

والمقصود بهذا الاستفهام : الإنكار عليهم والتبكيت لهم ، حيث قصدوا قتل رجل كل ذنبه أنه عبد الله ـ تعالى ـ وحده وقد جاءهم بالمعجزات الواضحات الدالة على صحة فعله وقوله .

ثم يحكى القرآن الكريم أن ذلك الرجل المؤمن ، لم يكتف بالإنكار على قومه قصدهم

موسى بالقتل بل أخذ فى محاولة إقناعهم بالعدول عن هذا القصد بشتى الأساليب والحجج فقال :

﴿ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ .. ﴾ .

أى : أنه قال لهم : إن كان موسى ـ على سبيل الفرض ـ كاذبا فيما يقوله ويفعله فعليه وحده يقع ضرر كذبه ، وليس عليكم منه شىء ، وإن كان صادقا فيما يقوله ويفعله ، فلا أقل من أن يصيبكم بعض الذى يعدكم به من سوء عاقبة مخالفة ما أتاكم به من عند ربه .

فأنت ترى أن الرجل كان فى نهاية الحكمة والإنصاف وحسن المنطق ، فى مخاطبته لقومه ، حيث بين لهم أن الأمر لايخرج عن فرضين ، وكلاهما لايوجب قصد موسى ـ عليه السلام ـ بالقتل .

ثم أرشد الرجل المؤمن الحصيف قومه إلى سنة من سنن الله التى لاتتغير فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾

أى : أن سنة الله ـ تعالى ـ قد اقتضت أنه ـ سبحانه ـ لايهدى إلى الحق والصواب ، من كان مسرفا فى أموره ، متجاوزا الحدود التى شرعها الله ـ تعالى ـ ومن كان كذابا فى أخباره عن الله ـ تعالى ـ ولو كان موسى مسرفا أو كذابا ، لما أيده الله ـ تعالى ـ بالمعجزات الباهرة ، وبالحجج الساطعة الدالة على صدقه .

فالجملة الكريمة إرشاد لهم عن طريق خفى إلى صدق موسى فيما يبلغه عن ربه وتعريض بما عليه فرعون من ظلم وكذب .

ثم أخذ فى تذكريهم بنعم الله عليهم ، وفى تحذيرهم من نقمه فقال : ﴿ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ﴾ .

أى : وقال الرجل المؤمن لقومه ـ أيضا ـ : ياقوم ، أى : ياأهلى ويا عشيرتى أنتم اليوم لكم الملك ، حالة كونكم ظاهرين ، أى : غالبين ومنتصرين فى أرض مصر ، عالين فيها على بنى إسرائيل قوم موسى .

وإذا كان أمرنا كذلك ، فمن يستطيع أن ينصرنا من عذاب الله ، إن أرسله علينا ، بسبب عدم شكرنا له ، واعتدائنا على خلقه .

وإنما نسب إليهم مايسرهم من الملك والظهور فى الأرض دون أن يسلك نفسه معهم ، وسلك نفسه معهم فى موطن التحذير ، تطييبا لقلوبهم ، وإيذانا بأنه ناصح أمين لهم ، وأنه لايهمه سوى منفعتهم ومصلحتهم .

وهنا نجد القرآن الكريم يخبرنا بأن فرعون بعد أن استمع إلى نصيحة الرجل المؤمن ،

أخذته العزة بالإثم، وقال مايقوله كل طاغية معجب بنفسه: ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾.

أى: قال فرعون لقومه، فى رده على نصيحة الرجل المؤمن: ياقوم لا أشير عليكم ولا أخبركم إلا بما أراه صوابا وخيرا، وهو أن أقتل موسى - عليه السلام - وما أهديكم برأيى هذا إلا إلى طريق السداد والرشاد.

وغرض فرعون بهذا القول، التدليس والتمويه على قومه، وأنه مايريد إلا منفعتهم مع أن الدافع الحقيقى لقوله هذا، هو التخلص من موسى حتى يخلو له الجو فى تأليه نفسه على جهلة قومه، فإنهم كانوا كما قال - تعالى - فى شأنهم: ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾.

ولكن الرجل المؤمن لم يسكت أمام هذا التدليس والتمويه الذى نطق به فرعون، بل استرسل فى نصحه لقومه، وحكى القرآن عنه ذلك فقال: ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ.. ﴾.

أى قال لهم: يا قوم إنى أخاف عليكم إذا تعرضتم لموسى - عليه السلام - بالقتل أو بالتكذيب، أن ينزل بكم عذاب مثل العذاب الذى نزل على الأمم الماضية التى تحزبت على أنبيائها، وأعرضت عن دعوتهم، فكانت عاقبتها خسرا.

فالمراد بالأحزاب: تلك الأمم السابقة التى وقفت من أنبيائها موقف العداء والبغضاء، وكأن تلك الأمم من حزب، والأنبياء من حزب آخر.

والمراد باليوم هنا: الأحداث والوقائع والعقوبات التى حدثت فيه، فالكلام على حذف مضاف.

أى: أخاف عليكم مثل حادث يوم الأحزاب.

وقوله: ﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ.. ﴾ بدل أو عطف بيان من قوله: ﴿ مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ ﴾.

والدأب: العادة الدائمة المستمرة يقال: دأب فلان على كذا، إذا داوم عليه وجد فيه، ثم غلب استعماله فى الحال والشأن والعادة.

أى: أخاف عليكم أن يكون حالكم وشأنكم كحال قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم كقوم لوط، فهؤلاء الأقوام كذبوا أنبياءهم فدمرهم الله - تعالى - ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ

ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ أى : فما أنزله - سبحانه - بهم من عذاب إنما هو بسبب إصرارهم على شركهم ، وعلى الإعراض عن دعوة أنبيائهم ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

ثم يواصل الرجل المؤمن تذكير قومه بأهوال يوم القيامة فيقول : ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ .

أخاف عليكم يوم القيامة الذى يكثر فيه نداء أهل الجنة لأهل النار ، ونداء أهل النار لأهل الجنة ، ونداء الملائكة لأهل السعادة وأهل الشقاوة .

فلفظ «التناد» - بتخفيف الدال وحذف الياء - تفاعل من النداء ، يقال : تنادى القوم إذا نادى بعضهم بعضا .

وقوله : ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ..﴾ بدل من يوم التناد ، أى : أخاف عليكم من أهوال يوم القيامة ، يوم تنصرفون عن موقف الحساب والجزاء فتتلقاكم النار بلهيبها وسعيرها ، وتحاولون الهرب منها فلاتستطيعون ، لأنه لا عاصم لكم ولامانع فى هذا اليوم من عذاب الله - تعالى - وعقابه .

﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أى : ومن يضلله الله - تعالى - عن طريق الحق بسبب سوء استعداده ، واستحبابه العمى على الهدى ، فماله من هاد يهديه إلى الصراط المستقيم .

وهكذا نجد الرجل المؤمن بعد أن خوف قومه من العذاب الدنيوى ، أتبع ذلك بتخريفهم من العذاب الأخروى .

ثم ذكرهم بعد ذلك بما كان من أسلافهم مع أحد أنبيائهم فقال :

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ .

والذى عليه المحققون أن المراد بيوسف هنا : يوسف بن يعقوب - عليهما السلام - والمراد بمجيئه إليهم : مجيؤه إلى آبائهم ، إذ بين يوسف وموسى - عليهما السلام - أكثر من أربعة قرون ، فالتعبير فى الآية الكريمة من باب نسبة أحوال الآباء إلى الأبناء لسيرهم على منوالهم وعلى طريقتهم فى الإعراض عن الحق .

أى : ولقد جاء يوسف - عليه السلام - إلى آبائكم من قبل مجىء موسى إليكم ،

وكان مجيئه إلى آبائكم مصحوبا بالمعجزات والبينات ، والآيات الواضحات الدالة على صدقه .

﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ ﴾ أى : فمازال آباؤكم فى شك مماجاءهم به من البينات والهدى ، كشأنكم أنتم مع نبيكم موسى - عليه السلام - .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ ﴾ أى : مات يوسف - عليه السلام - .

﴿ قُلْتُمْ ﴾ أى : قال آباؤكم الذين أنتم من نسلهم ﴿ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً ﴾ فهم قد كذبوا رسالته فى حياته ، وكفروا بمن بعده من الرسل بعد موته ، لأنهم نفوا أن يكون هناك رسول من بعده .

فأنت ترى أن الرجل المؤمن يحذر قومه من أن يسلكوا مسلك آبائهم ، فى تكذيب رسل الله ، وفى الإعراض عن دعوتهم .

وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾ أى : مثل ذاك الإضلال الفظيع يضل الله - تعالى - من هو مسرف فى ارتكاب الفسوق والعصيان ، ومن هو مرتاب فى دينه ، شاك فى صدق رسوله ، لاستيلاء الشيطان والهوى على قلبه .

ثم بين لهم أن غضب الله - تعالى - شديد ، على الذين يجادلون فى آيته الدالة على وحدانيته ، وعلى كمال قدرته ، وعلى صدق أنبيائه ، بغير حجة أو دليل فقال :

﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴾ .

أى : الذين يجادلون فى آيات الله الدالة على وحدانيته ، وعلى صدق أنبيائه بغير دليل و برهان أتاهم من الله - تعالى - عن طريق رسله ، هؤلاء الذين يفعلون ذلك ، كبُر وعظم بغضا جدالهم عند الله - تعالى - وعند الذين آمنوا .

وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ أى : مثل ذلك الطبع العجيب يطبع الله - تعالى - ويختم بالكفر والعمى على قلب كل إنسان متكبر عن الاستماع للحق ، متطاول ومتجبر على خلق الله - تعالى - بالعدوان والإيذاء .

ومع هذا النصح الزاخر بالحكم الحكيمة ، والتوجيهات السليمة ، والإشادات القويمة من الرجل المؤمن لقومه ، ظل فرعون سادرا فى غيه ، مصرا على كفره وضلاله ، إلا أن الرجل المؤمن لم ييأس من توجيه النصح بل أخذ يذكر وينذر ويبشر ، ويحكى القرآن الكريم كل ذلك فيقول :

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ * وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ۖ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾

والمراد بالصرح فى قوله - تعالى - : ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا﴾ البناء العالى المكشوف للناس ، الذى يرى الناظر من فوقه مايريد أن يراه ، مأخوذ من التصريح بمعنى الكشف والإيضاح .

والأسباب : جمع سبب ، وهو كل مايتوصل به إلى الشيء ، والمراد بها هنا : أبواب السماء وطرقها التى يصل منها إلى مابداخلها .

أى : وقال فرعون لوزيره هامان : ياهامان ابن لى بناء ظاهرا عاليا مكشوفا لايخفى على الناظر وإن كان بعيدا عنه ، لعلى عن طريق الصعود على هذا البناء الشاهق أبلغ الأبواب الخاصة بالسموات ، فأدخل منها فأنظر إلى إله موسى .

والمراد بالظن فى قوله : ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾ اليقين لقوله ـ تعالى ـ فى آية أخرى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾(١)

فقوله ـ كما حكى القرآن عنه ـ : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ قرينة قوية على أن المراد بالظن فى الآيتين : اليقين والجزم ، بسبب غروره وطغيانه .

أى : وإنى لأعتقد وأجزم بأن موسى كاذبا فى دعواه أن هناك إلها غيرى لكم وفى دعواه أنه رسول إلينا .

ولاشك أن قول فرعون هذا بجانب دلالته على أنه بلغ الغاية فى الطغيان والفجور والاستخفاف بالعقول ، يدل ـ أيضا ـ على شدة خداعه ، إذ هو يريد أن يتوصل من وراء هذا القول إلى أنه ليس هناك إله سواه ولو كان هناك إله سواه لشاهده هو وغيره من الناس .

قال الإمام ابن كثير : وذلك لأن فرعون بنى هذا الصرح ، الذى لم يرد فى الدنيا بناء أعلى منه ، وإنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما قاله ، من أن هناك إلها غير فرعون .(٢)

وقال الجمل فى حاشيته ما ملخصه : وقول فرعون هذا المقصود منه التلبيس والتمويه والتخليط على قومه توصلا لبقائهم على الكفر ، وإلا فهو يعرف حقيقة الإله ، وأنه ليس فى جهة ، ولكنه أراد التلبيس ، فكأنه يقول لهم : لو كان إله موسى موجودا لكان له محل ، ومحله إما الأرض وإما السماء ، ولم نره فى الأرض ، فيبقى أن يكون فى السماء ، والسماء لايتوصل إليها إلا بسلم .(٣)

---

(١) سورة القصص آية ٣٨ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ٦ ص٢٤٨ .

(٣) حاشية الجمل على الجلالين جـ٤ ص١٦ .

ثم بين ـ سبحانه ـ أن مكر فرعون هذا مصيره إلى الخسران فقال : ﴿ وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ ﴾ .

أى : ومثل ذلك التزيين القبيح ، زين لفرعون سوء عمله ، فرآه حسنا ، لفجوره وطغيانه ، وحُجب عن سبيل الهدى والرشاد ، لأنه استحب العمى على الهدى ، وماكيد فرعون ومكره وتلبيسه واحتياله فى إبطال الحق ، إلا فى هلاك وخسران وانقطاع .

ثم حكى القرآن الكريم أن الرجل المؤمن قد تابع حديثه ونصائحه لقومه ، بعد أن استمع إلى ما قاله فرعون من باطل ، وغرور فقال : ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ .. ﴾

أى : فيما أنصحكم به ، وأرشدكم إليه

﴿ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ أى : اتبعونى فيما نصحتكم به ، فإن فى اتباعكم لى هدايتكم إلى الطريق الذى كله صلاح وسعادة وسداد ، أما اتباعكم لفرعون فيؤدى بكم إلى طريق الغى والضلال .

﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ .. ﴾ أى : هذه الدنيا متاع زائل مهما طالت أيامه ، ﴿ وَإِنَّ الآخِرَةَ ﴾ وحدها ﴿ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾ أى : هى الدار التى فيها البقاء والدوام والخلود .

﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً ﴾ فى هذه الدنيا ﴿ فَلا يُجْزَىٰ ﴾ فى الآخرة ﴿ إِلاَّ مِثْلَهَا ﴾ كرما من الله ـ تعالى ـ وعدلا .

﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ بالله ـ تعالى ـ إيمانا حقا .

﴿ فَأُوْلَئِكَ ﴾ المؤمنون الصادقون ﴿ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أى : يرزقون فيها رزقاواسعا هنيئا ، لايعلم قدره إلا الله ـ تعالى ـ ولايحاسبهم عليه محاسب ، فقد تفضل ـ سبحانه ـ على عباده ، أن يضاعف لهم الحسنات دون السيئات .

ثم استنكر موقف قومه منه فقال : ﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ ﴾ من العذاب الدنيوى والأخروى ، بأن آمركم بالإيمان والعمل الصالح ، وأنهاكم عن قتل رجل يقول ربى الله ، وقد جاءكم البينات من ربكم ، وهو موسى ـ عليه السلام ـ .

وأنتم ﴿ تَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴾ أى : تدعوننى لما يوصل إلى النار وهو عبادة غير الله ـ تعالى ـ والموافقة على قتل الصالحين أو إيذائهم .

وقوله : ﴿ تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ . . ﴾ بدل من قوله : ﴿ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴾ وتفسير وبيان له .

أى : أنا أدعوكم إلى النجاة من النار ، وأنتم تدعوننى إلى الإشراك بالله ـ تعالى ـ وإلى الكفر به ، مع أنى أعلم علم اليقين أنه ـ سبحانه ـ لاشريك له ، لا فى ذاته ولا فى صفاته .

وقوله : ﴿ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴾ بيان للفرق الشاسع بين دعوته لهم ودعوتهم له .

فهم يدعونه إلى الشرك والكفر ، وإلى عبادة آلهة قد قام الدليل القاطع على بطلانها ، وهو يدعوهم إلى عبادة الله ـ تعالى ـ وحده ، الغالب لكل ما سواه الواسع المغفرة لمن تاب إليه بعد أن عصاه .

ثم يؤكد لهم بصورة لاتقبل الشك أو التردد أن مايطلبونه منه هو الباطل وأن مايطلبه منهم هو الحق فيقول :

﴿ لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ . . ﴾

أى : حق وثبت لدى بما لايقبل الشك ، أن آلهتكم التى تدعوننى لعبادتها آلهة باطلة ، لاوزن لها ولاقيمة لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

﴿ وَأَنَّ مَرَدَّنَا ﴾ جميعا ﴿ إِلَى اللَّهِ ﴾ ـ تعالى ـ وحده ﴿ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ أى : المستكثرين من المعاصى فى الدنيا ﴿ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ فى الآخرة .

ثم نصح نصائحه الحكيمة الغالية بقوله : فستذكرون ياقوم ما أقول لكم من حق وصدق .

﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴾ ـ تعالى ـ وحده لكى يعصمنى من كل سوء .

﴿ إِنَّ اللَّهَ ﴾ ـ تعالى ـ ﴿ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ لايخفى عليه شىء من أقوالهم أو أفعالهم ، وسيجازى يوم القيامة كل نفس بما كسبت .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا . . ﴾ بيان للعاقبة الطيبة التى أكرمه الله ـ سبحانه ـ بها بعد صدوعه بكلمة الحق أمام فرعون وجنده .

أى : فكانت نتيجة إيمان هذا الرجل ، وجهره بكلمة الحق ، ونصحه لقومه ، أن وقاه الله ـ تعالى ـ ما أراده الظالمون به من أذى وعدوان ومن مكر سيىء . .

﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ ﴾ أى : ونزل وأحاط بفرعون وقومه ﴿ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ بأن أغرقهم الله ـ تعالى ـ فى اليم ، وجعلهم عبرة لمن يعتبر .

ثم بين ـ سبحانه ـ سوء مصيرهم بعد موتهم ، وعند قيام الساعة ، فقال : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾

والغدو : أول النهار ، والعشى : آخره ، وجملة : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ بدل من قوله ـ تعالى ـ ﴿ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ بعرض أرواح فرعون وملئه على النار بعد موتهم ، وهم فى قبورهم فى الصباح والمساء ، ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ﴾ يقال لملائكة العذاب : ﴿ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ وهو عذاب جهنم وبئس المصير مصيرهم .

قال القرطبى : والجمهور على أن هذا العرض فى البرزخ واحتج بعض أهل العلم فى تثبيت عذاب القبر بقوله ـ تعالى ـ : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ مادامت الدنيا . .

قال مجاهد وغيره : هذه الآية تدل على عذاب القبر فى الدنيا ألا تراه يقول ـ سبحانه ـ عن عذاب الآخرة : ﴿ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ .

وفى الحديث عن ابن مسعود : إن أرواح آل فرعون ومن كان مثلهم من الكفار ، تعرض على النار بالغداة والعشى ، فيقال : هذه داركم .[1]

هذا ، والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة ، يرى أن القرآن قد ساق على لسان مؤمن آل فرعون ، أسمى الأساليب وأحكمها فى الدعوة إلى الحق ، فقد بدأ نصحه بنهى قومه عن قتل موسى ـ عليه السلام ـ ثم ذكرهم بنعم الله عليهم ، وبسوء عاقبة الظالمين ، وبأن نعيم الدنيا زائل ، أما نعيم الآخرة فباق ، وبأن مايدعوهم إليه هو الحق ، وبأن مايدعونه إليه هو الباطل .

ثم ختم تلك النصائح الغالية بتفويض أمره إلى الله فقال : ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ فكانت نتيجة هذا التفويض ، أن وقاه الله ـ تعالى ـ من سوء مكر أعدائه ، ونجاه من شرورهم ، وأن جعل مكرهم السيىء يحيق بهم .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ١٥ ص٣١٨ .

(د) كذلك من الدروس النافعة التى نأخذها من قصة موسى ـ عليه السلام : أن الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب ، ضحى الإنسان فى سبيله بكل شىء ، ولقد ضرب سحرة فرعون أروع الأمثال فى صدق الإيمان ، وفى سلامة اليقين ، فإنهم بعد أن اعتقدوا أن ما جاء به موسى ـ عليه السلام ـ أمامهم ليس سحرا ، وإنما هو معجزة أعطاها الله ـ تعالى ـ إياهم ، ورأوا بأعينهم عصاه وهى تبتلع ما يأفكون .

بعد أن شاهدوا كل ذلك ، ما كان منهم إلا أن جاهروا بإيمانهم برب هارون وموسى ، وإلا أن خروا ساجدين لخالقهم ـ عز وجل ـ ولم يلتفتوا إلى تهديد فرعون أو وعيده ، بل قالوا له بكل شجاعة وإخلاص : ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ .

(هـ) ومن الدروس الحكيمة التى نتعلمها من قصة موسى ـ عليه السلام ـ : أن العقلاء الأخيار من الناس ، قد يختلفون فى موقفهم من الأحداث التى تواجههم ، وقد يتصرف كل واحد منهم التصرف الذى يراه متناسبا مع هذه الأحداث حسب اجتهاده ، الذى قد يخالف اجتهاد غيره ، ولكن هذا الغير سرعان مايعود إلى رأى صاحبه متى اقتنع به .

وهذا ما نراه واضحا فى موقف موسى من أخيه هارون ـ عليه السلام ـ فإن موسى عندما بلغه أن قومه من بنى إسرائيل قد عبدوا العجل فى غيبته ، رجع إليهم غضبان أسفا ، وقال لأخيه هارون بغضب : ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا . أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ .

أى : ما الذى منعك يا هارون من صد هؤلاء الجهلاء عما تردّوا فيه من كفروإشراك بالله ـ تعالى ـ وكيف خالفت أمرى فى ذلك؟

وهنا يرد عليه أخوه هارون بكل أناة وحلم فيقول له يا أخى يا موسى : ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ .

وهنا يقتنع موسي ـ عليه السلام ـ بأن أخاه على حق ، فيقول ـ كما حكى القرآن عنه ـ : ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ .

وهكذا العقلاء الأخيار ، يقتنعون بوجهة نظر من يخالفهم ، عندما يرون أن هذه المخالفة كان لها مايبررها .

(و) كذلك من أهم الدروس التى نأخذها من قصة موسى ـ عليه السلام ـ : أن سنة

الله ـ تعالى ـ قد اقتضت أن يجعل نصره وثوابه فى النهاية للأخيار وأن يجعل خذلانه وعقابه للأشرار .

لقد سلك موسى ـ عليه السلام ـ فى دعوته فرعون إلى وحدانية الله ـ تعالى أحكم الوسائل ، وأبلغ الأساليب ، ولكن فرعون طغى وبغى وأصر على كفره وظلمه فماذا كانت النتيجة؟ كانت النتيجة أن نجى الله ـ تعالى ـ موسى ومن معه من المؤمنين وأن أغرق فرعون وجنده الجاحدين .

وقد قرر القرآن هذه الحقيقة فى آيات متعددة ، منها قوله ـ سبحانه ـ فى سورة «هود» :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾

والمعنى : ولقد أرسلنا نبينا موسى ـ عليه السلام ـ بمعجزاتنا الدالة على صدقه ، وبحجته القوية الواضحة ، الشاهدة على أنه رسول من عندنا ، إلى فرعون وملئه الذين هم خاصته ، وسادات قومه وكبراؤهم .

وخصهم بالذكر مع فرعون ، لأنهم هم الذين كانوا ينفذون أوامره ، ويعاونونه على فساده والضمير فى قوله ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ يعود إلى الملأ .

أى : فاتبعوا أمره فى كل ما قرره من كفر ، وفى كل ما أشار به من فساد .

وفى هذه الجملة الكريمة ـ كما يقول الزمخشرى ـ تجهيل لهم ، حيث شايعوه على أمره ، وهو ضلال مبين لايخفى على من فيه أدنى مسكة من العقل ، وذلك أنه ادعى الألوهية ، وهو بشر مثلهم ، وجاهر بالعسف والظلم والشر الذى لايأتى إلا من شيطان مارد ، فاتبعوه وسلموا له دعواه ، وتتابعوا على طاعته .

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ ولم يقل فاتبعوا أمره ، للتشهير به ، والإعلان عن ذمه الذى صرح به فى قوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ .

أى : وما شأن فرعون وأمره بذى رشد وهدى ، بل هو محض الغى والضلال ، فكان من الواجب على ملئه أن ينبذوه ويهملوه ، بدل أن يطيعوه ويتبعوه .

ثم بين ـ سبحانه ـ سوء مصيره ومصير أتباعه فقال : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾ .

أى : يتقدم فرعون قومه يوم القيامة إلى جهنم ، كما كان يتقدمهم فى الكفر فى الدنيا ، فأوردهم النار ، أى : فدخلها وأدخلهم معه فيها .

وعبر بالماضى مع أن ذلك سيكون يوم القيامة لتحقيق الوقوع وتأكده ، وقد صرح القرآن بأنهم سيدخلون النار بمجرد موتهم فقال ـ تعالى ـ : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ (1)

وقوله وبئس الورد المورود ، أى : وبئس الورد الذى يردونه النار ، لأن الورد ـ الذى هو النصيب المقدر للإنسان من الماء ـ إنما يذهب إليه قاصده لتسكين عطشه ، وإرواء ظمئه ، وهؤلاء إنما يذهبون إلى النار التى هى الضد من ذلك .

ثم صرح ـ سبحانه ـ بلعنهم فى الدارين فقال :

﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ . . ﴾

أى : إن اللعنة والفضيحة لحقت بهم واتبعتهم فى الدنيا وفى الأخرى ، كما قال ـ تعالى ـ فى آية أخرى : ﴿ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾(2) وجملة : ﴿ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾ .

أى : وبئس العطاء المعطى لهم تلك اللعنة المضاعفة التى لابستهم فى الدنياوالآخرة ، وسميت اللعنة رفدا على سبيل التهكم بهم ، كما فى قول القائل : تحية بينهم ضرب وجيع ، فكأنه ـ سبحانه ـ يقول : هذه اللعنة هى العطاء المعطى من فرعون لأتباعه الذين كانوا من خلفه كقطيع الأغنام الذى يسير خلف قائده بدون تفكر أو تدبر .

ومنها قوله ـ تعالى ـ فى سورة «النازعات» :

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ

---

(1) سورة غافر الآية ٤٥ .

(2) سورة القصص الآية ٤٢ .

﴿الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾﴾

والمعنى : هل وصل إلى علمك - أيها الرسول الكريم - خبر موسى - عليه السلام - مع فرعون؟ إن كان لم يصل إليك فهاك جانبا من خبره نقصه عليك ، فتنبه له ، لتزداد ثباتا على ثباتك ، وثقة فى نصر الله - تعالى - لك على ثقتك .

وقوله - سبحانه - : ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ أى : هل بلغك - أيها الرسول الكريم - خبر موسى ، وقت أن ناديناه وهو بالوادى المقدس طوى ، الذى هو بجانب الطور الأيمن ، بالنسبة للقادم من أرض مدين التى هى فى شمال الحجاز .

وقوله - سبحانه - : ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ . .﴾ مقول لقول محذوف ، أى : ناديناه وقلنا له : ﴿اذْهَبْ﴾ يا موسى إلى فرعون إنه طغى ، أى : إنه تجاوز كل حد فى الكفر والغرور والعصيان .

ثم بين - سبحانه - ما قاله لموسى على سبيل الإرشاد إلى أحكم وأفضل وسائل الدعوة إلى الحق فقال : ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ . وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ .

أى : اذهب يا موسى إلى فرعون فقل له على سبيل النصح الحكيم ، والإرشاد البليغ : هل لك يا فرعون رغبة فى أن أدلك على مايزكيك ويطهرك من الرجس والفسوق والعصيان .

وهل لك رغبة - أيضا - فى أن أرشدك إلى الطريق الذى يوصلك إلى رضى ربك فيترتب على وصولك إلى الطريق السوى ، الخشية منه - تعالى - والمعرفة التامة بجلاله وسلطانه .

والحق أن هاتين الآيتين فيهما أسمى ألوان الإرشاد إلى الدعوة إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة .

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ . فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ للإفصاح والتفريع على كلام محذوف يفهم من المقام ، والتقدير : فامتثل موسى - عليه السلام - أمر ربه ، فذهب إلى فرعون ، فدعاه إلى الحق ، فكذبه فرعون ، فما كان من موسى إلا أن أراه الآية الكبرى التى تدل على صدقه ، وهى أن ألقى أمامه عصاه فإذا هى حية تسعى ، وأن نزع يده من جيبه فإذا هى بيضاء من غير سوء ، ولكن فرعون لم يستجب لدعوة موسى ، بعد

أن أراه الآية الكبرى الدالة على صدقه ، بل كذب ما رآه تكذيبا شديدا ، وعصى أمر ربه عصيانا كبيرا .

﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴾ أى : ثم أضاف إلى تكذيبه وعصيانه ، إعراضه ، وتوليه عن الإيمان والطاعة ، وسعيه سعيا حثيثا فى إبطال أمر موسى ، وإصراره على تكذيب معجزته .

ثم بين ـ سبحانه ـ ما فعله بعد ذلك فقال : ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ . فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾ .

أى : فجمع فرعون الناس عن طريق جنده ، وناداهم بأعلى صوته ، قائلا لهم : أنا ربكم الأعلى الذى لارب أعلى منه ، وليس الأمر كما يقول موسى من أن لكم إلها سواى .

والتعبير بالفاء ﴿ فَنَادَىٰ ﴾ فى قوله : للإشعار بأنه بمجرد أن جمعهم دعاهم إلى الاعتراف بأنه هو رب الأرباب .

وجاء نداؤه بالصيغة الدالة على الحصر ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾ للرد على ما قاله موسى له ، من وجوب إخلاص العبادة لله ـ تعالى ـ وحده .

ثم بين ـ سبحانه ـ ما ترتب على هذا الفجور الذى تلبس به فرعون ، وعلى هذا الطغيان الذى تجاوز معه كل حد ، فقال : ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴾ .

أى : إن فرعون عندما تمادى فى تكذيبه وعصيانه وطغيانه ، كانت نتيجة ذلك أن أخذه الله ـ تعالى ـ أخذ عزيز مقتدر ، بأن أنزل به فى الآخرة أشد أنواع الإحراق ، وأنزل به فى الدنيا أفظع ألوان الإغراق .

وقدم ـ سبحانه ـ عذاب الآخرة على الأولى لأنه أشد وأبقى .

والإشارة فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ تعود إلى حديث موسى الذى دار بينه وبين فرعون ، وما ترتب عليه من نجاة موسى ومن إهلاك لفرعون .

أى : إن فى ذلك الذى ذكرناه عما دار بين موسى وفرعون ، لعبرة وعظة ، لمن يخشى الله ـ تعالى ـ ويقف عند حدوده ، لا لغيره ممن لايتوبون ولايتذكرون ولاتخالط أنفسهم خشية الله ـ تعالى ـ .

وبعد : فهذا جانب من قصة موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ كما وردت فى القران الكريم ، وهذه بعض الدروس النافعة والعظات البليغة ، التى نأخذها من هذه القصة التى فصل القرآن الكريم الحديث عنها تفصيلا فيه العبرة ﴿ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ .

فهرس الكتاب

الموضـوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـوع	الصفحة



طبع بمطابع الشركة بمدينة السادس من أكتوبر